شرح نهج البلاغة

ابن أبي الحديد

المجلد الثامن

دار الجيل

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل ابراهيم

الجزء الخامس عشر

دار الجيل

بيروت

طبعة ثانية

١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

(١ وبه ثقتى الحمد لله الواحد العدل ١)

القول فى أسماء الذين تعاقدوا من قريش على قتل رسول الله صلى الله عليه وآله وما أصابوه به فى المعركة يوم الحرب

قال الواقدىّ[٢] : تعاقد من قريش على قتل رسول الله صلّى الله عليه وسلم عبدُالله بن شهاب الزُّهرىّ وابنُ قَمِيئة[٣] أحدُ بنى الحارث بن فِهر ، وعُتْبة بن أبى وقّاص الزُّهرىّ، وأُبَىّ بن خلَف الجُمَحِىّ. فلمّا أتى خالدُ بن الوليد من وراء المسلمين ، واختلطت الصّفوف، ووضع المشركون السيفَ فى المسلمين ، رمى عُتْبة بن أبى وقّاص رسولَ الله صلّى الله عليه وسلم بأربعة أحجار، فكسر رباعيتَه، وشجّه فى وجهه حتى غاب حَلَق المِغفر فى وجنتيه[٤]، وأدمى شفتيْه[٥].

قال الواقدىّ : وقد رُوِىَ أنّ عتبة أشْظَى[٦] باطنَ رباعيَته السّفلى . قال : والثَّبَت عندنا أنّ الذى رمى وجنَتىْ رسول الله صلى الله عليه وآله ابنُ قَمِيئة ، والذى رمى شفته وأصاب رَباعيَته عُتبة بن أبى وقّاص .

قال الواقدىّ : أقبَل ابنُ قَمِيئة يومئذ وهو يقول : دُلّونى على محمد ، فوالّذى يُحلَف به؛ لئن رأيتُه لأقتلنّه، فوصل إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلم فعَلاه بالسّيف، ورماه عتبة

(١ـ١) ا : « وبك اعتمادى يا كريم » .

(٢) انظر أخبار غزوة أحد فى الجزء الرابع عشر من ص ٢١٣ إلى ص ٢٨١ من هذا الكتاب .

(٣) قمِيئة ؛ كسفينة، وهو عمرو بن قميئة، ذكره صاحب تاج العروس، وقال : « شاعر؛ وهو الذى كسر رباعية النبى صلى الله عليه وسلم يوم أحد » . (٤) كذا فى ا ، وهو الوجه والذى فى ب « وجنته » ؛ تحريف .

(٥) مغازى الواقدى ص ٢٤٦ وما بعدها .

(٦) أشظى رباعيته : كسرها .

ابنُ أبي وقّاص في الحال التي جَلّله ابنُ قَمِيئة فيها السيفَ ، وكان عليــه السلام فارسا ، وهو لابسُ دِرْعين مُثقَل بهما ، فوقع رسول الله صلى الله عليه وآله عن الفرَس في حُفرة كانت أمامه .

قال الواقديّ : أصيبَ ركبتاه ، جُحِشتا[(١)] لمّا وَقَع في تلك الحفرة ، وكانت هنالك حُفَر حفَرها أبو عامر الفاسق كالخنادق للمسلمين ، وكان رسولُ الله صلى الله عليــه وسلم واقفا على بعضها وهو لا يَشعُر[(٢)] ، فجُحِشت رُكبتاه ، ولم يصنع سيفُ ابنُ قَميئة شيئاً إلّا وهز[(٣)] الضَّربة بثِقل السّيف ، فقد وقع رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ، ثمّ انتَهض وطلحةُ يَحمِله من ورائه ، وعليّ عليه السلام آخِذٌ بيديه حتى استوى قائما .

قال الواقديّ : فحدّثني الضّحّاك بنُ عثمانَ عن حمزةَ بنِ سعيد،عن أبي بشر المازنيّ ، قال : حضرتُ يومَ أُحُد وأنا غلام، فرأيت ابنَ قَميئة عَلاَ رسولَ الله صلى الله عليه وآله بالسّيف ، ورأيتُ رسولَ الله صلى الله عليــه وسلم وَقَع على ركبتيه في حفرةٍ أمامَه حتّى توارى في الحفرة ، فجعلت أصيح وأنا غلام حتى رأيتُ النّاس ثابُوا إليه .

قال : فأنظُر إلى طلحةَ بن عُبيد الله آخِذا بحضْنِه حتّى قام .

قال الواقديّ : ويقال : إنّ الذى شَجَّ رسولَ الله صلى الله عليــه وآله في جبهته ابنُ شِهاب ، والّذى أَشظَى رَباعيَتَهوأدمَى شفَتَيه عتبةُ بنُ أبي وَقّاص،والّذِى أدمَى وَجْنَتَيْه حتى غاب الحلَق فيهما ابنُ قميئة ، وإنه سال الدمُ من الشّجّة الّتى في جَبهته حتى أخضلَ لحيتَه . وكان سالمٌ مولى أبي حذيفة يَغسل الدمَ عن وجهه ورسولُ الله صلّى الله عليه ، يقول : كيف يُفلح قومٌ فعلوا هذا بنبيِّهم ، وهو يدعوهم إلى الله تعالى ! فأنزَل الله تعالى قوله : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ . . . ﴾[(٤)] الآية .

(١) الجحش : الخدش ، أو فوقه .
(٢) الواقدى : « ولا يشعر به » .
(٣) كذا في الواقدى . ويقال : وهزه ، أى ضربه بثقل يده ، وفي الأصول : « وهن » تحريف .
(٤) سورة آل عمران ١٢٨ .

قال الواقدىّ : وروَى سعدُ بنُ أبى وَقّاص قال [١] : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يومئذ : اشتَدّ غضب اللهِ على قومٍ دَمّوْا فَا رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، اشتدّ غضبُ الله على قوم دَمّوا وجهَ رسول الله ، اشتدّ غضبُ الله على رجل قَتَلَه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم . قال سعد : فلقد شفانى من عتبة أخى دعاء رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، ولقد حَرَصتُ عَلَى قتلِه حِرْصا ماحَرَصتُ على شيء قطّ ، وإن كان ماعلمتُ لعاقًّا بالوالد ، سيّئ الخُلق ، ولقد تخرّقتُ صفوفَ المشركين مرّتين أطلبُ أخى لأقتُلَه ، ولكنّه راغَ منّى رَوَغانَ الثعلب ، فلمّا كان الثالثة قال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله : ياعبدَ الله ماتريد ؟ أتريد أن تقتُل نفسَك ؟ فكففتُ . فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : اللهمّ لاتَحولنّ الحَوْلَ عَلَى أحدٍ منهم . قال سعد : فوالله ماحالَ الحَوْلُ عَلَى أحدٍ ممّن رَماه أو جرحه . مات عتبةُ ، وأما ابنُ قَميئة فاختُلِف فيه ، : [فقائل يقول : قتل فى المَعرَك و] [٢] قائل [يقول] [٢] : إنه رمى بسَهْم فى ذلك اليوم فأصاب مصعبَ بنَ عُمَير فقتله ، فقال : خُذْها وأنا ابنُ قَميئة ؛ فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : أقمأه الله ، فعَمَد إلى شاة يحتلبها فتنطحه بقَرْنها وهو معتلِقها [٣] فقتلتْه . فوُجِد ميّتا بين الجبال لدعوةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان عدوّ الله رجع إلى أصحابه فأخبرَهم أنه قتَل محمدا . قال : وابن قَمِيئة رجل من بنى الأدْرَم من بنى فِهرْ .

وزاد البلاذُرِىّ فى الجماعة التى تعاهدتْ وتعاقدتْ عَلَى قتل رسولِ الله صلى الله عليه وآله يوم أُحُد عبدَ الله بنَ حُمَيد بنِ زهير بن الحارث بن أسد بن عبد العُزّى بن قصىّ [٤] .

قال : وابن شهاب الّذى شَجَّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله فى جَبْهته هو عبدُ الله

(١) الواقدى : « سمعته يقول : اشتد . . . » .
(٢) من الواقدى . والمعرك والمعركة : موضع القتال .
(٣) كذا فى ا وهو الصواب ، والذى فى ب « معتقلها » ، تصحيف .
(٤) أنساب الأشراف ١ : ٣١٩ .

ابن شهاب الزُّهْرى ، جدُّ الفقيه المحدّث محمد بن مسلم بنِ عبيدالله بنِ عبدالله بن شهاب[(١)]،
وكان ابنُ قَمِيئَةَ أدْرَم ناقصَ الذَّقَن ، ولم يذكر اسمه ولا ذكره الواقدىّ أيضاً .

***

قلتُ : سألت النقيبَ أبا جعفر عن اسمه فقال : عمرو ، فقلتُ له : أهو عمرو بن قَمِيئة الشاعر ؟ قال : لا ، هو غيرُه . فقلت له : مابالُ بنى زُهرة فى هذا اليوم فعلوا الأفاعيل برسول الله صلّى الله عليه وسلم وهم أخوالُه ، ابنُ شهاب وعتبةُ بنُ أبى وقّاص ! فقال : يابنَ أخى ، حرّكهم أبو سفيانَ وهاجَهُم على الشرّ لأنّهم رجعوا يومَ بدر من الطريق إلى مكّة فلم يَشهدُوها ، فاعترض عِيرَهم ومنَعهم عنها ، وأغرَى بها سفهاءَ أهلِ مكة، فعيَّروهم برُجوعهم ، ونسبوهم إلى الجُبْن وإلى الإدْهان فى أمرِ محمد صلّى الله عليه وسلم، واتفق أنّه كان فيهم مثل هذين الرجلين ، فوقع منهما يومَ أحُد ماوقع .

***

قال البَلاذرىّ : مات عتبة يوم أُحُد من وجعٍ أليمٍ أصابه ، فتَعذَّب به ، وأصيب ابنُ قَمِيئة فى المعركة ، وقيلَ : نطحتْه عَنْز فمات .

قال : ولم يذكر الواقدىّ ابنَ شهاب كيف مات ، وأحسب ذلك بالوَهْم منه . قال : وحدّثنى بعضُ قريش أنّ أفعى نهشتْ عبدَ الله بنَ شهاب فى طريقه إلى مكة ، فمات . قال : وسألتُ بعضَ بنى زُهرة عن خبره ، فأنكروا أن يكون رسولُ الله صلّى الله عليه وآله دعا عليه ، أو يكون شَجَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله . وقالوا : إن الذى شجّه فى وجهه عبد الله بنَ حُمَيد الأسَدىّ[(٢)] .

فأمّا عبدُ الله بنُ حُميد الفِهرىّ ، فإنّ الواقدىّ وإن لم يذكره فى الجماعة الذين

---

(١) أنساب الأشراف ١ : ٣١٩ .

(٢) أنساب الأشراف ١ : ٣٢٤ .

تعاقدوا عَلَى قتلِ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم إلّا أنّه قد ذَكَرَ كيفيّة قتلِه .

قال الواقدىّ : ويُقبِل عبدُ الله بن حُميد بن زهير حين رأى رسول الله صلّى الله عليه وآله على تلك الحال ـ يعنى سقوطَه من ضربةِ ابن قميئة ـ يركض فرسه مقنّعا فى الحديد يقول : أنا ابن زهير ، دُلُّونى على محمد ، فوالله لأقتلنّه أو لأموتَنّ دونه ! فتعرّض[1] له أبو دُجانة فقال : هلُمّ إلى مَن يَقِى نفسَ محمد صلّى الله عليه وآله بنفسه ، فضرب فرسه فعرْقَبها ، فاكتَسعتْ ، ثم علاه بالسّيف وهو يقول : خذها وأنا ابن خَرَشة ، حتى قتلَه ، ورسولُ الله صلّى الله عليه وآله ينظُر إليه ويقول : اللهمّ ارضَ عن ابن خَرَشة كما أنا عنه راضٍ . هذه رواية الواقدىّ ، وبها قال البَلاذُرىّ : إنّ عبد الله بنَ حُميد قتَلَه أبو دُجانة[2] .

فأما محمد بنُ إسحاق فقال : إنّ الذى قتَل عبدَ الله بنَ حُميد علىُّ بنُ أبى طالب عليه السلام[3] . وبه قالت الشّيعة .

وروَى الواقدىّ والبَلاذُرىّ أنّ قوما قالوا : إنّ عبدَ الله بنَ حُميد هذا قتِل يومَ بدر . فالأوّل الصحيح أنه قُتِل يومَ أُحُد . وقد روَى كثيرٌ من المحدّثين أن رسولَ الله صلى الله عليه وآله قال لعلىٍّ عليه السلامُ حين سَقَط ثم أُقِيم : اكفِنى هؤلاء ـ لجماعَة قصدتْ نحوَه ـ فحَمَل عليهم فهزَمَهم ، وقَتل منهم عبدَ الله بن حميد من بنى أسَد بن عبد العُزّى ، ثم حملتْ عليه طائفةٌ أخرى ، فقال له : اكفِنى هؤلاء ، فحَمَل عليهم فانهزَموا من بين يديه ، وقتَل منهم أميّة بنَ أبى حذيفة بن المغيرة المخزومىّ .

قال : فأمّا أبىّ بن خلف فروَى الواقدىّ أنه أقبَل يركُض فرسَه ؛ حتى إذا دنا من رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، اعترضَ له ناس من أصحابه ليَقْتلوه ، فقال لهم : استأخِروا

---

(١) ا والواقدى : « ليعرض » .

(٢) أنساب الأشراف ١ : ٣٢٤ .

(٣) سيرة ابن هشام ٣ : ٨٢ .

عنه . ثم قام إليه وحرْبَتُه في يده ، فرماه بها بين سابغة البَيْضة والدِّرْع[1] ، فطعنه هناك ، فوقع عن فرسه ، فانكسر ضِلع من أضلاعه ، واحتمله قومٌ من المشركين ثقيلا[2] حتّى ولّوْا قافِلين ، فمات في الطّريق ، وقال : وفيه أنزلَتْ : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾[3] ، قال : يعنى قَذفه إيّاه بالحَرْبة .

قال الواقديّ : وحدّثني يونسُ بنُ محمّد الظّفَريّ ، عن عاصم بن عمر ، عن عبد الله ابنِ كعب بن مالك ، عن أبيه ، قال : كان أُبيُّ بن خَلَفٍ قدم في فداء ابنه ، وكان أُسِر يومَ بَدْر ، فقال : يامحمّد ، إنّ عندى فرسا لى أعلِفها فَرْقا[4] من ذرة كلّ يوم لأقتلك عليها . فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله : بل أنا أقتلكُ عليها إن شاء الله تعالى .

ويقال : إنّ أُبَيّا إنّما قال ذلك بمكّة ، فبلَغ رسول الله صلّى الله عليه وآله بالمدينة كلمتُه فقال : بل أنا أقتلُه عليها إن شاء الله . قال : وكان رسولُ الله صلّى الله عليه وآله في القتال لا يلتفت وراءه ، فكان يومَ أُحُد يقول لأصحابه : إنّى أخشَى أن يأتىَ أُبيُّ بن خلف من خَلْفى ، فإذا رأيتموه فآذِنونى ، وإذا بأبيّ يركُضُ على فرسه ، وقد رأى رسولَ الله صلّى الله عليه وآله فعرَفه ، فجعل يصيح بأعلى صوته : يامحمّد لانجوتُ إنْ نَجَوْتَ ! فقال القوم : يارسول الله ما كنتَ صانعا حين يغشاك أُبيّ ؟ فاصنع ، فقد جاءك ، وإن شئت عطف عليه بعضنا ، فأَبَى رسول الله صلّى الله عليه وآله ، ودَنا أُبىّ ، فتناول رسولُ الله صلى الله عليه وآلِه الحَرْبة من الحارث بن الصِّمّة ، ثم انتَفَض كما ينتفض البعير . قال : فتطايَرْنا

---

(١) الدرع السابغة : التى تجرها فى الأرض وعلى كعبيك طولا وسعة ، وتسبغة البيضة : ما توصل به البيضة من حلق الدروع فتستر العنق .

(٢) ثقيلا : مشرفا على الموت .
(٣) سورة الأنفال ١٧ .

(٤) الفرق ، بسكون الراء وبفتحها : مكيال ضخم لأهل المدينة معروف .

عنه تطايُر الشّعارير[١] ، ولم يكن أحدٌ يُشبهُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله إذا جدّ الجدّ ، ثم طعنه بالحَرْبة فى عنقِه وهو على فرسه لم يَسقط ، إلا أنه خارَ كما يخور الثَّوْر ، فقال له أصحابه : أبا عامر ، والله مابك بأسٌ ، ولو كان هذا الذى بك بعين أحدِنا ماضَرّه . قال: واللّات والعُزّى ، لو كان الّذى بى بأهل ذى المجاز لماتوا كلُّهم أجمعون ، أليس قال: لأقتلنّه ! فاحتملوه ، وشغَلَهم ذلك عن طلب رسول الله صلى الله عليه وآله حتى التَحَق[٢] بعظم أصحابه فى الشِّعب .

قال الواقدىّ : ويقال : إنّه تناول الحربةَ من الزُّبير بن العوّام . قال : ويقال إنّه لما تناول الحربة من الزُّبير حمل أبىٌّ على رسولِ الله صلى الله عليه وآله ليضربه بالسيف ، فاستقبله مصعبُ بنُ عُمَير حائلا بنفسه بينهما ، وإنّ مصعبا ضَرَب بالسيف أبيّا فى وجهه ، وأبصر رسول الله صلى الله عليه وآله فرجةً من بين سابغة البَيْضة والدّرْع ، فطعنه هناك ، فوقع وهو يخور .

قال الواقدىّ : وكان عبدُ الله بنُ عمرَ يقول : ماتَ أبىُّ بنُ خَلَف ببطْن رابغ[٣] منصَرَفهم إلى مكّة . قال : فإنّى لأسيرُ ببَطْن رابغ بعد ذلك ، وقد مضى هُوِىٌّ من اللّيل إذا نارٌ تأجّجُ ، فهِبْتُها ، وإذا رجل يخرج منها فى سلسلة يجتذبُها يصيح: العَطَش ، وإذا رجل يقول : لا تَسقِه ، فإن هذا قتيلُ رسول الله صلى الله عليه وآله ، هذا أبىُّ بنُ خَلَف ، فقلتُ : ألا سُحْقا ! ويقال : إنه مات بسرِف[٤] .

* * *

---

(١) الشعارير : الذباب . (٢) ا والواقدى : « لحق » .
(٣) بطن رابغ : واد من دون الجحفة ، قال الواقدى : هو على عشرة أميال من مكة . ياقوت .
(٤) سرف ، ككتف : موضع على سبعة أميـال من مكة ، تزوج به رسول الله صلى الله عليـه وسلم ميمونة بنت الحارث ، وهناك بنى بها ؛ وهناك توفيت ـ ياقوت .

القول فى الملائكة نزلت بأُحُد وقاتلت أم لا

قال الواقدى : حدثنى الزُّبيرُ بنُ سعيد ، عن عبدِ الله بن الفَضْل ، قال : أعطى رسول الله صلى الله عليه وآلِه مصعبَ بنَ عمير اللواء فقتل،فأخذَه ملَك فى صورة مُصعبٍ فَجَعل رسول الله صلى الله عليه وآله يقول له فى آخر النهار : تقدّم يامصعب ، فالتَفَتَ إليه المَلَك ، فقال : لستُ بمصعبٍ ، فعرف رسول الله صلى الله عليه وآلِه أنه ملَكٌ أُيِّد به .

قال الواقدىّ : سمعتُ أبا معشر يقول مِثلَ ذلك .

قال : وحدثتْنى عبيدةُ بنتُ نائل ، عن عائشةَ بنت سعد بن أبى وقّاص ، عنه ، قال : لقد رأيتُنى أُرمَى بالسّهم يومئذ، فيردّه عنى رجلٌ أبيضُ حسن الوجه لا أعرفه ،حتى كان بعد ، فظننتُ أنه ملَك .

قال الواقدىّ : وحدّثنى إبراهيم بنُ سَعْد،عن أبيه ؛ عن جدّه سعدِ بن أبى وقاص، قال : رأيتُ ذلك اليومَ رَجُلين عليهما ثيابٌ بيض ؛ أحدُهما عن يمين رسول الله صلى الله عليه وآله ، والآخَر عن شماله يقاتلان أشدّ القتال ، مارأيتُهما قبلُ ولا بعدُ . قال : وحدّثنى عبدُ الملك بنُ سليمانَ ، عن قَطَن بن وَهْب،عن عُبيد بن عُمَيْر ، قالَ : لمّارجعتْ قريشٌ من أُحُد جعلوا يتحدّثون فى أنديتهم بما ظَفِروا ، يقولون : لم نرَ الخيلَ البُلْق ولا الرِّجال البِيض الّذين كنّا نراهم يومَ بدر .

قال : وقَال عُبيدُ (١) بنُ عمير : لم تقاتل الملائكةُ يومَ أحُد .

قال الواقدىّ : وحدثنى ابن أبى سَبْرة ، عن عبد المجيد بن سُهَيل ، عن عُمَر بن الحكم، قال : لم يُمَدّ رسول الله صلى الله عليه وآله يومَ أحُد بملَك واحد،وإنما كانوا يومَ بدر . قال : ومثله عن عِكْرمة .

(١) فى ا « عبيد الله » ؛ تحريف والتصويب عن ب .

قال : وقال مجاهد : حضرَت الملائـكةُ يوم أحُد ولم نقاتل ، وإنمـا قاتلتْ يوم بدر .

قال : وروى عن أبى هُريرة أنه قال : وعَدَهم اللهُ أن يُمدّهم لو صَبَروا ، فلما انـكشفوا لم تُقاتِل الملائـكة يومَئذ .

***

القول فى مقتل حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه

قال الواقدىّ : كان وَحْشىّ عبداً لابنة الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف ، ويقال : كان لجُبَير بن مُطعم بن عدىّ بن نوفل بن عبد مناف ، فقالت له ابنة الحارث : إنّ أبى قتل يومَ بدر ، فإن أنتَ قتلتَ أحد الثلاثة فأنتَ حرّ : محمَّد ، وعلىّ بن أبى طالب ، وحمزة[1] بن عبد المطّلب ، فإنى لا أرَى فى القوم كُفْؤاً لأبى غيرهم . فقال وحشىّ : أمّا محمّد فقد علمت أنّى لا أقدر عليه ، وإنّ أصحابه لن يُسلِموه ، وأمّا حمزة فو الله لو وجدتُه نائما ما أيقَظْته من هَيْبته ، وأمّا علىّ فألتمسه . قال وَحْشىّ : فـكنتُ يومَ أحُد ألتمِسه ، فبينا أنا فى طلبه طَلَع علىّ ، فطلع رجلٌ حَذِرٌ مَرِس[2] كثيرُ الالتفاتِ ، فقلتُ : ما هذا بصاحبى الّذى ألتمس ، إذْ رأيت حمزة يفرِى الناسَ فَرْياً ، فـكَمِنتُ له إلى صَخْرة وهو مكبِّس له كتيت[3] ، فاعترَض له سباع بنُ أمّ نيِار ، وكانت أمّه ختّانة بمكّة ، مولاة لشريفِ بن علاج بنِ عَمْرو بن وَهْب الثّقَفىّ ، وكان سِباع يكْنَى أبا نيِار ، فقال له حَمْزة : وأنت أيضا يابنَ مقطِّعة البُظُور ممّن يـكثّر علينا ! هلّم إلىّ ، فاحتَمَله ، حتى إذا برقتْ قَدَماه رمَى به فبرَكَ عليه ، فشَحَطه شحط الشّاة ، ثم أقبَل علىّ مـكبًّا حين رآنى ، فلمّا

---

(١) كذا فى ا ، وهو الوجه ، وفى ب « أو » تحريف .

(٢) المرس : الذى قد مارس الأمور وعالجها .

(٣) الـكتيت : صوت فى صدر الرجل كصوت البـكر من شدة الغيظ .

بلغ المسيل ، وَطِئَ على جُرُفٍ فزلّت قدمُه ، فهززتُ حربتى حتى رضيتُ منها ، فأضرب بها فى خاصرته حتى خرجتْ من مَثانته ؛ وكرّ عليه طائفةٌ من أصحابه فأسمعهم يقولون : أبا عمارة ، فلا يجيب ، فقلتُ : قد والله ماتَ الرجل ، وذكرتُ هِندا وما لقيتْ على أبيها وعمّها وأخيها ، وانكشف عنه أصحابُه حين أيقنوا بموته ، ولا يرَوْنى ، فأكُرّ عليه فشققتُ بطنَه ، فاستخرجتُ كبِدَه ، فجئتُ بها إلى هند بنتِ عُتْبة ، فقلتُ : ماذا لى إنْ قتلتُ قاتلَ أبيك ؟ قالت : سَلَبى ؛ فقلتُ : هذه كبدُ حمزةَ ، فمضغَتْها ثم لفظتْها ، فلا أدرى : لم تُسِغها أو قذرتْها؛ فنزعتْ ثيابَها وحليَّها فأعطَتْنيه ، ثم قالت : إذا جئتَ مكّة فلك عشرةُ دنانير ، ثم قالت : أرنى مَصرَعه ، فأرَيْتها مصرعه ، فقطعَتْ مَذاكيره ، وجدَعَتْ أنفَه ، وقطعتْ أُذُنيه ، ثم جعلت ذلك مَسَكَتين(١) ومِعْضَدَين وخَدَمَتَيْن ؛ حتى قدِمتْ بذلك مكة وقدِمتْ بكبدِه أيضاً معها .

قال الواقدىّ : وحدَّثنى عبدُ الله بنُ جعفر ، عن ابن أبى عَوْن ، عن الزّهرىّ ، عن عُبيد الله بن عدىّ بن الخيار ، قال : غزوْنا الشامَ فى زمن عثمانَ بنِ عفّانَ ، فمررْنا بحِمْصَ(٢) بعد العصر ، فقلنا : وحشىّ ، فقيل : لا تَقدِرون عليه ، هو الآنَ يَشرب الخمر حتى يُصبح ، فبِتْنا من أجله ؛ وإنّنا لثمانون رجلا ، فلمّا صلّينا الصبحَ جئنا إلى منزله ، فإذا شيخٌ كبير قد طرحتْ له زِرْبية(٣) قدر مجلسه ، فقلنا له : أخبرنا عن قتل حمزة وعن قتل مُسيلِمة ؛ فكره ذلك ، وأعرض عنه ، فقلنا : مابِتْنا هذه الليلة إلّا من أجلك . فقال: إنّى كنتُ عبداً لجُبَير بن مُطعِم بن عدىّ ، فلمّا خرج الناسُ إلى أحُد دعانى فقال : قدرأيتَ مقتلَ طُعَيمة بنَ عَدِى ، قتَله حمزةُ بنُ عبد المطّلب يومَ بدر ، فلم تزل نساؤنا فى حُزْن

---

(١) المسكة ، بالتحريك : الأسورة . والمعضد : الدملج ، والخدمة ، بالتحريك : الخلخال .
(٢) حمص : مدينة معروفة فى بلاد الشام .
(٣) الزربية : النمرقة ؛ أو البساط الذى يتكأ عليه ؛ واحده زربى ، والجماعة زرابى .

شديدٍ إلى يومى هذا ، فإن قتلتَ حمزةَ فأنتَ حرّ ؛ فخرجتُ مع الناس ولى مَزاريق (١) كنت أمرّ بهند بنتِ عتبة فتقول : إيهٍ أبا دُسْمة ! اشفِ واشتَف . فلمّا ورَدْنا أحُدا نظرتُ إلى حمزةَ يقدُم الناسَ يهدّهم هدّا ، فرآنى وقد كمنتُ له تحت شجرة ، فأقبل نحوى ، وتعرّض له سباع الخزاعىّ ، فأقبل إليه وقال : وأنتَ أيضا يا ابنَ مقطِّعة البظور ممّن يكثر علينا ! هَلُمّ إلىّ ، وأقبل نحوه حتّى رأيتُ برقانَ رجليه ، ثم ضرَب به الأرضَ وقتَلَه ، وأقبل نحوى سريعاً ، فيعترض له جرفٌ فيقع فيه ، وأزرُقه بمزراق فيقع فى لَبّته حتى خرج من بين رجليه . فقتَلَه ، ومررتُ بهند بنت عُتْبة فآذنتُها ، فأعطتْنى ثيابَها وحليّها ، وكان فى ساقَيْها خَدَمتان من جَزْع ظَفارِ (٢) ومَسَكتان من ورق، وخواتيم من ورق كنّ فى أصابع رجليها ، فأعطَتْنى بكلّ ذلك ؛ وأما مُسيلمة فإنّا دخلْنا حديقة الموت يومَ اليمامة فلمّا رأيته زرقتُه بالمزراق ، وضربه رجل من الأنصار بالسّيف ؛ فربُّك أعلم أيُّنا قتَلَه ! إلّا أنّى سمعتُ امرأةً تصيحُ فوق جِدار : قتَلَه العبدُ الحبشىّ . قال عبيدالله: فقلتُ: أتعرفُنى ؟ فأكَرَّ بصرَه علىّ وقال : ابن عدىّ لعاتكة بنتِ العيص ؟ قلتُ : نعم ، قال : أما واللهِ مالى بك عهدٌ بعد أن دفعتُك إلى أمّك فى مَحفّتِك التى كانت ترضعك فيها ، ونظرت إلى برقانِ قدميك حتّى كأنّه الآن .

وروى محمدُ بن إسحاقَ فى كتاب المغازى ؛ قال : علتْ هِند يومئذ صخرةً مشرفة ، وصرختْ بأعلى صوتها:

نحنُ جزَيناكم بيومِ بَدْرِ ... والحربُ بعد الحرب ذات سُعْرِ (٣)
ما كان عن عتبةَ لى من صبرِ ... ولا أخى وعمّه وبِكْرى
شفيتُ نفسى وقضيتُ نَذْرى ... شفَيتَ وحشىُّ غليلَ صدرى

---

(١) المزاريق . جمع مزراق ؛ وهو الرمح القصير .
(٢) ظفار كقطام : بلد باليمن ينسب إليه الجزع .
(٣) ذات سعر ، أى حر .

فشكرُ وَحْشيٍّ علىَّ عمرِى حتّى ترِمّ أعظُمى فى قَبرِى (١)

قال : فأجابتْها هند بنت أُثاثة بن المطّلب بنِ عبد مناف :

خزيتَ فى بدرٍ وغيرِ بدرِ يابنتَ غَدّارٍ عظيمِ الكُفْرِ (٢)

أفحمكِ الله غداةَ الفَجرِ بالهاشميّين الطوالِ الزُّهْرِ

بكلّ قطّاعٍ حُسامٍ يَفرِى حمزةُ لَيْثى وعلىٌّ صَقْرِى

إذ رامَ شيب وأبوك قَهْرِى فخضّبا منه ضواحى النَّحرِ

قال محمد بن إسحاق : ومن الشِّعر الّذى ارتجزتْ به هند بنت عُتْبة يومَ أُحُدٍ :

شفيتُ من حمزةَ نفسِى بأُحُدْ حين بقَرتُ بطنَه عن الكبدْ (٣)

أذهبَ عنّى ذاكَ ما كنتُ أَجِدْ من لوعةِ الحزنِ الشديدِ المعتَمِدْ (٤)

والحرب تَعلوكُمُ بشؤبوبٍ بَرِدْ نُقْدِمُ إقداماً عليكمْ كالأُسُدْ (٥)

قال محمّد بنُ إسحاق : حدّثنى صالح بنُ كيسانَ ، قال : حُدِّثتُ أنَّ عمرَ بنَ الخطّاب قال لحسّان : ياأبا الفُرَيْعة ، لو سمعتَ ماتقول هندٌ ! ولو رأيتَ شرّها قائمةً على صخرة ترتجز بنا ، وتذكّر ماصنعت بحمزة ! فقال حسّان : والله إنى لأنظر إلى الحَرْبة تَهوِى وأنا على فارع — يعنى أطمة — فقلت : والله إن هذه لَسِلاح ليس بسلاح العرب ، وإذا بها تَهوِى إلى حمزةَ ولا أدرى ، [ولكن] (٦) أسمعنى بعض قولها أكفيكموها ، فأنشَده عمر بعضَ ماقالت ؛ فقال حسّان يهجوها :

أشِرَتْ لَكَاعِ وكان عادتُها لؤما إذا أشِرَتْ مع الكُفْرِ (٧)

---

(١) ترم أعظمى : تبلى . (٢) فى ابن هشام : « يا بنت وقاع » .

(٣) سيرة ابن هشام ٣ : ٤٣ . (٤) المعتمد : القاصد المؤلم .

(٥) الشؤبوب : الدفعة من المطر . وبرد — بفتح فكسر — أى ذو برد .

(٦) من سيرة ابن هشام .

(٧) الخبر وهذا البيت فى سيرة ابن هشام ٣ : ٤٤ ، والأبيات فى ديوانه ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

أخرجت مرقصةً إلى أُحُــــدٍ في القوم مُقْتبــةً على بَــكْرِ (١)
بَــكْرٍ ثَفَـــالٍ لاحَراكَ به لاعن معاتَبــــةٍ ولا زجرِ (٢)
أخرجت ثائرةً محـــاربةً (٣) بأبيك وأبنك بعدُ في بدرِ (٤)
وبعمِّك المتروكِ منجـــدِلًا وأخيك منعفرَيْن في الجَفْرِ (٥)
فرجعتِ صـــاغرةً بلا تِرَةٍ منَّا ظفرتِ بهـــا ولا وَتْرِ

وقال أيضاً يهجوها :

لمن سَواقطَ ولْدَان مطرَّحَةٌ باتت تفحَّص في بطحاء أجيادِ (٦)
باتت تمخّض لم تَشْهد قوابلُهـا إلّا الوحوش وإلَّا جنَّة الوادِي
يظلّ يرجُمه الصبيانُ منعفِراً وخالُه وأبوه سيِّدا النادى (٧)

في أبيات كرهتُ ذكرَها لفُحْشها .

***

قال : وروى الواقديّ ، عن صفيّة بنتِ عبد المطّلب ، قالت : كنّا قد رفعنا (٨) يومَ أُحُد في الآطام ، ومعنا حسَّان بنُ ثابت ، وكان من أجبن الناس ، ونحن في فارع ، فجاء نفر من يهودَ يرومون الأُطُم ، فقلت : دُونَك يابن الفُرَيْعة ، فقال : لا والله لا أستطيع القتال ، ويصعَد يهوديّ إلى الأُطُمِ ، فقلتُ : شدّ على يدى السيف ، ثم برئت ، ففعل ، فضربتُ

(١) مرقصة ، أي مرقصه بكرها ، ورقص البعير أسرع في سيره . وفي الديوان : « معنقة » .
(٢) البكر الثفال : البطىء .
(٣) في الديوان : « أقبلت زائرة مبادرة » .
(٤) الديوان : « يوم ذى بدر » .
(٥) والجفر : البئر .
(٦) ديوانه ١٥٨ . وفي الديوان : منبذة » .
(٧) منعفرا ، أي علاه التراب ، ورواية الديوان :

قَدْ غادَرُوه لحرّ الوجهِ مُنْعَفِراً وخاله وأبوه سيّدا النادى

(٨) رفعنا : عدونا .

عنق اليهودي ورميتُ برأسه إليهم، فلما رأوْه انكشفوا، قالت: وإنّي لفي فارِع أوّل النهار مشرِفة على الأُطُم، فرأيتُ المزراق، فقلتُ أَوَ من سلاحهم المَزاريق! أفلا أراه هوى إلى أخي ولا أشعر!. ثم خرجت آخر النهار حتّى جئتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله، وقد كنتُ أعرف انكشافَ المسلمين وأنا على الأُطُم برجوع حسّان إلى أقصى الأُطُم، فلمّا رأى الدولة للمسلمين أقبَل حتى وقف على جدار الأُطُم. قال: فلما انتهيتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ومعي نسوةٌ من الأنصار لقيتُه وأصحابه أوزاع، فأوّل من لقيتُ عليّ ابن أخي فقال: ارجعي ياعمّة، فإنّ في الناس تكشُّفا، فقلت: رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال صالح: قلت: ادلّني عليه حتى أراه، فأشار إليه إشارةً خفيّة، فانتهيتُ إليه وبه الجراحة.

قال الواقديّ: وكان رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول يومَ أُحُد: مافعل عمّي، مافعل عمّي! فخرج الحارث بن الصِّمَّة يطلبه فأبطأ، فخرج عليٌّ عليه السلام يَطلبُه فيقول:

يارِبِّ إنَّ الحارثَ بنَ الصِّمَّهْ ... كان رفيقا وبنا ذا ذِمّهْ[(1)]

قد ضَلَّ في مَهامهٍ مُهِمَّهْ ... يلتمسُ الجنّةَ فيها ثَمَّهْ[(2)].

حتى انتهى إلى الحارث، ووجد حمزة مقتولا، فجاء فأخبرَ النبيَّ صلّى الله عليه وآله، فأقبل يمشي حتّى وقف عليه فقال: ماوقفتُ موقفاً قطّ أغيَظ إليّ من هذا الموقف. فطلعتْ صفيّة، فقال: يازُبير، اغن عنّي أمّك، وحمزة يُحفَر له، فقال الزبير ياأمّه، إنّ في الناس تكشفا، فارجِعي، فقالت: ما أنا بفاعلة حتى أرَى رسولَ الله صلى الله عليه وآله، فلمّا رأتْه قالت: يارسولَ الله، أين ابنُ أمي حمزة؟ فقال: هو في الناس؛ قالت: لاأرجع حتى أنظر إليه، قال الزبير: فجعلت أطِدُها إلى الأرض حتى دُفن وقال رسول الله

---

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ١٥٤ مع اختلاف في الرواية.

(٢) المهامه: جمع مهمة، وهي المفازة البعيدة.

صلى اللهعليه وآله : لولاأنْ تحزنَ ساؤنا لذلكلتركناه للعافية ، يعنى السبّاعَ والطيْرَ حتى يحشرَ يوم القيامة من بطونِها وحَواصِلِها .

قال الواقدىّ : ورُوِى أن صفيّة لمّا جاءت حالت الأنصارُ بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : دَعُوها ، فجلستْ عنده ، فجعلتْ إذا بكت يبكى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وإذا نَشَجت(١) ينشج رسول الله صلى الله عليه وآله ، وجعلتْ فاطمةُ عليها السلام تبكى ، فلمّا بكتْ بكى رسولَ الله صلى الله عليه وآله ثم قال : لن أُصابَ بمثل حمزة أبدا ، ثم قال صلى الله عليه وآله لصفيّة وفاطمة : أبشرَا ، أتانى جبرائيلُ عليه السلام فأخبرَنى أنّ حمزة مكتوبٌ فى أهل السَّموَات السَّبْع : حمزةُ بنُ عبد المطلب أسدُ الله وأسدُ رسوله .

قال الواقدىّ : ورأى رسول الله صلى الله عليه وآله بحمزةَ مَثْلا شديدا ، فحزنه ذلك وقال : إن ظفرتُ بقريش لأمثلنّ بثلاثين منهم ، فأنزل الله عليه : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾(٣) فقال صلى الله عليه وآله : بل نصبر ، فلم يمثِّل بأحد من قريش .

قال الواقدىّ : وقام أبو قَتادةَ الأنصاريُّ فجعل ينال من قريش لما رأى من غَمّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، وفى كلّ ذلك يشير إليه أن اُجلس ثلاثا ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : يا أبا قَتادة ، إنّ قريشا أهلُ أمانة ، من بغاهم العواثِرَ كبَّه الله لِفيه ، وعسى إن طالت بك مدّة أن تحقِر عملك مع أعمالهم ، وفعالَك مع فعالهم ،

(١) يقال : نشج الباكى ، غص بالبكاء فى حلقه من غير انتحاب .

(٢) يقال : مثل بفلان مثلا ومثلة بالضم : نكل به .

(٣) سورة النحل : ١٢٦ .

لولا أن تبطَر قريشٌ لأخبرتُها بما لها عند الله تعالى . فقال أبو قتادة : واللهِ يا رسولَ الله ما غضبتُ إلا لله ورسولِه حين نالوا منه ما نالوا ، فقال : صدقتَ . بئس القومُ كانوا لنبيِّهم .

قال الواقديّ : وكان عبدُ الله بن جحش قبلَ أن تقع الحربُ قال : يارسول الله ، إن هؤلاء القومَ قد نزلوا بحيث ترى ، فقد سألت الله فقلت : اللهمّ أُقسِم عليك أن نَلقى العدوَّ غداً فيقتلونى ويبقَروا بطنى ويمثّلوا بى ، فتقول لى : فيمَ صُنِع بك هذا ؟ فأقول : فيك . قال : وأنا أسألك يا رسولَ الله أخرى ، أن تَلِيَ تركتى من بعدى . فقال له : نعم ، فخرج عبدُ الله فقُتِل ومُثِّل به كل المُثْل ، ودُفِن هو وحمزةُ فى قبرٍ واحد ، ووَلِيَ تركتَه رسول الله صلى الله عليه وآله ، فاشترى لأمِّه مالاً بخَيْبر .

قال الواقديّ : وأقبلتْ أختُه حَمْنة بنتُ جَحْش ، فقال لها رسولُ الله صلى الله عليه وآله : يا حَمْن(١) ، احتسبى ، قالت : مَن يا رسول الله ؟ قال : خالك حمزة ، قالت : ﴿ إنّا للهِ وَإنّا إليهِ رَجِعُون ﴾(٢) غفر الله له ورحمه ، وهنيئا له الشهادة ، ثم قال لها : احتسبى . قالت : مَن يا رسولَ الله ، قال : أخوكِ عبدَ الله ، قالت : ﴿ إنّا للهِ وإنّا إليهِ راجِعُونَ ﴾(٢) غفر الله له ورحمه وهنيئا له الشهادة ، ثم قال : احتسبى ، قالت : مَن يارسول ؟ قال : بَعلكِ مُصعب بن عُمير ، فقالت : واحُزْناه ! ويقال : إنها قالت : واعُقْراه .

قال محمد بن إسحاق فى كتابه : فصرخَتْ وولْوَلَتْ . قال الواقديّ : فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : إن للزوج من المرأة مكانًا ما هو لأحد . وهكذا روَى ابن إسحاق أيضا .

قال الواقديّ : ثم قال لها رسولُ الله صلى الله عليه وآله : لم قلت هذا ؟ قالت ذكرتُ يتم بنيه فراعنى . فدعا رسولُ الله صلى الله عليه وآله لولده أن يُحسِن الله عليهم الخلف .

---

(١) يا حمن ، مرخم « يا حمنة » . (٢) سورة البقرة : ١٥٦ .

فتزوّجتْ طلحة بن عبيد الله ، فولدتْ منه محمد بن طلحة ، فـكان أوصَل النـاس لولد مُصعب بن عُمير .

* * *

القول فيمن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أُحُد

قال الواقدىّ : حدثنى موسى بنُ يعقوب ، عن عمّته ، عن أمّها ، عن المِقداد ، قال: لـما تصافّ القوم للقتال يومَ أحـد ، جلس رسول الله صلّى الله عليـه وآله تحت راية مُصعب بن عمير ، فلما قُتل أصحابُ اللواء وهُزم المشركون الهزيمة الأولى ، وأغارَ المسلمون على معسكرهم ينهَبونه ، ثم كرّ المشركون على المسلمين ، فأتوهم من خَلفهم ، فتفرّق الناس ، ونادى رسولُ الله صلى الله عليه وآله فى أصحاب الألْوِية ، فقُتل مُصعبُ بن عُمَير حاملُ لوائِه صلى الله عليه وآله،وأخذَ رايه الخزْرج سَعدُ بنُ عُبادة، فقام رسولُ الله صلى الله عليه وآله تحتها ، وأصحابه محدِقون به ، ودفع لواءَ المهاجرين إلى أبى الرّدم أحـد بنى عبد الدّار آخرَ نهار ذلك اليوم ، ونظرتُ إلى لواءالأوْس مع أسَيْد بن حُضَير ، فناوَشوا المشركين ساعة، واقتتَلوا على اختلاط من الصُّفوف،ونادى المشركون بشعارهم : ياللَعُزَّى! يالَهُبَل ! فأوجعوا والله فينا قتلا ذَريعا ، ونالوا مِن رسول الله صلى الله عليه وآله مانالوا ؛ لا والذى بعَثه بالحقّ مازال شِبراً واحداً، إنه لفى وجه العدوّ وتثُوب إليه طائفةٌ من أصحابه مرّة، وتتفرّق عنه مرّة ، فربما رأيته قائما يَرمى عن قوسِه أو يرمى بالحجر حتى تحاجزوا،وكانت العِصابة التى ثبتتْ مع رسول الله صلى الله عليـه وآله أربعـة عشر رجلا ، سبعة من المهاجرين ، وسبعة من الأنصار ، أما المهاجرون فعلىٌّ عليه السلام وأبو بكر وعبد الرحمن ابنُ عوف وسعدُ بن أبى وقّاص وطلحة بن عبيدالله وأبو عبيدة بن الجرّاح والزّبير بن العوّام،

وأما الأنصار فالُحباب بن المنذر وأبو دُجانة [١] وعاصمُ بنُ ثابت بن أبى الأقلح والحارث ابنُ الصِّمّة وسهل بنُ حُنيف وسعدُ بن معاذ وأُسَيْد بنُ حُضَير .

قال الواقدىّ : وقد رُوِى أن سعد بن عبادة ومحمد بن مَسْلَمة ثبتا يومئذ ولم يفرّا . ومن روى ذلك جَعلهما مكانَ سعد بن مُعاذ وأُسَيْد بن حُضَير .

قال الواقدىّ : وبايَعه يومئذ على الموت ثمانية : ثلاثة من المهاجرين ، وخمسة من الأنصار ، فأمّا المهاجرون فعلىٌّ عليه السلام ، وطلحةُ ، والزّبير ؛ وأما الأنصار فأبو دجانة والحارثُ بن الصمّة والُحباب بن المنذر وعاصم بنُ ثابت وسهل بنُ حنيف ، ولم يُقتل منهم ذلك اليوم أحد ؛ وأمّا باقى المسلمين ففرّوا ورسولُ الله صلى الله عليه وآله يدعوهم فى أخراهم حتى انتهى منهم إلى قريب من المِهْرَاس [٢] .

قال الواقدىّ : وحدّثنى عتبة بنُ جبير ، عن يعقوبَ بن عُمير بن قَتادة قال : ثبت يومئذ بين يديه ثلاثون رجلا كلهم يقول : وَجهى دون وجهك ، ونفسى دونَ نفسك ، وعليك السلام غير مودَّع .

* * *

قلت : قد اختلف فى عمر بن الخطاب هل ثبت يومئذ أم لا ، مع اتفاق الرُّواة كافّة على أن عثمانَ لم يثبت ، فالواقدىّ ذكر أنه لم يثبت ، وأما محمد بن إسحاق والبلاذرىّ فجعلاه مع من ثبت ولم يفرّ ، واتفقوا كلّهم على أن ضرارَ بن الخطاب الفهرىّ قرَع رأسه بالرمح وقال : إنها نعمة مشكورة يابن الخطّاب ، إنى آليت ألا أقتل رجلا من قريش .

وَرَوَى ذلك محمد بن إسحاق وغيرُه ، ولم يختلفوا فى ذلك ، وإنما اختلفوا ، هل قرَعه بالرُّمح وهو فارٌّ هارب ، أم مقدِمٌ ثابت ! والذين رَوَوْا أنه قرَعه بالرمح وهو هارب لم يقل

---

(١) أبو دجانة ؛ هو سماك بن خرشة .

(٢) المهراس : ماء بأحد .

أحدٌ منهم إنّه هرَب حين هرب عثمانُ ولا إلى الجهة التى فرّ إليها عثمان، وإنّما هرب معتصِما بالجبل، وهذا ليس بعيب ولا ذَنْب، لأنّ الذين ثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله اعتَصَموا بالجبل كلُّهم وأصعدوا فيه، ولكن يَبْقى الفرقُ بين من أصعَد فى الجبل فى آخر الأمر ومَنْ أَصعَد فيه والحربُ لم تضعْ أوزارها، فإن كان عمُر أَصعد فيه آخر الأمر، فكلّ المسلمين هكذا صنعوا حتى رسول الله صلى الله عليه وآله، وإن كان ذلك والحرب قائمة بعد تفرّق.

ولم يختلف الرُّواة من أهل الحديث فى أنّ أبا بكر لم يفرّ يومئذ، وأنّه ثبت فيمن ثبت، وإن لم يكن نقل عنه قتل أو قتال، والثبوت جهاد، وفيه وحدَه كفاية.

وأمّا رُواة الشِّيعة فإنهم يروون أنه لم يثبت إلاّ علىّ وطلحة والزبير وأَبودُجانة وسهلُ ابنُ حنيف وعاصمُ بنُ ثابت، ومنهم من رَوى أنه ثبت معه أربعة عشر رجلا من المهاجرين والأنصار، ولا يعدّون أبا بكر وعمرَ منهم. رَوَى كثير من أَصحاب الحديث أنّ عثمان جاء بعد ثالثة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فسأله إلى أين انتهيت؟ فقال: إلى الأعرَض، فقال: لقد ذهبتَ فيها عَريضة (١).

* * *

رَوَى الواقدىّ قال: كان بين عثمان أيام خلافته وبين عبد الرحمن بن عوف كلام، فأرسل عبد الرحمن إلى الوليد بن عقبة فدعاه، فقال: اذهب إلى أخيك فأَبلِغْه عنى ما أقول لك، فإنّى لا أعلم أحداً يبلِّغه غيرك. قال الوليد: أفعَل. قال قل له: يقول لك عبد الرحمن: شهدتُ بدرا ولم تَشهدْها، وثبتُّ يومَ أُحُدٍ ووليّتَ، وشهدتُ بيعةَ الرّضوان ولم تشهدْها، فلمّا أخبره قال عثمان: صدَق أخى، تخلّفتُ عن بدر على ابنةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى مريضة، فضَرَب لى رسولُ الله صلى الله عليه وآله بسَهْمى وأَجْرى، فكنتُ بمنزلة من

---

(١) فى النهاية لابن الأثير: «وفى حديث أحد قال للمنهزمين: لقد ذهبتم فيها عريضة، أى واسعة».

حضر بدرا ، ووليّت يومَ أحد ، فعفا الله عنى فى مُحكَم كتابه . وأمّا بَيعة الرِّضوان فإنّى خرجتُ إلى أهل مكّة ، بعثنى رسولُ الله صلى الله عليه وآله وقال : إنّ عثمان فى طاعة الله وطاعة رسوله ، وبايَعَ عنّى بإحدى يديه على الأخرى ، فكان شِمال النبىّ خيرا من يَمينى فلمّا جاء الوليدُ إلى عبد الرحمن بما قال قال : صَدَق أخى .

قال الواقدىّ : ونظر عمرُ إلى عثمان بنِ عفّان فقال : هذا ممّن عفا الله عنه ، وهم الذين تولَّوْا يومَ التقى الجَمْعان ، والله ماعفا الله عن شىء فردّه . قال : وسأل رجل عبدَ الله بن عمر عن عثمانَ فقال : أذنَبَ يومَ أُحُدٍ ذنبا عظيما ، فعفا الله عنه ، وأذنب فيكم ذنبا صغيرا فقتلتموه ؛ واحتجّ مَن رَوَى أن عمَرَ فرّ يوم أحد بما روى أنّه جاءته فى أيام خلافته امرأة تطلب بُرْدا من بُرود كانت بين يديه ، وجاءت معها بنتٌ لعمر تطلب بُرْدا أيضا ، فأعطى المرأة وردّ ابنته ، فقيل له فى ذلك ، فقال : إن أبا هذه ثَبَتَ يومَ أُحُد ، وأبا هذه فرّ يومَ أُحُد ولم يَثبُت .

ورَوَى الواقدىّ أن عمر كان يحدِّث فيقول : لمّا صاح الشيطان : قُتِل محمد ، قلت: أرْقَى فى الجبل كأنّى أُرْوِيّة ، وجعل بعضُهم هذا حجّةً فى إثبات فرار عمر ، وعندى أنه ليس بحجة ، لأن تمام الخبر : فانتهيتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله . وهو يقول: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾[1] الآية، وأبو سُفيان فى سفح الجبل فى كتيبته يَرُومون أن يعلُوا الجبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهمّ إنه ليس لهم أن يَعْلونا . فانكشفوا ، وهذا يدل عَلَى أن رُقيّه فى الجبل قد كان بعد إصعاد رسول الله صلى الله عليه وآله فيه ، وهذا بأن يكون مَنقبةً له أشبه .

ورَوَى الواقدىّ قال : حدثنى ابنُ أبى سَبْرة ، عن أبى بكر بن عبد الله بن أبى جَهْم ، اسمُ أبى جهم عُبَيد ، قال : كان خالد بنُ الوليد يحدِّث وهو بالشام فيقول: الحمدلله

(١) سورة آل عمران ١٤٤ .

الذى هدانى للإسلام ، لقد رأيتُنى ورأيتُ عمرَ بن الخطاب حين جال المسلمون وانهزَموا يومَ أُحُد وما معه أحَد ، وإنى لفى كَتيبةٍ خَشناءَ (١) ، فما عرفه منهم أحد غيرى ، وخشيتُ إن أغريت به من معى أن يَصمُدوا له ، فنظرتُ إليه وهو متوجِّه إلى الشِّعب .

* * *

قلت : يجوز أن يكون هذا حقًّا ، ولا خلاف أنه توجّه إلى الشِّعب تاركا للحرب ، لكن يجوز أن يكون ذلك فى آخر الأمر لما يئس المسلمون من النُّصْرة ، فكلهم توجه نحوَ الشِّعب حينئذ ، وأيضا فإن خالدا متَّهم فى حقّ عمرَ بن الخطاب لما كان بينه وبينه من الشَّحْناء والشَّنآن ، فليس بمنكَر من خالد أن يَنعى عليه حركاته ، ويؤكِّد صحة هذا الخبر ، وكون خالد عفّ عن قتل عمر يومئذ ، ماهو معلوم من حال النسب بينهما من قِبَل الأمّ ، فإن أمّ عمر حَنتمةُ بنتُ هاشم بن المغيرة ، وخالد هو ابن الوَليد بن المغيرة ، فأمّ عمر ابنة عم خالد لَحًّا ، والرَّحِم تعطف .

حضرتُ عندَ محمد بن معدّ العلوىّ الموسوىّ الفقيه على رأى الشِّيعة الإماميّة رحمه الله فى داره بدرب الدوابّ ببغدادَ فى سنة ثمانٍ وستِّمائة ، وقارئ يقرأ عنده مَغازى الواقدىّ ، فقرأ : حدثنا الواقدىّ قال : حدثنى ابنُ أبى سَبْرة ، عن خالد بن رِياح ، عن أبى سُفْيان مولى ابن أبى أحْمد قال : سمعتُ محمدَ بنَ مَسلمة يقول : سمعتْ أُذُناىَ وأبصرتْ عيناىَ رسولَ الله صلى الله عليه وآله يقول يومَ أُحُد وقد انكشف الناس إلى الجبل ، وهو يدعوهم وهم لا يَلْوُون عليه ، سمعتُه يقول : إلىَّ يافلان ، إلىّ يافلان ، أنا رسولُ الله ، فما عرّج عليه واحدٌ منهما ومضَيا ، فأشار ابنُ معدّ إلىّ ، أن اسمَعْ ، فقلت : ومافى هذا ؟ قال : هذه كناية عنهما ، فقلتُ : ويجوز ألا يكون عنهما ، لعلّه عن غيرهما . قال : ليس فى الصحابة من

(١) كتيبة خشناء : كثيرة السلاح .

يحتشم ويُستحياً من ذكره بالفرار وما شابَهه من العيب ، فيضطر القائل إلى الكناية إلاهما قلتُ له : هـذا وَهم(١) ، فقال : دَعْنا مِن جَدَلك ومنعِك ، ثم حلف أنّه ما عنى الواقدىّ غيرَهما ، وأنه لو كان غيرهما لذكَرَه صريحا ، وبان فى وجهه التنكّر من مخالفتى له .

* * *

رَوَى الواقدىّ قال : لمّا صاح إبليس : إن محمدا قد قُتِل ، تفرّق الناس ، فمنهم من ورد المدينة ، فكان أول مَن وردها يُخبر أن محمدا قد قُتل ، سعدُ بن عثمان أبو عُبادة ، ثم ورد بعدَه رجال حتى دخلوا على نسائهم حتى جعل النساء يقلن: أعَن رسولِ الله تفرّون ! ويقول لهم ابنُ أمِّ مكتوم : أعن رسول الله تفرون ؟ يؤنّب بهم ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله خَلَفه بالمدينة يصلِّى بالناس ، ثم قال : دُلّونى عَلَى الطريق – يعنى طريقَ أُحُد – فدَلّوه ، فجعل يستخبر كلّ من لقىَ فى الطريق حتى لِحَقَ القومَ ، فعلِم بسلامةِ النبى صلى الله عليه وسلّم ، ثم رجع . وكان ممن ولّى عمر وعثمان والحارث بن حاطب وثعلبة ابن حاطب وسواد بن غزية وسعد بن عثمان وعقبة بن عثمان وخارجة بن عمر بلغ مَلَل(٢) ، وأوس بن قَيْظى فى نفر من بنى حارثة بلغوا الشّقرة(٣) ولقيتهم أمّ أيْمَن تحثِى(٤) فى وجوههم التراب وتقول لبعضهم : هاك المِغزَل فاغزِل به ، وهلّم . واحتجّ من قال بفرار عمرَ بما رواه الواقدىّ فى كتاب المغازى فى قصّة الحُديبية ، قال : قال عمر يومئذ : يارسول الله ، ألم تكن حدّثتَنا أنك ستدخل المسجدَ الحرام وتأخذُ مفتاحَ الكعبة وتُعرِّف مع المعرّفين ، وهدْيُنا لم يصل إلى البيت ولا نُحِرَ ! فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله : أقلتُ لكم فى سفركم هذا ؟ قال عمر : لا ، قال : أما إنكم ستدخلونه وآخذُ مفتاحَ الكعبة وأحلق رأسى ورءوسَكم ببطْن مَكة وأعرِّف مع المعرِّفين ؛ ثم أقبَل على عمر وقال : أنسيتم يوم

(١) كذا فى ب : والذى فى ا « ممنوع » .

(٢) ملل ؛ كجبل : موضع بعينه . (٣) الشقرة : موضع معروف لبنى سليم .

(٤) يقال : حثا التراب فى وجهه يحثوه ويحثيه ، إذا رماه به .

أُحُد ، ﴿ إِذْ تُصْعِدُون وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَـد ﴾[1] وأنا أدعوكم فى أخراكم ! أنَسِيتم يوم الأحزاب ﴿ إذ جاءوكم من فوقـكم ومِن أسفلَ منكُمْ وإذ زاغتِ الأبصارُ وبلغتِ القلوبُ الحناجرَ ﴾[2] ! أنسيتم يومَ كذا! وجعل يذكِّرهم أمورا ، أنَسِيتم يوم كذا! فقال المسلمون: صدق اللهُ وصَدَق رسولُه ، أنتَ يارسول الله أعلمُ بالله منّا ، فلمّا دخل عام القضيّة وحلق رأسَه قال : هـذا الذى كنتُ وعدتُكم به ، فلما كان يوم الفَتْح وأخذ مفتاح الـكَعْبة قال : ادعُوا إلىّ عمرَ بنَ الخطّاب ، فجاء فقال : هـذا الذى كنتُ قلتُ لـكم . قالوا : فلو لم يكن فرّ يومَ أُحُد لما قال له : أنَسيتم يومَ أحد إذ تُصعِدون ولا تَلْوونَ .

* * *

القول فيما جرى للمسلمين بعد إصعادهم فى الجبل

قال الواقدىّ :حدّثنى موسى بنُ محمد بن إبراهيم ، عن أبيه قال : لمّا صاح الشيطانُ لعنه الله: إنّ محمدا قد قتل يحزّنهم بذلك ،تفرّقوا فى كلّ وجه ، وجعل الناسُ يمرّون على النبي صلّى الله عليه وآله لا يَلوِى عليه أحدٌ منهم، ورسولُ الله يدعوهم فى أخراهم ،حتى انتهت هزيمةُ قوم منهم إلى المِهْراس ، فتوجّه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يريد أصحابَه فى الشِّعب فانتهى إلى الشِّعب وأصحابه فى الجبل أَوْزاع، يذكرونَ مقتَل مَن قُتِل منهم ، ويذكرون ماجاءهم عن رسول الله صلّى الله عليه وآله ،قال كعب بنُ مالك :فـكنتُ أول من عرَفه وعليه المِغفَر ، فجعلت أصيحُ وأنا فى الشّعب : هذا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حَيٌّ ، فجعل يُومِئُ إلىّ بيَدِه على فيه أى اسكُت ، ثم دعا بَلأْمَتِى[3] فلَبِسها ونزع لأْمَتَه .

قال الواقدى : طلع رسولُ الله صلى الله عليه وآله على أصحابه فى الشِّعب بين السَّعدَيْن:

---

(١) سورة آل عمران ١٥٣ . (٢) سورة الأحزاب : ١٠ .

(٣) اللأْمة : الدرع .

سَعدِ بنِ عُبادة ، وسعد بن مُعاذ يتكفَّأ فى الدِّرع ، وكان إذا مشى تكفأ تكفُّؤا ، ويقال : إنه كان يتوكّأ على طلحة بن عُبيد الله .

قال الواقدىّ : وما صلى يومئذ الظهر إلا جالسا للجُرْح الذى كان أصابه .

قال الواقدىّ : وقد كان طلحة قال له : إنّ بى قوة ، فقم لأحمِلَك ، فحَمَله حتّى انتهى إلى الصّخرة التى عَلَى فم شِعب الجَبَل ، فلم يزل يَحمِله حتى رفَعَه عليها ثم مضى إلى أصحابه ومعه النّفر الذين ثبَتوا معه ، فلمّا نظر المسلمون إليهم ظنّوهم قُرَيْشا ، فجعلوا يولُّون فى الشّعب هاربين منهم ، ثم جعل أبو دُجانة يُليح إليهم بعمامةٍ حمراء على رأسه ، فعرَفوه فرجعوا ، أو بعضُهم .

قال الواقدىّ : ورُى أنه لما طلع عليهم فى النّفر الذّين ثبتوا معه — وهم أربعة عشر ، سبعة من المهاجرين ، وسبعة من الأنصار — جعلوا يولون فى الجبل خائفين منهم يظنّونهم المشركين ، جعل رسولُ الله صلى الله عليه وآله يتبسّم إلى أبى بكر وهو على جنْبه ويقول له : ألِحْ إليهم ، فجعل أبو بكر يليح إليهم وهم لايُعرِّجون حتى نزع أبو دجانة عصابةً حمراء على رأسه فأوْفَى[1] على الجبل ، فجعل يصيح ويُليح ، فوقفوا حتى عرفوهم . ولقد وَضع أبو بردة بنُ نيار سهما على كَبِد قوسه ، فأراد أن يرمى به رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فلما تكلّموا وناداهم رسولُ الله صلى الله عليه وآله أمسك ، وفرح المسلمون برؤيته حتى كأنّهم لم تُصبهم فى أنفسهم مصيبة ، وسُرُّوا لسلامته وسلامتِهم من المشركين .

قال الواقدىّ : ثم إنّ قوما من قريش صعدوا الجبلَ فعَلَوا على المسلمين وهم فى الشِّعب . قال : فكان رافعُ بن خديج يحدِّث فيقول : إنى يومئذ إلى جنْب أبى مسعود الأنصارى وهو يذكر من قتل من قومه ، ويسأل عنهم ، فيخبر برجال : منهم سعدُ بن

---

(١) أوفى : أشرف وعلا .

الرّبيع ، وخارجة بن زهير ، وهو يسترجع[١] ويترحّم عليهم ، وبعض المسلمين يسأل بعضا عن حميمه وذى رحمه فيهم ، يخبر بعضهم بعضا ، فبينام على ذلك ردَّ الله المشركين ليذهب ذلك الحزن عنهم ، فإذا عدوّهم فوقهم قد علَوْا ، وإذا كتائب المشركين بالجبل ، فنسوا ما كانوا يذكرون ، وندبنا رسولُ الله صلى الله عليه وآله وحضَّنا على القتال، والله لكأنى أنظرُ إلى فلان وفلان فى عرض الجبل يَعْدوان هاربيْن .

قال الواقدىّ : فكان عمرُ يحدِّث يقول ، لمَّا صاح الشيطان : قتِل محمد ، أقبلتُ أرقى إلى الجبل ، فكأنى أرْوِية ، فانتهيتُ إلى النبى صلّى الله عليه وسلم وهو يقول : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إلّا رَسولٌ قد خلتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ الآية ، وأبو سفيانَ فى سَفْح الجبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله يدعو ربَّه : اللهم ليس لهم أن يَعلُوا . فانكشفوا .

قال الواقدىّ : فكان أبو أسَيْد الساعدىّ يحدِّث فيقول : لقد رأيتُنا قبل أن يلقى النُّعاس علينا فى الشِّعب وإنَّا لسلْم لمن أرادَنا ، لِما بنا من الُحزن ، فألقى علينا النُّعاس ، فنمنا حتى تَناطح الحجَف[٢] ، ثم فزِعنا وكأنَّا لم يصبنا قبلَ ذلك نَكْبة . قال : وقال الزبير ابنُ العوّام : غشينا النعاس فما منَّا رجل إلا وذَقَنه فى صدرِه من النوم ، فأسمع معتِّب بن قُشَير — وكان من المنافقين — يقول : وإنِّى لكالحالم : ﴿ لو كانَ لَنَا من الأَمرِ شىء ما قُتِلنا هاهنا ﴾[٣] ، فأنزل الله تعالى فيه ذلك .

قال : وقال أبو اليُسْر : لقد رأيتنى ذلك اليومَ فى رجال من قومى إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وآله وقد أنزل الله علينا النّعاس أَمَنةً منه ، مامنهم رجل إلّا يغطّ غَطِيطا حتّى إن الحجَف لتناطَح ، ولقد رأيتُ سيفَ بشرِ بن البراء بن مَعْرور سَقَط من يده

---

(١) استرجع : قال : إنا لله وإنا إليه راجعون .
(٢) الحجف بالتحريك : جمع حجفة ؛ وهى الترس .
(٣) سورة آل عمران : ١٥٤ .

ومايشعر به حتّى أخذه بعد ماتثلّم ، وإنّ المشركين لتحتَنا ، وسقَط سيفُ أبي طلحة أيضا ولم يُصِب أهلَ الشكّ والنِّفاق نُعاسٌ يومئذ ، وإنّما أصاب النّعاس أهلَ الإيمان واليقين، فكان المنافقون يتكلّم كلٌّ منهم بما فى نفسه ، والمؤمنون ناعسون .

* * *

قلت : سألتُ ابن النجّار المحدِّث عن هذا الموضع فقلت له : مِن قصّة أحُد تُدَلّ على أنّ المسلمين كانت الدولة لهم بادئَ الحال ، ثم صارت عليهم ، وصاح الشيطان: قُتِل محمد ، فانهزم أكثرهم ، ثم ثاب أكثرُ المنهزِمين إلى النّبيّ صلّى الله عليه وآله، فحاربوا دونه حَرْباً كثيرة طالت مدَّتُها حتى صار آخرُ النهار ، ثم أصعدوا فى الجبل معتصمين به، وأصعد رسول الله صلى الله عليه وآله معهم ، فتحاجز الفريقان حينئذ ، وهذا هو الّذى يدلّ عليه تأمُّل قصّة أحد ، إلّا أنّ بعض الروايات الّتى ذكرها الواقدىّ يقتضى غير ذلك ، نحو روايته فى هذا الباب أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، لمّا صاح الشيطان : إنّ محمداقد قُتِل ، كان ينادى المسلمين فلا يعرّجون عليه ، وإنّما يُصعدون فى الجبل ، وإنّه وجّه نحو الجبل ، فانتهى إليهم وهم أوزاع يتذاكرون بقتْل من قُتل منهم ؛ وهذه الرواية تدلّ على أنّه أصعد صلّى الله عليه وآله فى الجبل من أوّل الحرب ، حيث صاح الشيطان ، وصياحُ الشّيطان كان حال كون خالد بن الوليد بالجبل من وراء المسلمين لمّا غشيهم وهم مشتغلون بالنهْب واختلط الناسُ ، فكيف هذا !

فقال : إنّ الشّيطان صاح . قتل محمد دفعتين : دفعة فى أوّل الحرب ، ودفعة فى آخر الحرب ، لمّا تصرّم النهار وغشيت الكتائب رسول الله صلى الله عليه وآله وقد قُتل ناصروه وأكلتْهم الحرب ، فلم يبق معه إلّا نفر يسير لايبلغون عشرة ، وهذه كانت أصعبُ وأشدُّ من الأولى ، وفيها اعتصم ، وما اعتصم فى صرخة الشيطان الأولى بالجبل ، بل ثبت وحامَى عنه أصحابه ، ولقد لقى فى الأولى مشقّة عظيمة من ابن قمِيئة وعُتْبة بن أبى وقّاص وغيرهما ،

ولـكنّه لم يفارقْ عرْصة الحرب ، وإنّمـا فارقهـا وعَلِم أنّه لم يبق له وجه مُقـام فى صرخته الثانية .

قلت له : فـكان القومُ مختلطين فى الصّرخة الثانية حتّى يَصرُخ الشيطان : قُتِل محمد !
قال : نعم ، المشركون قد أحاطوا بالنبىّ صلّى الله عليه وآله وبمن بَقِيَ معـه من أصحابه ، فاختلط المسلمون بهم ، وصاروا مغمورين بينهم ، لقلّتهم بالنسبة إليهم ؛ وظنّ قوم من المشركين أنّهم قد قَتلوا النبىّ صلّى الله عليه وآله لأنّهم فقدوا وجهه وصورتَه ، فنـادى الشيطان : قُتِل محمّد ، ولم يكن قُتِل صلّى الله عليه وآله ، ولـكن اشتبهتْ صورتُه عليهم وظنّوه غيرَه ، وأكثر من حامَى عنه فى تلك الحال علىٌّ عليه السلام وأبو دُجانة وسهلُ ابنُ حنيف ، وحامَى هو عن نفسه ، وجرح قوما بيده تارةً بالسهام ، وتارة بالسيف ولـكن لم يعلموا بأعيانهم لاختلاط القوم وثوران النَّقْع [(١)] ، وكانت قريشٌ تظنّه واحـداً من المسلمين ، ولو عرفوه بعينه فى تلك الثورة لـكان الأمر صعبا جدّا ، ولـكنّ الله تعالى عَصمه منهم بأن أزاغ أبصارَهم عنه ، فلم يزل هؤلاء الثلاثة يجالدون دونه ، وهو يَقرُب من الجبل حتّى صار فى أعلى الجبل ، أصعَد من فم الشِّعب إلى تدريج هناك فى الجبـل ، ورَقِى فى ذلك التـدريج صاعدا حتى صار فى أعلى الجبـل ، وتبعه النفر الثّلاثة فلَحِقوا به .

قلتُ له : فما بال القوم الّذين صعدوا الجبـلَ من المشركين ، وكيف كان إصعادهم وعَوْدُهم ؟

قال : أصْعَدُوا لحرب المسلمين لا لِطَلب رسول الله صلّى الله عليه وآله ؛ لأنّهم ظنوا أنه قد قُتِل ، وهذا هو كان السبب فى عَوْدهم من الجبل ، لأنهم قالوا : قد بلغْنا الغرضَ

---

(١) النقع : غبار الحرب .

الأصلىّ وقتلْنا محمّدا ، فما لنا والتّصميم على الأوْس والخَزْرج وغيرهم من أصحابه ، مع مافى ذلك من عظم الخطر بالأنفس !

قلت له : فإذا كان هذا قد خَطَر لهم ، فلماذا صعدوا فى الجبل .

قال : يخطر لك خاطر ، ويدْعوك داعٍ إلى بعض الحركات ، فإذا شرعتَ فيها خَطَر لك خاطرٌ آخر يصرفك عنها ، فترجع ولا تتمها !

قلت : نعم فما بالهم لم يقْصِدوا قصدَ المدينة ويَنهبوها ؟

قال : كان فيها عبدُ الله بنُ أبَىّ فى ثلثمائة مقاتل وفيها خَلْق كثير من الأوس والخَزْرج ، لم يحضروا الحربَ وهم مسلمون ، وطوائف أخرُ من المنافقين لم يخرجوا ، وطوائف أخرى من اليهود ، أولُو بأسٍ وقوّة ، ولهم بالمدينة عيال وأهلٌ ونساء ، وكلٌّ هؤلاء كانوا يحامون عن المدينة ، ولم تكن قريش تَأمَن مع ذلك أن يأتيها رسولُ الله صلّى الله عليه وآله من ورائها بمن يُجامعه من أصحابه فيحصلوا بين الأعداء من خلفهم ومن أمامهم ، فكان الرأىُ الأصوَبُ لهم العدول عن المدينة وترك قصدها .

* * *

قال الواقدىّ : حدّثنى الضحاك بن عثمان ، عن حمزة بن سعيد ، قال : لما تحاجزوا وأراد أبو سفيانَ الانصرافَ ، أقبل يسيرُ على فرس له حوراء [(١)] ، فوقف على أصحاب النبىِّ صلى الله عليه وسلم وهم فى عرض الجبل ، فنادى بأعلى صوته : اُعل هُبَل ، ثم صاح : أين ابن أبى كبْشة ؟ يومٌ بيوم بدر ، ألا إن الأيام دُوَل .

وفى رواية أنّه نادى أبا بكر وعمر أيضا ، فقال : أين ابنُ أبى قحافة ؟ أين ابن الخطّاب ؟ ثم قال : الحربُ سِجال ، حنظلةٌ بحنظلة ، يعنى حنظلة بن أبى عامر بحنظلة بن

---

(١) حوراء : واسعة العينين .

أبى سُفيان ، فقال عمر بن الخطّاب : يارسولَ الله، أجيبه ؟ قال : نعم فأجِبْه ، فلماقال:أُعل هُبَل قال عمرُ : الله أعلى وأجلّ .

ويُرْوَى انّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال لعمر : قل له : لله أعلى وأجلّ ، فقال أبو سفيان : إن لنا العُزّى ولا عُزّى لكم ، فقال عمر : أو قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل له : الله مولانا ولا مولى لكم ، فقال أبو سفيان : إنها قد أنعمت ، فقال : عنها يابن الخطاب ، فقال سعيد بن أبى سفيان : ألا إن الايام دول وان الحرب سجال ، فقال عمر: ولاسواء[1] ؛ قتْلانا فى الجنةوقتلاكم فى النار ،فقال أبوسفيان: إنكم لتقولون ذلك لقد جُبّنا إذاً وخسرنا ، ثم قال : يابن الخطاب ، قمْ إلىّ أكلّمك :فقام إليه فقال:أنشدك بدينك:هل قتلنا محمدا ؟ قال : اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن ، قال: أنت عندى أصدق من ابن قميئة ، ثم صاح أبو سفيان ورفع صوته : إنكم واجدون فى قتلاكم عنتاً ومثلا،ألا إنّ ذلك لم يكن عن رأى سراتنا ، ثم أدركته حَمِيَّةُ الجاهلية فقال : وأما إذ كان ذلك فلم نكرهه؟ ثم نادى : ألا إنّ موعدكم بدر الصفراء ، على رأس الحول ، فوقف عمروقفةً ينتظرمايقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : قل : نعم ، فانصرف أبو سفيانَ إلى أصحابه وأخذوا فى الرَّحيل ، فأشفق رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون من أن يُغيروا على المدينة فيهلك الذرارىّ والنساء ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله لسعد بن أبى وقّاص :اذهب فأتنا بخبر القوم ، فإنهم إن ركبوا الإبل وجنبوا[2] الخيل فهو الظّعنُ إلى مكة ، وإن ركبوا الخيل وجنبوا الإبل فهو الغارة على المدينـــة ، والذى نفسى بيده ، إن ساروا إليها لأسيرنَّ إليهم ثم لأناجزنّهم . قال سعد : فتوجهت أسعى وأرصدت نفسى إن أفرعنى شىء رجعت إلى النبىّ صلى الله عليه وسلّم وأنا أسعى ، فبدأت بالسَّعى حين ابتدأت ، فخرجت فى آثارهم

---

(١) ولا سواء : يعنى لا يستوى هذا وذاك .

(٢) جنبوا الخيل ، أى ساقوها إلى جانبهم .

حتى إذا كانوا بالعَقِيق[1] وأنا بحيث أراهم وأتأمّلهم ركبوا الإبل وجنبوا الخيل ، فقلت: إنه الظعن إلى بلادهم ، ثم وقفوا وقفةً بالعقيق ، وتشاوروا فى دخول المدينة ، فقال لهم صفوان ابن أمية : قد أصبتم القومَ ، فانصرفوا ولا تدخلوا عليهم وأنتم كالّون ، ولكم الظفر ، فإنكم لاتدرون ما يغشاكم ، فقد ولّيتم يومَ بدر ، لا والله ماتبعوكم وكان الظفر لهم . فيقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال : نهاهم صفوان . فلما رآهم سعد على تلك الحال منطلقين وقد دخلوا فى المكمن رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم وهو كالمنكسر فقال : وُجِّه القوم يارسولَ الله إلى مكةَ ، امتطوا الإبل وجنبوا الخيل . فقال : ماتقول ؟ قلت : ماقلت يارسول الله ، فخلا بى فقال : أحقًّا ماتقول ؟ قلت : نعم يارسول الله ، قال : فما بالى رأيتك منكسرا ؟ فقلت : كرهت ان آتى المسلمين فرحا بقُفولِهم إلى بلادهم ، فقال صلّى الله عليه وسلم : إن سعداً لَمُجرِّب .

قال الواقدىّ : وقد روى خلاف هذا ، روى أن سعدا لما رجع رفع صوته بأن جنبوا الخيل ، وامتطوا الإبل ، فجعل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يشير إلى سعد : خفِّض صوتك فإن الحرْب خَدْعة ، فلا تُرِى الناس مثل هذا الفرح بانصرافهم ، فإنما ردّهم الله تعالى .

قال الواقدىّ : وحدّثنى ابن أبى سَبْرة ، عن يحيى بن شبل ، عن أبى جعفر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبى وقّاص : إن رأيتَ القوم يريدون المدينة فأخبرنى فيما بينى وبينك ، ولا تفتّ فى أعضاد المسلمين ، فذهب فرآهم قد امتَطَوا الإبل ، فرجع ، فما ملك أن جعل يصيحُ سرورا بانصرافهم .

قال الواقدىّ : وقيل لعمرو بن العاص : كيف كان افتراق المسلمين والمشركين يومَ

---

(١) العقيق : موضع بالمدينة فيه عيون ونخيل . (ياقوت) .

أحد ؟ فقال : ما تريدون إلى ذلك ! قد جاء الله بالإسلام، ونفى الكفر وأهله ، ثم قال : لما كررْنا عليهم أصبنا مَنْ أصبنا منهم وتفرّقوا فى كلّ وجه ، وفاءت لهم فئةٌ بعد ؛ فتشاورت قريش، فقالوا: لنا الغلَبة ، فلو انصرفنا ، فإنه بلغنا أن ابنَ أُبيّ انصرف بثلث الناس ، وقدتخلّف الناسُ من الأوْس والخزرج، ولا نأمن أن يكرّوا علينا، وفيناجراح، وخيلُنا عامّتها قدعُقِرت من النَّبل، فمضينا ، فما بلغنا الرَّوحاء(١) حتى قام علينا عدّة منها؛ وانصرفنا إلى مكة .

قال الواقدىّ : حدثنى إسحاق بن يحيى بن طلحة ، عن عائشة ؛ قال: سمعتُ أبا بكر يقول : لما كان يومُ أُحُد ورُمِى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وجهه حتى دخلتْ فى وجهه حَلْقتان من المِغْفر ، ، أقبلتُ أسعى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنسان قد أقبل من قِبَل المشرق يطير طيرَانا ، فقلت : اللهمّ اجعله طلحة بن عبيدالله ؛ حتى توافيْنا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، فإذا أبو عبيدة بن الجرّاح ، فبدرنى فقال : أسألك بالله يا أبا بكر إلّا تركتنى فأنتزعه من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال أبو بكر : فتركتُه . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عليكم صاحبَكم » ، يعنى طلحة ، فأخذ أبو عبيدة بثَنيّته حلْقة المِغفر ، فنزعها وسقط على ظهره ، وسقطتْ ثنيّة أبى عبيدة ، ثم أخذ الحلْقة بثنيّته الأخرى ، فكان أبو عبيدة فى الناس أثرَم(٢) . ويقال : إن الذى نَزَع الحلْقتين من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم عُقبة بن وَهْب بن كَلدة ؛ ويقال : أبو اليسر .

قال الواقدىّ : وأثبت ذلك عندنا عقبة بن وهْب بن كَلَدَة .

قال الواقدىّ : وكان أبو سعيد الخُدْرِىّ يحدّث أن رسول الله صلى الله عليه سلم

---

(١) الروحاء : موضع على أربعين ميلا من المدينة .
(٢) الأثرم : الذى لا أسنان له .

أصيب وجههُ يومَ أحُد ، فدخلت الحلْقتان من المِغْفر فى وَجْنتيه ، فلمّا نُزِعتا جعل الدم يَسربُ كما يسرب الشّنّ[١] ، فجعل مالك بنُ سِنان يمجّ الدمَ بفيه ، ثم ازدَرَدَه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ أحبّ أن ينظر إلى مَن خالط دمه بدمى فلْينظر إلى مالك بن سِنان . فقيل لمالك : تشرب الدمَ ! فقال : نعمْ ؛ أشربُ دَم رسول الله صلى الله عليه وسلّ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « مَنْ مسّ دمُه دمى لم تُصِبْه النار » .

قال الواقدىّ : وقال أبو سعيد : كنّا ممّن رُدّ من الشّيخين[٢] لم نَجُزْ مع المُقَاتِلة ، فلمّا كان من النَّهار بلغَنا مصابُ رسول الله صلى الله عليه وآله ، وتفرّق الناسِ عنه ، جئتُ مع غِلْمان بَنِى خُدْرَة نَعرِضُ لرسول الله صلى الله عليه وآله ننظر إلى سلامته ، فنرجع بذلك إلى أهلنا ، فلقيَنا الناس متفرّقين ببطن قناة ، فلم يكن لنا همّة إلا النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ننظر إليه ؛ فلما رآنى قال : سعدُ بنُ مالك ! قلتُ : نعم ، بأبى أنت وأمى ! ودنوتُ منه ، فقبّلت ركبتَه وهو على فرسه ؛ فقال : آجَرَكَ الله فى أبيك ! ثم نظرت إلى وجهه ، فإذا فى وَجْنتيه مثل موضع الدِّرهم فى كلّ وَجْنة ، وإذا شجّةٌ فى جبهته عند أصول الشعر ، وإذا شفتهُ السفلى تَدمى ، وإذا فى رباعيَته اليمنى شَظِيّة ، وإذا على جُرحه شىءٌ أسود ، فسألت : ما هذا على وجهه ؟ فقالوا : حصيرٌ محرَق . وسألتُ : مَن أدْمى وجنتيه ؟ فقيل : ابن قَمِيئة ، فقلتُ : فمن شجّه فى وجهه ؟ فقيل : ابنُ شهاب ؛ فقلتُ : مَن أصاب شفتيه ؟ قيل : عتبة بنُ أبى وَقاص . فجعلت أعدُو بين يديه حتى نزل ببابه ، ما نزل إلا محمولا ، وأرى ركبتيه مجحوشتَيْن[٣] يتكئ [على][٤] السَّعْدَيْن : سعد بن معاذ وسعد ابن عُبادة ؛ حتى دخل بيته ، فلما غربت الشمسُ وأذّن بلالٌ بالصلاة ، خرج على تلك الحال

---

(١) الشن : القربة الخلق .
(٢) الشيخان : موضع بالمدينة ؛ كان به معسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحد ، وهما أطمان سميا به .
(٣) يقال : جحش الجلد : سحجه ؛ وهو كالخدش أو فوقه .
(٤) من ا .

يتوكّأ على السَّعْدين : سعد بن عبادة وسعد بن معاذ ، ثم انصرَف إلى بيتــه والناس فى المسجد يوقِدون النيران يتمــكدون بها من الجراح ، ثم أذّن بلالٌ بالعشاء حين غاب الشفق ، فلم يخرُج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجلس بلالٌ عند بابه صلى الله عليه وسلم حتى ذهبَ ثلث الليل ، ثم ناداه : الصلاة يارسول الله ! فخرج ، وقد كان نائمــا ، قال : فرمقْتُه فإذا هو أخفّ فى مشيته منه حين دخل بيته ، فصلّيت معه العشاء ، ثم رجع إلى بيته قد صفّف له الرجالُ مابين بيته إلى مُصَلّاه يمشى وحده حتى دخل ، ورجعتُ إلى أهلى فخبّرتهم بسلامتــه ، فحمــدوا الله وناموا ، وكانت وجوه الأوْس والخزْرج فى المسجد على النبى صلى الله عليه وسلم يحرُسونه فرَقًا من قريش أنْ تــكرّ .

قال الواقدىّ : وخرجت فاطمة عليها السلام فى نساء ، وقد رأت الذى بوجــه أبيها صلى الله عليه وسلم ، فاعتنقَتْه ، وجعلت تمسح الدم عن وجهه، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اشتدَّ غضبُ الله على قوم دَمَّوْا وجهَ رسوله.وذهب علىّ عليه السلام فأَتَى بماء من المِهْراس، وقال : لفاطمة امسِكى هذا السيف غير ذميم ، فنظر إليه رسول الله صلّى الله عليه وسلم مختضبا بالدم، فقال : لئن كنت أحسنت القتال اليوم، فلقد أحسن عاصمُ بن ثابت والحارث بن الصِّمّةوسهل بن حُنَيف ، وسيف أبى دُجانة غير مذموم ؛ هكذاروى الواقدىّ .

وروى محمد بنُ إسحاق أنّ عليًّا عليه السلام قال لفاطمة بيتىْ شِعر ، وهما :

أفاطِمَ هاء السَّيف غــير ذميمِ فلستُ برِعْــد يدٍ ولا بلئيمِ
لَعَمْرى لقد جاهدتُ فى نصرأحمدٍ وطاعة ربٍّ بالعبــــاد رحيم

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : لئن كنتَ صدقتَ القتال اليوم لقــد صدق معك سِماكُ بن خَرَشة ، وسهل بن حُنَيْف .

قال الواقدىّ : فلما أحضر علىٌّ عليه السلام ، الماء أراد رسول الله صلّى اللهعليه وسلم أن يشرب منه ، فلم يستطع ، وقد كان عطِشاً ، ووجد ريحا من الماء كرهَها ، فقال : هذا ماء آجن ، فتمضمض منه للدّم الّذى كان بفيه ثم مجّه ، وغسلت فاطمةُ به الدم عن أبيها صلّى الله عليه وسلم ، فخرج محمد بنُ مسلمةَ يطبّ مع النساء ، وكنّ أربع عشرة امرأة ، قد جئن من المدينة يتلقّين الناس منهنّ فاطمة عليها السلام يحملن الطعامَ والشراب على ظُهورِهنّ ، ويسقين الجرحى ويُداوينَهم .

قال الواقدىّ : قال كعب بن مالك : رأيتُ عائشة وأمّ سليم على ظهورهما القِرَب تحملانها يوم أُحُد ، وكانت حَمْنة بنتُ جحْش تسقى العطشَى وتداوى الجرحى ، فلم يجد محمد بن مسلمة عندهنّ ماء ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قد اشتدّ عطشه ،فذهب محمد ابن مسلمة إلى قناة ومعه سقاؤه حتى استقى من حُسى – قناة عند قصور التميميين اليوم – فجاء بماء عذْب ، فشرب منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا له بخير ، وجعل الدم لا ينقطع من وجهه عليه السلام وهو يقول : لن ينالوا منّا مثلها حتى تَسْتلم الرُّكن ! فلمّا رأت فاطمة الدّم لا يرقأ وهى تغسل جراحه ، وعلىٌّ يصبّ الماء عليها بالمجنّ ، أخذت قطعة حصير فأحرقته حتى صار رمادا ، ثم ألصقته بالجرح ، فاستمسك الدّم . ويقال : إنها داوته بصوفة محرّقة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد يداوِى الجراح الذى فى وجهه بعظْمٍ بال حتى ذهب أثرُه . ولقد مكث يجد وَهَنَ ضربة ابن قمِيئة على عاتقه شهرا أو أكثر من شهر ، ويداوى الأثر الذى فى وجهه بعظْم .

قال الواقدىّ : وقال رسول الله صلى الله عليه وآله قبل أن ينصرف إلى المدينة: مَنْ يأتينا بخبر سعد بن الربيع؟فإنّى رأيته–وأشار بيده إلى ناحية من الوادى– قد شرِع فيه اثنا عشر سنانا ، فخرج محمد بن مسلمة – ويقال أبىّ بن كعب – نحو تلك الناحية . قال : فأنا وسط القتلى لتعرّفهم ، إذ مررت به صريعا فى الوادى ، فناديته فلم يجب ، ثم قلت : إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلنى إليك.قال : فتنفّس كما يتنفّس الطير ؛ ثم قال :

وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لحيٌّ ! قلتُ : نعم ، وقد أخبرنا أنه شرع لك اثناعشر سنانا ، فقال : طعِنت اثنتى عشرة طعنة كلها أجافتنى ، أبلغ قومك الأنصار السلام وقل لهم : الله الله وما عاهدتمْ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقَبة ! والله مالكم عذر عند الله إن خلص إلى نبيّكم ومنكم عينٌ تطرِف ؛ فلم أرِمْ[1] من عنده حتى مات ؛ فرجعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، فرأيته استقبل القبلة رافعا يديه يقول: «اللهم ألقَ سعدَ بن الربيع وأنت عنه راضٍ» .

قال الواقديّ : وخرجت السّمداء بنتُ قيس ؛ إحدى نساء بنى دينار ، وقد أصيبَ ابناها مع النبيّ صلّى الله عليه وآله بأُحُد : النّعمان بن عبدعمر ، وسُليم بن الحارث ، فلمّا نُعيا لها قالت : فما فَعَل رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ؟ قالوا : بخير ، هو بحَمْد الله صالح على ماتحبّين ، فقالت : أرُونيه أنظرُ إليه ، فأشاروا لها إليه ، فقالت : كلُّ مصيبة بعدَك يارسول الله جَللٌ[2] ! وخرجتْ تسوقُ بابنيها بعيرا ، [تردّهما إلى المدينة][3] ؛ فلقيتْها عائشةُ ؛ فقالت : ماوراءكِ ؟ فأخبرتْها[4] ، قالت : فمن هؤلاء معك ؟ قالت ابناى ؛ حلْ حلْ[5] تحملهما إلى القبر .

قال الواقديّ . وكان حمزةُ بن عبد المطّلب أوّل من جيء به إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله بعد انصراف قريش — أو كان من أوّلهم — فصلّى عليه رسولُ الله صلّى الله عليه وآله، ثم قال :رأيتُ الملائكةَ تغْسله — قالوا : لأنّ حمزة كان جُنُبا ذلك اليوم — ولم يغسل رسول الله صلى الله عليه وآله الشهداء يومئذ ، وقال : لُفُّوهم بدمائهم وجراحهم ، فإنه ليس أحد يجرَح فى سبيل الله إلّا جاء يومَ القيامة لونُ جُرحه لون الدّم ، وريحه ريح المسك ، ثم

(١) لم أرم : لم أبرح .
(٢) جلل ، أى هينة .
(٣) من الواقدى .
(٤) فى الواقدى : قالت: أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فبخير لم يمت ، واتخذ الله من المؤمنين شهداء:
﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ﴾
(٥) حل : زجر للبعير .

قال : ضَعوهم فأنا الشّهيد على هؤلاء يوم القيامة ، وكان حمزةُ أوّلَ من كُبِّر عليه أربعا ، ثم جمع إلية الشهداء فكان كلّما أُتِىَ بشَهيد وُضِع إلى جَنْب حمزة فصلّى عليه وعلى الشهيد، حتى صلّى عليه سبعين مرة ، لأنّ الشهداء سبعون .

قال الواقدىّ . ويقال : كان يُؤتَى بتسعة وحمزة عاشرهم ، فيصلّى عليهم ، وتُرفع التسعة ، ويُترك حمزة مكانه ، ويؤتَى بتسعةٍ آخرين فيوضعون إلى جنب حمزة فيُصلّى عليه وعليهم، حتى فعل ذلك سبعَ مرّات ، ويقال : إنه كَبَّر عليه خمسا وسبعا وتسعا .

قال الواقدىّ : وقد اختلفت الرواية فى هذا ، وكان طلحة بنُ عُبيد الله وابنُ عبّاس وجابر بن عبدالله يقولون : صلّى رسول الله صلى الله عليه وسلّم على قتلَى أُحُد ، وقال : « أنا شهيدٌ على هؤلاء » ؛ فقال أبو بكر : ألسْنَا إخوانهم أسلمْنا كما أسلموا ، وجاهَدْنَا كما جاهدوا ! قال : بلى ، ولكنْ هؤلاء لم يأكلوا من أجورهم ، شيئًا ، ولا أدرى ماتحدِثون بعدى ! فبكى أبو بكر وقال : إنّا لكائنون بعدَك !

وقال أنس بنُ مالك وسعيد بنُ المسيّب : لم يصلّ رسول الله صلى الله عليه وآله على قتلى أُحُد .

قال الواقدىّ : وقال لأهل القَتْلى : احفروا وأوسِعوا وأحسنوا ، وادفنوا الاثنين والثلاثة فى القبر ، وقدِّموا أكثرَهم قرآنا . وأمر بحمزة أن تمدّ بُردته عليه وهو فى القبر، وكانت قصيرة ، فكانوا إذا خمّروا بها رأسَه بدت رجلاه ، وإذا خمّروا بها رجلَيْه انكشف وجهه ، فبكَى المسلمون يومئذ ، فقالوا : يارسول الله : عمّ رسول الله يُقتل فلا يوجد له ثوب ! فقال : بلى ؛ إنكم بأرض جَرْديّة[1] ذات أحجار ، وستفتح ـ يعنى الأرياف والأمصار ـ فيخرج الناسُ إليها ، ثم يبعثون إلى أهليهم ، والمدينة خيرلهم لو كانوا يعلمون؛

---

(١) جردية ؛ قال الواقدى : التى ليس بها شىء من الأشجار .

والّذى نفسى بيَدِه لاتصبِر نفسٌ على لأوائها وشدّتها إلّا كنتُ لها شفيعا ـ أو قال : شهيدا يومَ القيامة .

قال الواقدىّ : وأُتِى عبدُ الرحمن بنُ عوف فى خلافة عثمانَ بثياب وطعام فقال : ولكنّ حمزة لم يوجدْ له كَفَن ، ومصعب بنُ عُمَير لم يوجد له كَفَن ، وكانا خيراً منّى !

قال الواقدىّ : ومرّ رسول الله صلى الله عليه وآله بمُصعب بن عُمير وهو مقتول مسجًّى ببردة خَلَق ، فقال : لقد رأيتك بمكة وما بها أحد أرقّ حُلّة ولا أحسن لِمّة منك، ثم أنت اليوم أشعث الرأس فى هذه البُرْدة ! ثم أمر به فقُبِر ، ونَزَل فى قبره أخوه أبو الرّوم وعامر بن ربيعة وسُوَيبطة بن عمرو بن حَرْملة ، ونزل فى قبر حمزة علىّ عليه السلام والزُّبيرُ وأبو بكر وعمرُ ورسولُ الله صلى الله عليه وآله جالسٌ على حفرته .

قال الواقدىّ : ثم إنّ النّاس أو عامّتهم حَمَلوا قَتْلاهم إلى المدينة ، فدُفن بالبقيع منهم عدّة ، عند دارزيد بن ثابت ، ودُفِن بعضهم ببنى سَلِمة ، فنادى منادِى رسولِ الله صلّى الله عليه وآله: ردّوا القَتْلى إلى مضاجعهم ـ وكان الناس قد دفنوا قَتْلاهم ـ فلم يردّ أحدٌ أحداً منهم إلّا رجلا واحدا أدركه المنادى ولم يُدفَن ، وهو شمّاس بن عثمان المخزومىّ ، كان قد حُمِل إلى المدينة وبه رَمَق ، فأُدخِل على عائشة فقالت أمّ سلمة: ابن عمّى يدخل إلى غيرى! فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : احملوه إلى أمّ سلمة ، فحَمَلوه إليها فمات عندها ، فأمر رسولُ الله صلّى الله عليه وآله أن يُردّ إلى أُحُد فيُدفَن هناك كما هو فى ثيابه الّتى مات فيها ، وكان قد مكث يوماً وليلةً ولم يذق شيئاً ، فلم يصلِّ عليه رسول الله صلّى الله عليه وآله ولا غَسّله .

قال الواقدىّ : فأمّا القبور المجتمعة هناك فكثير من النّاس يظنّها قبورَ قتلَى أُحُد ، وكان طلحة بن عبيد الله وعبّاد بن تميم المازنىّ يقولان: هى قبور قوم من الأعراب كانوا

عامَ الرمَّادة فى عهد عمرَ هناك ، فماتوا ، فتلك قبورهم . وكان ابن أبى ذئب وعبدُ العزيز ابن محمّد يقولان : لانعرف تلك القبورَ المجتمعة ، إنّما هى قبورُ ناس من أهل البادية ، قالوا : إنّا نعرف قبرَ حمزة وقبرَ عبد الله بن حزام وقبرَ سهل بن قيس ، ولا نعرف غيرَ ذلك .

قال الواقدىّ : وكان رسولُ الله صلّى الله عليه وآله يزور قتلَى أُحُد فى كلّ حَوْل ، وإذا لقوه بالشِّعب رَفَع صوتَه يقول : السّلام عليكم بما صبرتم فنعم عُقْبَى الدّار ! وكان أبو بكر يَفعل مِثلَ ذلك، وكذلك عمرُ بنُ الخطّاب ؛ ثم عثمان ، ثم معاوية ؛ حين يمرّ حاجّا ومعتمِراً .

قال : وكانت فاطمةُ بنتُ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله تأتيهم بينَ اليومَين والثّلاثة فتبكى عندهم وتدعو، وكان سعدُ بنُ أبى وقّاص يَذهب إلى ماله بالغابة ، فيأتى مِن خلف قبور الشُّهداء فيقول : السّلام عليكم ؛ ثلاثا ، ويقول : لايسلّم عليهمْ أحدٌ إلّا ردُّوا عليه السلام إلى يوم القيامة . قال : ومَرَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله على قبر مُصعَب بن عُمير ، فوقف عليه ، ودعا وقرأ : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾[1] ، ثم قال : إنّ هؤلاء شهداء عند الله يومَ القيامة ، فأتوهم فزُوروهم وسلِّموا عليهم ، والّذى نفسى بيَده لايسلّم عليهم أحدٌ إلى يوم القيامة إلّا رَدُّوا عليه . وكان أبو سعيد الخُدْرىّ يقف على قبر حمزةَ فيدعو ويقرأ ويقول مِثلَ ذلك . وكانت أمُّ سَلَمة رحمها الله ؛ تَذهب فتسلِّم عليهم فى كلّ شهر فتظلّ يومَها ، فجاءت يوماً ومعها غلامُها أنبهان ، فلم يسلِّم ، فقالت : أى لُكَع ! ألا تُسلِّم عليهم ! والله لايسلِّم عليهم أحدٌ إلا رَدّوا عليه إلى يوم القيامة .

قال : وكان أبو هريرةَ وعبدُ الله بن عمَر يذهبان فيسلِّمان عليهم ؛ قالت فاطمة

---

(١) سورة الأحزاب ٢٣ .

الخزاعيّة : سلّمتُ على قبر حمزةَ يوماً ومعى أختٌ لى ؛ فسمعْنا من القبر قائلا يقول : وعليكما السلام ورحمة الله ! قالت : ولم يكن قربنا أحدٌ من النّاس .

قال الواقدىّ : فلمّا فرغ رسول الله صلى الله عليه وآله من دفنهم دعا بفرسه فركبه، وخرج المسلمون حوله عامّتهم جَرحى ، ولا مثل بنى سلِمة وبنى عبد الأشهل ،فلمّا كانوا بأصل الحَرّة قال : اصطفّوا ، فاصطفّت الرجال صفّين ، وخلفهم النساء وعدّتُهنّ أربع عشرةَ امرأةً ، فرفع يديه فدعا ، فقال : اللهمّ لك الحمد كلّه ، اللهمّ لاقابضَ لما بسطتَ ، ولا مانعَ لما أعطيت ، ولا معطىَ لما منعت ، ولا هادىَ لمن أضللت ، ولامُضِلّ لمن هَدَيت، ولا مقرِّب لما باعَدْت ، ولا مباعِدَ لما قرَّبت . اللهمّ إنّى أسألك منْ برَكتك ورحمتك وفضلِك وعافيتِك ، اللهمّ إنى أسألك النعيمَ المقيمَ الّذى لايحول ولايزول،اللهمّ إنى أسألك الأمن يومَ الخوف ، والغِناء يومَ الفاقة ، عائذا بك ، اللهمَّ من شرّ ما أعطيتَ ، ومن شرّ مامنعت ، اللهمّ توفّنا مسلمين ، اللهمّ حبِّب إلينا الإيمان ، وزيِّنه فى قلوبنا ، وكرِّه إلينا الكفرَ والفسوقَ والعِصيان ، واجعلنا من الرّاشدين ، اللهمّ عذِّب كَفَرة أهل الكتاب الّذين يُكَذّبون رسلك ، ويصدّون عن سبيلك ، اللهمّ أنزل عليهم رِجْسَك وعذابك إله الحقّ ، آمين !

قال الواقدىّ : وأقبل حتّى نزل ببنى حارثة يمينا حتى طلع على بنى عبد الأشهل وهم يبكون على قتلاهم ، فقال : لكنّ حمزة لابَواكى له ! فخرج النساء ينظرن إلى سلامة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فخرجت إليه أمّ عامر الأشهليّة ، وتركت النَّوْح ،فنظرتْ إليه وعليه الدِّرع كما هى ، فقالت : كلّ مصيبة بعدك جَلَل . وخرجتْ كبشةُ بنت عُتْبة ابن معاوية بن بَلْحَارث بن الخزرج تَعْدُو نحوَ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وهو واقف على فرسه ، وسعد بنُ معاذ آخذ بعنان فرسه ، فقال سعد : يارسول الله ، أمّى ، فقال : مرحبا بها ! فدنت حتّى تأملته ، وقالت : إذرأيتُك سالما فقد شفّت(١) المصيبة. فعزّاها بعمرو

(١) شفت المصيبة ؛ أى هانت .

ابن معاذ ، ثم قال : يا أمَّ سعد : أَبْشرى وبشِّرى أهليهم أنّ قتلاهم قد ترافقوا فى الجنّة جميعا وهم اثنا عشر رجلا ، وقد شفعوا فى أهليهم ، فقالت : رضينا يارسولَ الله ، ومن يَبكى عليهم بعدَ هذا ! ثم قالت : يارسولَ الله ، ادع لمن خلَّفوا ، فقال : اللهمّ أذهب حزنَ قلوبهم ، وآجر مصيبتَهم ، وأحسِن الخلف على مَن خلَّفوا . ثم قال لسعد بن مُعاذ : خُلّ أبا عمرو الدّابة ؛ فخلّ الفرس ، وتَبِعه الناس ، فقال : يا أبا عمرو ، إنّ الجراح فى أهل دارك فاشية ، وليس منهم مجروح إلا يأتى يومَ القيامة جُرحُه كأغزر ما كان؛ اللّون لونُ دم ، والرِّيح ريحُ مسك ، فمن كان مجروحا فليقَرَّ فى داره وليداوِ جرحه ، ولا تبلغ معى بيتى ؛ عزمة منّى . فنادى فيهم سعد : عزْمة مِن رسول الله صلّى الله عليه وآله ألّا يتبعه جَريح من بنى عبد الأشهل ، فتخلّف كلّ مجروح ، وباتوا يُوقِدون النِّيران ويُداوُون الجراح ، وإنّ فيهم لثلاثين جريحا ، ومضى سعد بنُ معاذ مع رسول الله صلّى الله عليه وآله إلى بيته ، ثم رجع إلى نسائه فساقهنّ ، فلم تَبْقَ امرأةٌ إلّا جاء بها إلى بيت رسول الله صلّى الله عليه وآله ، فبكَيْن بين المغرب والعشاء ، وقام رسولُ الله صلى الله عليه وآله حين فرغ من النّوم لثُلُث اللّيل ، فسمع البكاء فقال : ماهذا ؟ قيل : نساء الأنصار يَبكِين على حمزة ، فقال : رضى الله تعالى عنكنّ وعن أولادكنّ ؛ وأمَرَ النساءَ أن يرجعْن إلى منازلهنّ ، قالت أمّ سعد بن مُعاذ : فرجعْنا إلى بيوتنا بعد ليل ومعنا رجالُنا ، فما بكت منّا امرأة قطّ إلّا بدأتْ بحمزةَ إلى يومنا هذا . ويقال : إنّ مُعاذ بن جبَلَ جاء بنساء بنى سَلِمة ، وجاء عبدُ الله بنُ رَواحة بنساء بلحارث بن الخزْرج ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : ماأردت هذا ؛ ونهاهُنّ الغد عن النّوْح أشدّ النّهى .

قال الواقدىّ : وجعل ابنُ أُبىّ والمنافقون معه يَشمَتون ويُسَرُّون بما أصاب المسلمين، ويُظهِرون أقبحَ القول ، ورجع عبدُ الله بنُ أُبىّ إلى ابنه وهو جريح ، فبات يَكوِى الجراحةَ بالنّار ، حتّى ذهب عامّة الليل وأبوه يقول : ما كان خروجُك مع محمد إلى هذا

الوجه برأيي ؛ عصاني محمد وأطاع الولدان ! والله لكأنى كنتُ أنظر إلى هذا ، فقال ابنه : الذى صَنع اللهُ لرسوله وللمسلمين خير إن شاء الله . قال : وأظهرت اليهودُ القولَ السيِّء ، وقالوا : ما محمد إلا طالب مُلك ، ما أُصيب هكذا نبيّ قطّ فى بدنه وأصيبَ فى أصحابه ؛ وجعل المنافقون يُخَذِّلون[1] عن رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه ويأمرونهم بالتفرّق عنه ، وقالوا لأصحاب النبى صلى الله عليه وآله : لوكان من قُتِل منكم عندنا ماقُتِل ؛ حتى سَمِع عمر بن الخطاب ذلك فى أماكن ، فمَشَى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم يستأذنه فى قتل مَن سَمِع ذلك منهم من اليهود والمنافقين ، فقال له : ياعمر ، إن الله مُظهِر دينه ، ومعزّ نبيّه ، ولليهود ذِمّة فلا أقتلهم . قال : فهؤلاء المنافقون يارسول الله يقولون ، فقال :أليس يُظهِرون شهادةَ أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ! قال : بلى ، وإنما يفعلون تعوّذا من السّيف ، وقد بان لنا أمرُهم ، وأبدى الله أضغانَهم عند هذه النّكبة ، فقال : إنى نُهيت عن قتل من قال : لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله يابن الخطّاب ، إن قريشا لن ينالوا ما نالوا منا مِثلَ هذا اليوم حتى نَستلِم الركن[2] .

ورَوَى ابنُ عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلّم قال : إخوانكم لما أصيبوا بأُحد جُعِلت أرواحُهم فى أجواف طَير خُضر ، ترِدُ أنهار الجنة فتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديلَ من ذهب فى ظِلّ العرش ، فلما وجدوا طيب مَطعمِهم ومَشربهم ورأوا حسنَ مُنقلَبهم قالوا : ليت إخواننا يَعلَمون بما أكرمنا الله وبما نحن فيه لئلا يَزْهدوا فى الجْهاد ، ويكلّوا عند الحرب ! فقال لهم الله تعالى : أنا أبلّغهم عنكم ، فأنزل : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[3] .

* * *

---

(١) يخذلون عنه : يمنعون من نصرته .

(٢) استلم الركن : قبله أو لمسه بيده .

(٣) سورة آل عمران ١٦٩ .

القول فيما جرى للمشركين بعد انصرافهم إلى مكة

قال الواقدىّ : حدثنى موسى بن شيبة ، عن قَطَن بن وهيب اللّيثىّ ، قال : لمّا تحاجز الفريقان ، ووجّه قريشٌ إلى مَكة ، وامتطوا الإبل ، وجنَبوا الخيل ، سار وَحْشىّ ، عبد جُبَير ابنِ مُطعم على راحلته أربعا ، فقدِم مكة يبشر قريشا بمصاب المسلمين ، فانتهى إلى الثّنيّة الّتى تطلع على الحَجُون فنادى بأعلى صوته : يا معشر قريش ، مرارا ، حتى ثاب الناس إليه وهم خائفون أن يأتيَهم بما يكرهون ، فلما رضى منهم قال : أبشروا فقد قتلْنا من أصحاب محمد مقتلة لم نقتل مِثلَها فى زَحْف قطّ ، وجرحنا محمدا فأثبتْناه بالجراح ، وقتلنا رأسَ الكتيبة حمزة بن عبد المطّلب ، فتفرّق الناسُ عنه فى كلّ وجه بالشماتة بقتل أصحاب النبى صلى الله عليه وآله وإظهار السرور ، وخلا جُبير بنُ مطعِم بوحشىّ ، فقال : انظر ما تقول ! قال وحشىّ : قد والله صدقت . قال : قتلتَ حمزة ؟ قال : إى والله ولقد زَرَقْته بالمزراق[1] فى بطنه ، فخرج من بين فخذيه ، ثم نودى فلم يجب ، فأخذت كَبِدِه وحملتُها إليك لتراها . فقال : أذهبت حزن نسائنا ، وبرّدت حرّ قلوبِنا ؛ فأمر يومئذ نساءه بمراجعَة الطِّيب والدّهن .

قال الواقدىّ : وقد كان عبدُ الله بنُ أبى أميّة بن المغيرة المخزومىّ لما انكشف المشركون بأُحُد فى أوّل الأمر ، خرج هاربا على وجهه ، وكرِهَ أن يقدم مكّة ، فقدِم الطائف ، فأَخبر ثقيفا أنّ أصحاب محمد قد ظفروا وانهزَمْنا ، وكنت أوّل من قدم عليكم ، ثم جاءهم الخبر بعدُ أن قريشا ظفرتْ وعادت الدولةُ لها .

قال الواقدىّ : فسارت قريش قافلةً إلى مكة ، فدخلتْها ظافرةً ، فكان ما دخل على قلوبهم من السرور يومئذ نظيرمادخل عليهم من الكآبة والُحزن يومَ بدر ، وكان ما دخل

---

(١) المزراق : الرمح القصير ، وزرقه ، أى رماه .

على قلوب المسلمين من الغَيظ والحُزْن يومئذ نظير مادخل عليهم من السّرور والجذَل يوم بدر ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾[١] وقال سبحانه : ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾[٢]؛ قال : يعنى إنّكم يوم بدر قتلتم من قريش سبعين ، وأسرتم سبعين ، وأمّا يوم أُحُد فقُتل منكم سبعون ، ولم يؤسر منكم أحد ، فقد أصبتم قريشا بمثلَىْ ماأصابوكم يوم أُحُد، وقوله: ﴿أنَّى هذا﴾ أى كيف هذا ، ونحن موعودون بالنّصرِ ونزولِ الملائكة ، وفينانبىٌّ ينزل عليه الوحىُ من السماء ! فقال لهم فى الجواب : ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ ، يعنى الرُّماةَ الّذين خالفوا الأمر وعصَوا الرسول ، وإنّما كان النّصر ونزول الملائكة مشروطا بالطاعة وألّا يعصَى أمرُ الرسول ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾[٣] ، فعلّقه على الشرط !

* * *

القول فى مقتل أبى عزة الُجَمحىّ ومعاوية بن المغيرة بن أبى العاص ابن أمية بن عبد شمس

قال الواقدىّ : أما أبو عزّة – واسمه عمرو بن عبد الله بن عمير بن وهب بن حذافة ابن جُمح – فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أخذه أسيرا يوم أُحُد – ولم يؤخذ يومَ أُحُد أسيرٌ غيره – فقال : يامحمد ، مُنَّ علىّ ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : إنّ المؤمن لا يُلدَغ من جُحرٍ مرتين ، لا ترجع إلى مكّة تمسح عارضَيْك ، فتقول : سخرتُ بمحمد مرتين . ثم أمر عاصم بن ثابت فضرب عنقه .

(١) سورة آل عمران ١٤٠ . (٢) سورة آل عمران ١٦٥ .
(٣) سورة آل عمران ١٢٥ .

قال الواقدىّ : وقد سمعْنا فى أسره غيرَ هذا ، حدّثنى بكير بن مسمار ، قال: لمّا انصرف المشركون عن أُحُد نزلوا بحمراء الأسد فى أول الليل ساعةً ، ثم رحلوا وتركوا أبا عزّة مكانه حتى ارْتفَع النهار ، فلَحِقه المسلمون وهو مستنبه يتلدّد ، وكان الّذى أخذه عاصم ابنُ ثابت ، فأمره النبى صلّى الله عليه وآله فضرب عنقه .

* * *

قلت : وهذه الرواية هى الصحيحة عندى ، لأنّ المسلمين لم تكن حالهم يومَ أُحُد حال مَنْ يتهيّأ له أسرُ أحد من المشركين فى المعركة لِما أصابهم من الوَهَن .

وأمّا معاوية بن المغيرة فرَوى البلاذرىّ أنّه هو الّذى جَدَع أنف حمزة ومَثّل به ، وأنّه انهزم يوم أُحُد فمضى على وجهه ، فبات قريباً من المدينة ، فلمّا أصبح دخل المدينة فأتى منزل عثمان بن عفان بن أبى العاص ــ وهو ابن عمّه لحًّا ــ فضرب بابه ، فقالت أمّ كلثوم زوجتُه وهى ابنة رسولَ الله صلّى الله عليه وآله : ليس هو هاهنا ،فقال :ابعثى إليه ؛ فإنّ له عندى ثمنَ بعير ابتعتُه منه عامَ أوّل ، وقد جئتُه به ، فإنْ لم يجىء ذُهبت فأرسلت إليه ، وهو عند رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلمّا جاء قال لمعاوية :أهلكتَنى وأهلكتَ(١) نفسَك ! ماجاء بك ؟ قال : يابن عمّ ، لم يكن أحدٌ أقرب إلىّ ولا أمَسّ رَحِما بى منك ، فجئتك لتُجيرنى ، فأدخله عثمان دَارَه وصيّره فى ناحية منها ، ثمّ خرج إلى النبىّ صلى الله عليه وآله ليأخذَ له منه أمانا ، فسَمِع رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إنّ معاوية فى المدينة ، وقد أصبح بها ،فاطلبوه .فقال بعضهم : ما كان ليَعْدُوَ منزل عثمان، فاطلبوه به ،فدخلوا منزلَ عثمان ،فأشارت أمّ كلثوم إلى الموضع الّذى صيّره فيه،فاستخرجُوه من تحت حمارة لهم ، فانطلقوا به إلى النبى صلّى الله عليه وآله ، فقال عثمان حين رآه : والّذى بعثك بالحقّ ماجئت إلّا لأطلبَ له الأمان ، فَهَبْه لى ، فوَهَبه له ، وأجّله ثلاثا ،

---

(١) البلاذرى : « أهلكتنى ونفسك » .

وأقسَم : لئن وجده بعدها يمشى فى أرض المدينة وما حولها ليقتلنّه . وخرج عثمانُ فجهّزه واُشْتَرى له بعيرا، ثم قال : ارتحل . وسار رسول الله صلّى الله عليه وآله إلى حمراء الأسَد وأقام معاوية إلى اليوم الثالث ليَعرف أخبارَ النبىّ صلّى الله عليه وآله ، ويأتى بها قريشاً ، فلمّا كان فى اليوم الرابع قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ معاوية أصبح قريباً لم ينفذ، فاطلبوه . فأصابوه وقد أخطأ الطريقَ ، فأدركوه ، وكان اللّذان أسرعا فى طلبه زيد بن حارثة وعمّار بنُ ياسر ، فوجداه بالجمّاء[1] فضرَبَه زيد بالسّيف ، وقال عمّار : إنّ لى فيه حقّا ، فرمياه بسهم فقَتَلاه ، ثم انْصَرفا إلى المدينة بخبره ، ويقال : إنّه أُدرك على ثمانية أميال من المدينة ، فلم يزل زيدٌ وعمّار يرميانه بالنّبل حتّى مات .

قال : ومعاوية هذا أبو عائشة بنت معاوية أمّ عبد الملك بن مروان .

قال : وذكر الواقدىّ فى كتابه مِثلَ هذه الرّواية سواء .

قال البَلاذُرىّ : وقال ابن الكَلْبى : إنّ معاوية بن المغيرة جَدَع أنفَ حمزةَ يومَ أُحُد وهو قتيل ، فأُخِذ بقرب أحد،فقُتل على أُحُد بعد انصراف قريش بثلاث، ولاعَقب له إلّا عائشة أمّ عبد الملك بنِ مَرْوان . قال : ويقال : إنّ عليّا عليه السلام هو الّذى قَتل معاويةَ بن المغيرة [2] .

* * *

قلت:وروايةُ ابن الكَلْبىّ عندى أصحّ،لأنّ هزيمة المشركين كانت فى الصّدمة الأولى عقيبَ قتلِ بنى عبد الدار أصحاب الألْوِيَة ، وكان قتل حمزةَ بعد ذلك لمّا كرّ خالدُ بنُ الوليد الخيلَ من وراء المسلمين،فاختَلَطُوا ، وانتقَض صفُّهم ، وقتل بعضُهم بعضا،فكيف يصحّ أن يجتمع لمعاوية كونه قد جَدَع أنف حمزة ، وكونه قد انهزم مع المشركين فى الصّدمة الأولى ! هذا متناقض ، لأنّه إذا كان قد انهزم فى أوّل الحرب استحال أن يكون

(١) الجماء : تطلق على ثلاثة مواضع بالمدينة .

(٢) أنساب الأشراف ١ : ٣٣٧ ، ٣٣٨ مع تصرف واختصار .

حاضرا عند حمزةَ حين قُتل. والصحيح ماذكره ابنُ الكلبيّ من أنّه شهد الحربَ كلَّها، وجدَع أنف حمزة، ثم حصل فى أيدى المسلمين بعد انصراف قريش، لأنّه تأخّر عنهم لعارضٍ عرَض له فأدركه حينئذ، فقتِل.

***

القول فى مقتل المجـــذّر

ابن زياد البلوىّ والحارث بن يزيد بن الصامت

قال الواقدىّ: كان المجذّر بن زياد البَلَوىّ حليف بنى عوف بن الخزْرج ممّن شهد بَدْرا معرسول الله صلى الله عليه وآله، وكانت له قصّة فى الجاهليّة قبل قدوم النبىّ صلى الله عليه وآله المدينةَ، وذلك أنّ حُضَير الكتائب، والد أسَيد بن حُضَير، جاء إلى بنى عَمرو بن عوف، فكلّم سويد بنَ الصامت وخوّات بن جُبَير وأبا لُبابة بنَ عبد المنذر — ويقال سهل بن حُنَيف — فقال: هل لكم أن تزُورونى فأسقيَكم شرابا، وأنحَر لكم، وتقيمون عندى أيّاما! قالوا: نعم، نحن نأتيك يومَ كذا، فلمّا كان ذلك اليوم جاءوه فنَحَر لهم جَزورا، وسقاهم خَمْرا، وأقاموا عنده ثلاثةَ أيّام حتّى تغيّر اللحم — وكان سويدُ بنُ الصامت يومئذ شيخا كبيرا — فلمّا مضت الأيّام الثلاثة قالوا: مانرانا إلّا راجِعين إلى أهلنا! فقال حُضَير: ما أحْبَبْتم! إنْ أحببتم فأقيموا، وإن أحبَبْتم فانصرفوا، فخرَج الفَتَيان بسُوَيد بن الصامت يحملانه على جَمَل من الثَّمَل[1]؛ فمرّوا لاصقين بالحرّة حتّى كانوا قريبا من بنى عيينة[2]، فجلس سُويد يبول وهو ثَمِلٌ سُكْراً، فبَصُر به إنسان من الخزرج، فخرج حتى أتى المجذّر بن زياد، فقال: هل لك فى الغَنيمة الباردة! قال: ماهى؟ قال: سويد بن الصامت، أعزَل لا سِلاحَ معه، ثَمِل، فخرج المجذّر بن زياد بالسيف مُصلَتا، فلمّا رآه الفَتيان وهما أعزَلان لاسلاح معهما ولَّيا، والعَداوة بينالأوس

(١) الثَّمَل بفتحتين: أى السكر.
(٢) الواقدى: «غصينة».

والخزرج شديدة . فانصرَفا مسرِعَين ، ونبت الشيخُ ولا حَراكَ به ، فوقف المجذّر بن ذياد ، فقال : قد أمكنَ اللهُ منك ! قال : ماتريد بى ؟ قال : قَتْلَك . قال : فارفع عن الطعام ، واخفض عن الدِّماغ ، فإذا رجعتَ إلى أمّك ، فقل : إنّى فنات سويدَ بن الصامت . فقتَله ، فكان قتلُه هو الّذى هَيّج وقعة بُعاث . فلمّا قَدِم رسولُ الله صلى الله عليه وآله المدينة أسلم الحارث بنُ سويد بن الصامت ، وأسلَم المجذّر فشهِدَا بدرا ، فجعل الحارث بنُ سُوَيد يطلب المجذّر فى المعركة ليقتله بأبيه ، فلا يقدِر عليه يومئذ ؛ فلمّا كان يومُ أُحُد وَجالَ المسلمون تلك الَجوْلة ، أتاه الحارث مِن خلفِه فضَرَب عُنقَه ، فرجع رسولُ الله صلى الله عليه وآله إلى المدينة ، ثم خرج إلى حَمْراءِ الأسد ، فلمّا رجع من حمراء الأسد أتاه جبرائيل عليه السلامُ ، فأخبره أنّ الحارث بن سُويد قتَل المجذّر غِيلةً ، وأمَرَه بقتله ، فركب رسولُ الله صلى الله عليه وآله إلى قُبَاء فى اليَوْم الذى أخبرَه جبرائيل فى يوم حارّ — وكان ذلك يوما لا يَركب فيه رسول الله صلى الله عليه وآله إلى قُبَاء ، إنّما كانت الأيّام التى يأتى فيها رسول الله صلى الله عليه وآله قُباء يوم السبت . ويوم الاثنين — فلمّا دخل رسول الله صلّى الله عليه وآله مسجدَ قُباء صلّى فيه ماشاء الله أن يصلّىَ ، وسمعت الأنصارُ فجاءوا يسلّمون عليه ، وأنكروا إتيانَه تلك الساعة ، فى ذلك اليوم . فجلس عليه السلام يتحدّث ويتصفّح الناسَ حتّى طلع الحارثُ بن سويد فى مِلحفةٍ مورّسة (١) ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وآله دعا عُوَيْم بنَ ساعدة فقال له : قدّم الحارثَ بنَ سويد إلى باب المسجد فاضربْ عنقه بمجذّر بن ذياد ، فإنّه قتَلَه يومَ أُحُد . فأخذه عويم ، فقال الحارث : دعْنى أُكلّمْ رسولَ الله — ورسول الله صلى الله عليه وآله يريد أن يركب ، ودعا بحماره إلى باب المسجد — فجعل الحارث يقول : قد والله قتلتُه يارسول الله ، وما كان قَتْلى إيّاه رجوعا عن الإسلام

(١) مورسة : مصبوغة بالورس وهو نبات باليمن معروف .

ولا ارتيابا فيه ، ولـكنّه حَمِيّة الشيطان ، وأمرٌ وكِلتُ فيه إلى نفسى ، وإنى أتوب إلى الله وإلى رسوله مما عَمِلت ، وأُخرِج دِيَتَه وأصوم شهرين متتابعين ، وأعتق رقبةً ، وأُطعِم ستّين مسكينا ، إنّى أتوب إلى الله يارسول الله ! وجعل يُمسِك بركاب رسولِ الله صلّى الله عليه وآله وبنو المجذّر حضور ، لا يقول لهم رسولُ الله صلّى الله عليه وآله شيئا ، حتى إذا استوعب كلامه قال : قدِّمه ياعويم فاضرب عنقَه . ورَكِب رسول الله صلّى الله عليه وآله فقدّمه عويم بن ساعدة على باب المسجد ، فضَرَب عنقه .

قال الواقدىّ : ويقال : إنّ الذى أعلمَ رسول الله قتلَ الحارث المجذّر يومَ أُحُد حبيب بن يِساف ، نظر إليه حين قَتَلَه ، فجاء إلى النّبىّ صلّى الله عليـه وآله ، فأخبره ، فركب رسول الله صلى الله عليه وآله يتفحّص عن هذا الأمر ، فبينا هو على حِماره نزل جبرائيل عليه السلام ، فخبّره بذلك ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله عُوَيما فضرَب عنقَه ، ففى ذلك قال حسان :

يا حارِ فى سِـــــنة مِـن نوم أوّلِـكُمْ أم كنتَ ويحَكَ مغترًّا بجبريلِ (١)

فأمّا البلاذُرىّ فإنه ذَكَر هذا ، وقال : ويقال إنّ الجلاس بنَ سُوَيد بن الصامت هو الّذى قتل المجذّر يوم أُحُد غِيلةً ؛ إلا أنّ شعر حسّان يَدلّ على أنه الحارث (٢) .

قال الواقدىّ والبلاذرىّ : وكان سويدُ بن الصامت حين ضربه المجذّر بقِىَ قليلا ثم مات ، فقال قبل أن يموت يخاطب أولاده :

أبلغ جُلاساً وعبدَ الله مألُكةً وإن دعيتَ فلا تخـذُلْهما حارِ

(١) ديوانه ٣١٨ ، وبعده :

أَمْ كُنْتَ يابْنَ ذِيادٍ حِينَ تَقْتُلُه بِغِرّةٍ فى فَضَاءِ اللهِ مَجْهُـــولِ
وَقُلْتُمُ لَنْ نُرَى وَاللهُ مُبصِرُكُمْ وَفِيـكُمُ مُحْكَمُ الآياتِ وَالْقِيلِ
مُحَمَّـــدٌ والعزيزُ اللهُ يُخْبِرُهُ بِمَا يُكِنُّ سريرات الأقاويلِ

(٢) أنساب الأشراف ١ : ٣٣٢ .

اقتلْ جِذارة إذْ ما كنتَ لاقيَهمْ والحيّ عَوْفًا على عُرفٍ وإنكارِ

قال البلاذريّ : جذرة وجذارة أَخَوَان ، وهما ابنا عوف بن الحارث بن الخزرج[١] .

***

قلت : هذه الرّوايات كما ترَى ، وقد ذكر ابن ماكولا فى « الإكمال » أنّ الحارث بنَ سويد قَتَل المجذّر غيلةً يوم أحُد ، ثمّ التحَق بمكّة كافرا ، ذكره فى حرف الميم من هذا الكتاب ، وهذا هو الأشبه عندى .

***

القول فيمن مات من المسلمين بأحُد جملة

قال الواقدىّ : ذكر سعيد بن المسيّب وأبو سعيد الخُدْرىّ أنه قُتِل من الأنصار خاصّة أحدٌ وسبعون ، وبمثله قال مجاهد .

قال : فأربعةٌ من قريش ، وهم حمزة بن عبد المطّلب ؛ قتله وحشىّ ، وعبد الله بن جحش بن رئاب ؛ قَتَله أبو الحكم بن الأخْنَس بن شَرِيق ، وشمّاس بن عثمان ابن الشريد من بنى مَخزوم ؛ قتَله أبىُّ بن خلف ، ومصعب بن عمير ؛ قتله ابن قَمِيئة .

قال : وقد زاد قوم خامسا ، وهو سعدٌ مولى حاطب من بنى أَسَد بن عبد العُزّى . وقال قوم أيضا : إنّ أبا سلَمة بن عبد الأسد المخزومىّ جُرحَ يومَ أحُد ، ومات من تلك الجراحة بعد أيّام .

قال الواقدىّ : وقال قوم : قتل ابنا الهبيب من بنى سعْد بن ليث ، وهما عبد الله

---

(٢) أنساب الأشراف ١ : ٣٣٢ .

وعبد الرّحمن ورجلان من بنى مُزَيْنة وهما وَهْب بن قابوس وابن أخيه الحارث بن عُتْبة ابن قابوس ؛ فيكون جميعُ من قُتِل من المسلمين ذلك اليوم نحو أحد وثمانين رجلا، فأمّا تفصيل أسماء الأنصار فمذكورٌ فى كتب المحدّثين ، وليس هذا الموضع مكانَ ذكره .

* * *

القول فيمن قتل من المشركين بأحُد

قال الواقدىّ : قُتل من بنى عبد الدّار طلحةُ بن أبى طلحة صاحبُ لواء قريش ؛ قتَلَه علىّ بن أبى طالب عليه السلام مبارَزة ، وعثمان بن أبى طلحة ؛ قتله حمزةُ بن عبد المطلب وأبو سعيد بن أبى طلحة ؛ قتله سعدُ بن أبى وقاص ، ومسافع بن طلحة بن أبى طلحة ، قتله عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح ، وكلاب بن طَلْحة بن أبى طلحة ؛ قتله الزبير بن العوّام والحارث بن طلحة بن أبى طلحة ، قتله عاصم بن ثابت ، والجلاس بن طلحة بن أبى طلحة ؛ قتله طلحة بن عبيد الله ، وأرطاة بن عبد شُرَحبيل ؛ قتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام وقارظ[1] بن شُرَيح بن عثمان بن عبد الدّار — ويُروَى قاسط بالسين والطّاء المهملتين —. قال الواقدىّ : لا يُدرَى من قتَله ، وقال البلاذرىّ[2] : قتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، وصواب مولاهم : قتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام وقيل : قتله قزمان[3] — وأبو عزيز ابن عمير أخو مُصعَب بن عمير ، قتله قزمان ، فهؤلاء أحد عشر .

ومن بنى أسد بن عبد العزّى عبدُ الله بن حميد بن زُهير بن الحارث بن أَسد؛ قتله أبو دُجانة فى رواية الواقدىّ ، وفى رواية محمد بن إسحاق ، قتَله علىّ بن أبى طالب عليه السلام . وقال البَلاذُرِىّ : قال ابن الكلبىّ : إنّ عبد الله بن حميد قتِل يوم بَدْر

---

(١) الواقدى : « نارط » ، والبلاذرى : « قاسط » .
(٢) أنساب الأشراف : ١ : ٣٣٤ .
(٣) أنساب الأشراف : « غيره » .

ومن بنى زُهْرة أبو الحكم بن الأخْنس بن شَرِيق ؛ قتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، وسباع بن عبد العُزّى الُخزاعى ـ واسم عبد العزّى عمرو بن نَضْلة ابن عبّاس بن سليم ، وهو ابن أم أنمار الحجّامة بمكّة ـ قتله حمزة بن عبد المطلب؛ فهذان رجلان .

ومن بنى مخزوم أميّة بن أبى حذيفة بن المغيرة ؛ قتله علىٌّ عليه السلام،وهشام بن أبى أميّة بن المغيرة ؛ قتله قزمان ، والوليد بن العاص بن هشام قتله قزمان ، وخالد بن أعلم العُقَيلى ؛ قتله قزمان ، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة ؛ قتله الحارث بن الصِّمّة ، فهؤلاء خمسة .

ومن بنى عامر بن لؤىّ عبيد بن حاجز؛قتله أبو دُجانة،وشَيْبة بن مالك بن المضرّب قتله طلحةُ بن عبيد الله . وهذان اثنان .

ومن بنى جُمَح أبىّ بن خَلَف ؛ قتله رسول الله صلّى الله عليه وآله بيَده ، وأبو عزّةَ ، قتله عاصمُ بن ثابت صَبْرا بأَمْر رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، فهذان اثنان .

ومن بنى عبدِ مناة بن كنانة خالدُ بنُ سُفْيان بن عُوَيف ، وأبو الشَّعْثاء ابن سُفْيان بن عويف ، وأبو الحَمْراء بن سُفْيان بن عويف ، وغراب بن سُفيان ابن عُوَيف ، هؤلاء الإخوة الأربعة قَتَلهم علىّ بن أبى طالب عليه السلام فى رواية محمد بن حبيب .

فأما الواقدىّ فلم يذْكُر فى باب من قُتل من المشركين بأُحُد لهم قاتلا معيّنا،ولكنه ذكر فى كلام آخر قبل هذا الباب أنّ أبا سَبْرة ين الحارث بن علقمة قَتل أحد بنى سفيان ابن عويف ، وأن رشيدا الفارسىّ مولى بنى معاوية لقى آخر من بنى سُفيان بن عويف مقنَّعا فى الحديد وهو يقول : أنا ابن عوَيف ؛ فيعرض له سعد مولى حاطب ، فضرَبه ابن

عويف ضربةً جَزَله باثنتين ؛ فأقبل رشيد على ابن عويف فضربه على عاتقه ـ فقطع الدّرع ـ حتى جزله اثنتين وقال: خذها وأنا الغلام الفارسى؛فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يراه ويسمعه : ألا قلتَ : أنا الغلام الأنصارىّ ! قال : فيعرض لرشيد أخٌ للمقتول أحد بنى سفيان بن عويف أيضا ، وأقبل يعدُو نحوَه كأنه كلبٌ ، يقول : أنا ابن عويف ،ويضربه رشيد أيضا على رأسه وعليه المغفر ، ففلق رأسه ، وقال : خذها وأنا الغلام الأنصارىّ ! فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وآله وقال : أحسنت يا أبا عبد الله ! فكناه رسول الله صلّى الله عليه وآله يومئذ ولا ولَد له .

قلت : فأمّا البلاذرىّ فلم يذكر لهم قاتلا ، ولكنّه عدّهم فى جملة من قُتل من المشركين بأُحُد ؛ وكذلك ابن إسحاق لم يذكر مَنْ قتلهم، فإنْ صحّت رواية الواقدىّ فعلىّ عليه السلام لم يكن قد قتل منهم إلّا واحدا،وإن كانت رواية ابن حبيب صحيحة فالأربعة من قَتْلاه عليه السلام . وقد رأيتُ فى بعض كتب أبى الحسن المدائنىّ أيضا أن عليّا عليه السلام هو الذى قتل بنى سفيان بن عويف يوم أُحُد ، وروى له شعرا فى ذلك .

ومن بنى عبد شمس معاوية بن المغيرة بن أبى العاص ، قتله علىٌّ عليه السلام فى إحدى الروايات ، وقيل : قتله زيد بن حارثة وعمّار بن ياسر .

فجميع من قُتل من المشركين يوم أُحُد ثمانية وعشرون ، قتل علىٌّ عليه السلام منهم ـ ما اتفق عليه وما اختلف فيه ـ اثنى عشر ؛ وهو إلى جملة القتلى كعدّة من قتل يوم بدر إلى جملة القتلى يومئذ ، وهو قريبٌ من النّصف .

* * *

القول فى خروج النبى صلى الله عليه وآله وبعد انصرافه من أُحُد إلى المشركين ليوقع بهم على ماهو به من الوَهَن

قال الواقدىّ : بلغ[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّ المشركين قدعزموا أن يردُوا إلى المدينة فينهبوها ، فأحبّ أن يريَهم قوّة ، فصلّى الصبح يوم الأحد لثمان خلوْن من شوال ومعه وجوه الأوس والخزْرج ، وكانو باتوا تلك الليلة فى بابه يحرسونه من البيات ، فيهم سعد بن عبادة ، وسعد بن مُعاذ ، والُحباب بن المنذر ، وأوس بن خولىّ ، وقتادة بن النعمان فى عدّة منهم . فلما انصرف من صلاة الصبح أمر بلالا أن ينادى فى الناس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم يأمرُكم بطلب عدوّكم ، ولا يخرج معنا إلّا من شهد القتال بالأمس ، فخرج سعد بن معاذ راجعا إلى قومه يأمرهم بالمسير ، والجراح فى الناس فاشية ، عامة بنى عبد الأشهل جريح ، بل كلّها ، فجاء سعد بن معاذ فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركم أن تطلبوا عدوّكم . قال : يقول أسَيد بنُ حضير — وبه سبع جراحات، وهو يريد أن يداويها : سمعا وطاعةً لله ولرسوله ! فأخذ سلاحه ولم يعرِّج على دواء جراحه ، ولحق برسول الله صلى الله عليه وسلم . وجاء سعد بن عبادة قومه بنى ساعدة ، فأمرهم بالمسير ، فلبسوا ولحقوا ، وجاء أبو قتادة أهل خربا ، وهم يداوون الجراح ، فقال : هذا منادى رسول الله صلّى الله عليه وسلم يأمركم بطلب العدو ، فوثبوا إلى سلاحهم ، ولم يعرِّجُوا على جراحاتهم ، فخرج من بنى سلِمة أربعون جريحا ، بالطُّفيل بن النعمان ثلاثة عشر جرحا ، وبخراش بن الصِّمة عشر جراحات ، وبكعب بن مالك بضعة عشر جرحا ، وبقطبة بن عامر بن خديج بيده تسع جراحات ، حتى وافَوْا النبيّ صلى الله عليه وسلّم بقبر أبى عتبة ، وعليهم السلاح،

---

(١) مغازى الواقدى ٣٢٥ وما بعدها .

وقد صفّوا لرسول الله صلى الله عليه وسلّم . فلما نظر إليهم والجراح فيهم فاشية ،قال: اللهمّ ارحمْ بنى سلِمة .

قال الواقدىّ : وحدّثنى عتبة بن جبيرة عن رجال [من] [1] قومه ؛ أنّ عبدالله بن سهل ورافعَ بن سهل من بنى عبد الأشهل رجعا من أُحُد وبهما جراحٌ كثيرة وعبدالله أثقلهما جرحا ، فلمّا أصبحا وجاء سعد بن معاذ قومَه يخبرُهم أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم يأمرُهم بطلب العدوّ ، قال أحدهما لصاحبه : والله إن تركْنا غزاة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لَنُغْبَنُ ، والله ماعندنا دابّة نركبها ، ولا ندرى كيف نصنع ! قال عبد الله انطلق بنا . قال رافع : لا والله مابى مشى ، قال أخوه : انطلق بنا نقصد ونجوز ،وخرجا يزحفان ، فضعف رافع ، فكان عبدُ الله يحمله على ظهره عقبة ، ويمشى الآخر عقبة،حتى أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العشاء وهم يوقدون النيران ، فأُتى بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى حرسه تلك الليلة عبّاد بن بشر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهما : ماحبسكما ؟ فأخبراه بعلّتهما ، فدعا لهما بخير ، وقال : إن طالت لكما مدّة كانت لكما مراكبُ من خيل وبغال وإبل ، وليس ذلك بخيرٍ لكما .

قال الواقدىّ : وقال جابر بنُ عبد الله : يارسولَ الله ؛ إنّ مناديا نادى ألّا يخرج معنا إلّا مَنْ حضر القتال بالأمس ، وقد كنتُ حريصاً بالأمس على الحضور ، ولكنّ أبى خَلَفنى على أخواتٍ لى ، وقال : يابنىّ لاينبغى لك أن تَدَعهنّ ولا رجلَ معهنّ ، وأخاف عليهنّ ، وهنّ نُسَيّات ضعاف ، وأنا خارج مع رسولِ الله صلّى الله عليه وآله لعلّ الله يرزقُنى الشهادة ، فتخلّفت عليهنّ ، فاستأثر علَىّ بالشهادة، وكنت رجوتُها ، فأْذَن لى يارسولَ الله أن أسيرَ معك . فأذن له رسولُ الله صلى الله عليه وآله . قال جابر :فلم يخرج معه أحدٌ لم يَشهد القتالَ بالأمس غيرى ، واستأذنه رجال لم يحضروا القتال . فأبىَ ذلك

---

(١) من الواقدى .

عليهم ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله بلوائه وهو معقود لم يحلّ من امس ، فدفعه إلى عليّ عليه السلام ، ويقال : دَفَعَه إلى أبى بكر ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وهو مجروح ، فى وجهه أثُر الحلْقتين ، ومشْجوج فى جَبْهته فى أصول الشعر ، ورباعيَتُه قد شظيتْ ، وشفَته قد كُلِمتْ من باطنها ، ومنَكِبه الأيمن مُوهَنٌ بضربة ابن قميئة، ورُكبتاه مَجْحوشَتان ؛ فدخل المسجدَ فصلّى ركعتين ، والناس قد حَشَدوا، ونزل أهلُ العوالى[1] حيث جاءهم الصّريخ[2] . ودعا بفرسِه على باب المسجد ، وتلقّاه طلحة بنُ عبيد الله ، وقد سمع . المنادى ، فخرج ينظر متَى يسير رسول الله صلى الله عليه وآله ! فإذا هو وعليه الدِّرع والمغفَر لا يُرَى منه إلّا عَيناه ، فقال : ياطلحة ، سلاحَكَ ، قال : قريباً ، قال طلحة : فأخرج ، وأعدو فألبَس درْعى وآخذ سيفِى ، وأطرح دَرَقتى فى صدرى ، وإنّ بى لتسع جراحات ، ولأنا أهْتَمّ بجراح رسول الله صلى الله عليه وآله منِّى بجراحى ، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وآله على طلحة، فقال : أين تَرى القوم الآن؟ قال: هم بالسيَّالة فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : ذلك الذى ظننت ، أما إنهم ياطلحة لن ينالوا منّا مثلَ أمسِ حتى يفتح الله مكّة علينا ، قال : وبعث رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاثة نفرٍ من أسْلم طليعةً فى آثار القوم، فانقطع أحدُهم ، وانقطع قبالُ نعلِ الآخر ، ولحق الثالث بقريش وهم بحَمْراء الأسد ، ولهم زَجل[3] يأتمرون[4] فى الرجوع إلى المدينة ، وصفْوان بن أمية ينهاهم عن ذلك، ولحق الّذى انقطع قبال نعلِه بصاحبه ، فبَصُرتْ قريش بالرجلين ، فعطفتْ عليهما ، فأصابوهما ، وانتهى المسلمون إلى مَصرَعهما بحَمْراء الأسد ، فقبرهما رسول الله صلى الله عليه وآله فى قبر واحد، فهما القرينان .

---

(١) العوالى : ضيعة بينها وبين المدينة أربعة أميال .

(٢) الصريخ : المغيث .

(٣) زجل ، أى صوت وجلبة .

(٤) يأتمرون : يتشاورون .

قال الواقدىّ : اسماها سليط ونُعمانَ .

قال الواقدىّ : قال جابر بنُ عبد الله : كانت عامّة أزوادنا ذلك اليوم التمر ، وحمل سعد بن عبادة ثلاثين بعيراً تمْرا حتى وافت حمراء الأسد ، وساق جزُرا، فنحروا فى يوم ثنْتين ، وفى يوم ثلاثًا ، وأمَرَهم رسول الله صلى الله عليه وآله بجمْع الحطَب ، فإذا أمسَوْا أمرَهم أن يُوقِدوا النّيران : فيوقِد كلّ رجل نارا ، فلقد كنا تلك الليلَة نوقد خمسمائة نار حتى تُرى من المكان البعيد ، وذهب ذكر معسكرِنا ونيرانِنا فى كلّ وجه ، وكان ذلك مما كَبَت الله به عدوّنا .

قال الواقدىّ : وجاء معبَد بن أبى معبد الخزاعىّ ـ وهو يومئذ مشرك ـ إلى النبىّ صلى الله عليه وآله ، وكانت خُزَاعة سِلْما[1] للنّبى صلى الله عليه وآله ، فقال : يامحمّد عزّ علينا ما أصابك فى نفسك ، وما أصابك فى أصحابك ، ولوددْنا أن الله تعالى أعْلى كعبَك ، وأنّ المصيبة كانت بغيرك ، ثم مضى معبد حتى يجد أبا سفيان وقريشا بالرّوحاء[2] وهم يقولون : لا محمدا أصبتم ، ولا الكواعب أردفتم ، فبئسما صنعتمْ ! وهم مجمعون على الرّجوع إلى المدينة ، ويقول قائلُهم فيما بينهم : ماصنعْنا شيئًا ، أصبنا أشرافهم ، ثم رجعْنا قبل أن نستأصِلهم ، وقبل أن يكون لهم وَفْر ، وكان المتكلّم بهذا عكرمة بن أبى جهل ، فلما جاء معبد إلى أبى سفْيان : قال : هذا معبد ، وعنده الخبر ، ماوراءك يامعبد ؟ قال : تركت محمّدا وأصحابه خَلْفى يتحرّقون عليكم بمثل النّيران ، وقد اجتمع معه من تخلّف عنه بالأمس من الأوْس والخزرج ، وتعاهدوا ألّا يرجعوا حتى يَلحقوكم فيثأروا منكم ، وقدغضبوا[3] لقومهم غضبا شديدا ولمَن أصبتم من أشرافهم . قالوا : ويحك ، ماتقول؟ قال: والله ما أرى

---

(١) سلما ، أى مسالمون .
(٢) الروحاء : قطيعة كانت لعدى بن حاتم ، على نحو أربعين ميلا من المدينة .
(٣) ا الواقدى : « وغضبوا » .

أن تَرتحِلوا حتّى تروا نواصىَ [1] الخَيْل ، ولقـد [2] حملنى ما رأيت منهم أن قلتُ أبياتًا ، قالوا : وماهى ؟ فأنشَدهم هذا الشعر :

كادت تهـدّ من الأصوات راحِلتى ... إذ سالت الأرضُ بالُجرْد الأبابيل [3]

تَعْدو بأسْـدٍ ضِراء لا تنـابلةٍ [4] ... عنـدَ اللّقاء ولا مِيلٍ مَعازيلِ [5]

فقلتُ ويلُ ابن حرب من لقائهمُ ... إذا تَغطْمَطت البَطحاء بالجيل ! [6]

وقد كان صفوان بن أمية ردّ القوم بكلامه قبل أن يطلعَ معبد ، وقال لهم صفوان : ياقوم،لا تفعلوا ؛ فإنالقومقد حربوا [7] ، وأخشى أن يجمعوا عليكم من تخلّف من الخزرج؛ فارجعوا والدولة لـكم ، فإنى لا آمن إن رجعتم إليهم أن تـكون الدولة عليـكم . قال : فلذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله : أرشَدهم صفوانُ وما كانـ برشيد ، ثم قال : والذى نفسى بيده لقد سُوّمت لهم الحجارة ، ولو رَجعوا لـكانوا كأمْس الذاهب، قال : فانصرَف القومُ سِراعا خائفين من الطّلب لهم ، ومرّ بأبى سُفيان قومٌ من عبد القيس يريدون المدينة ، فقال لهم : هل أنتم مُبلِغو محمد وأصحابه ما أرسِلُكم به ؛ على أن أُوقِرَ لـكم أباعرَكم زَبيبا غداً بعكاظ ؛ إن أنتم جئتمونى ! قالوا : نعم،قال : حيثما

---

(١) ا الواقدى : « حتى ترى نواصى الخيل » . (٢) الواقدى : « ثم قال معبد . . . » .

(٣) الأبيـات فى ابن هشام ٣ : ٥٤ . تهـدّ ، أى تسقط من الإعياء . والجرد : الخيل العتاق . والأبابيل : الجماعات .

(٤) ابن هشام : « تردى بأسد كرام» . والتنابلة : القصار .

(٥) الميل : جمع أميل ، وهو الذى لا رمح له . والمعازيل : جمع معزال ؛ وهو من لا سلاح معه .

(٦) تغطمطت : اهتزت واضطربت . والبطحاء : السهل من الأرض . والجيل : الصف من الناس ، وبعدها فى ابن هشام :

إنّى نذيرٌ لأهلِ البَسْلِ ضاحيةً ... لـكلِّ ذى إربةٍ منهمْ ومَعْقُولِ

من جيشِ أحمد لا وخش قنابلُهُ ... وليسَ يُوصَفُ ما أنْذَرتُ بالقيلِ

(٧) حربوا ، أى غضبوا .

لقيتم محمّدا وأصحابه فأخبروهم أنّاقد أجمعْنا الرّجعة إليهم ، وأنَّا آثاركم.وانطلق أبو سُفيان إلى مكة ، وقدمَ الركبُ على النبي صلّى الله عليه وآله وأصحابه بالحمْراء فأخبروهم بالّذى أمرهم أبو سفيان ، فقالوا حسبُنا الله ونعم الوكيل ، فأُنزل ذلك فى القرآن ، وأرسل معبدٌ رجلا من خزاعة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله يعلمه أنه قدانصرف أبو سفيان وأصحابه خائفين وَجلين ، فانصرفَ رسول الله صلى الله عليه وآله بعد ثلاث إلى المدينة .

الفصل الخامس فى شرح غزاة مؤتة

نذكرها من كتاب الواقدى — ونزيد على ذلك مارواه محمد بن إسحاق فى كتابه على عادتنا فيما تقدّم

قال الواقدىّ : حدثنى[١] ربيعة بن عثمان عن عمر بن الحكم ، قال : بعثَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله الحارث بنَ عُمير الأزدىَّ فى سنة ثمان إلى مَلِك بُصْرَى بكتاب ، فلمّا نزلَ مؤتة عرض له شُرَحبيل بن عمرو الغسّانىّ ، فقال : أين تريد ؟ قال : الشام ، قال : لعلك من رُسُل محمّد . قال : نعم ، فأمَرَ به فأُوثِق رِباطا ثم قدّمه فضَرَب عنقه ، ولم يُقتَل لرسول الله صلّى الله عليه وآله رسولٌ غيرُه ، وبلغ ذلك رسولَ الله صلّى الله عليه وآله ، فاشتدّ عليه ، وندَبَ الناسَ وأخبرَهم بمقتل الحارث ، فأسرَعوا وخرجوا ، فعسكروا بالجرف ، فلما صلى رسولُ الله صلى الله عليه وآله الظُّهرَ جلسَ وجلسَ أصحابُه حوله ، وجاء النعمان بن مهض اليهودىّ فوقَفَ مع الناس ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : زيد بن حارثة أمير الناس ، فإن قُتِل زيدُ بنُ حارثة فجعفرُ بن أبى طالب ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بنُ رَوَاحة ، فإن أصيب ابن رَوَاحة فليرتض المسلمون من بينهم رَجُلا فليجعلوه عليهم . فقال النعمان بن مهض : ياأبا القاسم ، إن كنت نبيّا فسيصاب من سمّيت قليلا كانوا أو كثيرا ، إن الأنبياء فى بنى إسرائيل كانوا إذا استعملوا الرّجل على القوم ثم قالوا إن أصيب فلان فلو سَمّى مائة أصيبوا جميعا . ثم جعل اليهودىّ يقول لزيد بن حارثة : اعهد فلا ترجع إلى محمّد أبدا إن كان نبيّا . قال زيد : أشهد أنّه نبىّ صادق فلمّا أجمعوا

---

(١) أخبار غزوة مؤتة فى الواقدى ص ٤٠١ وما بعدها ، وسيرة ابن هشام ٣ : ٤٢٧ وما بعدها .

المسير وعَقَدَ رسول الله صلى الله عليه وآله لهم اللِّواء بيده دفَعه إلى زيد بن حارثة ، وهو لواء أبيض ، ومشى الناس إلى أمراء رسول الله صلى الله عليه وآله يودّعونهم ويدعون لهم وكانوا ثلاثة آلاف ، فلما ساروا فى معسكرهم ناداهم المسلمون : دفَع الله عنكم ،وردكم صالحين سالمين غانمين ، فقال عبد الله بن رَوَاحة :

لـكنّنى أسـألُ الرَّحمٰنَ مغفـرةً ... وضربةً ذاتَ فَرْغٍ تَقْذِفُ الزَّبَدَا(١)
أو طعنةً بيـدىْ حرَّانَ مجهـزةً ... بِحَرْبةٍ تنفُذُ الأحشاءَ والـكَبِدا (٢)
حتى يقولوا إذا مَرُّوا على جَدَثى ... ياأرشَدَ اللهُ من غازٍ فقـد رَشَدا (٣)

* * *

قلت : اتفق المحدِّثون على أنّ زيدَ بنَ حارثة كان هو الأمير الأوّل ، وأنـكرَتِ الشِّيعة ذلك، وقالوا : كان جعفرُ بنُ أبى طالب هو الأمير الأوّل ، فإن قُتِل فزيد بنُ حارثة ، فإن قتل فعبد الله بن رَوَاحة ، وَرَوَوْا فى ذلك رواياتٍ ، وقد وجـدتُ فى الأشعار التى ذكرها محمّد بنُ إسحاق فى كتاب المَغازى مايَشهد لقولهم ، فمن ذلك مارواه عن حسّانَ ابن ثابت وهو :

تأوَّبنِى ليـلٌ بيـثربَ أعسَرُ ... وهمٌّ إذا مانُوِّم النـاسُ مُسهِرُ (٤)
لذِكرَى حبيبٍ هَيَّجتْ لى عَـبرةً ... سَفُوحا وأسبابُ البكاء التّـذكُّرُ
بَلَىَ إنّ فقـدان الحبيب بليّـةٌ (٥) ... وكم من كريم يُبتـلَى ثم يَصبرُ !
فلا يُبعِدنّ اللهُ قَتْـلَى تتابعوا ... بمؤْتةَ منهمْ ذو الجناحَـين جعفرُ
وزيد وعبـد الله حـين تتابعوا ... جميعا وأسيافُ المنيَّـة تَخطرُ

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ٤٢٩ . ذات فرغ ؛ أى واسعة ، والزبد ، أصله ما يعلو الماء إذا غلا ؛ وأراد هنا ما يعلو الدم الذى ينفجر من الطعنة .
(٢) مجهزة : سريعة القتل ، وتنفذ الأحشاء : تخرقها وتصل إليها .
(٣) ابن هشام : « وقد » .
(٤) ديوانه ١٧٩ ــ ١٨١ ، وسيرة ابن هشام ٣ : ٤٤٠ ــ ٤٤٢ . تأوبنى : عاودنى ورجع إلىّ ، ومسهر : داع إلى السهر . (٥) الديوان : « بلاء وفقدان الحبيب » .

رأيتُ خيــارَ المؤمنين تواردُوا ... شَعوبَ وخَلْق بعدَهم يتأخَّرُ[1]
غَـداةَ غدوْا بالمؤمنين يقودُهمْ ... إلى الموت مَيمونُ النّقيبة أزهَرُ
أغرُّ كضَوء البدرِ من آل هاشمٍ ... أبِيٌّ إذا سِيمَ الظُّلامةَ أصعَرُ[2]
فطاعَنَ حتّى مالَ غيرَ موسَّــدٍ ... بمُعترَكٍ فيــه القَنا متــكسِّرُ
فصــارَ مع المستَشْهَدِين ثوابهُ ... جِنانٌ وملتفّ الحدائق أخضرُ
وكنّا نرى فى جعفرٍ من محمّدٍ ... وَفارا وأمراً حازما حين يأمرُ
وما زال فى الإسلام من آلِ هاشمٍ ... دعائمُ صدْق لا تُرام ومَفخَرُ
همُ جبل الإسلامِ والناسُ حولهمْ ... رِضامٌ إلى طُورٍ يَطول وَيَقهَرُ
بهَالِيلُ منهمْ جعفرٌ وابنُ أمّه ... عليٌّ ومنهمْ أحمدُ المتخـــيَّرُ
وحمزةُ والعبّاس منهمْ ومنهمُ ... عَقيلٌ وماءُالعُودِمن حيثُ يُعصَرُ
بهمْ تُفرَج الغَمّاء من كلّ مأزِقٍ ... عَماس إذا ماضاقَ بالناس مَصدرُ
همُ أوليــاءُ اللهِ أنزلَ حكمُــه ... عليهمْ وفيهمْ والـكتابُ المطهَّرُ

ومنها قولُ كعْب بن مالك الأنصاريّ من قصيدةٍ أوّلها[3] :

نامَ العيونُ ودَمعُ عينك يَهمُلُ ... سَحًّا كما وَكَفَ الرّبابِ المسبلُ[4]
وَجْــداً على النفر الذين تتابعُوا ... قتلى بموْتةَ أُسندوا لم يُنقَلوا
ســارُوا أمام المسلمين كأنهمْ ... طَوْدٌ يقودهمُ الهِزْبرُ المُشْبِلُ[5]
إذ يَهتَــــدون بجعفرٍ ولوائِه ... قُــدّام أولهم ونعم الأوّلُ
حتى تقوّضتِ الصفوفُ وجعفرٌ ... حيثُ الْتقى جمعُ الغُواة مجدَّلُ[6]

(١) شعوب : من أسماء المنية . (٢) ابن هشام والديوان : « محسر » .
(٣) سيرة ابن هشام ٣ : ٤٤٢ — ٤٤٥ ، برواية مخالفة .
(٤) الرباب : السحاب ، والمسبل : المنصب ؛ وفى ابن هشام : « الطباب المخضل » .
(٥) المشبل : ذو الشبل؛ والشبل : ولد الأسد .
(٦) مجدل : مطروح على الجدالة ؛ وهى الأرض . وفى ابن هشام : « وعث الصفوف مجدل » .

فتغـــيّر القمرُ المنيرُ لفقــده والشمس قد كسفت (١) وكادت تأفلُ
قومٌ عـلا بنيـانهم من هـاشم فرعٌ أشمٌّ وسؤددٌ متـأثّلُ (٢)
قومٌ بهمْ عصم الإلهُ عبـادَه وعليهمُ نزلَ الكتابُ المنزَلُ
فضَلُوا المَعـاشرَ عفةً وتـكرّما وتعمّدت أخلاقُهم مَنْ يجهـلُ (٣)

قال الواقدى : فحدّثنى ابن أبى سبْرة عن إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة ، عن رافع بن إسحاق ، عن زيد بن أرقم أن رسولُ الله صلّى الله عليه وآله خطبهم فأوصاهم فقال : أوصيكم بتقوَى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً ، اغزُوا باسم الله وفى سبيل الله ، قاتِلوا من كفرَ بالله ، لا تَغدِروا ولا تَغُلّوا ولا تقتلوا وَليدا ، وإذا لقيتَ عدوّك من المشركين فادعُهم إلى إحـدى ثلاث : فأيّتهن أجابوك إليهـا فاقبَلْ منهم ، واكففْ عنهم ، ادعُهم إلى الدخول فى الإسلام ، فإن فعلوا فاقبَل واكفُف. ثم أدعُهم إلى التحوّل من دارهم إلى المهـاجرين ، فإن فعلوا فأخـبرهم أنّ لهم ما للمُهـاجرين ، وعليهم ما على المهاجرين . وإن دخلوا فى الإسلام واُختاروا دارَهم فأخبْرِهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ، يَجرِى عليهم حكم الله ، ولا يكون لهم فى الفىء ولا فى الغنيمة شىء ، إلّا أن يُجاهـدوا مع المسلمين ، فإن أبوْا فادْعهم إلى إعطاء الجزية فإن فعلوا فاقبل منهم واكففْ عنهم ، فإن أبَوْا فاستعن بالله وقاتلهم ، وإن أنت حاصرتَ أهل حصن أو مدينةٍ فأرادوا أن تستنزلهم على حكم الله فلا تَسْتنزلهم على حكم الله ، ولـكن أنزلهم على حكمك ، فإنك لا تدرى أتصيب حكمَ الله فيهم أم لا ! وإن حاصرتَ أهل حصنٍ أو مدينة وأرادوا أن تجعلَ لهم ذمّة الله وذمّة رسولِ الله فلا تجعل لهم ذمّة الله وذمة رسول الله ، ولـكن اُجعل لهم ذمّتك وذمّة أبيك وأصحابك ، فإنّـكم إن تخفِروا ذِممكم وذِمَم آبائـكم خيرٌ لـكم من أن تخفروا ذمّة الله وذمّة رسوله .

---

(١) فى ب « كاسفة » ، وهو مستقيم الوزن أيضا .
(٢) ابن هشام : « ما يثقل » .
(٣) ابن هشام : وتعمدت أحلامهم » .

قال الواقدىّ : وحدّثنى أبو صفوان ، عن خالد بن يزيدَ ، قال : خرج النبىّ صلّى عليه وآله مشيّعا لأهل مُؤْتة حتى بلغ ثنيّة الوداع ، فوقَفَ ووقفوا حوله ، فقال : إغزُوا بسم الله ، فقاتِلوا عدوّ الله وعدوّكم بالشام ، وستجدون فيها رجالا فى الصّوامع معتزِلين الناس ، فلا تَعرِضوا لهم ، وستَجدون آخرين للشّيطان فى رءوسهم مَفاحص ، فاقلعوها بالسّيوف ، ولا تَقتُلُنّ امرأةً ، ولا صغيراً ، ضَرَعاً[1] ولا كبيرا فانيا ، ولا تقطَعنّ نخلا ولا شجرا ، ولا تهدِمُنّ بناء .

قال الواقدىّ : فلمّا دعا ودّع عبدُ الله بنُ رواحةَ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال له: مُرْنى بشىء أحفظه عنك ، قال : إنّك قادم غداً بلداً ، السجُّودُ فيه قليل ، فأكثروا السجودَ . فقال عبدُالله : زِدْنى يا رسول الله ، قال : اذكُر الله ، فإنّه عونٌ لك على ما تَطلُب. فقام من عنده حتى إذا مضى ذاهبا رجع فقال : يارسولَ الله : إن الله وِتْر يُحِبّ الوِتْر ، فقال : يابن رَوَاحة : ماعجزتَ فلا تَعجَز إن أسأت عَشرا أن تُحسِنَ واحدة . فقال ابنُ رَواحة : لا أسألُك عن شىء بعدها .

وروى محمّد بنُ إسحاق أنّ عبدالله بنَ رواحةَ ودّع رسول الله صلّى الله عليه وآله بشعرٍ منه :

فثبّتَ اللهُ ما آتاكَ من حَسَنٍ ... تثبيتَ مُوسَى ونَصراً كالذى نُصِرُوا
إنّى تفرّستُ فيكَ الخيرَ نَافلةً ... فَراسةً خالفَتْهم فى الذى نظَروا
أنتَ الرسولُ فمن يُحرَمْ نَوافلَه ... والبِشْرَ منه فقد أَوْدَى به القَدَرُ

قال محمّد بن إسحاق : فلمّا ودّع المسلمين بكى ، فقالوا له : مايبكيك ياعبد الله ؟ قال : والله مابى حبّ الدنيا ولا صبابة إليها ، ولكنى سمعت رسولُ الله صلّى الله

---

(١) الضرع : الصغير من كل شىء .

عليه وآله يقرأ : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلّا وَارِدُهَا ﴾ ،[1] فاست أدرى كيف لى بالصَّدَر بعد الورود[2] !

قال الواقدىّ : وكان زيدُ بن أرقم يحدِّث ، قال : كنتُ يتيما فى حِجْر عبد الله بن رواحة ، فلم أرَ والىَ يتيم كان خيراً لى منه ، خرجت معه فى وجهةٍ إلى مؤتةَ وصَبَّ بِى وَصبِبْتُ به ، فكان يُرْدِفنى خلف رَحله ، فقال ذات ليلة وهو على راحلته بين شعبتىْ رَحْله :

إذا بلّغتنِى وحَمَلْتِ رَحْلى مَسافة أربع بعدَ الحِسَاءِ[3]
فشأنَكِ فانعمى وخَلاكِ ذَمٌّ ولا أرجعْ إلى أهلى وَرَائى[4]
وآبَ المسلمون وخلّفونى بأرض الشام مشتهرَ الثَّواءِ
وزوّدنى الأقاربُ مِن دعاء إلى الرحمن وانقطع الإخاء
هنالكَ لا أبالى طَلْعَ نخلٍ ولا نخلٍ أسافلها رِوَاءِ[5]

فلمّا سمعتُ منه هذا الشعرَ بكيتُ : نخفقَنى بالدِّرّة وقال : وما عليك يالُكَع أن يرزُقنى اللهُ الشهادة فأستريحَ من الدّنيا ونَصَبها ، وهمومها وأحزانها وأحداثها، وترجعَ أنت بين شعبتَىِ الرّحْل !

قال الواقدىّ : ومضى المسلمون فنزلوا وادِىَ القُرَى فأقاموا به أيّاما ، وساروا حتى نَزَلوا بمُؤتة ، وبلغهم أن هرَقْلَ ملكَ الرّوم قد نزل ماء من مياه البَلْقاء فى بكْر وبَهْراء ولَخْم وجُذام وغيرهم مائة ألف مقاتل ، وعليهم رجلٌ من بَلِىّ ،فأقام المسلمون ليلتين ينظرون.

---

(١) سورة مريم : ٧١ . (٢) سيرة ابن هشام ٣ : ٤٢٨ ، ٤٢٩ .
(٣) سيرة ابن هشام ٣ : ٤٣٢ .
(٤) ولا أرجع ؛ جزم الفعل على الدعاء ؛ يدعو على نفسه بأن يستشهد فى هذه الوقعة ولا يرجع لأهله
(٥) فى البيت إقواء .

فى أمرِهم ، وقالوا : نـكتب إلى رسولِ الله صلى الله عليه وآله فنُخبره الخبر ؛ فإمّا أن يردّنا أو يزيدَنا رجالا ؛ فبينا الناس على ذلك من أمرهم جاءهم عبدُ الله بن رَوَاحـة فشجَّعهم ، وقال : واللهِ ما كنّا نقاتلُ الناسَ بكثرة عِدّة ولا كـثرةِ سِلاح ولا كثرة خَيْل ؛ إلاّ بهذا الدِّين الّذى أكرَمَنا الله بهِ ، انطلِقوا فقاتلوا ؛فقدوالله رأيْنايومَ بَدْر، وما معنا إلاّ فرسان ، إنمـا هى إحدى الُحسْنَيَيْن : إمّا الظُّهورُ عليهم فذَاكَ ماوعَدَنا اللهُ ورسولُه ، وليس لوعده خُلْف ، وإمّا الشهادة فنلحق بالإخوان ، نرافقهم فى الِجنان. فشجع الناس على قول ابن رَواحَة .

قال الواقدىّ : ورَوَى أبو هريرة قال : شهدتُ مؤنة فلمّا رأينا المشركين رأينـا مالا قِبَل لنـا به من العُـدَد والسِّلاح والـكُراع والدِّيباج والَحرِير والذّهب ، فبَرَق بَصَرِى ، فقال لى ثابتُ بنُ أرقم : مَالَكَ ياأبا هُرَيرة ؛ كأنّكَترى جُموعا كثيرةً!قلتُ: نعم ، قال : لم تَشْهدْنا ببَدْر ، إنا لم نُنْصَرْ بالـكَثْرة .

قال الواقدىّ : فالتقى القومُ ، فأخذ اللواءَ زيدُ بنُ حارثة ، فقَاتَل حتّى قُتِـل ، طعنوه بالرِّماح ، ثم أخذه جعفر فنزل عن فرس له شَقْراء فعَرْقَبهَا ، ثم قَاتَل حتى قُتِل . قال الواقدىّ : قيل : إنه ضرَبَه رجل من الرُّوم فقَطعه نصفين ، فوقع أحـد نصفَيْه فى كَرْم هُناكَ ، فوُجِد فيه ثلاثون أو بضعٌ وثلاثون جُرْحا .

قال الواقدىّ : وقد رَوَى نافعٌ عن ابن عمَر أنه وُجِد فى بدن جَعفر بن أبى طالب اثنتان وسبعون ضربة وطعنة بالسيوف والرِّماح .

قال البلاذرىّ : قطِعتْ يداه ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لقـد أبدَله اللهُ بهما جَناحينِ يطيرُ بهما فى الجنة » ؛ ولذلك سمّى الطَّيَّار .

قال الواقدىّ : ثم أخذ الراية عبدُ الله بن رواحة فنـكَل يَسِيراً ، ثم حَمَل فقاتَل

حتى قُتِل ، فلما قُتِل انهزَم المسلمون أسوأ هزيمة كانت فى كلّ وجه ، ثم تراجعوا ؛ فأخذ اللواءَ ثابتُ بنُ أرقَم ، وجعل يَصيح بالأنصار ، فثابَ إليه منهم قليل ، فقال لخالد بن الوليد : خذ اللّواء ياأبا سليمان ، قال خالد : لا بل خُذْه أنتَ فلك سِنّ ، وقد شهدت بَدْرا . قال ثابت : خذه أيّها الرجل ، فوالله ماأخذتُه إلّا لك . فأخَذَه خالد وحَمَل به ساعةً ، وجعل المشركون يحمِلون عليه حتّى دَهمه منهم بَشرٌ كثير ، فانحازَ بالمسلمين ، وانكشفوا راجعين .

قال الواقدىّ : وقد رُوِى أن خالدا ثبت بالنّاس فلم ينهزموا ؛ والصحيح أنّ خالدا انهزَم بالناس .

قال الواقدىّ : حدّثنى محمد بن صالح ، عن عاصم بنِ عمرَ بن قتادة ،أنّ النبىّ صلى الله عليه وآله لمّا الْتَقى الناسُ بمُؤتة جلس على المِنْبر ، وكشِفَ له مابينه وبين الشام،فهو ينظر إلى معركتهم ، فقال : أخذ الرّاية زيدُ بنُ حارثة ، فجاءه الشّيطان فحبّب إليه الحياة ، وكرّه إليه الموت ، وحبّب إليه الدُّنيا ، فقال : الآن حين استحكم الإيمان فى قلوبِ المؤمنين تحبِّب إلىّ الدنيا ! فمضَى قُدُما حتى استُشهِد ، ثم صلّى عليه ، وقال:استغفرُوا له فقد دخل الجنّة وهو يَسعَى ، ثم أخذ الرّاية جعفرُ بنُ أبى طالب ، فجاءه الشيطان فمنّاه الحياة وكرّه إليه الموت ، ومنّاه الدنيا ، فقال : الآنَ حين اُستَحكم الإيمانُ فى قلوب المؤمنين تتمنّى الدنيا ! ثم مَضَى قُدُما حتى اُستُشهد فصلّى عليه رسول الله صلّى الله عليه وآلِه ودَعَا له ، ثم قال : استغفروا لأخيكم فإنه شهيدٌ قد دَخل الجنّة ، فهو يطيرُ فيها بجناحين من ياقوت حيث شاء . ثم قال : أخذ الراية عبدُ الله بنُ رواحة ، ثم دخل معترِضا فشقّ ذلك على الأنصار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : أصابتْه الجراح . قيل : يارسولَ الله ، فما اُعتراضُه ؟ قال : لما أصابتْه الجراح نَكَل فعاتَبَ نفسَه فشَجُعَ فاُستُشهد ؛فدَخل الجنّة ؛ فسُرِّىَ عن قومه .

وروَى محمد بن إسحاق(١) قال : لمّا ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله زيدا وجعفرا سَكَت عن عبدِ الله بن رواحة حتى تغيّرت وجوهُ الأنصار ، وظنّوا أنه قد كان من عبدِ الله بعضُ ما يَكرَهون ، ثم قال : أخذَها عبدُ الله بنُ رَواحة فقاتل حتى قُتِل شهيدا ، ثم قال : لقد رُفِعوا لى فى الجنّة فيما يرَى النائم على سُرُرٍ من ذهب ، فرأيتُ فى سرير ابن رواحة ازورارا عن سَريرَىْ صاحبَيْه ، فقلت : لم هذا ؟ فقيل : لأنهما مضيا ؛ وتردّد هذا بعضَ التردد ، ثم مضى .

قال : وروى محمد بنُ إسحاق أنّه لمّا أخذ جعفرُ بنُ أبى طالب الرّاية قاتَلَ قتالا شديداً حتى إذا ألحمَه القِتال اقتحَم عن فرس له شَقْراء فعقَرها ؛ ثم قاتل القومَ حتى قُتِل(٢) ، فكان جعفر رضى الله عنه أوّل رجل عَقَر فرسه فى الإسلام .

قال محمد بنُ إسحاق : ولما أخذ ابنُ رواحة الرّاية جعل يتردّد بعضَ التردّد ، ويَستقدِم نفسَه يَستنزلها(٣) ، وقال :

أقسمتُ يا نفسُ لتنزِلِنّه ... طَوْعاً وإلا سوفَ تُكْرَهِنّهْ
مالى أراكِ تَكرَهين الجنّه ... إذ أجْلب الناسُ وشَدّوا الرّنّه(٤)
قد طالما قد كنتِ مطمئنّهْ ... هل أنتِ إلّا نطفة فى شَنّهْ ! (٥)

ثمّ ارتجزَ أيضاً فقال :

يا نفسُ إلا تُقتَلِى تمُوتِى ... هذا حِمامُ الموتِ قد صَلِيتِ

---

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ٤٣٦ .

(٢) بعدها فى ابن هشام ٣ : ٤٣٤ ، وهو يقول :

يا حبّذا الجنّةُ واقترابُها ... طيّبةً وبارداً شرابُها
والرّوم روم قد دنا عذابها ... كافرةٌ بعيدة أنسابُها
* علىّ إذ لاقيتُها ضِرابُها *

(٣) ابن هشام : « يستنزل نفسه » .

(٤) أجلب الناس : اختلطت أصواتهم وضجوا .

(٥) النطفة : القليل من الماء الصافى . والشنة : القربة الخلق .

وما تمنّيتِ فقد أُعْطيتِ　　إن تفعلى فِعلهما هُدِيتِ

* وإن تأخّرتِ فقد شَقِيتِ *

ثم نَزَل عن فرسه فقاتَلَ ، فأتاه ابنُ عمٍّ له ببَضْعةٍ من لحم ، فقال : اشدُد بهذا صُلبك . فأخذها من يده ، فانتهش(١) منها نهشة ثم سمع الحطمة(٢) فى ناحية من الناس ، فقال : وأنتَ يابن رواحة فى الدّنيا ! ثم ألقاها من يدِه وأخذ سيفه ، فتقدّم فقاتلَ حتى قُتِل(٣) .

قال الواقدىّ : حدّثنى داود بن سِنان ، قال : سمعتُ ثعلبة بن أبى مالك يقول : انكشف خالدُ بنُ الوليد يومئذ بالناس حتى عُيِّروا بالفرار ، وتشاءم الناسُ به .

قال : ورَوَى أبو سعيد الُخدْرىّ ، قال : أقبل خالد بالناس منهزمين ، فلمّا سمع أهلُ المدينة بهم تلقَّوْهم بالُجرف ، فجعلوا يَحْثون فى وجوههم التراب ويقولون : يا فُرّار ، أفرَرْتم فى سبيلِ الله ! فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله : ليسوا بالفُرّار ، ولكنهم كُرّار ، إن شاء الله .

قال الواقدىّ : وقال عُبيدُ الله بنُ عبدِ الله بن عُتْبة : ما لقىَ جيشٌ بعثوا مَبعَثنا ما لقىَ أصحابُ مؤتة من أهل المدينة ، لقوهم بالشرّ . حتى إنّ الرجل ينصرف إلى بيتِه وأهله فيدقّ عليهم فيأبَوْن أن يَفتَحوا له يقولون : ألا تقدّمتَ مع أصحابك فقُتِلتَ ، وجلس الكُبراء منهم فى بيوتهم استحياءً من الناس ، حتى أرسلَ النبى صلى الله عليه وآله رجلا ، يقول لهم : أنتم الكُرّار فى سبيل الله . فخرجوا .

قال الواقدىّ : فحدثنى مالك بن أبى الرّجال عن عبد الله بن أبى بكر بن حَزْم ، عن أمّ جعفر بنت محمد بن جعفر ، عن جدّتها أسماء بنت عُميس ، قالت : أصبحتُ فى اليوم الذى أصيب فيه جعفر وأصحابُه ، فأتانى رسول الله صلى الله عليه وآله وقد مَنأْتُ أربعين منًّا من أدَم وعجنتُ عجينى ، وأخذت بَنِىَّ ، فغسلتُ وجوههم ودهنتُهم ، فدخلتُ على

(١) انتهش منها : أخذ بفمه يسيراً .　　(٢) الحطمة : زحام الناس .

(٣) سيرة ابن هشام ٣ : ٤٣٤ ، ٤٣٥ .

رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : ياأسماء ، أين بنو جعفر ؟ فجئت بهم إليه ، فضمّهم وشمّهم ، ثم ذَرفت عيناه ، فبكى ، فقلتُ : يارسول الله ، لعله بلغك عن جعفر شيء ! قال : نعم ، إنه قُتل اليومَ ، فقمتُ أصيح ، واجتمع إلىّ النساء ، فجعل رسول الله صلى الله وسلم يقول : ياأسماء ، لاتقولى هُجْرا ، ولا تَضربى صَدْرا ، ثم خرج حتّى دخل على ابنته فاطمةَ رضى الله عنها ، وهى تقول : واعمّاه ! فقال : على مثل جعفرٍ فلتَبكِ الباكية . ثم قال : اصنَعوا لآلِ جعفرٍ طعاما ، فقد شُغِلوا عن أنفسِهم اليوم .

قال الواقدىّ : وحدّثنى محمّد بنُ مسلم ، عن يحيى بن أبى يَعلَى ؛ قال : سمعتُ عبدَ الله ابنَ جعفر يقول : أنا أحفظ حين دَخَل النبىّ صلى الله عليه وآله على أمّى ، فنَعَى إليها أبى ، فأنظر إليه وهو يَمسَح على رأسِى ورأسِ أخى ، وعيناه تُهَراقان بالدَّمْع حتى قطرتْ لِحْيته ، ثم قال : اللهمّ إن جعفراً قَدّم إلىّ أحسَنَ الثّواب ، فاخلُفه فى ذرّيته بأحسن ماخَلفت أحداً من عبادك فى ذرّيته ، ثم قال : ياأسماء ، ألا أبشّرك ؟ قالت : بَلَى بأبى وأمّى . قال : فإنّ الله جعل لجعفرٍ جَناحين يطيرُ بهما فى الجنّة ، قالت : بأبى وأمّى ، فأعلِم الناسَ ذلك ! فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وأخَذَ بيَدى يَمسَح بيده رأسِى حتّى رَقِىَ على المنبر وأجلَسنى أمامه على الدّرَجة السفلَى ، وإنّ الحزنَ ليُعرف عليه ، فتكلّم فقال : إنّ المرءَ كثيرٌ بأخيه وابنِ عمّه ، ألَا إنّ جعفراً قد استُشهد ، وقد جعل الله له جناحين يطيرُ بهما فى الجنّة . ثم نزل ، فدخل بيتَه وأدخلنى ، وأمر بطعام فصُنع لنا ، وأرسل إلى أخى فتغدّينا عنده غَدَاءً طيّبا ، عمدتْ سلمى خادمتُه إلى شعيرٍ فطحنتْه ، ثم نشّفَتْه ، ثم أنضجَتْه وآدَمتْه بزَيْت ، وجعلتْ عليه فُلفُلا ، فتغدّيت أنا وأخى معه ، وأقمْنا عنده ثلاثة أيّام نَدُور معه فى بيوت نسائهِ ، ثم أرجعنا إلى بيتِنا ، وأتانى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك وأنا أساوِم فى شاةٍ ، فقال : اللهمّ بارك له فى صَفْقَتِه ، فوالله مابعتُ شيئا ولا اشتريتُ إلا بُورك فيه .

* * *

[فصل فى ذكر بعض مناقب جعفر بن أبى طالب]

رَوَى أبو الفَرَج الأصْفهانىّ فى كتاب ’’ مقاتل الطالبيِّين ‘‘ أن كُنيةَ جعفر بن أبى طالب أبو المساكين ، وقال : وكان ثالثَ الإخوة من ولد أبى طالب ، أكبرهم طالب ، وبعدَه عَقِيل ، وبعده جعفر ، وبعده علىّ ، وكلّ واحدمنهم أكبرَ من الآخر بعشرِ سنين ، [وعلىّ أصغرهم سنًّا][1] ، وأمُّهم جميعا فاطمةُ بنت أسدِ بنِ هاشم بنِ عبد مناف[2] .

وهى أوّل هاشمية ولدتْ لهاشمىّ ، وفضلُها كثير ، وقربُها من رسولِ الله صلّى الله عليه وآله وتعظيمُه لها معلوم عند أهل الحديث .

وَرَوَى أبو الفرج : لجعفر رضى الله عنه فضلٌ كثير . وقد ورد فيه حديثٌ كثير ؛ من ذلك أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم لمّا فتح خيبَر قدم جعفر بن أبى طالب من الحبَشة ، فالتزمه[3] رسولُ الله صلى الله عليه وآله وجعل يُقبِّل بين عينيه ويقول : ماأدرى بأيِّهما أنا أشدّ فرَحا ! بقدُوم جعفر ، أم بفَتْح خَيْبر !

قال : وقد روَى خالدٌ الحذّاء ، عن عِكرِمة ، عن أبى هريرة أنه قال : ماركب المطَايا ، ولا رَكِب الكُور[4] ، ولا انتعل ، ولا احتذى النِّعال أحدٌ بعد رسولِ الله صلى الله عليه وآله أفضَل من جعفر بن أبى طالب .

قال : وقد روَى عطيّة عن أبى سعيد الخُدْرىّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله ، خيرُ الناس حمزةُ وجعفرٌ وعلىّ .

وقد روَى جعفر بنُ محمّد عن أبيه عليه السلام قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : خُلِق الناسُ من أشجار شتّى ، وخلقتُ أنا وجعفرٌ من شَجرةٍ واحدة — أو قال — من طينةٍ واحدة .

---

(١) من مقاتل الطالبيين .

(٢) مقاتل الطالبيين ٦ ، ٧ مع تصرف .

(٣) التزمه : اعتنقه .

(٤) الكور (بضم الكاف) : الرحل بأداته .

قال : وبالإسناد قال رسول الله صلى الله عليه وآله لجعفر : أنت أشبهتَ خَلْقى وخُلُقى .

وقال أبو عُمَر بن عبد البرّ فى كتاب " الاستيعاب " كانت سِنُّ جعفر عليه السلام يومَ قُتل إحدى وأربعين سنة .

قال أبو عمرَ : وقد رَوَى ابن المسيّب أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله قال : مُثِّل لى جَعفر وزيد وعبدالله فى خَيْمة من درّ ، كلّ واحد منهم على سرير ، فرأيت زيدا وابنَ رواحة فى أعناقهما صدودا ، ورأيت جعفراً مستقيما ليس فيه صُدود ، فسألتُ فقيل لى : إنهما حين غشيَهما الموتُ أعَرضا وصَدّا بوجَهْهما ، وأما جعفر فلم يَفعَل .

قال أبو عمر أيضا : ورُوِى عن الشّعبيّ ، قال : سمعتُ عبدَ الله بنَ جعفر يقول : كنتُ إذا سألت عمّى عليّا عليه السلام شيئا ويمنعنى ، أقول له : بحقّ جعفر ، فيُعطِينى[1] .

وَرَوَى أبو عمَر أيضا فى حرف الزّاى فى باب زيد بن حارثة ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا أتاه قتل جعفرٍ وزيد بمؤتة بَكى ، وقال : أَخَوَاى ومؤنِساىَ ومحدِّثاى[2] .

***

واعلم أنّ هذه الكلمات التى ذكرها الرضىُّ رحمه الله عليه ملتقَطة من كتابه عليه السلام الّذى كتبه جوابا عن كتاب معاوية النافذ إليه مع أبى مسلم الخوْلانىّ وقد ذكره أهلُ السِّيرة فى كتبهم ، رَوَى نصرُ بنُ مزاحم فى كتاب " صِفِّين " عن عمَر بن سعد عن أبى وَرْقاء ، قال : جاء أبو مسلم الخوْلانىّ فى ناس من قُرّاء أهل الشام إلى معاوية قبل مسير أمير المؤمنين عليه السلام إلى صِفِّين فقالوا له : يامعاوية ، علام تقاتِل عليًّا وليس لك

---

(١) الاستيعاب ٨١ ، ٨٢ .
(٢) الاستيعاب ١٩١ .

مثل صحبتِه ولا هجْرته ولا قَرابتِه ولا سابِقَتِه ! فقال : (١ إنِّى لا أدّعى أنّ لى فى الإسلام مِثل صُحبتِه ولا مِثل هجرته ولا قَرابته١) ؛ ولكنْ خبِّرونى عنكم ، ألستم تعلمون أنّ عثمان قُتِل مظلوما ! قالوا : بلى ، قال : فليَدْفع إلينا قَتَلتَهُ لنقتلَهم به ، ولا قِتال بيننا وبينه، قالا : فاكتب إليه كتابا يأتِه به بعضُنا ، فكتب مع أبى مسلم الخوْلانىّ :

من معاوية بن أبى سفيان إلى علىّ بن أبى طالب . سلام عليك ، فإنى أحمَدُ إليك الله الّذى لا إله إلا هو ، أمّا بعد ، فإنّ الله اصطَفى محمّدا بعلْمِه ، وجعله الأمينَ على وَحْيِه ، والرسول إلى خَلْقِه ، واجتبىَ له من المسلمين أعوانا أيّده الله تعالى بهم ، فكانوا فى منازلهم عنده على قَدْر فضائلهم فى الإسلام ، فكان أفضلَهم فى الإسلام وأنصَحُهم لله ورسولِه الخليفة من بعده ، ثم خليفة خليفته من بعد خليفته ، ثم الثالث الخليفة المظلوم عثمان ، فكلّهم حسدت ، وعلى كلّهم بغيت ، عرَفْنا ذلك فى نظرِك الشَّزْر ، وقولك الهُجْر ، وتنفُّسِك(٢) الصُّعَداء ، وإبطائك عن الخُلَفاء ، تقاد إلى كلّ منهم كما يقاد الفَحْل المخشوش(٣) حتى تُبايعَ وأنت كارِه ، ثم لم تكن لأحد منهم بأعظمَ حسَدا منك لابن عمّك عثمان ، وكان أحقّهم ألّا تفعل ذلك فى قرابتِه وصِهرِه ، فقطعتَ رَحِمه ، وقبّحتَ محاسنَه ، وألّبتَ(٤) الناسَ عليه ، وبطنتَ وظهرتَ حتى ضُرِبَتْ إليه آباط الإبل ، وقيدتَ إليه الإبل العِراب ، وحُملَ عليه السِلاحُ فى حَرَم رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقُتِل معكَ فى المحلّة وأنتَ تَسمَع فى دارِه الهائعة(٥) ، لا تَردَع الظّن والتُّهمة عن نفسك بقولٍ ولا عمل . وأُقسِم قَسَما صادقا لو قمتَ فيما كان من أمره مقاما واحدا تُنَهنه الناسَ

(١ــ١) صفين : « ما أقاتل عليا وأنا أدعى أن فى الإسلام مثل صحبته ولا هجرته ولا سابقته » .
(٢) صفين : « وفى تنفسك » .
(٣) المخشوش : الذى جعل فى عظم أنفه الخشاش ، وهو بالكسر عويد يجعل فى أنف البعير يشدّ به الزمام ليكون أسرع فى انقياده » .
(٤) ألبت الناس : جمعتهم عليه .
(٥) الهائعة : الصوت الشديد .

عنه ، ماعدل بك من قبلنا من النّاس أحدا ، ولحسا ذلك عندهم ما كانوا يعرفونك به من المجانبة لعثمانَ والبغيِ عليه ، وأخرى أنت بها عند أنصارِ عثمان ظَنين[1] ؛ إيواؤك قَتَلَة عثمان ، فهم عَضُدك وأنصارُك ، ويدُك وبطانتُك ؛ وقد ذكر لى أنك تتنصّل من دمه ، فإن كنتَ صادقا فأمكنّا من قَتَلته نقتلهم به ، ونحن أسرع الناس إليك ، وإلّا فإنه ليس لك ولأصحابك إلّا السيف ؛ والّذى لا إله إلّا هو لنطلبنّ قتلةَ عثمانَ فى الجبال والرّمال ، والبرّ والبحر ، حتى يقتلهم الله أو لتلحقنّ أرواحنا بالله ، والسلام[2] .

قال نصر : فلمّا قدِم أبو مسلم على علىّ عليه السلام بهذا الكتاب ، قام فحمِد الله وأثنى عليه ، ثمّ قال : أمّا بعد ، فإنّك قد قمتَ بأمرٍ وليته ، ووالله ما أحبّ أنه لغيرك . إن أعطيتَ الحقّ من نفسِك . إنّ عثمانَ قُتل مسلِما مُحرِماً مظلوما ، فادفع إلينا قَتَلته ، وأنتَ أميرُنا ، فإن خالَفَك من النّاس أحدٌ كانت أيدينا لك ناصرة ، وألسنتُنا لك شاهدة ، وكنتَ ذا عُذْر وحجّة . فقال له علىّ عليه السلام : اغْدُ علىَّ غداً ، فخذ جوابَ كتابك فانصرف ، ثم رجع من غدٍ ليأخذ جوابَ كتابه ، فوجد الناسَ قد بلغهم الّذى جاء فيه قبل ، فلَبِست الشيعةُ أسلحتَها ثم غدَوا فملئوا المسجدَ ؛ فنادَوا : كلّنا قَتَلة عثمان ، وأكثروا من النّداء بذلك وأُذِن لأبى مسلم ، فدخَل ، فدفَع علىّ عليه السلام جوابَ كتاب معاوية ، فقال أبو مسلم : لقد رأيت قوما مالَك معهم أمر ، قال : وما ذاك ؟ قال : بلَغ القومَ أنك تريد أن تدفع إلينا قَتَلةَ عثمان فضجّوا ، واجتمَعوا ، ولبسوا السّلاحَ ، وزعموا أنهم قتلة عثمان . فقال علىّ عليه السلام ، واللهِ ماأردت أن أدفعهم إليكم طرفةَ عَيْن قطّ ، لقد ضربتُ هذا الأمرَ أنفَه وعينَه ، فما رأيتُه ينبغى لى أن أدفعهم إليك ، ولا إلى غيرك . فخرج أبو مسلم بالكتاب وهو يقول : الآن طابَ الضِّراب !

---

(١) ظنين : متهم .

(٢) صفين ٩٧ ، ٩٨ .

وكان جوابُ علىّ عليه السلام : من عبد الله علىٍّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبى سُفْيان .

أمّا بعد ؛ فإن أخا خَوْلان قَدِم علىّ بكتابٍ منك تَذْكُر فيه محمدا صلى الله عليه وآله وما أنعَم الله به عليه من الهُدَى والوَحْى ، فالحمدُ لله الّذى صَدَقه الوعد ، وأيّده[١] بالنّصر ، ومكّن له فى البلاد ، وأظهَرَه على أهلِ العداوة[٢] والشّنآن من قومِه الّذين وَثبوا عليه ، وشنِفوا له[٣] ، وأظهَرُوا تكذيبه[٤] وبارَزُوه بالعَداوة ، وظاهروا على إخراجِه وعلى إخراجِ أصحابه وأهله ، وألّبوا عليه [العرب ، وجادلوهم على حربه][٥] ، وجَهَدوا فى أمره كلّ الجَهْد ، وقَلَبوا له الأمورَ حتى جاء الحقّ وظهرَ أمْر الله وهم كارهون ، وكان أشدَّ الناس عليه تأليبا[٦] وتحريضا أسرَتُه ، والأدنى فالأدنى من قومِه ، إلّا مَن عَصَم الله . وذكرتَ أنّ الله تعالى اجتبى له من المسلمين أعوانا أيّده الله بهم ، فكانوا فى منازلهم عندَه عَلَى قدر فضائلهم فى الإسلام ، فكان أفضلَهم — زعمت — فى الإسلام، وأنصحَهم لله ولرسوله الخليفة وخليفة الخليفة ، ولعَمرى إنّ مكانَهما فى الإسلام لعظيم، وإنّ المصابَ بهما لَجرحٌ فى الإسلام شديد ، فرحِمَهما الله وجزاهما أحسنَ ما عَمِلا ! وذكرتَ أنّ عثمان كان فى الفضل تالياً ، فإن يَكُ عثمانُ محسناً فسَيجزيه الله بإحسانِه ، وإن يك مُسيئا فسَيَلقَى ربّا غفوراً لا يتعاظَمُه ذَنْب إنْ يغفره ، ولَعمْرِى إنّى لأرجو إذا أعطى الله الناسَ على قدر فضائلِهم فى الإسلام ونصيحتِهم لله ولرسوله ، أنْ يكون نصيبُنا فى ذلك الأوفر . إن محمدا صلّى الله عليه وآله لمّا دعا إلى الإيمان بالله والتوحيد له كنّا أهلَ البيت أوّلَ من آمن به وصدّقه فيما جاء ، فبِتْنا أحْوالا كاملةً مجرّمة[٧] تامة ، وما يُعبَد الله فى رَبْعٍ ساكنٍ من

(١) صفين : « وتمم له النصر » .
(٢) صفين : « العداء » وهو يوافق ما فى ا .
(٣) شنف له ، أى أبغضه .
(٤) صفين : « التكذيب » .
(٥) من صفين .
(٦) صفين : « إلبا » .
(٧) مجرمة ، أى كاملة .

من العرَب غيرنا ، فأراد قومُنا قتلَ نبيّنا ، واجتياحَ أصلِنا ، وهمُّوا بنا الهُموم ، وفعَلوا بنا الأفاعيل ، ومنَعونا المِيرة[١] ، وأمسكوا عنا العَذْب ، وأحْلسُونا الخوْف[٢] . وجَعَلوا علينا الأرصادَ والعيون ، واضطرّونا إلى جَبَلٍ وَعْر ، وأوْقَدوا لنا نارَ الحْرْب ، وكَتبوا بينهم كتابا ، لا يؤاكِلوننا ، ولا يُشاربُوننا ، ولا يُناكحوننا ، ولا يُبايعوننا ، ولا نأمن منهم حتى ندفع إليهم محمّدا فيقتلوه ويمثّلوا به ، فلم نكن نأمن فيهم إلّا من مَوْسم إلى مَوْسم ، فَعزم الله لنا عَلَى مَنعه ، والذبِّ عن حَوْزته ، والرّمى من وراء حُرْمته ، والقيامِ بأسيافِنا دونه فى ساعات الخوف بالّليل والنهار ، فمُؤْمِننا يرجو بذلك الثواب ، وكافرُنا يُحامِى عن الأصل ، وأمّا مَن أسلَم من قريش فإنّهم ممّا نحن فيه خَلاء ، منهم الحليف الممنوع ، ومنهم ذو العَشِيرة الّتى تدافع عنه ، فلا يبغيه أحدٌ مثل ما بغانا به قومُنا من التّلف ، فهم مِن القَتْل بمكان[٣] نجْوة وأَمْن ، فكان ذلك ماشاء اللهُ أن يكون . ثم أمرَ الله تعالى رسوله بالهجرة ، وأَذِنَ له بعد ذلك فى قتال المشركين ، فكان إذا احمرّ البأس ، ودعيتْ نزالِ[٤] أقامَ أهلَ بيته ، فاستقدموا ، فوقى أصحابَه بهم حدَّ الأسنّة والسيوف ، فقتِل عبيدة يوم بدْر ، وحمزة يوم أُحُد ، وجعفر وزَيد يوم مؤتة ، وأراد من لو شئتُ ذكرتُ اسمه مثلَ الذى أرادوا من الشهادة مع النبىّ صلى الله عليه وسلم غير مرّة ، إلا أن آجالهم عُجّلتْ ، ومنيَّته أخّرتْ ، والله ولىّ الإحسان إليهم ، والمِنّة عليهم ، بما أسلفوا من أمر الصالحات ، فما سمعتُ بأحد ولا رأيته هو أنصحُ فى طاعة رسولِه ولا لنبيّه ، ولا أصبرَ على اللأْواء[٥] والسرّاء والضّرّاء وحين البأس ، ومواطن المكْروه مع النبى صلى الله عليه وسلم من هؤلاء النّفر الذين سمّيتُ لك ، وفى المهاجرين خيرٌ كثير يعرَف ، جزاهم الله خيراً بأحسن

---

(١) الميرة بالكسر : ما يجلب ؛ ويريد بالعذب الماء .
(٢) أحلسونا الخوف ؛ أى ألزموناه .
(٣) انظر صفحتى ١٠٠ ، ١١١ .
(٤) دعيت نزال ، كقطام ؛ أى تنازلوا للحرب .
(٥) اللأْواء : الشدة .

أعمالهم . وذكرتَ حسدي الخلفاء وإبطائي عنهم ، وبغيي عليهم ؛ فأمّا البغي فمعاذ الله أن يكون ، وأما الإبطاء عنهم والكراهيَة لأمرهم فلستُ أعتذر إلى الناس من ذلك؛ إن الله تعالى ذكره لما قبض نبيَّه الله صلّى الله عليه وسلم قالت قريش : منّا أميرٌ ، وقالت الأنصار: منّا أمير ؛ فقالت قريش : منّا محمد ، نحن أحق بالأمر ، فعرفتْ ذلك الأنصار فسلّمت لهم الولاية والسلطان ، فإذا استحقّوها بمحمد صلى الله عليه وسلّم دون الأنصار فإن أولى الناس بمحمد أحقُّ به منهم ، وإلّا فإنّ الأنصار أعظمُ العرب فيها نصيبا، فلا أدري: أصحابي سلموا من أن يكونوا حقّي أخذوا ، أو الأنصار ظلموا ، بل عرفت أن حقي هو المأخوذ، وقد تركته لهم تجاوزا الله عنهم . وأمّا ماذكرت من أمر عثمان ، وقطيعتي رحمه ، وتأليبي عليه فإن عثمان عمل ماقد بلغك ، فصنع الناس به مارأيت ، وإنّك لتعلم أني قد كنت في عُزْلة عنه إلا أن تتجنّى ؛ فتجَنَّ [1] مابدالك ؛ وأما ماذكرت من أمر قتلة عثمان فإنّي نظرتُ في هذا الأمر وضربتُ أنفه وعينه فلم أر دفعهم إليك ولا إلى غيرك ، ولعمري لئن لم تنزع عن غيِّك وشقاقك لتعرفنّهم عن قليل يطلبونك لا يكلّفونك أن تطلبهم في برّ ولا بحر ولا سهل ولا جبَل ، وقد أتاني أبوك حين ولّى الناسُ أبا بكر ، فقال : أنتَ أحقُّ بمقام محمد ، وأولى النّاس بهذا الأمر ، وأنا زعيمٌ لك بذلك على من خالف ، ابسُطْ يدك أبايعْك ؛ فلم أفعل، وأنتَ تعلم أنّ أباك قد قال ذلك وأراده حتى كنتُ أنا الذي أبيتُ ؛ لقرب عهد الناس بالكفر مخافة الفرقة بين أهل الإسلام ، فأبوك كان أعرف بحقي منك، فإن تعرفْ من حقي ما كان أبوك يعرِف تُصبْ رُشدَك ، وإنْ لم تفعل فسيُغني الله عنك ، والسلام [2] .

---

(١) تجنى عليه : ادعى ذنبا لم يجنه .

(٢) صفين ٩٨ ــ ١٠٢ .

(١٠)

الأصْـلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية أيضا :

وَكَيْفَ أَنْتَ صَانِعٌ إِذَا تَكَشَّفَتْ عَنْكَ جَلاَبِيبُ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ دُنْيَا قَد تَبَهَّجَتْ بِزِينَتِهَا ، وَخَدَعَتْ بِلَذَّتِهَا ؛ دَعَتْكَ فَأَجَبْتَهَا ، وَقَادَتْكَ فَاتَّبَعْتَهَا . وَأَمَرَتْكَ فَأَطَعْتَهَا ، وَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَقِفَكَ وَاقِفٌ عَلَى مَا لَا يُنْجِيكَ مِنْهُ مُنْجٍ .

فَاقْعَسْ عَنْ هَـذَا الْأَمْرِ ، وَخُذْ أُهْبَةَ الْحِسَابِ ، وَشَمِّرْ لِمَا قَدْ نَزَلَ بِكَ ، وَلَا تُمَكِّنِ الْغُوَاةَ مِنْ سَمْعِكَ ، وَإِلَّا تَفْعَلْ أُعْلِمْكَ مَا أَغْفَلْتَ مِنْ نَفْسِكَ ، فَإِنَّكَ مُتْرَفٌ قَدْ أَخَذَ الشَّيْطَانُ مِنْكَ مَأْخَذَهُ ، وَبَلَغَ فِيكَ أَمَلَهُ ، وَجَرَى مِنْكَ مَجْرَى الرُّوحِ وَالدَّمِ .

وَمَتَى كُنْتُمْ يَا مُعَاوِيَةُ سَاسَةَ الرَّعِيَّةِ ، وَوُلَاةَ أَمْرِ الْأُمَّةِ ، بِغَيْرِ قَدَمٍ سَابِقٍ ، وَلَا شَرَفٍ بَاسِقٍ ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ لُزُومِ سَوَابِقِ الشَّقَاءِ .

وَأُحَذِّرُكَ أَنْ تَكُونَ مُتَمَادِياً فِي غِرَّةِ الْأُمْنِيَّةِ ، مُخْتَلِفَ الْعَلَانِيَةِ وَالسَّرِيرَةِ .

وَقَدْ دَعَوْتَ إِلَى الْحَرْبِ فَدَعِ النَّاسَ جَانِباً ، وَاخْرُجْ إِلَيَّ ، وَأَعْفِ الْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْقِتَالِ ، لِتَعْلَمَ أَيُّنَا الْمَرِينُ عَلَى قَلْبِهِ ، وَالْمُغَطَّى عَلَى بَصَرِهِ !

فَأَنَا أَبُو حَسَنٍ ، قَاتِلُ جَدِّكَ وَأَخِيكَ وَخَالِكَ شَدْخاً يَوْمَ بَدْرٍ ، وَذَلِكَ السَّيْفُ مَعِي ، وَبِذَلِكَ الْقَلْبِ أَلْقَى عَدُوِّي ؛ مَا اسْتَبْدَلْتُ دِيناً ، وَلَا اسْتَحْدَثْتُ نَبِيًّا ، وَإِنِّي لَعَلَى الْمِنْهَاجِ الَّذِي تَرَكْتُمُوهُ طَائِعِينَ ؛ وَدَخَلْتُمْ فِيهِ مُكْرَهِينَ .

وَزَعَمْتَ أَنَّكَ جِئْتَ ثَائِراً بِدَمِ عُثْمَانَ ! وَلَقَدْ عَلِمْتَ حَيْثُ وَقَعَ دَمُ عُثْمَانَ ، فَاطْلُبْهُ

مِنْ هُنَاكَ إِنْ كُنْتَ طَالِباً ، فَكَأَنِّى قَدْ رَأَيْتُكَ تَضِجُّ مِنَ الْحَرْبِ إِذَا عَضَّتْكَ ضَجِيجَ الْجِمَالِ بِالْأَثْقَالِ وَكَأَنِّى بِجَمَاعَتِكَ تَدْعُونِى جَزَعاً مِنَ الضَّرْبِ الْمُتَتَابِعِ ، وَالْقَضَاءِ الْوَاقِعِ ، وَمَصَارِعَ بَعْدَ مَصَارِعَ ، إِلَى كِتَابِ اللهِ ، وَهِيَ كَافِرَةٌ جَاحِدَةٌ ، أَوْ مُبَايِعَةٌ حَائِدَةٌ .

* * *

الشَّرْحُ

الجلابيب : جمعُ جلباب ، وهى المِلْحفة فى الأصل ؛ واستُعير لغيرها من الثّياب ، وتجلبَب الرجلُ جلببةً ، ولم تُدغم لأنّها ملحقة بـ « دَحْرَجة » .

قوله : « وتبهّجتْ بزينتها » : صارت ذاتَ بهجة ، أى زينة وحُسْن ، وقد بَهُج الرجلُ بالضم ، ويُوشِك : يسرع .

ويقفك واقف ، يعنى الموتَ ؛ ويُروَى : « ولا ينحيك مِجَنّ » ، وهو التُّرْس ، والرواية الأولى أصح .

قوله : « فاقعَسْ عن هذا الأمر » ، أى تأخرّ عنه ، والماضى قَعَس بالفتح ، ومثله تقاعَسَ واقعَنْسَسَ .

وأهْبة الحساب : عُدّته ، وتأهّب : « استعدّ ، وجمع الأهْبة أُهَب .

وشمِّر لما قد نَزل بك ، أى جِدَّ واجتهد وخِفَّ ، ومنه رجل شِمَّرِىّ بفتح الشين ، وتُكسر .

والغواةُ : جمع غاوٍ ، وهو الضّال .

قوله : « وإلا تفعل » يقول : وإن كنت لا تفعل ما قد أمرتُك ووعظتُك به فإنّى أعرِّفك من نفسك ما أغفلتَ معرفته .

إنّك مترَف ، والمترفُ الذى قد أترفتْه النِّعمة ، أى أطغته .

قد أخذ الشيطان منك مأخذه ؛ ويُروَى « مآخذه » بالجمع ، أى تناوَل الشيطانُ منك لُبَّك وعقلك . ومأخذه مصدر ، أى تناولك الشيطان تناولَه المعروف ، وحذف مفعول « أخذ » لدلالة الكلام عليه ، ولأنّ اللفظةَ تجرى مجرَى المَثَل .

قوله : « وجرَى منك مجْرَى الرُّوح والدم » ، هذه كلمةُ رسولِ الله صلى الله عليه وآله : « إنّ الشيطان ليَجرِى من ابن آدمَ مجرَى الدّم » .

ثم خرج عليه السلام إلى أمرٍ آخَر ، فقال لمعاوية : « ومتى كنتمْ ساسَةَ الرعيّة ، ووُلاة أمرِ الأمّة ! » ينبغى أن يُحمَل هذا الكلامُ على نفى كونهم سادة وولاةً فى الإسلام ، وإلا ففى الجاهلية لا يُنكَر رياسة بنى عبدِ شَمْس . ولست أقولُ برياستهم على بنى هاشم ، ولكنّهم كانوا رؤساء على كثيرٍ من بطون قريش ، ألا ترَى أنّ بنى نَوْفل ابن عبد مناف ما زالوا أتباعاً لهم ، وأنّ بنى عبد شمس كانوا فى يوم بدر قادة الجيش ، كان رئيس الجيش عُتبة بنُ ربيعة ، وكانوا فى يوم أُحُد ويوم الخنْدق قادةَ الجَيْش ! كان الرئيس فى هذين اليومين أبا سُفْيان بن حرب ؛ وأيضا فإنّ فى لفظة أميرالمؤمنين عليه السلام ما يُشعِر بما قلناه ، وهو قوله : « ووُلاةُ أمرِ الأمّة » فإنّ الأمّة فى العرب هم المسلمون ، أمّة محمّد صلّى الله عليه وآله .

قولُه عليه السلام : « بغير قدمٍ سابق » ، يقال : لفلانٍ قدمُ صِدْق ، أى سابقة وأثرَةٌ حَسَنة .

قوله عليه السلام : « ولا شرف باسق » ؛ أى عالٍ .

وتَمادَى : تفَاعَل ، من المدى ، وهو الغاية ، أى لم يَقِف بل مَضَى قُدُما .

والغِرّة : الغَفْلة : والأمْنيّة : طمعُ النفْس . ومختلِف السّريرة والعلانيَة : منافق .

قوله عليه السلام : « فدَعِ الناسَ جانبا » ، منصوب على الظَّرْف .

والمرين على قلبه : المغلوبُ عليه ، من قولِه تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[1] . وقيل : الرَّيْن : الذنب على الذنب.

وإنما قال أمير المؤمنين عليه السلام لمعاوية هذه الكلمة لأنّ معاوية قالها فى رسالةٍ كتبها ، ووقفتُ عليها من كتاب أبى العبّاس يعقوب بن أبى أحمد الصَّيْمَرِيّ الذى جمَعَه من كلام عليّ عليه السلام وخطبه ، وأوّلها :

أما بعد ، فإنَّك المطبوعُ عَلَى قلبك ، المغطَّى على بَصرِك؛ الشرّ من شيمتك ، والعُتوّ من خَليقتك ، فشمِّر للحرب ، واصبر للضَّرب ، فو الله ليرجعنّ الأمرُ إلى ما علمت ، والعاقبة للمتقين . هيهاتَ هيهات ! أخطأك ما تمنّى ، وهَوَى قلبك فيما هوَى ، فاربَعْ عَلَى ظَلْعِك ، وقِسْ شبْرَك بفِترِك ، تَعلم أين حالُك من حالِ من يَزِن الجبالَ حِلمُه ، ويفصِل بين أهل الشّكّ عِلمُه ؛ والسلام .

فكتب إليه أمير المؤمنين عليه السلام : أمّا بعد ، يابن صَخْر ، يابن اللّعين ؛ يَزِن الجبالَ فيما زعمتَ حِلمُك ، ويَفصِل بين أهلِ الشك عِلمُك ؛ وأنتَ الجاهلُ القليلُ الفقهْ ، المتفاوتُ العقل ، الشاردُ عن الدين .

وقلتَ : « فشمِّر للحرب ، واصبر » ، فإن كنتَ صادقا فيما تزعمُ ، ويُعينُك عليه ابن النّابغة ، فدَعِ الناسَ جانبا ، وأعفِ الفَريقين من القِتال ، وابرُزْ إلىّ لتعلم أيّنا المرينُ عَلَى قلبه ، المغطَّى على بصره ، فأنا أبو الحَسَن حقا ، قاتلُ أخيك وخالِك وجدِّك ؛ شَدْخًا يومَ بدر ، وذلك السّيف معى ، وبذلك القلبِ ألقىَ عدوّى !

***

---

(١) سورة المطففين ١٤ .

قولُه عليه السلام «شَدْخا» ؛الشّدخ: كَسرُ الشيءِالأجْوف ،شَدخْت رأسَهفانْشَدَخ، وهؤلاء الثلاثةُ : حنظلةُ بنُ أبى سُفيان، والوليد بنُ عتبة ،وأبوه عتبةُ بن ربيعة ، فحنظلة أخوه ، والوليد خالُه ؛ وعتبةُ جدُّه ، وقد تقدَّم ذكرُ قَتْلِه إيّاهم فى غَزاةِ بَدْر .

والثائر : طالب الثأر . وقوله : « قد علمتَ حيثُوقعَ دمُ عثمانَ فاطلبْهمن هناك »، يريد به إن كنتَ تطلُب ثأرَك من عند من أجْلَب وحاصَرَ ، فالّذى فَعَل ذلك طلحةُ والزبير ؛ فاطلب ثأرَك من بنى تميم ومن بنى أَسَد بن عبدِ العُزّى ، وإن كنت تطلبهممّن خَذَل، فاطلبْه من نَفسِك فإنّك خَذَلْته ، وكنتَ قادرا على أن ترفِده[1] وتُمِدّه بالرجال، فخذلتَه وقعدتَ عنه بعد أن استنجَدَك واُستغاثَ بك .

وتضجّ : تصوِّت . والجاحِدة : المنكرة ، والحائدة : العادلة عن الحقّ .

واعلم أنّ قوله: « وكأنّى بجاعتك يدعونَنى جَزَعامن السّيف إلى كتاب الله تعالى»، إمّا أن يكون فِراسةً نبويّةصادقة ، وهذا عظيم ،وإما أن يكون إخبارا عن غَيْبمفصّل، وهو أعظمُ وأعجب ، وعلى كلا الأمرين فهو غاية العَجَب . وقد رأيت له ذِكرَ هذاالمعنى فى كتابغيرِ هذا ،وهو : أمّا بعدُ ،فما أعجب مايأتينىمنك ، وماأعلَمنى بمنزلتكالّتىأنت إليها صائر، ونحوها سائر ؛وليس إبطائى عنكَ إلّالوقت أنابه مصدِّق، وأنتَ بهمكذِّب؛ وكأنِّى أراكَ وأنتَ تضجّ من الحرب، وإخوانُك يدعوننى خوفا من السّيف ، إلى كتابٍ همبه كافرون ،وله جاحدون .

***

ووقفت له عليه السلامُ على كتابٍ آخر إلى معاوية يذكر فيه هذا المعنى ، أوّله : أمّا بعد ، فطالَمَا دعوتَ أنتَ وأولياؤكَ أولياء الشّيطان الحقَّ أساطير ، ونبذتموه وراء

---

(١) ترفده : تعينه .

ظهوركم ، وحاولتم إطفاءه بأفواهكم ، ﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾[١] . ولعَمرى لينفذنّ العلمُ فيك ، وليتمّنّ النورُ بصِغرك وقماءتك ، ولتخسأنّ طريدا مَدْحورا ، أو قتيلا مَثْبورا[٢] ؛ ولتُجْزَينّ بعَملك حيث لا ناصرَ لك ، ولا مُصرِّخَ[٣] عندك . وقد أسهبْتَ فى ذكر عثمان ، ولَعمرى ما قَتَله غيرُك ، ولا خَذَله سواك ، ولقد تربَّصْتَ به الدوائر ، وتمنّيت له الأمانىّ ، طمعا فيما ظهر منك ، ودلّ عليه فعلُك ، وإنّى لأرجو أن أُلحِقَكَ به على أعظمَ من ذنبه ، وأكبر من خطيئته .

فأنا ابن عبد المطّلب صاحبُ السّيف ، وإنّ قائمه لفى يدى ، وقد علمتَ من قتلتُ به من صناديد بنى عبد شَمْس ، وفراعنة بنى سَهْم وجُمح وبنى مخزوم ؛ وأيتمتُ أبناءهم ، وأيمَّت نساءهم[٤] . وأذكّرك مالستَ له ناسيا ؛ يومَ قتلتُ أخاك حنْظلة ، وجررتُ برِجْله إلى القَليب[٥] ، وأسرتُ أخاك عمرا ؛ فجعلتُ عنقَه بين ساقيه رباطا ، وطلبتُك ففررتَ ولك حُصاص[٦] ؛ فلولا أنى لاأتْبَع فارّا ، لجعلتك ثالثهما ، وأنا أولى لك بالله ألِيّة برّة غير فاجرة ؛ لئن جمعتْنى وإيّاك جوامع الأقدار ، لأتركنّك مثلاً يتمثّل به الناس أبداً ، ولأجعْجِعنّ بك فى مناخِك حتّى يحكم الله بينى وبينك ، وهو خيرُ الحاكمين .

ولئن أنسأ[٧] الله فى أجلى قليلا لأغزينّك سَرايا المسلمين ، ولأنهدنّ إليك فى جحْفل من المهاجرين والأنصار ، ثم لاأقبَل لك معذرة ولا شفاعة ، ولا أجيبُك إلى طلب وسؤال ، ولترجعنّ إلى تحيُّرك وتردُّدك وتلدُّدك ، فقد شاهدتَ وأبصرتَ ورأيتَ

---

(١) سورة التوبة ٣٢ .
(٢) مثبورا : هالكا ؛ أو مصروفا عن الخير .
(٣) المصرخ : المستغيث .
(٤) أيمت نساءهم ؛ أى تركتهن بلا أزواج .
(٥) القليب : البئر .
(٦) الحصاص : شدة العدو .
(٧) أنسأ الله فى أجلى ؛ أى أخره قليلا .

سُحُب الموتِ كيف هطلتْ عليك بصيِّبها (١) حتى اعتصمت بكتاب أنت وأبوك أوّل من كَفر وكذّب بنزُوله . ولقد كنتُ تفرّستُها ، وآذنتُك أنك فاعلُها ، وقد مضى منها ما مَضَى ، وانقضى من كَيْدك فيها ما انقضى ، وأنا سائرٌ نحوك على أثر هذا الكتاب ، فاخترْ لنفسك ، وانظرْ لها ، وتداركْها ، فإنّك إن فطرت واستمررْت على غيِّك وغُلَوائك (٢) حتى ينهد إليك عبادُ الله ، أُرْتِجَت عليك الأمور ، ومُنعت أمراً هو اليوم منك مقبول.

يابن حرب ، إنّ لجاجك فى منازعة الأمر أهله من سفاه الرّأى ، فلا يطمعنّك أهلُ الضلال ، ولا يوبقنّك سفهُ رأى الجهال ، فوالّذى نفسُ علىٍّ بيده لئن برقتْ فى وجهك بارقة من ذى الفقار لتُصعَقنّ صعْقةً لا تفيق منها حتى يُنفخ فى الصور النّفخة الّتى يئستَ منها ﴿ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ (٣).

***

قلتُ : سألتُ النقيب أبا زيد عن معاوية : هل شهد بدراً مع المشركين ؟ فقال : نَعم شهِدَها ثلاثة من أولاد أبى سفيان : حنْظلة وعَمرو ومُعاوية ، قُتِل أحدهم ، وأُسِر الآخر ، وأفْلت معاويةُ هاربا على رجْليْه ، فقدِم مكّة ، وقد انتفخَ قَدماه ، ووَرِمتْ ساقاه ، فعالج نفسَه شهرين حتى برأ .

قال النّقيب أبو زيد : ولا خلافَ عند أحَدٍ أنّ عليا عليه السلام قتل حنظلة وأَسَر عمراً أخاه . ولقد شهد بدرا ، وهَرَب على رجليه مَن هو أعظمُ منهما ومن أخيهما عمرو بن عبد ودّ فارس يوم الأحزاب ، شهدَها ونجا هارباً على قدميه ، وهو شيخ كبير،

---

(١) الصيب : المطر المنصب .

(٢) الغلواء : الكبر .

(٣) الممتحنة ١٢ .

وارتُثّ (١) جريحا ، فوَصَل إلى مكّة وهو وَقِيذ (٢) فلم يشهد أُحُداً ، فلمّا برأ شهد الخندق، فقتَلَه قاتلُ الأبطال ، والّذى فاتَهُ يومَ بدْر استدرَكه يوم الخندق .

ثم قال لى النقيب رحمه الله : أما سمعتَ نادرة الأعمش ومُناظِرَه ؟ فقلتُ : ما أعلمُ ماتريد ؛ فقال : سأل رجلٌ الأعمش ـ وكان قد ناظَرَ صاحبا له : هل معاويةُ من أهل بدر أم لا ؟ فقال له : أصلَحَكَ الله ، هل شَهِد معاويةُ بدراً ؟ فقال : نعم مِن ذلك الجانب .

***

واعلم أن هذه الخُطْبة قد ذكرها نصر بنُ مُزاحم فى كتاب '' صِفِّين '' على وجه يقتضى أنّ ماذكره الرضىُّ ـ رحمه الله ـ منها قد ضمّ إليه بعضَ خطبةٍ أخرى ، وهذه عادَتُه ، لأن غَرَضه الْتِقاط الفصيح والبليغ من كلامه ، والذى ذكره نصرُ بنُ مزاحم هذه صورته :

من عبدالله علىٍّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبى سُفْيان ، سلامٌ على من اتّبع الهدى فإنّى أحمد إليك اللهَ الّذى لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإنك قدرأيتَ مُرور الدنيا وانقضاءها وتصرُّمَها وتصرّفَها بأهلها ، وخيرُ ما اكتُسِب من الدّنيا ماأصابَه العبادُ الصالحون منها من التقوى ، ومن يَقس الدّنيا بالآخرة يَجِدْ بينهما بعيدا . واعلمْ يامعاوية أنّك قد ادّعيتَ أمراً لستَ من أهله (٣) لافى القَدِيم ولا فى الحديث (٣) ، ولستَ تقول فيه بأمر بيّن يُعرَف له أثر (٤) ، ولا عليك منه شاهد [من كتاب الله] (٥) ؛ ولستَ متعلّقا بآيةٍ من

(١) ارتث جريحا : حمل من المعركة رثيثا ؛ أى جريحا وبه رمق .
(٢) الوقيذ : الشديد المرض ، المشرف على الهلاك .
(٣ ـ ٣) صفين : « لا فى القدم ولا فى الولاية » . (٤) صفين : « أثرة » .
(٥) من صفين .

كتاب الله ، ولا عهدٍ من رسول الله صلى الله عليه وآله ، فكيف أنت صانع (١ إذا تقشّعتْ عنك غيابةُ ما أنتَ فيه من دُنيا قد فتنتَ بزينتها ، وركَنْتَ إلى لذّاتها (١ ، وخُلِّى بينك وبين عدوِّك فيها ، وهو عدوٌّ وكَلِب مُضِلٌّ جاهد مُليح (٢) ، ملحّ ، مع ما قد ثبَتَ فى نفسِك من جهتها ، دعتْك فأحببتَها ، وقادتك فاتّبعتَها ، وأمرَتْك فأطَعْتَها ، فاقْعَسْ (٣) عن هذا الأمر ، وخذ أهبَة الحساب ، فإنه يُوشك أن يقفَك واقف على ما لا يجنّك (٤) مِجَنٌّ .

ومتى كنتم يا معاوية ساسةَ الرعيّة ، أو وُلاةً لأمر هذه الأمّة ، بلا قَدَم حَسَن ، ولا شَرفٍ تَليد على قومكم ، فاستيقظ من سِنَتِك ، وارجِع إلى خالقك ، وشمِّر لما سينزل بك ، ولا تُمكّن عدوّك الشيطانَ من بغيته فيك ؛ مع أنّى أعرف أنّ الله ورسولَه صادقان ، نعوذ (٥) بالله من لُزوم سابق الشَّقاء وإلّا تَفْعَلْ فإنى أُعلمك ما أغفلتَ من نفسِك ، إنك مُتْرَف ، قد أخذَ منك الشيطان مأخذه ، فجرى منك مَجرى الدم فى العروق ، ولستَ من أئمة هذه الأمة ولا من رعاتها . واعلم أنّ هذا الأمر لو كان إلى الناس أو بأيديهم لحسَدُوناهُ ، ولامْتَنّوا علينا به ، ولكنّه قضاء ممّن مَنَحَناه واختصّنا به ، على لسان نبيّه الصادق المصدَّق ، لا أُفلَح من شَكَّ بعد العرْفانِ والبينة ! ربِّ احكمْ بيننا وبين عدوِّنا بالحق وأنت خيرُ الحاكمين (٦) .

* * *

قال نصر : (٧ فكتب معاويةُ إليه الجوابَ ٧) : من معاوية بن أبى سُفيان إلى علىّ ابن أبى طالب ، أمّا بعد ، فدَع الحَسد ، فإنّك طالما لم تَنْتفع به ، ولا تُفْسِد سابقةَ

(١ـ١) صفين : « إذا انقشعت عنك جلابيب ماأنت فيه من دنيا أبهجت بزينتها ، وركنت إلى لذتها » .
(٢) المليح : الملوح بالسيف ؛ يقال : ألاح بالسيف ؛ ولوح : إذا حركه ولمع به .
(٣) أقعس عن هذا الأمر ؛ أى تأخر .
(٤) كذا فى صفين و ا ، وفى ب : « يخبيك » .
(٥) صفين : « فنعوذ » . (٦) صفين ١٢١ ، ١٢٢ .
(٧ـ٧) صفين : « فكتب معاوية بسم الله الرحمن الرحيم » .

جهادك بشِرَّةِ نَخْوَتك ، فإنَّ الأعمال بخواتيمها ، ولا تُمحِّص سابقتَك بقتالِ مَن لا حقّ لك فى حقّه[١] ، فإنَّك إنْ تفعل لا تَضرّ بذلك إلا نفسَك ، ولا تمحَق إلّا عمَلك ، ولا تُبطل إلّا حجّتك ؛ ولَعَمرى إن ما مضى لك من السابقات لشبيه أن يكون ممحوقا ، لما اجترأتَ عليه من سَفْك الدماء ، وخلافِ أهلِ الحقّ ، فاقرأ السُّورة التى يُذكَر فيها الفَلَق وتعوّذ من نفسِك[٢] فإنّك الحاسدُ إذا حَسَد[٣] .

(١) حق الرجل وأحقه ؛ إذا غلبه على الحق .
(٢) صفين : « وتعوذ بالله من شر نفسك » .
(٣) صفين ١٢٣ .

(١١)

الأصل :

ومن وصية له عليه السلام وصى بها جيشا بعثه إلى العدوّ :

فَإِذَا نَزَلْتُمْ بِعَدُوٍّ أَوْ نَزَلَ بِكُمْ ، فَلْيَكُنْ مُعَسْكَرُكُمْ فِي قُبُلِ الْأَشْرَافِ ، أَوْ سِفَاحِ الْجِبَالِ ، أَوْ أَثْنَاءِ الأَنْهَارِ ، كَيْمَا يَكُونَ لَكُمْ رِدْءًا ، وَدُونَكُمْ مَرَدًّا .

وَلْتَكُنْ مُقَاتَلَتُكُمْ مِنْ وَجْهٍ وَاحِدٍ أَوِ اثْنَيْنِ ، وَاجْعَلُوا لَكُمْ رُقَبَاءَ فِي صَيَاصِي الْجِبَالِ ، وَمَنَاكِبِ الْهِضَابِ ، لِئَلَّا يَأْتِيَكُمُ الْعَدُوُّ مِنْ مَكَانِ مَخَافَةٍ أَوْ أَمْنٍ .

وَاعْلَمُوا أَنَّ مُقَدِّمَةَ الْقَوْمِ عُيُونُهُمْ ؛ وَعُيُونَ الْمُقَدِّمَةِ طَلَائِعُهُمْ . وَإِيَّاكُمْ وَالتَّفَرُّقَ، فَإِذَا نَزَلْتُمْ فَانْزِلُوا جَمِيعاً ، وَإِذَا ارْتَحَلْتُمْ فَارْتَحِلُوا جَمِيعاً ، وَإِذَا غَشِيَكُمُ اللَّيْلُ فَاجْعَلُوا الرِّمَاحَ كِفَّةً ، وَلَا تَذُوقُوا النَّوْمَ إِلَّا غِرَاراً أَوْ مَضْمَضَةً .

***

الشرح :

المُعسكَر ؛ بفتح الكاف : موضعُ العسكَر ، وحيث ينزِل .

الأشراف : الأماكن العالية ، وقُبُلها : ما استقبلَك منها ، وضدّه الدُّبر .

وسفاح الجبال : أسافلُها حيث يَسفَح منها الماء .

وأثناء الأنهار : ما انعَطف منها ، واحدُها ثِنْى . والمعنى أنّه أمرهم أن ينزلوا مسندين ظهورَهم إلى مكانٍ عالٍ كالهِضاب العَظيمة ، أو الجبالِ ، أو مُنعطَف الأنهار الّتى تجرى مجرَى الخنادق على العسكر ليأمنوا بذلك من البيات ، وليأمَنوا أيضاً من إتيان العدوِّ لهم

من خَلْفِهم ، وقد فسّر ذلك بقوله : كيما يكون لكم رِدْءا ، والرِّدء : العَوْن ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِى ﴾(١) .

ودونكم مَرَدًّا ، أى حاجزا بينكم وبين العدوّ .

ثمّ أمرهم بأن يكونَ مُقاتَلتهم ـ بفتح التاء ، وهى مَصدَر «قاتل» ـ من وجهٍ واحدٍ أو اثنين ؛ أىْ لا تتفرّقوا ؛ ولا يكن قتالُكم العدوَّ فى جهاتٍ متشعِّبة ، فإنَّ ذلك أدعى إلى الوَهَن ، واجتماعُكم أدعَى إلى الظّفر ، ثم أمرهم أن يجعلوا رقباءَ فى صياصِى الجبال . وصَياصِى الجبال : أعاليها وما جرى مجرَى الحصون منها ، وأصل الصياصى القُرون ، ثم استُعير ذلك للحصون لأنَّه يُمتنَع بها كما يمتنع ذو القَرْن بقَرْنه . ومناكب الهضاب : أعاليها ؛ لئلّا يأتيَكم العدوّ إمّا من حيث تأمَنون ، أو من حيث تخافون .

قوله عليه السلام : « مقدِّمة القوم عُيونُهم » ، المقدِّمة ، بكسر الدال ، وهم الّذين يتقدّمون الجيش ، أصله مقدِّمة القوم ، أى الفرْقة المتقدمة . والطّلائع : طائفة من الجيش تُبعَث ليُعلم منها أحوال العدوّ . وقال عليه السلام : المقدِّمة عيون الجَيْش . والطلائع عيون المقدّمة ، فالطلائع إذاً عُيونُ الجَيْش .

ثم نهاهم عن التفرّق ، وأمَرَهم أنّ ينزلوا جميعاً ويَرحلوا جميعا ، لئلا يفْجَأَهم العدوّ بغتة على غير تعبيةٍ واُجتماعٍ ، فيَستأصلهم ؛ ثم أَمرَهم أن يجعلوا الرِّماح كِفةً إذا غشيَهم الليل ، والكاف مكسورة ، أى اُجعلوها مُستَديِرة حوْلكم كالدّائرة ، وكلّ ما استدار كِفة بالكسر ، نحو كِفةّ الميزان ، وكلّ ما اُستطال كُفّة بالضم نحو : كُفةّ الثوب وهى حاشيته ، وكُفة الرّمل ، وهو ما كان منه كالحَبْل .

ثم نهاهم عن النّوم إلّا غراراً أو مضمضةً ، وكلا اللّفظتين ماقلّ من النوم .

---

(١) سورة القصص ٣٤ .

وقال شبيب الخارجىّ : الليلُ يَكفيك الجبان ، ويصف الشجاع .
وكان إذا أَمسَى قال لأصحابه : أتاكم المَدَد ، يعنى اللّيل .

قيل لبعض الملوك بيِّتْ عدوَّك . قال : أكرَه أن أجعلَ غَلبتى سَرِقة .

ولما فصَل قَحْطبة من خُراسَان وفى جُملتِه خالدُ بنُ برمك ، بينا هو على سَطْح بيتٍ فى قرية نَزَلاها وهم يتغدَّون نظر إلى الصَّحْراء فرأى أقاطيعَ ظِباء قد أقبلتْ من جهةِ الصَّحارِى حتى كادت تخالط العسكر ، فقال خالد لقَحْطبة : أيّها الأمير ، نادِ فى الناس : ياخَيلَ اللهِ ارْكبى ؛ فإنّ العدوَّ قد قَرُب منك ، وعامّة أصحابِك لن يُسرِجوا ويُلجموا حتى يَروْا سَرَعان[١] الخيلِ . فقام قَحطبة مذعورا فلم يرَ شيئاً يَروعُه ، ولم يُعاين غُبارا ، فقال لخالد : ماهذا الرأى ؟ فقال : أيّها الأمير ! لا تتشاغل بى ، وناد فى الناس ، أما ترَى أقاطيع الوحوش قد أقبلت وفارقت مواضعَها حتى خالَطَت الناس ! وإن وراءها لجَمْعا كَثيفا . قال : فو الله ماأسرجوا ولا ألجموا حتى رأوا النقْع[٢] وساطع الغُبار ، فسلَّموا ، ولولا ذلك لكان الجيشُ قد اصْطُلِم[٣] .

---

(١) سرعان الخيل : أوائلها .
(٢) النقع : الغبار .
(٣) اصطلم : استؤصل وأبيد .

(١٢)

الأصل :

ومن وصية له عليه السلام وصّى بها معقل بن قيس الرياحيّ حين أنفذه إلى الشام فى ثلاثة آلاف مقدمة له :

اتَّقِ اللهَ الَّذِى لَابُدَّ لَكَ مِنْ لِقَائِهِ ، وَلَا مُنْتَهَى لَكَ دُونَه ، وَلَا تُقَاتِلَنَّ إِلَّا مَنْ قَاتَلَكَ ، وَسِرِ الْبَرْدَيْنِ ، وَغَوِّرْ بِالنَّاسِ ، وَرَفِّهْ فِى السَّيْرِ ، وَلَا تَسِرْ أَوَّلَ اللَّيْلِ ، فَإِنَّ اللهَ جَعَلَهُ سَكَناً ، وَقَدَّرَهُ مُقَاماً لَا ظَعْناً ، فَأَرِحْ فِيهِ بَدَنَكَ ، وَرَوِّحْ ظَهْرَكَ ، فَإِذَا وَقَفْتَ حِينَ يَنْبَطِحُ السَّحَرُ ، أَوْ حِينَ يَنْفَجِرُ الْفَجْرُ ، فَسِرْ عَلَى بَرَكَةِ اللهِ . فَإِذَا لَقِيتَ الْعَدُوَّ فَقِفْ مِنْ أَصْحَابِكَ وَسَطاً ، وَلَا تَدْنُ مِنَ الْقَوْمِ دُنُوَّ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُنْشِبَ الْحَرْبَ . وَلَا تَبَاعَدْ عَنْهُمْ تَبَاعُدَ مَنْ يَهَابُ الْبَأْسَ ، حَتَّى يَأْتِيكَ أَمْرِى . وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ شَنَآنُهُمْ عَلَى قِتَالِهِمْ قَبْلَ دُعَائِهِمْ وَالْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ .

* * *

الشرح :

معقِل بن قَيس ، كان من رجال الكوفة وأبطالها ، وله رياسة وقدَم ، أوفده عمّار ابنُ ياسر إلى عمرَ بن الخطّاب مع الهُرْمُزان لفَتْح تُسْتَر [١] وكان من شيعة علىّ عليه السلام ، وجّهه إلى بنى ساقةَ فقتَل منهم وسَبى ، وحارَب المستَوْردَ بنَ عُلفة الخارجىّ

---

(١) تستر ، بضم أوله وسكون ثانيه وفتح ثالثه : أعظم مدينة بخور ستان .

من تميم الرّباب ، فقتل كلٌّ واحدٍ منهما صاحبَه بدِجلة ، وقد ذكرنا خبَرَها فيما سَبَق ، ومعقِل بنُ قيس رِياحيّ من ولد رِياح بن يربْوع بن حَنظلة بنِ مالك بن زيد منـاة ابن تميم .

قوله عليه السلام : « ولا تُقاتلَن إلّا من قاتلك » ، نهى عن البغْى .

وسِرِ البَرْدَين : هما الغَداة والعَشِىّ ، وهما الأبرَدان أيضا .

ووصّاه أن يَرفُق بالنّاس ولا يكلّفهم السيرَ فى الحرّ .

قوله عليه السلام : « وغوِّر بالناس » : انزِل بهم القائلة ، والمَصدَر التّغوِيرُ ، ويقال للقائلة : الغائرة .

قوله عليه السلام : « وَرفِّه فى السّير » ، أى دَع الإبلَ تَردُ رِفْهاً[1] ، وهوأن تردِ الماء كلّ يوم متى شاءت ولا تُرهِقها وتجشِّمها السَّير . ويجوز أن يكون قوله : « ورفِّه فى السَّير » ، مِن قولك : رَفَّهتُ عن الغرِيم ، أى نفّست عنه .

قوله عليه السلام : « ولا تسر أول الليل » ؛ قد وَرَد فى ذلك خبرٌ مرفوع ، وفى الخبر أنه حين تُنشر الشياطين . وقد علل أميرُ المؤمنين عليه السلام النهى بقوله : « فإن الله تعالى جعله سكنا ، وقدّره مُقاما لا ظعنا » ، يقول : لما امتنّ الله تعالى على عباده بأن جعل لهم الليل ليسكنوا فيه[2] كره أن يخالفوا ذلك . ولكن لقائل أن يقول : فكيف لم يكره السير والحركة فى آخره وهو من جملة الليل أيضا ! ويمكن أن يكون فهم من رسول الله صلى الله عليه وآله أنّ الليل الذى جُعل سكنا للبشر إنما هو من أوّله إلى وقت السَّحَر .

---

(١) أى رد الماء كما شاءت .

(٢) وهو قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ . سورة يونس ٦٧ .

ثم أمره عليه السلام بأن يريح فى الليل بَدَنه وظَهرَه ، وهى الإبل ، وبنو فلان مُظهرون ، أى لهم ظَهْرٌ ينقّلون عليه ، كما تقول : منجِبون ، أى لهم نجائب .

قال الراوندىّ : الظّهْر . الخيول ، وليس بصحيح ، والصحيح ماذكرناه .

قوله عليه السلام : « فإذا وقفتَ » أى فإذا وقفتَ ثَقَلَك ورَحلك لتسير ، فليكن ذلك حين ينبطح السحر .

قال الراوندىّ : « فإذا وقفتَ » ثم قال وقد رُوِى : « فإذا واقفْتَ » ، قال : يعنى إذا وقفت تحارب العدوّ وإذا واقفته ، وما ذكره ليس بصحيح ولا روِى ، وإنما هو تصحيف ، ألَا تراه كيف قال بعده بقليل : « فإذا لقيتَ العدّو »! وإنما مرادُه هاهنا الوصاة بأنْ يكون السيرُ وقت السحر ووقت الفَجْر .

قوله عليه السلام : «حين ينبطح السحر» ، أى حين يتّسع ويمتدّ ، أى لا يكون السحر الأول ، أى ما بين السحر الأول وبين الفَجْر الأول ، وأصل الانبطاح السَّعة ، ومنه الأبطح بمكة ، ومنه البطيحة ، وتبطّح السيل ، أى اتّسع فى البطحاء ، والفجر انفجر انشقّ .

ثم أمره عليه السلام إذا لقِى العدوّ أن يقف بين أصحابه وسطاً لأنه الرئيس، والواجب أن يكون الرئيس فى قلب الجيش ، كما أنّ قلب الإنسان فى وسط جسده ، ولأنه إذا كان وسطا كانت نسبته إلى كلّ الجوانب واحدة ، وإذا كان فى أحد الطرفين بعد من الطَّرف الآخر ، فربما يختلّ نظامه ويضطرب .

ثم نهاه عليه السلام أن يدنو من العدوّ دنوَّ من يريد أن يُنشِب الحرب ، ونهاه أن يبعدُ منهم بُعْدَ من يهاب الحرب ، وهى البأس ، قال الله تعالى : ﴿ وحينَ البَأْسِ ﴾(١) ،

(١) سو البقرة ١٧٧ .

أى حين الحَرْب ، بل يكون على حالٍ متوسِّطة بين هــذين حتى يأتيَه الأمر من أمير المؤمنين عليه السلام لأنه أعرف بما تقتضيه المصلحة .

ثم قال له : لايحملنّـكم بغضكم لهم على أن تبدءوهم بالقتال قبل أن تدْعُوهم إلى الطاعة وتُعْذِرُوا إليهم أى تصيروا ذوى عذر فى حربهم .

والشَّنـآن : البغض ، بسكون النون وتحريكها .

***

[نبذ من الأقوال الحـكيمة فى الحروب]

وفى الحديث المرفوع : « لا تتمنّوا العدوّ فعسى أن تبتلوْا بهم ، ولـكن قولوا : اللهمَّ اكفنا شرّهم ؛ وكُفَّ عنّا بأسهم ، وإذا جاءوك يعرفون أو يضجّون فعليكم الأرض جُلوساً ، وقولوا : اللهمّ أنتَ ربُّنا وربُّهم ، وبيدك نواصينا ونواصيهم ، فإذا غشوْكم فثوروا فى وجوههم » .

وكان أبو الدّرداء يقول : أيّها الناس ، اعملوا عملا صالحا قبل الغَزْو ؛ فإنما تقاتلون بأعمالـكم .

وأوصى أبو بكر يزيدَ بن أبى سفيان حين استعمله فقال : سِرْ على بركة الله ، فإذا دخلت بلاد العدوّ فـكن بعيدا من الحملة ، فإنّى لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد ، وسرْ بالأدِلّاء ولا تقاتل بمجروح ، فإن بعضه ليس منه ، واحترسْ من البَيات ، فإن فى العرب غِرّة ، وأقلل من الـكلام ، فإنّ ماوُعِيَ عنك هو عليك ؛ وإذا أتاك كتابى فأمضه ، فإنما أعمل على حسب إنفـاذه ، وإذا قدم عليك وفود العجم فأنزلهم مُعظم عسكرك ، وأسبغْ عليهم من النفقة ، وامنع النـاس من محادثتهم ليخرجوا جاهلين كما دخلوا جاهلين ، ولا

تلحّنّ فى عقوبة فإن أدناها وجيعة ، ولا تُسرعنّ إليها وأنت تكتفى بغيرها ، واْقبل من الناس علانيتهم ، وكلْهم إلى الله فى سَريرتهم ، ولا تَعرِض عسكرَك فتفضحه، وأستودعك الله الذى لا تضيعُ ودائعه .

***

وأوصى أبو بكر أيضا عكرمة بن أبى جهل حين وَجّهه إلى عُمَانَ فقال : سرْ على اسم الله، ولا تنزلنّ على مستأمِن ،وقدِّم النّذير بين يديك ، ومهما قلتَ : إنى فاعل فافعلْه ،ولا تجعلنّ قولك لغوا فى عقوبة ولا عفْو ، فلا تُرجَى إذا أمَّنت ، ولا تُخاف إذا خوّفت . وانظر متى تقول ومتى تفعل ، وما تقول وما تفعل ، ولا تتوعدنّ فى معصيةٍ بأكثر من عقوبتها، فإنك إن فعلت أثِمت ، وإن تركت كذبت ، واتق الله ، وإذا لقيت فاصبر .

***

ولما ولَّى يزيدُ بنُ معاويةَ سَلْم بن زياد خُراسان قال له : إنّ أباك كفى أخاه عظيما ،وقد استكفيتُك صغيرا ، فلا تتّكلنّ على عذرٍ منّى ، فقد اتكلت على كفاية منك ، وإياك مِنّى من قبل أن أقول : إيّاكَ منك ، واعلم أن الظنّ إذا أخلف منك أَخلف فيك ، وأنت فى أدنى حظك ، فاطلب أقصاه، وقد تبعك أبوك ، فلا تريحنّ نفسك ، واذكر فى يومك أحاديثَ غَدِك .

وقال بعض الحكماء : ينبغى للأمير أن يكون له ستّة أشياء : وزير يثق به ،ويُفشى إليه سِرّه ، وحصْنٌ إذا لجأ إليه عصمه ـ يعنى فرسا ـ وسيفٌ إذا نزل به الأقرانُ لم يخفْ نبوَته ،وذخيرة خفيفة المحمل إذا نابته نائبة وجدَها ـ يعنى جوهرا ـ وَطبّاخ إذا أقوَى من الطعام صَنَع له مايَهيجُ شهوَتَه ، وامرأةٌ جميلة إذا دخل أذهبتْ همَّه . فى الحديث المرفوع : خيرُ الصحابة أربعة ؛ وخير السرايا أربعمائة ، وخير الجيوش أربعة آلاف ،

ولن يُغلب اثنا عشر ألفا من قِلّة إذا اجتمعتْ كَلِمتُهم .

كان يقال : ثلاثة مَن كنّ فيه لم يُفلح فى الحرب ؛ البَغْى ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُم ﴾[1] ، والمكر السّيئ ، قال سبحانه : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾[2] والنَّكْث ، قال تعالى : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾[3] .

***

يقال : خرجت خارجةٌ بخراسان على قتيبة بن مسلم ، فأهمّه ذلك ، فقيل: مايُهمّك منهم! وجّه إليهم وكيع بن أبى أسوَد يكفيك أمرَهم ، فقال : لا أوجّهه ، وإنّ وكيعا رجل فيه كِبْر ، وعنده بَغى ، يحقِر أعداءه ، ومنْ كان هكذا قلّت مبالاتُه بخَصْمه فلم يحترس ، فوجد عدوُّه فيه غِرّةً ، فأوْقَع به .

وفى بعض كتب الفُرْس : إنّ بعض مُلوكِهم سأل : أىّ مكايدا لحَرْب أحزم؟ فقال: إذكاء العيون ، واستطلاع الأخبار ، وإظهار القوّة والسرور والغَلَبة ، وإماتة الفَرَق ، والاحتراس من البطانة من غير إقصاء لمن ينصح ، ولا انتصاح لمن يغشّ ، وكتمان السرّ ، وإعطاء المبلِّغين على الصِّدْق ، ومعاقبة المتوصلين بالكَذِب ، وألاّ تُخْرج هارِباً فتحْوجه إلى القتال ، ولا تُضيّق أمانا على مستأمِن ، ولا تُدهشنّك الغنيمة عن المجاوزة .

وفى بعض كُتُب الهند : ينبغى للعاقل أن يحذَر عدوَّه المحاربَ له على كلّ حال ؛ يرهَب منه المواثَبة إنْ قَرُب ، والغارة إن بَعُد ، والكَمِين إن انْكَشَف ، والاستطراد إن ولّى ، والمكْر إن رآه وحيدا . وينبغى أن يؤخّر القتال ماوجد بُدًّا ، فإنّ النَّفَقة عليه من الأنفس ، وعلى غيرِه من المال .

---

(١) سورة يونس ٢٣ .

(٢) سورة فاطر ٤٣ .

(٣) سورة الفتح ١٠ .

(١٣)

الأصْـلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى أميرين من أمراء جيشه :

وَقَدْ أَمَّرْتُ عَلَيْـكُمَا وَعَلَى مَنْ فِي حَيِّزِكُمَا مَالِكَ بْنَ ٱلْحَارِثِ ٱلْأَشْتَرَ ، فَاسْمَعَا لَهُ وَأَطِيعَا ، وَٱجْعَلَاهُ دِرْعًا وَمِجَنًّا ، فَإِنَّهُ مِمَّنْ لَا يُخَافُ وَهْنُهُ وَلَا سَقْطَتُهُ ،وَلَا بُطْؤُهُ عَمَّا ٱلْإِسْرَاعُ إِلَيْهِ أَحْزَمُ ، وَلَا إِسْرَاعُهُ إِلَى مَاٱلْبُطْءُ عَنْهُ أَمْثَلُ .

* * *

[فصل فى نسب الأشتر وذكر بعض فضائله]

الشَّـرح :

هو مالكُ بنُ الحارث بن عبد يغوث بن مسلمة بن ربيعةَ بن خُزيمة بن سعد بن مالك ابن النَّخَع بن عمرو بن عُلَة بن خالد بن مالك بن أُدَد . وكان فارسا شجاعا رئيسا من أكابر الشِّيعة وعُظمائها ، شديدَ التحقّق بوَلاء أميرِ المؤمنين عليه السلام ونصرِه ، وقال فيه بعد موته : رحم الله مالِـكاً ، فلقد كان لى كما كنتُ لرسول الله صلى الله عليه وآله !

ولمّا قَنَت علىٌّ عليه السلام على خمسة ولَعَنهم وهم : معاوية ، وعَمرو بن العاص،وأبو الأعوَر السُّلَمىّ ، وحبيب بن مسلمة ، وبُسرُ بنُ أرطاة ، قَنَت معاوية على خمسة ، وهم : علىّ ، والحسَن ، والحسين – عليهم السلام – وعبد الله بن العبّاس ، والأشتر ، ولعنهم . وقد روى أنه قال لما ولّى على عليه السلام بنى العباس على الحجاز واليَمَن والعِراق: فلماذا قتلْنا الشيخَ بالأمس ! وإنّ عليا عليـه السلام لمّا بلغتْه هـذه الـكلمة أحضَرَه ولاطَفَه واعتَذَر إليه وقال له : فهل ولّيتُ حَسَنا أو حُسَينا أو أحدا من وَلَد جعفر أخى، أوعَقيلا

أو واحدا من ولده ! وإنما وليّت ولَد عمّي العباس ، لأنّي سمعت العبّاس يطلب من رسول الله صلى الله عليه وآله الإمارة مِرارا ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: ياعمّ، إنّ الإمارة إن طلبتَها وكلتَ (١) إليها ، وإن طلبتْك أُعنت عليها . ورأيتُ بَنيه فى أيّام عمر وعثمانَ يَجدون فى أنفسهم إذ ولّى غيرهم من أبناء الطلَقاء ولم يولِّ أحدا منهم ، فأحببتُ أن أصلَ رَحِمَهم ، وأزيلَ ما كان فى أنفسهم ؛ وبعد فإنْ علمتَ أحداً من أبناء الطُّلَقاء هو خير منهم فأْتنى به . فخرج الأشتر وقد زال مافى نفسه .

وقد رَوَى المحدِّثون حديثا يدلّ على فضيلة عظيمة للأشْتَر رحمه الله ، وهى شهادةٌ قاطعةٌ من النبىّ صلى الله عليه وآله بأنّه مؤمن ، روى هذا الحديث أبو عمر بن عبد البرّ فى كتاب " الاستيعاب " فى حرف الجيم ، فى باب « جُندب » قال أبو عمر (٢) :

لمّا حضرتْ أبا ذَرّ الوفاةُ وهو بالرَّبَذة (٣) بكت زوجته أمّ ذرّ ، فقال لها : مايُبكيك ؟ فقالت : مالى لاأبكى وأنت تموت بفَلاةٍ من الأرض ، وليس عندى ثوبٌ يسعُك كَفَنا ، ولا بدّ لى من (٤) القيام بجهَازك ! فقال : أَبشرى ولاتبكى ، فإنّى سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله يقول : « لا يموت بينَ امرأيْن مُسلمين وَلَدان أو ثلاثة ، فيَصبران ويحتَسِبان فيَرَيان النار أبدا » ؛ وقد مات لنا ثلاثةٌ من الولد . وسمعتُ أيضا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لنفرٍ أنا فيهم : « ليَموتَنّ أحدُكم بفَلاةٍ من الأرض يَشهَده عِصابة من المؤمنين » ، وليس من أولئك النّفر أحدٌ إلّا وقد مات فى قرية وجماعة فأنا — لاأشكّ — ذلك الرجل ، والله ما كَذَبتُ ولا كُذّبت ، فانظرى الطريق . قالت أمّ ذرّ : فقلتُ : أنّى وقد ذهب الحاجّ وتقطّعت الطُّرق ! فقال : اذهَبى فتبصّرى . قالت: فكنت

---

(١) وكلت إليها ، أى احتجت إليها وعجزت .

(٢) بسنده عن على بن المدينى ، عن يحي بن سليم عن عبد الله بن عثمان بن خثيم ، عن مجاهد عن إبراهيم بن الأشتر . عن أبيه .

(٣) الربذة : قرية على ثلاثة أميال من المدينة المنورة قريبة من ذات عرق .

(٤) الاستيعاب : « للقيام » .

أشتدّ [1] إلى الكَثِيب ، فأصعَد فأنظُر ، ثم أرجع إليه فأمرّضه ، فبينا أنا وهو على هذه الحال إذ أنا برجال عَلَى رِكابهم [2] كأنّهم الرَّخم [3] تخُبُّ بهم رواحِلُهم ، فأسرعوا إلىّ حتى وَقفوا علىّ وقالوا : ياأَمَةَ الله ، مالك ؟ فقلتُ : امرُؤ من المسلمين يموت، تكفّنونه ؟ قالوا : ومن هو ؟ قلتُ : أبو ذَرّ ، قالوا : صاحبُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلّم ؟ قلتُ : نعم ، ففدّوه بآبائهم وأمّهاتهم ، وأسرَعوا إليه حتى دخلوا عليه ، فقال لهم : أبشروا فإنّى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول لنفرٍ أنا فيهم : « ليموتَنّ رجل منكم بفَلاةٍ من الأرض تَشهده عِصابةٌ من المؤمنين » ، وليس من أولئك النفر إلّا وقد هلك فى قرية وجماعة ، واللهِ ما كذبت ولا كذّبت ، ولو كان عندى ثوب يَسَعُنى كفنا لى أو لامرأتى لم أُكفَّن إلا فى ثوب لى أو لها ؛ وإنى أنشدكم اللهَ ألّا يكفّننى رجل منكم كان أميرا أو عريفا أو بريدا أو نقيبا ! قالت : وليس فى أولئك النفر أحد إلا وقد قارَف بعض ما قال ، إلّا فتًى من الأنصار قال له : أنا أُكفّنك ياعمّ فى ردائى هذا ، وفى ثوبين معى فى عَيْبَتى من غَزْلِ أُمّى ؛ فقال أبو ذَرّ : أنت تكفّننى ، فمات فكفّنه الأنصارىّ وغَسّله النّفرُ الذين حَضروه وقاموا عليه ودفَنوه ؛ فى نفر كلُّهم يمان [4] .

روى أبو عمرَ بن عبد البرّ قبل أن يروى هذا الحديث فى أوّل باب جُندَب : كان النّفرُ الّذين حضروا موتَ أبى ذَرّ بالرّبذة مصادفة جماعة ؛ منهم حُجْر بن الأدْبَر ، ومالك ابنُ الحارث الأشتر [5] .

قلت : حُجر بن الأدْبَر هو حُجْر بن عدِىّ الذى قتَله معاويةُ ، وهو من أعلام الشّيعة وعظمائها ، وأما الأشتر فهو أشهرَ فى الشّيعة من أبى الهُذَيل فى المعتزلة .

---

(١) أشتد : أعدو .　　(٢) الاستيعاب : « رحالهم » .

(٣) الرخم : جمع رخمة ، الطائر المعروف .

(٤) الاستيعاب : ٨٣ .

(٥) الاستيعاب : « وفتى من الأنصار دعتهم امرأته إليه فشهدوا موته ، وغمضوا عينيه ، وغسلوه وكفنوه فى ثياب الأنصارى ، فى خبر عجيب حسن فيه طول » .

قرئ كتاب " الاستيعاب " على شيخنا عبد الوهّاب بن سُكَينة المحدّث وأنا حاضر ، فلمّا انتهى القارئ إلى هذا الخبر قال أستاذى عمر بنُ عبد الله الدّبّاس — وكنت أحضرُ معه سَماعَ الحديث — : لتقل الشِّيعة بعد هذا ما شاءتْ ، فما قال المرتضى والمفيد إلّا بعض ما كانَ حُجْر والأشترُ يعتقدانِه فى عثمانَ ومن تقدّمه ، فأشار الشيخ إليه بالسكوت ، فَسكَت .

وذكرْنا آثار الأشتر ومقاماته بصفِّين فيما سبق .

والأشتر هو الّذى عانقَ عبدَ الله بن الزبير يومَ الجَمَل فاصطَرَعا على ظهر فرسَيْهما حتى وقعا فى الأرض ، فجعل عبدُ اللهِ يصرُخُ من تحتهِ : اقتُلونى ومالِكا ! فلم يُعلَم من الذى يعنيه لشدة الاختلاط وثَوَران النقع[1] ؛ فلو قال : اقتُلونى والأشْتَر لَقُتِلا جميعا ؛ فلما افترقا قال الأشتَر :

أعائشَ لولا أنّى كنتُ طاويًا ... ثلاثًا لألْفيتِ ابن أختكِ هالِكا[2]

غداةَ يُنَادِى والرِّماح تَنوشُه ... كوقْع الصَّياصىِّ : اقتُلونى ومَالِكا[3]

فنجّاه منِّى شِبْعه وشَبابُه ... وأنّىَ شيخٌ لم أكن متماسكَا

ويقال : إنّ عائشةَ فقدتْ عبدَ الله فسألت عنه ، فقيل لها : عهدُنا به وهو معانق للأشتر ، فقالت : واثُكْلَ أسْماءَ !

ومات الأشتُر فى سنة تسع وثلاثين متوجِّها إلى مصر واليًا عليها لعلّى عليه السلام . قيل : سُقِى سُمّا ، وقيل : إنه لم يصحّ ذلك ، وإنما مات حَتْفَ أنفهِ .

***

فأما ثناء أمير المؤمنين عليه السلام عليه فى هـذا الفَصْل فقد بلغ مع اختصاره ما لا يبلغ بالكلام الطويل ، ولَعمرى لقد كان الأشتر أهلًا لذلك ، كان شديد البأس ، جواداً

(١) النقع : الغبار . (٢) الطاوى : الجائع .
(٣) تنوشه : تتناوله .

رئيسا حليما فصيحا شاعراً ، وكان يجمع بين اللِّين والعُنْف ، فيَسطُو فى موضع السَّطْوة ، ويرفُق فى موضع الرِّفق .

[نبذ من الأقوال الحكيمة]

ومن كلام عمر : إن هذا الأمر لا يَصلُح إلا لقوىٍّ فى غير عُنْف ، ولَيِّنٍ فى غير ضُعْف .

وكان أنو شَرْوانَ إذا ولّى رجلا أمرَ الكاتبَ أن يَدَع فى العَهْد موضِعَ ثلاثة أسطر ليوقّع فيها بخطه ، فإذا أُتِى بالعهد وقّع فيه : سُس خِيارَ الناس بالمودّة ، وسِفْلَتهم بالإخافة ، وامزُج العامة رهبةً برَغْبة .

وقال عمرُ بنُ عبد العزيز : إنى لأهمّ أن أخرج للناس أمرا من العدل ، فأخافُ ألّا تحتملَه قلوبُهم ، فأخرج معه طمعا مِن طمع الدنيا ، فإن نفرت القلوبُ من ذاكَ سكنتْ إلى هــذا .

وقال معاوية : إنّى لا أضع سَيْفى حيث يَكفِينى سَوْطى ، ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى ؛ ولو أن بينى وبين الناس شَعْرةً ما انقطعتْ . فقيل له : كيف ؟ قال : إذا مدّوها خَلَّيتُها ، وإذا خَلَّوْها مَددْتها .

وقال الشَّعْبىّ فى معاوية : كان كالجَمَل الطَّبّ . إذا سُكِت عنه تقدّم ، وإذا رُدّ تأخّر .

وقال ليزيد ابنه : قد تبلغُ بالوعيد ما لا تَبلُغ بالإيقاع ، وإياك والقَتْل ، فإن الله قاتل القتّالين .

وأغلَظَ له رجل فحلُم عنه ، فقيل له : أتحلم عن هذا ؟ قال : إنا لا نحول بين الناس وألسنتِهم ما لم يَحولُوا بيننا وبين سلطاننا .

ونخَرَ سليم مولَى زياد عند معاوية بن زياد ، فقال معاوية : اسكت ويْحَك فما أدرك صاحبُك بسَيْفه شيئا قطّ إلّا وقد أدركتُ أكثر منه بلسانى .

وقال الوليد بن عبد الملك لأبيه : ماالسيّاسة ياأبت ؟ قال : هيبة الخاصة لك ، مع صدق مودّتها ، واقتيادك قلوبَ العامّة بالإنصاف لها ، واحتمال هفَوات الصنائع.

***

وقد جمع أميرُ المؤمنين عليه السلام من أصناف الثّناء والمدْح مافرّقه هؤلاء فى كلماتهم بكلمة واحدة قالها فى الأشْتر ، وهى قوله : « لا يخاف بُطْئُهُ عمّا الاسراعُ إليه أحزَم ، ولا إسراعه إلى ماالبطء عنه أمثَل .

***

قوله عليه السلام : « وعلى من فى حيزِّكما » أى فى ناحيتكما .

والمِجنّ : الترّس .

والوَهْن : الضعف .

والسَقْطة : الغَلطة والخطأ .

وهذا الرأى أحزم من هذا ، أى أدخل فى باب الحزم والاحتياط ، وهذا أمثل من هذا أى أفضَل .

(١٤)

الأصل :

ومن وصية له عليه السلام لعسكره بصفين قبل لقاء العدوّ :

لَا تُقَاتِلُوهُمْ حَتَّى يَبْدَءُوكُمْ ، فَإِنَّكُمْ بِحَمْدِ اللهِ عَلَى حُجَّةٍ ، وَتَرْكُكُمْ إِيَّاهُمْ حَتَّى يَبْدَءُوكُمْ حُجَّةٌ أُخْرَى لَكُمْ عَلَيْهِمْ ، فَإِذَا كَانَتِ الْهَزِيمَةُ بِإِذْنِ اللهِ فَلَا تَقْتُلُوا مُدْبِراً ؛ وَلَا تُصِيبُوا مُعْوِراً ، وَلَا تُجْهِزُوا عَلَى جَرِيحٍ ، وَلَا تَهِيجُوا النِّسَاءَ بِأَذًى وَإِنْ شَتَمْنَ أَعْرَاضَكُمْ ، وَسَبَبْنَ أُمَرَاءَكُمْ ، فَإِنَّهُنَّ ضَعِيفَاتُ الْقُوَى وَالْأَنْفُسِ وَالْعُقُولِ؛ إِنْ كُنَّا لَنُؤْمَرُ بِالْكَفِّ عَنْهُنَّ وَإِنَّهُنَّ لَمُشْرِكَاتٌ ، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَتَنَاوَلُ الْمَرْأَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِالْفِهْرِ أَوِ الْهِرَاوَةِ ، فَيُعَيَّرُ بِهَا وَعَقِبُهُ مِنْ بَعْدِهِ .

* * *

الشرح :

نَهى أصحابه عن البغى والابتداء بالحرب ، وقد رُوى عنه أنه قال : ما نُصِرت على الأقران الّذين قتلتهم إلّا لأنّى ما ابتدأتُ بالمبارزة . ونَهى - إذا وقعت الهزيمة — عن قَتْل المدبر ، والإجهاز على الجريح ، وهو إتمام قتله .

قوله عليه السلام : « ولا تصيبوا مُعورا » هو من يعتصم منك فى الحَرْب بإظهار عوْرته لتكفّ عنه ، ويجوز أن يكون المُعور هاهنا المريب الذى يظنّ أنه من القوم وأنّه حَضَر للحرب وليس منهم ، لأنّه حضر لأمرٍ آخر .

قوله عليه السلام : « ولا تُهيجوا النّساء بأذًى » ، أى لا تحرّكوهنّ .

والفهْر : الحَجَر : والهِراوة : العصا.

وعَطَف «وعقبه» على الضمير المستكنّ المرفوعِ فى «فيعــيّر» ولم يؤكّد للفَصْل بقوله : بها ، كقوله تعالى : ﴿ ماأشركْنا ولا آباؤنا ﴾[١] ، لما فَصَل بلا عطف ولم يحتجْ إلى تأكيد .

***

[نبذ من الأقوال الحكيمة]

ومما ورد فى الشعر فى هذا المعنى قول الشاعر[٢] .

إنّ مِنْ أعظمِ الكبائر عندى قتلُ بيضاءَ حُرّة عُطْبُولِ[٣]
كُتبَ القتلُ والقتالُ علينــا وعلى المحصَنات جرُّ الذّيولِ

وقالت امرأة عبد الله بنِ خَلَف الخزاعىّ بالبصرة لعلىّ عليه السلام بعد ظفره — وقد مرّ ببابها : ياعلىّ ، ياقاتلَ الأحِبّة ، لا مرحباً بك ! أيتم الله منك ولدَك كما أيتمتَ بنِى عبدِ الله بن خَلَف ! فلم يرُدَّ عليها ، ولكنّه وقف وأشار إلى ناحيةٍ من دارها ، ففهمتْ إشارتَه ، فسكتتْ وانصرفتْ . وكانت قد سترتْ عندها عبدَ الله بن الزّبير ومروانَ بنَ الحكم ، فأشار إلى الموضع الّذى كانا فيه ، أى لو شئتُ أخرجتُهما ! فلمّا فهمت انصرفَتْ. وكان عليه السلام حليما كريما .

وكان عمر بنُ الخطّاب إذا بعثَ أمراءَ الجيوش يقول : بسم الله ، وعلى عَوْن الله ،

---

(١) سورة الأنعام ١٤٨ .

(٢) من أبيات تنسب لعمر بن أبى ربيعة ، ملحق ديوانه : ٤٩٨ .

(٣) العطبول : الشابة الفتية الممتلئة . وبعده :

قُتلتْ باطلاً على غــير ذنبٍ إنّ للهِ درُّها من قَتيـــلِ

وبركته ، فامضوا بتأييد الله ونصره . أوصيكم بتقوى الله ، ولزوم الحقّ والصّبر ، فقاتلوا فى سبيل الله مَن كَفَر بالله ، ولا تَعتَدُوا إن الله لا يحبُّ المُعتَدين . ولا تجبنُوا عند اللّقــاء ، ولا تُمثِّلوا عند الغارة ، ولا تُسرفوا عند الظّهور ، ولا تقتلوا هرِما ، ولا امرأةً ، ولا وَليدا ، وتَوَقَّوا أن تطئوا هؤلاء عند التقاء الزَّحْفَين وعند حمة النَّهضات وفى شَنّ الغارات ، ولا تغُلّوا عند الغنائم ، ونَزِّهو الجهاد عن غرض الدنيا ، وأبشروا بالأرباح فى البَيْع الذى بايعتمْ به ، وذلك هو الفَوْز العظيم .

واستشار قومٌ أكثَمَ بنَ صَيْفىّ فى حرب قومٍ أرادوهم وسألوه أن يُوصِيَهم ، فقال: أقِلّوا الخلاف على أمرائــكم ، واثبتوا ، فإن أحزَم الفريقين الرّكين[1] ، ورُبّ عَجَلة تَهب[2] رَيْثا .

وكان قيسُ بنُ عاصم المنقرىّ إذا غزَا شَهد معه الحربَ ثلاثون منْ ولده يقول لهم : إيّاكم والبغى ، فإنه مابَغى قوم قطّ إلا ذَلّوا ؛ قالوا : فـكان الرجلُ من وَلدِه يُظْلَم فلا ينتصف مخافةَ الذلّ .

قال أبو بكر يومَ حُنَين : لن نُغلَب اليوم من قلّة – وكانوا اثنى عشرَ ألفا – فهزمُوا يومئذ هزيمةً قبيحة ، وأنزل الله تعالى قوله : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عنـكُمْ شيئاً ﴾[3] .

وكان يقال : لا ظَفَر مع بَغى ، ولا صحّــة مع نَهَم ، ولا ثنــاء مع كِـبْر ، ولا سُؤدُدَ مع شُحّ .

* * *

---

(١) الركين : العزيز المتنع . (٢) الريث : الإبطاء ؛ وهو مثل .
(٣) سورة التوبة : ٢٥ .

[قصة فيروز بن يزدجرد حين غزا مَلِك الهياطلة]

ومن الكلمات المستحَسنة فى سوء عاقبة البَغْى ماذكره ابن قتيبة فى كتاب "عيون الأخبار" أن فَيْروز بن يَزْدَجرد بن بَهْرام لما مَلَك سار بجنُوده نحو بلاد الهياطلة ،فلمّا انتهى إليهم اشتدّ رعبُ مَلِكهم أخشنوار منه وحذره ،فناظر أصحابَه ووزراءه فى أمره فقال رجل منهم : أعطِنى مَوْثقا من الله وعَهْدا تطمئنّ إليه نفسى أن تكفِيَنى الغمّ بأمرِ[1] أهلى وولدى ، وأن تُحسِن إليهم ، وتخلُفنى فيهم ، ثم اقْطَع يدىَّ ورجْلىَّ والْقِنى فى طريق فَيْروز حتّى يمرّ بى هو وأصحابه ، وأنا أكفيك أمرَهم[2] ، وأورّطهم مَوْرِطا تكون فيه هَلَكَتُهم . فقال له أخشنوار : وما الّذى تنتفع به من سلامتنا وصلاحِ حالِنا إذا أنتَ هلكتَ ولم تشركْنا فى ذلك! فقال : إنّى قد بلغتُ ما كنتُ أحِبّ أن أبلَغ من الدّنيا، وأنا موقن أنّ الموت لابدَّ منه ، وإنْ تأخّر أيّاما قليلةً ، فأحِبُّ أن أختِم عَمَلى بأفضل مايُختَم به الأعمال من النّصيحة بسلطانى ، والنّكاية فى عدُوّى ، فَيَشرُف بذلكِ عَقِبى، وأصيبَ سعادة وحُظْوةً فيما أمامى .

ففعل أخشنوار به ذلك ، وحَمَله فألقاه فى الموضع الّذى أشار إليه ، فمرّ به فيروزُ فى جنوده ، فسأله عن حالِه ، فأخبَرَه أنّ أخشنوار فعل به مايَرَاه وأنّه شديد الأسف ، كيف لايستطيع أن يكون أمام الجيش فى غزوِ بلادِه وتخريب مدينته ، ولكنّه سيَدُلّ الملكَ على طريق هو أقربُ من هذا الطريق الّذى يريدون سلوكَه وأخفَى ، فلا يشعر أخشنوار حتّى يَهجُم عليه فينتقمَ الله منه بكم ، وليس فى هذا الطريق من المكروه إلّا تغوّر[3] يومين ، ثم تُفْضُون إلى كلّ ماتُحِبّون .

---

(١) العيون : « أن تكفينى أهلى وولدى » . (٢) العيون : «أكفيك مؤونتهم وأمرهم » .
(٣) التغور : إتيان الغور . وفى عيون الأخبار : تفويز يومين » ؛ أى السير فى المفازة .

فقبل فيروز قولَه بعد أن أشار إليه وزراؤه بالاتّهام له ، والحذرِ منه ، [وبغير ذلك][1] . فخالفهم وسلك تلك الطريقَ ، فانتهَوْا بعد يومين إلى موضع من المفازة لا صَدَرَ لهم عنه ، ولا ماء معهم ، ولا بين أيديهم ، وتبيّن لهم أنهم قد خُدِعوا ، فتفرّقوا فى تلك المفازة يمينا وشمالا يلتمسون الماء ، فقتل العطشُ أكثرَهم ، ولم يَسلَم مع فيروز إلّا عدّة يسيرة ، فانتهى إليهم أخشنوار بجيشه ، فواقعهم فى تلك الحال التى هم فيها من القِلّة والضُّرّ والجَهْد ، فاستمكنوا منهم ، بعد أن أعظموا[2] النِّكايةَ فيهم .

وأُسِر فيروز ، فرغب أخشنوار أن يمُنّ عليه وعلى من بَقِيَ من أصحابه على أن يجعل له عهدَ الله وميثاقه ؛ ألّا يغزُوَهم أبدا ما بقِيَ ، وعلى أن يَحُدّ فيما بينه وبين مملكتهم حَدّا لا يتجاوزُه جنودُه . فرضى أخشنوار بذلك ، فخلّى سبيله ، وجعلا بين المملكتين حجَرا[3] لا يتجاوزه كلّ واحد منهما .

فمكث فيروز بُرْهة من دهره ، ثم حمَلَه الأَنَفُ على أن يعود لغَزْو الهياطِلة ، ودعا أصحابه إلى ذلك ، فنهوْه عنه ، وقالوا : إنّك قد عاهَدْته ، ونحن نتخوّف عليك عاقبة البغى والغَدْر ، مع ما فى ذلك من العار وسوءِ القالة[4] .

فقال لهم : إنما اشترطت له ألّا أجوز الحجرَ الّذى جعلناه بيننا ، وأنا آمرُ بالحجر فيحُمَل أمامنا على عَجل .

فقالوا : أيّها الملك ، إنّ العهود والمواثيق الّتى يتعاطاها النّاسُ بينهم لا تُحمَل على مايُسِرّه المعطِى لها ، ولكن على مايعلن به المعطَى إيّاها ، وإنّما جعلتَ عهدَ الله وميثاقه على الأمر الذى عرَفه ، لا على الأمر الّذى لم يخطر له ببال . فأبى فيروز ومضى فى غَزْوته حتى انتهى إلى الهياطلة ، وتصافّ الفريقان للقتال .

---

(١) من عيون الأخبار . (٢) عيون الأخبار : « وأعظموا النكاية » .
(٣) عيون الأخبار : « حدا لا تجاوزه » .
(٤) القول فى الخير ، والقالة فى الشر ، وفى عيون الأخبار : « المقالة » .

فأرسل أخشنوار إلى فيروز يسأله أن يبرز فيما بين صَفَّيْهم ، فخرج إليه ، فقال له أخشنوار : إنِّى قد ظننتُ أنه لم يدعُك إلى مُقامِك هذا إلا الأنَف ممّا أصابك ، ولعَمْرى إن كنَّا قد احتَلْنا لك بما رأيتَ لقد كنت التمستَ منّا أعظمَ منه ، وما ابتدأناك ببَغْى ولا ظُلْم ، وما أردنا إلا دفعك عن أنفسنا وحريمنا ، ولقد كنتَ جديرا أن تكون من سوء مكافأتِنا بمنِّنا عليك وعلى من معك ، ومن نَقْض العهد والميثاق الذى أكّدْتَه على نفسك أعظم أَنَفًا ، وأشَدَّ امتعاضا ممّا نالك منّا ، فإنا أطلقناكم وأنتم أُسارَى ، ومننّا عليكم وأنتم عَلَى الهَلَكة مُشرفون ، وحَقَنَّا دماءكم ولنا عَلَى سَفْكها قُدرة . وإنا لم نجْبُرك عَلَى ما شرطتَ لنا ، بل كنتَ أنتَ الراغبُ إلينا فيه ، والمريدُ لنا عليه ، ففكِّر فى ذلك ، وميِّزْ بين هذين الأمرين فانظر أيّهما أشدّ عارا ، وأقبح سماعا ، إن طلب رجل أمرا فلم يَقدِر له ولم ينجَح فى طِلَبته وسَلَك سبيلا فلم يظفر فيه ببغيته ، واستمكَن منه عدوّه على حال جَهْد وضَيْعة منه وممّن هم معه .

فمنّ عليهم وأطلقهم على شرطٍ ، شَرَطُوه وأمرٍ اصطلحوا عليه ، فاصطَبَر[1] بمكروه القضاء ، واستحيا مِن الغَدْر والنَّكْث ، أن يقال : نَقَض العهدَ وأخفَرَ[2] الميثاق ، مع أنى قد ظننت أنه يزيدك لجاجة[3] ما نثق به مِنْ كثرة جنودِك ، وما ترى من حسن عُدّتهم ، وما أجِدُنى أشك أنهم أو أكثرهم كارهون لما كان من شُخوصِك بهم ، عارفون بأنّك قد حملتَهم عَلَى غير الحقّ ، ودعوتَهم إلى ما يُسخط الله ، وأنهم فى حربنا غير مستبصِرين ، ونيّاتُهم عَلَى مناصَحَتك مدخولة .

فانظر ما قَدْر غَناء من يُقاتل عَلَى هذه الحال ، وما عسى أن يبلغ نكايته فى عدوّه ، إذا كان عارفا بأنه إن ظَفِر فمع عار ، وإن قُتِل فإلى النار ! وأنا أذكِّرك اللهَ الّذى جعلته

(١) عيون الأخبار : « فاضطر » .

(٢) أخفر ميثاقه : نقض عهده ؛ وفى عيون الأخبار : «خفر الميثاق » .

(٣) عيون الأخبار : « نجاحاً » .

على نفسك كفيلا ، وأذكرك نعمتى عليك وعلى مَنْ معك ، بعد يأسكم من الحياة ، وإشفائكم عَلَى الممات ، وأدعوك إلى ما فيه حَظُّك ورُشْدُك من الوفاء بالعهد ، والاقتداء بآبائك وأسلافك الذين مضوا عَلَى ذلك فى كلّ ما أحبُّوه وكرِهوه ، فأحمدوا عواقبَه وحسُن عليهم أثرُه .

ومع ذلك فإنّك لستَ عَلَى ثقة من الظفّر بنا ، وبلوغ نُهْمَتك[1] فينا ، وإنما تلتمس أمراً يلتمس منك مثله ؛ وتنادى عدوّا لعلّه يمنَح النصرَ عليكَ ، فاقبلْ هذه النصيحة فقد بالغتُ فى الاحتجاج عليك ، وتقدّمْتُ بالإعذار إليك ، ونحن نَستظهِر بالله الذى اعتذَرْنا إليه ، ووثقْنا بما جعلت لنا من عهده ، إذا استظهرتَ بكثرة جنودِك ، وازدَهَتْك عِدّة أصحابك ، فدونك هذه النصيحة ، فبالله ما كان أَحدٌ من أصحابك يبالغ لك أَكثرَ منها ، ولا يزيدك عليها ، ولا يحرمنَّك منفعتها مخرجُها منى ، فإنه ليس يُزْرى بالمنافع والمصالح عند ذوى الآراء صُدورُها عن الأعداء ، كما لا تَحسُن المضارُّ أن تكون عَلَى أيدى الأصدقاء .

واعلم أنه ليس يدعونى إلى ما تَسمَع من مخاطبتى إيّاك ضعفٌ من نفسى ، ولا من قِلّة جنودى ، ولكنى أحببتُ أن أزداد بذلك حجّةً واستظهارا ، فأزداد به للنصر والمَعُونة من الله استيجابا ، ولا أوثر عَلَى العافية والسلامة شيئاً ما وجدتُ إليهما سبيلا[2] .

فقال فيروز : لستُ ممن يرَدَعه عن الأمر يُهَمّ به الوعيد ، ولا يصده التهدد والترهيب ، ولو كنتُ أرَى ما أطلب غَدْرا منى ، إذاً ما كان أَحدٌ أنظَرَ ولا أشدّ إبقاء منى على نفسى ، وقد يَعلم اللهُ أنى لم أجعل لك العهدَ والميثاقَ إلا بما أضمرتُ فى نفسى ، فلا يغرنّك الحالُ الّتى كنتَ صادفْتَنا عليها من القِلّة والجَهْد والضَّعف .

---

(١) النهمة : الحاجة والشهوة .

(٢) فى عيون الأخبار بعدها : « فأبى فيروز إلا تعلقا لحجته فى الحجر الذى جعله حدا بينه وبينه » .

فقال أخشنوار : لا يغرنّك ماتخدع به نفسك من حملك الحجر أمامك ، فإنّ الناس لو كانوا يُعطون العهودَ على ماتصف من إسرارِ أمرٍ وإعلانِ آخر ، إذاً ما كان ينبغى لأحد أن يغترّ بأمان ، أو يثق بعَهْد ! وإذاً ما قبِل الناسُ شيئاً ممّا كانوا يعطون من ذلك ، ولكنّه وضع على العلانيَة ، وعلى نيّة من تُعقد له العهود والشروط . ثم انصرف.

فقال فيروز لأصحابه : لقد كان أخشنوار حسَن المحاوَرة ، وما رأيتُ للفرَس الّذى كان تحته نظيرا فى الدّوابّ ، فإنه لم يُزِل قوائمه ، ولم يرفَع حوافرَه عن مواضعِها ، ولا صَهل ، ولا أحدَث شيئا يقطَع به المحاورة فى طولِ ماتواقفْنا .

وقال أخشنوار لأصحابه : لقد وافقتُ فيروز كما رأيتم وعليه السلاح كلّه ، فلم يتحرّك ، ولم ينزع رِجْلَه من ركابه ، ولا حَنَى ظهره ، ولا التفتَ يمينا ولا شِمالا ، ولقد تورّكت أنا مرارا ، وتمطّيت على فرسى ، والتفتّ إلى مَن خَلْفى ، ومددتُ بصرى فيما أمامى ، وهو منتصِب ساكنٌ على حاله ، ولولا محاوَرته إيّاى لظننت أنه لا يبصرنى . وإنما أرادا بما وصَفا من ذلك أن يُنشرَ هذان الحديثان فى أهلِ عسكرهما فيشتغلوا بالإفاضة فيهما ، عن النّظر فيما نذاكرا .

فلما كان فى اليوم الثانى أخرَج أخشنوار الصحيفَة التى كتبها لهم فيروز ، ونصبَها على رُمْح ليراها أهلُ عسكر فيروز فيعرفوا غدْره وبغيَه ، ويخرجوا من متابعته على هَواه ، فما هو إلا أن رأوها ، حتى انتقض عسكرُهم واختلفوا ، وماتلبّثوا إلّا يسيرا حتى انهزَموا ، وقُتِل منهم خلقٌ كثير ، وهلك فيروز ، فقال أخشنوار : لقد صدق الذى قال : لا مردّ لما قدّر ولا شىء أشدّ إحالة لمنافع الرأى من الهوى واللّجاج ، ولا أضيع من نصيحة يُمنَحها من لا يوطّن نفسَه على قبولها ، والصّبر على مكروهِها ، ولا أسرع عقوبةً وأسوأ عاقبةً من البغى والغَدْر ، ولا أجلب لعظيم العارِ والفُضوح من الأنف وإفراط العجْب (١) .

---

(١) عيون الأخبار ١ : ١١٧ — ١٢١ .

(١٥)

الأصْـلُ

وكان عليه السلام يقول إذا لقى العدو محاربا :

اَللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَفْضَتِ ٱلْقُلُوبُ ، وَمُدَّتِ ٱلْأَعْنَاقُ ، وَشَخَصَتِ ٱلْأَبْصَارُ ، وَنُقِلَتِ ٱلْأَقْدَامُ ، وَأُنْضِيَتِ ٱلْأَبْدَانُ .

اَللَّهُمَّ قَدْ صَرَّحَ مَكْنُونُ ٱلشَّنَآنِ ، وَجَاشَتْ مَرَاجِلُ ٱلْأَضْغَانِ .

اَللَّهُمَّ إِنَّا نَشْكُو إِلَيْكَ غَيْبَةَ نَبِيِّنَا ، وَكَثْرَةَ عَدُوِّنَا ، وَتَشَتُّتَ أَهْوَائِنَا .

رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ ٱلْفَاتِحِينَ .

* * *

الشَّـرْحُ :

أفضت القلوب : أى دَنَت وقَرُبَت ، ومنه أفضَى الرّجلُ إلى امرأته أى غشيَها ، ويجوز أن يكون « أفضت » أى بسرّها ، فحذف المفعول .

وأُنضيت الأبدان : هَزُلت ، ومنه النِّضو ، وهو البَعير المهزُول .

وصَرَّح : انكشَف . والشنآن : البِغْضة .

وجاشت : تحرّكت واضطربَتْ .

والمرَاجل : جمع مِرْجل ، وهى القِدْر .

والأضغان : الأحقاد ، واحدُها ضغن .

وأخذ سَدِيف مولى المنصور هَذه اللّفظة فكان يقول فى دعائه : اللهمّ إنا نشكو

إليك غيبة نبيّنا وتشتّت أهوائنا، وماشملنامن زَيْغ الفِتَن، واستولى علينا من غَشْوة الحَيْرة حتى عاد فينا دولة بعد القِسْمة، وأمارتنا غلبة بعد المشورة؛ وعدنا ميراثا بعد الاختيار للأمّة؛ واشتريت الملاهى والمعازف بمال اليتيم والأرملة، ورَعَى فى مال الله من لا يَرْعَى له حرمة، وحكم فى أبشار المؤمنين أهلُ الذمّة، وتولى القيامَ بأمورهم فاسقُ كلّ محلّة، فلاذائدَ يذودُهم عن هَلَكة، ولا راعٍ ينظرُ إليهم بعين رحمة، ولا ذو شَفَقة يُشْبِع الكَبِد الحرّى من مَسْغَبة، فهم أولو ضَرَع وفاقة، وأسراء فَقْر ومَسْكَنة، وحُلَفاء كآبة وذلة. اللهمّ وقد استَحصَد زرعُ الباطل وبلغ نهايتَه، واستَحْكم عمودُه، واستَجمَع طَريدُه، وحذف وَليدُه، وضَرَب بجرانه، فأتِحْ له من الحقّ يداً حاصدة، تجذّ سَنامَه، وتَهشِم سُوقَه، وتَصرَع قائمه، ليَستخفِىَ الباطل بقُبح حِلْيَته، ويَظهرَ الحقّ بحُسْن صورته.

ووُجدتْ هذه الألفاظ فى دعاء منسوبٍ إلى علىّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام، ولعلّه من كلامه، وقد كان سَدِيف يَدْعُو به.

(١٦)

الأصْلُ :

وكان يقول عليه السلام لأصحابه عند الحرب :

لَا تَشْتَدَّنَّ عَلَيْكُمْ فَرَّةٌ بَعْدَهَا كَرَّةٌ ، وَلَا جَوْلَةٌ بَعْدَهَا حَمْلَةٌ ، وَأَعْطُوا السُّيُوفَ حُقُوقَهَا ، وَوَطِّنُوا لِلْجُنُوبِ مَصَارِعَهَا ، وَاذْمُرُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى الطَّعْنِ الدَّعْسِيِّ ، وَالضَّرْبِ الطِّلَحْفِيِّ ، وَأَمِيتُوا الْأَصْوَاتَ فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْفَشَلِ .

وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ ، مَا أَسْلَمُوا وَلَكِنِ اسْتَسْلَمُوا ، وَأَسَرُّوا الْكُفْرَ ، فَلَمَّا وَجَدُوا أَعْوَانًا عَلَيْهِ أَظْهَرُوهُ .

* * *

الشَّرْح :

قال : لا تستصعبوا فَرَّةً تفِرُّونها بعدها كَرّة ، تجبُرون بها ما تكسّر من حالكم ، وإنّما الّذى ينبغى لكم أن تستصْعبوه فَرّة لا كَرّةَ بعدَها؛ وهذا حَضٌّ لهم على أن يكرّوا ويعودُوا إلى الحرب إن وقعتْ عليهم كَسْرةٌ .

ومثله قولُه : « ولا جَوْلةٌ بعدَهَا حَمْلة » ، والجوْلة : هزيمة قريبة ليست بالمعنة [(١)].

واذمُرُوا أنفسَكم ، مِن ذَمَره على كذا أى حضّه عليه . والطّعْن الدَّعْسىّ : الذى يُحْشى به أجواف الأعداء ، وأصل الدَّعْس الحشْو ، دَعسْتُ الوعاءَ : حشوْته .

وضرب طِلَحْفى ، بكسر الطاء وفتح اللام ، أى شديد ، واللام زائدة .

---

(١) المعنة ؛ من الإمعان ؛ وفى ب : « ممنعة » تحريف .

ثم أمَرَهم بإماتة الأصوات ، لأنّ شِدّة الضَّوْضاء فى الحرب أمارة الخوف والوَجَل .

ثم أقسم أنّ معاوية وعَمْراً ومنَ والاهما من قريش ما أسلَموا ولكن استَسلَموا خوفا من السّيف ونافَقُوا ؛ فلمّا قَدَروا على إظهار مافى أنفسهم أظهَروه ؛ وهذا يدلُّ على أنّه عليه السلام جعل محاربَتَهم له كُفرا .

وقد تقدّم فى شرح حالِ معاويةَ وما يَذكره كثيرٌ من أصحابنا من فساد عقيدتِه مافيه كفاية .

* * *

[نبَذ من الأقوال المتشابهة فى الحرب]

وأوصَى أكثمُ بنُ صَيْفِىّ قوما نَهَضوا إلى الحرب فقال : ابرزُوا للحَرْب، وادّرعوا الّليل ، فإنه أخفَى للوَيْل ، ولا جماعةَ لمن اختَلَف ، واعلموا أن كثرة الصِّياح من الفَشَل، والمرء يَعجز لا محالة .

وسمِعَتْ عائشةُ يومَ الجمل أصحابَها يُكبِّرون ، فقالت : لا تكبِّروا هاهنا ، فإنّ كثرة التّكبير عند القتال من الفَشَل .

وقال بعض السّلَف : قد جمع الله أدبَ الحرْب فى قوله تعالى :﴿ يَاأَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فاثْبُتُوا . . . ﴾ (١) الآيتين .

وقال عُتبة بنُ ربيعةَ لقريش يومَ بدر : ألا تَرَوْنهم – يعنى أصحابَ النبىّ صلى الله عليه وآله – جُثيًّا على الرُّكب ، يتلمّظون تلمُّظ الحيّات !

وأوصى عبدُ الملك بنُ صالح أميرَ سَرِيّة بعثَها ، فقال : أنت تاجرُ اللهِ لعباده ، فكُن كالمضارب الكَيِّس الّذى إن وَجَد رِبْحا تجر ، وإلا احتَفَظ برأس المال ؛ ولا تطلب

(١) سورة الأنفال ٤٥ ، ٤٦ .

الغنيمة حتى تحوز السلامة ، وكن من احتيالك على عـدوك أشدّ حـذَرا من احتيال عدوّك عليك .

وفى الحديث المرفوع أنّه صلّى الله عليه وآله قال لزيد بن حارثة : لا تُشقِ جيشَك ؛ فإن الله تعالى ينصُر القومَ بأضعَفِهم .

وقال ابنُ عبّاس — وذكر عليًّا عليه السلام : مارأيتُ رئيسايُوزَن به ، لقدرأيته يومَ صِفيّن وكأن عينيه سراجاَ سليط (١) وهو يحمِّس أصحابَه إلى أن انتهى إلىّ وأنا فى كَنَف فقال : يامعشرَ المسلمين ، استشعِروا الخشية ، وتجلببُوا السكينة ،وأكمِلوا اللأمة...الفصل المذكور فيما تقدّم .

(١) السليط : زيت به يضاء .

(١٧)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية جوابا عن كتاب منه إليه :

وَأَمَّا طَلَبُكَ إِلَيَّ الشَّامَ ، فَإِنِّي لَمْ أَكُنْ لِأُعْطِيَكَ الْيَوْمَ مَا مَنَعْتُكَ أَمْسِ .

وَأَمَّا قَوْلُكَ : إِنَّ الْحَرْبَ قَدْ أَكَلَتِ الْعَرَبَ إِلَّا حُشَاشَاتِ أَنْفُسٍ بَقِيَتْ ؛ أَلَا وَمَنْ أَكَلَهُ الْحَقُّ فَإِلَى الْجَنَّةِ ، وَمَنْ أَكَلَهُ الْبَاطِلُ فَإِلَى النَّارِ .

وَأَمَّا اسْتِوَاؤُنَا فِي الْحَرْبِ وَالرِّجَالِ ، فَلَسْتَ بِأَمْضَى عَلَى الشَّكِّ مِنِّي عَلَى الْيَقِينِ ، وَلَيْسَ أَهْلُ الشَّامِ بِأَحْرَصَ عَلَى الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ عَلَى الْآخِرَةِ .

وَأَمَّا قَوْلُكَ : إِنَّا بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ ! فَكَذَلِكَ نَحْنُ ، وَلَكِنْ لَيْسَ أُمَيَّةُ كَهَاشِمٍ ، وَلَا حَرْبٌ كَعَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَلَا أَبُو سُفْيَانَ كَأَبِي طَالِبٍ ، وَلَا الْمُهَاجِرُ كَالطَّلِيقِ ، وَلَا الصَّرِيحُ كَاللَّصِيقِ ، وَلَا الْمُحِقُّ كَالْمُبْطِلِ ، وَلَا الْمُؤْمِنُ كَالْمُدْغِلِ . وَلَبِئْسَ الْخَلَفُ خَلَفٌ يَتْبَعُ سَلَفاً هَوَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ .

وَفِي أَيْدِينَا بَعْدُ فَضْلُ النُّبُوَّةِ الَّتِي أَذْلَلْنَا بِهَا الْعَزِيزَ ، وَنَعَشْنَا بِهَا الذَّلِيلَ . وَلَمَّا أَدْخَلَ اللهُ الْعَرَبَ فِي دِينِهِ أَفْوَاجاً ، وَأَسْلَمَتْ لَهُ هَذِهِ الْأُمَّةُ طَوْعاً وَكَرْهاً ، كُنْتُمْ مِمَّنْ دَخَلَ فِي الدِّينِ ؛ إِمَّا رَغْبَةً وَإِمَّا رَهْبَةً ، عَلَى حِينَ فَازَ أَهْلُ السَّبْقِ بِسَبْقِهِمْ ، وَذَهَبَ الْمُهَاجِرُونَ الْأَوَّلُونَ بِفَضْلِهِمْ ؛ فَلَا تَجْعَلَنَّ لِلشَّيْطَانِ فِيكَ نَصِيباً ، وَلَا عَلَى نَفْسِكَ سَبِيلاً . وَالسَّلَامُ .

***

الشَّرْحُ :

يقال : طلبتُ إلى فلان كذا ، والتقدير طلبتُ كذا راغبا إلى فلان ، كما قال تعالى : ﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ ﴾ (١) أى مُرسلا .

ويُروى « إلّا حُشاشةَ نَفْسٍ » ، بالإفراد ، وهو بقيّة الرُّوح فى بَدَن المريض .

ورُوِى : « ألا ومَن أكله الحقّ فإلى النار » ، وهذه الرواية أليَق من الرّواية المذكورة فى أكثر الكُتُب ، لأنّ الحق يأكل أهلَ الباطل ، ومَن رَوَى تلك الرواية أضمَرَ مُضافًا تقديرُه « أعداء الحق » ، ومضافا آخَر تقديرُه « أعداء الباطل » . ويجوز أن يكون مَن أكله الحقّ فإلى الجَنّة ، أى من أفضَى به الحقّ ونُصرتُه والقيامُ دونَه إلى القتل ؛ فإنّ مصيرَه إلى الجنة ، فيسمّى الحقّ لما كانت نُصرتُه كالسبب إلى القَتْل أكلا لذلك المقتول ، وكذلك القولُ فى الجانب الآخَر .

وكان الترتيب يقتضى أن يجعل هاشمًا بإزاء عبدِ شمس ، لأنّه أخوه فى قُعدد (٢) ، وكِلاهُما ولَدُ عبدِ مناف لصُلْبه ، وأن يكون أميّة بإزاء عبد المطلب ، وأن يكون حَرْبٌ بإزاء أبى طالب ، وأن يكون أبو سُفيانَ بإزاء أمير المؤمنين عليه السلام ، لأن كلّ واحد من هؤلاء فى قُعْدُدِ صاحبه ، إلّا أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لمّا كان فى صِفّين بإزاء معاويةَ اضطُرّ إلى أن جَعَل هاشما بإزاء أميّة بن عبد شمس .

فإن قلت : فهلاّ قال : «ولا أنا كأنت» ؟ قلتُ : قبيحٌ أن يقال ذلك ، كما لا يقال : السّيفُ أمضَى من العصا ، بل قبيحٌ به أن يقولها مع أحدٍ من المسلمين كافّةً ، نعم قد يقولها لا تَصريحا ، بل تَعريضا ، لأنه يرفع نفسَه على أن يقيسَها بأحَد .

وها هنا قد عرّض بذلك فى قوله : « ولا المهاجِرُ كالطّليق » . فإن قلتَ : فهل معاوية

---

(١) سورة النمل ١٢ .
(٢) قعدد ؛ أى قريب الآباء من الجد الأكبر .

من الطُّلَقَاء ؟ قلت : نعم ، كلٌّ من دَخل عليه رسول الله صلّى الله عليه وآله مَــكّة عَنْوةً بالسّيف فملــكه ثم مَنَّ عليه عن إسلامٍ أو غيرِ إسلام فهو من الطُّلَقاء ممّن لم يُسلم كصَفْوان ابن أميّة ، ومَن أَسلَمَ كمعاوية بن أبى سُفْيان ، وكذلك كلٌّ من أُسِرَ فى حَرْب رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، ثم امتَنّ عليه بفِداء أو بغير فِداء فهو طَليق ، فممّن اُمتنّ عليه بفداء كسهيل بن عمرو ، وممّن امتنّ عليه بغير فداء أبو عَزّة الُجمَحىّ ، وممن امتنّ عليه مُعاوَضةً أى أُطلق لأنّه بإزاء أسيرٍ من المسلمين عَمْرو بن أبى سُفْيان بن حَرْب ، كلّ هؤلاء معدودون من الطُّلقاء .

فإن قلت : فما معنى قوله : « ولا الصريح كاللَّصِيق » ، وهل كان فى نسب معاويةَ شُبهةٌ ليقول له هذا ؟

قلتُ : كلاّ إنه لم يقصد ذلك ، وإنّما أراد الصريحَ بالإسلام واللَّصيق فى الإسلام ، فالصريح فيه هو من أسلَمَ اعتقاداً وإخلاصاً ، واللَّصيق فيه مَنْ أَسلَمَ تحتَ السيف أو رغبةً فى الدنيا ، وقد صَرّح بذلك فقال : « كنتم ممّن دخل فى هذا الدين إمّا رَغْبةً وإمّا رَهْبة » .

فإن قلت : فما معنى قوله : « ولَبِئس الخَلَف خَلَفاً يتبَع سَلَفاً هَوَى فى نار جهنّم » ؟ وهل يُعابُ المسلم بأنّ سَلَفه كانوا كُفّارا !

قلتُ : نعم ، إذا تَبِــع آثارَ سَلَفِه واحتَذَى حذوَهم ، وأميرُ المؤمنين عليه السلام ما عابَ معاويةَ بأنّ سَلَفه كُــفّار فقط ، بل بكَوْنه متبعا لهم .

قوله عليه السلام : « وفى أيدِينا بعدُ فَضْل النبوّة » أى إذا فرَضْنا تَساوِيَ الأقدام فى مآثِر أسْلافــكم كان فى أيدينا بعدُ الفَضلُ عليكم بالنبوّة التى نعَشْنا بها الخاملَ ، وأَخْملنا بها النّبيه .

قوله عليه السلام : ، « على حينَ فازَ أهلُ السَّبْق » ، قال قوم من النُّحاة :

« حينَ » مبنيٌّ هاهنا عَلَى الفَتْح . وقال قوم : بل مَنْصوبٌ لإضافته إلى الفعل .

قوله عليه السلام : « فلا تجعَلنّ للشيطان فيكَ نصيبا » ، أى لا تستَلزِم من أفعالك مايدوم به كونُ الشيطان ضارِباً فيك بنَصيب ، لأنّه ما كتب إليه هذه الرسالةَ إلّا بعد أن صار للشيطان فيه أوفَرُ نصيب ، وإنّما المراد نهيُه عن دوام ذلك واستمرارِه .

* * *

[ذكر بعض ما كان بين عليّ ومعاوية يوم صفين]

وذَكر نصرُ بنُ مُزاحم بن بشّار العُقَيليّ فى كتاب "صِفّين" أنّ هذا الكتاب، كتبه عليّ عليه السلام إلى معاوية قبل ليلة الهرير بيومين أو ثلاثة . قال نصر : أظهَر عليٌّ عليه السلام أنّه مُصبِّحٌ معاوية ومناجِزٌ له ، وشاعَ ذلك من قوله . ففَزِع أهلُ الشام لذلك ، وانكسرُوا لقوله . وكان معاويةُ بنُ الضَحّاك بن سُفْيان صاحب راية بنى سُلَيم مع معاوية مُبغِضا لمعاوية وأهلِ الشام ، وله هَوًى مع أهلِ العراق وعليّ بن أبى طالب عليه السلام ، وكان يَكتُب بأخبار معاويةَ إلى عبد الله بن الطُّفَيل العامرىّ ، وهو مع أهل العراق ، فيخبر بها عليًّا عليه السلام ، فلما شاعت كلمةُ عليّ عليه السلام وَجِلَ لها أهلُ الشام ، وبعث ابن الضحاك إلى عبدِ الله بنِ الطفيل : إنى قائل شِعْرا أُذْعَر به أهلَ الشام وأُرغِم به معاوية ، وكان معاويةُ لا يتّهمه ، وكان له فضل ونَجْدَة ولسان ، فقال لَيْلا ليستمع أصحابه :

ألا لَيت هذا اللّيل أطبق سَرْمَدا ... علينا وأنّا لا نرَى بعدَه غدا
وياليتَه إن جاءنا بصباحِه ... وجَدْنا إلى مجرى الكواكب مَصْعَدا
حِذارَ عليٍّ إنه غيرُ مُخلفٍ ... مَدَى الدهر ماليّ الملبّون مَوْعِدا
وأما قرارى فى البلاد فليس لى ... مُقامٌ وإن جاوزتُ جابَلْقَ مُصعِدا

كأنّى به فى الناس كاشفُ رأسِـــه   على ظهر خَوّار الرّحـــالة أجرَدا
يخوضُ غِمـــارَ الموتِ فى مُرْجَجِنَّةٍ   يُنادُونَ فى نقْع العَجَاج محمَّدا[1]
فوارسُ بدر والنَّضِـــير وخَيْبرٍ   وأُحْـــدٍ يهزُّون الصفيحَ المهنَّدا
ويومَ حنينٍ جالَدوا عن نبيِّهمْ   فريقاً من الأحزاب حتى تبــدَّدا[2]
هنالك لاتلوى عجوزٌ على ابنهـــا   وان أكثرت من قولِ : نفسى لك الفدا
فقل لابن حَرْب ما الذّى أنت صانعٌ   أتَثْبتُ أم ندعُوك فى الحرب قُعْدُدَا[3] :
فـــلا رأىَ إلا تركنا الشامَ جهرةً   وان أبْرَق الفحماجُ فيها وأرعدَا[4]

فلما سمع أهلُ الشام شعرَه أتوْا به معاوية ، فهمّ بقتله ، ثم راقب فيه قومه ، فطرَده من الشام ،فلحق بمصر ونَدِمَ معاويةُ على تسييره إياه . وقال معاوية :لَشعرُ السُّلمىّ[5] أشدّ على أهل الشام من لقاء علىّ ، ماله قاتله الله ، لو صار خلف جابَلْق مصعدا لم يأمنْ عليا ! ألا تعلمون ما جابلق ؟ يقوله لأهل الشام ، قالوا : لا ، قال : مدينةٌ فى أقصى المشرق ليس بعدَها شيء .

* * *

قال نصر: وتناقل النّاس كلمةَ علىٍّ عليه السلام: «لأناجزَنّهم مصبِّحاً[6] »، فقال الأشتر :
قد دنا الفضلُ فى الصَّباح ولِلسِّـــلْمِ رجـــالٌ وللحروب رجـــالُ

---

(١) المرجحنة : الأمر العظيم .
(٢) جالدوا : دافعوا .
(٣) القعدد : الجبان القاعد عن الحرب ؛ وبعده فى صفين :
وظنِّى بألّا يصبر القومُ موقفاً   يقِفْهُ وإن لم يَجر فى الدهر لِلَمدَى
(٤) الفجفاج : كثير الكلام المتشبع بما ليس عنده .
(٥) صفين : « لقول السلمى » .
(٦) صفين : « إنى مناجز القول إن أصبحت » .

فرجــالُ الحروبِ كلُّ خِدَبٍّ مقحمٍ لاتَهُدُّه الأهــوالُ[(١)]
يضرب الفــارسَ المدجَّج بالسَّيـ ف إذا فرّ فى الوَغا الأكفالُ
يابنَ هنــدٍ شُدَّ الحيازيمَ للمو تِ ولا تذهــبنْ بكَ الآمالُ
إن فى الصّبح إن بقيت لأمراً تتفادَى من هوله الأبطـــالُ
فيــه عزّ العراق أو ظفر الشا مِ بأهــل العراق والزلزالُ
فاصــبرُوا للطِّعان بالأسَل السُّمْـ رِ وضَرْبٍ تجرى به الأمثالُ[(٢)]
إن تـكُونوا قتـلتم النَّفرَ البيـ ضَ وغالتْ أولئـك الآجالُ[(٣)]
فلنا مِثلهم غـــداة التَّلاقى وقليـــل من مثلهمْ أبدالُ
يخضِبون الوَشيجَ طعْنــا إذا جرّتْ من الموت بينهــمْ أذيالُ[(٤)]
طاب الفوزَ فى المعادِ وفيــه تُستهـــانُ النفوسُ والأموالُ

قال : فلما انتهى إلى معاوية شعرُ الأشتر قال : شعرٌ منكر ، من شاعرٍ منكر ، رأس أهل العراق وعظيمهم ، ومِسعَرحرْبِهم ، وأول الفِتنة وآخرُها ، قدرأيت أن أعاودَ عليّا وأسأله إقرارى على الشام ، فقد كنت كتبتُ إليه ذلك فلم يجب إليه ، ولأكتبنّ ثانيةً فألقى فى نفسه الشكّ والرقة . فقال له عمرو بن العاص وضَحِك : أين أنتَ يامعاوية من خدعة علىّ ! قال : ألسنا بنى عبد مناف ! قال : بلى ، ولـكن لهم النبوّة دونك ، وإن شئت أن تـكتب فاكتب ؛ فـكتب معاوية إلى علىّ عليه السلامُ مع رجل من السكاسك يقال له عبد الله بن عُقْبة ، وكان من نافلة أهل العراق :

أما بعد فإنك لو علِمْتَ أن الحرْب تبلغ بنا وبك مابلغتْ لم يجنِها بعضنا على

---

(١) الخدب : الشديد الصلب ، والمقحم ، من قحم فى الأمر كنصر قحوما ؛ إذا رمى بنفسه فيه فجأة بلا روية .
(٢) الأسل : الرماح . والسم : العوالى .
(٣) يقال : غاله غول ؛ إذا أهلكه .
(٤) الوشيج : شجر الرماح .

بَعْض ، ولئن كنا قد غلبنا على عقولنا لقد بقى لنا منها ما نندم به على مامضى ، ونصلح به مابقى ، وقد كنت سألتُك الشام على أن تلزمنى لك بيعة وطاعة ، فأبيتَ ذلك علىّ ، فأعطانى الله مامنعت ، وأنا أدعوك اليوم إلى مادعوتك إليه أمس ، فإنى لا أرجو من البقاء إلا ماترجو ، ولا أخاف من الموت إلاّ ماتخاف ، وقدوالله فارقت الأجناد ، وذهبت الرجال ، ونحن بنوعبد مناف ؛ ليس لبعضنا على بعض فَضْل إلا فضل لايُستَذَلّ به عزيز ، ولا يسترقّ به حرٌّ ، والسلام .

فلما انتهى كتاب معاوية إلى علىّ عليه السلام قرأه ، ثم قال : العَجَب لمعاوية وكتابه ! [١] ودعا عبيد بن أبى رافع كاتبه ، فقال : اكتب جوابه [١] .

أما بعد ، فقد جاءنى كتابك تذكر أنك لو علِمت وعلمنا أنّ الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنها بعضنا على بعض ، فإنى لو قتلتُ فى ذات الله ، وحييتُ ؛ ثم قُتِلتُ ثم حييتُ سبعين مرة لم أرجع عن الشدّة فى ذات الله والجهاد لأعداء الله ، وأما قولك :إنه قد بقى من عقولنا مانندم به على مامضى ،فإنى مانقصتُ عقلى ،ولاندمتُ على فعلى .وأماطلبك الشام فإنى لم أكن أعطيك اليوم مامنعتُك أمس ، وأما استواؤنا فى الخوف والرّجاء فلست أمضى على الشك منّى على اليقين ، وليس أهلُ الشام بأحرص على الدنيا من أهل العراق على الآخرة . وأما قولك : إنا بنو عبد مناف ليس لبعضنا فضل على بعض ! فلعمرى إنا بنو أب واحد ، ولكن ليس أمية كهاشم ، ولا حرب كعبد المطلب ، ولا المهاجر كالطليق ، ولا المحقّ كالمبطل ، وفى أيدينا بعد فضل النبوّة التى أذللنا بها العزيز وأعززْنا بها الذليل . والسلام .

فلما أتى معاوية كتابُ علىٍّ عليه السلام كتمه عن عمرو بن العاص أياما ، ثم دعاه

(١ـ١) صفين : « ثم دعا عبيدالله بن أبى رافع كاتبه ، فقال : اكتب إلى معاوية » .

فأقرأه إياه ، فشمت به عمرو — ولم يكن أحد من قريش أشدَّ إعظاما لعليّ من عمرو بن العاص منذ يوم لقيه وصفح عنه — فقال عمرو فيما كان أشار به على معاوية :

ألا لله درُّكَ يابن هندٍ   وَدرُّ الآمرين لك الشهودِ !
أتَطمع لا أبا لكَ فى علىٍّ   وقد قرع الحديدَ على الحديدِ !
وترجو أن تُحيِّره بشكٍّ   وتأمُل أن يهابك بالوَعيد(١)
وقد كشفَ القناع وجرَّ حَربا   يشيبُ لهولها رأس الوليد
له جَبأواءُ مُظلمةٌ طَحونٌ   فوارسُها تلَهَّب كالأسودِ (٢)
يقول لها إذا رجعتْ إليه (٣)   وقد ملّت طعانَ القوم : عُودِى
فإن وردت فأوّلها ورودًا   وان صدّت فليس بذى صدودِ
وما هى من أبى حسن بنُكرٍ   ولا هو من مسائك بالبعيدِ
وقلتَ له مقالة مستكينٍ   ضعيفِ الرّكن منقطِع الوَريدِ
دَعَنْ لى الشامَ حسبُك يابن هندٍ   من السَّوآت والرأيِ الزّهيدِ
ولو أعطاكها ماازددْتَ عِزًّا   ولا لك لو أجابك من مزيد
فلم تكسِرْ بذاك الرأى عوداً   لركّته ولا ما دون عود (٤)

فلما بلغ معاوية شعرُ عمرو دعاه فقال له : العجب لك ! تفيِّل رأيى ، وتعظم عليّا وقد فصحك ! فقال : أما تفييلى رأيك فقد كان ، وأما إعظامى عليّا فإنك بإعظامه أشدّ معرفةً منّى ، ولكنك تطويه وأنا أنشرُه . وأمّا فضيحتى فلم يفتضح اُمروٌ لقىَ أبا حسن(٥) .

---

(١) صفين : « ويرجو أن يهابك بالوعيد » .
(٢) الجأواء : الكتيبة يعلوها السواد لكثرة الدروع .
(٣) صفين : إذا دلفت إليه » .
(٤) الركة . الضعف .   (٥) صفين ٥٣٥ — ٥٤٠

(١٨)

الأصْـل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن عباس وهو عامله على البصرة :

وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْبَصْرَةَ مَهْبِطُ إِبْلِيسَ ، وَمَغْرِسُ ٱلْفِتَنِ ، فَحَادِثْ أَهْلَهَا بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ ، وَٱحْلُلْ عُقْدَةَ ٱلْخَوْفِ عَنْ قُلُوبِهِمْ .

وَقَدْ بَلَغَنِي تَنَمُّرُكَ لِبَنِي تَمِيمٍ ، وَغِلْظَتُكَ عَلَيْهِمْ ؛ وَإِنَّ بَنِي تَمِيمٍ لَمْ يَغِبْ لَهُمْ نَجْمٌ إِلَّا طَلَعَ لَهُمْ آخَرُ ، وَإِنَّهُمْ لَمْ يُسْبَقُوا بِوَغْمٍ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ ، وَإِنَّ لَهُمْ بِنَا رَحِماً مَاسَّةً ، وَقَرَابَةً خَاصَّةً ، نَحْنُ مَأْجُورُونَ عَلَى صِلَتِهَا ، وَمَأْزُورُونَ عَلَى قَطِيعَتِهَا .

فَارْبَعْ أَبَا ٱلْعَبَّاسِ رَحِمَكَ ٱللهُ فِيمَا جَرَى عَلَى يَدِكَ وَلِسَانِكَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ! فَإِنَّا شَرِيكَانِ فِي ذَلِكَ ، وَكُنْ عِنْدَ صَالِحِ ظَنِّي بِكَ ، وَلَا يَفِيلَنَّ رَأْيِي فِيكَ ، وَٱلسَّلَامُ .

* * *

الشَّـرْحُ :

قوله عليه السلام : مَهْبط إبليس : موضع هُبوطه .

ومغرس الفِتَن : موضع غَرْسِها ، ويروَى « ومُغْرِس الفتن » ، وهو الموضع الّذى ينزِل فيه القومُ آخر اللّيل للاستراحة ، يقال غَرَسوا وأغرَسوا .

وقولهُ عليه السلام : « فحادِثْ أهلَها » ، أى تعهّدْهم بالإحسان ، من قولك : حادثت السيفَ بالصِّقال .

والتنمُّر للقوم : الغِلْظة عليهم ، والمعامَلة لهم بأخلاق النَّمرِ ، من الجرْأة والوثوب ، وسنذكر تصديقَ قوله عليه السلام : « لم يغبْ لهم نجمٌ إلاّ طلع لهم آخر » .

والوَغْم : التِّرة ، والأوْغام : التِّرات ، أى لم يُهدَر لهمْ دمٌ فى جاهليّة ولا إسلام ، يصفُهم بالشّجاعة والحميّة .

ومأزُورون ، كان أصله « مَوْزورُن » ، ولكنّه جاء بالألف لِيُحاذِى به ألفَ « مأجُورُون » وقد قال النبيّ صلّى الله عليه وآله مثل ذلك .

قوله عليه السلام : « فاربَعْ أبا العباس » ، أى قِفْ وتثبّت فى جميع ماتعتمدُه فِعلا وقَوْلا من خَيْر وشر ، ولا تعجَل به فإنّى شريكُك فيه إذ أنتَ عاملى والنائبُ عنّى .

ويعنى بالشرّ هاهنا الضررَ فقط ، لا الظّلم والفِعل القبيح .

قولُه عليه السلام : « وكن عند صالح ظنّى فيك » ، أى كن واقفا عندَه كأنّك تشاهِدُه فتَمنَعك مشاهَدَتُه عن فعلِ مالا يجوز .

فال الرأىُ يَفيل ، أى ضَعُفَ وأَخطأ .

* * *

[فصل فى بنى تميم وذكر بعض فضائلهم]

وقد ذكر أبو عُبيدةَ مَعمَر بنُ المثنّى فى كتاب " التّاج " أن لبنى تميم مآثرَ لم يَشرَكْهم فيها غيرُهم . أما بنو سعد بن زَيْد مَناةَ فلها ثلاثُ خِصال يَعرفها العرَب :

إحداها : كثرة العَدَد فإنّه أضعف عددها على بنى تميم حتّى ملأَتِ السَّهلَ والجبلَ عَدَلت مُضرَ كثرة ،وعامة العَددِ منها فى كعب بنِ سعد بنِ زيد مَناَة ، ولذلك قال أوْسُ ابن مَغْراء :

كَعْبِيَ مِن خيرِ الكعابِ كَعْبَا   مِن خيرِها فوارساً وعَقْبَا
* تَعدِل جَنْبا وتَميم جَنْبا *

وقال الفرزدق أيضا فيهم هذه الأبيات :

لو كنتَ تَعلَمَ ما بِرَمْل مُوَيْسِلٍ   فقرى عُمان إلى ذواتِ حُجورِ
لعلمتَ أنّ قبائلا وقبائلا   من آلِ سعدٍ لم تَدِنْ لأميرِ

وقال أيضا :

تبكّى على سَعدٍ وسَعدٌ مقيمةٌ   بِيَبْرِينَ قد كادَتْ على النّاس تَضعُفُ (١)

ولذلك كانت تسمّى سعد الأكثرين . وفى المَثَل : « فى كل وادٍ بَنُو سَعْد » (٢) .

والثانية : الإفاضة فى الجاهليّة ، كان ذلك فى بنى عُطارِد ، وهم يتوارَثون ذلك كابراً عن كابر ، حتّى قام الإسلام ، وكانوا إذا اجتمعَ الناسُ أيّامَ الحجّ بمنًى لم يبرَح أحدٌ من الناس دينا وسنة حتى يجوزَ القائمُ بذلك من آلِ كَرِب بنِ صَفْوَان ، وقال أوسُ بن مَغْرَاء :

ولا يَرِيمُون فى التّعريف موقفَهمْ   حتى يقالَ : أجيزُوا آلَ صَفوانا

وقال الفرزدق :

إذا ما الْتَقَيْنا بالمحصَّب مِنْ مِنًى   صَبيحةَ يوم النَّحْر من حيث عَرّفوا (٣)
تَرَى الناسَ ما سِرْنا يسيرونَ حَوْلَنا   وإن نحنُ أومَأْنا إلى الناس وَقَّفُوا

والثالثة : أنّ منهم أشرَف بيتٍ فى العرَب الذى شرّفته ملوكُ لَخْم . قال المنذرُ بن المنذرِ بن ماءِ السَّماء ذات يوم وعندَه وفودُ العرب ودعا ببُرْدَيْ أبيه محرِّق بن المنذر فقال : ليَلْبَس هذين أعزُّ العرَب وأكرَمُهم حسَبا . فأحجَمَ الناسُ ، فقال أحيْمِر بنُ

---

(١) ديوانه ٥٦٩ .
(٢) مجمع الأمثال ٢ : ٨٣ ؛ ولفظه فيه : « فى كل أرض سعد بن زيد » ؛ قاله الأضبط بن قريع .
(٣) عرفوا ؛ أى وقفوا بعرفات .

خَلَف بن بَهدَلة بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم : أنا لهما ، قال الملك : بماذا ؟ قال : بأنّ مُضَرَ أكرَمُ العرب وأعزّها وأكثرُها عديدا ، وأن تميماً كاهِلُها[(١)] وأكثرها ، وأن بَيْتَها وعددها فى بنى بَهدلة بن عَوْف ، وهو جَدّى . فقال : هذا أنتَ فى أصلاك وعشيرتك ، فكيف أنت فى عِتْرَتِك وأدانيك !

قال : أنا أبو عَشرَة ، وأخو عشرة ، وعمّ عشرة . فدفعهما إليه ، وإلى هذا أشار الزّبرِقان بنُ بدر فى قوله :

وبُرْدا ابنِ ماءِ المزْنِ عَمّى اكتَساهُما　　بفَضْلِ مَعَدٍّ حيثُ عُدّتْ مَحاصِلُهْ

قال أبو عُبيدة : ولهم فى الإسلام خَصْلة ، قدِم قيسُ بنُ عاصم المنقَرىّ على رسول الله صلى الله عليه وآله فى نفرٍ من بنى سعد ، فقال له رسولِ الله صلى الله عليه وآله : « هذا سيّد أهل الوبر » ، فجعله سيّد خِنْدِف وقَيْس ممن يَسكُن الوَبَر .

قال : وأما بنو حَنْظلة بن مالك بن زيد مناةَ بن تميم فلهم خِصال كثيرة . قال : فى بنى دارم بن مالك بن حنظلة ، وهو بيتُ مُضَر ، فمن ذلك زُرارَة بن عُدَس بن زَيد بن دارِم يقال : إنه أشرَف البيوت فى بنى تميم ، ومن ذلك قَوْسُ حاجبِ بنِ زُرارة المرهونةُ عند كِسرى عن مُضَر كلّها ، وفى ذلك قيل :

وَأقسَم كِسرى لا يصالح واحداً　　من النّاس حتى يَرهنَ القَوْس حاجبُ

ومن ذلك فى بنى مُجاشع بن دارم صَعْصَعة بن ناجيَة بن عقال بن محمد بن سُفْيان ابن مجاشع ، وهو أوّل من أحيا الوَئيد ، قام الإسلامُ وقد اشترَى ثلاثمائة مَوْءودةٍ فأعتَقَهنّ وربّاهن ، وكانت العرب تَئِد البناتِ خوف الإملاق .

ومن ذلك غالِب بن صَعْصَعة ، وهو أبو الفَرَزْدق ، وغالِب هو الذى قَرَى مائة ضَيْف ، واحتَمل عشرَ ديات لقومٍ لا يَعرفهم ، وكان من حديث ذلك أنّ بنى كَلْب

---

(١) كاهلها ، أى أعلاها .

ابن وَبَرة افتخرتْ بينها فى أَنْدِيتها ، فقالت : نحن لُبابُ العربِ وقلبُها ، ونحن الّذين لاننازَع حَسَبًا وكَرَمًا . فقال شيخ منهم : إنّ العرب غيرُ مقرّةٍ لكم بذلك ، إنّ لها أحسابا ، وإنّ منها لُبابا ، وإنّ لها فعالا ، ولكن ابعثوا مائةً منكم فى أحسن هيئة وبزّة ينفرونَ من مرّوا به فى العرب ويسألونه عَشْرَ ديات ، ولا ينتسبون له ، فمن قَراهم وبذلَ لهم الدّياتِ فهو الكريم الّذى لايُنازَع فصلا ؛ فخرجوا حتّى قدِموا على أرض بنِي تميم وأسد ، فنفَّروا الأحياء حيًّا فحيًّا ، وماءً فماء ، لايجدون أحدا على مايريدون ؛ حتّى مرّوا على أَكثمَ بن صَيْفىّ ، فسألوه ذلك ، فقال : مَن هؤلاء القَتْلى ؟ ومَن أنتم ؟ ومافِصّتُكم ؟ فإنّ لكم لشأنًا باختلافكم فى كلامِكم ! فعَدَلُوا عنه ، ثم مَرّوا بقُتيبة بن الحارث بن شهاب اليَرْبوعىّ فسألوه عن ذلك ، فقال : مَن أنتم ؟ قالوا : من كلب بنِ وبَرة . فقال : إنّى لأبْغى كلْبا بدَم ، فإن انْسَلخ الأشهر الحرُم وأنتم بهذه الأرض وأدركَكم الخيلُ نكّلْتُ بكم وأثكَلْتُكُم أمّهاتِكم . فخرجوا من عندِه مرعُوبين ، فمرّوا بعُطارِد بن حاجب بن زُرارة ، فسألوه ذلك ، فقال : قولوا بيَانًا وخذُوها ، فقالوا : أمّا هذا فقد سألكم قبل أن يُعطِيَكم فتركوه ، ومرّوا ببنى مُجاشع بن دارم فأتَوْا على وادٍ قد امتلأ إبلًا فيها غالبُ بن صَعْصعة يَهنأ[(١)] منها إبلا ، فسألوه القِرَى والدّيات ، فقال : هاكم البُزْل قبل النزول فابتزّوها من البَرْك وحُوزوا دياتكم ، ثم انزلوا ، فتنزّلوا وأخبَروه بالحال ، وقالوا : أرشدك الله مِن سيِّدِ قوم ! لقد أرحْتَنا من طول النَّصَب ، ولو عَلِمْنا لقصدْنا إليك ، فذلك قول الفرزْدَق :

فلّله عَيْنَا مَنْ رأَى مِثْلَ غالبٍ ... قِرَى مائةٍ ضيفًا ولم يتكلّمِ[(٢)]
وإذ نبحتْ كلبٌ على الناس إنّهم ... أحقُّ بتاج الماجدِ المتكرِّم

---

(١) هنأ الإبل يهنؤها : طلاها بالهناء ، وهو القطران .
(٢) ديوانه ٧٥٩ ، وروايته : « ألا هل علمتم ميتا قبل غالب » .

فلم يجْلُ عن أحسابها غـــير غالبٍ جرَى بعِنانَىْ كلّ أبلَجَ خِضْرِمِ(١)

قال : فأمّا بنو يَرْبوع بن حنظلة ، فمنهم . ثُمّ مِن بنى رياح بن يربوع عتّاب بن هَرْمىّ ابن رِياح ، كانت له ردافَة الملوك ، ملوكِ آلِ المنذِر ، ورِدافة المَلْك أن يُثنّى به فى الشُّرْب ، وإذا غاب الملكُ خَلَفَه فى مجلِسه ، وورِث ذلك بُنوه كابراً عن كابر ، حتّى قامَ الإسلام ، قال لبيدُ بن ربيعة :

وشهدتُ أنجبة الأكارمِ غالباً كَعْبى وأردافُ الْملوكِ شهودُ(٢)

ويَرْبوع أوّل مَنْ قَتل قتيلا من المشركين ، وهو واقد بنُ عبدِ الله بن ثعلبة بن يربوع ، حليفُ عمر بن الخطّاب ، قتل عمرَو بن الحضرمىّ فى سريّة نخلة ، فقال عمرُ ابن الخطّاب يفتخر بذلك :

سَقَيْنا من ابن الحضرمىّ رماحَنَا بنخلة لمّا أوقَدَ الحرب واقــدُ

وظلّ ابنُ عبدِ الله عثمان بيننا يُنازعه غُلٌّ من القدِّ عاندُ(٣)

ولها جَوادالعَربِ كلِّها فى الإسلام ؛ بدأ العرب كلّها جوداً ، خالدُ بنُ عتّاب بن وَرْقاء الرِّياحى . دخل الفرزدقُ على سليمانَ بن عبد الملك ، وكان يَشْنوُه لـكثرةِ بأوِه(٤) ونخره ، فتجهّمه وتنكّر له ، وأغلَظَ فى خطابه حتّى قال : مَن أنت لاأمَّ لك ! قال : أوَما تعرفنى ياأميرالمؤمنين؟أنا من حىٍّ همْ من أوْفَى العَرَب ، وأحلمِ العرب ، وأسوَدِ العَرَب ، وأجوَدِ العَرَب وأشجَعِ العرب ، وأشعَرِ العرب . فقال سليمان : والله لتحتَجّنّ لما ذكرتَ أو لأوجعَنّ ظَهرَك ، ولأبعدَنّ دارَك . قال : أما أوفى العرب فحاجبُ بنُ زُرارةَ ؛ رَهَن قوسَه عن العرب كلها وأوْفَى . وأمّا أحلَمُ العرب فالأحنف بنُ قَيْس يُضرَب به المَثَل حِلماً ، وأما أسودُ العرب فقَيْس بنُ عاصم ، قال له رسول الله صلّى الله عليه وآله : «هذا سيّد أهل الوَبَر» ؛

---

(١) الأبلج : الواضح . والخضرم : الجواد المعطاء .
(٢) لم أجده فى ديوانه .
(٣) الغل بالضم : طوق من حديد يجعل فى العنق ، والجمع أغلال .
(٤) البأو : الفخر .

وأما أشجَعُ العرب فالخُرِيش بنُ هلال السعدىّ ؛ وأما أجودُ العرب فخالدُ بن عتّاب ابن وَرْقاء الرّياحىّ ، وأما أشعَر العرَب فهأنذا عندَك ! قال سليمان : فما جاء بك ؟ لا شىءَ لك عندنا ، فارْجع على عَقِبك ؛ وغمّه ما سَمِع مِن عِزّه ، ولم يَستطِع لهُ ردّا ، فقال الفرزدق فى أبيات :

أتيناكَ لا من حاجةٍ عرَضَتْ لنا   إليكَ ولا مِن قلّةٍ فى مجاشِعِ (١)

قلتُ : ولو ذكر عُتيْبة بنَ الحارث بن شهاب اليرْبوعىّ وقال : إنه أشجَع العرب لكان غيرَ مُدافَع . قالوا : كانت العرب تقول : لو وَقَع القمرُ إلى الأرض لما التقَفه إلّا عُتَيْبة بنُ الحارث لثَقافته بالرُّمْح . وكان يقال له : صيّاد الفوارس وسمّ الفوارس ، وهو الذى أسرَ بسطامَ بن قيس ، وهو فارس ربيعة وشُجاعُها ، ومكث عنده فى القَيْد مُدّة حتّى استوفَى فِداءه وجَزّ ناصيتَه ؛ وخَلّى سبيله على ألّا يغزُوَ بنى يرْبوع . وعُتيبة هذا هو المقدَّم على فُرْسانِ العَرب كلِّها فى كتاب طَبقات الشُّجْعَان ومَقاتِل الفُرْسان ، ولكن الفرزدق لم يذكره وإن كان تميميّا ، لأن جريرا يفتخر به ، لأنه من بنى يَربوع ، فحملتْه عداوةُ جرير على أن عدل عن ذكره .

* * *

قال أبو عبيدة : ولبنى عمرو بن تميم خِصالٌ تعرفها لهم العرَب ولا ينازعهم فيها (٢) أحد ؛ فمنها أكرمُ الناس عمّا وعَمّة ، وجدًّا وَجَدّة ، وهو هند بنُ أبى هالة ، واسم أبى هالَةَ نبّاش بنُ زُرارة أحدُ بنى عمْرو بن تميم ، كانت خديجةُ بنتُ خوَيْلد قبلَ

---

(١) ديوانه ٤٩١ .
(٢) ا : « عليها » .

النبي صلّى الله عليه وآله تحت أبي هالة ، فولدت له هندا ، ثم تزوجها رسول الله صلى الله عليه وآله وهندُ بنُ أبي هالةَ غلامٌ صغير ، فتبنّاه النبي صلى الله عليه وآله ، ثم ولدتْ خديجةُ من رسول الله صلى الله عليه وآله القاسمَ والطاهرَ وزينبَ ورقيّةَ وأمَّ كلثوم وفاطمة ، فكان هندُ بنُ أبي هالة أخاهم لأمّهم ، ثم أولد هند بن أبي هالة هندَ بن هند ، فهند الثاني أكرُم الناس جدّا وَجدّة ، يعني رسول الله صلى الله عليه وآله وخديجة ، وأكرم الناس عمًّا وعمّة – يعني بَني النبيّ صلى الله عليه وآله وبناتِه .

ومنها أنّ لهم أحكَم العَرب في زمانه أكثمُ بن صَيْفيّ ؛ أحد بني أسَد بن عمرو بن تميم ، كان أكثر أهل الجاهلية حِكما ومثلا وموعظة سائرة .

ومنها ذو الأعواز ، كان له خَراجٌ على مضَر كافّة تؤدِّيه إليه ، فشاخَ حتّى كان يُحمَل على سرير يُطاف به على مياه العرَب ، فيؤدَّى إليه الخراج ، وقال الأسودُ بن يَعْفُر النَّهْشَليّ وكان ضريراً :

ولقد علمتُ خلافَ ما تُناشِي   أنّ السبيلَ سبيلُ ذي الأعوازِ

ومنها هلال بنُ أحوَز المازنيُّ الّذي ساد تميما كلّها في الإسلام ، ولم يَسُدها غيرُه .

قال : ودخل خالد بن عبد الرحمن بن الوليد بن المغيرة المخزوميّ مسجدَ الكوفة ، فانتهىَ إلى حَلْقةٍ فيها أبو الصَّقْعَب التيميّ ، من تَيْم الرّباب ، والمخزوميّ لايعرفه ، وكان أبو الصَّقْعَب من أعلَم الناس ، فلما سمع علمَه وحديثه حسَدَه ، فقال له : ممّن الرجل ؟ قال : من تَيْم الرِّباب ؛ فظَنّ المخزوميُّ أنّه وَجدَ فرصةً ، فقال : واللهِ ما أنت من سعد الأكثرين ولا مِن حنظَلة الأكرَمين ، ولا من عَمرو الأشدِّين ! فقال أبو الصقعب : فممّن أنتَ ؟ قال مِن بني مَخْزوم . قال : واللهِ ما أنتَ من هاشمٍ المنتخَبين ، ولا من أميّة المستخلَفين ،

ولا من عبد الدار المستحجَبين ، فبمَ تفخَر ؟ قال : نحن رَيْحانة قريش ، قال أبو الصقعب: قُبْحا لما جئتَ به ! وهل تدرى لم سمّيتْ مخزوم ريحانةَ قريش ؟ سمّيتْ لحظوة نسائها عند الرجال ، فأفحَمَه .

رَوَى أبو العباس المبرِّد فى كتاب " الكامل " أنّ معاوية قال للأحنف بن قيس وجارية [1] بنِ قُدامة ورجالٍ من بنى سعد معهما كلاما أحفظَهم، فردّوا عليه جوابا مُقذِعا، وامرأتُه فاختة بنت قرظَة فى بيتٍ يقرُب منهم ، وهى أمّ عبدِ الله بن معاوية ، فسمعتْ ذلك ، فلما خرجوا قالت : ياأميرَ المؤمنين ، لقد سمعتَ من هؤلاء الأجلاف كلاما تلَقَّوْك به فلم تُنكِر ، فكدتُ أن أخرجَ إليهم فأسطُوَ بهم ! فقال معاوية : إن مضرَ كاهِلُ العرَب ، وتميما كاهلُ مُضر ، وسعدا كاهِلُ تميم ، وهؤلاء كاهلُ سعد [2] .

ورَوَى أبو العباس أيضا أن عبد الملك ذَكرَ يوما بنى دارِم فقال أحدُ جُلَسائه : ياأميرَ المؤمنين ، هؤلاءِ قوم محظوظون — يعنى فى كثرة النَّسْل ونَماء الذرية — فلذلك انتشَر صِيتُهم . فقال عبدُ الملك : ما تقول! هذا وقد مضى منهم لَقيطُ بنُ زُرارة ولم يُخلِّف عَقِبا ، ومضى قَعقاع بن مَعبَد بن زُرارة ولم يخلِّف عَقِبا ، ومضى محمد بن عُمير بن عطارِد بن حاجب بن زُرارة ولم يخلِّف عقِبا ! والله لا تَنسَى العربُ هذه الثلاثةَ أبدا [3] .

قال أبو العباس : إنّ الأصمعىّ قال : إنّ حَرْبا كانت بالبادية ثمّ اتصلتْ بالبَصرة، فتَفاقَمَ الأمرُ فيها ، ثم مُشِى بين الناس بالصّلح، فاجتمعوا فى المسجد الجامع . قال : فبُعثتُ وأنا غلام إلى ضِرار بن القَعْقاع من بنى دارم ، فاستأذنتُ عليه ، فأُذِن لى ، فدخلتُ ، فإذا به فى شَمْلة يَخلط بزراً لعنزٍ له حَلُوب ، فخبّرته بمجتمَع القوم ، فأمهَل حتى أكلتِ العَنْز ، ثم غَسَل الصحفة وصاح : ياجارية ، غدِّينا ، فأتته بزَيت وتمرٍ ، فدعانى ، فقذَرْته

(١) ب : « حارثة » ، والصواب ما فى ا والكامل .
(٢) الكامل ١ : ٦٥ . (٣) الكامل ١ : ٣٠٨ .

أن آكلَ معه حتى إذا قَضَى من أكله وحاجتِه وَطَرا وَثَب إلى طِينٍ مُلقًى فى الدار، فغَسَل به يدَه ، ثم صاح : ياجارية ، اسقِينى ماءً ؛ فأتته بماء، فشَرِب به ومَسَح فضلَه على وجهه، ثم قال: الحمد لله ، ماء الفُرات بتَمر البَصرة بزَيْت الشام ، متَى نؤدِّى شكرَ هذه النِّعَم ! ثم قال: علىَّ بردائى ، فأتته برداء عَدَنىّ [١] فارتدَى به على تلك الشَّمْلة .قال الأصمعىّ: فتجافيتُ عنه استقباحا لزِيِّه ، فلما دخل المسجدَ صلّى ركعتَين ، ثم مشى إلى القوم ، فلم تَبق حُبْوَةٌ إلا حُلّت إعظاما له ، ثم جلس فتحمّل جميعَ ما كانَ بين الأحياء فى مالِه ثم انصرَف [٢] .

قال أبو العباس : وحدثنى أبو عثمانَ المازنىّ ، عن أبى عُبيدة ، قال : لمّا أَتَى زيادُ ابنُ عَمرٍو المِرْبَدَ فى عَقِب قَتْل مسعود بن عمرو العَتَكىّ ، وجاء زياد بن عَمرو بن الأشرَف العَتَكى لِيَثْأَر به من بنى تميم صَفَّ أصحابه ، فجَعَل فى الميمنة بكرَ بن وائل ، وفى المَيسرة عبدَ القيس ، وهم لُكَيز بن أفصى بن دُعْمىّ بن جديلة بن أسد بن ربيعة ، وكان زياد بنُ عمرو العَتَكى فى القَلْب ، فبَلَغ ذلك الأحنف بن قيس ، فقال :هذا غلامٌ حدَث ، شأنُه الشُّهْرة ، وليس يبالِى أين قَذَف بنفسه ! فندب أصحابه ، فجاءه حارثة بن بَدْر الغُدانىّ ، وقد اجتمعتْ بنو تميم ، فلما أَتى [٣] قال : قوموا إلى سيِّدكم ، ثم أجلسَه فناظَره ، فجعلوا سعْدا والرّباب فى القَلْب ورئيسهم عَبْس بنُ طَلْق الطّعان المعروف بأخى كَهْمَس ، وهو أحد بنى صُرَيم بن يَرْبوع ، فكانوا بحِذاء زِياد بن عمرو ومن معه من الأزْد ، وجعل حارثة بن بدر الغُدانىّ فى بنى حنظلة بحذاء بكر بنِ وائل، وجعل عمرو بن تميم بحذاء عبد القيس ، فذلك حيث يقول حارثة بن بدر للأحنف :

سيَكفيكَ عبسٌ أخو كَهْمَسٍ ... مُقَارعةَ الأَزْدِ فى المِرْبَدِ [٤]

ويَكفيك عَمرٌو على رِسْلِها ... لُكَيز بن أفصَى وما عَدَّدوا

(١) عدنى : منسوب إلى عدن أبين ، وهى جزيرة باليمن ، تنسب إليها الثياب العدنية .
(٢) الكامل ١ : ١٣٩ .   (٣) الكامل : « طلع » .
(٤) فى هذا البيت إقواء .

ونَكفيك بكراً إذا أقبلتْ   بضرْب يَشيبُ له الأمرَدُ

ولُكَيزُ بن أفصى تعمّ عبدَ القيس. قال : فلما تواقفوا بعثَ إليهم الأحنف: يامعشرَ الأزْد من اليْمَن وربيعة من أهل البَصرة ، أنتم واللهِ أَحبُّ إلينا من تَميم الكُوفة، وأنتم جيرانُنا فى الدار ، ويدُنا على العدوّ ، وأنتم بدأتمونا بالأمس ، ووَطِئتم حَريمَنا ، وحَرّقتم علينا ، فدَفَعنا عن أنفسنا ، ولا حاجة لنا فى الشرّ ماطلبْنا فى الخير مَسلَكا ، فتيمّموا بنا طريقةً مستقيمة[1] . فوجّه إليه زيادُ بنُ عمرو ، تَخيَّرْ خَلّة من ثلاث : إن شئتَ فانزل أنت وقومُك على حكمنا ،وإن شئتَ نخلّ لنا عن البَصْرة ، وارحل أنتَ وقومُك إلى حيث شئتم ، وإلّا فَدُوا قَتْلانا ، واهدُروا دِماءكم ، وليودَ مسعود دِية المُشعِرة .

ـ قال أبو العباس : وتأويل قوله : «دِية المشعرة» ، يريد أمرَ المُلوك فى الجاهليّة ،وكان الرجل إذا قُتِل وهو من أهل بيت المملكة وُدِىَ عَشْر دِيات ـ فبعث إليه الأحنفُ : سنختار . فانصرفوا فى يومِكم ، فهزّ القومُ راياتِهم وانصرفوا ، فلما كان الغَدُ بعث الأحنف إليهم : إنكم خيّرتمونا خِلالا ليس لنا فيها خيار ، أمّا النزول على حكمكم فكيف يكون والكَلْم[2] يَقطُر ، وأمّا تركُ دِيارنا فهو أخو القتْل . قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَافَعَلُوه إِلّا قَلِيلٌ﴾[3] ، ولكنّ الثالثة إنّما هى حَمْلٌ على المال ، فنحن نُبطِل دماءنا ، ونَدِى قَتْلاكم ، وإنما مسعود رجلٌ من المسلمين ، وقد أذهبَ اللهُ عزّ وجلّ أمرَ الجاهليّة . فاجتمعَ القومُ عَلَى أن يقفوا أمرَ مسعود ، ويُغمِدوا السيف ،وتُودَى سائرُ القتْلَى من الأزْدِ وربيعة ، فضَمِن ذلك الأحنف ، ودفع إليهم إياسَ بنَ قتادة المجاشعىّ رهينة حتى يؤدى هذا المال ،فرضىَ به القومُ ، ففخر بذلك الفرزدق ، فقال لجرير :

---

(١) الكامل : « قاصدة » .

(٢) الكلم : الجرح .

(٣) سورة النساء ٦٦ .

ومنّا الذى أعطى يديْه رَهينــة لغارَىْ معدٍّ يوم ضَرْب الجماجم (١)

عشيّة ســــالَ المِرْبدانِ كلاهُما عجاجةَ موتٍ بالسّيوف الصّوارم

هنالك لو تبغى كليباً وجدتَهــا أذلَّ من القِردان تحتَ المناسِمِ

ويقال : إنّ تميما فى ذلك الوقت مع باديتها وحلفائها من الأساورة والزّطّ والسبابجة وغيرهم كانوا زُهاء سبعين ألفا ، وفى ذلك يقول جَرير :

سائلْ ذَوِى يمنٍ ورَهطَ محرِّقٍ والأزْدَ إذ نَدبوا لنا مسعودا (٢)

فأتاهمُ سبعون ألف مــــدجَّجٍ متَسربلين يَلامِقاً وحديدا (٣)

قال الأحنفُ بنُ قيس : فــكثرت علىّ الديات فلم أجدْها فى حاضرة تميم ، فخرجت نحو يَبْرِين إلى بادية تميم ، فسألتُ عن المقصود هنــاك ، فأرشِدْتُ إلى قبّة ، فإذا شيخٌ جالس بفنائها مؤتزر بشملة ، مُحْتَبٍ بحبل ، فسلّمتُ عليــه ، وانتسبتُ له ، فقال لى : مافعل رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ؟ قلتُ : توفّىَ . قال : فما فعل عمر بن الخطّاب الذّى كان يَحفظ العرب ويَحوطها ؟ قلت : تُوفّىَ . قال : فأىّ خير فى حاضرتكم بعدهما ؟ قال : فذكرتُ له الدّيات التى لزمتنا للأزد وربيعة ، قال : فقال لى : أقِم ، فإذا راعٍ قد أراح عليه ألف بعير ، فقال : خذها ، ثم أراح علينا آخر مثلها ، فقال : خُذها ، فقلتُ : لاأحتاج إليها . قال : فانصرفتُ بالألف عنه ، ووالله ماأَدْرى من هو إلى الساعة (٤) !

---

(١) ديوانه ٨٦١ . والغاران ، مثنى غار ، وهو الجيش . (٢) ديوانه ١٧٢ ؛ وهو مسعود بن عمرو العتكى .
(٣) اليلامق : جمع يلمق ؛ وهو القباء ، فارسى معرب . وفى الكامل : «يلامعا» ، واليلمع : هو الدرع .
(٤) الكامل ١ : ١٤٠ — ١٤٣ .

(١٩)

الأصْـلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ دَهَاقِينَ أَهْلِ بَلَدِكَ شَكَوْا مِنْكَ غِلْظَةً وَقَسْوَةً ، وَاحْتِقَاراً وَجَفْوَةً ، وَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرهم أَهْلاً لأَنْ يُدْنَوْا لِشِرْكِهِمْ ، وَلَا أَنْ يُقْصَوْا وَيُجْفَوْا لِعَهْدِهِمْ ، فَالْبَسْ لَهُمْ جلباباً مِنَ اللِّين تَشُوبُهُ بطَرَفٍ مِنَ الشِدَّةِ ، وداوِلْ لَهُمْ بَيْنَ الْقَسْوَةِ وَالرَّأْفَةِ ، وَامْزُجْ لَهُمْ بَيْنَ التَّقْرِيبِ وَالْإِدْنَاءِ ، والإبعاد والإقْصاءِ . إِنْ شَاءَ اللهُ .

***

الشَّـرْحُ :

الدَّهاقين : الزعماء أربابُ الأملاك بالسّواد ، واحدُهم دِهقان بكسر الدال ، ولفظُه معرَّب .

وداوِلْ بينهم ، أى مرّة هكذا ومرّة هكذا ، أمره أن يَسلك معهم مَنهَجا متوسّطا ، لا يُدنيهم كلّ الدنوّ لأنهم مُشرِكون ، ولا يقصيهم كلّ الإقصاء لأنهم مُعاهِدون ، فوجب أن يعاملهم معاملةً آخِذةً من كلّ واحدٍ من القسمين بنصيب .

(٢٠)

الأصـلُ

ومن كتاب له عليه السلام إلى زياد بن أَبيه وهو خليفةُ عاملِهِ عبد الله بن عباس على البَصرة ـ وعبد الله عامل أمير المؤمنين عليهِ السلام يومئذ عليها وعَلَى كُوَر الأهواز وفارس وكِرْمَان وغيرها :

وَإِنّى أُقْسِمُ بِاللهِ قَسَماً صَادِقًا ، لَئِنْ بَلَغَنِى أَنَّكَ خُنْتَ مِنْ فَىْءِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا صَغِيراً أَوْ كَبِيراً ، لأَشُدَّنَّ عليك شَدَّةً تَدَعُكَ قَلِيلَ الْوَفْر ، ثقِيلَ الظَّهْر ؛ ضَئِيلَ الأَمْر . والسَّلَامُ .

* * *

الشَّرحُ :

سيأتى ذكر نسب زياد وكيفية استلْحَاق معاوية له فيما بعد إن شاء الله تعالى .

قوله عليه السلام : « لأَشُدّنّ عليك شدّة » ، مثلُ قوله : «لأحملنّ عليك حَملةً» ، والمراد تهديده بالأخذ واستصفاء المال.

ثم وصف تلك الشدّة فقال : « إنها تتركك قليل الوَفْر » ، أى أُفقرك بأخذ ما احتجتَ من بيت مال المسلمين .

وثقيل الظّهر ، أى مسكين لاتقدِر على مَئونة عيالك .

وضئيل الأمر ، أى حقير ، لأنك إنما كنت نبيها بين الناس بالغنَى والثّروة ، فإذا افتقرتَ صغرتَ عندهم ، واقتحمتْك أعينُهم .

(٢١)

الأصْـلُ

ومن كتاب له عليه السلام إلى زياد أيضا :

فَدَعِ ٱلْإِسْرَافَ مُقْتَصِداً ، وَٱذْكُرْ فِي ٱلْيَوْمِ غَـداً ، وَأَمْسِكْ مِنَ ٱلْمَالِ بِقَدْرِ ضَرُورَتِكَ ، وَقَدِّمِ ٱلْفَضْـلَ لِيَوْمِ حَاجَتِكَ ، أَتَرْجُـو أَنْ يُعْطِيَكَ ٱللهُ أَجْرَ ٱلْمُتَوَاضِعِينَ ، وَأَنْتَ عِنْدَهُ مِنَ ٱلْمُتَـكَبِّرِينَ ! وَتَطْمَعُ وَأَنْتَ مُتَمَرِّغٌ فِي ٱلنَّعِيمِ أَنْ تَمْنَعَهُ ٱلضَّعِيفَ والأَرْمَلَةَ ، وَأَنْ يُوجِبَ لَكَ ثَوَابَ ٱلْمُتَصَـدِّقِينَ ؛ وَإِنَّمَا ٱلْمَرْءُ مَجْزِيٌّ بِمَا أَسْلَفَ ، وَقَادِمٌ عَلَى مَاقَدَّمَ . وَٱلسَّلَامُ .

* * *

الشَّـرْحُ :

المتمرِّغ فى النّعيم : المتقلّب فيه . ونهـاه عن الإسراف وهو التبـذير فى الإنفاق ، وأمرَه أن يُمسك من المال ما تَدْعو إليه الضرورة ، وأن يقدِّم فضول أمواله وما ليس له إليه حاجة ضرورية فى الصدقة فيدّخره ليوم حاجته ، وهو يوم البَعْث والنشور .

قلتُ : قبّح الله زيادا ! فإنه كافأ إنعام علىّ عليه السلام وإحسانه إليه واصطناعه له بما لاحاجة إلى شرحه من أعمـاله القبيحة بشيعته ومحبِّيه والإسراف فى لعنـه ، وتهجين أفعاله ، والمبالغة فى ذلك بما قد كان معاوية يرضى باليسير منه ، ولم يكن يفعلُ ذلك لطلب رضا معاوية ، كلاّ ، بل يفعله بطبعه ، ويعاديه بباطنه وظاهره ، وأبى اللهُ إلاّ أن يرجع إلى أمّه ، ويصحِّح نسبه ، وكلٌّ إناء يَنْضَح بما فيه . ثم جاء ابنه بعد فختم تلك الأعمال السيئة بما ختم ، وإلى الله ترجع الأمور !

(٢٢)

الأَصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن العبّاس رحمه الله تعالى ، وكان ابنُ عبّاس يقول : ما انتفعتُ بكلامٍ بعدَ كلام رسولِ الله صلى الله عليهِ وآله كانتفاعى بهذا الكلام :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ الْمَرْءَ قَدْ يَسُرُّهُ دَرْكُ مَالَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ ، وَيَسُوءُهُ فَوْتُ مَالَمْ يَكُنْ لِيُدْرِكَهُ ، فَلْيَكُنْ سُرُورُكَ بِمَا نِلْتَ مِنْ آخِرَتِكَ ، وَلْيَكُنْ أَسَفُكَ عَلَى مَافَاتَكَ مِنْهَا ، وَمَا نِلْتَ مِنْ دُنْيَاكَ فَلاَ تُكْثِرْ بِهِ فَرَحاً ، وَمَا فَاتَكَ مِنْهَا فَلاَ تَأْسَ عَلَيْهِ جَزَعاً ، وَلْيَكُنْ هَمُّكَ فِيمَا بَعْدَ الْمَوْتِ .

* * *

الشَّرْحُ :

يقول : إنّ كلّ شيء يصيب الإنسانَ فى الدّنيا من نَفْع وضَرّ فبقضاء من الله وقدرِه تعالى ؛ لكنّ الناسَ لاينظرون حقّ النظر فى ذلك ، فيُسَرّ الواحدُ منهم بما يصيبه من النّفع ، ويُساء بفَوْت ما يَفُوته منه ، غيرَ عالم بأنّ ذلك النفعَ الّذى أصابه ، كان لابدّ أن يصيبه ، وأنّ ما فاته منه كان لابدّ أن يفوته ، ولو عرَف ذلك حقّ المعرفة لم يفرَح ولم يَحزَن .

ولقائلٍ أن يقول : هَبْ أن الأمور كلّها بقضاء وقَدَر ، فلم لا ينبغى للإنسان أن يَفرَح بالنفع وإن وَقع بالقَدَر ، ويُساء بفَوْته أو بالضّرر وإن وَقَعا بقَدَر ! أليس العُرْيان يُساء

بقدوم الشّتاء وإن كان لا بدّ من قدومه ، والمحمومُ غِبًّا[١] يساء بتجدد نَوبة الحمّى ، وإن كان لا بدّ من تَجدُّدها ! فليس سبب الاختيار فى الأفعال ممّا يوجب أن لا يسرّ الإنسان ولا يساء بشىء منها .

والجواب ينبغى أن يُحمَل هذا الكلامُ على أنّ الإنسان ينبغى أن لا يعتقد فى الرِّزق أنه أتاه بسَعْيه وحرَكته فيَفرَح مُعْجَبا بنفسه ، معتقدا أن ذلك الرزقَ ثمرةُ حركته واجتهاده ، وكذلك ينبغى ألّا يساء بفَوات مايفوته من المنافع لائماً نفسَه فى ذلك ناسباً لها إلى التقصير وفسادِ الحيلة والاجتهاد ، لأنّ الرزق هو من الله تعالى لا أثر للحركة فيه ، وإن وقع عندها ؛ وعلى هذا التأويل ينبغى أن يُحمل قوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾[٢] .

من النَّظم الجيِّد الرّوحانىّ فى صفة الدنيا والتحذير منها ، والوَصاة بترك الاغترار بها ، والعمل لما بعدها ، ما أورَدَه أبو حيّان فى كتاب " الإشارات الإلهيّة " ولم يسمِّ قائله :

دارُ الفجائعِ والهمومِ ودا ... ر البثّ والأحزانِ والبَلْوَى
مُرُّ المذاقة غبّ ما احتلبتْ ... منها يَدَاك وُبِيَّةُ المرعَى
بينا الفَتى منها بمنزلةٍ ... إذ صار تحت تُرابها مُلقَى
تقفُو مساويها محاسنُها ... لا شىء بين النَّعْى والبُشرَى
ولقلّ يومٌ ذَرَّ شارِقُه ... إلا سمعتَ بهالكٍ يُنعَى
لا تَعْتَبِنّ على الزّمان لما ... يأتى به فلقلَّما يَرْضَى

---

(١) الغب من الحمى : ما تأخذ يوما وتدع يوما .

(٢) سورة الحديد ٢٢ ، ٢٣ .

للمرء رزقٌ لا يفوت ولو جَهَد الخلائقُ دونَ أن يفنى
ياعامرَ الدّنيا المعدَّ لها ماذا عَمِلتَ لدارك الأخرى !
وممهِّد الفُرُش الوطيئة لا تُغفِلْ فِرَاش الرَّقْدة الكبرى
لو قد دُعِيتَ لقد أجبتَ لما تُدْعى له فانظر متَى تُدعى !
أتراك تُحصى كم رأيتَ مِن الـ أحياء ثمّ رأيتَهم مَوتى
مَنْ أصبحتْ دنياه همّته فمتى ينالُ الغايةَ القُصْوَى !
سبحانَ من لا شيء يَعدِلُه كم من بصير قلبُه أعمى !
والموتُ لا يَخفَى على أحدٍ ممَّن أرَى وكأنه يخفَى
والليلُ يَذهبُ والنهارُ بأحبابى ، وليس عليهما عدوَى

(٢٣)

الأصل

ومن كلام له عليه السلام قاله قبل موته على سبيل الوصيّة لمّا ضربه ابن مُلجَم لعنه الله :

وَصِيَّتِي لَكُمْ أَلّا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئاً ، وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَلَا تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ ، أَقِيمُوا هَذَيْنِ الْعَمُودَيْنِ ، وَأَوْقِدُوا هَذَيْنِ الْمِصْبَاحَيْنِ ، وَخَلَاكُمْ ذَمٌّ !

أَنَا بِالْأَمْسِ صَاحِبُكُمْ ، وَالْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ ، وَغَداً مُفَارِقُكُمْ ، إِنْ أَبْقَ فَأَنَا وَلِيُّ دَمِي ، وَإِنْ أَفْنَ فَالْفَنَاءُ مِيعَادِي ، وَإِنْ أَعْفُ فَالْعَفْوُ لِي قُرْبَةٌ ، وَهُوَ لَكُمْ حَسَنَةٌ ، فَاعْفُوا : ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ ﴾ (١) .

وَاللهِ مَا فَجَأَنِي مِنَ الْمَوْتِ وَارِدٌ كَرِهْتُهُ ، وَلَا طَالِعٌ أَنْكَرْتُهُ ، وَمَا كُنْتُ إِلَّا كَقَارِبٍ وَرَدَ ، وَطَالِبٍ وَجَدَ ؛ ﴿ وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴾ (٢) .

***

قَالَ الرَّضِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : أَقُولُ وَقَدْ مَضَى بَعْضُ هَذَا الْكَلَامِ فِيمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْخُطَبِ ، إِلَّا أَنَّ فِيهِ هَاهُنَا زِيَادَةً أَوْجَبَتْ تَكْرِيرَهُ .

***

الشرح :

فإن قلت : لقائل أن يقول: إذا أوصاهم بالتّوحيد واتّباع سنّة النبيّ صلّى اللهعليه وآله

---

(١) سورة النور ٢٢ . (٢) سورة آل عمران ١٩٨ .

فلم يبقَ شىء بعد ذلك يقول فيه : أقيموا هذين العَمُودين وخَلاَكم ذمّ ؛ لأنّ سنّة النبىّ صلّى الله عليه وآله فعلُ كلّ واجب . وتجنُّب كلّ قبيح ؛ فخلاهم ذَمّ فماذا يقال ؟

والجواب أنّ كثيرا من الصّحابة كلّفوا أنفسهم أموراً من النّوافل شاقّةً جدّا ، فمنهم من كان يقوم الليل كلّه ،ومنهم من كان يصوم الدهر كلّه ، ومنهم المرابط فى الثّغور ، ومنهم المجاهد مع سقوط الجهاد عنه لقيام غيره به ، ومنهم تاركُ النّكاح ،ومنهم تاركُ المطاعم والملابس ؛ وكانوا يتفاخرون بذلك، ويتنافسون فيه ، فأراد عليه السلام أن يبيِّن لأهله وشيعته وقتَ الوصيّة أنّ المهمّ الأعظم هو التّوحيد ، والقيام بما يُعلم من دين محمّد صلّى الله عليه وآله أنه واجب ، ولا عليكم بالإخلال بما عدا ذلك ، فليت من المائة واحداً نَهَض بذلك ، والمراد ترغيبهم بتخفيف وظائف التكاليف عنهم ، فإن الله تعالى يقول:﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ اليُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾[1] . وقال صلّى الله عليه وآله! « بُعثتُ بالحنيفيّة السّهلة السَّمْحة » .

قوله : «وخَلاكم ذمّ» : لفظةٌ تقال على سبيل المَثَل أى قد أعذَرتم،وسَقط عنكم الذمّ .

ثم قسم أيامه الثلاثة أقساما فقال : أنا بالأمس صاحبُكم أى كنت أرجَى وأُخاف،وأنا اليوم عِبرةٌ لكم ، أى عِظة تعتبرون بها .وأنا غدا مفارقكم،أكون فى دار أخرى غير داركم.

ثم ذكر أنه إن بقى ولم يمتْ من هذه الضربة فهو ولىّ دمِه ، إن شاء عفاَ ، وإنْ شاء اقتصّ ، وإن لم يَبْق فالفناء الموعد الّذى لا بدّ منه .

ثم عاد فقال : وإن أعْفُ ، والتقسيم ليس على قاعدة تقسيم المتكلِّمين . والمعنى منه مفهوم ، وهو إمّا أن أسلم من هذه الضربة أولا أسلم ، فإن سلمت منها فأنا ولىّ دَمى ؛إن شئتُ عفوتُ فلم أقتصّ ، وإن شئتُ اقتصصتُ ،ولا يعنى بالقصاص هاهنا القتل ،بل ضربةً بضربة ، فإن سَرَتْ إلى النفس كانت السراية مُهدَرة كقَطْع اليد .

(١) سورة البقرة ١٨٥ .

ثم أَوْمَأَ إلى أنه إن سلِم عفا بقوله : إن العفو لى إن عفوْت قرْبة .

ثم عُدْنا إلى القسم الثانى من القسمين الأوَّليْن ، وهو أنه عليه السلام لا يَسلَم من هذه ؛ فولاية الدم إلى الورثة ، إن شاءوا اقتصُّوا وإن شاءوا عَفوا .

ثم أومأ إلى أنَّ العفْو منهم أحسن ، بقوله : « وهو لكم حسنة » ، بل أمرَهم أمراً صريحاً بالعفو ، فقال : فاعفوا ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ﴾ . وهذا لفظ الكتاب العزيز ، وينبغى أن يكون أمْرُه بالعفو فى هذا الكلام محمولاً على النّدب .

ثم أقسَم عليه السلام أنه ما فجأه من الموت أمْرٌ أنكرَه ولا كَرِهه ، ففجأنى الشىء : أتانى بغتةً .

ثم قال : « ما كنتُ إلا كقارِب وَرَد » ، والقارب : الّذى يسير إلى الماء وقد بقى بينه وبينَه ليلة واحدة ، والاسم : القَرَب ، فهم قارِبون ، ولا يقال « مقربون » ، وهو حرف شاذٌّ .

(٣٤)

الأصلُ

ومن وصية له عليه السلام بما يعمل فى أمواله ، كتبها بعد منصرفه من صفين

هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عبدُ الله عَلِيُّ بْنُ أَبى طَالِبٍ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَالِهِ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ لِيُولِجَهُ بِهِ الْجَنَّةَ ، وَيُعْطِيَهُ بِهِ الْأَمَنَةَ .

الشَّرحُ :

قد عابت العثمانيّة وقالت : إنّ أبا بكر مات ولم يخلّف دينارا ولا درهما ، وإنّ عليّا عليه السلامُ مات وخلّف عَقارا كثيرا ـ يَعنون نَخْلا ـ قيل لهم : قد عَلِم كلُّ أحدٍ أنّ عليّا عليه السلامُ استخرَج عيونا بكدِّ يدِه بالمدينة ويَنْبُع وسُوَيْعة ، وأحْيَا بها مَواتًا كثيرا ، ثم أخرَجها عن ملكه ، وتَصدّق بها على المسلمين ، ولم يمتْ وشىء منها فى ملكه ، ألا ترى إلى ماتتضمّنه كُتبُ السِّيَر والأخبار من منازعة زيد بن علىّ وعبدِ الله ابنِ الحسن فى صَدَقاتِ علىٍّ عليه السلام ، ولم يُورِّث علىٌّ عليه السلام بنيه قليلاً من المال ولا كثيرا إلا عبيدَه وإماءه وسَبْعَمائة درهم من عَطائه ، تركها ليشتريَ بها خادما لأهله قيمتُها ثمانيةٌ وعشرون دينارا ، على حَسَب المائة أربعة دنانير ، وهكذا كانت المعاملة بالدراهم إذ ذاك ، وإنما لم يَترُك أبو بكر قليلا ولا كثيرًا لأنه ما عاش ، ولو عاش لترَك ، ألَا تَرَى أنّ عمر أصدَق أمّ كلثوم أربعين ألفَ دِرْهم ، ودَفَعها إليها ! وذلك لأنّ هؤلاء طالت أعمارُهم ، فمنهم من دَرّتْ عليه أخلاف التّجارة ، ومنهم من كان يَستعمر الأرض ويَزْرَعها ، ومنهم من استفضل من رزقه من الفىء[1] .

---

(١) الفىء : الغنيمة .

وفضلهم أمير المؤمنين عليه السلام بأنه كان يَعمل بيدِه ، ويَحرُث الأرض ويَسْتَقى الماءَ ويغرِس النّخل ، كلّ ذلك يباشِرُه بنفْسِه الشريفة ، ولم يَستبْقِ منه لوقتِه ولا لعَقبه قليلا ولا كثيرا ؛ وإنّما كان صَدَقةً ؛ وقد مات رسولُ الله صلّى الله عليه وآله وله ضِياعٌ كثيرةٌ جليلة جدّا بخَيْبَر وفَدَك وَبَنى النّضِير ، وكان له وادِى نخْلة وضِياعٌ أخرى كثيرة بالطائف ، فصارت بعدموتِه صدقة بالخبَر الّذى رواه أبو بكر . فإن كان علىٌّ عليه السلام مَعيبا بضِياعه ونخلِه فكذلك رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ، وهذا كفر وإلحاد ! وإن كان رسولُ الله صلّى الله عليه وآله إنّما ترك ذلك صَدَقةً فرَسول اللهِ صلّى الله عليه وآله مارَوَى عنه الخبر فى ذلك إلا واحد من المسلمين ، وعلىّ عليه السلام كان فى حياته قد أثبتَ عند جميع المسلمين بالمدينة أنّها صدقة ، فالتُّهمة إليه فى هذا الباب أبعَد. ورُوىَ : « ويُعطينى به الأمَنَةَ » ، وهى الأمْن .

* * *

الأصل :

منها :

فَإِنَّهُ يَقُومُ بِذَلِكَ ٱلْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ يَأْكُلُ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيُنْفِقُ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِنْ حَدَثَ بِحَسَنٍ حَدَثٌ وَحُسَيْنٌ حَيٌّ ، قَامَ بِالْأَمْرِ بَعْدَهُ وَأَصْدَرَهُ مَصْدَرَهُ ؛ وَإِنَّ لابنَيْ فَاطِمَةَ مِنْ صَدَقَةِ عَلِيٍّ مِثْلَ الَّذِي لِبَنِي عَلِيٍّ .

وَإِنِّي إِنَّمَا جَعَلْتُ ٱلْقِيَامَ بِذَلِكَ إِلَى ٱبْنَيْ فَاطِمَةَ ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ ٱللهِ، وَقُرْبَةً إِلَى رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَتَكْرِيماً لِحُرْمَتِهِ ، وَتَشْرِيفاً لِوُصْلَتِهِ ، وَيَشْتَرِطُ عَلَى ٱلَّذِي يَجْعَلُهُ إِلَيْهِ أَنْ يَتْرُكَ ٱلْمَالَ عَلَى أُصُولِهِ ، وَيُنْفِقَ مِنْ ثَمَرِهِ حَيْثُ أُمِرَ بِهِ وَهُدِيَ لَهُ ، وَأَلَّا يَبِيعَ مِنْ أَوْلَادِ نَخِيلِ هَذِهِ ٱلْقُرَى وَدِيَّةً حَتَّى تُشْكِلَ أَرْضُهَا غِرَاساً .

وَمَنْ كَانَ مِنْ إِمَائِى ٱللَّاتِى أَطُوفُ عَلَيْهِنَّ لَهَا وَلَدٌ أَوْ هِيَ حَامِلٌ فَتُمْسَكُ عَلَى وَلَدِهَا وَهِيَ مِنْ حَظِّهِ ؛ فَإِنْ مَاتَ وَلَدُهَا وَهِيَ حَيَّةٌ فَهِيَ عَتِيقَةٌ قَدْ أَفْرَجَ عَنْهَا ٱلرِّقُّ وَحَرَّرَهَا ٱلْعِتْقُ .

* * *

قَالَ السَّيِّد ٱلرَّضِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى :

قولهُ عليهِ السَّلَامُ فِي هَذِهِ ٱلْوَصِيَّة « وَأَلَّا يَبِيعَ مِنْ نَخْلِهَا وَدِيَّةً » ، ٱلْوَدِيَّةُ : ٱلْفَسِيلَةُ ، وَجَمْعُهَا وُدِيٌّ .

قَوْلُهُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : « حَتَّى تُشْكِلَ أَرْضُهَا غِرَاساً » هُوَ مِنْ أَفْصَحِ ٱلْكَلَامِ ، وَٱلْمُرَادُ بِهِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَكْثُرُ فِيهَا غِرَاسُ ٱلنَّخْلِ حَتَّى يَرَاهَا ٱلنَّاظِرُ عَلَى غَيْرِ تِلْكَ ٱلصِّفَةِ ٱلَّتِي عَرَفَهَا بِهَا ، فَيُشْكِلَ عَلَيْهِ أَمْرُهَا وَيَحْسَبهَا غَيْرَهَا .

* * *

الشَّرْحُ :

جَعلَ للحَسَن ابنه عليه السلامُ ولاية صَدَقات أمواله ، وأَذن له أن يأكل منه بالمعروف ، أى لا يُسرِف ، وإنّما يتناول منه مقدارَ الحاجة ، وما جرتْ بمثله عادة من يتولّى الصدقات ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَالعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾[1].

ثم قال : فإن مات الحسنُ والحُسين بعدَه حيّ فالولايةُ للحسين ، والهاء فى «مَصدره» ترجع إلى الأمر ، أى يصرفه فى مَصارفه التى كان الحسن يصرفه فيها . ثم ذكر أنَّ لهذين الولدين حصّة من صدقاته أُسوةً بسائر البنين ، وإنما قال ذلك لأنه قد يتوهّم متوهِّم

(١) سورة التوبة ٦٠ .

نَّهما لكونهما قد فوِّض إليهما النظرُ فى هذه الصدقات ، قد مُنعا أن يُسهما فيها بشىء ، وإن الصّدقات إنما يتناولها غيرهما من بنى علىّ عليه السلام ممّن لا ولاية له مع وجودهما ، ثم بيّن لماذا خصَّهما بالولاية ؟ فقال : إنّما فعلتُ ذلك لشرفهما برسول الله صلى الله عليه وآله ، فتقرّبتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بأن جعلتُ لسِبْطيه هـذه الرياسة ، وفى هذا رَمْز وإزراء بمن صَرَف الأمر عن أهل بيتِ رسولُ الله صلى الله عليه وآله ،مع وجود من يصلُح للأمر ، أى كان الأليق بالمسلمين والأَوْلى أن يجعلوا الرِّياسة بعدَه لأهله قُرْبةً إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله ، وتكريما لحرمته ،وطَاعةً له ،وأَنفَة لقَدْره،صلى الله عليه وآله أن تكونَ وَرَثتُه سُوقةً ، يليهم الأجانب ، ومن ليس من شَجَـرته وأصلِه . ألَا ترى أنّ هيبة الرّسالة والنّبوة فى صدور الناس أعظمُ إذا كان السلطان والحاكم فى الخلق من بيت النبّوة ؛ وليس يُوجد مثل هذه الهيْبة والجلال فى نفوس الناس للنبوّة إذا كان السلطان الأعظمُ بعيدَ النسب من صاحب الدعوة عليه السلام !

ثم اشترَط على مَنْ يلى هذه الأموال أن يترَكها على أصولها ، ويُنفِق من ثمرتها ،أى لا يقطع النخل والثمر ويبيعه خَشَبا وعيدانا ، فيفضِى الأمرُ إلى خراب الضِّياع وعُطْلة العَقار.

قوله : « وألّا يبيع من أولاد نخيل هذه القُرَى » أى من الفُسْلان الصِّغار ،سمّاها أولادا ،وفى بعض النُّسخ ليست « أولاد » مذكورةً ، والوَدِيّة : الفَسِيلة .

تُشْكِلَ أرضها : تمتلى بالغِراس حتى لا يَبْقَى فيه طريقة واضحة .

قوله : « أطوفُ عليهنّ » ، كنايةً لطيفة عن غِشْيان النساء ،أى من السّرارىّ ؛ وكان عليه السلامُ يذهبُ إلى حِلّ بَيْع أمهاتِ الأولاد ، فقال : من كان من إمائى لها ولد منّى ؛ أو هى حاملٌ منّى وقسمتم تركتى فلتكن أمَّ ذلك الولدِ مبيعة على ذلك الوَلَد،ويُحاسَب بالثمن من حصّته من التركة ، فإذا بيعتْ عليه عتقتْ عليه ، لأنّ الوَلد إذا اشترَى الوالدَ عَتق الوالدُ

عنه ، وهذا معنى ، قوله « فتُمسَك على ولدها » ، أى تقوم عليه بقيمة الوقت الحاضر ، وهى منْ حظّه ، أى من نصيبه وقسطه من التركة .

قال : فإن مات ولدها وهى حيّة بعد أن تقوم عليه فلا يجوز بيعُها لأنها خرجتْ عن الرِّق بانتقالها إلى ولدها ، فلا يجوز بيعُها .

فإن قلت : فلماذا قال : فإن مات ولدُها وهى حيّة ؟ وهلّا قال : فإذا قُوّمتْ عليه عتقتْ ؟

قلت : لأنّ موضع الاشتباه هو موتُ الولد وهى حيَّة ، لأنه قد يَظُنُّ ظانٌّ أنه إنما حَرُم بيعُها لمكان وجود ولدها ، فأراد عليه السلام أن يبيِّن أنها قد صارت حُرّة مطلقا سواء كان ولدُها حيًّا أو ميّتا .

(٢٥)

الأصـلُ

ومن وصية له عليه السلام كان يكتبها لمن يستعمله على الصدقات ، وإنّما ذكرنا هنا جُمَلاً منها ليُعلمَ بها أنّه عليه السلام كان يقيم عِمادَ الحق ، ويشرع أمثلةَ العَدْل فى صغير الأمور وكبيرها ، ودقيقِها وجَليلِها :

انْطَلِقْ عَلَى تَقْوَى ٱللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَلَا تُرَوِّعَنَّ مُسْلِماً ، وَلَا تَجْتَازَنَّ عَلَيْهِ كَارِهاً ، وَلَا تَأْخُذَنَّ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ حَقِّ ٱللهِ فِي مَالِهِ ، فَإِذَا قَدِمْتَ عَلَى ٱلْحَيِّ فَانْزِلْ بِمَائِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخَالِطَ أَبْيَاتَهُمْ ، ثُمَّ ٱمْضِ إِلَيْهِمْ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ ؛ حَتَّى تَقُومَ بَيْنَهُمْ فَتُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ .

وَلَا تُخْدِجْ بِالتَّحِيَّةِ لَهُمْ ثُمَّ تَقُولَ: عِبَادَ ٱللهِ ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ وَلِيُّ ٱللهِ وَخَلِيفَتُهُ ، لِآخُذَ مِنْكُمْ حَقَّ ٱللهِ فِي أَمْوَالِكُمْ ، فَهَلْ لِلهِ فِي أَمْوَالِكُمْ مِنْ حَقٍّ فَتُؤَدُّوهُ إِلَى وَلِيِّهِ !

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : لَا ، فَلَا تُرَاجِعْهُ ، وَإِنْ أَنْعَمَ لَكَ مُنْعِمٌ فَانْطَلِقْ مَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخِيفَهُ أَوْ تُوعِدَهُ ، أَوْ تَعْسِفَهُ أَوْ تُرْهِقَهُ ؛ فَخُذْ مَا أَعْطَاكَ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ ؛ فَإِنْ كَانَ لَهُ مَاشِيَةٌ أَوْ إِبِلٌ فَلَا تَدْخُلْهَا إِلَّا بِإِذْنِهِ ، فَإِنَّ أَكْثَرَهَا لَهُ ، فَإِذَا أَتَيْتَهَا فَلَا تَدْخُلْ عَلَيْهَا دُخُولَ مُتَسَلِّطٍ عَلَيْهِ ، وَلَا عَنِيفٍ بِهِ .

وَلَا تُنَفِّرَنَّ بَهِيمَةً وَلَا تُفْزِعَنَّهَا ، وَلَا تَسُوءَنَّ صَاحِبَهَا فِيهَا .

وَٱصْدَعِ ٱلْمَالَ صَدْعَيْنِ ثُمَّ خَيِّرْهُ ، فَإِذَا ٱخْتَارَ فَلَا تَعْرِضَنَّ لِمَا ٱخْتَارَهُ . ثُمَّ ٱصْدَعِ الْبَاقِيَ صَدْعَيْنِ ، ثُمَّ خَيِّرْهُ ، فَإِذَا ٱخْتَارَ فَلَا تَعْرِضَنَّ لِمَا ٱخْتَارَهُ ؛ فَلَا تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَبْقَى مَا فِيهِ وَفَاءٌ لِحَقِّ ٱللهِ فِي مَالِهِ ؛ فَاقْبِضْ حَقَّ ٱللهِ مِنْهُ .

فَإِنِ ٱسْتَقَالَكَ فَأَقِلْهُ ، ثُمَّ ٱصْنَعْ مِثْلَ ٱلَّذِي صَنَعْتَ أَوَّلًا حَتَّى تَأْخُذَ حَقَّ ٱللهِ فِي مَالِهِ .

وَلَا تَأْخُذَنَّ عَوْداً وَلَا هَرِمَةً وَلَا مَكْسُورَةً وَلَا مَهْلُوسَةً ، وَلَا ذَاتَ عَوَارٍ ؛ وَلَا تَأْمَنَنَّ عَلَيْهَا إِلَّا مَنْ تَثِقُ بِدِينِهِ ، رَافِقاً بِمَالِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يُوَصِّلَهُ إِلَى وَلِيِّهِمْ فَيَقْسِمَهُ بَيْنَهُمْ ،وَلَا تُوَكِّلْ بِهَا إِلَّا نَاصِحاً شَفِيقاً وَأَمِيناً حَفِيظاً ،غَيْرَ مُعَنِّفٍ ،وَلَا مُجْحِفٍ ، وَلَا مُلْغِبٍ وَلَا مُتْعِبٍ .

ثُمَّ احْدُرْ إِلَيْنَا مَا اجْتَمَعَ عِنْدَكَ ، نُصَيِّرْهُ حَيْثُ أَمَرَ ٱللهُ ، فَإِذَا أَخَذَهَا أَمِينُكَ فَأَوْعِزْ إِلَيْهِ أَلَّا يَحُولَ بَيْنَ نَاقَةٍ وَبَيْنَ فَصِيلِهَا ، وَلَا يَمْصُرْ لَبَنَهَا فَيَضُرَّ ذَلِكَ بِوَلَدِهَا ، وَلَا يَجْهَدَنَّهَا رُكُوباً ، وَلْيَعْدِلْ بَيْنَ صَوَاحِبَاتِهَا فِي ذَلِكَ وَبَيْنَهَا ، وَلْيُرَفِّهْ عَلَى اللَّاغِبِ ، وَلْيَسْتَأْنِ بِالنَّقِبِ وَالظَّالِعِ ، وَلْيُورِدْهَا مَا تَمُرُّ بِهِ مِنَ ٱلْغُدُرِ ، وَلَا يَعْدِلْ بِهَا عَنْ نَبْتِ ٱلْأَرْضِ إِلَى جَوَادِّ الطُّرُقِ ،وَلْيُرَوِّحْهَا فِي السَّاعَاتِ ، وَلْيُمْهِلْهَا عِنْدَ النِّطَافِ وَٱلْأَعْشَابِ ، حَتَّى تَأْتِيَنَا بِإِذْنِ ٱللهِ بُدَّناً مُنْقِيَاتٍ ، غَيْرَ مُتْعَبَاتٍ وَلَا مَجْهُودَاتٍ ، لِنَقْسِمَهَا عَلَى كِتَابِ ٱللهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَعْظَمُ لِأَجْرِكَ ، وَأَقْرَبُ لِرُشْدِكَ إِنْ شَاءَ ٱللهُ .

***

الشَّرْحُ :

وقد كرّر عليه السلامُ قوله : « لنَقسِمها على كتاب الله وسُنّة نبيّه صلّى الله عليه وآله » في ثلاثة مواضعَ مِن هذا الفَصْل :

الأوّل قولُه : « حتى يوصله إلى وليِّهم لِيَقسِمَه بينهم » .

الثاني قوله عليه السلام : « نصيِّره حيث أمَرَ الله به » .

الثالث قوله : « لنقسمها عَلَى كتاب الله » ، والبلاغة لا تقتضى ذلك ، ولكنى أظنه أحبَّ أن يَحتاط ، وأن يدفع الظِّنَّة[1] عن نفسه ، فإن الزّمان كان فى عهده قد فَسَد ، وساءت ظنونُ الناس ، لا سيّما مع ما رآه من عثمان واستئثاره بمالِ الفَيْء .

ونعود إلى الشرح . قوله عليه السلام : « عَلَى تقوَى الله » ، « على » ليست متعلّقة بـ « انطلِقْ » ، بل بمحذوف ، تقديرُه : مُواظِباً .

قوله : « ولا تُرَوعَنّ » أى لا تُفَزِّعَنّ ، والرّوع الفَزَع ، رُعتُه أَرُوعه ، ولا تُرَوِّعنّ بتشديد الواو وضمّ حَرف المضارَعة ، من رَوّعت للتكثير .

قولُه عليه السلام : « ولا تجتازَنّ عليه كارها » ، أى لا تَمُرّنّ ببيوت أحدٍ من المسلمين يكره مُرورَك . ورُوِى : « ولا تَختارَنّ عليه » ، أى لا تَقسِم مالَه وتختَرْ أحدَ القِسْمين ، والهاء فى « عليه » ترجع إلى « مُسلماً » وتفسير هذا سيأتى فى وصيّته له أن يَصدَع المال ثم يصدعه ، فهذا هو النّهى عن أن يختار عَلَى المسلِم . والرواية الأولى هى المشهورة .

قوله عليه السلام : « فانْزِلْ بمائهم » ، وذلك لأنّ الغريبَ يُحمَد منه الانقباض ، ويُستَهْجَن فى القادم أن يُخالط بيوت الحىّ الذى قدم عليه فقد يكون من النساء من لا تليق رؤيتُه ، ولا يحسُن سماعُ صَوته ، ومن الأطفال من يَستهجن أن يرى الغريبَ انبساطَه على أبويه وأهلِه ، وقد يكره القومُ أن يطلع الغريبُ عَلَى مأكلهم ومشرَبهم وملبَسهم وبواطن أحوالهم ، وقد يكونون فقراء فيكرهون أن يعرِف فقرَهم فيحتقرهم ، أو أغنياءَ أربابَ ثروة كثيرةٍ فيكرهون أن يَعلم الغريبُ ثروتَهم فيحسُدَهم ، ثم أمره أن يَمضِيَ إليهم غير متسرِّع ولا عَجِل ولا طائشٍ نزِق ، حتى يقوم بينهم فيسلِّم عليهم

---

(١) : الظِّنّة التهمة .

ويحيّيهم تحيةً كاملة ، غير مخدَجة ، أى غير ناقصة ، أخدجَتِ الناقةُ إذا جاءت بولَدها ناقصَ الخلْق ، وإن كانت أيامه تامّة ، وخَدَجتْ : ألقتْ الولدَ قبل تمام أيّامه . ورُوى : « ولا تُخْدج بالتحيّة » ، والباء زائدة .

ثم أمره أن يسألهم : هل فى أموالهم حقٌّ لله تعالى ؟ يعنى الزّكاة ، فإن قالوا : لا ، فلينصرف عنهم ، لأنّ القولَ قول ربِّ المال ، فلعلّه قد أخرج الزكاة قبل وصول المصدِّق إليه .

قوله : « وأنعَمَ لك » ، أى قال : نعم .

ولا تعسِفْه ، أى لا تطلب منه الصّدقة عَسْفا ، وأصلُه الأخذ عَلَى غير الطريق .

ولا تُرهِقه : لا تكلّفه العسرَ والمشقّة .

ثم أمَرَه أن يَقبِضَ ما يدفع إليه من الذّهب والفضّة ، وهذ يدلّ عَلَى أن المصدّق كان يأخذ العَينَ والورِق كما يأخذ الماشية ، وأن النّصاب فى العَيْن والورِق تُدفع زكاتُه إلى الإمام ونوّابه ، وفى هذه المسألة اختلافٌ بين الفقهاء .

قوله : « فإنّ أكثرها له » : كلامٌ لا مَزيدَ عليه فى الفصاحة والرِّياسة والدِّين ، وذلك لأنّ الصدقة المستحَقّة جزءٌ يسيرٌ من النِّصاب ، والشّريك إذا كان له الأكثر حَرُم عليه أن يدخل ويتصرّف إلا بإذنِ شريكه ، فكيف إذا كان له الأقلّ .

قوله : « فلا تَدخُلها دخولَ متسلِّط عليه » ، قد علم عليه السلام أن الظلم من طَبْع الوُلاة ، وخصوصا من يتولّى قبضَ الماشية من أربابها عَلَى وجه الصَّدقة ، فإنهم يدخلونها دخول متسلِّط حاكم قاهر ، ولا يَبقى لرب المال فيها تصرُّف ، فنَهى عليه السلام عن مِثل ذلك .

قوله : «ولا تنفرنّ بهيمةً ، ولا تُفزّعنها » ، وذلك أنّهم على عادة السّوء يُجَهْجِهُون[١] بالقَطيع حتى تنفر الإبل ، وكذلك بالشّاء إظهارا للقوّة والقهر، وليتمكّن أعوانهم من اختيار الجيّد ، ورَفْض الردىء .

قوله : « ولا تسوءنّ صاحبَها فيها » أى لا تغمّوه ولا تُحزنوه ، يقال : سؤته فى كذا سَوائيةً ومَسائيةً .

قوله : « واصْدَع المال صدعين وخيِّره » ، أى شقّه نصفين ثم خَيّره ، فإذا اختار أحد النّصفين فلا تَعرِضنّ لما اختار ، ثم اصدع النصف الّذى ماارتضاه لنفسه صَدْعين وخيّره، ثم لا تزال تفعل هكذا حتى تُبقِيَ من المال بمقدار الحقّ الّذى عليه ، فاقبِضه منه ، فإن استَقالك فأَقِلْه ، ثم اخلط المال ، ثم عُدْ لمثل ماصنعتَ حتى يرضى ، وينبغى أن يكون المعيبات الخمس وهى المَهْلوسة والمكْسورة وأخواتهما يخرجها المصدّق من أصل المال قبل قِسْمته ثم يقسم وإلا فربّما وقعتْ فى سهم المصدّق إذا كان يعتمد ماأمره به من صدع المال مرّة بعد مرّة .

والعوْد : المُسِنّ من الإبل ، والهرمة : المسِنّة أيضاً ، والمكسورة : الّتى أحد قوائمها مكسورة العظم أو ظهرها مكسور ، والمَهْلوسة : المريضة قد هَلَسها المرض وأفنى لحمها ، والهُلاس: السّلّ . والعَوار : بفتح العين : العَيْب ، وقد جاء بالضّم .

والمعنِّف : ذو العنْف بالضم وهو ضِدّ الرِّفْق . والمجْحِف : الذى يسوق المال سوْقا عنيفا فيجحف به أى يهلكه أو يذهب كثيراً من لحمْه ونقْيه[٢] .

والمُلغَب : المُتعب ، واللُّغوب : الإعياء .

وحَدرتُ السفينة وغيرها — بغير ألف أحدُرها بالضم .

---

(١) يقال : جهجه بالسبع : صاح به ، وبالجمل زجره .
(٢) النقى ، بكسر النون وسكون القاف : المخ .

قوله : « بين ناقة وبين فصيلها » الأفصح حذف بين الثانية ؛ لأنّ الاسمين ظاهران، وإنّما تكرّر إذا جاءت بعد المضمر ، كقولك : المال بيني وبين زيدٍ وبين عمرٍو ، وذلك لأنّ المجرور لا يُعطَف عليه إلّا باعادة حرف الجرّ والاسم المضاف ، وقد جاء : المالُ بين زيدٍ وعمرٍو ، وأنشدوا :

بين السّحاب وبين الرّيح ملحَمَةٌ   قعاقِعٌ وظُبًى في الجوّ تخترِط[(١)]

وأيضاً :

بين النّدِيّ وبين برقة ضاحكٍ   غَيْثُ الضّريكِ وفارسٌ مقدامُ[(٢)]

ومن شعر الحماسة :

وإنّ الّذى بيني وبينَ بني أبي   وبين بني عمّي لمختلفٌ جدّا[(٣)]

وليس قولُ من يقول : إنه عطف بينَ الثالثة على الضمير المجرور بأوْلى من قولِ من يقول : بل عَطفَ بينَ الثالثة على بين الثانية ، لأنَّ المعنى يتمّ بكلّ واحد منها .

قوله عليه السلام : « ولا تَمْصُر لبنها » ، المَصر حَلْب مافي الضرع جميعه، نهاه من أن يحلب اللبن كلَّه فيبقى الفَصيلُ جائعا ؛ ثم نهاه أن يُجهِدَها ركوبا ، أي يُتعبها ويُحمِّلها مشَقّة ؛ ثم أمَرَه أن يعدِل بين الركاب في ذلك ، لا يخصّ بالركوب واحدةً بعينها ، ليكون ذلك أرْوَح لهنّ ، ليرفّه على اللاغب، أي ليترُكه وليُعفِه عن الركوب ليستريح.
والرفاهِيَة : الدّعَة والراحة .

والنَّقِب : ذو النَّقب ، وهو رقّة خُفّ البعير حتى تكاد الأرضُ تجرحه : أمَرَه أن يستأني بالبعير ذي النّقبِ ، من الأناة ، وهي المُهلة .

---

(١) الملحمة : الحرب ، والقعاقع : حكاية أصوات الترسة في الحرب . والظبى : جمع ظبة ، وهو حد السيف .
(٢) برقة ضاحك : موضع بعينه .   (٣) ديوان الحماسة ٣٠ : ١٧٢ ، والبيت للمقنع الكندي .

والظالع : الذى ظَلَع ، أى غَمز فى مَشْيه .

والغُدُر : جمع غدير الماء . وجوادّ الطريق : حيث لا ينبّت المرعَى .

والنِّطاف : جمع نطفة ، وهى الماء الصافى القايل .

والبُدّن بالتشديد : السِّمان ، واحدها بادن .

ومُنْقِيات : ذواتُ نِقْى ، وهو المُخّ فى العَظْم ، والشحم فى العَين من السِّمَن،وأَنقَت الإبلُ وغيرُها : سَمنتْ وصار فيها نِقْىٌ ، وناقة مُنْقِيةٌ ، وهذه الناقة لا تُنقِى .

(٢٦)

الأصْـلُ :

ومن عهد له عليه السلام إلى بعض عماله وقد بعثه على الصدقة :

آمُرُهُ بِتَقْوَى ٱللهِ فِي سَرَائِرِ أَمْرِهِ ؛ وَخَفِيَّاتِ عَمَلِهِ ، حَيْثُ لاشاهِدَ غَيْرُهُ ، ولا وَكِيلَ دُونَهُ .

وَآمُرُهُ أَلّا يَعْمَلَ بِشَيْءٍ مِنْ طَاعَةِ ٱللهِ فِيمَا ظَهَرَ فَيُخَالِفَ إِلَى غَيْرِهِ فِيمَا أَسَرَّ ، وَمَنْ لَمْ يَخْتَلِفْ سِرُّهُ وَعَلَانِيَتُهُ ، وَفِعْلُهُ وَمَقَالَتُهُ ، فَقَدْ أَدَّى الأَمَانَةَ ، وَأَخْلَصَ العِبادَةَ .

وَآمُرُهُ أَلّا يَجْبَهَهُمْ ، وَلَا يَعْضَهَهُمْ ، وَلَا يَرْغَبَ عَنْهُمْ تَفَضُّلاً بِالإِمَارَةِ عَلَيْهِمْ فَإِنَّهُمُ ٱلْإِخْوَانُ فِي الدِّينِ ، والأَعْوَانُ عَلَى ٱسْتِخْرَاجِ ٱلْحُقُوقِ .

وَإِنَّ لَكَ فِي هَـذِهِ الصَّـدَقَةِ نَصِيباً مَفْرُوضاً ، وَحَقّاً مَعْلُوماً ، وَشُرَكَاءَ أَهْلَ مَسْكَنَةٍ ، وَضُعَفَاءَ ذَوِي فَاقَةٍ .

وَإِنَّا مُوَفُّوكَ حَقَّكَ ، فَوَفِّهِمْ حُقُوقَهُمْ ، وَإِلَّا تَفْعَلْ فَإِنَّكَ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ خُصُوماً يَوْمَ ٱلْقِيامَةِ . وَبُؤْسَى لِمَنْ خَصْمُهُ عِنْدَ ٱللهِ ٱلْفُقَرَاءُ وَالْمَساكِينُ ، وَالسَّائِلُونَ وَالْمَدْفُوعُونَ ، وَٱلْغارِمُونَ وَٱبْنُ السَّبِيلِ !

وَمَنِ ٱسْتَهانَ بِالأَمَانَةِ ، وَرَتَعَ فِي ٱلْخِيانَةِ ،وَلَمْ يُنَزِّهْ نَفْسَهُ وَدِينَهُ عَنْها ، فَقَدْ أَحَلَّ بِنَفْسِهِ الذُّلَّ وَٱلْخِزْيَ فِي ٱلدُّنيا ، وَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَذَلُّ وَأَخْزَى ؛ وَإِنَّ أَعْظَمَ ٱلْخِيانَةِ خِيانَةُ الأُمَّةِ ، وَأَفْظَعَ ٱلْغِشِّ غِشُّ الأَئِمَّةِ . وَالسَّلَامُ .

* * *

الشرح :

حيث لا شهيد ولا وكيلَ دونَه ، يعنى يومَ القيامة .

قوله : « ألّا يعمل بشىء من طاعة الله فيما ظهر » ، أى لا يُنافق فيعْمَل الطاعة فى الظاهر ، والمعصية فى الباطن .

ثم ذكر أن الذين يتجنّبون النِّفاق والرِّياء هم المُخلِصون .

وألّا يجْبَهم : لا يواجِهُهم بما يَكرهونه ، وأصل الجَبْهِ لقاء الجَبْهة أو ضَرْبُها ، فلمّا كان المواجِه غيرَه بالكلام القبيح كالضّارب جَبهتَه به سُمِّى بذلك جَبْها .

قوله : « ولا يعضِهم » : أى لا يرْمِيهم بالبُهْتان والكَذِب ، وهى العَضِيهة ، وعَضِهتُ فلانا عَضْها ، وقد عَضِهتَ يافلان ، أى جئتَ بالبهتان .

قوله : « ولا يرغب عنهم تفضّلا » ، يقول : لا يحقِرهم ادّعاءً لفضله عليهم ، وتمييزه عنهم بالولاية والإمرة ؛ يقال فلان يرغَب عن القوم ، أى يأنف من الانتماء إليهم ، أو من المخالطة لهم .

وكان عمرُ بن عبد العزيز يدخُل إليه سالم مولى بنى مخروم وعمرُ فى صدر بيته فيتنحّى عن الصَّدْر ، وكان سالم رجلا صالحا ، وكان عمر أراد شراءه وعتقَه ، فأعتَقه مواليه ؛ فكان يسمِّيه : أخى فى الله ؛ فقيل له : أتتنحَّى لسالم ! فقال : إذا دخل عليك من لا ترَى لك عليه فضلا فلا تأخذ عليه شرفَ المجلس . وهمَّ السراج ليلة بأن يخمُد ، فوثَب إليه رجاء بنُ حَيْوة ليُصلِحه ، فأقسم عليه عمرُ بنُ عبد العزيز ، فجلس ، ثم قام عمر فأصلَحه ، فقال له رجاء : أتقوم أنت ياأميرَ المؤمنين ؟ قال : نعم ، قمتُ وأنا عمر بن عبد العزيز ، ورجعتُ وأنا عمرُ بنُ عبد العزيز .

قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : « لا تَرفَعونى فوقَ قَدرى فتقولوا فىّ ماقالت النصارى فى ابن مريم ، فإنّ الله عزّ وجلّ اتّخذنى عبدا قبل أن يتّخذنى رسولا ».

ثم قال : إنّ أربابَ الأموال الّذين تجب الصدقةُ عليهم فى أموالهم إخوانُك فى الدِّين، وأعوانُك على استخراج الحقوق ، لأنّ الحق إنما يمكن العامل استيفاؤه بمعاونة ربِّ المال واعترافه به ، ودفعه إليه ، فإذا كانوا بهذه الصِّفة لم يجُزْ لك عضْهُم وجَبْهُم وادّعاء الفضل عليهم .

ثم ذكر أنّ لهذا العامل نصيبا مفروضا من الصدقة ، وذلك بنصّ الكتاب العزيز؛ فكما نوفِّيك نحن حقّكَ يجب عليك أن توفِّيَ شركاءك حقوقَهم ، وهم الفقراء والمساكين والغارمون وسائرُ الأصناف المذكورة فى القرآن ، وهذا يدلّ على أنّه عليه السلام قدفوّضه فى صرف الصّدَقات إلى الأصناف المعلومة ، ولم يأمرْه بأن يحمل مااجتمع إليه ليوزِّعه هو عليه السلام على مستحقّيه كما فى الوصيّة الأولى، ويجوز للإمام أن يتولّى ذلك بنفسه ، وأن يَكِلَه إلى من يثق به من عمّاله .

وانتصب « أهلَ مَسْكنة » لأنّه صفة « شركاء » ، وفى التّحقيق أنَّ «شركاء» صفةٌ أيضاً موصوفُها محذوف ، فيكون صفةً بعد صفة .

وقال الراوندىّ : انتصب « أهل مسكنة » لأنه بَدَلٌ من « شركاء » ، وهذا غلط، لأنّه لا يُعطى معناه ليكون بدلًا منه .

وقال أيضا : بؤسى ، أى عذابا وشدّة ، فظنّه منوّنا وليس كذلك ، بل هو بُؤْسَى على وزن « فُعلَى » كفُضْلَى ونُعمَى ، وهى لفظة مؤنّثة ؛ يقال : بؤسى لفلان ، قال الشاعر :

أرى الحلم بؤسى للفتى فى حياته ولا عيش إلّا ماحَبَاك به الجهلُ

والسائلون هاهنا هم الرّقاب المذكورون فى الآية ، وهم المكاتَبون يتعذّر عليهم أداء مال الكتابة ، فيسألون الناسَ ليتخلّصوا من ربْقة الرّق . وقيل : هم الأسارَى يطْلبون فكاكَ أنفسهم ، وقيل : بل المراد بالرّقاب فى الآية الرّقيق ، يسأل أن يبتاعه الأغنياء فيُعتِقوه . والمدفوعون هاهنا هم الذين عناهم اللهُ تعالى فى الآية بقوله : ﴿وفى سبيل الله﴾(١) ، وهم فقراء الغُزاة ، سمّاهم مدفوعين لفقرِهمْ . والمدفوع والمدفَّع : الفَقير ، لأن كل أحد يكرَهه ويَدفعه عن نفسه . وقيل : هم الحجيج المنقطَع بهم ، سمّاهم مدفوعين لأنهم دُفِعوا عن إتمام حجّهم ، أو دُفِعوا عن العَوْد إلى أهلهم.

فإن قلتَ : لم حملتَ كلامَ أمير المؤمنين عليه السلام على ما فسّرته به ؟

قلت : لأنّه عليه السلام إنما أراد أن يذكر الأصناف المذكورة فى الآية ، فترك ذكر المؤلّفة قلوبهم لأن سهمهم سقَط بعد موت رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقد كان يُدفَع إليهم حينَ الإسلامُ ضعيف ، وقد أعزّه الله سبحانه ، فاستغنَى عن تأليف قلوب المشركين ، وبقيتْ سبعةُ أصناف ، وهم الفقراء والمساكين والعاملون عليها والرِّقاب والغارمون وفى سبيل الله وابن السبيل .

فأما العاملون عليها فقد ذكرهم عليه السلام فى قوله : « وإنّ لك فى هذه الصدقة نصيبا مفروضا » ، فبقيتْ ستّة أصناف أتى عليه السلام بألفاظ القرآن فى أربعة أصناف منها ، وهى : الفقراء ، والمساكين ، والغارم ، وابنُ السبيل ، وأبدل لفظتين وهما الرّقاب وفى سبيل الله بلفظتين وهما السائلون والمدفوعون .

فإن قلتَ : مايقوله الفقهاء فى الصّدقات ؟ هل تُصرَف إلى الأصناف كلّها أم يجوز صَرفها إلى واحد منها ؟

---

(١) سورة التوبة ٦٠ .

قلت : أما أبو حنيفة فإنه يقول : الآية قصر لجنْس الصّدَقات على الأصناف المعدودة فهى مختصّة بها لا تتجاوزُها إلى غيرها ، كأنه تعالى قال : إنماهى لهم لا لغيرهم ، كقولك : إنما الخلافة لقريش ، فيجوز أن تصرَف الصدقة إلى الأصناف كلها ، ويجوز أن تصرَف إلى بعضها ، وهو مذهب ابن عباس وحذيفة وجماعةٍ من الصحابة والتّابعين . وأما الشافعىّ فلا يرى صرفها إلّا إلى الأصناف المعدودة كلها ، وبه قال الزُّهرىّ وعكرمة .

فإن قلتَ : فمن الغارم وابنُ السبيل ؟

قلت : الغارمون الّذين ركبتْهم الدّيونُ ولا يَملِكون بعدَها مايَبلُغ النِّصاب. وقيل: هم الذين يَحمِلون الحمَالات فدينُوا فيها وغَرِموا ، وابنُ السبيل : المسافر المنقطع عن ماله ، فهو ــ وإن كان غنيّا حيث ماله موجود ــ فقيرٌ حيث هو بعيد .

وقد سبق تفسيرُ الفقير والمسكين فيما تقدّم .

قوله : « فقد أحلّ بنفسه الذّلّ والخِزى » ، أى جعل نفسَه مَحلاً لها ، ويُروَى : « فقد أخلّ بنفسه » بالخاء المعجمة ، ولم يذكر الذلّ والخِزْى أى جعل نفسَه مخلّا ، ومعناه جعل نفسه فقيرا ، يقال : خلّ الرجل : إذا افتقر ، وأخَلَّ به غيرُه ، وبغيره أى جَعَل ، غيرَه فقيرا ، ورُوِى : « أحلّ » بنفسه بالحاء المهملة ، ولم يذكر « الذلّ والخِزى ». ومعنى « أحلّ بنفسه » أباحَ دمَه ، والرواية الأولى أصحّ ، لأنّه قال بعدها : « وهو فى الآخرة أذلُّ وأخزَى » .

وخيانة الأمّة : مصدرٌ مُضاف إلى المفْعول به ، لأنّ الساعىَ إذا خان فقد خان الأمّة كلها ؛ وكذلك غِشّ الأئمة ، مصدرٌ مُضاف إلى المفعول أيضا ؛ لأنّ الساعىَ إذا غَشّ فى الصدقة فقد غَشّ الإمامَ .

* * *

(٢٧)

الأصـل :

ومن عهد له عليه السلام إلى محمد بن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ حين قلده مصر :

فَاخْفِضْ لَهُمْ جَنَاحَكَ ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ ، وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ ، وَآسِ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظْرَةِ ، حَتَّى لَا يَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ لَهُمْ ، وَلَا يَيْأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُسَائِلُكُمْ مَعْشَرَ عِبَادِهِ عَنِ الصَّغِيرَةِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ وَالْكَبِيرَةِ ، وَالظَّاهِرَةِ وَالْمَسْتُورَةِ ، فَإِنْ يُعَذِّبْ فَأَنْتُمْ أَظْلَمُ ؛ وَإِنْ يَعْفُ فَهُوَ أَكْرَمُ .

وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّ الْمُتَّقِينَ ذَهَبُوا بِعَاجِلِ الدُّنْيَا وَآجِلِ الْآخِرَةِ ، فَشَارَكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ ، وَلَمْ يُشَارِكْهُمْ أَهْلُ الدُّنْيَا فِي آخِرَتِهِمْ ؛ سَكَنُوا الدُّنْيَا بِأَفْضَلِ مَا سُكِنَتْ ، وَأَكَلُوهَا بِأَفْضَلِ مَا أُكِلَتْ ، فَحَظُوا مِنَ الدُّنْيَا بِمَا حَظِيَ بِهِ الْمُتْرَفُونَ ، وَأَخَذُوا مِنْهَا مَا أَخَذَهُ الْجَبَابِرَةُ الْمُتَكَبِّرُونَ ؛ ثُمَّ انْقَلَبُوا عَنْهَا بِالزَّادِ الْمُبَلِّغِ ؛ وَالْمَتْجَرِ الرَّابِحِ ؛ أَصَابُوا لَذَّةَ زُهْدِ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ ، وَتَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ جِيرَانُ اللَّهِ غَداً فِي آخِرَتِهِمْ ، لَا تُرَدُّ لَهُمْ دَعْوَةٌ ، وَلَا يَنْقُصُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ لَذَّةٍ .

فَاحْذَرُوا عِبَادَ اللَّهِ الْمَوْتَ وَقُرْبَهُ ، وَأَعِدُّوا لَهُ عُدَّتَهُ ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِي بِأَمْرٍ عَظِيمٍ ، وَخَطْبٍ جَلِيلٍ ؛ بِخَيْرٍ لَا يَكُونُ مَعَهُ شَرٌّ أَبَداً ؛ أَوْ شَرٍّ لَا يَكُونُ مَعَهُ خَيْرٌ أَبَداً ، فَمَنْ أَقْرَبُ إِلَى الْجَنَّةِ مِنْ عَامِلِهَا ! وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَى النَّارِ مِنْ عَامِلِهَا !

وَأَنْتُمْ طُرَدَاءُ الْمَوْتِ ؛ إِنْ أَقَمْتُمْ لَهُ أَخَذَكُمْ ، وَإِنْ فَرَرْتُمْ مِنْهُ أَدْرَكَكُمْ ، وَهُوَ أَلْزَمُ لَكُمْ مِنْ ظِلِّكُمْ . الْمَوْتُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيكُمْ ؛ وَالدُّنْيَا تُطْوَى مِنْ خَلْفِكُمْ .

فَاحْذَرُوا نَاراً قَعْرُهَا بَعِيدٌ ، وَحَرُّهَا شَدِيدٌ ، وَعَذَابُهَا جَدِيدٌ ؛ دَارٌ لَيْسَ فِيهَا رَحْمَةٌ ، وَلَا تُسْمَعُ فِيهَا دَعْوَةٌ ، وَلَا تُفَرَّجُ فِيهَا كُرْبَةٌ .

وَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ يَشْتَدَّ خَوْفُكُمْ مِنَ اللهِ ، وَأَنْ يَحْسُنَ ظَنُّكُمْ بِهِ ، فَاجْمَعُوا بَيْنَهُمَا ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِنَّمَا يَكُونُ حُسْنُ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ عَلَى قَدْرِ خَوْفِهِ مِنْ رَبِّهِ ؛ وَإِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ ظَنًّا بِاللهِ أَشَدُّهُمْ خَوْفاً لِلهِ .

وَاعْلَمْ يَا مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي بَكْرٍ ، أَنِّي قَدْ وَلَّيْتُكَ أَعْظَمَ أَجْنَادِي فِي نَفْسِي أَهْلَ مِصْرَ ، فَأَنْتَ مَحْقُوقٌ أَنْ تُخَالِفَ عَلَى نَفْسِكَ ، وَأَنْ تُنَافِحَ عَنْ دِينِكَ ؛ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ إِلَّا سَاعَةٌ مِنَ الدَّهْرِ ، وَلَا تُسْخِطِ اللهَ بِرِضَا أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ؛ فَإِنَّ فِي اللهِ خَلَفاً مِنْ غَيْرِهِ ، وَلَيْسَ مِنَ اللهِ خَلَفٌ فِي غَيْرِهِ .

صَلِّ الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا الْمُوَقَّتِ لَهَا ، وَلَا تُعَجِّلْ وَقْتَهَا لِفَرَاغٍ ، وَلَا تُؤَخِّرْهَا عَنْ وَقْتِهَا لِاشْتِغَالٍ ، وَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ عَمَلِكَ تَبَعٌ لِصَلَاتِكَ .

***

الشرح :

آسِ بينهم : اجعَلْهم أسوَة ، لا تفضّل بعضهم على بعض فى اللّحظة والنظرة ، ونبّه بذلك على وجوب أن يجعلَهم أسوة فى جميع ماعدا ذلك ، من العطاء والإنعام والتقريب، كقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ ﴾ (١) .

قوله : « حتى لا يطمع العظماء فى حَيْفك لهم » ، الضمير فى « لهم » راجعٌ إلى الرعيّة لا إلى العظماء ، وقد كان سبق ذكرهم فى أوّل الخطبة ، أى إذا سلكتَ هذا المسلكَ لم يَطمع العظماء فى أن تحيف على الرعيّة وتظلمهم وتدفعَ أموالهم إليهم ، فإنّ وُلاة الجور

---

(١) سورة الإسراء ٢٣ .

هكذا يفعلون ، يأخذون مال هذا فيُعطونَه هذا . ويجوز أن يرجع الضمير إلى العظماء ، أى حتى لا يطمَع العظماء فى جَوْرِكَ فى القَسْم الّذى إنما تفعله لهم ولأجلهم ، فإنّ ولاة الجور يَطمَع العظماء فيهم أن يحيفوا فى القسمة فى الفىْء ، ويخالفوا ماحدّه اللهُ تعالى فيها ، حفظا لقلوبهم ، واستمالةً لهم ، وهذا التفسير أليَقُ بالخطابة ؛ لأنّ الضمير فى « عليهم » فى الفقرة الثالثة عائد إلى الضعفاء ؛ فيجب أن يكون الضمير فى « لهم » فى الفقرة الثانيــة عائدا إلى العظماء .

قوله : « فإن يعذب فأنتم أظلم » أفعل هاهنا بمعنى الصّفة ، لا بمعنى التفضيل ، وإنما يراد فأنتم الظالمون ، كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ (١) . وكقولهم : الله أكبر .

ثم ذكر حال الزُّهاد فقال : أخذوا من الدنيا بنصيبٍ قوىّ ، وجعلت لهم الآخرة ؛ ويُرْوَى أنّ الفُضَيل بنَ عياض كان هو ورفيق له فى بعض الصّحارى ، فأكلا كسرةً يابسة ، واغترَفا بأيديهما ماءً من بعض الغُدْران ، وقام الفُضيلُ فحطّ رجليه فى الماء ، فوجد بَرْدَه ، فالتذّ به وبالحال الّتى هو فيها ، فقال لرفيقه : لو علم الملوكُ وأبناءُ الملوكِ مانحن فيه من العيش واللّذة لحَسَدونا .

ورُوِى : « والمتْجَر المربح » ، فالرابح فاعلٌ من ربح رِبحا ، يقال : بيعٌ رابح أى يُرْبَح فيه ، والمُربح : اسم فاعل قد عدّىَ ماضيه بالهمزة ، كقولك : قام وأقمتُه .

قوله : « جيرانُ الله غداً فى آخرتهم » ؛ ظاهر اللفظ غيرُ مراد ، لأنّ البارئَ تعالى ليس فى مكان وجهةٍ ليكونوا جيرانَه ، ولكن لما كان الجار يُكرِم جاره سمّاهم جيران الله ، لإكرامه إيّاهم ، وأيضاً فإن الجنة إذا كانت فى السّماء والعرش هو السماء العليا ، كان فى الكلام محذوف مقدّر ، أى جيرانُ عرش الله غداً .

---

(١) سورة الروم ٢٧ .

قوله : « فإنَّه يأتى بأمرٍ عظيم ، وخطب جليل ، بخيرٍ لا يكون معه شرٌّ أبدا وشرٍّ لا يكون معه خيرٌ أبداً » ، نصٌّ صريح فى مذهب أصحابنا فى الوعيد ، وأنّ من دخل النار من جميع المكلفين فليس بخارج ، لأنّه لو خرج منها لكان الموتُ قد جاءه بشرٍّ معه خير ، وقد نَفى نفياً عامّا أن يكون مع الشرّ المعقب للموت خير ألبتّة .

قوله : « من عاملها » ، أى من العامل لها .

قوله : « طُرَدَاء الموت » ، جمع طَريد ، أى يطردكم عن أوطانكم ويُخرجكم منها ، لا بدّ من ذلك ، إن أقمتم أخَذَكم ، وإن هَرَبتم أدرَكَكم .

وقال الراوندىّ : طُرَداء هاهنا : جمع طريدة وهى ماطردتَ من الصيد أو الوسيقة[1] ، وليس بصحيح ، لأن « فعيلة » بالتأنيث لا تُجمَع على فعلاء . وقال النحويّون : إن قوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾[2] جاء على « خليف » لا على « خليفة » ، وأنشدوا لأوس بن حجَر بيتاً ، استعملها جميعاً فيه ، وهو :

إنّ من القوم مَوجوداً خَليفتــه وما خَليفُ أبى لَيلَى بموجودِ[3]

قوله : « ألزَم لكم من ظِلّكم » ، لأنّ الظلّ لا تصحّ مفارَقته لذى الظّلّ مادام فى الشمس ، وهذا من الأمثال المشهورة .

قولُه : « معقودٌ بنَواصيكم » ، أى ملازِمٌ لكم ، كالشىء المعقود بناصية الإنسان أين ذهب ذهب معه .

وقال الراوندىّ : أى الموت غالبٌ عليكم ، قال تعالى : ﴿ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾[4] ، فإنّ الإنسان إذا أُخذ بناصيته لا يُمكنه الخلاص ، وليس بصحيح، لأنّه لم يقل : « أخذ بنواصيكم » .

قوله : « والدنيا تُطوَى مِن خلفِكم » من كلام بعض الحكماء: الموتُ والناس كسطورٍ

---

(١) الوسيقة : الجماعة من الإبل ، إذا سوقت طردت معاً .
(٢) سورة النمل ٦٢ .
(٣) ديوانه ٢٥ ، وروايته : «وما خليف أبى وهب» .
(٤) سورة الرحمن ٤١ .

فى صحيفة يقرؤها قارئٌ ويَطوى مايقرأ ، فكلّما ظهر سطرٌ خفِيَ سطر .

ثم أمره عليه السلام بأن يَجمَع بين حُسن الظّن بالله وبين الخوف منه ، وهذا مَقامٌ جليل لا يصل إليه إلّا كلُّ ضامرٍ مهزول ، وقد تقدّم كلامُنا فيه . وقال علىّ بنُ الحسنَين عليه السلام : لو أنزل اللهُ عزّ وجلّ كتابا أنّه معذِّب رجلا واحدا لرجوتُ أن أكونه، وأنّه راحمٌ رجلا واحدا لرجوتُ أن أكونَه ، أو أنّه معذِّبى لامحالة ماازددتُ إلّا اجتهادا لئلّا أَرجع إلى نفسى بلائمة .

ثم قال : « ولّيتُك أعظمَ أجنادى » ، يقال للأقاليم والأطراف : أجناد ، تقول : وَلِىَ جُندَ الشام ، ووَلِىَ جند الأُرْدُنّ ، وولى جندَ مِصرَ .

قوله : « فأنت محقوق » ، كقولك حَقِيق وجَدِير وخَلِيق ، قال الشاعر :

وإنى لمحقوقٌ بألّا يَطولَنى نَداهُ إذا طاوَلْته بالقصائدِ

وتُنافِح : تُجالِد ، نافحتُ بالسيف أى خاصمتُ به .

قوله : « ولو لم يكن إلّا ساعة من النهار » ، المراد تأكيد الوَصاة عليه أن يخالِف على نفسه ، وألّا يَتّبع هَواها ، وأن يُخاصِم عن دِينه ، وأن ذلك لازمٌ له ، وواجبٌ عليه ، ويلزم أن يفعله دائما فإن لم يستطع فليَفعلْه ولو ساعة من النهار ، وينبغى أن يكون هذا التقييد مصروفا إلى المنافحة عن الدِّين ، لأن الخصامَ فى الدّين قد يَمنعُه عنه مانع،فأمّاأمرُه إيّاه أن يخالفَ على نفسه فلا يجوز صرفُ التقييد إليه ، لأنّه يُشعِر بأنه مفسوحٌ له أن يتّبِع هَوَى نفسِه فى بعض الحالات ، وذلك غيرُ جائز ، بخلاف المخاصمة والنِّضال عن المعتقَد .

قال : « ولا تُسخِط اللهَ برضاَ أحد من خلقِه ، فإنّ فى الله خَلَفاً من غيرِه ، وليس من الله خَلَفٌ فى غيره » ، أخَذَه الحَسَنُ البصرىُّ فقال لعمَر بنِ هُبَيرة

أميرِ العراق : إنّ الله مانِعُك من يزيدَ ، ولم يَمنعْك يزيدُ من الله — يعنى يزيدَ بن عبد الملك .

ثم أمَرَه بأن يصلّى الصلاةَ لوقتها ؛ أى فى وقتها ، ونهاه أن يحمِلَه الفراغُ من الشّغل على أن يُعجِّلها قبل وقتها ، فإنها تكون غيرَ مقبولة ، أو أن يَحمِله الشّغل على تأخيرها عن وقتها فَيأثم .

ومن كلام هشام بنِ عقبةَ أخى ذى الرُّمة — وكان من عقلاء الرّجال — قال المبرّد فى الكامل : حدّثنى العبّاس بن الفَرَج الرّياشىُّ بإسناده ، قال هشام لرجل أراد سفرا : اعلم أنّ لكل رُفْقة كَلْبا يَشرَكهم فى فضل الزّاد ، ويَهِرّ دونَهم ، فإن قدرتَ ألّا تكون كلبَ الرّفْقة فافْعَل ، وإيّاك وتأخيرَ الصلاة عن وقتها ، فإنّك مُصَلِّيها لامحالةَ ، فصَلِّها وهى تُقبَل منك (٢) .

قولُه : « واعلم أنّ كل شىء من عملك تَبعٌ لصلاتك » ، فيه شَبَهٌ من قول رسول الله صلّى الله عليه وآله : « الصّلاةُ عِماد الإيمان ، ومن ترَكها فقد هَدَم الإيمان». وقال صلى الله عليه وآله : « أوّل مايحاسَبُ به العبدُ صَلاته ، فإن سُهِّل عليه كان مابعدَه أسهَل ، وإن اشتدّ عليه كان مابعدَه أشدّ » .

ومثل قولِه : « ولا تُسخِط اللهَ برضاَ أحد من خلقِه»،مارواه المبرِّد فى " الكامل " عن عائشة قالت : من أرضَى اللهَ بإسخاط الناس كفاه الله مابينه وبين الناس،ومَن أرضَى الناسَ بإسخاط الله وَكَله الله إلى النـاس .

ومثـل هذا مارواه المبرّد أيضا قال : لما وُلِّى الحسنُ بن زيد بن الحسن المدينـة قال لابن هَرْمة : إنّى لستُ كمن باعَ لك دينَه رجاءَ مدحِك ، أو خوفَ ذَمّك،فقدرزقنى (٣)

(١) الكامل : « بإسناد له » .
(٢) الكامل ١ : ٢٦٢ .
(٣) الكامل : قد أفادنى الله بولادة نبيه الممادح » .

الله عزّ وجلّ بولادة نبيّه صلى الله عليه وآله المادِح ، وجنّبنى المَقابح ، وإنّ من حَقِّه علىّ ألّا أُغضِىَ على تقصير فى حقّ الله . وأنا أقسم بالله ، لئن أُتيتَ بك سكرانَ لأضربنّك حدًّا لِلْخَمْر ، وحَدًّا للسُّكْر ، ولأزيدنّ لموضع حُرْمتك بى ، فليكن تركُك لها لله عزّ وجلّ تُعَنْ(١) عليه ، ولا تدعها للنّاس فتوكَل إليهم ، فقال ابن هَرْمة(٢) :

نهانى ابنُ الرسولِ عن المُدامِ ... وأدّبنى بآدابِ الكرامِ
وقال لىَ اصطبرْ عنها ودَعْها ... لخوفِ اللهِ لا خوفِ الأنامِ
وكيف تَصبُّرِى عنها وحُبِّى ... لها حُبٌّ تمكّن فى عِظامِى !
أرَى طِيبَ الحلال علىّ خُبْثا ... وطِيبَ النّفس فى خُبث الحرامِ(٣)

(١) كذا فى ا والكامل ، وفى ب : « تعز » .
(٢) الكامل : « فنهض ابن هرمة وهو يقول » .
(٣) الكامل ١ : ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

الأصْـلُ :

ومن هذا العهد :

فَإنَّهُ لَا سَوَاءٌ ، إمَامُ الْهُـدَى وَإمَامُ الرَّدَى ، وَوَلِيُّ النَّبِيِّ وَعَدُوُّ النَّبِيِّ ؛ وَلَقَدْ قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : إنِّي لَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مُؤْمِناً وَلَا مُشْرِكاً ؛ أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَمْنَعُهُ اللهُ بِإيمَانِهِ ، وَأَمَّا الْمُشْرِكُ فَيَقْمَعُهُ اللهُ بِشِرْكِهِ ، وَلَـكِنِّي أَخَافُ عَلَيْـكُمْ كُلَّ مُنَافِقِ الْجَنَانِ ، عَالِمِ اللِّسَانِ ، يَقُولُ مَا تَعْرِفُونَ ، وَيَفْعَلُ مَا تُنْـكِرُونَ .

***

الشَّـرْح :

الإشارة بإمام الهُدَى إليه نفسه ، وبإمام الرَّدى إلى معاوية ، وسماه إماما ، كما سَمَّى اللهُ تعالى أهلَ الضّلال أئمّة ، فقال : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ (١) ثم وصفه بصفة أخرى وهو أنه عدوّ النبيّ صلّى الله عليه وآله ليس يعني بذلك أنه كان عدوّا أيام حَرْب النبي صلّى الله عليه وآله لقريش ، بل يريد أنه الآن عدوّ النبيّ صلّى الله عليه وآله ، لقوله صلى الله عليه وآله له عليه السلام: «وعدوّك عدوّى، وعدوّى عدوّ الله». وأوّل الخبر: «وليُّك وَلِيّي، ووليّي وَلِيّ الله »، وتمامُه مشهور، ولأنّ دلائلَ النفاق كانت ظاهرة عليه من فَلَتَات لسانه ومن أفعالِه ، وقد قال أصحابنا فى هذا المعنى أشياءَ كثيرة ، فلتُطلَب من كتبهم، خصوصا

---

(١) سورة القصص ٤١ .

من كُتُب شيخنا أبى عبد الله ، ومن كتب الشّيخين أبى جعفر الإسكافىّ ، وأبى القاسم البَلْخىّ ، وقد ذكرْنا بعضَ ذلك فيما تقدّم .

ثم قال عليه السلام : « إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : إنى لا أخاف على أمّتى مؤمنا ولا مُشركا » أى ولامشركا يُظهر الشِّرك ، قال : لأن المؤمن يَمنعه اللهُ بإيمانه أن يُضِلّ الناسَ . والمُشرك مُظهِر الشّرك ، يَقمَعه الله بإظهار شِركه ويَخذُله ، ويَصرِف قلوبَ الناس عن اتّباعه ، لأنّهم يَنفِرون منه لإظهاره كلمةَ الكُفْر ، فلا تطمئنّ قلوبُهم إليه ، ولا تَسكُن نفوسهم إلى مقالته ، ولكنّى أخاف على أمتى المنافقَ الّذى يُسِرُّ الكفر والضلال ، ويُظهِر الإيمانَ والأفعال الصالحة ، ويكون مع ذلك ذا لَسَن وفصاحة ، يقول بلسانه ماتعرفون صوابَه ، ويَفعل سرّا ماتُنكِرونه لو اطلعتم عليه ، وذاك أنّ مَن هذه صِفتُه تَسكُن نفوسُ الناس إليه ؛ لأن الإنسان إنما يحكم بالظاهر فيقلّده الناس؛فيضلّهم ويوقعهم فى المفاسد .

***

[كتاب المعتضد بالله]

ومن الكتب المستحسنة الكتاب الذى كتبه المعتضد بالله أبو العبّاس أحمد بنُ الموفّق أبى أحمد طلحة بن المتوكل على الله فى سنة أربع وثمانين ومائتين ووزيره حينئذ عبيد الله بنُ سليمان ، وأنا أذكره مختصرا من تاريخ أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى .

قال أبو جعفر : وفى[(١)] هذه السنة عَزَم المعتضد على لعن معاوية بن أبى سفيان على المنابر ، وأمر بإنشاء كتاب يقرأ على الناس ، ، فخوّفه عبيدُ الله بنُ سليمان اضطراب العامة،

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٢١٦٤ وما بعدها .

وأنه لا يأمن أن تكون فتنة ، فلم يلتفت إليه . فكان أوّل شيء بدأ به المعتضد من ذلك التقدّم[١] إلى العامة بلزوم أعمالهم ، وترك الاجتماع والعصبية[٢] ، [والشهادات عند السلطان إلا أن يسألوا] [٣] ، ومنع [٤] القُصّاص عن القعود على الطّرُقات ، وأنشأ هذا الكتاب وعملتْ به نُسَخ قرئتْ بالجانبين من مدينة السلام فى الأرباع والمحالّ والأسواق يوم الأربعاء لستٍّ بقين من جمادى الأولى من هذه السنة ، ثم منع يوم الجمعة لأربع بقين منه ، ومنع القصّاص من القعود فى الجانبين ، ومنع أهل الحِلَقِ من القعود فى المسجدين ، ونودى فى المسجد الجامع بنهى الناس عن الاجتماع وغيره وبمنع القُصّاص وأهل الحلق من القُعود ، ونودى: إنّ الذّمة قد برئتْ ممن اجتمع من الناس فى مناظرة أو جدال ، وتَقَدّم إلى الشرّاب الذين يسقون الماء فى الجامعين ألّا يترحّموا على معاوية ، ولا يذكروه [بخير] [٣] ، وكانت عادتهم جاريةً بالترحّم عليه ، وتحدث الناس أنّ الكتابَ الذى قد أمر المعتضدُ بإنشائه بلعن معاوية يقرأ بعد صلاة الجمعة على المنبر ، فلما صلى الناسُ بادروا إلى المقصورة ليسمعوا قراءة الكتاب ، فلم يُقرأ : وقيل : إن عبيد الله بنَ سليمان صرَفه عن قراءته ، وإنه أحضر يوسف بن يعقوب القاضى ، وأمره أن يُعمل الحيلة فى إبطال ماعزم المعتضد عليه ، فمضى يوسف فكلّم المعتضد فى ذلك ، وقال له : إنى أخاف أن تضطرب العامة ، ويكون منها عند سماعها هذا الكتاب حركة ، فقال : إن تحرّكت العامةُ أو نطقتْ وضعتُ السّيفَ فيها . فقال : ياأمير المؤمنين ، فما تصنع بالطالبيِّين الذين يخرجون فى كل ناحية ، ويميل إليهم خلقٌ كثير ، لقربتهم من رسول الله صلى عليه وآله ، وما فى هذا الكتاب من إطرائهم — أو كما قال — وإذا سمع الناس هذا كانوا إليهم أميَل ، وكانوا هم أبسط

---

(١) الطبرى : « الأمر بالتقدم » .
(٢) الطبرى : « القضية » .
(٣) من الطبرى .
(٤) الطبرى : « ويمنع » .

ألسنةً ، وأثبت حجةً منهم اليوم . فأمسك المعتضد فلم يردّ إليه جوابا ، ولم يأمر بعد ذلك فى الكتاب بشىء . وكان من جملة الكتاب بعد أن قدّم حمد الله والثناء عليه والصّلاة على رسوله الله صلى الله عليه وآله :

أما بعد ، فقد انتهى إلى أمير المؤمنين ما عليه جماعةُ العامة من شُبهةٍ قد دخلتهم فى أديانهم ، وفسادٍ قد لحقهم فى معتقدهم ، وعصبيّةٍ قد غلبتْ عليها أهواؤهم ، ونطقت بها ألسنتُهم ، على غير معرفه ولا رويّة ، قد قلّدوا فيها قادة الضلالة بلا بيّنة ولا بصيرة ، وخالفوا السنن المتبعة ، إلى الأهواء المبتدعة ،قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ [1] ﴾ . خروجا عن الجماعة ،ومسارعةً إلى الفتنة ، وإيثاراً للفرقة ، وتشتيتا للكلمة ، وإظهاراً لموالاة من قطع اللهُ عنه الموالاة ، وبَتَر منه العِصْمة ، وأخرجه من المِلّة ، وأوجب عليه اللعنة ، وتعظيما لمن صغر الله حقّه، وأوهن أمرَه ، وأضعف رُكنه ، من بنى أميّة ، الشجرة الملعونة ، ومخالفة لمن استنقذهم الله به من الهلَكة ، وأسبغ عليهم به النعمة من أهل بيت البركة والرحمة ، ﴿ واللهُ يختصُّ برَحْمَتِه مَن يشاء واللهُ ذو الفَضْلِ العظيم ﴾[2] .

فأعظمَ أميرُ المؤمنين ما انتهى إليه من ذلك؛ ورأى[3] ترك إنكاره حرَجا عليه فى الدين، وفسادا لمن قلده الله أمرَه من المسلمين ، وإهمالا لما أوجبه الله عليه من تقويم المخالفين ، وتبصير الجاهلين ، وإقامة الحجّة على الشاكّين ، وبسط اليد على المعاندين [4] ! وأمير المؤمنين يخبركم معاشرَ المسلمين أنّ الله جل ثناؤه لما ابتَعث محمدا صلى الله عليه وسلم بدينه ، وأمره أن يَصدَع بأمره ، بدأ بأهله وعشيرته فدعاهم إلى ربه ،وأنذرَهم وبشّرهم،

---

(١) سورة القصص ٥٠ .
(٢) سورة البقرة ١٠٥ .
(٣) الطبرى : « تَركَ » .
(٤) الطبرى : « العاندين » .

ونصح لهم وأرشدهم ، فكان من استجاب له ،وصدّق قوله ،واتبع أمره نُفَيْرٌ[1] يسير من بنى أبيه ، من بين مؤمن بما أتى به من ربه ، وناصر لكلمته وإن لم يتبع دينه إعزازا له ، وإشفاقا عليه ، فمؤمنهم مجاهد ببصيرته ، وكافرهم مجاهدٌ بنُصْرته وحميّته ، يدْفعونَ من نابذه ، ويقهرون من عازّه وعانده ، ويتوثّقون له ممن كانفه وعاضده ، ويبايعون من سمح بنصرته ، ويتجّسسون أخبار أعدائه ، ويكيدون له بظهر الغيب كما يكيدون له برأى العين ، حتى بلغ المدى ، وحان وقت الاهتدا ، فدخلوا فى دين الله وطاعته وتصديق رسوله والإيمان به بأثبت بصيرة ، وأحسن هدى ورغبة ، فجعلهم الله أهل بيت الرحمة ، وأهل بيت الدين ، أذهب عنهم الرِّجس وطهرّهم تطهيرا . معدن الحكمة ، وورثة النبوّة ، وموضع الخلافة . أوجب الله لهم الفضيلة ، وألزم العباد لهم الطاعة .

وكان ممن عانده وكذّبه وحارَبه من عشيرته العدد الكثير والسواد الأعظم ، يتلقّونه بالضرر والتثريب[2] ، ويقصدونه بالأذى والتخويف ، وينابذونه بالعداوة ، وينصبون له المحاربة ويصدّون من قصده ، وينالون بالتعذيب من اتبعه، وكان أشدّهم فى ذلك عداوة ، وأعظمهم له مخالفه ، أوّلهم فى كلّ حرب ومناصبة ، ورأسهم فى كل إجلاب وفتنة ،لا يرفع على الإسلام راية إلّا كان صاحبها وقائدها ورئيسها ؛ أبا سفيان بن حرب صاحب أُحُد والخندق وغيرها ، وأشياعه من بنى أمية الملعونين فى كتاب الله ، ثم الملعونين على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله فى مواطنَ عدّة ، لسابق علم الله فيهم ، وماضى حُكمِهِ فى أمرهم ، وكفرهم ونفاقهم . فلم يزل لعنه الله يحارب مجاهداً ، ويدافع مكايداً ،ويجلب منابذاً ، حتى قهره السيف ، وعلا أمرُ الله وهم كارهون ، فتعوّذ بالإسلام غير منطوٍ عليه ، وأسرَّ الكفر غير مقلِعٍ عنه ، فقبله وقبل ولدُه على علمٍ منه بحاله وحالهم .ثم أنزل الله

(١) الطبرى : « نفر » .

(١) التثريب : « العتاب واللوم » .

تعالى كتاباً فيما أنزله على رسوله يذكر فيه شأنهم ، وهو قوله تعالى : ﴿والشجرةَ الملعونة في القرآن﴾[1] ، ولا خلاف بين أحد فى أنه تعالى وتبارك أراد بها بنى أميّة .

ومما ورد من ذلك فى السنة ،ورواه ثقات الأمّة ، قول رسول الله صلّى الله عليه وآله فيه وقد رآه مقبلا على حمار ومعاوية يقوده ويزيد يسوقه[2] : « لعن الله الراكب والقائد والسائق » .

ومنه ماروته الرّواة عنه من قوله يوم بيعة عثمان : تلقّفوها يابنى عبد شمس تلقّف الكرة ، فوالله مامن جنة ولا نار ؛ وهذا كُفر صُراح يلحقه اللعنة من الله كما لحقت الّذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عَصَوْا وكانوا يعتدون .

ومنه مايُرْوَى من وقوفه على ثنيَّة أُحُد من بعدِ ذَهاب بصره وقوله لقائده : هاهنا رمَيْنا محمدا وقتلْنا أصحابه .

ومنها الكلمة التى قالها للعباس قبل الفتح وقد عُرضت عليه الجنود : لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما ، فقال له العباس : ويحك ! إنه ليس بملك ، إنها النبوّة .

ومنها قوله يوم الفتح وقد رأى بلالا على ظهر الكعبة يؤذّن ويقول : أشهدأن محمداً رسول الله : لقد أسعد الله عتبة بن ربيعة إذ لم يشهد هذا المشهد .

ومنه الرؤيا التىرآها رسولُ الله صلّى الله عليه وآله فوجَم لها . قالوا : فما رُئىَ بعدها ضاحكا[3] ؛ رأى نفراً من بنى أمية يَنْزُون[4] على منبره نزوة القِرَدَة .

ومنها طرد رسول الله صلى الله عليه وآله الحكَم بن أبى العاص لحا كاته إيّاه فى

---

(١) سورة الإسراء ٦٠ . (٢) الطبرى : « يسوق به » .

(٣) بعدها فى الطبرى: فأنزل الله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّؤْيَا ٱلَّتِى أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ .

(٤) ينزون : يثبون ويعدون .

مِشيته ، وألحقه الله بدعوة رسول الله صلى الله عليه وآله آفةً باقيةً حين التفت إليه فرآه يتخلّج يحكيه ، فقال : « كن كما أنت » ، فبقى على ذلك سائر عمره.

هذا إلى ما كان من مروان ابنه فى افتتاحه أوّل فتنة كانت فى الإسلام ،واحتقابه[1] كلّ حرام سُفِك فيها أو أريق بعدها .

ومنها ماأنزل الله تعالى على نبيّه صلى الله عليه وآله ليلة القدر ، خيرٌ من ألف شهر ! قالوا : ملك بنى أمية .

ومنها أن رسول الله صلى الله عليه وآله دعا معاوية ليكتب بين يديه ، فدافع بأمره واعتلّ بطعامه ؛ فقال صلى الله عليه وآله : « لا أشبع الله بطنه » . فبقى لا يَشبع وهو يقول: والله ما أترك الطعام شبعاً ، ولكن إعياء !

ومنها أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « يطلع من هذا الفجّ رجل من أمتى يُحشَر على غير ملتى » ؛ فطلع معاوية .

ومنها أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « إذا رأيتم معاوية على منبرى فاقتلوه ».

ومنها الحديث المشهور المرفوع أنه صلّى الله عليه وآله قال : « إنّ معاوية فى تابوت من نار ، فى أسفل دَرْك من جهنّم ، ينادِى : ياحنّان يامَنّان . فيقال له : ﴿ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾[2] .

ومنها افتراؤه بالمحاربة لأفضل المسلمين فى الإسلام مَكَانا ، وأقدَمُهم إليه سَبقا ، وأحسنهم فيه أثراً وذِكْرا ، علىّ بن أبى طالب ، ينازعه حقّه بباطله ، ويجاهد أنصاره بضلاله وأعوانه ، ويحاول مالم يزل هو وأبوه يحاولانه ، من إطفاء نور الله، وجحود دينه

---

(١) يقال : احتقب فلان الإثم ؛ إذا ارتكبه .

(٢) سورة يونس ٩١ .

﴿وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾(١) ؛ ويستهوى أهلَ الجهالة ، ويموِّه لأهل الغباوة بمكره وبغيه اللّذَيْن قدَّم رسول الله صلى الله عليه وآله الخبرَ عنهما ، فقال لعمّار بن ياسر : « تقتلُك الفئةُ الباغية » ؛ تدعوهم إلى الجنّة ويدعونك إلى النار ، مؤثرا للعاجلة ، كافراً بالآجلة ؛ خارجا من رِبْقة(٢) الإسلام ، مستحلًّا للدّم الحرام ؛ حتّى سُفِك فى فتنته ، وعلى سبيل غَوايته وضلالته مالا يُحْصَى عَدَدُه من أخيار المسلمين ، الذابِّين عن دين الله والناصرين لحقِّه ، مجاهدا فى عداوة الله ، مجتهدا فى أن يُعصَى الله فلا يُطاع ، وتُبطَل أحكامُه فلا تقام ، ويُخالَف دينُه . فلا بدّ وأن تَعلوَ كلمةُ الضّلال وتَرتفعَ دعوةُ الباطل ، وكلمةُ الله هى العليا ، ودينه المنصور ، وحكمُه النافذ ، وأمرُه الغالبُ وكيدُ مَن عاداه وحادَّه المغلوبُ الداحض ؛ حتى احتَمَل أوزارَ تلك الحروب وما تبعها ، وتطوّق تلك الدِّماء وما سُفِك بعدَها ، وسَنّ سُنَن الفساد الّتى عليه إثمها وإثمُ مَن عَمِل بها ، وأباحَ المحارمَ لمن ارتكبها ، ومَنع الحقوق أهلها ، وغرّته الآمال ، واستَدْرجه الإمهال.

وكان ممَّا أوجَب الله عليه به اللّعنة قَتْلُه من قَتلَ صبْراً(٣) من خيار الصَّحابة والتابعين ، وأهلِ الفَضْل والدِّين ، مثل عَمْرو بنِ الحَمِق الخزاعىّ وحُجْر بن عدِيّ الكِنْدىّ ، فيمن قتل من أمثالهم ، على أن تكون له العزّة والملك والغَلَبة ، ثم ادّعاؤه زياد ابن سُمَيّة أخا ، ونسبتُه إيّاه إلى أبيه ، والله تعالى يقول : ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ﴾(٤) ، ورسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « ملعونٌ من ادّعى إلى غير أبيه ، أو انتمى إلى غير مَواليه » . وقال : « الولد للفراش وللعاهِرِ الحجَرَ » ، فخالَفَ حكم الله تعالى ورسولِه جهاراً ، وجَعلَ الولدَ لغير الفِراش والحجرَ لغير العاهر ، فأحَلَّ بهذه الدعوة من محارم الله ورسولِه فى أمِّ حَبيبة أمِّ المؤمنين وفى غيرها من النساء من شعور ووجوه قد

(١) سورة التوبة ٣٢ .
(٢) الربقة : الواحدة من العرى التى فى الحبل .
(٣) صبرا ، أى حبساً .
(٤) سورة الأحزاب ٥ .

حرّمها الله وأثبت بها من قُربى قد أبعدَها الله ، مالم يدخل الدِّين خللٌ مثله ، ولم ينَل الإسلامَ تبديلٌ يشبهه .

ومن ذلك إيثارُه لخلافة الله على عباده ابنه يزيد السِّكِّير الخمِّير صاحب الدِّيَكة والفهُود والقِرَدة ، وأخذ البَيْعة له على خيار المسلمين بالقَهْر والسَّطْوة والتوعُّد والإخافة ، والتهديد والرَّهْبة ، وهو يعلم سَفَهه ،ويطّلع على رَهَقِه وخبْثِه ؛ ويُعاين سَكراته وفعَلاتِه ، وفجوره وكفره . فلمَّا تمكَّن ـ قاتَلَه الله ـ فيما تمكَّن منه ، طَلَب بثارات المشركين وطوائلهم عند المسلمين ، فأوقع بأهل المدينة فى وقعة الحرَّة الوَقْعة الَّتى لم يكن فى الإسلام أشنعُ منها ولا أفحشُ ، فشَفَى عند نفسِه غليله ؛ وظَنَّ أنه قد انتَقَم من أولياءِ الله، وبلغ الثأر لأعداءِ الله ؛ فقال مجاهرا بكفره ، ومظهراً لشِرْكه :

ليتَ أشياخى ببَدْرٍ شَهِدوا جَزَعَ الخزْرج من وقْعِ الأسَلْ[1]

قولُ[2] من لا يَرجع إلى الله ولا إلى دينِه ولا إلى رسوله ولا إلى كتابه ، ولا يؤمن بالله وبما جاء من عنده .

ثم أغلظُ ماانتهَك ، وأعظمُ ماجترم ، سفْكُه دمَ الحسين بن علىّ عليه السلام ، مع مَوْقعه من رسول الله صلّى الله عليه وسلم ومكانه ومنزلته من الدِّين والفَضْل والشهادة له ولأخيه بسيادة شبابِ أهلِ الجنّة ؛ اجتراءً على الله ، وكفراً بدينه ، وعداوةً لرسوله ، ومجاهرةً لعترته ، واستهانةً لحرمته ، كأنّما يقتلُ منه ومن أهل بيته قوماً من كَفَرة التُّرْك

(١) لعبد الله بن الزبعرى ؛ من كلمته يوم أحد ؛ سيرة ابن هشام ٣ : ٩٦ وبعده فى الطبرى :

قَدْ قَتَلْنَا القَوْمَ مِنْ سَادَاتِكُمْ وَعَدَلْنَا مَيْلَ بَدْرٍ فَاعْتَدَلْ
فأهَلُّوا واسْتَهَلُّوا فرحاً ثمَّ قالوا يايَزِيدُ لَا تسَلْ
لَسْتُ مِنْ خِنْدِفَ إنْ لم أَنْتَقِمْ من بنى أحْمَدَ ماكانَ فَعَلْ
لعبَتْ هَاشِمٍ بالملكِ فَلَا خَبَرٌ جاءَ وَلَا وَحْىٌ نَزَلْ

(٢) الطبرى : هذا هو المروق من الدين وقول من لا يرجع . . . » .

والدَّيْلم ، ولا يخاف من الله نقمة ،ولا يُراقب منه سَطْوة ، فتَبَر اللهُ عمرَه ، أخبثَ أصله وفرعَه ، وسلَبَه ماتحتَ يدِه ، وأعدَّ له من عذابه وعقوبته ، ما استحقّه من الله بمعصيته.

هذا إلى ما كان من بنى مَرْوانَ من تبديل كتاب الله ، وتعطيل أحكام الله ، واتّخاذِ مالِ الله بينهمْ دُوَلا ، وهدْمِ بيت الله ، واستحلالهم حَرَمه ، ونَصْبهم المجانيقَ عليه ، ورَمْيِهم بالنّيران إيّاه ، لا يألُون له إحرافا وإخرابا ، ولِما حَرّم اللهُ منه استباحة وانتهاكا ، ولمن لجأ إليه قَتْلا وتَنْكيلا ، ولمن أمّنه اللهُ به إخفاقةً وتَشريدا ؛حتّى إذا حَقّت عليهم كلمةُ العذاب ، واستَحَقّوا من اللهِ الانتقام ، وملئوا الأرض بالجَور والعُدْوان ، وعَمُّوا عباد بلادِ الله بالظُّلْم والاقتسار ، وحلّت عليهم السَّخْطة ، ونزلت بهمْ من الله السَّطوة ، أتاح الله لهم من عِترةِ نبيِّه وأهلِ وراثته ، ومن استخلصَه منهم لخلافته ، مِثلَ ماأتاح من أسلافهم المؤمنين ، وآبائهم المجاهدين ، لأوائلهم الكافرين ، فسَفَك اللهُ به دماءهم ودماء آبائهم مرتدِّين ، كما سَفَك بآبائهم مُشركين ، وقطع الله دَابرَ الذّين ظلموا والحمدُ لله ربّ العالمين .

أيّها الناس، إن الله إنما أمَر ليطاع ، ومَثّل ليُتَمثّل ، وحَكم ليفْعَل، قال اللهسبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً ﴾[1]، وقال: ﴿ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ ﴾[2].

فالعنوا أيّها الناس مَن لَعَنه الله ورسوله ، وفارِقوا من لاتنَالون القربةَ من الله إلّا بمفارقته ؛ اللهمّ العنْ أبا سُفْيان بن حرب بن أميَّة ، ومعاوية بن أبى سفيان ، ويزيد بن معاوية ، ومروان بن الحكم ، وولده وولدولده ! اللهمّ العنْ أئمة الكفر، وقادةَ الضّلال، وأعداءَ الدّين ، ومُجاهدِى الرّسول ، ومعطِّلى الأحكام ، ومبدِّلى الكتاب ، ومنتهكى الدَّمِ الحرام ! اللهمّ إنّا نبرأ إليك من مُوالاة أعدائك ، ومن الإغماض لأهل معصيتك،

---

(١) سورة الأحزاب ٦٤ .　(٢) سورة البقرة ١٥٩ .

كما قلت : ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ ورَسُولَه﴾(١).

أيّها الناس، اعرفوا الحقّ تَعرِفوا أهله ، وتأمّلوا سُبل الضّلالة تعرفوا سابِلَها ، فقفوا عندما وَقَفكم الله عليه ، وانفُذوا كما أَمَركم الله به ، وأميرُ المؤمنين يستَعصم بالله لكم، ويسألُه توفيقكم ، ويرغَب إليه فى هدايتكم . والله حسبُه ، وعليه توكُّلُه، ولا قوّة إلّا بالله العلىّ العظيم(٢).

* * *

قلت : هكذا ذكر الطّبرىّ الكتاب ،وعندى أنّه الُخطبة، لأن كلّ مايُخطَب به فهو خُطبة ،وليس بكتاب، والكتاب مايُكتب إلى عامل أو أمير ونحوهما، وقد يقرأ الكتابُ على المنبر فيكون كالُخطبة ، ولكن ليس بخطبة ، ولكنّه كتابٌ قرئ على الناس . ولعلّ هذا الكلامَ كان قد أُنشىء ليكون كتابًا، ويُكتَب به إلى الآفاق ، ويُؤمَروا بقراءته على الناس، وذلك بعد قراءته على أهل بغداد . والذى يؤكِّد كونه كتابًا ،وينصر ماقاله الطبرىّ ،أن فى آخره : « كتَب عُبيدُ الله بنُ سليمان فى سنة أربع وثمانين ومائتين»، وهذا لايكون فى الُخطب ، بل فى الكتب ، ولكنّ الطبرىّ لم يذكر أنّه أمر بأن يكتب إلى الآفاق ولا قال : وقع العزْم على ذلك ، ولم يذكر إلّا وقوع العزْم على أن يقرأ فى الجوامع ببغداد .

---

(١) سورة المجادلة ٢٢ .
(٢) الطبرى حوادث سنة ٢٨٤ بتصرف واختصار .

(٢٨)

الأصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية جوابا ، وهو من محاسن الكتب :

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ أَتَانِي كِتَابُكَ تَذْكُرُ فِيهِ ٱصْطِفَاءَ ٱللهِ مُحَمَّداً صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِدِينِهِ ، وَتَأْيِيدَهُ إِيَّاهُ لِمَنْ أَيَّدَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ ؛ فَلَقَدْ خَبَأَ لَنَا الدَّهْرُ مِنْكَ عَجَباً ؛ إِذْ طَفِقْتَ تُخْبِرُنَا بِبَلَاءِ ٱللهِ تَعَالَى عِنْدَنَا ، وَنِعْمَتِهِ عَلَيْنَا فِي نَبِيِّنَا ، فَكُنْتَ فِي ذَلِكَ كَنَاقِلِ التَّمْرِ إِلَى هَجَرَ ، أَوْ دَاعِي مُسَدِّدِهِ إِلَى النِّضَالِ .

وَزَعَمْتَ أَنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ فِي ٱلْإِسْلَامِ فُلَانٌ وَفُلَانٌ ؛ فَذَكَرْتَ أَمْراً إِنْ تَمَّ ٱعْتَزَلَكَ كُلُّهُ ، وَإِنْ نَقَصَ لَمْ يَلْحَقْكَ ثَلْمُهُ . وَمَا أَنْتَ وَٱلْفَاضِلَ وَٱلْمَفْضُولَ، وَالسَّائِسَ وَٱلْمَسُوسَ ! وَمَا لِلطُّلَقَاءِ وَأَبْنَاءِ الطُّلَقَاءِ وَالتَّمْيِيزَ بَيْنَ ٱلْمُهَاجِرِينَ ٱلْأَوَّلِينَ ، وَتَرْتِيبَ دَرَجَاتِهِمْ ، وَتَعْرِيفَ طَبَقَاتِهِمْ ! هَيْهَاتَ ، لَقَدْ حَنَّ قِدْحٌ لَيْسَ مِنْهَا ، وَطَفِقَ يَحْكُمُ فِيهَا مَنْ عَلَيْهِ ٱلْحُكْمُ لَهَا !

أَلَا تَرْبَعُ أَيُّهَا ٱلْإِنْسَانُ عَلَى ظَلْعِكَ ، وَتَعْرِفُ قُصُورَ ذَرْعِكَ ، وَتَتَأَخَّرُ حَيْثُ أَخَّرَكَ ٱلْقَدَرُ ! فَمَا عَلَيْكَ غَلَبَةُ ٱلْمَغْلُوبِ ، وَلَا ظَفَرُ الظَّافِرِ ؛ فَإِنَّكَ لَذَهَّابٌ فِي التِّيهِ ، رَوَّاغٌ عَنِ ٱلْقَصْدِ .

أَلَا تَرَى ـ غَيْرَ مُخْبِرٍ لَكَ ؛ وَلَكِنْ بِنِعْمَةِ ٱللهِ أُحَدِّثُ ـ أَنَّ قَوْماً ٱسْتُشْهِدُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ تَعَالَى مِنَ ٱلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَلِكُلٍّ فَضْلٌ ، حَتَّى إِذَا ٱسْتُشْهِدَ شَهِيدُنَا قِيلَ : سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ ، وَخَصَّهُ رَسُولُ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِسَبْعِينَ تَكْبِيرَةً عِنْدَ صَلَاتِهِ عَلَيْهِ !

أَوَ لَا تَرَى أَنَّ قَوْماً قُطِّعَتْ أَيْدِيهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ وَلِكُلٍّ فَضْلٌ ، حَتَّى إِذَا فُعِلَ بِوَاحِدِنَا مَا فُعِلَ بِوَاحِدِهِمْ ، قِيلَ : الطَّيَّارُ فِي ٱلْجَنَّةِ وَذُو ٱلْجَنَاحَيْنِ !

وَلَوْلَا مَا نَهَى ٱللهُ عَنْهُ مِنْ تَزْكِيَةِ ٱلْمَرْءِ نَفْسَهُ ، لَذَكَرَ ذَاكِرٌ فَضَائِلَ جَمَّةً ، تَعْرِفُهَا قُلُوبُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا تَمُجُّهَا آذَانُ السَّامِعِينَ .

فَدَعْ عَنْكَ مَنْ مَالَتْ بِهِ الرَّمِيَّةُ ، فَإِنَّا صَنَائِعُ رَبِّنَا ، وَالنَّاسُ بَعْدُ صَنَائِعُ لَنَا ، لَمْ يَمْنَعْنَا قَدِيمُ عِزِّنَا ، وَلَا عَادِيُّ طَوْلِنَا عَلَى قَوْمِكَ أَنْ خَلَطْنَاكُمْ بِأَنْفُسِنَا ؛ فَنَكَحْنَا وَأَنْكَحْنَا ؛ فِعْلَ الأَكْفَاءِ وَلَسْتُمْ هُنَاكَ . وَأَنَّى يَكُونُ ذَلِكَ كَذَلِكَ وَمِنَّا النَّبِيُّ وَمِنْكُمُ ٱلْمُكَذِّبُ ، وَمِنَّا أَسَدُ ٱللهِ وَمِنْكُمْ أَسَدُ الأَحْلَافِ ، وَمِنَّا سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ ٱلْجَنَّةِ وَمِنْكُمْ صِبْيَةُ النَّارِ ، وَمِنَّا خَيْرُ نِسَاءِ ٱلْعَالَمِينَ ، وَمِنْكُمْ حَمَّالَةُ ٱلْحَطَبِ ؛ فِي كَثِيرٍ مِمَّا لَنَا وَعَلَيْكُمْ !

فَإِسْلَامُنَا مَا قَدْ سُمِعَ ، وَجَاهِلِيَّتُنَا لَا تُدْفَعُ ، وَكِتَابُ ٱللهِ يَجْمَعُ لَنَا مَا شَذَّ عَنَّا ، وَهُوَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ ٱللهِ ﴾(١)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱللهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) ، فَنَحْنُ مَرَّةً أَوْلَى بِالْقَرَابَةِ ، وَتَارَةً أَوْلَى بِالطَّاعَةِ .

وَلَمَّا ٱحْتَجَّ ٱلْمُهَاجِرُونَ عَلَى ٱلأَنْصَارِ يَوْمَ ٱلسَّقِيفَةِ بِرَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَلَجُوا عَلَيْهِمْ ، فَإِنْ يَكُنِ ٱلْفَلَجُ بِهِ فَٱلْحَقُّ لَنَا دُونَكُمْ ، وَإِنْ يَكُنْ بِغَيْرِهِ فَٱلأَنْصَارُ عَلَى دَعْوَاهُمْ .

وَزَعَمْتَ أَنِّي لِكُلِّ ٱلْخُلَفَاءِ حَسَدْتُ ، وَعَلَى كُلِّهِمْ بَغَيْتُ ، فَإِنْ يَكُنْ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَلَيْسَتِ ٱلْجِنَايَةُ عَلَيْكَ ، فَيَكُونَ ٱلْعُذْرُ إِلَيْكَ .

---

(١) سورة الأنفال ٧٥ .

(٢) سورة آل عمران ٦٨ .

* وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْكَ عَارُهَا *

وَقُلْتَ : إِنِّي كُنْتُ أُقَادُ كَمَا يُقَادُ الْجَمَلُ الْمَخْشُوشُ حَتَّى أُبَايِعَ ؛ وَلَعَمْرُ اللهِ لَقَدْ أَرَدْتَ أَنْ تَذُمَّ فَمَدَحْتَ ؛ وَأَنْ تَفْضَحَ فَافْتَضَحْتَ ! وَمَا عَلَى الْمُسْلِمِ مِنْ غَضَاضَةٍ فِي أَنْ يَكُونَ مَظْلُوماً مَالَمْ يَكُنْ شَاكّاً فِي دِينِهِ ، وَلَا مُرْتَاباً بِيَقِينِهِ !

وَهَـذِهِ حُجَّتِي إِلَى غَيْرِكَ قَصْدُهَا ، وَلَـكِنِّي أَطْلَقْتُ لَكَ مِنْهَا بِقَدْرِ مَاسَنَحَ مِنْ ذِكْرِهَا .

ثُمَّ ذَكَرْتَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِي وَأَمْرِ عُثْمَانَ ، فَلَكَ أَنْ تُجَابَ عَنْ هَـذِهِ لِرَحِمِكَ مِنْهُ ؛ فَأَيُّنَا كَانَ أَعْـدَى لَهُ ، وَأَهْـدَى إِلَى مَقَاتِلِهِ ! أَمَنْ بَذَلَ لَهُ نُصْرَتَهُ فَاسْتَقْعَدَهُ وَاسْتَكَفَّهُ ، أَمَّنِ اسْتَنْصَرَهُ فَتَرَاخَى عَنْهُ وَبَثَّ الْمَنُونَ إِلَيْهِ ؛ حَتَّى أَتَى قَدَرُهُ عَلَيْهِ ! كَلَّا وَاللهِ لَقَدْ ﴿ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (١) .

وَمَا كُنْتُ لِأَعْتَذِرَ مِنْ أَنِّي كُنْتُ أَنْقِمُ عَلَيْهِ أَحْدَاثاً ؛ فَإِنْ كَانَ الذَّنْبُ إِلَيْهِ إِرْشَادِي وَهِدَايَتِي لَهُ ؛ فَرُبَّ مَلُومٍ لَا ذَنْبَ لَهُ .

* وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الظِّنَّةَ الْمُتَنَصِّحُ *

وَمَا أَرَدْتُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ .

وَذَكَرْتَ أَنَّهُ لَيْسَ لِي وَلِأَصْحَابِي عِنْدَكَ إِلَّا السَّيْفُ ، فَلَقَدْ أَضْحَكْتَ بَعْدَ اسْتِعْبَارٍ ! مَتَى أَلْفَيْتَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَنِ الْأَعْدَاءِ نَاكِلِينَ ، وَبِالسَّيْفِ مُخَوَّفِينَ ، ف

---

(١) سورة الأحزاب : ١٨ .

* لَبِّثْ قَلِيلاً يَلْحَقِ الْهَيْجَا حَمَلْ *

فَسَيَطْلُبُكَ مَنْ تَطْلُبُ ، وَيَقْرُبُ مِنْكَ مَا تَسْتَبْعِدُ ، وَأَنَا مُرْقِلٌ نَحْوَكَ فِي جَحْفَلٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ ، شَدِيدٍ زِحَامُهُمْ ، سَاطِعٍ قَتَامُهُمْ ، مُتَسَرْبِلِينَ سَرَابِيلَ الْمَوْتِ ؛ أَحَبُّ اللِّقَاءِ إِلَيْهِمْ لِقَاءُ رَبِّهِمْ ، وَقَدْ صَحِبَتْهُمْ ذُرِّيَّةٌ بَدْرِيَّةٌ ، وَسُيُوفٌ هَاشِمِيَّةٌ ، قَدْ عَرَفْتَ مَوَاقِعَ نِصَالِهَا فِي أَخِيكَ وَخَالِكَ وَجَدِّكَ وَأَهْلِكَ ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ (١) .

* * *

الشرح :

[كتاب لمعاوية إلى عليّ]

سألتُ النقيبَ أبا جعفر يحيى بن أبي زيد ؛ فقلتُ : أرَى هذا الجوابَ مُنطبقا على كتابِ معاوية الذى بعثه مع أبى مُسلِم الخوْلانىّ إلى علىّ عليه السلام ؛ فإن كان هذا هو الجواب فالجواب الّذى ذكَره أرباب السِّيرة وأورَدَه نصرُ بنُ مُزاحم فى كتاب صِفّين إذن غير صحيح ، وإن كان ذلك الجواب ، فهذا الجواب إذنْ غيرُ صحيح ولا ثابت ، فقال لى : بل كلاهما ثابت مرْوىّ ، وكلاهما كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام وألفاظُه ، ثم أمرَنى أن أكتب ماعليه علىّ عليه السلام ، فكتبته ، قال رحمه الله :

كان معاويةُ يتسقّط (٢) عليّا وينَعَى عليه ماعساه يَذكُره من حالِ أبى بكر وعمر ، وأنهما غَصَباه حقَّه ، ولا يزال يكيدُه بالكتاب يكتبُه ، والرّسالة يَبعثُها يطلب غِرّته ؛ ليَنْفُث بما فى صَدْرِه من حالِ أبى بكر وعمر ، إمّا مكاتبةً أو مُراسَلة ، فيَجعل ذلك حجّةً

---

(١) سورة هود ٨٣ .

(٢) يتسقطه : يتنقصه .

عليه عند أهل الشام ، ويضيفه إلى ماقرّره فى أنفسهم من ذُنوبه كما زعم ،فقد كان غَمَصه[١] عندهم بأنَّه قتل عثمانَ ومالأَ على قتله ، وأنه قتل طلحةَ والزّبير ،وأسَرَ عائشة ،وأراق دماءَ أهلِ البَصْرة . وبقيتْ خَصلةٌ واحدة ، وهو أن يثبت عندهم أنه يتبرّأ من أبى بكر وعمر، ويَنسُبهما إلى الظُّلم ومخالفةِ الرّسول فى أمر الخلافة ، وأنهماوَثَباعليهاغَلَبةً ،وغَصَباه إيّاها؛ فكانت هذه الطامّة الكبرى ليست مقتصرةً عَلَى فساد أهل الشام عليه،بل وأهلِ العراق الّذين هم جُندُه وبطانتُه وأنصارُه ؛ لأنهم كانوا يعتقدون إمامةَ الشَّيخَين؛ إلّا القليل الشاذّ من خواصّ الشِّيعة ، فلما كَتَب ذلك الكتابَ مع أبى مسلم الخَوْلانىّ قصد أن يُغضِب عليًّا ويُحرِجَه ويحْوِجَه إذا قرأ ذكر أبى بكر، وأنه أفضل المسلمين ، إلى أن يَخلط خطه فى الجواب بكلمةٍ تقتضى طَعْنا فى أبى بكر، فكان الجواب مُجَمْجَما[٢] غيرَ بيّن ، ليس فيه تصريح بالتّظليم لهما ، ولا التّصريح ببراءتهما ، وتارةً يترحّم عليهما ، وتارةً يقول : أخَذَا حقّى وقد تركتُه لهما ، فأشار عَمرو بنُ العاص عَلَى معاوية أن يكتب كتابا ثانيا مناسبا للكتاب الأوّل ليستفزّ فيه عليًّا عليه السلام ويستخِفّاه ، ويَحمِله الغَضَب منه أن يكتب كلاما يتعلّقان به فى تقبيح حالِه وتَهْجين مذهبه . وقال له عمرو : إنّ عليًّا عليه السلام رجل نَزِق تيّاه ، وما استطعَمت منه الكلامَ بمثل تقريظ أبى بكر وعمر ، فا كتب . فكتب كتابا أنفذه إليه مع أبى أُمامة الباهلىّ ، وهو من الصحابة ، بعد أن عزم على بعثته مع أبى الدَّرْداء .

ونسخةُ الكتاب : مِن عبدِ الله معاوية بن أبى سُفْيان إلى علىّ بن أبى طالب .

أما بعد ، فإنّ الله تعالى جَدُّه اصطفَى محمدا عليه السلام لرسالته ، واختصّه بوَحيه وتأديةِ شَريعته ، فأنقذ به من العَماية ، وهَدَى به من الغَواية ، ثم قبضه إليه رشيدا حميدا، قد بَلَّغ الشَّرع ، ومَحَقَ الشِّرْك ، وأخْمَدَ نار الإفْك،فأحسن الله جزاءه،وضاعَفَ عليه نِعمَه وآلاءه . ثم إنّ الله سبحانه اختصّ محمدا عليه السلام بأصحابٍ أيّدوه وآزروه ونصروه

---

(١) غمصه : اتهمه .

(٢) مجمجما : غير واضح .

وكانوا كما قال الله سبحانه لهم : ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾[1]؛ فكان أفضلهم مرتبة ، وأعلاهم عند الله والمسلمين منزلة ؛ الخليفة الأوّل ، الّذى جمع الكلمة، ولمّ الدّعوة، وقاتل أهلَ الرِّدّة ، ثم الخليفة الثانى الّذى فتح الفتوح ، ومصّر الأمصار وأذلّ رقابَ المشركين . ثم الخليفة الثالث المظلوم. الّذى نشر الملّة ، وطبّق الآفاق بالكلمة الحنيفيّة .

فلما اُسْتَوْثَقَ الإسلام وضرب بجرانه عدوتَ عليه فبَغَيْتَه الغوائل، ونصبتَ له المكايد، وضربتَ له بطنَ الأمْر وظهرَه ، ودسَسْتَ عليه ، وأغريْتَ به ، وقعدتَ حيثُ استنصرَك عن نصره ، وسألك أن تُدرِكه قبل أن يمزّق فما أدركته ، وما يومُ المسلمين منك بواحد !

لقد حسدتَ أبا بكر والتويْتَ عليه ، ورُمْت إفسادَ أمره ، وقعدتَ فى بَيْتِك ، واستَغْوَيْت عِصابةً من الناس حتّى تأخّروا عن بَيْعته ، ثم كرهتَ خلافةَ عمرَ وحَسَدْته واستطَلْتَ مُدّته ، وسُررتَ بقَتْله ، وأظهرتَ الشّماتة بمُصابه ؛ حتى إنّك حاولتَ قتلَ ولده لأنّه قتَل قاتلَ أبيه ، ثم لم تكن أشدَّ منك حَسدا لابن عمّك عثمان ؛ نشرت مَقابحَه ، وطوَيتَ محاسِنه ، وطعنتَ فى فِقهه ، ثم فى دِينه ، ثم فى سيرته ، ثم فى عَقْله؛ وأغرَيْتَ به السفهاءَ من أصحابك وشِيعتك ، حتّى قتلوه بمَحضَر منك ، لا تدفع عنه بلسان ولا يدٍ؛ وما من هؤلاء إلا مَنْ بغَيتَ عليه ، وتلكّأتَ فى بيْعته ؛ حتّى حُملتَ إليه قَهْراً ، تُساقُ بخزائم الاقْتسار كما يُساقُ الفحل المخشوش ، ثم نهضتَ الآن تطلب الخلافة ، وقتلةُ عثمانَ خلصاؤك وسُجراؤك والمحدِقون بك ، وتلك من أمانىّ النّفوس ، وضلالاتِ الأهواء .

فدَعِ اللّجاجَ والعبث جانبا ، وادفع إلينا قَتَلَة عثمان، وأعِدّ الأمرَ شُورَى بين المسلمين ليتّفِقوا على مَنْ هو لِله رِضاً . فلا بيعةَ لك فى أعناقنا ، ولا طاعةَ لك علينا، ولا عُتبَى لك

---

(١) سورة الفتح ٢٩ .

عندنا ، وليس لك ولأصحابك عندى إلّا السّيف. والّذى لا إله إلّا هو لأطْلُبنّ قَتَلَةَ عثمانَ أين كانوا ، وحيث كانوا ؛ حتّى أقتُلهم أو تَلتحِقَ رُوحى بالله .

فأمّا مالا تزال تمنّ به من سابِقَتِك وجهادك فإنّى وجــدتُ الله سبحانه يقول : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾(١) . ولو نظرتَ فى حالِ نفسك لوجــدتَها أشدّ الأنفس امتنانا على الله بعَمَلها ؛ وإذا كان الامتنان على السائل يُبطِل أجرَ الصدقة ، فالامتنان على الله يُبطِل أجر الجهاد ، ويجعله ﴿ كَصَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾(٢) .

* * *

قال النّقيب أبو جعفر : فلما وصل هذا الكتابُ إلى علىّ عليه السلام مع أبى أُمامة الباهِلىّ ، كلّمَ أبا أُمامة بنحوٍ ممّا كلّمَ به أبا مُسلم الخَوْلانىّ ، وكتب معه هذا الجواب .

قال النقيب : وفى كتابِ معاويةَ هذا ذِكرُ لفظ الجمل المخشوش أو الفَحْل المخشوش ، لا فى الكتاب الواصل مع أبى مسلم ، وليس فى ذلك هذه اللّفظة ، وإنّما فيه : « حسدتَ الخلفاءَ وبَغيتَ عليهم ، عرَفْنا ذلك من نظرِك الشَّزْر(٣) ، وقولك الهُجْر(٤) وتنفُّسك الصُّعَداء ، وإبطائك عن الخُلَفاء » .

قال : وإنما كثيرٌ من الناس لا يَعرفون الكتابين ؛ والمشهور عندهم كتابُ أبى مسلم فيَجعلون هــذه اللّفظةَ فيه ، والصحيح أنّها فى كتاب أبى أُمامة ، ألا تراها عادت

(١) سورة الحجرات ١٧ .
(٢) سورة البقرة ٢٦٤ .
(٣) يقال : شزره وإليه : نظر إليه بأحد شقيه ؛ أو هو نظر فيه إعراض .
(٤) الهجر (بضم فسكون) : القبيح من الكلام .

فى جوابه ولو كانت فى كتاب أبى مسلم لعادتْ فى جوابه !

انتهى كلامُ النّقيب أبى جعفر .

* * *

ونحن الآن مبتدئون فى شرح ألفاظ الجواب المذكور .

قولُه : « فلقد خَبَأ لنا الدهرُ منك عجبا » ، موضعُ التعجُّب أنّ معاويةَ يُخبِر عليًّا عليه السلام باصطفاء الله تعالى محمدا وتشريفه له ، وتأييده له ؛ وهذا ظريف لأنّه يجرى كإخبار زيدٍ عمرا عن حالِ عمرٍو ، إذ كان النبيُّ صلّى الله عليه وآله وعليٌّ عليه السلام كالشىء الواحد . وخبأ مهموز ، والمصدرُ الخَبْء ، ومنه الخابية ، وهى الخبء إلّا أنّهم تركوا همزَها ، والخَبء أيضا والخبِىء على « فَعِيل » ماخُبِىء .

وبلاء الله تعالى : إنعامُه وإحسانه .

وقولُه عليه السلام : « كناقلِ التّمر إلى هَجَر » ، مَثَلٌ قديم . وهَجَر : اسم مدينة لاينصرف للتعريف والتّأنيث . وقيل : هو اسم مذكّر مصروف ، وأصل المَثَل « كمُسْتَبْضع تمرٍ إلى هَجَر[(١)] » ، والنسبة إليه هاجِرِىّ على غير قياس ، وهى بلدة كثيرة النخل يُحمل منها التمر إلى غيرها ، قال الشاعر فى هذا المعنى :

أُهــدِى له طُرَفَ الــكلامِ كما   يُهــدَى لِوالِى البَصْرة التَّمرُ

قولُه : « وداعى مسدّده إلى النضــال » ، أى معلّمه الرَّمْىَ ، وهذا إشارة إلى قول القائل الأوّل :

---

(١) مجمع الأمثال ٢ : ١٥٢ ؛ قال أبو عبيد : هذا من الأمثــال المبتذلة ومن قديمها ؛ وذلك أن هجر معدن التمر ؛ والمستبضع إليه مخطىء ؛ ويقال أيضاً : كمستبضع التمر إلى خيبر ؛ قال النابغة الجعدى :

وإنَّ امرأً أهدى إليكَ قصيدةً   كمستبضعٍ تمرًا إلى أرضِ خَيْبَرَا

أعلِّمه الرِّمايةَ كلَّ يومٍ ... فلمّا استدّ ساعدُه رمانى[١]

هكذا الرِّواية الصحيحة بالسين المهملة ، أى استقام ساعدُه على الرّمى ، وسدَّدتُ فلانا : علّمته النِّضالَ ، وسهمٌ سَديد : مُصيب ، ورمحٌ سديد ، أى قلَّ أن تخطىء طعنتُه ، وقد ظرُف القاضى الأرّجانىّ فى قوله لسديد الدولة محمد بن عبد الكريم الأنبارىّ كاتب الإنشاء :

إلى الذى نَصَب المكارمَ للوَرَى ... عَرَضا يَلُوح من المدى المتباعِدِ
نَثَل الأماثِلَ مِن كنانته فما ... وَجدتْ يداه سوى سديدٍ واحدِ

ومن الأمثال فى هذا المعنى : « سَمِّنْ كَلْبَكَ يأ كُلك »[٢] ، ومنها : « أحشّك وترَوثُنى ! »[٣] .

قوله عليه السلام : « وزعمتَ أن أفضل الناس فى الإسلام فلان وفلان » ، أى أبو بكر وعمر .

قوله عليه السلام : « فذكرتَ أمْرا إن تَمّ اعتزَلَكَ كله ، وإن نَقَص لم يَلْحَقْك ثَلْمه » ، مِن هذا المعنى قولُ الفرزدق لجرير ، وقد كان جريرٌ فى مهاجاته إيّاه يَفخَر عليه بقيسِ عَيْلان ، فقد كانت لجرير فى قيس خُؤُولة ، يعيِّره بأيّامهم عَلَى بنى تميم ، فلما قَتَل بنو تميم قُتيبة بنَ مسلم الباهلىّ بخُراسان قال الفرزدق يَفتخِر :

أتانى وأهلِى بالمدينة وقعةٌ ... لآل تميم أقعدتْ كلَّ قائمِ[٤]

---

(١) استدّ : استقام ؛ والبيت ينسب إلى معن بن أوس ، أومالك بن فهم الأزدى ، أوعقيل بن علفة ؛ وبعده :

فَلاَ ظَفِرَتْ يَمِينُكَ حِينَ تَرْمِى ... وشَلَّتْ مِنْكَ حَامِلَةُ الْبَنَانِ

وانظر اللسان ٤ : ١٩١ .

(٢) مجمع الأمثال ١ : ٣٣٣ ؛ قالوا : أول من قال ذلك حازم بن المنذر .

(٣) مجمع الأمثال ١ : ٢٠٠ ؛ أراد : تردت علىّ .

(٤) ديوانه ٨٥٣ .

كأنّ رءوس الناس إذ سَمِعوا بها مشدَّخة هاماتهـــــا بالأمائمِ
وما بين من لم يُؤْتِ سمعاً وطاعةً وبين تميم غـــير جزّ الحلاقمِ

ثم خرج إلى خِطاب جرير بعد أبيات تركنا ذكرها ، فقال :

أتغضبُ إنْ أُذْنا قُتيبة جُزّتا جهاراً ولم تغضبْ لقتل ابن حازمِ !
وما منهما إلا نقَلْنا دماغَـــه إلى الشام فوق الشاحجات الرّواسمِ
تذبذب فى المَخلاة تحت بُطونها محذَّفة الأذناب جُلْح المقادمِ
وما أنتَ من قيسٍ فتَنبح دونَها ولا مِنْ تميم فى الرّءوس الأعاظمِ
تخوِّفُنـــا أيامَ قيْسٍ ولم تَدَعْ لَعيْلانَ أنفا مستقيمَ الخيا شمِ
لقد شهدتْ قيسٌ فما كان نصْرُها قتيبـــةَ إلّا عضّها بالأباهمِ

فقوله :

* وما أنتَ من قيس فتَنْبَح دونها *

هو معنى قولِ علىّ عليه السلام لمعاوية : « فذكرتَ أمْرا إن تمّ اعتزلَك كلّه » ، وابن حازم المذكور فى الشّعر هو عبد الله بنُ حازِم ، من بنى سُلَيم ، وسُلَيم من قَيْس عَيْلان ، وقتلتْه تميم أيضا ، وكانَ والىَ خُراسان .

قوله عليه السلام : « وما أنتَ والفاضلَ والمفضولَ » ، الرّواية المشهورةُ بالرّفع ، وقد رواها قوم بالنّصْب ، فمن رَفع احتجّ بقوله : وما أنت وبَيْتُ أبيكَ والفَخْر .

وبقوله :

* فما القيسىّ بعدَكَ والفَخارُ *

ومن نصب فعلى تأويل « مالكَ والفاضِلَ » ، وفى ذلك معنى الفِعْل ، أى ماتصنع ، لأن

هذا الباب لا بدّ أن يتصمنّ الكلام فيه فِعْلا ، أو معنَى فعلٍ ، وأنشدوا :

* فما أنتَ والسَّيْرَ فى مَتْلَفٍ(١) .

والرفع عند النحوّيين أولى .

ثم قال : « وما للطُّلقَاء وأبناءالطُّلقَاء والتمييزَ » النّصبُ هاهنا لا غير ، لأجل اللام فى الطلقاء .

ثم قال عليه السلام بين المهاجرين الأوَّلين وترتيب درجاتهم ، وتعريف طبقاتهم ، هذا الكلامُ ينقُض مايقول من يطعن فى السَّلف ، فإنّ أمير المؤمنين عليه السلام أنـكَرَ على معاوية تعرّضَه بالمفاضلة بين أعلام المهاجرين ، ولم يذكر معاوية إلّا المفاضَلة بينه عليه السلام وبين أبى بكر وعمر ، فشهادة أمير المؤمنين عليه السلام بأنهمامن المهاجرين الأوّلين ومن ذَوِى الدّرجات والطّبقات التى اشتَبَه الحالُ بينهما وبينه عليه السلام فى أىّ الرجال منهم أفضل ، وأنّ قَدْرَ معاوية يصغر أن يدخل نفسَه فى مِثل ذلك شهادةٌ قاطعةٌ على علوّ شأنهما ، وعظم منزِلتهما .

قوله عليـه السلام : « هيهـات ، لقد حنَّ قِدْحٌ ليس منهـا » هـذا مَثَلٌ يضرَب لمن يُدخل نفسه بين قوم لَيس له أن يَدخُل بينهم ؛ وأصلهالقِداح من عودٍ واحد يجعَل فيهـا قِدْح من غـيْر ذلك الخشَب ، فيصوّت بينهـا إذا أرادها المفيض ، فذلك الصوت هو حنينُه .

قوله « وطفق يحكُم فيها مَن عليه الُحـكم لها » ، أى وطفِق يحكُم فى هـذه القصّة

---

(١) لأسامة بن الحارث الهذلى ؛ وبقيته :

* يُعَبِّر بالذَّكَرِ الضابطِ *

وانظر ديوان الهذليين ٢ : ١٩٥ .

أو فى هذه القضيّة مَنْ يجب أن يكون الحكْم لها عليه لا له فيها ؛ ويجوز أن يكون الضمير يرجع إلى الطّبقات .

ثم قال : « ألا تَرْبَع أيّها الإنسان على ظَلْعك ! » أى ألا تَرْفُق بنفْسك وتَكُفّ، ولا تحمِل عليها مالا تطيقُه ، والظلْع : مَصدَرُ ظَلَع البعيرُ يظلَع أى غمز فى مشْيه .

قوله : « وتعرِف قُصورَ ذرْعك » ، أصل الذرْع بَسْط اليد ؛ يقال : ضِقتُ به ذرْعا : أى ضاق ذرْعى به . فنَقلوا الاسمَ من الفاعلية فجعلوه منصوبا على التمييز ؛ كقولهم : طبت به نفسا .

قوله : « وتتأخّر حيث أخّرك القَدر » ، مِثل قولِك : ضع نفسَك حيث وضعَها الله ؛ يقال ذلك لمنْ يرفعُ نفسَه فوق استحقاقه .

ثم قال : « فما عليك غَلبة المغلوب ، ولا عليك ظفرُ الظّافر » ، يقول : وما الّذى أدخلكَ بينى وبين أبى بكر وعمرَ ، وأنتَ من بنى أميّة ، لستَ هاشميّا ولا تيميّا ولا عدويّا هذا فيما يرجع إلى أنسابنا ، ولستَ مُهاجِراً ولا ذا قَدَم فى الإسلام فتزاحِم المهاجرين وأربابَ السّوابق بأعمالِك واجتهادك ، فإذَنْ لا يضرّك غَلَبة الغالب منّا ولا يسرّك ظفر الظافر . ويُروَى أنّ مروان بنَ الحكَم كان يُنشِد يوم مرْج راهط والرءوس تُنْدَر عن كواهلها بينه وبين الضّحاك بن قيس الفهْرىّ :

وما ضرّهم غيرُ حَيْنِ النفو ... س أىّ غلامَىْ قُرَيشٍ غلَبْ

قوله عليه السلام : « وإنّك لذهاب فى التّيه ، روّاغ عن القَصْد » ، يحتمل قوله عليه السلام فى التّيه معنَيَيْن : أحدهما بمعنى الكِبر ، والآخر التّيهَ من قولك : تاه فلان فى البَيْداء ومنه قوله تعالى : ﴿ فإنها مُحرّمة عَلَيهم أرْبعين سَنةً يتيهُون فى الأرض ﴾[1] ؛ وهذا الثانى أحسَنُ

---

(١) سورة المائدة ٢٦ .

يقول : إنّك شديد الإيغالِ فى الضلال . و « ذهّاب » فعّال ؛ للتكثير ، ويقال : أرض مَتيهة ، مِثلُ معيشةٍ ، أى يُتاهُ فيها .

قال عليه السلام : « روّاغ عن القَصْد » ، أى تترك مايلزمك فعلُه وتعدل عما يجب عليك أن تجيب عنه إلى حديثِ الصحابة ، وما جرى بعد موت النبىّ صلى الله عليه وآله ، ونحن إلى الكلام فى غير هذا أحوَج إلى الكلام فى البيعة وحَقْن الدِّماء والدخول تحتَ طاعةِ الإمام .

ثم قال : « ألا ترَى غير مخبِرٍ لك ، ولكن بنعمة اللهِ أحدِّث » ، أى لستَ عندى أهْلاً لأن أُخبرك بذلك أيضا ، فإنّك تعلمه ، ومن يَعلم الشىء لا يجوزُ أن يُخبَر به ؛ ولكنْ أذكرُ ذلك لأنّه تحدُّثٌ بنعمةِ الله علينا ، وقد أمِرْنا بأن نحدِّث بنعمتِه سبحانه .

قولُه عليه السلام : « إنّ قوماً استُشهدوا فى سبيل الله » ، المراد هاهنا ، سيّدالشُّهداء حَمْزة رضى الله عنه ، وينبغى أن يُحمَل قولُ النبىّ صلّى الله عليه وآله فيه إنّه سيّد الشهداء على أنه سيّد الشهداء فى حياة النبىّ صلّى الله عليه وآله ؛ لأنّ عليّا عليه السلام مات شهيدا ؛ ولا يجوز أن يقال : حمزة سيّده ، بل هو سيّد المسلمين كلِّهم ، ولا خلافَ بين أصحابنا رحمهم الله أنّه أفضل من حمزةَ وجعفر رضى الله عنهما ، وقد تقدّم ذكر التكبير الذى كبّره رسولُ الله صلّى الله عليه وآله على حمزةَ فى قصّة أُحُد .

قوله عليه السلام : « ولكلٍّ فَضْل » ، أىّ ولكلّ واحد من هؤلاء فَضْلٌ لا يُجْحَد.

قوله : « أولا ترى أنّ قوما قُطِعت أيديهم » ، هذا إشارة إلى جعفر ؛ وقد تقدّم ذلك فى قصّة مُؤْتة .

قوله : « ولولا مانهى الله عنه » ، هذا إشارة إلى نفسه عليه السلام .

قوله : «ولا تمجُّها آذانُ السامعين» أى لا تقذِفها ، يقال : مَجَّ الرجلَ مِن فيه ، أى قذفه .

قوله عليه السلام « فدع عنك من مالت به الرَّمِيّة » ، يقال للصيد : يرمى هذه الرميّة ، وهى « فعيلة » بمعنى مفْعولة ، والأصل فى مِثلِها ألّا تلحَقها الهاء ، نحو كفٍّ خضيب ، وعين كحِيل ، إلا أنّهم أجْرَوها مجرَى الأسماء لا النّعوت ، كالقَصيدة والقَطيعة .

والمعنى : دَعْ ذِكرَ من مالَ إلى الدنيا ومالتْ به ، أى أمالتْه إليها .

فإن قلتَ : فهل هذا إشارة إلى أبى بكر وعمرَ ؟ قلت : يَنبغى أن ينزَّه أميرُ المؤمنين عليه السلام عن ذلك ، وأن تُصرَف هذه الكلمة إلى عثمانَ ، لأنّ معاويةَ ذكرَه فى كتابه وقد أورَدْناه ، وإذا أنصف الإنسانُ من نفسِه علِم أنه عليه السلام لم يكن يذكرهما بما يذكر به عثمان ، فإنّ الحال بينه وبين عثمانَ كانت مضطربةً جدًّا .

قال عليه السلام : « فإن صنائع ربِّنا ، والناسُ بعدُ صَنائعُ لنا » ، هذا كلام عظيم ، عالٍ على الكلام ، ومعناه عالٍ على المعانى ، وصَنيعةُ الملِك من يصطنِعُه الملك ويرفع قدرَه . يقول : ليس لأحد من البشر علينا نعمة ، بل اللهُ تعالى هو الذى أنعم علينا ، فليس بيننا وبينه واسطة ، والناس بأسرهم صنائعنا ؛ فنحن الواسطةُ بينهم وبين الله تعالى ، وهذا مقامٌ جليل ظاهره ما سمعت ، وباطنه أنهم عبيدُ الله ، وأنّ الناس عبيدهم .

ثم قال : « لم يمنعْنا قديم عزِّنا ، وعاديّ طوْلنا » ؛ الطوْل : الفَضْل . وعادِىّ أى قديم ، بئرٌ عاديّة .

قوله : «على قومِك أن خلَطْناهم بأنفسِنا فنَكَحنا وأنكَحْنا فِعل الأكْفاء ، ولستم هناك » ؛ يقول : تزوَّجْنا فيكم وتزوّجتم فينا كما يَفعَل الأكفاء ، ولستم أكفاءنا . وينبغى أن يُحمل قوله : « قديم وعادِىّ » على مَجازه لا على حقيقته ، لأن بنى هاشم وبنى أميّة لم يَفترقا فى الشرف إلّا مذ نشأ هاشم بنُ عبد مناف وعرف بأفعاله ومكارمه ، ونشأ حينئذ أخوه عبد شمس وعُرف بمثل ذلك ، وصار لهذا بنُون ولهذا بنون ، وادّعى كلٌّ من الفريقين

أنه أشرف بالفِعال من الآخر ، ثم لم تكن المدّة بين نَشْءِ هاشم وإظهار محمّد صلّى الله عليه وآله الدّعوة إلا نحو تسعين سنة ، ومثل هذه المدّة القصيرة لا يقال فيها : « قديمُ عزّنا وعادِيّ طَوْلِنا » ، فيجب أن يُحمَل اللفظُ على مَجَازِه ، لأنّ الأفعال الجميلة كما تكون عاديّةً بطُول المدّة تكون بكثرة المناقب والمآثر والمفاخر ، وإن كانت المدّة قصيرةً . ولفظةُ قديم تَرِد ولا يُراد بها قِدَم الزّمان ، بل من قولهم : لفلانٍ قَدَمُ صدْق وقديمُ أَثَر ، أىْ سابقة حَسَنة .

***

[مناكحات بنى هاشم وبنى عبد شمس]

وينبغى أن نذكر ها هنا مُناكحات بنى هاشم وبنى عبدِ شَمْس . زوّج رسولُ الله صلى الله عليه وآله ابنَتَيْه رُقَيّة وأمَّ كُلْثوم من عثمانَ بن عفَّان بن أبى العاص ، وزَوّج ابنتَه زينب من أبى العاص بن الرّبيع بن عبد العُزَّى بن عبدِ شَمْس فى الجاهليّة ، وتزوّج أبو لهب بن عبد المطّلب أمَّ جميل بنت حَرْب بن أميّة فى الجاهلية ، وتزوّج رسول الله صلى الله عليه وآله أمَّ حبيبة بنت أبى سُفْيان بن حَرْب ، وتزوّج عبدُ الله بن عمرو بن عثمان فاطمةَ بنتَ الحسين بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام .

وَرَوى شيخنا أبو عثمانَ عن إسحاق بن عيسى بن علىّ بن عبد الله بنِ العبّاس قال : قلتُ للمنصور أبى جعفر : مَنْ أكفاؤنا ؟ فقال : أعداؤنا ، فقلت : مَن هُم ؟ فقال : بنو أميّةَ .

وقال إسحاق بن سليمان بن على : قلتُ للعبّاس بنِ محمّد : إذا اتّسَعْنا من البنات ، وضِقنا من البَنين ، وخفْنا بوارَ الأَيَامى فإلى مَن نُخرِجُهنّ من قبائل قريش ؟ فأنشدَنى :

عبدُ شمسٍ كان يَتْلُو هاشماً ... وهُما بعدُ لأمٍّ ولأبْ

فعرفتُ ما أراد وسكَتُّ .

وَرَوى أيوب بنُ جعفر بن سليمان ، قال : سألتُ الرشيدَ عن ذلك فقال : زوَّج النبيّ صلى الله عليه وآله بنى عبدِ شمس فأحمدَ صِهرَهم ، وقال : « ما ذَمَمْنا من صهرِنا فإنا لا نَذُمّ صِهرَ أبى العاص بن الربيع » .

قال شيخنا أبو عثمان : ولما ماتت الابنتان تحتَ عثمان قال النبيّ صلى الله عليه وآله لأصحابه : « ما تنتظرون بعثمان ، ألا أبو أيِّم ، ألا أخو أيِّم ؛ زوّجتُه ابنتين ، ولو أن عندى ثالثة لفعلتُ » . قال : ولذلك سمِّىَ ذا النُّورَين .

* * *

ثم قال عليه السلام : « وأنَّى يكون ذلك ! » ، أى كيف يكون شرفُكم كشرَفنا ، ومنّا النبيّ ومنكم المكذِّب ـ يعنى أبا سُفيانَ بنَ حرب ، كان عدوَّ رسول الله والمكذِّبَ له والمُجلبَ عليه ـ وهؤلاء ثلاثة : بإزاء أبى سُفْيان رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومعاويةُ بإزاء علىّ عليه السلام ، ويزيدُ بإزاء الحسين عليه السلام ؛ بينهم من العداوة ما لا تبرك عليه الإبل .

قال : « ومنّا أسَدُ الله » ، يعنى حمزة ، « ومنكم أسَدُ الأحلاف » ، يعنى عُتْبة ابن ربيعة ، وقد تقدّم شرحُ ذلك فى قصّة بدر .

وقال الراوندىّ : المكذِّب من كان يكذِّب رسولَ الله صلّى الله عايه وآله عنادا من قُريش ، وأسد الأحلاف : أسدُ بنُ عبد العُزّى ، قال : لأنّ بنى أسد بن عبد العُزّى كانوا أحـدَ البطون الّذين اجتمعوا فى حِلْف المطيّبين ، وهم بنو أَسَد بن عبد العُزّى وبنو عبد مَناف ، وبنو تَيم بن مرّة ، وبنو زهرة ، وبنو الحارث بن فهر . وهذا كلام طريف جدا ، لأنه لم يلحظ أنه يجب أن يجعل بإزاء النبىّ صلى الله عليه وآله مكذِّب

من بنى عبد شمْسٍ ، فقال : المكذِّب مَن كَذَّب النبىَّ صلّى الله عليه وآلِه من قُريش عنادا ، وليس كلٌّ من كذَّبه عليه السلام من قريش يُعيّر معاوية به . ثم قال : أسد الأحلاف أسد بن عبد العزّى ؛ وأىّ عارٍ يلزَم معاويةَ من ذلك ، ثم إنّ بنى عبد مناف كانوا فى هـذا الحِلْف وعلىّ ومعاوية من بنى عبد مَناف ، ولـكنّ الراوندىَّ يظلم نفسَه بتعرّضه لما لا يعلمه .

قولُه : « ومنّا سيّدَا شَبابِ أهل الجنّة » ، يعنى حَسَنا وحُسَيْنا عليهما السلام، «ومنكم صبية النار » ، هى الـكلمة الّتىقالها النبى صلّى الله عليه وآله لعُقْبة بن أبى مُعَيْطحين قَتَله صَبْراً يوم بَدْر ، وقد قال كالمستعطِف له عليه السلام : مَن للصبية يامحمّد ؟ قال : النار . وعُقْبة بن أبى مُعَيْط من بنى عبد شمْس. ولم يعلم الراوندىّ ماالمراد بهذه الـكلمة ، فقال : صبيةُ النّار أولاد مروان بن الحـكم الذين صاروا من أهل النار عند البلوغ ، ولمّا أخبر النبى صلى الله عليه وآله عنهم بهذه الـكلمة كانوا صِبيَة ، ثم ترعرَعوا واختاروا الـكفرَ، ولا شُبْهة أنّ الراوندىّ قد كان يفسِّر من خاطره ماخَطَر له .

قال : قوله عليه السلام : « ومنّا خير نساء العالمين » ، يعنى فاطمةَ عليهاالسلام، نصّ رسولُ الله صلى الله عليه وآله على ذلك ؛ لا خلاف فيه .

« ومنكم حمّالة الحطب » ، هى أم جميل بنت حَرْب بن أميّة ، امرأةُ أبى لهب الذى ورد نصُّ القرآن فيها بما وَرَد .

قوله : « فى كثير مما لنا وعليكم » ، أى أنا قادر على أن أذكر مِن هذا شيئاً كثيرا، ولـكنّى أكتفى بما ذكرت .

فإن قلت : فبماذا يتعلّق « فى » فى قوله « فى كثير » ؟ قلتُ : بمحذوف تقديرُه : هذا الكلام داخلٌ فى جملة كلامٍ كثيرٍ تتضمّن مالنَا وعليكم .

قولُه عليه السلام : « فإسْلامُنا ماقد سُمِع ، وجاهليّتنا لا تُدفَع » ،كلامٌ قد تعلّق به

بعضُ من يتعصّب للأموية . وقال : لو كانت جاهليّة بنى هاشم فى الشّرف كإسلامهم لعدّ من جاهليّتهم حَسب ماعدّ من فضيلتهم فى الإسلام .

***

[فضل بنى هاشم على بنى عبد شمس]

وينبغى أن نذكر فى هذا الموضع فضلَ هاشم على عبدِ شمس فى الجاهليّة ، وقد يمتزِج بذلك بعضُ مايمتازون به فى الإسلام أيضا ، فإنّ استقصاءه فى الإسلام كثير،لأنّه لايمكن جَحْد ذلك ، وكيف والإسلامُ كلُّه عبارةٌ عن محمّد صلّى الله عليه وآله ، وهو هاشمىّ ! ويَدخُل فى ضِمن ذلك مايحتجّ به الأمويّة أيضا ، فنقول : إنّ شيخَنا أباعثمان قال : إنّ أشرف خصال قريش فى الجاهليّة اللّواء ،والنّدوة ، والسِّقاية، والرِّفادة، وزَمزَم،والحجابة وهذه الخصال مقسومةٌ فى الجاهليَّة لبنى هاشم وعبدالدار وعبد العُزّى دون بنى عبدشمس. قال : عَلَى أنّ مُعظَمَ ذلك صار شرفه فى الإسلام إلى بنى هاشم ، لأنّ النبى صلى الله عليه وآله لمّا ملك مَكّة صار مِفتاح الكعبة بيدِه ، فدَفعه إلى عثمانَ بن طلحة،فالشرف راجعٌ إلى مَن مَلك المفتاح ، لا إلى من دُفع إليه ، وكذلك دفع صلّى الله عليه وآله اللواء إلى مصعب بن عُمَير فالّذى دفع اللواء إليه وأخَذَه مُصعَب من يديه أحقّ بشرفه وأولى بمجدِه وشرفُه راجعٌ إلى رهطِه من بنى هاشم .

قال : وكان محمد بن عيسى المخزومىُّ أميرا على اليَمَن ، فهجاه أُبَىُّ بن مُدلج فقال :

قل لابن عيسى المستغيـ ـثِ من السُّهولةِ بالوُعورَهْ
الناطقِ العَوْراء فى جُلِّ الأمور بلا بصيرهْ
وَلدَ المغــيرةُ تسعــةً كانوا صَناديدَ العشيرهْ[1]

(١) الصناديد : الشجعان .

وأبوكَ عاشِرهم كما نبتتْ مع النخــل الشعيرهْ
إن النبوّة والخـــلا فة والسِّقاية والمَشـــورَهْ
فى غيركم فاكففْ إليـ ـكَ يداً مجذّمةً قَصـــيرهْ

قال : فانبرَى له شاعرٌ من وَلَد كُرَيز بن حَبيب بن عبد شمس ، كان مع محمّد بن عيسى باليمَن يَهجُو عنه ابنَ مدلج فى كلمة له طويلة ، قال فيها :

لا لِوالا يُعَدُّ لك يابنَ كُرَيْزٍ لا ولا رِفْد بيتــه ذى السناء
لاحجابٌ وليس فيكم سوى الكِبْـ ـرِ وبُغْض النبىّ والشهـــداء
بين حاكٍ ومُخْلِج وطَريدٍ وقَتيلٍ يَلعنه أهـــلُ السماء
ولهمْ زمزمٌ كذاك وجِبْريـ ـلُ ومَجْـــدُ السِّقاية الغَرّاء

قال شيخنا أبو عثمان : فالشهداء علىٌّ وحمزة ، وجعفر ، والحاكى والمخلّج هو الحكَم ابن أبى العاص ، كان يحكى مِشيةَ رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، فالتفت يوما فرآه ، فدعا عليه ، فلم يزل مخلَّج المِشْية عقوبةً من الله تعالى[1] . والطريد اثنان : الحكم بنُ أبى العاص ، ومعاويةُ بن المُغيرة بن أبى العاص ، وهما جدَّا عبدِ الملك بن مَرْوان من قِبَل أمّه وأبيه .

وكان النبى صلى الله عليه وآله طرَدَ معاويةَ بنَ المغيرة هذا من المدينة وأجَّله ثلاثا فحيّره الله ، ولم يزل يتردّد فى ضلاله حتى بَعثَ فى أثره عليّا عليه السلام وعمّارا فقتَلاه . فأمّا القَتْلى فكثير ، نحو شَيْبة وعُتْبة ابنى رَبيعة ، والوليدُ بن عُتْبة ، وحنظلة بن أبى سُفْيان وعُقْبة بن أبى مُعَيْط ، والعاصُ بنُ سعيد بن أميّة ، ومعاوية بنُ المغيرة ، وغيرُهم .

قال أبو عثمان : وكان اسمُ هاشمٍ عَمْرا ، وهاشمٌ لقَب ، وكان أيضا يقال له القمر ، وفى ذلك يقول مطرود الخُزاعىّ :

(١) كذا فى الأصول ، وفى نهاية ابن الأثير : « كان يجلس خلف النبى عليه السلام ، فإذا تكلم اختلج بوجهه ، فرآه فقال له : كن كذلك ، فلم يزل يختلج حتى مات . أى يحرك شفتيه وذقنه استهزاء وحكاية لفعل النبى عليه السلام » .

إلى القَمَر السارِى المُنـــــير دعوْتُه ومُطعِمُهمْ فى الأزْل من قَمَع الجُزْرِ(١)

قال : ذلك فى شىء كان بينه وبين بعضِ قريش ، فدعاه مطرود إلى المحاكمة إلى هاشم ، وقال ابنُ الزِّبَعْرَى :

كانت قريشٌ بَيْضَــةً فتفلّقتْ فالمُخّ خالِصُه لعبدِ مَنـافِ

الرائشُون وليس يُوجَـد رائشٌ والقائلون هــلُمَّ للأضيافِ

عَمْرو العُلَى هَشَم الثّرِيدَ لقَوْمِه ورجالُ مَــكّة مُسْنِتُون عِجافُ(٢)

فَعمّ كما ترَى أهلَ مَــكّة بالأزْل والعُجْف ، وجعَله الّذى هَشَم لهم الخبزَ ثريداً ، فغلبَ هذا اللّقبُ على اسمه حتى صارَ لا يُعرَف إلّا به ، وليس لعبدِ شمس لقبٌ كريم ، ولا اشتُقّ له من صالح أعماله اسمٌ شَريف ، ولم يكن لعبدِ شَمْس ابن يأخذ بضبعِه ، ويرفع من قَدره ، ويزيد فى ذكره ، ولهاشمٍ عبدُ المطلب سيِّد الوادى غير مدافَع ، أجمَلُ الناس جَمالا ، وأظهَرُهم جُودا ، وأكملُهم كمالا ، وهو صاحب الفِيل ، والطير الأبابيل ، وصاحبُ زَمزَم ، وساقى الحجيج . وولَدَ عبدُ شمس أميّة بن عبد شمس وأميّة فى نفسه ليس هناك ، وإنما ذكر بأولاده ولا لَقَب له ، ولعبد المطّلب لقبٌ شهيرٌ واسمٌ شريف : شَيْبة الحمد ، قال مطرودٌ الخزاعىّ فى مدحه :

يا شيبةَ الحمــــدِ الّذى تُثْنَى له أيّامُه من خيرِ ذُخْر الذاخرِ

المجدُ ما حَجّتْ قُرَيشٌ بيتَـــــه ودعا هُذَيلٌ فوقَ غُصْنٍ ناضر

واللهِ لا أنساكُمُ وفعالَــكمْ حتّى أغيبَ فى سَفاةِ القابِرِ

وقال حذافة بنُ غانم العدوىّ وهو يمدح أبا لَهَب ، ويُوصى ابنه خارجة بن حُذافة بالانتماء إلى بنى هاشم :

أخارجُ إمّا أهلِـكَنّ فلا تزَلْ لهم شاكرا حتّى تُغيَّب فى القبرِ

(١) القمع بالتحريك : جمع قمعة ، وهى أعلى السنام والجزر (بضمتين) وسكن هنا للشعر : جمع جزور ، وهى الناقة .

(٢) فى البيت إقواء .

بنى شَيْبة الحمد الكريم فِعالُه ... يضىء ظلامَ الليل كالقمر البدرِ
لِساقى الحجيج ثم للشيخ هاشمٍ ... وعبدِ منافٍ ذلك السيدُ الغَمْرُ
أبو عُتْبة المُلقى إلىّ جواره ... أغرُّ هجانُ اللّون من نفرٍ غُرِّ
أبوكمْ قُصَىٌّ كان يُدعَى مجمِّعا ... به جَمعَ اللهُ القبائلَ مِن فِهرَ

فأبو عُتْبة هو أبو لَهَب ، عبد العُزّى بن عبد المطلب بن هاشم ، وأبناه عُتْبة وعُتَيبة .

وقال العَبْدىّ حين احتفل فى الجاهليّة فلم يترك :

لا تَرَى فى الناس حيًّا مِثلَنا ... ماخَلَا أولادَ عبد المطلِبْ

وإنّما شرُف عبد شمس بأبيه عبدِ مناف بن قصىّ وبنى ابنه أميّة بن عبد شمس ، وهاشم شَرُف بنفسه وبأبيه عبدِ مناف ، وبابنه عبد المطلب ، والأمر فى هذا بيّن ، وهو كما أوضَحَه الشاعر فى قوله :

إنما عبدُ منافٍ جوهرٌ ... زَيَّنَ الجوهرَ عبدُ المطَّلِبْ

قال أبو عثمان : ولسنا نقول : إنّ عبد شمس لم يكن شريفا فى نفسه ، ولكنّ الشرف يتفاضل ، وقد أعطى اللهُ عبدَ المطّلب فى زمانه ، وأجرَى على يديه ، وأظهر من كرامته مالا يُعرف مثلُه إلا لنبىّ مُرسَل ، وإنّ فى كلامه لأبْرَهَة صاحب الفيل وتوعُّده إياه برب الكعبة وتحقيق قوله من الله تعالى ونصرة وعيدِه بحبْس الفيل، وقتلِ أصحابه بالطَّير الأبابيل وحِجارة السِّجّيل حتى تُركوا كالعَصْف المأكول ـ لأَعجَبُ البُرْهانات، وأسنَى الكرامات، وإنّما كان ذلك إرهاصا النبوّة النبى صلى الله عليه وآله، وتأسيسا لما يريده الله به من الكرامة، وليجعل ذلك البهاء متقدّما له ، ومردودا عليه ، وليكون أشهرَ فى الآفاق ، وأجَلّ فى صدور الفراعِنة والجبابرة والأكاسرة ، وأجدر أن يَقهرَ المعانِد ، ويكشف غباوة الجاهل . وبعد ، فمن يُناهِض ويُناضِل رجالا ولدوا محمّدا صلى الله عليه وآله ، ولو عزلنا

ماأكرمه الله به من النبوّة حتّى نقتصر على أخلاقه ومذاهبه وشِيَمه لما وفى به بَشَر ، ولا عدَله شىء ، ولو شئنا أن نذكرُ ما أعطى الله به عبدَ المطّلب من تفجّر العيون وينابيع الماء من تحت كَلْكَل بعيره وأخفافه بالأرض القَسِىّ[1] ، وبما أعطى من المُساهمة وعند المُقارعة من الأمور العجيبة ، والخصال البائنة ، لقُلْنا ، ولكنّا أحببْنا ألّا نحتجّ عليكم إلّا بالموجود فى القرآن الحكيم ، والمشهور فى الشعر القديم ، الظاهر على ألسنة الخاصّة والعامّة ورُواة الأخبار وحُمّال الآثار .

قال : وممّا هو مذكورٌ فى القرآن عدا حديث الفيل قوله تعالى : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾ ، وقد اجتمعت الرُّواة على أنّ أوّل من أخَذ الإيلاف لقريش هاشم بن عبد مناف ، فلمّا مات قام أخوه المطلب مقامَه ، فلما مات قام عبدُ شمسٍ مَقامَه ، فلمّا مات قام نوْفل مَقامَه — وكان أصغرهم . والإيلاف ، هو أن هاشما كان رجلا كثيرَ السّفر والتّجارة ، فكان يسافر فى الشّتاء إلى اليمن ، وفى الصّيف إلى الشام ، وشَرّكَ فى تجارته رؤساءَ القبائل من العرب ومن ملوك اليَمَن والشام ، نحو العباهلة باليمن ، واليَكْسُوم من بلاد الحبشة ، ونحو ملوك الرُّوم بالشام ، فجعل لهم معه رِبْحا فيما يَربح ، وساق لهم إبلا مع إبله ، فكفاهم مَؤُونة الأسفار ، على أن يكفوه مؤونة الأعداء فى طريقه ومُنصرَفه ، فكان فى ذلك صلاحٌ عامٌّ للفريقين ، وكان المقيم رابحا ، والمسافر محفوظا ، فأخصبتْ قريش بذلك ، وحملتْ معه أموالَها ، وأتاها الخيرُ من البلاد السافلة والعالية ، وحَسُنَتْ حالُها ، وطاب عَيْشُها . قال : وقد ذكر حديثَ الإيلاف الحارثُ بنُ الحَنش السُّلَمىّ ، وهو خالُ هاشمٍ والمطّلب وعبدِ شمس ، فقال :

إنّ أخِىَّ هاشمًا ليس أخا واحدِ
الآخِذ الإيلاف وال قائم للقاعدِ

قال أبو عثمان : وقيل : إنّ تفسير قوله تعالى : ﴿ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ هو خوف من كان هؤلاء الإخوة يمرّون به من القبائل والأعداء وهم مُغْتربون ومعهم

(١) الأرض القسى : التى لا تنبت نباتا .

الأموال ؛ وهذا ما فسّرنا به الإيلاف آنفا ؛ وقد فسّره قومٌ بغير ذلك ، قالوا : إنّ هاشما جعل على رؤساء القبائل ضرائبَ يؤدّونها إليه ليَحمِيَ بها أهلَ مكّة ، فإنّ ذُؤبان العرب وصَعاليكَ الأحياء وأصحاب الغارات وطُلّاب الطوائل كانوا لا يؤمَنون على الحرَم ، لا سيّما وناس من العرَب كانوا لا يَرَوْن للحرَم حُرْمة ، ولا للشهر الحرام قَدْرا ، مثل طَيِّء وخَثْعم وقُضاعة وبعض بَلْحارث بن كعب ، وكيفما كان الإيلاف فإنّ هاشما كان القائم به دونَ غيره من إخوته .

***

قال أبو عثمان : ثم حِلْف الفُضول وجلالته وعظمته ، وهو أشرَفُ حلف كان في العرب كلِّها ، وأكرمُ عَقْد عقدتْه قريش في قديمها وحديثها قبلَ الإسلام لم يكن لبني عبد شمس فيه نصيب. قال النبيّ صلّى الله عليه وآله ــ وهو يَذكرُ حِلفَ الفُضول ــ : «لقد شهدتُ في دار عبد الله بن جُدْعان حِلْفا لو دُعيتُ إلى مثله في الإسلام لأجبتُ» . ويكفي في جلالته وشرفه أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله شهدَه وهو غلام ، وكان عتبةُ بنُ ربيعة يقول : لو أنّ رجلا خرج ممّا عليه قومُه لداخلتُ في حِلْف الفضُول ، لما أرَى من كماله وشرفِه ، ولِما أعلم من قَدْره وفضيلته .

قال : ولفَضْل ذلك الحلف وفضيلةِ أهله سمِّيَ حلفَ الفضول ، وسُمِّيتْ تلك القبائل الفضول ، فكان هذا الحلف في بني هاشم ، وبني المطّلب ، وبني أسَد بن عبد العُزّى وبني زُهْرة ، وبني تَيم بن مرّة ، تعاقَدوا في دار ابن جُدْعان في شهرٍ حرام قياما يتماسحون بأكُفّهم صُعُداً لَيكُونُنَّ مع المظلوم حتّى يؤدّوا إليه حَقّه ما بَلّ بحرٌ صُوفَة ، وفي التآسي في المعاش والتّساهم بالمال . وكانت النّباهة في هذا الحلف للزُّبير بن عبد المطّلب ولعبدِ الله بن جُدعان ، أما ابن جُدْعان فلأنّ الحلف عقِد في داره ؛ وأمّا الزبير فلأنّه هو الّذى نَهَض فيه ، ودعا إليه ، وحَثّ عليه ، وهو الّذى سمّاه حِلفَ الفُضول ، وذلك لأنّه لمّا سمع الزّبيديّ المظلوم

ثَمَن سِلْعته قد أَوْفَى على أبى قُبَيْس قبلَ طلوع الشمس رافعا عقيرتَه وقُريش فى أَنْدِيتها قائلا :

يالَلرّجال لمظلوم بضاعتهُ ... ببطْن مكّةَ نائى الحىّ والنفرِ

إنَّ الحرامَ لمن تمّت حَرامتهُ ... ولا حَرامَ لثَوْبَىْ لابسِ الغدرِ

حَمِى وحَلَف ليعقدنَّ حِلْفا بينه وبين بطون من قريش يَمنَعون القوىَّ من ظُلم الضَّعيف ، والقاطنَ من عنف الغَريب ، ثم قال :

حلفتُ لنَعْقِدنْ حِلْفا عليهمْ ... وإن كنَّا جميعا أهلَ دارِ

نُسمِّيه الفضولَ إذا عقَدنا ... يَعَزُّ به الغَرِيبُ لَدَى الجوارِ

ويَعلَم مَنْ حوالى البيت أنَّا ... أباةُ الضَّيْم نهجُرُ كلَّ عارِ

فبنو هاشم هم الَّذين سَمَّوا ذلك الحِلْف حِلفَ الفُضول ، وهم كانوا سببه، والقائمين به دون جميع القبائل العاقدة له ، والشاهدة لأمره ، فما ظنُّك بمن شَهِده ولم يقمْ بأمره !

قال أبو عثمان : وكان الزبير بن عبد المطلب شجاعا أبيًّا ، وجميلا بهيًّا ، وكان خطيبا شاعرا ، وسيِّدا جواد ، وهو الَّذى يقول :

ولولا الحمسُ لم يَلْبَس رجالٌ ... ثيابَ أعزة حتى يموتوا

ثيابهمُ شِمالٌ أو عَباءٌ ... بها دنسٌ كما دَنس الحميتُ(١)

ولكنَّا خلقنا إذا خَلِقْنا ... لنا الحِبَرات والمسك الفتِيتُ(٢)

وكأسٌ لو تُبين لهمْ كلاما ... لقالتْ إنما لهمُ سُبيتُ(٣)

تبين لنا القذى إن كان فيها ... رضين الحلم يشربها هبيتُ(٤)

---

(١) الحميت ، كأمير : الزق الصغير يتخذ للسمن .

(٢) الحبرات ، بكسر ففتح : ضرب من برود اليمن . والفتيت والمفتوت بمعنى .

(٣) سبيت : جلبت .

(٤) الهبيت : الجبان الذاهل .

ويقطع نخوةَ المختالِ عنّا رَقيقُ الحدّ ضربتُه صموتُ
بكفٍّ مجرِّب لا عيبَ فيه إذا لقىَ الكريهةَ يستميتُ

قال : والزّبير هو الذى يقول :

وأسحمَ من راح العراقِ مملأٍ محيطٍ عليه الجيشُ جلد مرَائرُهْ
صَبحتُ به طَلْقا يَراحُ إلى الندى إذا ما انتشى لم يحتصرْه معاقرُه
ضعيف بجنب الكأسِ قبضُ بنانه كليل على جلد النديم أظافرُه

قال : وبنو هاشم هم الذين رَدّوا على الزّبيدى ثمنَ بضاعته ، وكانت عند العاص بنِ وائل ، وأخذوا للبارقىّ ثمنَ سلعته من أُبَىّ بن خلف الُجمَحَىّ ، وفى ذلك يقول البارقىّ :

ويأبى لكم حِلفُ الفضول ظلامَتى بنى جمحٍ والحقّ يؤخَذ بالغَصْبِ

وهم الذّين انتزعوا من نبيه بن الحجاج قتولَ الحسناء بنت التاجر الخثعمىّ ، وكان كابره عليها حين رأى جمالها ، وفى ذلك يقول نبيه بنُ الحجّاج :

وخشِيتُ الفضولَ حين أتونى قد أرَانى ولا أخافُ الفضولاَ
إنى والّذى يَحُجُّ له شُمْـ ـطُ إيادٍ وهلّلوا تهليــــلا
لبراءٌ منى قُتَيــــلة ياللنـ ـاس هل يتبعون إلّا القَتولا !

وفيها أيضا يقول :

لولا الفُضــــولُ وأنه لا أَمْنَ مِن عُرَوائها (١)
لدنوتُ مِن أبياتهـــا ولطُفْتُ حولَ خِبائهـا (٢)

---

(١) العرورواء ، كالغلواء : قرة الحمى ومسها فى أول رعدتها .
(٢) الخباء كـكساء ، يكون من وبر أو صوف أو شعر .

فى كلمته التى يقول فيها :

حَيٌّ النُّخَيلةَ إذ نأت منّا على عُــــدَوائها
لا بالفراق تُنيلنـــــا شيئاً ولا بلقائهـــا
حَلّتْ بمــكّةَ حَــلّةً فى مَشْيها ووطائهـــا

فى رجالٍ كثير انتزعوا منهم الظلامات ، ولم يكن يظلم بمكة إلا رجالٌ أقوياء ، ولهم العدد والعارضة ، منهم من ذكرنا قصّته .

قال أبو عثمان : ولهاشم أخرى لا يَعُدّ أحدٌ مثلها ، ولا يأتى بما يتعلق بها ، وذلك أنّ رؤساء قبائل قريش خرجوا إلى حرب بنى عامر متساندين ، فكان حربُ بنُ أمية على بنى عبد شمس ، وكان الزبيرُ بنُ عبد المطلب على بنى هاشم ، وكان عبدُالله بن جُدْعان على بنى تيمْ ، وكان هشام بنُ المغيرة على بنى مخزوم ، وكان على كلّ قبيلة رئيس منها ، فهم متكافئون فى التساند ، ولم يحقق واحدٌ منهم الرئاسة على الجميع ، ثم آب هاشمٌ بما لا تبلغهُ يدُ متناول ، ولا يطمع فيه طامع ، وذلك أن النبيّ صلّى الله عليه وآله قال : شهدتُ الفجّار وأنا غلام ، فكنتُ أنبُل فيه على عمومتى ، فنفى مُقامه عليه السلام أن تكون قريش هى التى فجرتْ ، فسُمّيت تلك الحربُ حرب الفِجار ، وثبت أن الفُجور إنما كان ممن حاربهم ، وصاروا بيمنه وبركتِهِ ولما يريد الله تعالى من إعزاز أمره وإعظامه الغالبين العالين ، ولم يكن الله لِيُشْهِده فجْرةً ولا غَدْرة ، فصار مشهده نَصْراً ، وموضعه فيهم حجّةً ودليلا .

قال أبو عثمان : وشرفُ هاشم متّصل ، من حيث عَدَدت كان الشرفُ معك كابراً عن كابر ، وليس بنو عبد شمس كذلك ، فإنّ الحكم بن أبى العاص كان عاديًّا فى الأعلام ، ولم يكن له سناء فى الجاهلية .

وأما أميّة فلم يكن فى نفسه هناك ، وإنما رفعه أبوه ، وكان مضعوفا ، وكان صاحب عُهّار[(١)] يدلُّ على ذلك قول نفيل بن عدىّ جدّ عمر بن الخطاب حين تنافر إليه حربُ بنُ أمية وعبدُ المطلب بن هاشم ، فنفرَ عبدُ المطلب وتعجّب من إقدام حَرْبٍ عليه وقال له :

أَبوكَ مُعَاهِرٌ وأَبوه عَفٌّ ... وذادَ الفيلَ عن بلدٍ حرامِ[(٢)]

وذلك أن أميّة كان تعرّض لامرأة من بنى زُهرة ، فضربه رجل منهم بالسيف ، فأراد بنو أمية ومن تبعهم إخراج زهرة من مكة ، فقام دونهم قيسُ بن عدىّ السهمىّ — وكانوا أخواله ، وكان منيع الجانب ، شديد العارضة ، حَمِىَّ الأنف ، أبِىَّ النفس — فقام دونهم وصاح : «أصبح ليلٌ» ، فذهبت مثلا ، ونادى : الآن الظاعنُ مقيم . وفى هذه القصة يقول وهب بنُ عبد مناف بن زهرة جدّ رسول الله صلّى الله عليه وآله :

مهلا أمىَّ فإنّ البغْىَ مهلَكةٌ ... لا يكسبنّك يومٌ شرّه ذكرُ
تبدو كواكبه والشمسُ طالعةٌ ... يُصبُّ فى الكأس منه الصَّبْر والمَقِرُ[(٣)]

قال أبو عثمان : وصنع أميّة فى الجاهلية شيئا لم يصنعه أحدٌ من العرب ، زوّج ابنه أبا عمرو امرأته فى حياته منه ، فأولدها أبا معيط بن أبى عمرو بن أمية . والمَقيتون فى الإسلام هم الذين نكحوا نساء آبائهم بعد موتهم ، فأما أن يتزوجها فى حياة الأب ويبنىَ عليها وهو يراه ؛ فإنه شىء لم يكن قطُّ .

قال أبو عثمان : وقد أقرّ معاوية على نفسه ورهطه لبنى هاشم حين قيل له : أيُّهمَا كان أسوَد فى الجاهلية ؟ أنتم أم بنو هاشم ؟ فقال : كانوا أسودَ منّا واحدا ، وكنّا

(١) العهار : النزق والخفة والطيش .
(٢) ذاد الفيل : منعه .
(٣) المقر ، ككتف : الصبر أو شبيه به .

أكثَرَ منهم سيّــدا ؛ فأقرّ وادّعى ، فهو فى إقراره بالنقص مَخْصُوم ، وفى ادعائه الفَضل خَصِيم .

وقال جحش بن رئاب الأسدىّ حين نزل مكّة بعد موت عبد المطّلب: والله لأتزوّجَنّ ابنة أكرم أهل هذا الوادى ، ولأحالفَن أعزَّهم، فتزوّج أميمةَ بنت عبد المطّلب ، وحالَفَ أبا سُفْيان بنَ حرب. وقد يُمـكن أن يكون أعزّهم ليس بأكرمهم ،ولا يُمـكن أن يكون أكرمهم ليس بأكرمهم ؛ وقد أقرّ أبو جهل على نفسه ورهطه من بنى مخزوم حين قال : تحارَبْنا نحن وهم ، حتى إذا صرْنا كهاتين قالوا : منا نبىّ . فأقرّ بالتقصير ، ثم ادّعى المســاواة ؛ ألا تراه كيف أقرّ أنه لم يزل يَطلب شَأوَهم[1] ثم ادعى أنه لحِقهم ! فهو مخصوم فى إقراره ، خصيم فى دعواه ، وقد حكم لهاشم دغفل بنُ حَنْظلة النسّابة حين سأله معاوية عن بنى هاشم : فقال : هم أطعمُ للطعام ، وأضرَبُ للهَام[2] ، وهاتان خَصْلتان يجمَعان أكثر الشرف .

قال أبو عثمان : والعَجَب من مُنافَرة حَرْب بن أميّة عبد المطّلب بن هاشم ، وقد لَطَم حربٌ جاراً لخلف بن أسعد جدّ طَلْحة الطّلَحات ، فجاء جاره فشَـكا ذلك إليـه ، فمشى خَلَفٌ إلى حَرْب وهو جالس عند الحِجْر ، فلَطَم وجهه عَنْوة من غير تحاكُم ولا تَراضٍ، فما انتطَحَ فيه عنزان[3] . ثم قام أبو سفيان بنُ حرب مقام أبيه بعـد موته ، فخالفه أبو الأزَيْهِر الدَّوْسىّ ، وكان عظيم الشأن فى الأزْد ، وكانت بينه وبين بنى الوَليد بن المغيرة مُحاكمة فى مصاهرةٍ كانت بين الوليد وبينه ، فجاءه هشامُ بنُ الوليد وأبو الأزَيْهِر قاعــد فى مَقعدِ أبى سُفْيان بذى المجاز ، فضَرَب عُنُقه ، فلم يُدرِك به أبو سُفْيان عَقْلا ولا قَوَدا فى بنى المُغيرة . وقال حسّان بنُ ثابتٍ يذكر ذلك :

---

(١) الشأو : الغاية . (٢) الهام : الرءوس .

(٣) هذا مثل يضرب للأمر يقع ولا يختلف فيه اثنان .

غدا أهلُ حِصْنَىْ ذى المجازِ بسُحْرةٍ وجارُ ابن حَرْبٍ لا يَرُوحُ ولا يَغْدُو
كَساكَ هشامُ بنُ الوليد ثيــابه فأبلِ وأخلِقْ مثلَها جُــدَداً بَعْدُ

* * *

فهذه جملة صالحة ممّا ذكره شيخنا أبو عثمان .

ونحن نورد من كتاب '' أنسابِ قريش '' للزّبير بن بَكار ما يتضمّن شرحا لما أجمله شيخُنا أبو عثمان أو لبعضه ، فإن كلامَ أبى عثمان لمحةٌ وإشارة ، وليس بالمشروح .

قال الزبير : حدّثنى عمر بن أبى بكر العَدَوىّ من بنى عدىّ بنِ كعب قال : حدّثنى يزيد بنُ عبد الملك بن المغيرة بن نوفل ، عن أبيه ، قال : اصطلحتْ قريشٌ على أن وَلِىَ هاشمٌ بعد موتِ أبيه عبدِ مناف السِّقاية والرِّفادة ، وذلك أنّ عبد شمس كان يسافر ، قلّ أن يقيم بمكّة ، وكان رجلا مَعِيلا[1] ؛ وكان له ولدٌ كثير ، وكان هاشم رجلا مُوسرا ، فكان إذا حضر الحجُّ قام فى قريش فقال : يا معشرَ قريش ، إنّكم جيرانُ الله ، وأهلُ بيته ، وإنه يأتيكم فى هذا الموْسِم زُوّار اللهِ يعظّمون حُرمةَ بيته ، فهمْ لذلك ضيفُ الله ، وأحقُّ ضيف بالكرامةِ ضيفُ الله ، وقد خَصّكم الله بذلك ، وأكرَمَكم به ، ثم حَفِظ منكم أفضلَ ما حفظ جارٌ من جاره ؛ فأكرِموا ضيفه وزوّاره ؛ فإنهم يأتون شُعْثاً غُبْرا من كلّ بلد ضَوامِرَ كالقِداح ، وقد أرجَفوا وتَفَلُوْا وقَمِلوا[2] وأرْمَلوا ، فأقْرُوهم وأعينوهم . قال : فكانت قريش تترافد على ذلك ، حتى إنّ كلّ أهلِ بيت ليرسُلون بالشىء اليسير على قدرِ حالهم ، وكان هاشمٌ يُخرج فى كلّ سنة مالاً كثيرا ، وكان قومٌ من قريش يترافدون؛ وكانوا أهلَ يسار ، فكان كل إنسان ربما أرسَل بمائة مثقالِ ذهب هِرَقليّة[3]

(١) يقال : أعال الرجل يعيل ؛ إذا كثر عياله .
(٢) أرجفوا : أكثروا من ذكر الأخبار السيئة ، وقملوا : كثر فيهم القمل . وأرملوا : نفد زادهم .
(٣) هرقلية : نسبة إلى هرقل ملك الروم ؛ وهو أول من ضرب الدنانير .

وكان هاشم يأمر بحياضٍ من أَدَم تُجعَل فى مَواضِع زَمْزم من قبل أن تُحفَر ؛ يُستَقى فيها من البئار التى بمكّة ، فيشرب الحاجّ ، وكان يطعمهم أوّل ما يُطعم قبلَ يوم التَّرْوِيَة بيوم بمكّة وبمِنًى وبجَمْع وعرَفة ، وكان يَثرد لهم الخبز واللّحم والسّمن والسّويق والتّمر ، ويحمل لهم الماء فيسقون بمِنًى ، والماء يومئذ قليل ، إلى أن يَصدُر الحاجّ مِنْ مِنًى ، ثم تنقطع الضِّيافة ، وتتفرّق الناسُ إلى بلادهم .

قال الزبير : وإنما سمّى هاشما لهَشْمه الثَّرِيد ، وكان اسمُه عَمرا ، ثم قالوا : «عَمْرو العلا » لمعاليه . وكان أوّل من سَنّ الرّحْلتين : رحلةً إلى الحبشة ، ورحلةً إلى الشام ، ثم خرج فى أربعين من قريش فبلغ غَزّة ، فَمرِض بها ، فمات ، فدفنوه بها ، ورجعوا بتركته إلى ولده . ويقال : إن الّذى رجع بتركته إلى ولده أبو رُهْم عبد العُزّى بن أبى قيس العامرىّ من بنى عامر بن لؤىّ .

قال الزبير : وكان يقال لهاشم والمطلب : البَدْران ، ولعبد شمس ونَوْفل الأبهران .

قال الزّبير : وقد اختُلِف فى أىّ ولد عبد مناف أسنّ ، والثّبت عندنا أن أسنَّهم هاشم . وقال آدم بنُ عبد العزيز بن عمرَ بن عمرَ بن عبد العزيز بن مَرْوان :

يا أمينَ اللهِ إنى قائـــلٌ قول ذى دِينٍ وبرٍّ وحَسَبْ
عبدُ شمسٍ لا تُهِنْها إنمــا عبدُ شمسٍ عمُّ عبد المطّلبْ
عبدُ شمسٍ كان يَتْلو هاشماً وهُما بعدُ لأمٍّ ولأَبْ

قال الزبير : وحدثنى محمد بن حسن ، عن محمد بن طَلْحة ، عن عثمان بن عبد الرحمن ، قال : قال عبد الله بنُ عبّاس : والله لقد علمتْ قريشٌ أنّ أوّل من أخذ الإيلاف وأجاز لها العِيَرات[1] لهاشم ، والله ماشدّت قريش رحالًا ولا حَبْلا بسَفَر ، ولا أناختْ بعيراً لحضَر

(١) العيرات ، بكسر ففتح : كل ما امتير عليه إبلا كانت أو حميرا أو بغالا ، واحده عير .

إلا بهاشم ، والله إنه أوّلُ من سَقَى بمكّة ماءً عذبا ، وجَعَل بابَ الـكَعْبة ذَهباً لعبد المطّلب.
قال الزبير : وكانت قريش تجّاراً لا تَعْدو تجارتهم مكة إنّما نَقدم عليهم الأعاجم بالسّلع فيشترونها منهم ، يتبايعون بها بينهم ، ويبيعون من حَولهم من العرب ، حتّى رحل هاشم ابنُ عبدِ مناف إلى الشام ، فنزل بقَيْصَرَ ، فـكان يذبح كلّ يومٍ شاةً ، ويصنع جَفْنة من ثريد ، ويدعو الناس فيأكلون ، وكان هاشمٌ من أحسَن الناس خَلْقا وتماما، فذُكر لقيصرَ، وقيل له : هاهنا شابٌّ من قريش يهشم الخبز ، ثم يَصبُّ عليه المَرق ، ويفرِّغ عليه اللّحم، ويدعُو الناسَ . قال : وإنّما كانت الأعاجمُ والرّوم تَصنَع المَرَق فى الصِّحاف، ثم تأتدم عليه بالخبز ، فدعا به قَيصرُ ، فلمّا رآه وكلّمه أُعجب به ،وجَعَل يُرسِل إليه فيدخُل عليه ، فلمّا رأى مكانه سأله أن يأذن لقريش فى القدوم عليه بالمتَاجر ، وأن يـكتب لهم كتبَ الأمان فيما بينهم وبينه، ففعل . فبذلك ارتفع هاشمٌ من قُرَيش . قال الزُّبير: وكان هاشم يقوم أوّل نهار اليوم الأوّل من ذى الحجّة فيُسند ظهرَه إلى الـكعبة من تلقاء بابها فيخطب قريشا فيقول : يامعشرَ قريش ، أنتم سادة العرب ، أحسَنُها وجوهاً ، وأعْظَمُها أحلاماً ، وأوسطُها أنساباً ، وأقربُها أرحاماً . يامعشر قريش ، أنتم جيرانُ بيتِ الله ، أكرَمَـكم بولايته ، وخَصَّـكم بجواره دون بنى إسماعيل ، وحَفِظ منكم أحسَن ماحَفِظ منكم جارٌ من جاره ، فأكرموا ضيفه وزُوّار بيته ، فإنّهم يأتونـكم شُعْثا غُبْرا من كل بلد. فوَرَبِّ هذه البَنيَّة ، لوكان لى مال يَحْمل ذلك لـكَفيتُموه ، ألا وإنّى مخرِج من طيِّبِ مالى وحلاله مالم تُقَطع فيه رَحِم ، ولم يؤخذ بظُـلْم ، ولم يدخل فيه حرام ، فواضعُه ؛ فمن شاء منكم أن يفعلَ مثلَ ذلك فعَل ، وأسألـكم بحرمة هذا البيت ألا يُخرج منكم رجلٌ من ماله لـكرامة زوار بيتِ الله ومَعُونتهم إلّا طيّبا لم يؤخذ ظلما ، ولم تُقطع فيه رَحم ولم يُغتصب . قال : فـكانت قريشٌ تُخرج من صَفْو أموالها ماتحتمله أحوالُها ، وتأتى بها إلى هاشم فيَضَعه فى دار النّدوة لضيافة الحاجّ .

قال الزبير : وممّا رثى به مَطْرود الخزاعىّ هاشماً قوله :

مات النّدَى بالشام لمّا أن ثوَى ... أوْدَى بغزّةَ هاشمٌ لا يبعدِ

فجِفانُه رُذُمٌ لمن ينـتابُه ... والنّصر أدنى باللّسان وباليَدِ(١)

ومن مراثيه له :

ياعين جُودِى وأذْرِى الدّمعَ وَاحتفِلى ... وأبكى خَبيئـةَ نفسِى فى المُلِمّاتِ

وأبكى على كلّ فيّاضٍ أخى حَسَبٍ ... ضَخْمِ الدّسيعـة وهّاب الجزيلاتِ

ماضى الصّريمة عالِى الهمّ ذى شرَف ... جَـلْدِ النّحيزة حمّـال العظيماتِ

صَعب المقادة لا نِـكْسٌ ولا وَكَلٌ ... ماضٍ على الهوْل مِتْلاف الـكريماتِ

مَحض توسّط من كعبٍ إذا نُسبوا ... بُحْبوحةَ المَجْد فى الشّمّ الرّفيعـاتِ

فأبكى على هاشم فى وَسْط بَلْقَعـةٍ ... تَسْفِى الرّياح عليـه وَسْط غزّاتِ

ياعين بكّى أبا الشُّعْث الشّجيّات ... يَبْـكِينَهُ حُسّراً مِثْل البُنيّاتِ

يَبـكين عَمْرو العُلا إذ حان مَصرَعُه ... سَمْح السجيّـة بسّام العَشيّاتِ

يَبـكِـينَه مُعْولات فى مَعـاوِزِهَا ... ياطُولَ ذلك من حزْنٍ وعَوْلاتِ

محزّمات على أوساطهنّ لمـا ... جرّ الزمان مِنَ أحـداثِ المُصيباتِ

أبيتُ أرعَى نجومَ اللّيـل مِن ألَمٍ ... أبـكِى وتبـكِى مَعِى شَجْواً بُنيّاتِى

قال الزّبير : وحدّثنى إبراهيمُ بن المنذِر ، عن الواقدىّ ، عن عبدالرحمن بن الحارث ، عن عِكْرِمة ، عن ابن عباس، قال : أوّل من سَنّ دِيَةَ النّفس مائةً من الإبل عبدُ المطلب ، فجرَت فى قريش والعَرَب سنّتُه ، وأقرّها رسول الله صلى الله عليـه وآله . قال : وأمُّ عبد المطلب سلْمى بنت عَمْرو بن زَيد بن لَبيد ، من بنى النّجّار من الأنصـار ، وكان سبب

(١) فى ب « ردم » ، بالدال صوابه من ا ؛ والرذم كـكتب : القصاع الممتلئة تصب جوانبها .

تزوّج هاشم بها أنّه قَدِم فى تجارة له المدينة ، فنزل على عمرو بن زيد ، فجاءته سَلْمى بطعام فأعجبتْ هاشما ، فخطبها إلى أبيها ، فأنكحه إيّاها ، وشَرَط عليه أن تَلِد عند أهلها ، فبَنَى عليها بالمدينة ، وأقام معها سنتين ، ثم ارتحَل بها إلى مكة ، فحملتْ وأثقلَتْ ، فخرج بها إلى المدينة ، فوضعها عنـد أهلها ، ومضى إلى الشام ، فمات بغَزّة من وجهه ذلك ، وولدتْ عبد المطلب ، فسمّته شيبة الحَمْد لشَعْرة بيضاء كانت فى ذَوائبه حين وُلد ؛ فمكث بالمدينة ستَّ سنين أو ثمانياً . ثم إنّ رجلا من تِهامَةَ مَرّ بالمدينة ، فإذا غِلمانٌ ينتضلون ، وغلامٌ منهم يقول كلّما أصاب : أنا ابن هاشِم بن عبد مناف ، سيّد البَطْحاء ، فقال له الرجل : من أنتَ ياغلام ؟ قال : أنا ابنُ هاشم بن عبدِ مناف . قال : ما اسمُك ؟ قال : شَيْبة الحمد ، فانصَرَف الرجل حتّى قَدِم مكّة ، فيجد المطلب بن عبد مناف جالسا فى الحِجْر ، فقال : قُم إلىّ ياأبا الحارث ، فقام إليه ، فقال : تعلم أنّى جئت الآن من يَثربَ فوجدتُ بهـا غِلمانا يَنْتَضِلون ... وقَصّ عليه مارَأَى من عبد المطلب ، وقال : إنه أَضرَبُ غلام رأيته قطّ ، فقـال له المطلب : أغفلتُه واللهِ ! أما إنى لا أرجع إلى أهلى ومالى حتى آتيه ، فخرج المطّلب حتى أَتَى المدينةَ ، فأتاها عِشاء ، ثم خرج براحِلَته حتّى أتى بنى عَدِىّ بن النجّار فإذا الغِلْمان بين ظَهْرانى المجلس ، فلما نظر إلى ابن أخيه قال للقوم : هـذا ابن هاشم ؟ قالوا : نَعَم ، وعَرَفه القوم فقالوا : هذا ابنُ أخيك ، فإن كنتَ تريدأَخْذَه فالساعة ؛ لا نعلم أمّه ، فإنّهـا إن علمتْ حُلْنا بينك وبينَه . فأناخ راحلتَه ، ثم دعاه فقال : يابنَ أخى ، أنا عمُّك ، وقد أردتُ الذّهابَ بك إلى قومك ، فأركَب ، قال : فوالله ما كَذب أن جلس على عَجُز الرّاحلة ، وجَلَس المطلب على الرّاحلة ثم بعثها فانطلقتْ ، فلمّا علمتْ أمّه قامت تدعو حزنها على ابنها ، فأُخبرتْ أنّه عمه ، وأنه ذهب به إلى قومه . قال : فانطَلَق به المطلب فدخل به مكة ضَحْوةً ، مُردِفَه خلفَه ، والناسُ فى أسواقهم ومجالِسهم ، فقاموا يرحِّبون به ويقولون : مَن هذا الغلام معك ؟ فيقول : عبدٌ لى ابتعتُه بيَثْرِب ، ثم خرج به

حتى جاء إلى الحَزْوَرَة فابتاع له حُلّة ، ثم أدخله عَلَى امرأته خديجة بنت سَعْد بن سَهْم ، فرجّلت شعرَهُ ، ثم ألبَسَه الحُلّة عشيّة ، فجاء به فأجلَسَه فى مجالس بنى عبدمناف، وأخبرَهم خبرَه ، فكان الناسُ بعد ذلك إذا رأوه يطوف فى سِكَك مكة وهو أحسن الناس يقولون: هذا عبدُ المطلب ـ لقولِ المطّلب : هذا عبدى ـ فلَجّ به الاسم ، وترك به شيبة .

وروى الزبير رواية أخرى أنّ سلمَى أمّ عبد المطلب حالت بين المطلب وبين ابنها شيبة ، وكان بينها وبينه فى أمره محاورة ، ثم غلَبَها عليه ؛ وقال :

عرفتُ شيبةَ والنجّارُ قَدْ حَلفتْ ... أبناؤها حولَه بالنّبـل نَنتضِلُ

فأما الشِّعر الذى لحذافة العُذْرىّ والذى ذكره شيخُنا أبو عثمانَ فقد ذكرَه الزبيرُ بنُ بكّار فى كتاب النسب ، وزاد فيه :

كُهولُهمُ خيرُ الكُهولِ ونَسْلهمْ ... كَنَسْلِ الملُوكِ، لا يبُورولا يَجرِى
مُلوكٌ وأبناء الملوكِ وَسادَةٌ ... تفَلّقُ عنهم بَيضة الطائر الصَّقْرِ
مَتَى تَلقَ منهمْ طامحاً فى عِنانِه ... تجدْه عَلَى أجراء والده يجرى
هَمُ مَلَكوا البَطْحاء مَجداً وسُؤدُداً ... وهمْ نَكّلوا عنها غواةَ بنى بَكْرِ
وهم يَغفِرون الذّنب يُنقَم مثلُه ... وهمْ تركوا رأىَ السفاهة والهُجْر
أخارجُ إما أهلِكَنّ فلا تزَلْ ... لهمْ شاكرا حتّى تُغَيَّبَ فى القَبْرِ

قال الزبير : وحدّثنى عن سبب هذا الشعر محمد بن حَسَن ، عن محمد بن طلحة ، عن أبيه ، قال : إن رَكْبا من جُذامَ خَرَجوا صادرين عن الحجّ من مكة ، ففقدوا رجلا منهم عالية بيوتِ مكة ، فيلقون حُذافة العُذْرىّ ، فربطوه وانطلقوا به ؛ فتلقّاهم عبدُ المطلب مقبلا من الطائف ومعه ابنه أبو لهب يقود به ؛ وعبدُ المطلب حينئذ قد ذهب بصرُه ، فلمّا نظر إليه حُذافة بنُ غانم هتَف به ؛ فقال عبدُ المطلب لابنِه :

وَيْلَكَ ! مَن هذا ؟ قال : هذا حذافة بنُ غانم مربوطا مع ركب . قال : فالحقهم فسَلهم ماشأنُهم وشأنُه ، فلَحِقهم أبولهب فأخبَرُوه الخبرَ ، فرجع إلى أبيه، فأخبَرَه ، فقال: وَيْحَكَ! ما معك ؟ قال : لا والله ما مَعِي شيء ؛ قال: فالْحَقْهم لا أمّ لك ! فأعطهم بيدك ، وأطلق الرّجل ، فلَحقَهم أبولهب ، فقال: قد عَرَفتم تجارتى ومالى ، وأنا أحلف لكم لأعطينّكم عشرين أوقيّة ذهبا ، وعَشْرا من الإبل وفَرَسا ، وهذا ردائى رَهْنٌ . فقَبِلوا ذلك منه ، وأطلَقوا حذافة ، فلما أقبل به وقَرُبا من عبد المطلب ، سَمِع عبدُ المطلب صوتَ أبي لهب، ولم يَسمَع صوت حُذافة ، فصاح به : وأَبِي إنّك لعاصٍ ؛ ارجع لا أمَّ لك ! قال : يا أبتَا هذا الرجل معى ؛ فناداه عبدُ المطلب : يا حذافة ؛ أسمِعْنى صوتَك . قال : هأنذا بأبِي أنتَ وأمّى يا ساقىَ الحجيج أرْدِفْنى ؛ فأردَفَه حتّى دخل مكة ؛ فقال حُذافة هذا الشعر .

قال الزبير : وحدّثنى عبدُ الله بن مُعاذ ، عن مَعمَر ، عن ابن شهاب ، قال : أوّل ما ذُكر من عبد المطلب أن قريشا خرجتْ فارّةً من الحَرَم خوفا من أصحاب الفيل ، وعبدُ المطلب يومئذ غلامٌ شابٌّ ، فقال : واللهِ لاأخرُج من حَرَم الله أبغِي العِزَّ فى غيره! فجلس فى البيت وأجْلَت[1] قريشٌ عنه ، فقال عبدُ المطلب :

لا همّ إنّ المرءَ يَمْ ... نَعُ رَحْلَهُ فامنَعْ حَلالكْ
لا يَغلِبَنَّ صَلِيبُهُمْ ... ومِحَالُهمْ أبداً مِحالَكْ[2]

فلم يزل ثابتاً فى الحرمَ حتّى أهلَكَ اللهُ الفيل وأصحابه ، فرجعت قريش وقد عَظُم فيهم بصَبْره[3] وتعظيمه محارِمَ اللهعزّ وجلّ؛ فبينا هو على ذلك ـ وكان أكبر ولدِه وهو الحارث ابنُ عبدِ المطلب قد بَلَغ الحُلم ـ أُرى عبدُ المطّلب فى المنام ، فقيل له : احفر زَمْزَم ، خَبيئة الشيخ الأعْظَم . فاستيْقَظ فقال : اللهمّ بيّن لى الشيخ ، فأُرِى فى المنام مرّة أخرى :

---

(١) أجلت : تفرقت . (٢) المحال : القدرة .
(٣) ب « بصيرته » تحريف ، صوابه فى ا .

اِحْفِرْ تُكْتَم[1] بين الفَرْث والدّم ، فى مَبْحث الغراب ، فى قَرْية النمل ، مستقبلة الأنصاب الحُمْر . فقام عبد المطّلب فمشى حتى جلس فى المسجد الحرام ينتظر ما سُمِّيَ له من الآيات ، فنَحَر بقرةً فى الحزْورة ، فأفلتتْ من جازِرِها بحُشاشةِ نفسِها حتى غَلَب عليها الموتُ فى المسجد فى موضع زَمْزَم ، فاحتمل لحمَها من مكانِها ، وأقبلَ غراب يهوِى حتى وقع فى الفَرْث فبَحَث عن قرية النمل ، فقام عبدُ المطّلب يحفرها، فجاءتْه قريش فقالت له : ما هذا الصّنع ، إنا لم نكن نَراك بالجهل ؛ لِمَ تحفِر فى مسجدنا ؟ فقال عبد المطّلب : إنى لحافر هذا البئر ، ومجاهدٌ من صدّنى عنها ، فطفِق يحفِر هو وابنه الحارث ، وليس له يومئذ ولد غيره، فيسفه عليهما الناسُ من قريش فيُنازعونهما ويقاتلونهما . وتناهى عنه ناسٌ من قريش لِمَا يعلَمون من زعيق نسبه وصِدْقه ، واجتهاده فى دينهم يومئذ ، حتى إذا أتعَبه الحفْر ، واشتدّ عليه الأذى نَذَر إنْ وفى له عشرة من الولْدان ينحَر أحدَهم ، ثم حفر فأدرك سُيوفًا دُفنتْ فى زَمزم حين دفنتْ ، فلما رأت قريش أنه قد أدرك السيوف قالت : يا عبد المطّلب ، أُحْذُنا[2] مما وجدت . فقال عبدُ المطّلب: بل هذه السيوف لبيت الله، ثم حَفَر حتى أنبط الماء ، فحفرها فى القَرار ، ثم بحَرها حتى لا تَنزف ، ثم بنى عليها حوْضا وطفِق هو وابنه يَنزِعان فيملآنِ ذلك الحوض، فيشرب منه الحاجّ ، ويَكسره قوم حَسَدة له من قريش بالّليل ، فيُصلِحه عبدُ المطلب حين يُصبح ،فلما أكثروا فسادَه دعا عبدُ المطّلب ربَّه ، فأُرِيَ ، فقيل له : قل : اللّهم إنى لا أُحلّها لمغتسِل ، وهى لشارب حلّ وبلّ ، ثم كُفيتهم، فقام عبد المطلب حين اختلَفَ قريش فى المسجد، فنادى بالّذى أُرِيَ، ثم انصرف فلم يكن يُفسِد حوضَه عليه أحدٌ من قريش إلّا رُمى فى جسده بداء ، حتى تركوا حوضَه ذلك وسقايته . ثم تزوّج عبدُ المطلب النّساء ، فوُلِد له عشرةُ رَهْط ، فقال : اللهمّ إنى

---

(١) تكتم ، بضم فسكون : اسم بئر زمزم .
(٢) احذنا : اعطنا .

كنتُ نذرتُ لك نحرَ أحدِهم ، وإنى أُقرِع بينهم ، فأَصيب بذلك من شئت ، فأقرَعَ بينهم ، فطارت القُرْعة على عبد الله بن عبد المطلب أبى رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ، وكان أحبَّ ولدِه إليه ، فقال عبدُ المطلب : اللهمّ هو أحبّ إليك أم مائة من الإبل ! فنحَرها عبدُ المطلب مَكانَ عبد الله ، وكان عبد الله أحسنَ رجل رُئى فى قريش قطّ .

وَرَوَى الزبير أيضا قال : حدّثنى إبراهيم بنُ المُنذر ، عن عبد العزيز بن عمران ، عن عبد الله ابن عثمان بن سليمان قال : سمعتُ أبى يقول : لما حُفرت زمْزم ، وأَدرَكَ منها عبدُ المطلب ما أَدرَك ، وَجَدتْ قريشٌ فى أنفُسها ممّا أُعطى عبدُ المطلب ، فلقيَه خُوَيلد بنُ أسَد بن عبد العزّى فقال : يابن سلمى ، لقد سقيت ماء رغَدا ، ونثلت عاديّة حَسدا ، فقال : يابن أَسَد ، أما إنك تَشرَكُ فى فضلها ، والله لايُساعدنى أحدٌ عليها ببرّ ، ولا يقوم معى بارزاً إلا بذلتُ له خيرَ الصِّهر ، فقال خُوَيلدُ بنُ أسَد :

أقــولُ وما قولى عليهمْ بسُبّةٍ إليك ابن سلْمى أنت حافرُ زَمْزَمِ
حَفيرةُ إبراهيمَ يومَ ابن هاجر ورَكْضــةُ جبْريلٍ على عهد آدم

فقال عبدُ المطلب : ما وجدت أحدا وَرِث العلمَ إلا قدم غيرَ خُويلد بن أسد .

قال الزّبير : فأما رَكْضةُ جبريل فإن سعيدَ بن المسيِّب قال : إنّ إبراهيم قَدِم بإسماعيل وأمِّه مكة ، فقال لهما : كلاَ من الشجر ، واشرَبا من الشِّعاب . وفارَقهما ، فلمّا ضاقتْ الأرضُ تقطعت المِياه ، فعَطِشا ، فقالت له أمُّه : اصعد وانصَب فى هذا الوادى فلا أرى موتك ولا ترَى مَوتى ، ففعل ، فأنزل اللهُ تعالى مَلَكا من السماء على أمّ إسماعيل ، فأمرَها فصرّحتْ به ، فاستجاب لها ، وطار الملك فضربَ بجناحيه مكانَ زمزم ، فقال : اشربا ، فكان سَيْحا يَسيح ، ولو ترَكاه ما زال كذلك أبدا ، لكنّها فَرَقت[1] عليه من العطَش ، فقرت[2] له فى السِّقاء ، وحفرتْ فى البَطْحاء ، فلما نَضَبَ الماء طوَياه ؛ ثم

(١) فرقت : خافت .

(٢) كذا فى الأصول .

هلك الناس ، ودفَنَتْه السُّيول . ثم أرى عبدُ المطلب فى المنام أن احفِرْ زمزَم لا تُترَّب[1] ولا تذمّ ، تُروى الحجيج الأعظم . ثم أرِى مرّة أخرى أن أحفر الرّواء ، أعطيتَها على رَغْم الأعداء . ثم أرِىَ مرّة أخرى ، أن احْفِر تُكْتَم ، بين الأنصاب الُحمر ، فى قَرية النمل . فأصبح يحفر حيث أُرِى . فطفقتْ قريش يستهزئون به ، حتى إذا بدا عن الطىّ وَجد فيها غزالا من ذهب ، وحلية سَيف ؛ فضرَب عليها بالسِّهام ؛ فخرج سهمُ البيت ؛ فكان أوّل حُلِيٍّ حُلّى به الكعبة .

قال الزّبير : وكان حربُ بنُ أميّة بن عبدِ شمس نديم عبدِ المطلب ، وكان عبيدُ بن الأبرص تِرْبه ، وبلغ عبيد مائةً وعشرين سنةً ، وبقى عبد المطلب بعده عشرين سنة .

قال : وقال بعض أهل العِلم : توفِّىَ عبدُ المطلب عن خمس وتسعين سنة ، ويقال : كان يُعرف فى عبد المطلب نور النبوّة ، وهيبةُ الملك ، وفيه يقول الشاعر :

إننى واللّات والبَيتِ الذى لزّ بالِهبْرِزِ عبدِ المطّلب[2]

قال الزبير : حدّثنى عمى مصعَب بن عبد الله ، قال : بينا عبد المطلب يطوف بالبيت بعد ما أسَنّ وذهب بصره ، إذ زَحمه رجل ، فقال : مَن هذا ؟ فقيل : رجل من بنى بكر . قال : فما مَنعه أن يُنكِّب عنّى وقد رآنى لا أستطيع لأن أنكّب عنه ! فلما رأى بنيه قد توالوا عَشَرة قال : لا بدّ لى من العصا ؛ فإن اتخذتها طويلةً شقّت علىّ ؛ وإن اتخذتُها قصيرةً قويتُ عليها ، ولكن ينحدب لها ظَهْرِى ؛ والحدبة ذلّ ، فقال بَنوه : أو غيرُ ذلك ؟ يوافيك كلّ يوم منّا رجل تتوكأ عليه فتطوف فى حوائجك . قال : ولذلك قال الزبير : ومكارم عبد المطلب أكثر من أن يُحاطَ بها ؛ كان سيّد قريش غيرَ مُدافَعٍ نَفْسا وأبًا وبيتًا وجمالا وبهاء وكمالا وفعالا ؛ قال أحدُ بنى كنانة يمدحه :

---

(١) لا تترب عليه : لا تمنعه . (٢) الهبرز : الأسد .

إنى وما سترتْ قريشٌ والذى ... تعزُو لآلٍ كأنّهنّ ظباء[1]
ووَحَقٍّ من رفع الجبالَ مُنيفةً ... والأرضَ مدًّا فوقهنّ سماء[2]
مُثْنٍ ومهدٍ لابن سلمى مِدحةً ... فيها أداء ذِمامِه ووَفاء

قال الزبير : فأما أبو طالب بنُ عبد المطلب ـ واسمه عبد مناف ، وهو كافلُ رسول اللهِ صلّى الله عليه وآله ، وحاميه من قريش وناصرُه ، والرّفيق به ، الشفيق عليه ، ووصىّ عبد المطلب فيه ـ فكان سيد بنى هاشم فى زمانه ، ولم يكن أحد من قريش يسودُ فى الجاهلية بمالٍ إلا أبو طالب وعُتبة بن ربيعة .

قال الزبير : أبو طالب أول من سَنَّ القَسامة[3] فى الجاهليّة فى دم عَمرو بن علقمة ، ثم أثبتتها السنة فى الإسلام ، وكانت السّقاية فى الجاهلية بيد أبى طالب ، ثم سلمها إلى أخيه العباس بن عبد المطلب .

قال الزبير : وكان أبو طالب شاعراً مجيدا ، وكان نديمه فى الجاهلية مسافرُ بنُ عمرو ابن أمية بن عبد شمس ، وكان قد حُبِن[4] فخرج ليتداوى بالحيرة ، فمات بهُبالة[5] ، فقال أبو طالب يرثيه :

ليت شعرى مسافرُ ابنُ أبى عَمْ ... رٍو ولَيتٌ يقولها المحزونُ
كيف كانت مذاقةُ الموت إذ مُتّ ... وماذا بعدَ المماتِ يكونُ !
رَحل الرّكب قافلين إلينا ... وخليلى فى مَرْمسٍ مَدْفونُ
بُورِكَ الميتُ الغريبُ كما بو ... رِكَ نَضرُ الرّيحان والزّيتونُ

---

(١) تعزو : تنسب ؛ وفى ب : « كأنهن » تحريف .
(٢) المنيفة : العالية .
(٣) القسامة بالفتح : الأيمان تقسم على أولياء القتيل إذا ادعوا الدم .
(٤) الحبن بالتحريك : الاستسقاء . (٥) هبالة : موضع .

رُزْءُ مَيْتٍ على هُبالَةَ قد حا   لت فَيافٍ من دُونه وحُزونُ
مِدْرَهٌ يدفع الخصومَ بأيْدٍ   وبَوْجـه يزينـه العِرْنينُ[1]
كم خليـلٍ وصاحب وابن عَمٍّ   وحميم قَفَّتْ عليـه المنونُ!
فتعزَّيتُ بالجـلادة والصَّبْـ   ـرِ وإنى بصـاحبى لضنينُ

قال الزبير : فلما هلك مسافرٌ نادَم أبو طالب بعده عمرو بن عبد بن أبى قيس بن عبد ودّ بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤىّ ، ولذلك قال عمرو لعلىّ عليه السلام يوم الخندق حين بارزه : إن أباك كان لى صديقا .

قال الزبير : وحدثنى محمد بن حسن ، عن نصر بن مزاحم ، عن معروف بن خربوذ ، قال : كان أبو طالب يحضر أيام الفِجار ، ويحضرُ معه النبىّ صلّى الله عليه وآله وهو غلام ، فإذا جاء أبو طالب هُزِمت قيس ، وإذا لم يجىء هزمت كنانة ، فقالوا لأبى طالب : لاأبالك ! لاتغب عنّا ، فَفَعل .

قال الزبير : فأما الزبير بنُ عبد المطلب فكان من أشراف قريش ووجوهها ، وهو الذى استثنته بنو قصىّ على بنى سهم حين هجا عبد الله بن الزِّبَعْرَى بن قصى فأرسلت بنو قُصَىّ عتبة بنَ ربيعة بن عبد شمس إلى بنى سهم ، فقال لهم : إنّ قومكم قد كَرهوا أن يعجلوا عليكم ، فأرسَلونى إليكم فى هـذا السفيه الذى هجاهم فى غير ذنب اجترموا إليه ، فإن كان ماصنع عن رأيكم فبئس الرأىُ رأيكم ، وإن كان عن غير رأيكم فادفعوه إليهم . فقال القوم : نبرأ إلى الله أن يكون عن رأينا . قال : فأسلموه إليهم ، فقال بعضُ بنى سهم : إن شئتم فعلنا ؛ على أن من هجانا منكم دفعتموه إلينا . فقال عتبة : مايمنعنى أن أقول ماتقول إلا أن الزبير بن عبد المطلب غائبٌ بالطائف ،

---

(١) الأيد : الشدة . والعرنين : الأنف .

وقد عرفت أنه سيفرغ لهذا الأمر فيقول : ولم أكن أجعل الزبير خطرا لابن الزِّبَعْرَى ، فقال قائل منهم : أيّها القوم ، ادفعوه إليهم ، فلعمرى إنّ لكم مثل الذى عليكم ، فكثر فى ذلك الكلام واللّغط ، فلما رأى العاصُ بنُ وائل ذلك دعا بُرْمة ، فأوثق بها عبد الله ابن الزِّبَعْرَى ، ودفعه إلى عتبة بن ربيعة ، فأقبل به مربوطا حتى أتى به قومه ؛ فأطلقه حمزة بنُ عبد المطلب وكساه ، فأغرى ابن الزِّبَعْرى أناس من قريش بقومه بنى سهم ، وقالوا له : أُهجُهم كما أسلموك ، فقال :

لَعَمْرِىَ ماجاءتْ بنُكْرٍ عشيرتى ... وإن صالحتْ إخوانَها لا ألومُها
فَوَدَّ جُناة الشرِّ أن سيوفنا ... بأيماننا مسلولةٌ لا نشيمها
فيقطع ذو الصِّهر القريب ويتركوا ... غماغمَ منها إذ أجدّ يَرِيمها[(١)]
فإنّ قصيًّا أهلُ مجدٍ وثروةٍ ... وأهلُ فعال لا يُرام قديمها
همُ منعوا يومَىْ عكاظَ نِساءنا ... كما منع الشَّوْلَ الهجانَ قُرومُها[(٢)]
وإن كان هيجٌ قدّموا فتقدّموا ... وهل يمنع المخزاة إلّا حميمُها !
محَاشيدُ للمقْرَى سراعٌ إلى النَّدَى ... مَرازِبة غلبٌ رِزانٌ حُلومُها[(٣)]

قال : فقدِم الزّبير بنُ عبد المطلب من الطائف ، فقال قصيدته التى يقول فيها :

فلولا الحُمْسُ لم يلبس رجالٌ ... ثيابَ أعزة حتى يموتوا[(٤)]

وقد ذكرنا قطعةً منها فيما تقدّم .

قال الزبير : وقال الزبير بنُ عبد المطلب أيضا فى هذا المعنى :

---

(١) يريمها : يطلبها .
(٢) الشائلة من الإبل : التى أتى عليها من حملها سبعة أشهر نخف لبنها . وجمعه شول ، وهجان الإبل : كرامها .
(٣) المرزبان : الفارس الشجاع المتقدم على القوم دون الملك ، معرب؛ والأصل فيه أحد مرازبة الفرس، وغلب : جمع أغلب ، وهو فى الأصل الغليظ الرقبة ، يصفون أبداً السادة بغلظ الرقبة وطولها .
(٤) الحمس هنا : قريش ومن ولدت ؛ سموا حمساً لأنهم تحمسوا فى دينهم ؛ أى تشددوا .

قومى بنو عبدِ منافٍ إذا　　أظلم مَنْ حولىَ بالجندَلِ
لا أسَدٌ لن يُسلِمونى ولا　　تيمٌ ولا زُهرة للنَّيْطَلِ(١)
ولا بنو الحارث إن مرّ بى　　يومٌ من الأيام لا ينجلى
يأيُّها الشاتِمُ قومى ولا　　حقَّ له عندهُمُ أقبِلِ
إنِّى لهمْ جارٌ لئن أنت لم　　تُقصِر عن الباطل أو تَعدلِ

قال الزبير : ومن شعر الزبير بن عبد المطلب :

ياليت شعرى إذا ماحُمّتى وقعت　　ماذا تقول ابنتى فى النَّوح تنعانى !
تنعى أباً كان معروف الدِّفاع عن الـ　　مَوْلىالمضافِ وفكّاكاً عن العانى(٢)
ونعمَ صاحبُ عانٍ كان رافده　　إذا تضجَّع عنه العاجز الوانى(٣)

قال الزّبير : وكان الزبيرُ بنُ عبد المطلب ذا نظر وفكر ، أتى فقيل له : مات فلانٌ ـ لرجل من قريش كان ظلوماً ـ فقال : بأىّ عقوبة مات ؟ قالوا : مات حتفَ أنفه ! فقال: لئن كان ماقلتموه حقًّا إنّ للناس معاداً يؤخذ فيه للمظلوم من الظالم .

قال : وكان الزبير يكنى بأبى الطاهر ، وكانت صفيّة بنت عبد المطلب كَنَتْ ابنها الزبير بن العوام أبا الطاهر دهراً بكُنية أخيها ، وكان للزبير بن عبد المطلب ابنٌ يقال له الطّاهر ، كان من أظرف فِتيان مكة ، مات غلاماً ، وبه سمّى رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ابنه الطاهر ، وباسم الزّبير سمّت أخته صفية ابنها الزّبير ، وقالت صفيّة ترثى أخاها الزبير بن عبد المطلب :

بَكّى زبيرَ الخير إذ ماتَ إنْ　　كنتِ على ذى كَرم باكيَهْ

---

(١) النيطل : الموت الوحىّ .　　(٢) العانى : الأسير .
(٣) التضجيع فى الأمر : التقصير فيه .

لو لفَظتْــه الأرضُ مالمتُهــا   أو أصبحتْ خاشعــة عاريَهْ
قد كان فى نفسىَ أن أترُكَ الْــمَوتى ولا أتبعُهمْ قافيَـــهْ
فلم أُطــقْ صَــبْراً على رُزئه   وجــدنهُ أقربَ إخوانيَــهْ
لو لم أقــلْ مِنْ فىَّ قولاً له   لقضَت العَــبْرة أضلاعيَــهْ
فهوَ الشــآمى واليمانى إذا   ماخضّروا ، ذو الشّفرة الدّاميَهْ

وقال ضِرار بن الخطّاب يبكيه :

بَـكّى ضُباعُ على أبيـ   ـكِ بكاءَ محــزونٍ أليمْ
قـــد كنتُ أنشدُه فلا   رَثَّ السِّــلاح ولا سليمْ
كالـكَوْكب الدُّرىّ يعـ   ـلو ضوءه ضوء النّجـومْ
زخرتْ به أعراقُــه   ونمــاه والدُه الـكريمْ
بين الأغــرِّ وهاشمٍ   فَرْعَين قـد فَرَعَا القرومْ

***

فأما القَتُول الخَثْعَميّة التى اغتصبها نبيه بنُ الحجّاج السّهمىّ من أبيها ، فقـد ذكر الزّبير بن بكّار قصّتها فى كتاب ” أنساب قريش “ .

قال الزبير : إنّ رجلا من خثْعم قَدم مكة تاجرا ومعه ابنة يقال لها القَتول ، أوضأ نساء العالمين ، فعَلِقَها نبيه بن الحجّاج السَّهْمىّ ، فلم يَبرح حتىّ غاب أباها عليها، ونقلها إليه ، فقيل لأبيهـا : عليك بحلْف الفضول ، فأتاهم فَشـكا إليهم ذلك ، فأتوا نبيـه بن الحجّاج فقالوا له : أَخرج ابنةَ هذا الرجل ـ وهو يومئذ منتبذ [1] بناحية مكة ،وهى معه ـ وإلا فإنّا مَن قد عرفت ، فقـال : ياقوم ، متّعونى بهـا الليلة ، فقـالوا : قبحك الله !

---

(١) منتبذ ، أى منتح ناحية مكة .

ما أجهلك ، لا والله ولا شَخْب لَقْحة ، فأخرجَها إليهم فأعطوها أباها ، فقال نبيه بن الحجّاج فى ذلك قصيدةً أوّلها :

راح صَحْبى ولمْ أُحيِّ القَتولَا ... لم أُودِّعهمُ وَدَاعًا جميلا [(١)]

إذ أجدَّ الفُضُول أن يمنَعوها ... قد أرانى ولا أخافُ الفُضولا

فى أبيات طويلة .

* * *

وأما قصة البارقىّ فقد ذكرها الزبير أيضا .

قال : قدِم رجلٌ من ثُمالةَ من الأزْد مكة ، فباع سلْعة من أبىّ بن خَلَف الجُمحىّ فمَطَله بالثمن ؛ وكان سيِّئَ المخالطة ، فأتى الثمالىّ أهلَ حلف الفُضول فأخبرهم،فقالوا:اذْهب فأخبره أنك قد أتيتنا ، فإن أعطاك حقَّك وإلا فارجع إلينا ، فأتاه فأخبرَه بماقال أهلُ حِلْف الفُضُول ؛ فأخرَج إليه حقَّه فأعطاه ، فقال الثُّمالىّ :

أيفجُر بى ببَطْنِ مَكّةَ ظالمًا ... أُبَىٌّ ولا قَوْمى لَدىَّ ولا صَحْبى

وناديتُ قومى بارقًا لتُجيبَنى ... وكمْ دونَ قَومِى مِن فَيافٍ ومن سُهْب! [(٢)]

ويأبَى لكمْ حِلْف الفُضول ظُلامتى ... بنى جُمَحٍ والحقّ يؤخذ بالغَصْب

* * *

وأمّا قصّة حِلْف الفُضول وشرفه فقدذَكرهاالزّبيرفى كتابهأيضا،قال: كان بنوسهم وبنو جُمَح أهلَ بَغْيٍ وعُدْوان ؛ فأكثروا من ذلك،فأجمع بنوهاشم وبنوالمطلّب وبنوأَسَد وبنو زُهْرة وبنو تَيْم على أن تحالَفوا وتَعاقَدوا عَلَى ردّ الظّلْم بمكة ، وألّا يُظلَمَ أحدٌ

---

(١) ب : « صبحى » تحريف ، صوابه فى ا .

(٢) الفيف : المفازة التى لا ماء فيها ؛ وإذا أنثت فهى الفيفاء وجمعها الفيافى ، والسهب بفتح السين : الأرض الواسعة ، يجمع على سهب (بضمتين) وسكنت الهاء للشعر .

إلا مَنَعوه ، وأخذوا له بحَقِّه ، وكان حِلْفهم فى دارِ عبد الله بن جُدْعان ، قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : « لقدشهدتُ فى دار عبدِ الله بن جُدْعان حِلْفا ماأُحِبّ أنّ لى به حُمْرَ النَّعَم ، ولو دعيتُ به اليومَ لأجبتُ، لايزيده الإسلام إلّا شِدّة » .

قال الزبير : كان رجلٌ من بنى أَسَد قد قدم مكة معتمِرا ببضاعة ، فاشتراها منه العاص بنُ وائل السَّهمىّ ،فآواها إلى بيته ، ثم تغَيّب، فابتغى الأسدىّ[(١)] متاعَه فلم يَقدِر عليه ، فجاء إلى بنى سَهْم يستَعْدِيهم عليه ، فأغلَظوا له ، فعرف أن لاسبيل له إلى ماله ، وطَوّف فى قبائل قريش يستنفِر بهم ، فتخاذلت القبائل عنه ، فلمّا رأى ذلك أشرف على أبى قُبيس حين أخذتْ قريش مجالسَها ، ونادى بأعلى صوته :

يالَلرّجال لِمظلومٍ بِضاعَتُه ... ببَطْن مَكة نائِى الأهلِ والنَّفَرِ
ومُحرِمٍ أشعَثٍ لم يَقضِ عُمْرتَه ... يا آلَ فِهْرٍ وبين الحِجْر والحجَرِ[(٢)]
هل مُنصِف من بنى سَهْم فمرتجعٌ ... ماغيّبوا أم حلال مالُ معتمر[(٣)]!

فأعظمتْ ذلك قريش ، وتكلّموا فيه ؛فقال المطيّبون : والله إن قمنا فى هذا ليغضبنّ الأحلاف ؛ وقالت الأحلاف : والله إنْ قمنا فى هذا ليغضبَنّ المطيّبون ؛ فقالت قبائل من قريش : هلمّوا فلنحتلف حِلفاجديدا ؛لننصرنّ المظلوم على الظالم مابلّ بحرٌ صوفة. فاجتمعت هاشم والمطّلب وأسدٌ وتيْم وزُهرة فى دار عبد الله بن جُدْعان ورسول الله صلى الله عليه وآله يومئذ معهم وهو شابّ ابن خمس وعشرين سنة لم يوحَ إليه بعدُ ، فتحالفوا ألّا يُظلَمَ بمكة غريبٌ ولا قريبٌ ولا حرّ ولا عبدإلا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه ، ويردُّوا إليه مظلمَته من أنفسهم ومن غيرهم، ثم عمَدوا إلى ماء زَمزَم فجعلوه فى جفنة ، ثم بعثوا به إلى البيت ، فغسلوا به أركانه ، ثم جمعوه وأتوهم به فشربوه ، ثم انطَلَقوا إلى العاص بن وائل

---

(١) فى ا ، وب : « الزبيدى » ، تصحيف .
(٢) ب : « يا أهل » .
(٣) ا ، ب : « ضلال » تحريف .

فقالوا له : أدِّ إلى هذا حقّه ، فأدَّ إليه حقه ، فمكثوا كذلك دهراً لا يُظلَم أحد بمكة إلا أخذوا له حقه ؛ فكان عتبة بنُ ربيعة بن عبد شمس يقول : لو أنَّ رجلا وحده خرج من قومه لخرجت من عبد شمس ؛ حتى أدخل فى حِلْف الفضول .

* * *

قال الزبير : وحدثنى محمد بن حسن ، عن محمد بن طلحة ، عن موسى بن محمد ، عن أبيه ، أنّ الحلف كان على ألّا يدَعوا بمكة كلها ولا فى الأحابيش مظلوما يدعوهم إلى نصْرته إلا أنجدوه حتى يردّوا عليه ماله ومظلمته ، أو يُبلوا فى ذلك عُذْرا ؛ وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعلى التآسى فى المعاش .

قال الزبير : ويقال : إنه إنما سمّىَ حِلْف الفضول لأن رجالا كانوا فى وجوههم تحالفوا على ردّ المظالم ، يقال لهم فُضيل وفضّال وفضْل ومفضل ، فسمِّىَ هذا الحلف حلْف الفضول ؛ لأنه أحيا تلك السنّة التى كانت ماتت .

قال الزبير : وقدم محمد بن جبير بن مطعِم على عبد الملك بن مروان — وكان من علماء قريش — فقال له : يا أبا سعيد ، ألم نكن — يعنى بنى عبد شمس — ، وأنتم فى حلف الفضول؟ فقال : أمير المؤمنين أعلم ؛ قال : لتخبرنّى بالحق ، قال : لا والله يا أمير المؤمنين ؛ لقد خرجنا نحن وأنتم منه ، وما كانت يدنا ويدكم إلّا جميعا فى الجاهلية والإسلام .

* * *

قال الزبير : وحدثنى محمد بنُ حسن ، عن إبراهيم بن محمد ، عن يزيد بن عبد الله ابن الهادى الليثىّ ، أنّ محمد بن الحارث أخبره ، قال : كان بين الحسين بن علىّ عليه السلام وبين الوليد بن عتبة بن أبى سفيان كلام فى مال كان بينهما بذى المرْوة ، والوليد يومئذ أميرُ المدينة فى أيام معاوية ، فقال الحسين عليه السلام : أيستطيل الوليد علىّ بسلطانه!

أقسم بالله لينصفنِّى من حقى أو لآخذنّ سيفى ثم أقوم فى مسجد الله فأدعو بحِلْف الفضول! فبلغت كلمتُه عبدَ الله بن الزبير ، فقال : أحلف بالله لئن دعا به لآخذنّ سيفى ، ثم لأقومنّ معه حتى ينتصف أو نموت جميعاً . فبلغت المِسْور بن مخرمة بن نوفل الزهرىّ ، فقال مثلَ ذلك ، فبلغت عبدَ الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمىّ ، فقال مثل ذلك ، فبلغ ذلك الوليد ابن عتبة ، فأنصف الحسين عليه السلام من نفسه حتى رضىَ .

* * *

قال الزبير : وقد كان للحسين عليه السلام مع معاوية قصّة مثل هذه ، كان بينهما كلامٌ فى أرض للحسين عليه السلام ، فقال له الحسين عليه السلام : اختر منّى ثلاث خصال ؛ إمّا أن تشترىَ منّى حقى ، وإمّا أن تردّه علىّ ، أو تجعلَ بينى وبينك ابن عمر أو ابن الزبير حكَمًا ؛ وإلا فالرابعة ، وهى الصَّيْلَم . قال معاوية : وماهى ؟ قال : أَهتف بحِلْف الفضول ، ثم قام فخرج وهو مُغضَب ، فمرَّ بعبد الله بن الزبير فأخبرَه ، فقال : والله لئن هتفتَ به وأنا مضطجع لأقعدَنّ ، أو قاعدٌ لأقومنّ ، أو قائم لأمشيَنّ ، أو ماشٍ لأسعيَنّ ، ثم لتنفدَن روحى مع روحك ، أو لينصفنّك . فبلغتْ معاوية ، فقال : لا حاجة لنا بالصَّيلم ؛ ثم أرسل إليه أن ابعث فانتقد مالك ؛ فقد ابتعناه[1] منك .

قال الزبير : وحدّثنى بهذه القصة علىُّ بن صالح عن جدِّى عبد الله بن مُصعب ، عن أبيه ، قال : خرج الحسينُ عليه السلام من عند معاوية وهو مغضَب ، فلقىَ عبدالله بن الزبير ، فحدّثه بما دار بينهما ، وقال : لأخيّرنّه فى خصال ، فقال له ابن الزبير ماقال ، ثم ذهب إلى معاوية ، فقال : لقد لقينى الحسين فخيّرك فى ثلاث خصال ، والرابعة الصَّيْلم ، قال معاوية : فلا حاجة لنا بالصيلم ، أظنّك لقيتَه مغضَبا ! فهات الثلاث ، قال : أن تجعلنى

---

(١) ب : « واتبعناه » .

أو ابن عمر بينك وبينه . قال : قد جعلتك بينى وبينه ، أو جعلت ابن عمر أو جعلتكما جميعا. قال أو تُقِرّ له بحقه ثم تسأله إياه . قال : قد أقررت له بحقه وأنا أسأله إيّاه ، قال : أو تشتريه منه ، قال : قد اشتريته منه ، فما الصيلم؟ قال : يهتف بحِلْف الفضول ، وأنا أوّل من يجيبه. قال : فلا حاجة لنا فى ذلك .

وبلغ الكلام عبد الله بن أبى بكر والمِسْور بن مخرمة ، فقالا للحسين مثل ما قاله ابنُ الزبير.

***

فأمّا تفجُّر المـاء من تحت أخفاف بعيرِ عبد المطلب فى الأرض الجُرُز فقد ذكره محمد بن إسحاق بن يسار فى كتاب السيرة ، قال : لما أنبط[1] عبدُ المطلب الماءَ فى زمزم حسدتْه قريش ، فقالت له : ياعبد المطلب ، إنها بئْر أبينا إسماعيل ، وإنّ لنا فيها حقـا فاشركنا معك . قال : ماأنا بفاعل ، إنّ هذا الأمر أمرٌ خُصصتُ به دونَـكم وأعطيتُه من بينكم ، قالوا له : فإنّا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها ، قال : فاجعلوا بينى وبينكم حَـكما أحاكمكم إليه ، قالوا : كاهنة بنى سعد بن هُذيم ، قال: نعم ، وكانت بأشراف الشام ، فركب عبدُ المطلب فى نفرٍ من بنى عبدِ مناف ، وخرج من كلّ قبيلة من قبائل قريش قوم ، والأرض إذ ذاك مَفاوِز[2] ، حتى إذا كانوا ببعض تلك المفاوِز بين الحجاز والشام نَفِد ما كان مع عبد المطلب وبنى أبيه من الماء فعطِشوا عطشا شديدا ، فاستسقوا قومَهم ، فأبوْا أن يَسقُوهم ، وقالوا : نحن بمفَازة ونخشى على أنفسنا مِثل الذى أصابكم . فلمّا رأى عبدُ المطلب ماصَنَع القومُ وخافَ على نفسه وأصحابه الهلاك ، قال لأصحابه : ماتَرَون ؟ قالوا : مارأيُنا إلّا تَبعٌ لرأيك ، فمُرْنا بما أحبَبْت ، قال : فإنّى أرى أن يحفِر كلُّ رجل منّا حفرةً لنفسه بما معه الآن من القوّة ؛ فكلّما مات رجل دفنَه أصحابه فى حُفرته ؛ حتى يكونَ رجلٌ واحد ، فضيْعة

---

(١) أنبط الماء : استخرجه وطلبه .

(٢) المفاوز : جمع مفازة ، وهى البرية القفر ، أو التى لا ماء فيها ؛ وسميت مفازة لأن من خرج منهـا وتباعد عنها فاز وغنم .

رجل واحد أيسَرُ من ضَيْعة رَكْب ، قالوا : نِعْمَ ما أشرتَ ! فقام كلّ رجل منهم فحَفر حفيرةً لنفسه ، وقعدوا ينتظِرون الموت . ثم إن عبدَالمطلب قال لأصحابه : والله إنّ إلقاءنا بأيدينا كذا للموت ؛ لا نضرب فى الأرض فنَطلب الماءَ لَعجْز ؛ قومُوا فعسَى الله أن يرزقنا ماء ببعض الأرض ، ارتحلوا . فارتحلوا ومَن معَهم من قبائل قريش ينظُرون إليهم ماهم صانعون ، فتقدّم عبدُ المطلب إلى راحلته فرَكبها ، فلمّا انبعثتْ به انفجر من تحت خُفّها عَين من ماء عَذب ، فكَبّر عبدُ المطلب وكبّر أصحابه ، ثم نزَلَ فشَرِب وشرِب أصحابُه ، واستقوْا حتى ملأوا أسقيتَهم ، ثم دعا القبائل من قريش فقال لهم : هلمُّوا إلى الماء ، فقدأسقانا الله، فاشرَبوا واستَقُوا، فجاءوا فشربوا واستَقَوْا ،ثم قالوا : قد والله قَضى الله لك علينا ، والله لا نخاصِمُك فى زمزم أبدا ، إنّ الذى سقاك هذا الماء بهذه الفلاة هو الذى سقاك زَمزم ، فارجع إلى سِقايتك راشداً . فرجع ورَجَعوا معه ، لم يصلوا إلى الكاهِنة وخلّوا بينه وبين زمزم[1] .

* * *

ورَوَى صاحبُ كتاب الواقدىّ أنّ عبد الله بن جعفر فاخَرَ يزيد بن معاوية بين يدىْ معاوية ؛ فقال له : بأىِّ آبائك تفاخِرنى ؟ أبحَرْب الّذى أجرْناه ، أم بأميّة الّذى مَلكناه ، أم بعبد شمس الّذى كَفَلْناه ! فقال معاوية : لحرب بن أمية يقال هذا ! ما كنت أحسَب أن أحداً فى عصر حَرْبٍ يزعمُ أنه أشرف من حَرْب ! فقال عبدُ الله: بلى أشرف منه من كَفَأ عليه إناءه وجلّله[2] بردائه ! فقال معاوية ليزيد: رويْدا يا بُنىّ ، إنّ عبد الله يفتخِر عليك بك لأنّك منه وهو منك . فاستَحْيا عبدُ الله وقال : يا أميرَ المؤمنين يدَان انتُشطَتا[3] وأخوَان اصطرَعا . فلما قام عبدُالله ، قال معاوية ليزيد : يا بُنىّ إياك ومنازعة

---

(١) سيرة ابن هشام ١ : ١٥٥ ، ١٥٦ .

(٢) جلله بردائه: غطاه ؛ وفى حديث على : «اللهم جلل قتلة عثمان خزياً» ، أى غطهم به وألبسهم إياه .

(٣) انتشطتا ، على البناء للمجهول ؛ انتزعتا واختلستا .

بنى هاشم فإنّهم لا يجهلون ما علموا، ولا يجدُ مُبغضهم لهم سَبًّا ، قال: «أمّا قوله: أبحَرْب الّذى أجرناه » ، فإنّ قريشا كانت إذا سافرت فصارتْ على العَقَبة لم يتجاوزها أحدٌ حتى تجوزَ قريش ، فخرج حربٌ ليلةً فلمّا صار على العَقَبة لَقيَه رجلٌ من بنى حاجب بن زُرارة تميمىّ فتنحنَح حربُ بنُ أميّة وقال : أنا حرب بن أميّة ، فتنحنَح التميمىّ وقال : أنا ابن حاجب ابن زرارة ، ثم بدر فجاز العَقَبة ، فقال حرب : لاها اللهِ لا تدخل بعدها مكّة وأنا حىّ ! فمكث التميمىّ حيناً لا يدخل ، وكانَ مَتجَرُهُ بمكّة ، فاستشار بها بمن يستجير من حَرْب، فأشيرَ عليه بعبدِ المطّلب أو بابنهِ الزّبير بن عبدِ المطلب . فركب ناقتَه وصار إلى مكّة لَيْلا ، فدَخلها وأناخَ ناقتَه بباب الزّبير بنِ عبد المطلب ، فرَغت[1] الناقةُ ، فخرج إليه الزبير فقال : أمستجِير فتُجار ، أم طالبُ قرىً فتقرَى ! فقال :

لاقَيتُ حَرْبا بالثّنيّة مُقبِلاً ... والليلُ أبلجَ نورُه للسّارِى
فَعَلا بصوْتٍ واكْتَنَى ليَرُوعَنى ... ودَعا بدَعْوة مُعلِنٍ وشعارِ
فتركتُه خَلْفى وجُزْت أمامَه ... وكذاكَ كنتُ أكونُ فى الأسفار
فمضى يهدِّدنى ويمنع مكّةً ... ألّا أحُلّ بها بدارِ قَرارِ
فتركتُه كالكَلْب يَنبَح وحدَه ... وأتيتُ قَرْمَ مَكارِم ونخارِ[2]
لَيثاً هِزَبرا يُستجارُ بقربه ... رَحْبَ المَباءةِ مكرِماً للجارِ[3]
وحلفتُ بالبَيْت العَتيق وحجّه ... وبزمْزمٍ والحِجْر والأسْتارِ
إنّ الزبير لَمانِعى بمهنَّدٍ ... صافى الحديدة صارمٍ بتّارِ

فقال الزّبير : اذهَب إلى المنزل فقد أجرتُك. فلمّا أصبح نادى الزبير أخاه الغَيْداق،

---

(١) يقال : رغت الناقة ترغو رغاء : صوتت وصجت . وفى المثل : « كفى برغائها منادياً » ، أى أن رغاء الناقة يقوم مقام النداء فى التعرض للضيافه والقرى .

(٢) القرم من الرجال : السيد المعظم .

(٣) الهزبر : الأسد ، والمباءة : المراح الذى تبيت فيه الإبل .

فخرجا متقلِّدين سيفَيْهما ، وخرج التميمىُّ معهما ، فقالا له : إنّا إذا أجرْنا رجلا لم نمشِ أمَامه ، فامش أمامنا ترمُقك أبصارُنا كى لا تُختَلَس مِن خَلْفِنا . فجعل التميمىُّ يشقّ مكةَ حتى دخل المسجد ، فلما بَصُر به حرب قال : وإنّك لهاهنا ! وسبق إليه فلَطَمه ، وصاحَ الزبيرُ : ثَـكلتْك أمّك ! أتلطِمه وقد أجرتُه ! فثَنى عليه حَرْب فلطَمه ثانية ، فانتضى الزبير سيفَه ، فحملَ على حَرْب بين يديه ، وسعى الزبير خلفه فلم يَرجِـع عنه حتى هَجَم حرْب على عبد المطلب دارَه ، فقال : ما شأنُك ؟ قال : الزبير ، قال : اجلسْ ، وكَفأ عليه إناء كان هاشم يَهشِم فيه الثَّريد ، واجتمع الناسُ ،وانضمّ بنو عبد المطلب إلى الزبير ، ووقَفوا على باب أبيهم بأيديهم سُيوفُهم ، فأَزّر عبد المطلب حرْبا بإزار كان له ، وَردّاه برداء له طرَفان ، وأخرَجه إليهم ، فعلموا أنّ أباهم قد أجاره .

وأما معنى قوله : « أم بأميّة الذى ملَـكناه ! » ، فإن عبد المطّلب راهَنَ أميّة بن عبد شمس على فرسين ، وجعل الخطر ممّن سبقت فرسهُ مائةً من الإبل وعشرة أعبُد وعشر إماء واستعباد سنة ، وجزّ الناصية . فسبق فرسُ عبد المطلب فأخذ الخطَر فقَسمه فى قريش ، وأراد جزّ ناصيتِه ، فقال : أو أفتدى منك باستعباد عشر سنين ! ففعل ، فـكان أميّة بعدُ فى حَشَم عبد المطلب وعَضاريطه(١) عشر سنين .

وأَما قوله : « أمْ بعبد شَمْس الذى كفلناه ! » فإن عبدَ شمس كان مُملقا لا مالَ له ، فكان أَخوه هاشم يكفلُه ويمونهُ إلى أن مات هاشم .

***

وفى كتاب "الأغانى" ، لأبى الفرَج أنّ مَعاوية قال لدغفَل(٢) النّسابة : أرأيت عبد المطلب ؟ قال : نعم ، قال : كيف رأيتَه ؟ قال : رأيته رجلا نَبيلا جميلا وضيئا ، كأنّ على

---

(١) العضاريط : جمع عضرط ، وهو الرجل الذى يخدم بطعام بطنه .

(٢) فى الأصول : « دعبل » ، تصحيف ؛ وصوابه من الأغانى .

وجهه نورَ النبوّة(١) . قال : أفرأيت أميّة بن عبد شمس(٢) ؟ قال : نعم ، قال : كيف رأيته ؟ قال : رأيتُه رجلا ضئيلا(٣) منحنيا أعمى يقُوده عبدُه ذكْوان ، فقال معاوية : ذلك ابنه أبو عمرو ، قال : أنتم تقولون ذلك ، فأمّا قريش فلم تكن تعرف إلا أنه عبدُه(٤) .

***

ونَقلتُ من كتاب " هاشمٍ وعبدِ شمس " لابن أبى رُؤْبة الدباس .

قال : رَوَى هشامُ بنُ الكَلْبى عن أبيه ، أنّ نوفلَ بنَ عبد مناف ظَلم عبد المطلب ابن هاشم أركاحا له بمكّة — وهى الساحات — وكان بنو نوفل يداً مع عبد شمس ، وعبدُ المطلب يداً مع هاشم ، فاستنصر عبدُ المطلب قوماً من قومه فقصّروا عن ذلك ، فاستنجد أخواله من بنى النَّجار بيَثْرِب ، فأقبل معه سبعون راكبا ، فقالوا لنوفل : لا والله يا أبا عَدىّ ، ما رأينا بهذا الغائطِ ناشئا أحسنَ وَجْها ، ولا أمدَّ جِسْما ، ولا أعفَّ نَفْساً ، ولا أبعَدَ من كلّ سوء من هذا الفتى — يَعنُون عبد المطلب — وقد عرفتَ قرابته منّا ، وقد منعتَه ساحاتٍ له ، ونحن نحبُّ أن تردّ عليه حقّه ، فردّه عليه ، فقال عبدُ المطلب :

تَأبَّى مازنٌ وبَنُو عَدِيٍّ وذُبْيانُ بنُ تَيمِ اللّاتِ ضَيْمِى
وزادتْ مالكٌ حتى تناهتْ ونَكّب بعدُ نَوْفَلُ عن حَرِيمى

قال : ويقال إنّ ذلك كان سبب مخالَفة خُزاعة عبد المطلب .

قال : ورَوَى أبو اليَقظان سُحَيم بن حفص ؛ أنّ عبد المطلب جمعَ بنيه عند وفاته — وهم عَشرة يومئذ — فأمَرَهم ونَهاهم وأوصاهم وقال : إيّاكم والبَغىَ ، فو الله ما خَلَقَ اللهُ شيئاً

(١) الأغانى : « من رأيت من علية قريش ؟ فقال : رأيت عبد المطلب بن هاشم وأمية بن عبد شمس ، فقال : صفهما لى ، فقال : كان عبد المطلب أبيض مديد القامة حسن الوجه ، فى جبينه نور النبوة وعز الملك ، يطيف به عشرة من بنيه كأنهم أسد غاب » .
(٢) الأغانى : « قال : فصف لى أمية » . (٣) الأغانى : « نحيف الجسم ضريراً » .
(٤) الأغانى ١ : ١٢ (طبعة دار الكتب) .

أعجل عقوبة من البَغْى ، وما رأيت أحداً بقِىَ على البغى إلّا إخْوَتكم من بنى عبدِ شمس.

ورَوَى الوليدُ بنُ هشام بن قحذم ، قال : قال عثمان يوما : ودِدتُ أنّى رأيتُ رجلا قد أدرك الملوك يحدّثنى عمّا مضى ؛ فذُكِر له رجل بحضْرَ مَوْت ، فبعث إليه فحدّثه حديثا طويلا تركْنا ذِكرَه ـ إلى أن قال : أرأيت عبدَ المطّلب بن هاشم؟ قال : نعم ، رأيتُ رجلا قِعْدا (١) أبيضَ طويلا مَقْرونَ الحاجبين ، بين عينيه غُرّة يقال إن فيها بركة ، وإن فيه بركة ، قال : أفرأيت أميّةَ بنَ عبد شمس ؟ قال : نعم ، رأيتُ رجلا آدمَ دميما قصيرا أعمى يقال : إنه نَكِد ، وإن فيه نَكَدا ، فقال عثمان : « يكفيك من شرٍّ سماعُه (٢) » وأمر بإخراج الرّجل .

ورَوَى هشامُ بنُ الكَلْبى أن أميّة بنَ عبد شمس لمّا كان غلاما ، كان يَسرِق الحاجّ فسمّى حارِساً .

وروى ابنُ أبى رُؤْبة فى هذا الكتاب أن أوّل قتيل قتَلَه بنو هاشم من بنى عبدِ شمْس عفيف بن أبى العاص بن أميّة ، قتَلَه حمزةُ بن عبد المطلب ، ولم أقف على هذا الخبر إلّا من كتاب ابن أبى رؤبة .

قال : وممّا يصدّق قول من رَوَى أنّ أميّة بنَ عبد شمس استعبَدَه عبدُ المطلب شعر أبى طالب بن عبد المطّلب حين تظاهرتْ عَبْد شمس ونَوْفل عليه وعلى رسول الله صلى الله عليه وآله وحَصَروهما فى الشّعب ، فقال أبو طالب :

تَوالَى علينا مَوْليانا كِلاهُما ... إذا سئلا قالا إلى غيرِنا الأمرُ
بلى لهما أمرٌ ولكنْ تَراجُما ... كما ارْتجمتْ من رأس ذى القلَع الصَّخرُ
أخصُّ خصوصاً عبد شمس ونَوْفلا ... هما نَبذانا مِثلَ ماتُنبَذ الجمرُ
هُما أغْمَضا للقوم فى أخويْهما ... فقد أصبحتْ أيديهما وهما صِفْرُ

(١) القعد : الحسن الهيئة .

(٢) مثل ، ولفظه فى مجمع الأمثال ١ : ١٩٤ : «حسبك من شر سماعه» ، وأول من قاله أم الربيع ابن زياد العبسى .

قَدِيماً أبوهمْ كانَ عبداً لجَدِّنا بنى أَمَةٍ شَهْلاءَ جاشَ بها البحرُ
لقد سَفِهوا أحلامَهمْ فى محمّدٍ فكانوا كجُعْرٍ بئسَ ماضَفَطت جُعْرُ(١)

* * *

ثم نرجع إلى حكاية شيخنا أبى عثمان ، وقد نمزجه بكلام آخر لنا أو لغيرِ نا ممّن تعاطى الموازنة بين هذين البيتين.

قال أبو عثمان : فإن قالت أميّة : لنا الوليد بنُ يزيد بن عبدالملك بنِ مَرْوان بن الحكم ابن أبى العاص بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصىّ ، أربعة خلفاء فى نَسَق ، قلنا لهم : ولبنى هاشم : هارون الواثق بنُ محمّد المعتصم بن هارون الرشيد بن محمد المهدىّ بن عبد الله المنصور بن محمد الكامل بن علىّ السجّاد ، كان يصلّى كلّ يوم وليلة ألفَ ركعة ، فكان يقال له السجّاد لعبادتِه وفضله ، وكان أجملَ قريش على وجهِ الأرض وأوسمَها ، وُلِد ليلَةَ قتل علىّ بن أبى طالب عليه السلام فسُمّىَ باسمه ، وكنى بكنيَتِه ، فقال عبدالملك : لا والله لا أحتمل لك الأسم ولا الكُنْية ، فغيّر أحدهما ، فغيّر الكنية فصيّرها أبا محمد بن عبد الله ، وهو البحر ، وهو حَبْر قريش ، وهو المفقّه فى الدين المعلّم التأويل ، ابن العباس ذى الرأى ، وحليم قريش ، بن شيبة الحمد ، وهو عبدُ المطلب سيّد الوادى بن عمرو ، وهو هاشم ، هَشَم الثَّريد ، وهو القَمَر سمّى بذلك لجماله ، ولأنّهم كانوا يقتدون ويَهْتدون برأيه ، ابن المغيرة وهو عبدُ مناف ، بن زيد ، وهو قُصَىّ وهو مجمّع ، فهؤلاء ثلاثة عشر سيّدا لم يُخرَم منهم واحد ، ولا قصّر عن الغاية ، وليس منهم واحد إلّا وهو ملقّب بلقب اشتقّ له من فِعلِه الكريم ، ومن خلقه الجميل ، وليس منهم إلا خليفة ، أو موضع للخلافة أو سيّد فى قديم الدهر منيع ، أو ناسك مُقدّم ، أو فقيه بارع ، أو حليم ظاهر الرَّكانة(٢) ؛ وليس هذا لأحد سواهم ، ومنهم خمسة خلفاء فى نَسَق ، وهم أكثرُ ممّا عدّته الأموية ، ولم يكن

(١) ضفطت : أحدثت ، والجعر : جمع جعراء ، وهى الاست .
(٢) الركانة : الوقار والهيبة .

مروانُ كالمنصور لأنّ المنصور مَلَكَ البلاد ودَوّخ الأقطار ، وضَبَط الأطراف اثنتين وعشر ين سنةً ، وكانت خلافة مروانَ على خلاف ذلك كلّه ، وإنّما بقيَ فى الخلافة تسعة أشهر حتى قتلتْه امرأتُه عاتكة بنت يزيدَ بن معاوية حين قال لابنها خالد من بَعْلِها الأوّل : يابن الرّطبة . ولئن كان مَرْوان مستوجبا الاسم الخلافة مع قلّة الأيام وكثرة الاختلاف واضطراب البلدان فضْلا عن الأطراف ، فابن الزبير أولَى بذلك منه ، فقد كان مَلَكَ الأرض إلّا بعضَ الأرْدُنّ ، ولكن سُلطانَ عبد الملك وأولادَه لما اتّصل بسلطان مَرْوان اتّصل عند القوم ما انقطع منه وأخفَى مَوضعَ الوَهَن عند من لا عِلم له ، وسِنُو المَهْدِّى كانت سِنِي سلامة ، وما زال عبدُ الملك فى انتقاض وانتكاث ، ولم يكن ملك يزيد كملك هارون ، ولا مُلك الوليدِ كملك المُعتصِم .

قلت : رحِم الله أبا عثمان ! لو كان اليومَ لَعَدَّ من خلفاء بنِى هاشم تسعةً فى نَسَق : المستعصم بن المستنصر بن الطاهر بن المستضىء بن المستنجد بن المقتفِى بن المستظهر بن المقتدر . والطالبيّون بمصر يَعُدّون عشرةً فى نَسَق : الآمِر بن المستعلى بنِ المستنصِر بنِ الطاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعِزّ بن المنصور بن القائم بن المهدىّ .

قال أبو عثمان : وتفخَر عليهم بنو هاشم بأن سِنِي مُلْكهم أكثر ، ومدّته أطوَل ، فإنّه قد بلغتْ مدّة مُلكهم إلى اليوم أربعا وتسعين سنة . ويفخرون أيضاً عليهم بأنّهم ملكوا بالميراث وبحقّ العصبة والعسومة ، وأن ملْكهم فى مَغرس نبوّة ، وأن أسبابهم غير أسباب بنى مروان ، بل ليس لبنى مَرْوانَ فيها سبب ، ولا بينهم وبينها نَسَب ، إلا أن يقولوا : إنّا من قريش فيُساووا فى هذا الاسم قريش الظواهر ، لأن رواية الراوى : «الأئمة من قريش» واقعة على كلّ قرشىّ ، وأسباب الخلافة معروفة ، وما يدّعيه كلّ جيل معلوم ؛ وإلى كلّ ذلك قد ذهبَ الناس ، فمنهم من ادّعاه لعلىّ عليه السلام لاجتماع القرابة والسابقة والوصيّة ؛ فإن كان الأمرُ كذلك فليس لآل أبى سفيان وآل مروانَ فيها دعوى ، وإن كانت

إنما تُنال بالوراثة ، وتُستحَقّ بالعمومة ، وتُستوجَب بحقّ العصبة ، فليس لهم أيضا فيها دعوَى . وإن كانت لا تُنالُ إلّا بالسوابق والأعمال والجهاد ، فليس لهم فى ذلك قَدَم مذكور ، ولا يومٌ مشهور ، بل كانوا إذ لم تكن لهم سابقة ، ولم يكن فيهم مايستحقّون به الخلافة ، ولم يكن فيهم مايمنعهم منها أشدَّ المنع ، لكان أهوَن ، ولكان الأمر عليهم أيسر ، قد عرفنا كيف كان أبو سُفْيان فى عَداوة النبىّ صلّى الله عليه وآله وفى محاربته له ، وإجلابه عليه وغَزْوِه إيّاه ، وعرفْنا إسلامه حيث أسْلَمَ ، وإخلاصه كيف أخلَص ، ومعنى كلمته يومَ الفتح حين رأى الجنود وكلامه يومَ حنين ، وقوله يومَ صَعِد بلالٌ على الكعبة ، فأذّن . على أنّه إنما أسلم على يدى العبّاس رحمه الله ، والعبّاس هو الذى مَنع الناسَ مِنْ قتله ، وجاء به رَدِيفا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وسَأله فيه أن يُشرِّفه وأن يكرِّمه وينوِّه به ، وتلك يدٌ بيضاء ، ونعمة غَرّاء ، ومقامٌ مشهود ، ويومُ حُنَين غيرُ مجحود ، فكان جزاء بنى هاشم من بنيه أن حاربوا عليًا ، وسمّوا الحسن ، وقتلوا الحسين ، وحَمَلوا النساء على الأقتاب حواسر(١) ، وكشفوا عن عَوْرة علىّ بن الحُسَين حين أشكل عليهم بُلوغه كما يُصنَع بذَرارِىّ المشركين إذا دخلتْ دُورُهم عَنْوة ، وبعث معاوية بُسْرَ بن أرطاة إلى اليمن ؛ فقتل ابنى عبيد الله بن العبّاس ، وهما غلامان لم يبلُغا الحُلُمَ ، وقَتَل عُبَيدُ الله بنُ زياد يوم الطّف تسعةً من صُلْب علىّ عليه السلام ، وسبعةً من صُلْب عَقيل ، ولذلك قال ناعيهم :

عَين جودِى بعَبْرةٍ وعَويلِ ... وأندبى إن نَدَبتِ آل الرّسولِ
تسعةً كلّهم لصُلْبِ علىٍّ ... قد أصيبوا وسبعة لعَقيلِ

ثم إنّ أميّة تزعُم أنّ عَقيلا أعان معاوية على علىٍّ عليه السلام ، فإن كانوا كاذبين فما أَوْلاهم بالكَذِب ! وإن كانوا صادقين فما جازَوْا عَقيلا بما صنع ! وضرب عُنق مسلم

(١) حواسر : كواشف .

ابنِ عقيل صَبْرا وغَدْرا بعد الأمان ، وقتلوا معه هانئ بن عُرْوة لأنّه آواه ونصرَه ، ولذلك قال الشاعر :

فإن كنتِ لا تَدْرين ما الموتُ فانظُرِى ... إلى هانئٍ فى السّوق وابن عَقِيل[1]
ترَىْ بَطَلا قد هَشّم السيفُ وجهَه[2] ... وآخر يَهوِى من طَمَارِ قتِيـــــلِ

وأكلتْ هند كَبِد حمزة ، فمنهم آكلة الأكباد ، ومنهم كَهْف النّفاق ، ومنهم مَن نَقَر بين ثنيَّتَى الُحْسين عليه السلام بالقَضيب ، ومنهم القاتلُ يومَ الحرّة عونَ بن عبد الله بن جعفر ، ويوم الطّفّ أبا بكر بن عبد الله بن جعفر . وقتِل يوم الحرّة أيضاً من بنى هاشم الفضلُ بنُ عبّاس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، والعبّاس بن عُتْبة بن أبى لهب بن عبد المطّلب ، وعبد الرحمن بن العبّاس بن ربيعة بن الحارث ابن عبد المطّلب .

***

قلت : إنّ أبا عثمان قايَسَ بين مدَّتى مُلْكهما وهو حينئذ فى أيّام الواثق ، ففضل هؤلاء عليهم ، لأن مُلْكهم أطوَلُ من مُلكهم بعشر سنين ، فكيف به لو كان اليوم حيًّا ، وقد امتدّ مُلكهم خمسمائة وستّ عشرةَ سنةً ! وهذا أكثر من ملك البيت الثالث من مُلوك الفُرس بنحو ثلاثين سنة . وأيضاً فإن كان الفخرُ بطول مدّة الملك فبنو هاشم قد كان لهم أيضا ملكٌ بمصر نحو مائتين وسبعين سنة ، مع ما مَلكوه بالمغرب قبل أن ينتقلوا إلى مصر .

***

---

(١) البيتان فى اللسان ٦ : ١٧٤ ؛ ونسبهما إلى سليم بن سلام الحنفى .
(٢) اللسان : قد عقر السيف » . وطمار : المكان العالى ؛ قال صاحب اللسان : « وينشد من طمار بفتح الراء وكسرها ، مجرى وغير مجرى » قال : « ويروى : قد قرح السيف وجهه » .

قال أبو عثمان : وقالت هاشمٌ لأميّة : قد علم الناسُ ما صنعتمْ بنا من القَتْل والتّشريد ، لا لذنب أتيْناه إليكم ، ضربتمْ عليَّ بنَ عبدِ الله بن عبّاس بالسِّياط مرتين ، على أن تزوّج بنتَ عمِّهِ الجَعْفرية التّى كانت عند عبدِ الملك ، وعلى أن نحلتموه قتل سليط ، وسمَمْتُم أبا هاشم عبدَ الله بنَ محمد بنِ علىّ بنِ أبى طالب عليه السلام ، ونبشْتُمْ زَيْدا وصَلَبتموه ، وألقيتم رأسَه فى عَرْصة الدار تُوطأ بالأقدام ، وينقرُ دماغه الدَّجاج ، حتى قال القائل :

اطرُد الدِّيكَ عن ذُؤابة زَيْدٍ طالما كان لا تَطَاهُ الدَّجاجُ

وقال شاعركم أيضا :

صلْبنا لكم زَيْدا على جِذْع نخلةٍ ولم نر مهدِيًّا على الجذْع يُصلبُ
وقِسْتمُ بعثمانٍ عليًّا سفاهةً وعثمانُ خيرٌ من علىٍّ وأطيَبُ

فرُوى أنّ بعض الصالحين من أهلِ البيت عليهم السلام قال : اللهمّ إن كان كاذبا فسلِّط عليه كلبا من كلابك ، فخرج يوماً بسفر له ، فعرض له الأسد فافترسه . وقتلتم الإمام جعفراً الصادق عليه السلام ، وقتلْتم يحيى بن زيد ، وسميتُم قاتله : ثائر مرْوان ، وناصر الدين ، هذا إلى ما صنع سليمان بن حبيب بن المهلب عن أمركم وقوْلكم بعبد الله أبى جعفر المنصور قبلَ الخلافة ، وماصَنع مروان بإبراهيم الإمام ، أدخل رأسه فى جراب نَوْرة حتى مات ، فإن أنشدُتمْ :

أفاض المدامِعَ قتلى كُدًى وقتلى بِكُثْوَة لم ترمَس
وبالزّابييْن نفوسٌ ثوَتْ وأخرى بنَهر أبى فطرسِ

أنشدْنا نحن :

واذكروا مصرَع الحسين وزَيدا وقتيلاً بجانب المهراسِ

والقتيـلَ الذى بنجرْان أمسىَ ثاويًا بين غربةٍ وتَنَـــاسِ

وقد علمتم حال مروان أبيكم وضعفه ، وأنه كان رجلا لافِقْه له ، ولا يعرَف بالزهد ولا الصلاح ، ولا برواية الآثار ، ولا بصحبة ولا ببعد همة ، وإنما ولى رستاقا من رَساتيق دار بجرْد لابن عامر ، ثم ولى البحرين لمعاوية ، وقد كان جمع أصحابه ومن تابعه ليبايع ابن الزبير حتى رَدّه عبيد الله بنُ زياد ، وقال يومَ مرج راهط، والرءوس تندَر[1] عن كواهلها فى طاعته :

وما ضرّهم غــــير حيْنِ النفو س وأىّ غلامَىْ قريش غلبْ

هذا قول من لا يستحقّ أن يلى ربعا من الأرباع ، ولا خمسا من الأخماس ، وهو أحد من قتلته النساء لكلمةٍ كان حتفه فيها .

وأما أبوه الحكم بن العاص فهو طريدُ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ولَعينه والمتخلّج فى مشيته، الحاكى لرسولِ الله صلّى الله عليه وآله، والمستمع عليه ساعة خلوته، ثم صار طريدا لأبى بكر وعمر ، امتنعا عن إعادته إلى المدينة ، ولم يقبلا شفاعةَ عثمان ، فلمَّا وُلِّىَ أدخله ، فكان أعظم الناس شؤما عليه ، ومن أكبر الُحجج فى قتله وخلعه من الخلافة ، فعبد الملك أبو هؤلاء الملوك الذينّ تفتخر الأمويَّة بهم أعرَقُ الناس فى الكفر لأن أحدَ أبوَيْه الحكَم هذا ، والآخر من قبل أمّه معاوية بن المغيرة بن أبى العاص؛ كان النبىّ صلى الله عليه وآله طرَده من المدينة ، وأجّله ثلاثا ، فخيّره الله تعالى حين خرج ، وبقى متردّدا متلدّدا حولها لا يهتدى لسبيله ، حتى أَرسل فى أثره عليًّا عليه السلام وعمارًا ، فقتلاه ، فأنتم أعرقُ الناس فى الكُفْر ، ونحن أعرق الناس فى الإيمان ؛ ولا يكون أميرُ المؤمنين إلا أولاهم بالإيمان ، وأقدمَهم فيه .

قال أبو عثمان : وتفخر هاشم بأن أحدا لم يجد تسعين عاما لا طواعين فيها إلا منذ ملكوا ، قالوا : لو لم يكن من بركة دعوتنا إلّا أن تعذيب الأمراء بعمال الخراج

(١) تندر ؛ أى تسقط فلا يحتسب بها .

بالتعليق والزّهق والتجريد والتسهير والمسالد والنورة والجورتين والعذراء والجامعة والتشطيب قد ارتفع لكان ذلك خيرا كثيرا ، وفى الطاعون يقول العُمَانِىّ الراجز يذكر دَوْلتنا :

قد رفــعَ اللهُ رِماحَ الجنِّ وأَذهَبَ التعذيبَ والتّجَنِّى

والعرب تسمّى الطواعين رماحَ الجنّ ، وفى ذلك يقول الشاعر :

لعَمْرُكَ ما خَشيتُ على أُبَىٍّ رماحَ بنى مقيّدة الحمــارِ
ولـكنّى خشيتُ على أبىٍّ رماحَ الجنّ أو إياكَ حارِ

يقول بعضُ بنى أسد للحارث الغسانىّ الملك .

قال أبو عثمان : وتفخر هاشمٌ عليهم بأنهم لم يهدموا الكعبةَ ، ولم يُحَوِّلوا القبلة ، ولم يجعلوا الرسول دون الخليفة ، ولم يختموا فى أعناق الصحابة ، ولم يغيِّروا أوقات الصلات ، ولم ينقشوا أكفّ المسلمين ، ولم يأكلوا الطعام وَيشرَبوا على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولم ينهبوا الحرم ، ولم يطئوا المسلمات دار فى الإسلام بالسِّباء .

* * *

قلت : نقلت من كتاب " افتراق هاشم وعبد شمس " لأبى الحسين محمد بن على بن نصر المعروف بابن أبى رؤبة الدباس قال : كان بنو أميّة فى ملكِهم يؤذِّنون ويقيمون فى العيد ويخطبُون بعد الصلاة ، وكانوا فى سائر صلاتهم لا يجهرون بالتكبير فى الركوع والسجود ، وكان لهشام بن عبد الملك خصىٌّ إذا سجد هشام وهو يصلى فى المقصورة قال : لا إله إلاّ الله ؛ فيسمع الناس فيسجدون ، وكانوا يقعدون فى إحدى خُطبتى العيد والجمعة ويقومون فى الأخرى ، قال : ورأى كعب مروان بن الحكم يخطب قاعدا ، فقال : انظروا

إلى هذا يَخطُب قاعدا ، واللهُ تعالى يقول لرسوله : ﴿ وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾[١] .

قال : وأوّل من قعد فى الخطَب معاويةُ ، وأوّل من أذّن وأقام فى صلاة العِيد بِشرُ ابنُ مَرْوان ، وكان عمّال بنى أميّةَ يأخذون الجزْية ممّن أسلم من أهل الذمّة ، ويقولون : هؤلاء فرّوا من الجزْية ، ويأخذون الصدقة من الخيْل، وربما دخلوا دارَ الرجل قد نَفَق[٢] فرسُه أو باعه ، فإذا أبصروا الآخِيةَ ، قالوا : قد كان هاهنا فرس ، فهات صدَقَتها ، وكانوا يؤخّرون صلاةَ الجمعة تَشاغُلًا عنها بالخطبة ، ويُطيلون فيها ، إلى أن تتجاوَز وقتَ العصر ، وتكاد الشمس تَصفَرّ ؛ فعل ذلك الوليدُ بنُ عبدِ الملك ويزيدُ أخوه والحجّاجُ عامِلهم ، ووكّل بهم الحجّاج المَسالحَ معه والسُّيوف على رءوسهم ، فلا يستطيعون أن يُصَلّوا الجمعة فى وقتها .

وقال الحسَن البَصْرى : واعَجبًا من أُخَيْفِشَ[٣] أُعَيْمِش ! جاءنا ففتَنَنا عن ديننا ، وصعد على منبرنا ، فيخطب والناس يَلتفِتون إلى الشمس فيقول : ما بالُكم تلتفِتون إلى الشمس ! إنّا واللهِ ما نُصلّى للشمس ، إنما نُصَلّى لربّ الشمس ! أفلا تقولون : ياعدوّ الله ، إنّ للهِ حقًّا بالّليل لا يَقبَله بالنهار ، وحقًّا بالنهار لا يَقبَله باللّيل ؛ ثم يقول الحسن : وكيف يقولون ذلك وعلى رأس كلّ واحد منهم عِلْج[٤] قائمٌ بالسيف !

قال : وكانوا يسْبون ذرارىّ الخوارج من العَرَب وغيرهم ؛ لما قتل قريب وزحّاف الخارجيّان ، سبى زياد ذراريَّهما ، فأعطى شقيق بن ثور السّدوسى إحدى بناتهما ، وأعطى عباد بن حُصين الأخرى . وسُبِيتْ بنتٌ لعُبيدة بن هلال اليشْكُرى ، وبنتٌ لقَطرِىّ ابن الفجاءة المازنىّ ، فصارت هذه إلى العباس بن الوليد بن عبدِ الملك ، واسمُها أم سلمة ؛

(١) سورة الصف ١١ .
(٢) نفق فرسه ؛ أى مات .
(٣) الخفش بالتحريك : ضيق فى البصر وضعف فى العين .
(٤) العلج : الرجل القوى الضخم .

فوطئها بملكِ اليمين على رأيهم ، فوَلَدتْ له المؤمّل ، ومحمدا ، وإبراهيم ، وأحمد ، وحصينا؛ بنى عباس بن الوليد بن عبد الملك . وسُبِيَ واصلُ بن عمرو القنا واستُرِقّ ، وسُبِيَ سعيدُ الصغير الحروريّ واستُرِقّ ، وأم يزيد بنِ عمرَ بن هُبيرَة ، وكانت من سَبْى عُمان الذين سباهم مجّاعة ، وكانت بنو أميّة تبيع الرجل فى الدَّيْن يَلزَمه وترى أنه يصير بذلك رقيقا.

كان معن أبو عمير بن معن الكاتب حرًّا مولًى لبنى العَنْبر ، فبِيعَ فى دَيْن عليه ، فاشتراه أبو سعيد بنِ زياد بن عمرو العَتَكِيّ ، وباع الحجّاج عليّ بن بشير بن الماحوز لكونه قَتَلَ رسولَ المهلّب على رجلٍ من الأزْد .

فأمّا الكعبة فإنّ الحجّاج فى أيام عبد الملك هَدَمها ، وكان الوليدُ بنُ يزيدَ يصلّى إذا صلّى أوقات إفاقته من السُّكر إلى غير القِبْلة ، فقيل له ، فقرأ : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللهِ ﴾[1] .

وخطب الحجّاج بالكوفة فذكر الذين يَزُورون قبرَ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله بالمدينة ، فقال : تبًّا لهم ! إنما يطوفون بأعوادٍ ورِمّةٍ بالية ! هلّا طافوا بقَصْر أمير المؤمنين عبدالملك ! ألا يعلمون أن خليفة المرء خيرٌ من رَسوله !

قال : وكانت بنو أميّة تختِم فى أعناق المسلمين كما تُوسَم الخيلُ عَلامةً لاستعبادهم وبايع مسلمُ بنُ عقبة أهلَ المدينة كافّة ، وفيها بقايا الصحابة وأولادها وصُلحاء التابعين على أن كلاًّ منهم عبد قِنٌّ[2] لأمير المؤمنين يزيد بن معاوية ، إلّا عليّ بن الحسين عليه السلام ، فإنّه بايعه على أنه أخوه وابنُ عمّه .

قال : ونقشوا أكُفَّ المسلمين علامةً لاستِرْقاقهم ، كما يُصنَع بالعُلوج من الرّوم والحبشة . وكانت خُطَباء بنى أميّة تأكل وتشرَب على المنبر يوم الجمعة لإطالتهم

---

(١) سورة البقرة ١١٥ .

(٢) العبد القن : الذى ولد عندك ولا يستطيع أن يخرج عنك .

فى الخُطْبة ، وكان المسلمون تحتَ منبر الخُطْبة يأكلون ويَشرَبون .

* * *

قال أبو عثمان : ويَفخَر بنو العبّاس عَلَى بنى مَرْوان ، وهاشمٌ عَلَى عبد شمس ؛ بأنّ المُلْك كان فى أيديهم فانتزعوه منهم ، وغَلَبوهم عليه بالبَطْش الشديد ، وبالحيلة اللطيفة ، ثم لم يَنزِعوه إلّا من يد أشجَعِهم شجاعة، وأشدِّهم تدبيرا ؛ وأبعَدِهم غَوْرا ، ومن نَشَأ فى الحروب ورُبِّىَ فى الثّغور ، ومن لا يَعرِف إلا الفُتوحَ وسياسةَ الجنود ، ثم أعطى الوفاء من أصحابِه والصبر من قوّاده ، فلم يغدر منهم غادِر ، ولا قَصّر منهم مقصِّر ، كما قد بلغك عن حَنظلةَ بن نُباتة ، وعامر بن ضُبارة ، ويزيد بن عمر بن هُبيرَة ، ولا أَحَد من سائر قوّاده حتى من أحبابه وكُتّابه كعبدِ الحميد الكاتب ، ثم لم يلقَه ، ولا لقِىَ تلك الحروبَ فى عامّة تلك الأيام إلا رجال ولد العباس بأنفسهم ، ولا قام بأكثر الدولة إلا مشايخهم كعبد الله بن علىّ ، وصالح بنِ علىّ ، وداود بنِ علىّ ، وعبدِ الصمد بنِ علىّ ، وقد لقِيَهم المنصورُ نفسُه .

قال : وتَفخَر هاشمٌ أيضا عليهم بقول النبى صلى الله عليه وآله — وهو الصادق المصدَّق : « نُقِلتُ من الأصلاب الزاكية ، إلى الأرحام الطاهرة ، وما افترقتْ فرقتان إلا كنتُ فى خيرِهما » . وقال أيضا : « بعثتُ من خِيرة قُريش » .

ومعلومٌ أن بنى عبدِ مناف افترَقوا فكانت هاشمٌ والمُطّلب يداً ، وعبدُ شمسٍ ونَوْفل يداً . قال : وإن كان الفخر بكثرة العدَد فإنّه من أعظم مَفاخِر العرَب ، فوَلَدُ علىِّ بنِ عبد الله بنِ العبّاس اليوم مِثل جميع بنى عبدِ شمس ، وكذلك وَلَدُ الحُسين بن علىّ عليه السلام ، هذا مع قُرب مِيلادِهما ؛ وقد قال النبىّ صلى الله عليه وآله : شَوْهاءُ وَلُودٌ خيرٌ من حَسْناءَ عَقِيم » . وقال : « أنا مكاثِرٌ بكُم الأمم » .

وقد رَوَى الشعبىُّ عن جابر بن عبد الله ؛ أنّ النبىّ صلى الله عليه وآله قَدِم من سفر ،

فأراد الرجال أن يَطرُقوا النساء لَيْلا ، فقال : « امهلوا حتى تَمتشِط[١] الشَّعِثة ، وتستحدّ[٢] المُغِيبة ، فإذا قدِمْتم فالكَيْسَ الكَيْسَ » . قالوا : ذهب إلى طَلَب الولد ، وكانت العربُ تفخَر بكثرة الوَلَد ، وتمدَح الفَحْل القَبيس[٣] ، وتذُمّ العاقِرَ والعَقيم .

وقال عامرُ بنُ الطُّفَيل يعني نفسَه :

لَبئس الفَتى إن كنتُ أعورَ عاقِراً ... جَباناً فما عُذْرِى لدى كلّ مَحضَرِ !

وقال عَلْقمة بنُ عُلاثَة يفخَر على عامرٍ : آمنتُ وكَفَر ، ووفَيْتُ وغَدَر ، وَوَلَدْت وعقِر .

وقال الزِّبْرِقان :

فاُسأَلْ بنى سَعْدٍ وغيرَهُمُ ... يومَ الفخارِ فعندهمْ خُبْرى

أىّ امرئٍ أنا حين يَحضُرنى ... رِفْدُ العطاء وطالبُ النَّصْرِ

وإذا هلكتُ تركْتُ وَسْطَهُمُ ... ولدى الكرام ونابه الذِّكرِ[٤]

وقال طَرَفةُ بن العَبْد :

فلو شاء ربِّى كنت قيسَ بنَ خالدٍ ... ولو شاء ربِّى كنت عَمرو بنَ مَرْثَدِ[٥]

فأصبحت ذا مالٍ كثيرٍ وعادنِى ... بنونَ كرام سادةٌ لمسوَّدِ

ومدَحَ النّابغة الذُّبيانىُّ ناسا فقال :

لم يحرموا طِيبَ النِّساءِ وأمّهم ... طفحتْ عليكَ بناتقٍ مِذْكارِ[٦]

---

(١) تمتشط : ترجل شعرها وتصففه ، والشعثة : المتلبدة الشعر .
(٢) المغيبة : التى غاب عنها زوجها . والاستحداد حلق العانة (٣) القبيس كأمير : الفحل السريع الإلقاح .
(٤) يقال : نبه فلان ؛ أى شرف فهو نابه ونبيه .
(٥) دوانه ٥٨ .
(٦) ديوانه ٣٧ ، وروايته : « لم يحرموا حسن الغذاء » . وطفحت : اتسعت وغلبت . والناتق ، مأخوذ من نتق السقاء ، يقال : انتق سقاءك ، أى انفض ما فيه ، وإنما يريد أنها تنفض ما فى رحمها . والمذكار : التى تلد الذكور .

وقال نَهْشَل بن حَرِّىّ :

على بنىّ يشـــدّ الله عظمَهمُ والنَّبع يُنْبِت قُضْباناً فيكتَهِلُ

وَمَــكَثَ الفرزدق زمانا لا يُولَد له فعيّرَتْه امرأته ، فقال :

قالت أراهُ واحـــداً لا أخالَه يؤمّله فى الوارِثين الأباعدُ[(١)]

لعلَّكِ يوما أنْ تريْنى كأنّمـــا بنىّ حَوالىّ الليوثُ الحوارِدُ[(٢)]

فإنّ تميما قَبلَ أن يلد الحصا أقامَ زماناً وهو فى الناس واحدُ

وقال الآخَر ، وقد مات إخوَته ، وملأ حوضَه ليَسقِىَ ، فجاء رجلٌ صاحب عشيرة وعِتْرة ، فأخَذ بضَبُعِه فنحّاه ، ثم قال لراعيه : اسقِ إبلكَ :

لو كان حَوْضَ حمارٍ ماشربت به إلّا بإذن حمـارٍ آخِرَ الأبدِ

لـكنّه حوضُ من أَوْدى بإخوَته رَيْبُ المنونِ فأمسَى بيضةَ البلدِ

لو كان يُشكى إلى الأمْوات مالقِى الـ أحياءُ بَعدَهمُ من قِلّة العَدَدِ

ثم اشتكيت لأشكانى وأنجَدَنى قبرٌ بسِنْجارَ أو قبرٌ على قحدِ[(٣)]

وقال الأعشى وهو يذكر الـكَثْرة :

ولستُ بالأكثر منهم حَصًى وإنّمـا العِزّة للــــكاثِرِ

قال : وقد وَلَد رجالٌ من العرب كلٌّ منهم يَلِد لصُلْبه أكثرَ من مائة ، فصاروا بذلك مَفخراً ، منهم عبدُ الله بنُ عُمَير اللَّيثىّ ، وأَنَسُ بنُ مالك الأنصارىّ ، وخليفةُ بن برّ السّعدى ، أَتَى على عامّتهم الموتُ الجارف . ومات جَعفرُ بنُ سليمانَ بن علىّ بن عبدالله ابن العبّاس عن ثلاثة وأربعين ذَكَرا وخمس وثلاثين امرأةً كلُّهم لصُلْبه، فما ظَنّك بمن مات من ولده فى حياته ! وليس طبقة من طبقاتِ الأسنان الموتُ إليها أسرَع ، وفيها أعمّ

(١) ديوانه ١٧٢ ، وروايته : « تقول أراه » .

(٢) الحوارد : المعتزلون ؛ ورواية الديوان :

فإنّ عسَى أنْ تُبصِرِينى كأنمَا بَنِىّ حوالىّ الأسودُ اللّوَابدُ

(٣) سنجار : بلد على ثلاثة أيام من الموصل .

وأفشى من سِنّ الطُّفوليّة ، وأمرُ جعفر بنِ سليمانَ قد عاينه عالَمٌ من الناس ، وعامّتهم أحياء ، وليس خبر جعفر كخبرِ غيرِه من الناس .

قال الهيثم بنُ عدِىّ : أفضى المُلك إلى وَلد العبّاسِ ، وجميع ولدِ العبّاس يومئذٍ من الذكور ثلاثة وأربعون رجلا ، ومات جعفرُ بن سليمانَ وحدَه عن مثل ذلك العدد من الرجال . وممن قرُب ميلادُه وكثر نَسلُه حتى صار كبعض القبائل والعمائر أبو بكر صاحبُ رسول الله صلى الله عليه وآله ، والمهلّب بنُ أبى صُفْرة ، ومُسلم بنُ عمرو الباهلىّ ، وزياد ابن عبيد أميرُ العراق ، ومالكُ بن مِسمَع . ووَلدُ جعفر بنِ سليمانَ اليومَ أكثرُ عددا من أهل هذه القبائل . وأربعةٌ من قريش ترك كلٌّ واحد منهم عشرةَ بنين مذكورين معروفين وهم : عبدُ المطلب بن هاشم ، والمطلب بن عبد مناف ، وأمية بنُ عبد شمس ، والمغيرةُ بنُ المُغيرة بن عبد الله بن عُمر بن مخزوم ، وليس على ظهر الأرض هاشمىٌّ إلا من وَلَد عبد المطلب ، ولا يَشُكّ أحدٌ أن عَدَد الهاشميِّين شبيه بعَدَد الجميع ، فهذا ما فى الكثرة والقلة .

قلتُ : رحمَ الله أبا عثمان ! لو كان حيًّا اليومَ لرأى وَلَدَ الحسَن والحُسين — عليهما السلام — أكثرَ من جميع العَرَب الذين كانوا فى الجاهلية على عصرِ النبى صلى الله عليه وآله المسلمين منهم والكافرين ، لأنّهم لو أُحصُوا لما نقص ديوانُهم عن مائتى ألف إنسان .

قال أبو عثمان : وإن كان الفخر بنبل الرأى ، وصوابِ القول ، فمَنْ مثلُ عباس بن عبد المطلب وعبدِ الله بنِ العباس ! وإن كان فى الحُكْم والسُّؤددِ وأصالةِ الرأى والغَناء العظيم فمن مثلُ عبدالمطلب ! وإن كان إلى الفقْه والعِلمِ بالتأويل ومعرفةِ التأويل وإلى القياس السّديد وإلى الألْسنة الحداد والخطَب الطِّوال ، فمن مثلُ علىٍّ بن أبى طالب عليه السلام وعبدالله بن عباس !

قالوا : خَطبنا عبد الله بنُ عباس خُطبةً بمكة أيام حصارِ عثمانَ لو شهدها التركُ والديْلم لأسلموا .

وفى عبد الله بن العبّاس يقول حسّان بنُ ثابت :

إذا قال لم يَترُكْ مَقالاً لقائلٍ ... بِملتقطاتٍ لا ترى بينها فَضْلا

شَفَى وكَفَى مافى النّفوس فلم يَدَعْ ... لِذِى إرْبةٍ فى القَوْل جِدًّا ولا هَزْلا

وهو البَحْر ، وهو الحَبْر ؛ وكان عُمرُ يقول له فى حَداثته عند إجالة الرأى : غُصْ ياغوّاص[1] ؛ وكان يقدِّمه على جِلّة السَّلفِ .

قلت : أبَى أبو عثمانُ إلا إعراضاً عن علىّ عليه السلام ، هلاّ قال فيه كما قال فى عبد الله ! فلَعَمرى لو أراد لوَجَد مجالا ، ولألفى قولا وَسِيعا ؛ وهل تعلّم الناسُ الخطب والعُهود والفَصَاحة إلّا من كلام علىٍّ عليه السلام ! وهل أَخَذَ عبدُ الله رحمهُ الله الفِقه وتفسير القرآن إلّا عنه ! فرَحم الله أبا عثمان ، لقد غلبت البصرةُ وطينتها على إصابة رأيه !

قال أبو عثمان : وإن كان الفخر فى البسالة والنَّجْدة وقَتْل الأقران وجزر الفُرْسان ، فمَنْ كحمزة بن عبد المطّلب وعلىّ بن أبى طالب ! وكان الأحنف إذا ذكر حمزة قال : أكْيَس ، وكان لا يَرضَى أن يقول : شجاع ، لأن العربَ كانت تجعل ذلك أربعَ طبقات ، فتقول: شجاع ، فإذا كان فوق ذلك قالت: بَطَل ، فإذا كان فوق ذلك قالت : بُهْمة ، فإذا كان فوق ذلك قالت : أكيَس . وقال العجّاج :

* أكيَسُ عن حَوْبائه سَخِىّ *

وهل أكثر مايعدّ الناس من جَرْحاها وصَرْعاها إلا سادتكم وأعلامكم ! فقَتل حمزةُ وعلىّ عليه السلام عُتبَة والوليد ، وقتلاَ شيبة أيضا، شَرَكا عُبيدَة بن الحارث فيه ؛ وقَتَل علىّ عليه السلام حَنظلَة بنَ أبى سُفْيان . فأمّا آباء ملوككم من بنى مَرْوانَ فإنّهم كما قال

(١) يريد أنه درب بالأمور ، عارف بدقيقها وجليلها .

عبدُ الله بن الزّبير لمّا أتاه خبر المصعب : إنا والله ما نموت حَبجاً[١] كما يموت آلُ أبى العاص ، والله ماقُتِل منهم قتيلٌ فى جاهليّة ولا إسلام ، وما نموت إلا قَتْلا ؛ قَعْصا[٢] بالرماح ، ومَوْتاً تحتَ ظلال السّيوف .

قال أبو عثمان : كأنه لم يعدّ قتل معاوية بن المغيرة بنِ أبى العاص قَتْلا ، إذ كان إنما قتل فى غيرِ معركة ، وكذلك قتل عثمان بن عفّان ؛ إذ كان إنّما قتل محاصَراً ، ولا قتل مروان ابن الحكَم ؛ لأنه قتل خَنْقا ، خنقتْه النّساء . قال : وإنما فخر عبدُالله بنُ الزبير بما فى بنى أسد بن عبد العزى من القَتْلى ، لأن من شأن العرب أن يفخروا بذلك ، كيف كانوا قاتلين أو مَقْتولين ، ألا تَرَى أنّك لا تصيب كثرةَ القتلَى إلا فى القوم المعروفين بالبأس والنَّجْدة وبكثرة اللّقاء والمحارَبة ، كآل أبى طالب ، وآل الزّبير ، وآلِ المهلّب !

قال : وفى آل الزبير خاصةً سبعة مقتولون فى نسق ولم يوجد ذلك فى غيرهم ، قُتِل عمارةُ وحمزةُ ابنا عبدِ الله بن الزُّبير يومَ قُدَيد فى المعركة ، قتلهما الإباضيّة ، وقُتِل عبد الله بن الزبير فى محاربة الحجاج ، وقتل مصعب بن الزبير بدَيْر الجاثليق[٣] فى المعركة أكرمَ قتل ، وبإزائه عبدُ الملك بنُ مرْوان ، وقُتِل الزّبير بوادى السِّباع مُنصَرفَه عن وقعة الجمل ، وقُتِل العوّام بنُ خُوَيلد فى حربِ الفجار ، وقُتِل خُوَيلد بنُ أسد بن عبد العزّى فى حرب خُزاعة ، فهؤلاء سَبْعة فى نَسَق .

قال : وفى بنى أسد بن عبد العُزّى قَتْلَى كثيرون غيرُ هؤلاء ، قُتِل المنذر بنُ الزّبير بمكّة ، قتَلَه أهلُ الشام فى حرب الحجّاج ، وهو على بغْل وَرْد كان نفَرَ به فأصعَد به فى الجَبَل .

---

(١) فى الأصول : « حبجا » تحريف ؛ وفى اللسان : « الحبج بمتحركتين ، من أكل البعير لحاء العرفج ويسمن عليه وربما بشم منه فقتله ، يعرض ببنى مروان لكثرة أكلهم وإسرافهم فى ملاذ الدنيا وأنهم يموتون بالتخمة » . وانظر نهاية ابن الأثير .

(٢) القعص : الموت الوحى ، يقال : مات قعصا ؛ إذا أصابته ضربة أو رمية فمات مكانه .

(٣) الجاثليق : رئيس النصارى فى بلاد الإسلام .

وإيّاه يعنى يزيد بن مفرّغ الحميَرىّ وهو يهجُو صاحبَكم عُبيدالله بنَ زياد ويعيّره بفراره يومَ البصرة :

لَأَبن الزبيرِ غَدَاةَ تَدْمُر منذراً أَوْلى بكلّ حفيظةٍ ودِفاعِ

وقُتِلَ عمرو بنُ الزبير، قتله أخوه عبدُ الله بنُ الزبير، وكان فى جوار أخيه عُبيدة بن الزبير فلم يُغنِ عنه ، فقال الشاعر يحرّض عبيدةَ على قتل أخيه عبد الله بن الزبير ، ويعيّره بإخفاره جوارَ عمرو أخيهما :

أعُبيد لو كان المجير لَوَ لْوَلَتْ بعدَ العدوِّ برنّة أسماء

أعُبيد إنك قد أجرت وجارُكمْ تحتَ الصَّفِيح تَنوبُهُ الأصداءُ(١)

اِضربْ بسَيْفك ضربةً مذكورة فيها أداءُ أمانةٍ وَوفاء

وقُتِل بُجَيْرُ بن العوام أخو الزبير بن العوّام ، قتَلَه سعدُ بنُ صفح الدَّوْسىّ جدُّ أبى هريرة من قِبَل أمّه ، قَتَلَه بناحية اليمامة ، وقتل معه أصرَم وبَعْلك أخوَيه ابنى العوّام ابن خوَيلد ، وقد قتِل منهم فى محاربة النبىّ صلى الله عليه وآله قومٌ مشهورون ، منهم زَمْعة بنُ الأسود بن المطلب بن أسد بن عبدِ العُزّى ، كان شريفا ، قُتل يومَ بدْر ، وأبوه الأسود ، كان المَثَل يُضرَب بعزّته بمكة ، وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يذكُر عاقر الناقة : «كان عزيزاً مَنيعا كأبى زَمْعة» ، ويُكنَى زَمْعة بن الأسود أبا حكيمة ، وقتل الحارث بنُ الأسود بن المطلب يوم بدْر أيضا ؛ وقُتل عبدُ اللهُ بنُ حُمَيد بن زُهَير بن الحارث ابن الأسود بن المطلب بن أسَد يومَ بَدْر أيضاً ، وقتِل نَوْفَل بنُ خُوَيْلد يومَ بَدْر أيضا ؛ قتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، وقتِل يوم الحرّة يزيدُ بنُ عبد الله بن زَمْعة بن الأسْوَد ، ضرَب عنقَهُ مُسرف بنُ عُقْبة صَبْراً(٢) قال له : بايعْ لأمير المؤمنين يزيدَ

(١) الصفيح : الحجارة الرقاق ، والأصداء : جمع صدى ، وهو ما يرد على المصوت .
(٢) صبرا ، أى حبسا .

ابن معاوية على أنك عبدٌ قِنٌّ له ، قال : بل أبايعه على أنى أخوه وابن عمّه ، فضربَ عنقَه . وقُتِل إسماعيل بنُ هَبّار بن الأسود ليلا ؛ وكان ادّعى حِيلةً فخرج مُصرخا لمن استصْرخه ؛ فقُتِل ؛ فاتّهم به مُصعَب بنُ عبد الله بن عبد الرحمن ، فأحلَفه معاوية خمسين يمينا ، وخلّى سبيلَه ، فقال الشاعر :

ولا أجيب بليْلٍ داعياً أبداً أخشى الغُرور كما غرّ ابنَ هَبّارِ
باتوا يجرّونه فى الحُشّ مُنعفِراً بئس الهديّة لابنِ العمّ والجارِ

وقُتِل عبدُ الرحمن بنُ العوّام بنِ خُوَيلد فى خلافة عمر بن الخطاب فى بعض المغازى ، وقُتِل ابنُه عبدُ الرّحمن يومَ الدار مع عثمان ، فعبد الله بنُ عبد الرحمن بن العوّام بن خُوَيلد قتيلٌ ابنُ قَتيل ابنِ قتيل ابنِ قتيلٍ أربعة . ومِنْ قَتْلاهم عيسى بنُ مُصعَب ابن الزبير ، قُتل بين يدى أبيه بمَسْكِن[1] فى حَرْب عبد الملك ، وكان مُصعَب [يُكنى أبا عيسى وأبا عبدالله وفيه يقول الشاعر] :

لِتَبْكِ أبا عيسى ، وعيسى كلاهما موالِى قُرَيْشٍ كلُّها وصَميمُها

ومنهم مُصعَب بن عُكّاشة بن مُصعَب بن الزّبير ، قُتِل يوم قُدَيد فى حَرْب الخوارج ، وقد ذكره الشاعر فقال :

فُمْنَ فاندُبْنَ رِجالًا قُتِّلوا بقُديدٍ ولنُقصانِ العَدَدْ
ثم لا تَعدِلْنَ فيها مُصعَباً حين يُبكَى من قَتيلٍ بأحَدْ
إنَّه قد كان فيها باسِلًا صارِمًا يُقدِم إقدامَ الأسَدْ

ومنهم خالد بنُ عثمانَ بن خالد بن الزبير ، خرج مع محمّد بن عبد الله بن حسن ابن حسن ، فقتَله أبو جعفر وصَلَبه . ومنهم عتيق بنُ عامر بن عبد الله بن الزّبير ، قُتل بقُديد أيضا ، وسُمِّى عتيقا باسم جدّه أبى بكر الصِّدِّيق .

---

(١) مسكِن ، كمسجد : موضع بالكوفة .

قلت : هذا أيضا من تحامُل أبى عثمان، هَلّا ذَكَر قَتْلى الطفّ وهم عشرون سَيّدا من بيتٍ واحد قُتلوا فى ساعة واحدة ! وهذا مالم يَقَع مثله فى الدّنيا لا فى العَرَب ولا فى العَجَم. ولما قُتل حذيفة بنُ بدْر يومَ الهباءة[١] وقُتِل معه ثلاثة أو أربعة من أهل بيته ضَربتِ العربُ بذلك الأمثال واستَعْظموه ، فجاء يوم الطّف ، « جرى الوادى فطمّ على القَرِىّ[٢] »

وهلّا عدد القَتْلى من آل أبى طالب فإنّهم إذا عُدُّوا إلى أيّام أبى عثمان كانوا عَدَدا كثيرا أضعاف ماذَكره من قَتلى الأسديِّين !

قالوا أبو عثمان : وإن كان الفخر والفَضْل فى الجود والسّماح فمن مثلُ عبدِ الله بن جَعْفر بن أبى طالب ! ومَن مِثلُ عُبيد الله بنِ العبّاس بن عبد المطّلب !

وقد اعترضت الأمويّة هذا الموضع فقالت : إنّما كان عبدُ الله بنُ جعفر يَهَب ما كان معاويةُ ويزيد يَهَبانِ له ، فمن فضل جُودِنا جاد .

قالوا : ومعاوية أوّلُ رجلٍ فى الأرض وَهَب ألفَ ألف دِرْهم ، وابنُه أوّل من ضاعَفَ ذلك ، فإنه كان يجيز الحسنَ والحسين ابنى علىّ عليه السلام فى كلّ عام لكلّ واحد منهما بألف ألف درهم ، وكذلك كان يجيز عبد الله بن العبّاس وعبدَ الله بن جعفر، فلمّا مات وقامَ يزيدُ وفد عليه عبدُ الله بنُ جعفر ، فقال له : إنّ أميرَ المؤمنين معاوية كان يَصِل رَحِمى فى كلّ سنة بألف ألفِ درهم ، قال : فلك ألفا ألف دِرْهم ، فقال : بأبى أنتَ وأُمّى ! أما إنى ما قُلْتها لأحد قَبْلك ، قال : فلك أربعةُ آلاف ألفِ درهم. وهذا الاعتراض ساقط، لأن ذلك إن صحّ لم يُعَدّ جُوداولا جائزةً ولا صِلة رَحِم ، هؤلاء

(١) يوم الهباءة من أيام العرب المشهورة .

(٢) قال صاحب مجمع الأمثال ١ : ١٥٨ « أى جرى سيل الوادى فطم ، أى دفن ، يقال : طم السيل الركية ، أى دفنها . والقرى : مجرى الماء فى الروضة والجمع أقرية وقريان . . . أى أتى على على القرى ، يعنى أهلكه بأن دفنه .

قومٌ كان يخافُهم على مُلْكِه ، ويعرف حقّهم فيه ، ومَوقعهم من قلوب الأمّة ، فكان يدبّر فى ذلك تدبيرا ، ويَريع(١) أمورا ، ويُصانع عن دَولته وملكه ، ونحن لم نعدّ قطّ ماأعطى خلفاء بنى هاشم قوّادهم وكتّابهم وبنى عمّهم جُوداً ، فقد وَهَب المأمونُ للحَسَن ابنِ سَهْل غَلّة عشرةِ آلافِ ألفٍ فما عُدّ ذلك منه مَكْرمة ، وكذلك كلّ مايكون داخلا فى باب التِّجارة واستمالة القلوب ، وتدبير الدّولة ، وإنّما يكون الْجُود مايدفعه الملوك فى الوفودوالخُطَباء والشّعراءوالأشرافِ والأدباءوالسُّمارو نحوهم؛ ولولاذلك لكان الخليفة إذا وَفّى الجندَ أعْطِياتِهم احتسب ذلك فى جُوده ؛ فالعمالاتُ شىء والإعطاء على دَفْع المكروه شىء ، والتفضُّل والُجود شىء . ثمّ إنّ الّذين أعطاهم معاويةُ ويزيدُ هو بعضُ حقِّهم ، والذى فَضَل عليهما أكثر ممّا خرج منهما .

وان أريد الموازنة بين ملوك بنى العباس وملوك بنى أميّة فى العطاء افتَضَح بنو أميّة وناصرُوهم فضيحةً ظاهرة ، فإنّ نساء خلفاء بنى عبّاس أكثرُ معروفا من رجال بنى أميّة ، ولو ذكرتُ معروفَ أمّ جعفر وحدها لأتى ذلك على جميع صنائع بنى مَرْوان ، وذلك معروف ، ولو ذكر معروف الخيْزُران وسَلْسَبيل لَمُلِئَت الطّوامير الكثيرة به ، ومانَظُنّ خالصة مَوْلاتهم إلّا فوق أجْواد أجوادِهم ، وإن شئتَ أن تَذْكُر مواليهم وكتّابهمفاذكُر عيسى بنَ ماهان، وابنه عليًّا ،وخالد بنَ بَرْمَكوابنه يحيى،وابنه جعفراً والفَضْل وكاتبهم منصورَ بنَ زياد ومحمّد بنَ منصور وفتى العسكر ، فإنّك تجد لكلّ واحد من هؤلاء مايحيط بجميع صنائع بنى عبد شمس .

فأمّا ملوكُ الأمويّة فليس منهم إلّا من كان يُبَخَّل على الطعام ، وكان جعفر بنُ سليمان كثيراً ما يذكر ذلك ؛ وكان معاويةُ يُبغض الرّجلَ النَّهِم على مائدته ، وكان

---

(١) يريع : يزيد .

المنصورُ إذا ذكرهم يقول : كانَ عبدُ الملك جباراً لا يُبالى ماصنَع ، وكان الوليدُ مجْنونا ، وكان سليمان همُّهُ بطنُهُ وفَرْجُه، وكان عمر أعور بين عميان، وكان هشام رجل القوم، وكان لا يذكر ابن عاتكة . ولقد كان هشام مع مااستثناه به يقول : هو الأحول السرّاق، مازال يُدخل إعطاء الجُنْد شهرا فى شهرٍ وشهراً فى شهر؛ حتى أخَذ لنفسه مقدار رِزْق سنةٍ ،وأنشده أبو النَّجم العِجْلىّ أرجوزته الّتى أوّلها :

* الحمد للهِ الوَهوب المجزلِ *

فما زال يُصفِّق بيدَيْه استحسانا لها حتى صار إلى ذكر الشّمس ، فقال :

* والشمسُ فى الأفق كعَيْن الأَحْوَلِ *

فأمر بوجْء(١) عنقهِ وإخراجه ، وهذا ضَعْف شديد ، وجَهْلٌ عظيم .

وقال خالُه إبراهيم بنُ هشام المخزومىّ : ما رأيتُ من هشام خطأً قطّ إلا مرّتين : حَدَا به الحادى مرّة فقال :

إنَّ عليكَ أيّهـــا البُخْتىُّ أكرمَ من تمشِى به المطِىُّ

فقال : صدقت . وقال مرّة : والله لأشكوَنّ سليمانَ يوم القيامة إلى أمير المؤمنين عبدِ الملك . وهذا ضَعْف شديد ، وجهل مُفْرِط .

وقال أبو عثمان : وكان هشامٌ يقول : واللهِ إنى لأستحيي أن أعْطِيَ رجلاً أكثر من أربعة آلاف دِرْهم ، ثم أعْطَى عبد الله بن الحسن أربعة آلاف دينار فاعتدّها فى جوده وتوسّعه ، وإنما اشترى بها ملكه، وحَصَّن بها عن نفسه وما فى يديه . قال له أخوه مسلمة: أتطمع أن تلى الخلافة وأنت بخيل جبان ! فقال : ولكنى حليمٌ عفيف ، فاعترف بالجُبْن والبُخْل ؛ وهل تقوم الخلافة مع واحد منهما ! وإن قامت فلا تقوم إلا مع الخطر العظيم، والتّغرير الشديد . ولو سلمتْ من الفساد لم تسلم من العَيْب .

---

(١) الوجء : الضرب .

ولقد قَدَّم المنصورُ عليهم عمرَ بنَ عبد العزيز بقوله : أعورُ بين عُمْيان ؛ وزعمتم أنه كان ناسكاً ورعا تقيّا ، فكيف وقد جلد خُبَيب بن عبد الله بن الزبير مائة جلدة ، وصبّ على رأسه جرّة من ماء بارد في يوم شاتٍ ، حتى كُزّ[1] فمات ، فما أقرّ بدمه ، ولا خرج إلى وليّه من حقّه ، ولا أعطى عقلا ولا قودا ؛ ولا كان خُبيب ممن أتت عليه حدود الله وأحكامه وقصاصُه ؛ فيقال : كان مطيعا بإقامتها ، وأنه أزهقَ الحدُّ نفسه ! واحتسبوا الضرب كان أدبا وتعزيرا ، فما عذره في الماء البارد في الشتاء ، على أثر جلد شديد ! ولقد بلغه أنّ سليمان بن عبد الملك يوصى ، فجاء حتى جلس على طريق من يجلس عنده أو يدخل إليه ، فقال رجاء بن حيوة في بعض من يدخل ومن يخرج : نشدتك الله أن تذكرني لهذا الأمر ، أو تشير بي في هذا الشأن ؛ فوالله مالي عليه من طاقة ! فقال له رجاء: قاتلك الله ؛ ما أحرصك عليها !

ولما جاء الوليدَ بن عبد الملك بنعي الحجّاج ؛ قال له الوليد : مات الحجاج يا أبا حفص؟ فقال : وهل كان الحجاج إلا رجلا منّا أهلَ البيت ! وقال في خلافته : لولا بيعةٌ في أعناق الناس ليزيد بن عاتكة لجعلت هذا الأمر شورى بين صاحب الأعوص إسماعيل بن أمية بن عمرو بن سعيد الأشدق وبين أحمس قريش القاسم بن محمد بن أبي بكر ، وبين سالم بن عبد الله بن عمر ؛ فما كان عليه من الضرر والحرج ، وما كان عليه من الوكف[2] والنقص أن لو قال : بين عليّ بن العباس وعليّ بن الحسين بن عليّ ! وعلى أنه لم يرد التيميّ ولا العدويّ ، وإنما دبّر الأمر للأموى ، ولم يكن عنده أحدٌ من هاشم يصلح للشّورى ، ثم دبّر الأمر ليبايع لأخيه أبي بكر بن عبد العزيز من بعده حتى عُوجل بالسمّ. وقَدِم عليه عبدُ الله بنُ حسن بن حسن ، فلما رأى كماله وبيانه وعرف نسبه ومركبه

---

(١) كزّ ، أي أصابه كزاز ؛ كغراب ورمّان ؛ وهو داء يجيء من شدة البرد .
(٢) الوكف ، محركة : الإثم .

وموضعه وكيف ذلك من قلوب المسلمين وفى صدور المؤمنين لم يَدَعه يبيتُ بالشام ليلة واحدة ، وقال له : الحق بأهلك ، فإنك لم تغنِهم شيئاً هو أنفس منك ولا أرَدّ عليهم من حياتك . أخافُ عليك طواعين الشام ، وستلحقك الحوائج على ما تشتهى وتحِبّ . وإنما كره أن يروه ويسمعوا كلامه ، فلعله يبذُر فى قلوبهم بذْرا ، ويغرس فى صدورهم غَرْسا ، وكان أعظم خلق قَوْلا بالجبر حتى يتجاوز الجهمية ، ويُربِى على كلّ ذى غاية ، صاحب شُنْعة ، وكان يصنع ذلك الكُتُب ، مع جهله بالكلام وقلّة اختلافه إلى أهلِ النظر . وقال له شَوْذَب الخارجىّ : لم لا تلعن رَهْطَك وتذكر أباك إن كانوا عندك ظلمة فجرة ؟ فقال عمر : متى عهدُك بلعن فِرْعون ! قال : مالى به عهد . قال : أفيَسَعك أن تمسك عن لعن فرعون ، ولا يَسَعُنِى أن أُمسك عن لعن آبائى ! فرأى أنه قد خَصَمه[(١)] وقطع حجّته ، وكذلك يظنه كلّ من قصر عن مقدار العالِم ، وجاوز مقدار الجاهل ، وأىّ شبه لفرعون بآل مروان وآل أبى سفيان ! هؤلاء قومٌ لهم حِزْبٌ وشيعة ، وناسٌ كثيرٌ يدينون بتفضيلهم وقد اعتورتهم الشُّبه فى أمرهم ، وفرعونُ على خلاف ذلك ، وضِدّه لا شيعة له ولا حزب ولا نسل ولا موالى ولا صنائع ولا فى أمره شُبهْة . ثم إنّ عمر ظَنين[(٢)] فى أمر أهله فيحتاج إلى غَسْل ذلك عنه بالبراءةِ منهم ، وشوْذَب ليس بظَنِين فى أمر فرعون ، وليس الإمساك عن لعن فرعون والبراءة منه مما يعرفه الخوارج ، فكيف استوَيا عنده !

وشكا إليه رجلٌ من رَهطه دَيْنا فادحاً ، وعيالا كثيرا ؛ فاعتلّ عليه ، فقال له : فهلاّ اعتلَلْتَ على عبد الله بن الحسن ! قال : ومتى شاورتك فى أمرى ! قال : أو مشيرا

---

(١) خصمه : غلبه .

(٢) الظنين : المتهم .

ترانى ! قال : أو هل أعطيته إلاّ بعض حقه ! قال : ولم قصّرت عن كلّه ؟ فأمر بإخراجه وما زال إلى أن مات محروما منه .

وكان عُمّال أهله على البلاد عماله وأصحابه . والذى حسن أمره ، وشبّه على الأغنياء حاله ، أنه قام بعقِب قوم قد بدّلوا عامة شرائع الدين وسُنَن النبى صلى الله عليه وآله ، وكان الناسُ قبله من الظلم والجور والتّهاون بالإسلام فى أمر صغّر فى جنبه عاينوا منه ، وألفوه عليه ، فجعلوه بما نقص من تلك الأمور الفظيعة فى عدادِ الأئمة الراشدين ، وحَسْبك من ذلك أنهم كانوا يلعنون عليّا عليه السلام على منابرهم ، فلما نهى عمرُ عن ذلك عدّ محسنا ، ويشهد لذلك قولُ كُثيِّر فيه :

وَليتَ فَلَمْ تشتُمْ عليًّا ولم تُخفْ   برِيًّا ولم تتبـــع مقالَة مجرمِ

وهذا الشعر يدلّ على أن شتم علىّ عليه السلام قد كان لهم عادة ، حتى مدح من كفّ عنه ؛ ولما ولّىَ خالد بنُ عبد الله القَسْرِىّ مكة ـ وكان إذا خطب بها لعن عليّا والحسن والحسين عليهم السلام ـ قال عبيد الله بن كثير السهمىّ :

لعنَ اللهُ مَنْ يَسُبُّ عِليًّا   وحُسَيناً من سُوقَةٍ وإمامِ
أيُسَبُّ المطهّرونَ جُدُوداً   والـكرامُ الآباء والأعمامِ
يأمَن الطيرُ والحمامُ ولا يأ   مَنُ آلُ الرسولِ عند المقامِ !
طبتَ بيتاً وَطابَ أهلك أهلاً   أهلُ بيتِ النبىّ والإسلام !
رحمةُ الله والسلام عليهمْ   كلّما قام قائمٌ بســـلام !

وقام عبد الله بن الوليد بن عثمان بن عفان ـ وكان ممن يناله برعمهم إلى هشام بن عبد الملك ، وهو يخطب على المنبر بعرفة ـ فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا يومٌ كانت

الخلفاء تستحبّ فيه لعن أبى تُرَاب [(١)] ، فقال هشام : ليس لهذا جئنا ، ألا ترى أنّ ذلك يدلّ على أنه قد كان لَعْنُهُ فيهم فاشياً ظاهرا ، وكان عبد الله بن الوليد هذا يلعن عليًّا عليه السلام ويقول : قتل جَدَّىّ جميعا ؛ الزبير وعثمان .

وقال المُغيرة وهو عاملُ معاوية يومئذ لصعصعة بن صُوحان : قُمْ فالعن عليًّا ، فقام فقال : إنّ أميرَكم هذا أمَرنى أن ألعن عليّا ، فالعَنُوه لعنه الله ! وهو يُضمِر المغيرة .

وأما عبدُ الملك فحسبك من جهله تبديله شرائع الدّين والإسلام ، وهو يريد أن يَلِيَ أمور أصحابها بذلك الدين بعينه ، وحَسْبك من جَهله أنه رأى مِن أبلغ التدبير فى منع بنى هاشم الخلافة أن يلعن علىّ بن أبى طالب عليه السلام على منابره ، ويَرْمِى بالفجور فى مجالسه ، وهذا قُرّة عين عدوّه وعَيْر وليّه ، وحسبك من جهله قيامهُ على منبر الخلافة قائلا : إنّى والله ما أنا بالخليفة المستضعَف ولا بالخليفة المداهن ، ولا بالخليفة المأفون [(٢)] . وهؤلاء سَلَفُه وأئمّتــه ، وبشُفْعَتهم قامَ ذلك المقام ، وبتقدّمهم وتأسِيسهم نالَ تلك الرياسة ، ولولا العادةُ المتقدِّمة ، والأجناد المجنَّدة ، والصنائع القائمة ، لكان أبعَدَ خَلْق الله من ذلك المقام،وأقربَهم إلى المَهلكة إنرام ذلك الشَّرَف . وعَنَى بالمُستضعَف عثمان، وبالمُداهِن معاوية ، وبالمأفون يزيدَ بنَ معاوية ؛ وهذا الكلامُ نَقْضٌ لسُلْطانه ، وعداوةٌ لأهله ، وإفسادٌ لقلوب شيعته ، ولو لم يكن من عَجْز رأيه إلّا أنه لم يَقدِر على إظهار قوّته، إلا بأن يظهر عجزَ أئمّته لَكَفاك ذلك منه . فهذا ما ذكرتْه هاشمٌ لأنفسها .

[مفاخر بنى أميّة]

قالت أميّة : لنا من نوادِر الرّجال فى العَقْل والدّهاء والأدب والمكْر ماليس لأحد،

---

(١) أبو تراب ؛ من كنى أمير المؤمنين على بن أبى طالب .
(٢) المأفون : الضعيف .

ولنا من الأجْواد وأصحابِ الصّنائع ماليس لأحد ، زعم الناسُ أنّ الدُّهاة أربعة: مُعاوية بن أبى سفيان ، وزِياد ، وعَمرو بن العاص ، والمغيرة بن شُعْبة، فمنّا رجلان ، ومن سائر الناس رَجُلان . ولنا فى الأجواد سعيدُ بنُ العاص ، وعبدُ الله بنُ عامر ؛ لم يوجَد لهما نظيرٌ إلى الساعة . وأمّا نوادر الرّجال فى الرّأى والتّدبير فأبو سُفْيان بن حرب ، وعبدُ الملِك ابنُ مَروان ، ومَسلَمة بنُ عبد الملِك، وعلى أنّهم يُعَدّون فى الحُلَماء والرّؤساء، فأهلُ الحِجاز يَضرِبون المثَل فى الحِلْم بمُعاوية ، كما يضرب أهلُ العِراق المثَل فيه بالأحْنَف .

فأما الفُتوح والتّدبيرُ فى الحرْب فلِمُعاويةَ غير مُدافَع ؛ وكان خطيبا مِصقَعا ، ومُجرِّبا مظفَّرا ، وكان يجيد قولَ الشِّعر إذا آثر أن يقوله، وكان عبدُ الملك خطيبا حازما مجرِّبا مظفَّرا، وكان مسلمةُ شجاعاً مدبِّرا وسائساً مقدَّما ، وكثيرَ الفُتوح كثيرَ الأدب . وكان يزيدُ بنُ معاويةَ خطيباً شاعرا ، وكان الوليدُ بنُ يزيدَ خطيبا شاعرا ، وكان مَرْوانُ بنُ الحكَم وعبدُ الرحمن بنُ الحكَم شاعرَيْن ، وكان بِشْرُ بنُ مَرْوانُ شاعرا ناسِباً ، وأديبا عالِماً ؛ وكان خالدُ بن يزيد بن معاويةَ خطيباً شاعرا ، جيِّدَ الرأى ، أديبا كثيرَ الأدب ، حكيما ؛ وكان أوّل من أعطَى التّراجِمةَ والفَلاسِفة ، وقرّب أهلَ الحِكمة ورُؤساء أهل كلّ صناعة ، وترجَم كتبَ النّجوم والطّبّ والكيمياء والحروب والآداب والآلات والصّناعات .

قالوا : وإن ذكرت البأس والشجاعةَ فالعبّاس بن الوليد بن عبد الملِك ، ومروان ابن محمد ، وأبوه محمّد بنُ مَرْوان بن الحكَم ، وهو صاحبُ مُصعَب ، وهؤلاء قومٌ لهم آثار بالرّوم لا تُجهَل، وآثارٌ بأرمِينِيَة لا تُنكَر، ولهم يوم العَقْر ؛ شهده مسلمة والعبّاس ابنُ الوليد .

قالوا : ولنا الفُتوح العِظام ، ولنا فارس ، وخُراسَان ، وأرمِينِيَة ، وسِجِسْتان ، وإفريقيَة ، وجميع فُتوح عُثمان ؛ فأما فُتوحُ بنى مَرْوان فأكثر وأعمّ وأشهَر من أن

تحتاج إلى عدد أو إلى شاهد . والّذين بلغوا فى ذلك الزمان أقصى ما يمكن صاحب خُفٍّ وحافر أن يبلغه؛ حتّى لم يَحتجِز منهم إلّا ببَحْر أو خليج بحر أو غِياض أو عقاب أو حصون وصَياصى ثلاثة رجال : قُتيبةُ بنُ مسلم بخُراسان ، وموسى بنُ نُصَير بإفريقِيَة ، والقاسمُ ابنُ محمد بن القاسم الثّقفى بالسِّند والهِنْد ؛ وهؤلاء كلُّهم عمّالُنا وصنائعُنا . ويقال : إن البَصْرة كانت صَنائعَ ثلاثة رجال : عبدالله بن عامر، وزِياد، والحجّاج، فرجُلانِ من أنفُسِنا والثالث صَنِيعُنا .

قالوا : ولنا فى الأجواد وأهلِ الأقدار بنو عبدِ الله بن خالد بن أسيد بن أميّة ،وأخوه خالد ، وفى خالدٍ يقول الشاعر :

إلى خالدٍ حتّى أَنَخْنَا بخَالدٍ ... فنِعْمَ الفتَى يُرجَى ونِعْمَ المؤمَّلُ !

ولنا سعيد بنُ خالد بن عبدالله بن خالد بن أسيد ، وهو عَقِيد النَّدى ، كان يَسْبت ستّة أشهُر ويُفِيق ستّة أشهُر ، ويُرَى كَحِيلا من غير اكتِحال ، ودَهِيناً من غير تَدْهين؛ وله يقول موسى شَهَوات :

أبا خالدٍ أعنى سعيـــدَ بنَ خالدٍ ... أخَا العُرْف لا أعنى ابنَ بنت سَعيدِ [1]
ولكنّنى أعنِى ابنَ عائشةَ الّذِى ... أبو أبوَيْه خالدُ بن أَسِيـــدِ
عَقيد النّدَى ما عاشَ يَرضَى به النّدَى ... فإن مات لم يَرضَ النّدَى بعَقيدِ [2]

قالوا : وإنّما تَمكّن فينا الشِّعر وجاد ، ليس من قِبَلِ أنّ الذين مَدَحونا ما كانوا غير من مدح الناس ، ولكن لما وَجَدوا فينا ممّا يتّسع لأجله القَوْل، ويصدق فيه القائل . قد مدح عبدالله بن قيس الرُّقيّات من الناس : آل الزبير عبدالله ومُصعبا وغيرهما ، فكان يقول كما يقول غيرُه ، فلمّا صار إلينا قال :

ما نَقَمُوا من بنى أُمَيّة إلّا ... أنّهم يَحلُمون إن غضِبوا [3]

(١) الأغانى ٣ : ٣٥٢ (طبعة دار الكتب) .
(٢) عقيد الندى : الكريم بطبعه .
(٣) ديوانه ٤ .

وأنهمْ مَعدن المُلوكِ فما تصلُح إلّا عليهمُ العرَبُ

وقال نُصَيْب :

مِن النَّفرَ الشُّمّ الذين إذا انتجَوْا أقرّتْ لنَجْواهم لؤىُّ بنُ غالبِ[1]
يُحيُّون بَسّامِين طوْراً وتارةً يُحيّونَ عبّاسِين شُوس الحواجبِ[2]

وقال الأخطل :

شُمْسُ العَداوةِ حتّى يُستقادَ لهم وأعظمُ الناس أحلاماً إذا قَدَروا[3]

قالوا : وفينا يقول شاعرُكم والمتشيّع لكم، الكُمَيت بنُ زَيد :

فالآنَ صِرْتَ إلى أُميّةَ والأُمُورُ لها مَصايِرْ[4]

وفى معاوية يقولُ أبو الجهْم العَدَوِىّ :

نُقَلِّبُه لنَخْبُرَ حالَتَيْه فنَخْبُرَ منهما كرَماً ولِينَا
نَميلُ على جَوانِبه كأنّا إذا مِلْنا نَميلُ على أبِينا

وفيه يقول :

تَريع إليه هَوادِى الكلامِ إذا ضلَّ خطبتَه المِهْذَرُ[5]

قالوا : وإذا نظرتم فى امتداح الشعراء عبد العزيز بن مرْوان عرفتم صدْق ما نقوله.

قالوا : وفى إرسال النبىّ صلّى الله عليه وآله إلى أهلِ مكّة عثمانَ ، واستعمالِه عليها عتّاب بنَ أسيد وهو ابنُ اثنتيْنِ وعشرين سنة دليلٌ على موضع المَنَعة أن تُهاب العرب وتعزّ قريش ؛ وقال النبىّ صلّى الله عليه وآله قبل الفَتْح : « فَتَيان أضَنّ بهما على النّار : عَتّاب بنُ أَسِيد ، وجُبَير بنُ مُطعِم » فولّى عتّابا ، وترَك جبيرَ بنَ مطعِم .

(١) الشم : جمع أشم ، وهو كناية عن الرفعة والعلو وشرف النفس .
(٢) شوس : جمع أشوس ؛ والشوس بالتحريك : النظر بمؤخر العين تكبرا وغيظا .
(٣) ديوانه ١٤ ، وشمس : جمع شموس ؛ وهو الرجل العسر فى عداوته ؛ الشديد الخلاف على من عانده .
(٤) الأغانى ١٥ : ١١١ ، وروايته : « والأمور إلى المصاير » .
(٥) المهذر : الكثير الخطأ فى الكلام .

وقال الشّعبيّ : لو وُلِد لى مائةُ ابنٍ لسمّيتُهم كلّهم عبدَالرحمن ؛ للّذى رأيتُ فى قُرَيش من أصحاب هذا الاسم ، ثم عَدَّ عبدَالرحمن بنَ عتّاب بن أسيد ، وعبدالرحمنَ بن الحارث ابن هشام ، وعبدَ الرحمن بن الحَكَمْ بن أبى العاص ؛ فأمّا عبد الرحمن بنُ عتّاب فإنه صاحبُ الخَيْل يومَ الجمل ، وهو صاحبُ الكَفّ والخاتَم ، وهو الّذى مَرّ به علىٌّ وهو قتيلٌ فقال : لَهفِى عليكَ يَعسوبَ قريش ، هذا اللُّباب المَحْض من بَنِى عبدِ مناف ! فقال له قائل : لشَدَّ ماأتيتَه اليومَ يا أمير المؤمنين ! قال : إنّه قام عنّى وعنه نسوةٌ لم يَقُمن عنك .

قالوا : ولنا من الخُطَباء معاويةُ بن أبى سفيان ، أخطبُ الناس قائماً وقاعدا ، وعلى منبرٍ ، وفى خُطبةِ نكَاحٍ . وقال عمر بنُ الخطّاب : مايتصعّدنى شىء من الكلام كما يتصعّدنى خطبة النّكَاحِ ، وقد يكون خطيباً مَن ليس عنده فى حديثه ووصفِه للشىء احتجاجه فى الأمر لسانٌ بارع . وكان معاويةُ يجرِى مع ذلك كلِّه .

قالوا : ومِن خُطَبائنا يزيدُ بنُ معاوية ، كان أعرابىَّ اللّسان ، بَدَوىّ اللَّهجة . قال معاوية : وخطب عنده خطيب فأجاد : لأرمينّه بالخطيب الأشدق يريد يزيد بن معاوية ،

ومن خطبائنا سعيد بن العاص ، لم يوجد كتحبيره تحبير ، ولا كارتجاله ارتجال .

ومنا عمرو بن سعيد الأشدق ، لقّب بذلك لأنه حيث دخل على معاوية وهو غلام بعد وفاة أبيه ، فسمع كلامه ، فقال : إن ابن سعيد هذا الأشدق .

وقال له معاوية : إلى من أوصى بك أبوكَ ؟ قال : إن أبى أوصى إلىّ ولم يوص بى ، قال : فبم أوصى إليك ؟ قال : ألّا يفقد إخوانه منه إلّا وجهه .

قالوا : ومنا سعيدُ بن عمرو بن سعيد ، خطيبُ ابنُ خطيب ابنِ خطيب ، تكلّم الناسُ عند عبد الملك قياما وتكلم قاعدا . قال عبدُ الملك : فتكلم وأنا والله أحبّ عثرته وإسكاته ، فأحسنَ حتى استنطقه واستزدته ؛ وكان عبد الملك خطيباً ، خطب

الناسَ مرّة فقال : ماأنصفتمونا معشر رعيتنا ، طلبتم منّا أن نسير فيكم وفى أنفسنا سيرة أبى بكر وعمرَ فى أنفسهما ورعيّتهما ، ولم تسيرُوا فينا ولا فى أنفسكم سِيرَة رعيّة أبى بكر وعمرَ فيهما وفى أنفسهماَ ، ولـكلٍّ من النَّصفة نصيب . قالوا : فـكانت خطبته نافعة .

قالوا : ولنا زيادٌ وعبيد الله بنُ زياد ، وكانا غَنِيَّيْن فى صحة المعانى ،وجودة اللفظ،ولهما كلامٌ كثير محفوظ .

قالوا : ومِن خطبائنا سليمان بنُ عبد الملك والوليد بن يزيد بن عبد الملك .

ومن خُطبائنا ونُسّاكِنا يزيدُ بنُ الوليد الناقص. قال عيسى بن حاضر: قلتُ لعمرو بن عُبيد : ماقولك فى عمرَ بن عبد العزيز ؟ فـكلَح[1] ، ثم صَرَف وجهه عنّى .قلتُ :فماقولُك فى يزيد الناقص ؟ فقال : أو الـكامل ، قال بالعدل ، وعَمِل بالعدْل ، وبَذَل نفسه وقتل ابنَ عمِّه فى طاعة ربه ، وكان نَـكَالاً لأهله ،ونقص من أَعْطياتِهم مازادته الجبابرة ،وأظهرَ البراءة من آبائه ، وجعل فى عهده شَرْطا ولم يجعله جَزْما ؛ لا والله لـكأنه ينطق عن لسان أبى سعيد ــ يريدُ الحسن البصرى ــ قال : وكان الحسن من أنطق الناس .

قالوا : وقد قُرِئَ فى الـكُتُب القديمة : يامبذِّر الـكنوز ، ياساجداً بالأسحار ، كانت ولايتُك رحمةً بهم ، وحجّة عليهم . فالوا : هو يزيد بنُ الوليد .

ومن خطبائنا ثمّ من ولد سعيد بن العاص عَمْرو بنُ خَوْلة ، كان ناسبافصيحاخطيبا.

وقال ابن عائشة الأكبر : ماشهد خطيباً قطّ إلّا وجلج هيبةً له ومعرفةً بانتقادِه .

ومن خطبائنا عبد الله بن عامر ، وعبد الأعلى بنُ عبدالله بن عامر ، وكانامن أكرم الناس ، وأبيَن الناس ، كان مسلمة بنُ عبدالملك يقول : إنى لأنحى كور عِمامتى على أذُنىّ لأسمع كلام عبد الأعلى .

---

(١) كلح ، كمنع : كشر فى عبوس .

وكانوا يقولون : أشبه قرَيش نعمةً وجهارةً واقتداراً وبياناً بعمرو بن سعيد عبد الأعلى بن عبد الله .

قالوا : ومن خطبائنا ورجالنا الوليدُ بنُ عبدِ الملك ، وهو الذى كان يقال له فحل بنى مروان ، كان يركب معه ستون رجلا لصُلبه .

ومن ذوى آدابناوعلمائنا وأصحاب الأخبار وروايةالأشعار والأنساببِشْرُ بنمروان أميرُ العراق .

قالوا : ونحن أكثرُ نُسّاكاً منكم ، منّا معاوية بنُ يزيد بن معاوية ، وهو الذى قيل له فى مَرَضه الذى مات فيه : لو أقمتَ للناس ولىَّ عهد ؟ قال:ومن جَعل لى هذا العهد فى أعناق الناس؟والله لولا خَوْفى الفتنة لما أقمت عليها طَرْفة عين ، والله لا أذهببمرارتها، وتذْهبون بحَلاوتها ؛ فقالت له أمُّه : لوددتُ أنك حَيْضة ، قال : أنا والله ودِدْت ذلك.

قالوا : ومنّا سليمان بن عبد الملك الذى هَدَم الديماس [1] وردّ المسيَّرين ، وأخرج المسْجُونين ، وترك القريب . واختار عمر بن عبد العزيز ، وكان سليمان جواداً خطيباً جميلا صاحب سلامة ودَعة وحبٍّ للعافية وقرب من الناس ، حتى سُمِّىَ المهدىَّ ، وقيلت الأشعار فى ذلك .

قالوا : ولنا عمر بن عبد العزيز ، شبه عمر بن الخطاب ، قد ولده عمر ، وباسمه سمِّىَ ؛ وهو أشجّ قرَيش المذكور فى الآثار المنقوله فى الكُتُب،العدل فى أشدّ الزمان،وظلَف [2] نفسه بعد اعتياد النِّعم ، حتى صار مثلا ومفخَرا . وقيلللحسن : أما رويتَ أن رسولَ الله صلّى الله عليه وآله قال : لا يزداد الزّمان إلّا شِدّة ، والناس إلّا شُحًّا ، ولا تقوم الساعةُ إلّا على شرار الخلق ! قال : بلى ؛ قيل : فما بال عمرَ بن عبد العزيز وعدْله

---

(١) الديماس : سجن كان للحجاج .

(٢) ظلف نفسه : منعها .

وسيرته ! فقال : لابدّ للناس من متنفَّس . وكان مذكورا مع الخطباء ، ومع النُّسّاك، ومع الفقهاء .

قالوا : ولنا ابنه عبدُ الملك بن عمرَ بن عبد العزيز ، كان ناسكا زكيّا طاهرا ، وكان من أنقى النّاس وأحسنهم معونة لأبيه ، وكان كثيراً مايعظ أباه وينهاه .

قالوا : ولنا من لا نظير له فى جميع أموره ، وهوصاحب الأعْوَص ، إسماعيل بنأمية ابن عمرو بن سعيد بن العاص ؛ وهو الذى قال فيه عمر بن عبد العزيز : لو كان إلىّ من الأمر شيء لجعلتُها شورى بين القاسم بن محمد وسالم بن عبد الله وصاحب الأعوص .

قالوا : ومن نُسَّاكنا أبو حراب من بنى أمية الصغرى ، قتله داود بن علىّ ، ومن نُسَّاكنا يزيد بنُ محمد بن مروان ، كان لا يُهدِب [1] ثوبا ولا يصبغه ، ولا يتخلّق بخَلوق [2] ، ولا اختار طعاما على طعام ، ماأُطعِم أكله، وكان يكره التكلّف ، وينهى عنه.

قالوا : ومن نُسَّاكنا أبو بكر بن عبدالعزيز بن مروان ؛ أراد عمر أخوه أن يجعله ولىّ عهدِه لما رأى من فضله وزهده ، فسما فيهما جميعا .

ومن نُسّاكنا عبد الرحمن بنُ أبان بن عثمان بن عفّان ، كان يصلّى كلّ يوم ألف ركعة ، وكان كثير الصدقة، وكان إذا تصدّق بصدقة قال : اللهمّ إنّ هذا لوجهك، فخفِّف عنّى الموت . فانطلق حاجّا ، ثم تصبّح بالنوم فذهبوا يُنَبِّهونه للرّحيل ، فوجدوه ميتا ، فأقاموا عليه المأتم بالمدينة ، وجاء أشعبُ فدخل إلى المأتم وعلى رأسه كبّة من طين ، فالْتَدم [3] مع النِّساء ، وكان إليه محسنا .

ومن نُساكنا عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان .

---

(١) يهدب : يقطع .
(٢) الخلوق : الطيب .
(٣) التدم مع النساء : ضرب صدره معهن فى النياحة .

قالوا : فنحن نعدّ من الصلاح والفضل ما سمعتموه ، وما لم نذكره أكثر، وأنتم تقولون : أميَّة هى الشجرة الملعونة فى القرآن ، وزعمتم أنَّ الشجرة الخبيثةَ لا تثمر الطيّب ، كما أنّ الطيّب لا يثمر الخبيث ، فإن كان الأمر كما تقولون ، فعثمانُ بنُ عفّانَ ثمرةٌ خبيثة . وينبغى أن يكون النبى صلى الله عليه وآله دَفع ابنتَيْه إلى خبيث ، وكذلك يزيدُ بن أبى سُفْيان صاحبُ مقدِّمة أبى بكر الصّدّيق على جيوش الشام ، وينبغى لأبى العاص بن الربيع زَوْج زَيْنَبَ بنتِ رسول الله صلى الله عليه وآله أن يكون كذلك ، وينبغى لمحمّد ابن عبد الله المدبَّج أن يكون كذلك ، وإن ولدتْه فاطمةُ عليها السلام ، لأنّه من بنى أميّة ، وكذلك عبدُ الله بنُ عثمان بنِ عفّان سِبْطُ رسول الله صلى الله عليه وآله ، الّذى مات بعد أن شَدَنَ[1] ونقَرَ الدِّيكُ عينه فمات ، لأنّه من بنى أميّة ، وكذلك ينبغى أن يكون عتّاب بنُ أَسيد بنِ أبى العيص بنِ أُمَيّة وإن كان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ولّاه مكّة أمَّ القُرَى وقبلةَ الإسلام ، مع قوله عليه السلام « فَتَيَانِ أصونُ بهما عن النار : عتّاب ابنُ أسيد ، وجُبَيْر بنُ مُطعِم » . وكذلك ينبغى أن يكون عمرُ بنُ عبد العزيز شبيه عُمَرَ بنِ الخطّاب كذلك ، وكذلك معاويةُ بنُ يزيدَ بن معاوية ، وكذلك يزيدُ الناقص ؛ وينبغى ألاّ يكون النبىُّ صلى الله عليه وسلّم عَدَّ عثمانَ فى العَشَرة الّذينَ بشّرهم بالجنّة ؛ وينبغى أن يكون خالدُ بنُ سعيدِ بنِ العاص شهيد يوم مَرْج الصُّفّر[2] والحبيس فى سبيل الله ، ووالى النبىّ صلى الله عليه وسلّم على اليمن ، ووالى أبى بكر على جميع أجنادِ الشام ، ورابع أربعةٍ فى الإسلام ، والمهاجر إلى أرض الحَبَشة كذلك . وكذلك أبانُ ابنُ سعيدِ بنِ العاص المهاجر إلى المدينة ، والقديم فى الإسلام ، والحبيس على الجهاد ، ويجب أن يكون ملعونا خبيثا ، وكذلك أبو حذيفة بنُ عُتْبة بنِ ربيعة ، وهو بَدْرىّ من المهاجرين الأوّلين ، وكذلك أُمامة بنت أبى العاص بنِ الربيع ، وأمُّها زينب بنتُ

(١) شدن : قوى وترعرع ؛ وأصله فى الظباء .

(٢) مرج الصفر : موضع .

رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكذلك أمُّ كلثوم بنت عُقْبة بن أبي مُعَيط ، وكان النبيّ صلى الله عليه وآله يُخرجها من المَغازِي ، ويضرب لها بسَهْم ، ويُصافحها ، وكذلك فاطمةُ بنتُ أبي مُعَيطٍ ، وهي من مهاجرة الحبشة .

قالوا : ومما نَفتخر به وليس لبني هاشم مثله ؛ أنّ منّا رجلا وَلِّي أربعين سنة منها عشرون سنة خليفة ، وهو معاويةُ بنُ أبي سُفيان . ولنا أربعة أخوةٍ خلفاء : الوليد ، وسليمان ، وهشام ، بنو عبدالمَلِك ، وليس لكم ويزيد ، إلّا ثلاثة إخْوة : محمّد ، وعبد الله ، وأبي إسحاق أولاد هارون .

قالوا : ومنّا رجل ولد سبعةً من الخلفاء وهو عبدُ الله بنُ يزيد بن عبد الملكِ بن مَرْوان ، أبوه يزيدُ بنُ عاتكة ، خليفة ، وجدُّه عبد الملك خليفة ، وأبو جدّه مروان الحكم خليفة ، وجدّه من قبل عاتكة ابنة يزيد بن معاوية أبوها يزيدبنُ معاوية وهو خليفة ، ومعاوية بن أبي سُفْيان وهو خليفة ، فهؤلاء خمسة ، وأمّ عبد الله هذا عاتكة بنتِ عبدالله بن عثمانَ بن عَفّان ، وحفصةُ بنت عبد الله بن عمرَ بن الخطّاب ؛ فهذان خليفتان ، فهذه سبعة من الُخلفاء وَلَدوا هذا الرّجل .

قالوا : ومنّا امرأةٌ أبوها خليفة ، وجدّها خليفة ، وابنُها خليفة ، وأخوها خليفة ، وبعلها خليفة ، فهؤلاء خمسةٌ ، وهي عاتكة بنتُ يزيدَ بن معاوية بن أبي سُفْيان ، أبوها يزيدُ بن معاوية خليفة ، وجدّها معاويةُ بنُ أبي سفيان خليفة ، وابنُها يزيد بنُ عبدِ الملك بنِ مَرْوان خليفة ، وأخوها معاويةُ بنُ يزيدَ خليفة ، وبَعْلُها عبْد الملك بنُ مَرْوان خليفة .

قالوا : ومن وَلَد المدبّج محمّد بنُ عبدِ الله الأصغر امرأةٌ ولَدَها النبيّ صلّى الله عليه وآله وأبو بكر وعمَر وعثمانَ وعليّ وطلحة والزبير ، وهي عائشة بنتُ محمّد بن عبدِ الله بن عمَر ابنِ عثمان بن عفّان ، وأمّها خديجةُ بنتُ عثمانَ بن عُرْوة بن الزبير ، وأمّ عروة أسماء ذاتُ النِّطاقين بنت أبي بكر الصّدّيق ، وأم محمّد بن عبد الله بن عمرو بنِ عثمان — وهو

المدّبج ـ فاطمةَ بنتَ الحُسَين بن علىّ عليه السلام ، وأمّ الحُسَين بن علىّ عليه السلام فاطمةُ بنتُ رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ وأمُّ فاطمة بنتِ الحُسين بن علىّ عليهما السلام أمّ إسحاق بنتِ طلحةَ بن عبدِ الله ، وأمُّ عبدِ الله بن عَمرو بن عُثْمان بن عفّان ابنةُ عبدِ الله بن عُمَر بن الخطّاب .

قالوا : ولنا فى الجمال والحسْن ما ليس لكم ، منا المدبّج ، والدِّيباج ، قيل ذلك لجماله. ومنّا المطرّف ، ومنّا الأرجُوان ، فالمُطرف وهو عبدُ الله بنُ عمرو بنِ عُثمانَ ، سُمّى المطرَّف لجماله ، وفيه يقول الفرزدق :

نمَا الفاروقُ إنك وابن أروَى   أبُوكَ فأنتَ مُنصدِع النّهارِ

والمدبَّج هو الدِّيباج ، كانَ أطولَ الناس قياما فى الصّلاة ، وهَلَكَ فى سجْن المنصور .

قالوا : ومنّا ابنُ الخلائف الأربعة ، دعى بذلك وشُهِر به ، وهو المؤمَّل بنُ العبّاس ابن الوليد بن عبد الملك ، كان هو وأخوه الحارثُ أبنَى العبّاس بن الوليد من الفجاءة بنتِ قَطَرى بنِ الفجاءة ، إمام الخوارج ، وكانت سُبيتْ فوقعتْ إليه ، فلمّا قام عُمر بنُ عبدِ العزيز أتتْ وجوه بنى مازِن وفيهمْ حاجبُ بنُ ذُبْيان المازنىُّ الشاعر ، فقال حاجب :

أتيناكَ زُوّارا ووَفْداً إلى التى   أضاءت فلَا يَخْفَى على الناس نُورُها
أبُوها عميدُ الحىّ جَمْعاً وأمُّها   من الحَنْظليات الكِرام حُجُورُها
فإن تَكُ صارتْ حين صارتْ فإنّها   إلى نسبٍ زاكٍ كرام نَفِيرُها

فبعثَ عمرُ بنُ عبد العزيز إلى العبّاس بن الوليد إما أن ترُدّها إلى أهلها ، وإما أن تُزَوجها ، فقال قائل ذاتَ يوم للمؤمّل : يابن الخلائف الأربعة ، قال : وَيلكَ مَن الرابع !

قال : قَطَرِى ، فأما الثلاثة فالوليدُ وعبدُ الملك ومروان ، وأما قَطَرِىّ فبُويع بالخلافة ».
وفيه يقول الشاعر :

* وأبو نعامـــةَ سيّد الـكُفّارِ *

فالوا : ومن أين صار محمّد بنُ علىّ بن عبدالله بن العبّاس أحقّ بالدّعوة والخلافة من سائر إخوته ! ومن أين كان له أين يَضَعها فى بيته دون إخْوته ! وكيف صار بنو الأخ أحقّ بها من الأعمام !

وقالوا : إن يكن هذا الأمر إنما يُسْتَحقّ بالميراث ، فالأقرب إلى العبّاس أحقّ ، وإن كان بالسّنّ والتجربة فالعُمومة بذلك أولى .

فالوا : فقد ذكرْنا جملا من حال رجالنا فى الإسلام ، وأمّا الجاهلية فلنا الأعياص والعنابس [1] .

ولنا ذو العصابة أبو أُحَيْحة سعيدُ بنُ العاص كان إذا اعتمّ لم يعتمّ[2] بمكة أحَد ، ولنا حَرْب بن أميّة رئيسُ يوم الفِجار ، ولنا أبو سُفْيان بنُ حَرْب رئيسُ أُحُد والخَنْدق ، وسيّد قريش كلّها فى زمانه .

وقال أبو الجَهْم بنُ حُذيفة العدوىّ لعمرَ حين رأى العبّاس وأبا سُفْيان على فراشه دون الناس : ماترانا نستريح من بنى عبدِ مناف على حال ! قال عمر : بئس أخو العَشِيرة أنتَ ! هذا عمّ رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، وهذا سيّد قريش .

(١) فى الأغانى ١ : ١٤ (طبعة دار الكتب) بسنده عن الزبير بن بكار شيوخه : « الأعياص : العاص وأبو العاص والعيص وأبو العيص والعويص ؛ ومنهم العنابس ؛ وهم : حرب وأبو حرب وسفيان وأبو سفيان وعمرو وأبو عمرو ؛ وإنما سموا العنابس ؛ لأنهم ثبتوا مع أخيهم حرب بن أمية بعكاظ ، وعقلوا أنفسهم وقاتلوا قتالا شديداً ؛ فشبهوا بالأسد ، والأسد يقال لها : العنابس ، واحدها عنبسة » .

(٢) اعتم : أرخى عمامته .

قالوا : ولنا عُتْبة بنُ رَبيعة ، ساد مملقا ، ولا يكون السّيِّد إلّا مُتْرفا ، لولا ماراْوا عنده من البَراعة والنُّبل والـكمال . وهو الذى لمّا تحاكمت بَجيلة وكَلْب فى مُنافَرة جرير والفرافصة ، وتَراهَنُوا بسُوق عُـكاظ، وصَنعوا الرّهن على يدِه دونَ جميع مَن شَهِدعلى ذلك المشهَد ، وقال رسولُ الله صلّى الله عليهوآله ، ونظر إلى قريش مُقبِلة يومَ بدر : «إن يكن منهم عند أحد خيرٌ فعنَد صاحب الجمل الأحمر » ، وماظنُّك بشَيْخ طَلبوا له من جميع العسكر عنـد المُبارَزة بيضة فلم يَقدروا على بَيْضة يُدخِل رأسَه فيهـا ، وقد قال الشاعر :

* وإنّا أناسٌ يمـلأ البَيْض هامُنا *

قالوا : وأمَيّة الأكبر صنفان : الأعياص والعنابس ، قال الشاعر :

من الأعْياص أو مِن آل حَرْبٍ أغرّ كغرّةِ الفَرَسِ الجوادِ(١)

سُمُّوا بذلك فى حَرْب الفجار حينَ حَفَروا لأرجلهم الحفائر وثبتوا فيها ، وقالوا : نموت جميعاً أو نظفر . وإنما سُمُّوا بالعَنابس لأنّها أسماء الأسُود ، وإنما سُمّوا الأعْياص لأنها أسماءالأصُول ، فالعَنابس : حَرْبوسُفْيان وأبوسُفْيان وعَمْرو ،والأعياص: العِيص، وأبو العِيص ، والعاص، وأبوالعاصوأبوعمرو،ولم يعقِبمن العنابِسإلا حَرْب،وماعَقَّب الأعياصُ إلا العِيص ، ولذلك كان معاويةُ يشكو القلّة .

فالوا : وليس لبنى هاشم والمطّلب مثل هذه القِسْمة ، ولا مِثْل هذا اللّقب المشهور . وهذا ماقالته أميّةُ عن نفسِها .

* * *

(١) من أبيات فى الأغانى ١ : ١٤ ــ ١٦ ؛ ونسبها إلى عبد الله بن فضالة الأسدى .

[ذكر الجواب عمّا فخرت به بنو أميّة]

ونحن نذكر ما أجاب به أبو عثمان عن كلامهم ، ونضيفُ إليه مِن قِبَلنا أموراً لم يذكرها ، فنقول : قالت هاشم : أمّا ذكرتم من الدّهاء والمكْر فإنّ ذلك من أسماء فجّار العُقَلاء ، وليس من أسماءِ أهلِ الصواب فى الرأى من العُقَلاء والأبرار ، وقد بلغ أبو بكر وعُمر من التّدبير وصوابِ الرأى ، والخِبْرةبالأمور العامّة ، وليس من أَوْصافهما ولا مِنْ أسمائهما أن يقال : كانا داهِيَيْن ، ولا كانا مَكِيرين . وما عامَل معاوية وعمرُو ابنُ العاص عليّا عليه السلام قَطّ بمعاملةٍ إلا وكان علىٌّ عليه السلام أعلَم بها منهما ، ولكنّ الرجل الّذى يُحارِب ولا يَستعمل إلّا ما يحلّ له أقلّ مذاهب فى وُجوهِ الحِيَل والتدبير مِنَ الرّجل الذى يَستعمِل مايحلّ ومالا يحلّ ، وكذلك من حَدَّث وأَخْبَر ، ألا ترَى أنّ الكَذّاب ليس لكِذبِهِ غاية ، ولا لما يُولِّد ويَصنَع نهاية ، والصَّدُوق إنما يحدِّث عن شىء معروف ، ومعنًى محدود ! ويدلّ على ماقلنا أنّكم عددتم أربعةً فى الدّهاء ، وليس واحدٌ منهم عند المسلمين فى طريق المتّقين ، ولو كان الدّهاء مَرْتبة والمكْر مَنْزلة لكان تقدُّمُ هؤلاء الجميع السابقِين الأوّلين عَيْبا شديدا فى السابقين الأوّلين ، ولو أن إنسانا أراد أن يمدَحَ أبا بكروعمَرَ وعثمان وعليّا ثم قال : الدُّهاة أربعة، وعَدّهم ، لكان قد قال قولًا مرغوبا عنه ، لأنّ الدهاءوالمكْر ليس من صِفات الصالحين؛ وإن علموا من غامض الأمور مايجهَله جميعُ العُقَلاء ، ألا ترى أنّه قد يَحسُن أن يقال : كان رسولُ الله صلى الله عليه وآله أكرمَ الناس ، وأحلَمَ الناس ، وأجوَدَ الناس ، وأشجَعَ الناس ، ولا يجوز أن يقال : كان أمكَرَ الناس ، وأدهى الناس ، وإن علِمنا أنّ عِلْمه قد أحاط بكل مَكْرٍ وخديعة ، وبكل أدبٍ ومَكيدة !

وأمّا ماذكرتم من جود سعيد بن العاص وعبد الله بن عامر ، فأين أنتمْ من عبد الله ابن جَعْفر ، وعُبيدِ الله بن العبّاس ، والحسنِ بن علىّ ! وأين أنتم من جُودِ خُلَفاء بَنى

العبّاس ، كمحمّد المهْدِىّ ، وهارون ، ومحمد بن زُبَيدة ، وعبدالله المأمون ، وجعفر المقتدر! بل لعلّ جود بعض صنائع هؤلاء كَبنى بَرْمَك وَبنى الفُرات ، أعظم من جُود الرّجُلين اللّذين ذكرتموهما ، بل من جميع ما جاء به خُلفاء بنى أمية .

وأما ما ذكرتم من حلم معاوية ، فلو شئنا أن نَجْعَل جميعَ ساداتنا حُلَماءَ لكانوا مُحتمِلين لذلك ، ولكنّ الوجه فى هذا ألّا يُشتَقّ للرجل اسمٌ إلّا من أشرف أعماله وأكرم أخلاقه ، وإلّا أن يتبيّن بذلك عند أصحابه حتّى يصير بذلك اسما يسمّى به ، ويصيَر معروفا به ، كما عُرف الأحنفُ بالحِلْم ، وكما عُرِف حاتمٌ بالْجود ، وكذلك هَرِم ، قالوا : هَرِم الجواد ، ولو قلتم : كان أبوالعاص بن أميّة أحلمَ الناس، لقلنا : ولعلّه يكون قد كان حليما ، ولكن ليس كلّ حلم يكون صاحبُه به مذكورا ، ومن إشكاله بائنا .

وإنكم لتظلمون خصومَكم فى تسميتكم معاوية بالحلم ، فكيف من دونَه ، لأن العرَب تقول : أحلم الحالمين ألا يتعرّض ثم يَحلم ، ولم يكن فى الأرض رَجُلٌ أكثر تعرّضا من معاوية ، والتعرّض هو السَّفَه ، فإن ادّعيتم أن الأخبار التى جاءت فى تعرّضه كلّها باطلة ، فإنّ لقائلٍ أن يقول ، وكلّ خبرٍ رَوَيْتموه فى حِلمه باطل ، ولقد شُهر الأحنف بالحلم ، ولكنه تكلّم بكلامٍ كثير يَجرَح فى الحِلْم ويثلم فى العِرض[1] ، ولا يستطيع أحد أن يَحكِى عن العبّاسِ بنِ عبد المطّلب ولا عن الحسَن بنِ علىّ بن أبى طالب لفظا فاحشا، ولا كلمة ساقطة، ولاحرفا واحداً مما يُحكَى عن الأحنف ومعاوية.

وكان المأمونُ أحلمَ الناس ، وكان عبدُالله السفّاح أحلم الناس . وبعد ، فمن يستطيع أن يصفَ هاشماً أو عبد المطّلب بالحِلْم دون غيره من الأخلاق والأفعال حتّى يسمّيَه بذلك، ويخصّ به دون كلّ شىء فيه من الفَضْل ! وكيف وأخلاقهم متساوية ، وكلّها فى الغاية ! ولو أنّ رجلا كان أظهرَ الناسِ زُهْدا ، وأصدَقَهم للعدوّ لِقاء ، وأصدَقَ الناس لسانا ؛

(١) يثلم فى العرض ؛ أى ينال منه ويقع فيه .

وأجودَ الناسِ كفًا ، وأفصحَهم مَنطقا ، وكان بكلّ ذلك مشهورا ، لمنعَ بعضَ ذلك من بعض ، ولمَا كان له اسمُ السيّد المقـدَّم ، والـكامل المعظَّم ، ولم يكن الجوادُ أغلَب على اسمه ، ولاالبيان ولا النَّجدة .

وأمّا ماذكرتم من الخطابة والفَصاحةوالسؤدد والعلم بالأدبوالنّسب ، فقد عَلِم الناس أن بنى هاشم فى الجملة أرَقُّ ألسِنةَ من بنى أميّة ، كان أبوطالب والزّبير شاعرَين ، وكان أبو سُفْيان بنُ الحـارث بن عبد المطّلب شاعرا ، ولم يكن من أولاد أميّة بنِ عبدِ شَمْس لصُلْبه شاعر ، ولم يكن فى أولاد أميّة إلا أن تعدّوا فى الإسلام العرْجىّ مِنْ وَلَد عُثمانَ ابن عفّان ، وعبد الرحمن بن الحـكَم ، فنعدّ نحن الفضلَ بنَ العبّاس بن عتبة بن أبى لهب ، وعبد الله بن معاوية بن جعفر ، ولنا من المتأخرين محمّـد بنُ الحسين بن موسى المعروف بالرضىّ ، وأخوه أبو القاسم ، ولنا الحِمّانى ، وعلى بن محمد صاحب الزّنج ، وكان إبراهيم ابن الحسَن صاحب باخَمْرى[1] أديبا شاعر فاضلا ؛ ولنـا محمّد بنُ علىّ بن صالح الذى خرج فى أيام المتوكل .

قال أبو الفرج الأصفهانى : كان من فِتْيان آل أبى طـالب وفُتّاكهم وشُجْعانهم وظُرّافهم وشعرائهم ، وإن عددتم الخطـابة والبيان والفصاحة لم تعدّوا كعلىٍّ بن أبى طالب عليه السلام ، ولا كعبدالله بن العباس ؛ ولنا من الخطباء زيد بن علىّ بن الحسين ، وعبد الله بن معـاوية بن عبد الله بن معـاوية بن عبـد الله بن جعفر ، وجعفرُ بن الحسين بن الحسن ، وداود بن علىّ بن عبد الله بن العباس ، وداود وسليمان ابنـا جعفر ابن سليمان .

قالوا : كان جعفر بن الحسين بن الحسن ينازع زيد بن علىّ بن الحُسين فى الوصيّة ،

---

(١) باخمرى : بلدة قرب الـكوفة بها قبر إبراهيم بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على .

وكان الناسُ يجتمعون ليستمعوا محاورتهما ، وكان سليمانُ بنُ جعفر بن سليمان بن عليّ والى مكّة، فكان أهل مكة يقولون : لم يرد علينا أميرٌ إلّا وسليمان أبين منه قاعدا، وأخطب منه قائما . وكان داود إذا خطب اسْحَنْفر (١) فلم يردّه شيء .

قالوا : ولنا عبدالملك بن صالح بن عليّ ، كان خطيبا بليغا، وسأله الرشيد ـ وسليمان بن أبي جعفر وعيسى بن جعفر حاضران ـ فقال له : كيف رأيتَ أرضَ كذا ؟ قال : مسافى ريح ، ومنابت شيح . قال : فأرضَ كذا ، قال : هَضَبات (٢) حُمْر ، ورَبوات (٣) عُفْر ، حتى أتى على جميع ماسأله عنه ، فقال عيسى لسليمان : والله ماينبغى لنا أن نرضى لأنفسنا بالدّون من الكلام .

قالوا : وأما ماذكرتم من نُسّاك الملوك ؛ فلنا عليٌّ بن أبى طالب عليه السلام ، وبزُهده وبدينه يضرب المثل ، ولنا محمد بن الواثق من خلفاء بنى العباس ، وهو الملقب بالمهتدىّ ، كان يقول : إنى لآنفُ لبنى العبّاس ألّا يكون منهم مثل عمر بن عبد العزيز، فكان مثله وفوقه . ولنا القادر أبو العباس بن إسحاق بن المقتدر ، ولنا القائم عبدالله بن القادر ، كانا على قديم عظيمة من الزهد والدّين والنُّسُك ، وإن عددتم النساك من غير الملوك فأين أنتم عن علىّ بن الحسين زين العابدين ! وأين أنتم عن علىّ بن عبدالله بن العباس! وأين أنتم عن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، الّذى كان يقال له: علىّ الخيْر ، وعلىّ الأغر ، وعلىّ العابد، وما أقسم على الله بشىء إلّا وأبرّ قَسَمه ! وأين أنتم عن موسى بن جَعْفر بن محمد ! وأين أنتم عن علىّ بن محمّد الرضا، لابس الصوف طولَ عمره، مع سَعة أمواله ، وكثرةِ ضياعه وغَلاّته !

---

(١) اسحنفر الرجل فى منطقة : مضى فيه .
(٢) الهضبات : جمع هضبة ؛ وهى الجبل الطويل الممتنع ، ولايكون ذلك إلا فى حمر الجبال .
(٣) الربوات ، جمع ربوة ، وهى أعلى الجبل .

وأما ماذكرتم من الفُتوح،فلنا الفتوح المعتصميّة التي سارت بها الرُّكْبان،وضُربت بها الأمثال ، ولنا فتوحُ الرّشيد ، ولنا الآثار الشريفة في قتل بابك الخرّميّ بعد أن دامت فتنته في دار الإسلام نحو ثلاثين سنة . وإن شئت أن تعدّ فتوحَ الطالبيّين بإفريقيَة ومصر وما ملكوه من مُدُن الرّوم والفرنج والجلالقة[1] في سِنِي ملكهم،عددتَ الكثير الجمّ الذي يخرجُ عن الحصْر ، ويحتاج إلى تاريخ مُفرَد يشتمل على جلودٍ كثيرة .

فأما الفقه والعلم والتفسير والتأويل فإن ذكرتموه لم يكن لكم فيه أحد ، وكان لنا فيه مثل عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، وعبدِ الله بنِ العباس ، وزيد بنِ عليّ ، ومحمد بن عليّ ، ابني عليّ بن الحسَين بنِ عليّ ، وجعفر بن محمد الذي ملأ الدنيا علمه وفقهه. ويقال: إن أبا حنيفة من تلامذتِه ، وكذلك سُفْيان الثوْريّ ، وحسبُك بهما في هـذا الباب ، ولذلك نسب سُفْيان إلى أنه زَيْدىّ المذهَب ، وكذلك أبو حنيفة .

ومَنْ مِثلُ عليّ بن الحسين زين العابدين ! وقال الشافعيّ في الرسالة في إثبات خبَر الواحد : وجدتُ عليّ بن الحسَين وهو أفقه أهل المدينة يُعوِّل على أخبار الآحاد .

ومَن مثل محمّد بن الحنفيّة وابنه أبي هاشم الذي قرّر علومَ التوحيد والعَدْل! وقالت المعتزلة : غلَبْنا الناسَ كلّهم بأبي هاشم الأوّل ، وأبي هاشم الثاني !

وإن ذكرتم النّجدة والبَسالة والشّجاعة فمن مثلُ عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، وقد وقع اتفاق أوليائه وأعدائه على أنه أشجَع البَشَر !

ومَن مثل حمزةَ بن عبدالمطّلب أسَد الله وأسد رسولِه! ومَن مِثل الحسَين بن عليّ عليهما السلام ! قالوا يوم الطّفّ: مارأينا مكثورا[2] قد أُفرِد من إخوته وأهلِه وأنصاره أشجَع منه، كان كاللّيث المحْرَب، يَحطِم الفرسان حَطْما .وماظنّك برجل أبَتْ نفسُه الدنيّةَ وأن يعطيَ

---

(١) الجلالقة : أهل جلق ، وهى دمشق .

(٢) المكثور : المغلوب في الكثرة .

بيَدِه ، فقاتَلَ حتى قُتل هو وَبنُوه وإخوتُه وبَنُو عمّه بعد بذل الأمان لهم ، والتوثِقة بالأَيْمان المغلَّظة ، وهو الّذى سَنّ للعَرَب الإباء . واقْتَدَى بعدَه أبناء الزبير وبنو المهلّب وغـيرُهم .

ومن لـكم مِثل محمد وإبراهيم بن عبد الله ! ومن لـكم كزيدِ بن علىّ ، وقد علمتم كلمتَه الّتى قالها حيث خرج من عند هشام : ما أَحَبَّ الحياةَ إلا مَنْ ذَلّ ؛ فلمّا بلغتْ هِشاما قال : خارجٌ وَربِّ الـكَعْبة ! فخرج بالسيف ، ونهَى عن المنكر ، ودعا إلى إقامة شعائر الله حتى قُتِل صابرا محتسباً .

وقد بلغتْـكم شجاعةُ أبى إسحاق المعتصم ، ووقوفُه فى مشاهِد الحَرْب بنفسِه حتّى فَتَح الفتوح الجليلة . وبلغتكم شجاعةُ عبـدِ الله بنِ علىّ ؛ وهو الذى أزال مُلْك بنى مَرْوان ، وشَهِدَ الُحروبَ بنفسِه ، وكذلك صالح بنُ علىّ ، وهو الّذى اتبع مروان بنَ محمّدٍ إلى مصر حتى قَتله .

قالوا : وإن كان الفَضْل والفَخْر فى تواضُع الشّريف ، وإنصاف السّيد ، وسَجاحة[1] الُخلُق ولِين الجانب للعَشِيرة والموالى ، فليس لأحدٍ من ذلك ما لبنى العبّاس ؛ ولقد سألنا طارقَ بن المبارَك ـ وهو مولًى لبنى أُمّية ، وصنيعةٌ من صَنائِعهم ـ فقلنا : أىُّ القبيلتين أشدّ نخوةً وأعظَم كِبْرياء وجَبرِيّة ؛ أبنو مَرْوان ؟ أم بنو العبّاس ؟ فقال : واللهِ لبَنو مَرْوانَ فى غير دولتِهم أعظَم كِبْرياء من بنى العبّاس فى دولتهم ، وقد كان أدرَك الدولَتين ، ولذلك قال شاعرُهم :

إذا نابهُ من عبدِ شمسٍ رأيتَه ... يَتِيهُ فَرَشِّحه لـكلِّ عظيمِ

---

(١) سجاحة الخلق : سهولته ولينه .

وإن تَاهَ تَيّاهٌ سِواهمُ فإنما ... يَتيهُ لنوكٍ أو يتيه للُومِ(١)

ومن كلامِهم : مَن لم يكن من بنى أميّة تَيّاها فهو دَعِىّ .

قالوا : وإن كان الكِبْرُ مَفخَرا يمدَح به الرجال ويُعَدّ من خِصال الشرف والفَضْل ، فمولانا عمارة بنُ حَمزةَ أعظمُ كِبراً من كلّ أُمَوِىّ كان ويكون فى الدنيا ، وأخبارُه فى كِبْره وتِيهه مشهورة مُتعالَمة .

قالوا : وإن كان الشرف والفَخْرُ فى الجمال وفى الكمال وفى البَسطة فى الجسم وتمامِ القَوام ، فمن كان كالعبّاس بنِ عبد المطلب !

قالوا : رأيْنا العبّاسَ يطوف بالبيت وكأنه فُسْطاط(٢) أبيض .

ومن مِثل علىّ بنِ عبد الله بن العبّاس وَوَلَدِه ، وكان كلّ واحد منهم إذا قام إلى جَنْب أبيه كان رأسُه عند شحْمةِ أُذُنه ، وكانوا من أطوَل الناسِ ، وإنّك لتجد مِيراثَ ذلك اليومَ فى أولادهم .

ثم الّذى رواه أصحاب الأخبار وحُمّال الآثار فى عبدِ المطلب من التّمام والقَوام والجمال والبهاء ، وما كان من لقب هاشم بالقَمَر لجماله ، ولأنهم يستضيئون برأيه ، وكما رواه الناسُ أنّ عبد المطلب وَلَدَ عَشَرةً كان الرجلُ منهم يأكل فى المجلس الجَذَعة(٣) ويَشرَب الفرْق(٤) ، وترد آنفهم قبل شِفاهِهم ، وإن عامرَ بن مالك لمّا رآهم يطوفون بالبيت كأنّهم جِمالٌ جُون(٥) قال : بهؤلاء تُمنَع مكّة ؛ وتشرف مكة !

وقد سمعتم ما ذكَره النـاس من جمال السَّفّاح وحُسْنه ، وكذلك المهدىّ وابنُه هارون الرشـيد ، وابنـه محمد بن زبَيدة وكذلك هارون الواثق ، ومحمد المنتصر والزّبير المعتز .

(١) ب : « لنول » تصحيف ؛ وصوابه فى ا . والنوك : الحمق ، واللوم أصله « اللؤم » : بالهمزة ، وخفف للشعر .

(٢) الفسطاط : الخيمة .   (٣) الجذعة من الضأن : الصغيرة .

(٤) الفرق ، بكسر فسكون : مكيال بالمدينة ، يسع ثلاثة آصع ، أو ستة عشر رطلا .

(٥) الجون من الإبل والخيل : جمع جون ، بفتح فسكون ، وهو الأدهم .

قالوا : مارُئِيَ فى العَرَب ولا فى العَجَم أحسَن صورةً منه ؛ وكان المكتفى علىّ بنُ المعتضد بارعَ الجمال ، ولذلك قال الشاعر يَضرِب المَثَلَ به :

واللهِ لا كلّمتُـــه ولو أنّهُ كالشّمس أو كالبَدْرِ أو كالمُـكْتَفِى

فجَعَله ثالثَ القَمَرَين . وكان الحَسَن بنُ علىّ عليه السلام أصبحَ الناس وَجْها ، كان يُشبَّه برسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، وكذلك عبد الله بنُ الحَسَن المَحْض .

قالوا : ولنا ثلاثة فى عَصْرٍ بنو عَمّ ، كلّهم يسمَّى عليًّا ، وكلّهم كان يَصلُح للخلافة بالفقه والنُّسُك والمرْكَب ، والرّأى ، وَالتجربة ، وَالحالِ الرّفيعة بين الناس : علىّ بنُ الحُسَين بنِ علىّ ، وعلىّ بنُ عبد الله بن العبّاس ، وعلىّ بنُ عبد الله بن جعفر ، كلّ هؤلاء كان تامًّا كاملا بارعا جامعا . وكانت لُبَابة بنتُ عبد الله بنِ العبّاس عند علىّ بن عبدالله بن جَعْفر ، قالت : مارأيته ضاحكا قطّ ولا قاطِباً ، ولا قال شيئا احتاج إلى أن يَعتذِر منه ، ولا ضَرَب عبداً قطّ ، ولا مَلَكه أكثرَ من سَنَة .

قالوا : وبعد هؤلاء ثلاثةٌ بنو عَمّ ، وهم بنو هؤلاء الثلاثة ، وكلّهم يسمَّى محمدا ، كما أن كلّ واحد من أولئك يسمَّى عليًّا ، وكلّهم يَصلُح للخلافة ، بكَرَم النّسب وشَرَف الخصال : محمّد بنُ علىّ بن الحُسَين بنِ علىّ ، ومحمّد بن علىّ بن عبد الله بن العَبّاس ، ومحمد بن علىّ ابن عبد الله بنِ جعفر .

قالوا : كان محمّد بنُ علىّ بن الحسين لا يُسمِع المبتلى الاستعاذة ، وكان يَنهى الجاريةَ والغلامَ أن يقولا للمِسكين : ياسائل ؛ وهو سيّد فُقَهاء الحِجاز ؛ ومنه ومن ابنه جعفر تَعَلّم الناسُ الفِقْه ، وهو المُلَقَّب بالباقر ، باقرِ العِلْم ؛ لقّبه به رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ولم يُخلق بعد ، وبشّر به ، ووعد جابر بن عبد الله برؤيته ، وقال : ستراه طفلا ، فإذا رأيته فأبلِغْه عنّى السلام ، فعاش جابرٌ حتّى رآه ، وقال له : ماوصّى به .

وتوعّد خالد بن عبدالله القسْرىّ هشامَ بنَ عبدِالملك فى رسالةٍ له إليه ، وقال : والله إنى لأعرِف رَجُلا حِجازىَّ الأصل ، شآمِىَّ الدّار ، عِراقىَّ الهوى ، يريد محمد بن علىّ بن عبد الله ابن العبّاس .

***

قالوا : وأمّا ماذكرتم من أمرِ عاتكة بنت يزيدَ بنِ معاوية فإنّا نذكر فاطمة بنت رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، وهى سيّدة نساء العالمين ، وأمُّها خديجة سيّدة نساء العالمين ، وبعلها علىّ بنُ أبى طالب سيّد المسلمين كافّة ، وابنُ عمّها جعفر ذو الجناحَين ، وذو الهِجْرتين ، وابناها الحسَن والحُسَين سيّدَا شباب أهلِ الجنّة ، وجدّها أبو طالب بن عبدِ المطّلب أشدُّ الناس عارضةً وشكيمة، وأجوَدُهم رأيا ، وأشهَمُهُمْ نفساً ، وأمنَعهم لما وَرَاءَ ظَهْرِه ، مَنعَ النبىَّ صلّى الله عليه وآلِهِ مِنْ جميعِ قريش ، ثم بنى هاشمٍ وبنى المطّلب، ثم مَنَع بنى إخْوانه من بنى أَخَواته من بنى مَخْزوم الّذين أسلَموا،وهو أحَد الّذين سادُوا مع الإقلال ، وهو مع هذا شاعرٌ خطيب . ومن يُطيق أن يُفاخِر بنى أبى طالب ، وأمّهم فاطمة بنت أسَد بنِ هاشم ، وهى أوّل هاشميّة وُلدتْ لهاشمىّ ، وهى الّتى رُبِّىَ رسولُ الله فى حِجْرها ، وكان يدعوها أمّى ، وَنزَل فى قَبْرِها ، وكان يُوجب حقّها كما يُوجب حقَّ الأمّ ! من يَستطيع أن يُسامِىَ رِجالا ولدهم هاشم مرّتين من قِبَل أبيهم ومن قِبَل أمّهم .
قالوا : ومن العجائب أنّها وَلدتْ أربعةً كلٌّ منهم أسَنّ من الآخر بعَشْرِ سنين : طالب، وَعقيل ، وجعفر ، وعلىّ .

ومن الّذى يَعُدّ من قريش أو مِن غيرهم ما يَعُدّه الطالبيّون عَشَرة فى نَسَق ؛ كلّ واحد منهم عالمٌ زاهد ناسك شجاع جَواد طاهر زَاكٍ ، فمنهم خلفاء ، ومنهم مُرشَّحون : ابن ابن ابن ابن ، هكذا إلى عَشَرة ، وهم الحَسَن بنُ علىّ بن محمد بن علىّ بن موسى بن جعفر بن محمّد بن علىّ بن الحسين بن علىّ عليهم السلام؛ وهذا لم يتّفق لبيتٍ من بُيوت العرب ولا من بُيوت العَجَم .

قالوا : فإن فَخَرتُمْ بأنّ منكم اُثنتين من أمّهات المؤمنين : أمُّ حبيبةَ بنتُ أبى سُفْيان وَزَينب بنتُ جَحْش ، فَزَيْنب امرأةٌ من بنى أَسَد بنِ خُزَيمة ، ادّعيتُموها بالحِلْف[1] لا بالولادة ، وفينا رجل وَلدتْه أمّان مِنْ أمّهات المؤمنين ، محمّد بنُ عبدِ الله بن الحسن المحْضِ ، وَلدتْه خديجةُ أمّ المؤمنين ، وأمّ سَلَمة أمّ المؤمنين ، وَوَلَدَتْه مع ذلك فاطمةُ بنتُ الحسين بنِ علىّ ، وفاطمة سيّدة نساء العالمين ابنةُ رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، وفاطمةُ بنت أسَد بنت هاشم ؛ وكان يقال : خير النّساء الفَواطِمُ والعَواتِك وهُنّ أمّهاته .

قالوا : ونحن إذا ذكرنا إنسانا فقبلَ أن نَعدّ من ولدِه نأتى به شريفا فى نفسه ، مذكورا بما فيه دونَ مافى غيره ، قلتم لنا : عاتكة بنت يزيد ، وعاتكة فى نفسها كامرأة مِن عرض قرَيش ، ليس فيها فى نفسها خاصة أمرٌ تستوجب به المفاخرة . ونحن نقول : مِنّا فاطمة ، وفاطمة سيّدة نساء العالمين ، وكذلك أمّها خديجة الكبرى ، وإنما تُذكَران مع مريمَ بنتِ عِمْران وآسيةَ بنت مُزاحِم اللتين ذكرهما النبى صلى الله عليه وآله وذكر إحداهما القرآن ، وهُنَّ المذكورات من جميع نساءِ العالم من العَرَب والعجم .

وقلتم لنا: عبدالله بنُ يزيد بن عبدالملك بن مرْوان وَلده سبعة من الخُلفاء ؛ وعبدالله هذا فى نفسه ليس هناك ، ونحن نقول : مِنّا محمد بنُ علىّ بن عبد الله بن العبّاس بن عبد المطلب بن هاشم ، كلّهم سيّد ، وأمّه العالية بنتُ عبيد الله بن العباس ، وإخوته داود وصالحٌ وسليمان وعبدُ الله رجالٌ كلُّهم أغرُّ محجّل، ثم وَلدت الرؤساء إبراهيم الإمام وأخَوَيه أبا العبّاس وأبا جعفر ، ومَن جاء بعدَهما من خُلفاء بنى العبّاس .

وقلتم : مِنّا عبد الله بنُ يزيد ، وقلنا : منّا الحسينُ بنُ علىّ سيّد شباب أهلِ الجنة،

---

(١) الحلف ، بكسر الحاء وسكون اللام : العهد بين القوم .

وأولى الناس بكلّ مكْرُمة ، وأطهرهم طهارةً ، مع النّجدة والبصيرة والفقه والصبر والحلم والأنَف(١) ، وأخوه الحسن سيّد شباب أهل الجنة ، وأرفع الناس دَرَجة ، وأشبههم برسول الله خَلْقاً وخُلُقاً ، وأبوهما علىّ بنُ أبى طالب .

قال شيخنا أبو عثمانَ : وهو الذى تركْتُ وصفه أبلغ فى وصفه ، إذ كان هذا الكتابُ يعجِز عنه ، ويحتاج إلى كتابٍ يفرد له ، وعمّهما ذو الجناحين ، وأمّهما ، فاطمة وجدّتهما خديجة ، وأخوالهما : القاسم وعبد الله وإبراهيم ، وخالاتهما زينب ورقيّة وأمّ كُلثوم ، وجدّتاهما آمنةُ بنتُ وَهْب والدةُ رسول الله صلى الله عليه وآله ، وفاطمة بنت أسد بن هاشم ، وجدّهما رسولُ الله صلّى الله عليه وآله المخرس لكلّ فاخر ، والغالبُ لكلّ مُنافر ، قل ماشئت ؛ واذكر أىّ باب شئت من الفَضْل ، فإنّك تجدهم قد حوَوْه .

وقالت أميّة : نحن لاننكِر فخرَ بنى هاشم وفضلهم فى الإسلام ، ولكنْ لافرق بيننا فى الجاهلية ، إذ كان الناسُ فى ذلك الدّهر لايقولون : هاشم وعبد شمس ، ولا هاشمٌ وأميّة ، بل يقولون : كانوا لايزيدون فى الجميع على عبد مناف ، حتى كان أيام تميّزهم فى أمر علىّ وعثمان فى الشورى ، ثم ما كان فى أيام تحزّبهم وحَرْبهم مع علىّ ومعاوية .

ومن تأمل الأخبارَ والآثار علم أنه ما كان يذكر فرقٌ بين البيتين ، وإنما يقال : بنو عبد مناف ؛ ألا ترى أن أبا قحافة سمع رَجّةً شديدةَ ، وأصواتا مرتفعة ، وهو يومئذ شيخٌ كبيرٌ مكفوف ، فقال : ماهذا ؟ قالوا : قبِض رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : فما صنعتْ قريش ؟ قالوا : ولَّوْا الأمر ابنك ؛ قال : ورضيتْ بذلك بنو عبد مناف ؟ قالوا : نعم . قال : ورضى بذلك بنو المغيرة ؟ قالوا : نعم ، قال : فلا مانع لما أعطى الله ولا مُعطىَ

---

(١) الأنف بفتحتين ؛ مثل الأنفة ؛ ومعناهما الشمم والإباء .

لما منعَ ! ولم يقل : أرضِيَ بذلك بنو عبد شمس ؟ وإنما جمعهم على عبد مناف لأنه كذلك كان يقال .

وهكذا قال أبو سُفيان بن حَرْب لعليّ عليه السلام ، وقد سَخِط إمارة أبى بكر : أرضيتم يابنى عبد مناف أن تَلِيَ عليكم تَيْم ! ولم يقل : أرضيتم يابنى هاشم ؟ وكذلك قال خالد بنُ سعيد بن العاص حين قَدِم من اليمن وقد استخلِف أبو بكر : أرضيتم معشرَ بنى عبد مناف أن نلىَ عليكم تيم ؟

قالوا : وكيف يُفرِّقون بين هاشم وعبد شمس ، وهما أَخَوان لأب وأمّ ! ويدلّ على أن أمرهما كان واحدا ، وأنّ اسمهم كان جامعا ، قولُ النبى صلى الله عليه وآله وصنيعُه حين قال : « منّا خيرُ فارسٍ فى العَرب ، عُكاّشة بن محصن » وكان أسديًّا ، وكان حليفاً لبنى عبد شمس ، وكل من شهد بدْرا من بنى كبير بن داود كانوا حلفاء نبى عبد شمس ، فقال ضرارُ بن الأزور الأسدى : ذاك منا يارسول الله ، فقال عليه السلام : « بل هو منّا بالحلف » ، فجعل حليف بنى عبدِ شمس حليفَ نبى هاسم ، وهذا بيّنٌ لا يحتاجُ صاحبُ هذه الصفة إلى أكثر منه .

قالوا : ولهذا نكح هذا البيت فى هذا البيت ، فكيف صِرْنا نتزوج بنات النبى وبنات بنى هاشم على وجه الدهر إلّا ونحن أكْفاء ، وأمْرنا واحدٌ ! وقد سمعتم إسحاقَ بنَ عيسى يقول لمحمد بن الحارث أحد بنى عبدالرحمن بن عتّاب بن أسيد : لولا حيٌّ أكرَمهم الله بالرسالة ، لزعمت أنك أشرَف النّاس ؛ أفلا ترَى أنه لم يقدم علينا رهطه إلّا بالرسالة !

قالت هاشم : قلتم : لولا أنا كُنّا أكفاءكم لما أنكحتمونا نساءكم ، فقد نجد القوم يستوون فى حسب الأب ، ويفترقون فى حسب الأنفس ، وربّما استوَوْا فى حسب أبى

القبيلة ، كاستواء قُريش فى النّضر بن كِنانة، ويختلفون كاختلاف كعب بن لؤىّ ، وعامر ابن لؤىّ ، وكاختلاف ابن قصىّ وعبد مناف وعبد الدار وعبد العُزّى ، والقوم قد يساوى بعضهم بعضاً فى وجوه ، ويفارقونهم فى وجوه ، ويستجيزون بذلك القَدْر منا كحتهم ، وإن كانت معانى الشرف لم تتكامل فيهم كما تكاملتْ فيمن زوّجهم ، وقد يزوّج السيِّد ابن أخيه وهو حارض ابنُ حارض[1] على وجه صِلة الرّحم ، فيكون ذلك جائزاً عندهم ، ولوجوه فى هذا الباب كثيرة ، فليس لكم أن تزعموا أنكم أكفاؤنا من كل وجه، وإن كنّا قد زوّجناكم وساوَيْناكم فى بعض الآباء والأجداد . وبعد ، فأنتم فى الجاهلية والإسلام قد أخْرَجتم بناتكم إلى سائر قريش وإلى سائر العرَب ، أفتزعمون أنهم أكفاؤكم عَيْناً بعين ! وأما قولكم : إن الحيّين كان يقال لهما عبد مناف فقد كان يقال لهما أيضا مع غيرهما من قريش وبنيها : بنو النّضر . وقال الله تعالى : ﴿ وأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِين ﴾[2] ، فلم يدع النبىّ صلّى الله عليه وآله أحداً من بنى عبد شمس، وكانت عشيرته الأقربون بنى هاشم وبنى المطلب ، وعشيرته فوق ذاك عبد مناف وفوق ذلك قُصَىّ ، ومن ذلك أن النبىّ صلّى الله عليه وآله لما أُتِىَ بعبدالله بن عامر بن كُريز بن حبيب بن عبد شمس ـ وأمّ عامر ابن كُرَيز أمّ حكيم البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم ـ قال عليه السلام : هذا أشبه بنا منه بكم ، ثم تفل فى فيه فازدَرَدَه ، فقال : أرجو أن تكون مشفيا ، فكَان كما قال . ففى قوله : «هو أشبه بنا منه بكم» خَصلتان: إحداهما أنّ عبد شمس وهاشما لو كانا شيئا واحدا كما أن عبد المطلب شىء واحد لما قال : « هو بنا أشبه به منكم » ، والأخرى أن فى هذا القَوْل تفضيلا لبنى هاشم على بنى عبد شمس، ألا ترون أنه خرج خَطيباً جواداً نبيلا وسيّدا مشفيا ، له مَصانعُ وآثار كريمة ، لأنه قال : « وهو بنا أشبَهُ به منكم» وأُتِىَ عبدالمطلب

---

(١) الحارض : الرجل الرذل الفاسد . (٢) سورة الشعراء ٢١٤ .

بعامر بن كُرَيز وهو ابن ابنته أم حكيم البيضاء فنأمّله ، وقال : وعظامِ هاشمٍ ما ولدْنا ولدا أحرَضَ منه ، فكان كما قال عبدُ الله يُحَمِّق ، ولم يَقُل « وعظام عبدِ مناف » لأن شرف جدّه عبد مناف له فيه شُرَكاء ، وشرف هاشم أبيه خالصٌ له .

فأمّا ما ذكرتم من قول أبى سُفيان وخالد بن سعيد : أرضيتمْ معشرَ بنى عبد مناف أن تلىَ عليكم تيمْ ! فإن هذه الكلمة كلمةُ تحريض وتهييج ، فكان الأبلغ فيما يريد من اجتماع قلوب الفريقين أن يدعوهم لأب ، وأن يجمَعهم على واحد ، وإن كانا مفترقين ، وهذا المذهب سَديد ، وهذا التدبير صحيح .

قال معاوية بنُ صَعْصَعة للأشهب بنِ رُمَيْلة ، وهو نَهْشَلىّ وللفرَزْدَق بن غالب ، وهو مُجاشِعىّ ولمسكن بن أنيف وهو عَبْدلىّ : أَرَضيتم معشرَ بنى دارمٍ أن يَسُبّ آباءكم ويشتُم أعراضكم كلب بنى كُلَيب ! وإنما نَسَبهم إلى دارم الأب الأكبر المشتَمِل على آباء قبائلهم ليستَوُوا فى الحَمِيّة ويتّفقوا على الأنَف ، وهذا فى مثل هذا الموضع تدبير صحيح .

قالوا : ويدلّ على ماقلنا ماقاله الشعراء فى هذا الباب قبل مَقْتل عثمان وقبلَ صِفّين ؛ قال حَسّان بنُ ثابت لأبى سُفيان الحارث بنِ عبدِ المطلب :

وأنتَ منوط نيطَ[1] فى آلِ هاشمٍ ... كما نِيطَ خَلْفَ الرّاكب القَدَحُ الفَرْدُ

لم يقل : « نيط فى آلِ عبدِ مناف » .

وقال آخر :

ما أنتَ من هاشمٍ فى بيتِ مَكرُمةٍ ... ولا بنى جُمَحِ الخُضْرِ الجَلاعيدِ[2]

(١) ب : « ينط » تحريف .   (٢) الجلاعيد : الصلاب الشداد .

ولم يقل : « ما أنتَ من آلِ عبد مناف » ، وكيف يقول هـذا ، وقد عَلِم الناسُ أن عبد مناف ولد أربعةً : هاشما والمطلب وعبدَ شمس ونَوْفلا ؛ وأن هاشما والمطلب كانا يداً واحدة ، وأن عبد شمس ونوفلا كانا يداً واحدة ، وكان مما بطأ ببنى نوفلٍ عن الإسلام إبطاء إخوتهم من بنى عبد شمس ، وكان ممّا حَثّ بنى المطلب على الإسلام فضل محبّتهم لبنى هاشم ؛ لأن أمرَ النبيّ صلّى الله عليه وآله كان بيّناً ، وإنما كانوا يمتنعون منه من طريق الحَسَد والبِغْضة ، فمن لم يكن فيه هـذه العلّة لم يكن له دون الإسلام مانع ، ولذلك لم يَصحب النبى صلى الله عليه وآله من بنى نوفل أحدٌ فَضْلًا أن يشهدوا معه المشاهِدَ الكريمة ، وإنما صَحِبه حُلفاؤُهم كيَعلَى بن منبِّه وعُتبة بن غَزْوان وغيرهما ، وبنو الحارث بن المطلب كلهم بدْرى : عبيد ، وطُفَيل ، وحُصَين ؛ ومن بنى المطلب مِسَطح بن أثاثة بدْرىّ .

وكيف يكون الأمرُ كما قلتم وأبو طالب يقول لمُطعِم بنِ عَدِى بن نوفل فى أمر النبى صلّى الله عليه وآله ، لمّا تمالأتْ قريشٌ عليه :

جَزَى اللهُ عنّا عبدَ شمس ونَوْفلًا ... جزاء مُسيء عاجلاً غيرَ آجلِ
أمُطعِم إمّا سامَنى القَوْم خُطّةً ... فأنّى مَتَى أوكلْ فلستَ بآكِلِ
أمطعِم لم أخذُلْكَ فى يوم شِدّةٍ ... ولا مشهدٍ عند الأمور الجلائل

ولقد قَسَم النبيّ صلى الله عليه وآله قسمةً فجَعَلها فى بنى هاشم وبنى المطلب ، فأتاه عثمانُ بنُ عفان بن أبى العاص بن أميّة بن عبدِ شمس بن عبدِ مناف ، وجُبير بن مُطعم ابن عدّى بن نوفل بن عبد مناف ، فقالا له : يا رسول الله ، إن قرابَتنا منك وقَرابة بنى المطّلب واحدة ، فكيف أعطيتهم دوننا ؟ فقال النبيُّ صلّى الله عليه وآله : « إنا لم نزل وبنى المطلب كهاتَين » ، وشَبّك بين أصابعه ، فكيفَ تقولون : كنا شيئاً واحداً ، وكان الاسم الذى يجمعنا واحدا !

ثم نرجع إلى افتخار بنى هاشم ، قالوا : وإن كان الفخر بالأَيْد[1] والقوة ، واهتصار[2] الأقران ومُبَاطشة الرجال ، فمن أين لكم كمحمد بن الحنفيّة ، وقد سمعتم أخباره وأنه قبض على دِرْع فاضلة ، فجذبها فقطع ذيلَها ما استدار منه كلّه . وسمعتم أيضا حديث الأيِّد[3] القوىّ الذى أرسَلَه مَلِك الروم إلى معاوية يفخر به على العرب ، وأن محمدا قعدَ له ليقيمه فلم يستطع ، فكأنما يُحرّك جبلًا ، وأن الرّومى قعد ليقيمه محمّد فرفعه إلى فوق رأسه ، ثم جَلَد به الأرض ؛ هذا مع الشجاعة المشهورة ، والفقه فى الدِّين والحلم والصبر والفصاحة والعِلم بالملاحم والإخبار عن الغُيوب ، حتى ادّعى له أنه المهدىّ ، وقد سمعتم أحاديثَ أبى إسحاق المعتصم ، وأن أحمد بنَ أبى دُوَادٍ عَضّ ساعدَه بأسنانه أشدَّ العَضّ فلم يؤثّر فيه ، وأنه قال : ما أظنُّ الأَسِنّةَ ولا السِّهام تُؤثِّر فى جَسَده ، وسمعتم ما قيل فى عبدِ الكريم المُطيع ، وأنّه جَذَب ذَنَبَ ثورٍ فاستلّه من بين وَرِكَيه .

وإن كان الفَخْر بالبِشر وطلاقةِ الأوْجُه وسَجَاحة الأخْلاق ، فمن مِثْلُ علىّ بن أبى طالب عليه السلام وقد بَلَغ من سَجاحة خُلُقه وطلاقةِ وَجْهه أنْ عيبَ بالدُّعابة ! ومَن الذى يسوِّى بين عبد شمس وبين هاشم فى ذلك ! كان الوليدُ جبّارا ، وكان هشام شَرِسَ الأخلاق ، وكان مَرْوَانُ بنُ محمد لا يزال قاطبا عابسا ، وكذلك كان يزيدُ بنُ الوَليد الناقص ، وكان المهدىّ المنصورُ أَسْرَى خلق الله وألطَفَهم خُلُقا ، وكذلك محمّد الأمين وأخوه المأمون ، وكان السفّاح يُضرَب به المَثَل فى السَّرو وسَجاحة الخُلُق .

قالوا : ونحن نعدّ من رَهْطنا رجالا لا تَعُدّون أمثالَهم أبداً ، فمنّا الأمراء بالدّيلم الناصر الكبير ، وهو الحسن الأطْروش بن علىّ بن الحسَن بن عمر بن علىّ بن عمر الأشرف

---

(١) الأيد (بفتح وسكون) : القوة . (٢) اهتصر القرن : جذبه بشدة .
(٣) الأيد : الشجاع الشديد .

ابن زيد العابدين، وهو الذى اسلمَت الدّيلمُ على يَدِه ، والناصر الأصغر وهو أحمد بنُ يحيى ابن الحسن بن القاسم بن إبراهيم بن طباطَبا ، وأخوه محمّد بن يحيى، وهو الملقب بالمرتَضى، وأبوه يحيى بن الحسَنِ وهو الملقَّب بالهادى . ومن ولد الناصر الكبير الثائر، وهو جعفرُ ابنُ محمد بن الحسن الناصر الكبير ، وهم الأمراء بَطبَرسْتان وجَيْلان وجُرْجان وما زَندران وسائر ممالك الدّيلمِ ؛ ملكوا تلك الأصْقاع مائةً وثلاثين سنة ، وضَرَبوا الدنانيرَ والدّراهم بأسمائهم ، وخُطب لهم على المنابر ، وحَاربوا الملوكَ السامانيّة ، وكسروا جُيوشهم ، وقتَلوا أمراءهم ، فهؤلاء واحدُهم أعظمُ كثيراً من ملوك بنى أميّة ، وأطوَل مدّة وأعدَل وأنصَف وأكثر نسكا وأشدّ حضًّا على الأمر بالمعروف والنَّهْى عن المنكر، ومن يَجرِى مجراهم الدّاعى الأكبر والداعى الأصغر مَلِكَا الدّيْلم ، قادَا الجيوش . واصطَنعا الصنّائع.

قالوا : ولنا ملوكُ مِصر وإفريقيَة ، ملَكوا مائتين وسبعين سنة ، فَتحوا الفُتوح واستردّوا ما تغلّب عليه الروم من مملكة الإسلام ، واصطنعوا الصنائع الجليلة .

ولهم الكُتّاب والشعراء والأمراء والقوّاد ، فأوّلهم المهدى عبيد الله بنُ ميمون بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب وآخِرُهم العاضد ، وهو عبدالله بن الأمير أبى القاسم بن الحافظ أبى الميمون بن المستعلى بن المستنصر بن الطاهر بن الحاكم بن عبد العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم ابن المهدى ؛ فإن افتخرت الأمويّة بملوكها فى الأندلس من ولد هشام بن عبد الملك ، واتصال ملكهم وجعلوهم بإزاء مُلوكنا بمصر وإفريقية ، قلنا لهم : ألا إنّا نحن أزَلنا ملكَكُم بالأندلس ، كما أزَلْنا مُلككم بالشام والمشرق كله ، لأنه لمّا ملك قُرْطُبة

الظافرُ من بنى أميّة وهو سليمان بنُ الحكم بن سليمان بنِ عبد الرحمن الملقب بالناصر ، خرج عليه علىّ بن حميد بن ميمون بن أحمد بن علىّ بن عبد الله بن عمر بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، فقتله ، وأزال مُلكه . وملك قُرْطُبة دارَ ملك بنى أمية ، ويلقب بالنّاصر . ثم قام بعده أخوه القاسم بنُ حَمّود ، ويلقب بالمعتلى ؛ فنحن قتلناكم وأزلنا مُلككم فى المشرق والمغرب ، ونحن لكم على الرَّصد[1] حيث كنتم ؛ اتبعناكم فقتلناكم وشرّدْناكم كلّ مشرّد ، والفخرُ للغالب على المغلوب ، بهذا قضت الأمم قاطبة .

قالوا : ولنا من أفراد الرجال من ليس لكم مثله ، منّا يحيى بنُ محمد بن على بن عبدِ الله بن العبّاس ، كان شُجاعا جَرِيئا[2] وهو الذى وَلِىَ المَوْصِلَ لأخيه السّفاح فاستعرض أهلها ، حتى ساخت[3] الأقدام فى الدّم .

ومنّا يعقوب بنُ إبراهيم بن عيسى بن أبى جعفر المنصور ، كان شاعراً فصيحا ، وهو المعروف بأبى الأسباط ، ومنّا محمد وجعفر ابنا سليمان بن علىّ ، كانا أعظم من ملوك بنى أميّة ، وأجلّ قَدْرا وأكثرَ أموالا ومكاناً عند الناس . وأهدَى محمد بنُ سليمان من البصرة إلى الخيزران مائة وصيفة فى يدِ كلٍّ واحدة منهن جامٌ[4] من ذهب وزنُه ألفُ مثقال ، مملوء مِسْكا ، وكان لجعفر بن سليمان ألفا عبد من السُّودان خاصّة ، فكم يكون ليتَ شعرى غيرهم من البيض ومن الإماء ! وما رُئِى جعفر بنُ سليمان راكباً قطّ إلّا ظُنّ أنه الخليفة .

ومن رجالنا محمد بنُ السّمّاح ، كان جوادا أيِّداً شديد البَطْش ، قالوا ما رُئِىَ أخوان

---

(١) على الرصد : مترصدون لكم .
(٢) فى ب : « حربا » تصحيف .
(٣) ساخت : غاصت .
(٤) الجام : إناء من الذهب أو الفضة .

أشدّ قوةً من محمد ورَيْطة أخته وَلدَى أبى العبّاس السّفّاح ، كان محمد يأخذ الحْديد فيَلويه فتأخذه هى فتردّه .

ومن رجالنا محمد بن إبراهيمَ طَباطَبا صاحب أبى السَّرَايا ، كان ناسكا عابدا فقيهاً عظيم القَدْر عند أهل بيته وعند الزيْدِيّة .

ومن رجالنا عيسى بن موسى بن محمد بن علىّ بنِ عبدِ الله بنِ العباس ، وهو الذى شيّد مُلْكَ المنصور وحارَبَ ابْنَىْ عبدِ الله بن حسن ، وأقام عمودَ الخلافة بعد اضطرابه ، وكان فصيحا أديبا شاعراً .

ومن رجالنا عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام ، حَجّ بالناس وَولىَ الشَّام ، وكان فصيحا خطيبا .

ومن رِجالِنا عبد الله بن موسى الهادى ، كان أكرمَ الناسِ وَجواداً ممدُوحا أديبا شاعرا ، وأخوه عيسى بن موسى الهادى ، كان أكرَمَ الناسِ ، وأجوَدَ الناسِ ، كان يلبس الثياب ، وقد حدَّد ظُفُرَه فيَخرِقها بظفره لئلا تعادَ إليه . وعبد الله بنُ أحمد ابن عبدِ الله بن موسى الهادى ، وكان أديبا ظريفا .

ومن رجالنا عبد الله بن المعتز بالله ، كان أوحَدَ الدّنيا فى الشِّعرِ والأدَب والأمثال الحكمية والسؤدد والرياسة ، كان كما قيل فيه لمَّا قُتِل :

لله دَرُّكَ من مَيْتٍ بمَضيعَةٍ ناهيكَ فى العِلمِ والأشعارِ والخطبِ[1]
ما فيه لَوٌّ ولا لَوْلَا فَتَنقُصه وإنما أدرَكَتْهُ حِرْفَةُ الأدبِ

ومن رجالنا النقيب أبو أحمد الُحْسين بنُ موسى شيخُ بنى هاشم الطالبيِّين والعبّاسيّين فى عصره ، ومن أطاعَه الخلفاء والُملوكُ فى أقطار الأرض ورجعوا إلى قوله ، وابناه علىّ ومحمد وهما المرتضى والرضى ، وهما فريدا العَصْر فى الأدب والشِّعْر والفقه والكلام ، وكان الرّضى شجاعاً أديباً شديد الأنف .

---

(١) لعلى بن بسام ، ابن خلكان ١ : ٢٥٩ .

ومن رجالِنا القاسمُ بن عبدِ الرحيم بن عيسى بن موسى الهادى ، كان شاعراً ظريفا .

ومن رجالنا القاسمُ بن إبراهيم طباطبا . صاحب المصنّفات والوَرَع والدّعاء إلى الله وإلى التوحيد والعَدْل ومنابذة الظالمين ، ومن أولاده أمَراء اليمَن .

ومن رجالنا محمّد الفأفاء بن إبراهيم الإمام ، كان سيّدا مُقدَّما ، ولى الموسمَ وحجّ بالناس ، وكان الرشيد يُسايره ، وهو مقنَّع بطَيلَسانه .

ومن رِجالِنا محمد بن محمّد بن زيد بن على بن الُحسَين صاحب أبى السَّرايا ، سادَ حَدَثا ، وكان شاعرا أديبا فقيها ، يأمر بالمعْروف وَينهى عن المنكر ، ولمّا أُسِر وحُمِل إلى المأمون أكرَمَه وأفضَل عليه ، ورَعَى له فضْلَه ونَسَبَه .

ومِن رجالنا موسى بن عيسى بن محمّد بنِ علىّ بنِ عبد الله بن العبّاس ، كنْيَتُه أبو عيسى ، وهو أجلُّ ولدِ عيسى وأنبلُهم ، وَلِىَ الكوفة وسَوَادَها زمانا طويلا للمَهْدِى ، ثم الهادى ، ووَلِىَ المدينَة وإفريقيَة ومصرَ للرّشيد ، قال له ابن السّماك لمّا رأى تَواضُعه: إنّ تواضُعَك فى شَرَفك لأحَبُّ إلىّ من شَرَفك ؛ فقال موسى : إنّ قومنا - يعنى بنى هاشم - يقولون : إنّ التواضع أحدُ مصائِد الشّرف .

ومن رجالنا موسى بنُ محمد أخو السَّفّاح والمنصور ، كان نبيلاً عندهم ، هو وإبراهيمُ الإمام لأمٍّ واحدة ، رأى فى منامه قبل أن يصير من أمرهم ماصارَ أنّه دخل بُسْتانا فلم يأخذ إلّا عنقوداً واحدا عليه من الحبّ المتراصّ مَارَبُّك به عليم ، فلم يُولَد له إلا عيسى، ثم وُلد لعيسَى من ظهره أحدٌ وثلاثون ذكَرا وعشرون أنثى .

ومن رجالنا عبدُ الله بن الحسَن بن الحسَن بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، وهو عبدُ الله المحض ، وأبوه الحسَن بن الحسن ، وأمّه فاطمة بنتُ الحسَين ، وكان إذا قيل: مَنْ

أجمل الناس ؟ قالوا : عبد الله بنُ الحسن ، فإذا قيل : مَنْ أكرم الناس ؟ قالوا : عبد الله ابن الحسن ، فإذا قالوا : مَنْ أشرَف الناس ؟ قالوا : عبدُ الله بنُ الحسَن .

ومن رجالنا أخوه الحسن بنُ الحسن ، وعمّه زيدُ بنُ الحسن وبنوه محمد وإبراهيم وموسى ويحيى ؛ أمّا محمد وإبراهيم فأمرُهما مشهور، وفضلُهما غيرُ مجْحود ، فى الفقه والأدب والنُّسُك والشجاعة والسؤدُد. وأما يحيى صاحبُ الدّيْلم فكان حسَن المذهَب والهدى، مقدّما فى أهل بيته ، بعيدا ممّا يُعابُ على مثله، وقَدَ روَى الحديثَ وأكثر الرّواية عن جعفر بن محمد ، ورَوى عن أكابر المحدّثين ، وأوصَى جعفر بن محمد إليه لما حضرتْه الوَفاة وإلى ولده موسى بن جعفر . وأمّا موسى بن عبدالله بن الحسن ؛ فكان شابا نجيبا صبورا شجاعا سخيًّا شاعرا .

ومن رجالنا الحسن المثلث، وهوا لحسن بن الحسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، كان مُتألِّها[1] فاضلاً وَرِعاً ، يذهب فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مَذهَبَ أهله . وإبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، كان مقدَّما فى أهله ، يقال : إنه أشبَهُ أهل زمانه برسول الله صلّى الله عليه وآله .

ومن رجالِنا عيسى بن زيد ، ويحيى بن زيد أخوه ، وكانا أفضَلَ أهل زمانهما شجاعة وزُهداً وفقها ونُسكاً .

ومن رجالنا يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن زَيْد صاحب الدعوة . كان فقيها فاضلا شجاعا فصيحا شاعرا ، ويقال : إن الناس ما أحبُّوا طالبيًّا قطّ دَعا إلى نفسِه حبَّهم يحيى ، ولا رثى أحد منهم بمثل ما رثِيَ به .

---

(١) متألهاً : متعبداً .

قال أبو الفَرَج الأصفهانى : كان يحيى فارساً شجاعاً شديد البَدَن ، مجتمِع القلب ، بعيدا عن زَهو الشباب وما يُعابُ به مثله ، كان له عمودٌ حديدٌ ثقيلٌ يَصحبه فى منزله ، فإذا سَخِط على عبدٍ أو أمة من حَشمه لَوَاه فى عُنقه فلا يَقدِر أحدٌ أن يحلّه عنه حتى يحلّه هو(١).

ومن رجالنا محمد بنُ القاسم بن علىّ بن عمر بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام صاحب الطالَقانِ ؛ لقّب بالصوفىّ لأنّه لم يكن يلبس إلا الصوف الأبيض ، وكان عالما فقيها ، ديّناً زاهدا ، حسنَ المذهب ، يقول بالعدْل والتوحيد .

ومن رجالنا محمد بنُ علىّ بن صالح بن عبد الله بن موسى بن حسن بن حسن بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام . كان من فتيان آل أبى طالب وفُتّاكهم وشُجْعانِهم وظُرَفائهم وشُعَرائهم ، وله شعرٌ لطيف محفوظ .

ومنهم أحمد بنُ عيسى بن زيد ، كان فاضلا عالما مقدّما فى عَشيرته ، معروفا بالفضل ؛ وقد رَوى الحديث ورُوِىَ عنه .

ومن رجالنا موسى بنُ جعفر بن محمد ــ وهو العبد الصالح ــ جَمَع من الفقه والدين والنسك والحلم والصبر . وابنه علىّ بن موسى المرشح للخلافة ، والمخطوب له بالعَهْد ، كان أعلمَ الناس ، وأسخَى الناس ، وأكرمَ الناس أخلاقاً .

* * *

قالوا : وأمّا ما ذكرتم من أمر الشَّجَرة الملعونة ، فإنّ المفسِّرين كلّهم قالوا ذلك ورَوَوْا فيه أخبارا كثيرةً عن النبىّ صلّى الله عليه وآله ، ولستم قادرين على جَحْد ذلك ، وقد عَرَفتم تأخّرَكم عن الإسلام وشدّة عداوتكم للرّسول الدّاعى إليه ، ومحاربتكم فى بَدْر وأُحُد والخندق ، وصَدَّكم الهدْىَ عن البيت ، وليس ذلك مما يوجب أن يعمّكم اللّعن حتى

---

(١) مقاتل الطالبيين ٦٤٠ .

لايغادر واحدا ، فإن زعم ذلك زاعمٌ فقد تعدّى . وأمّا اختصاصُ محمد بن عليّ بالوصية والخلافة دون إخوته؛ فقد علمتم أن وراثة السيادة والمرتبة ليس من جنس وراثة الأموال؛ ألا ترى أن المرأة والصبي والمجنون يرثون الأموال ولا يرثون المراتب ! وسواء فى الأموال ، كان الابن حارِضا(١) بائرا ، أو بارعاً جامعا .

وقيل : وراثة المقام سبيلُ وراثة اللواء ، دفع رسول الله صلّى الله عليه وآله لواء بنى عبد الدار إلى مُصعب بن عمير ، ودَفع عمر بن الخطاب لواء بنى تميم إلى وكيع بن بشر ، ثم دفعه إلى الأحنف حين لم يوجد فى بنى زرارة مَنْ يستحق وراثة اللواء ؛ فإن كان الأمر بالسنّ فإنما كان بين محمد بن عليّ وأبيه عليّ بن عبد الله أربع عشرة سنة ، كان عليّ يخضِب بالسَّواد ، ومحمد يخضِب بالحمرة ، فكان القادم يقدُم عليهما ، والزائر يأتيهما ، فيظُنّ أكثرهم أنّ محمدا هو عليّ ، وأن عليا هو محمد ، حتى ربما قيل لعليّ : كيف أصبح الشيخُ من عِلّته ؟ ومتى رَجَعَ الشيخ إلى منزله ؟ وأخرى، أنّ أمه كانت العالية بنت عبد الله بن العباس ، فقد ولده العبّاس مرتين ، وولده جوادُ بنى العبّاس ؛ كما والده خيرُهم وحَبْرهم ؛ ولم يكن لأحد من إخوته مثل ذلك . وكان بعض ولدِ محمد أسَنّ من عامة ولدِ عليّ ، ووُلِدَ محمدُ المهدى بن عبد الله المنصور والعبّاس بن محمد بن عليّ فى عام واحد ، وكذلك محمد بن سليمان بن عليّ ، ولم يكن لأحد من ولدِ عليّ بن عبد الله بن العباس ــ وإن كانوا فُضَلاء نجباء كُرَماء نبلاء ــ مثل عقله ولا كجماله ؛ كان إذا دخل المدينة ومكة جلس الناسُ على أبواب دُورهم والنّساء على سطوحهنّ للنظر إليه ، والتعجّب من كماله وبهائه ، وقد قاتل إخوته أعداءه فى دَفع الملك إلى ولده غير مكرهين ولا مجبَرين ؛ على أنّ محمدا إنما أخذ الأمر عن أساس مؤسَّس ، وقاعدةٍ مقرَّرة ، ووصيّةٍ انتقلت إليه من أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفيّة ، وأخذها أبو هاشم عن أبيه محمد ، وأخذها محمد عن عليّ بن أبى طالب أبيه .

(١) الحارض : الفاسد .

قالوا : لما سمّت بنو أمية أبا هاشمٍ مَرِض فخرج من الشام وَقِيذا [1] يؤمّ المدينة ، فمرّ بالحميمة [2] وقد أشفى ، فاستدعَى محمّد بن على بن عبدِ الله بنِ العباس فدفع الوصيّة إليه ، وعرّفه ما يصنَع ، وأخبَرَه بما سيكون من الأمر ، وقال له : إنّى لم أدْفَعْها إليك من تلقاء نفسى ، ولكنّ أبى أخبرنى عن أبيه علىّ بن أبى طالب عليه السلام بذلك ، وأمَرَنى به ، وأعلمَنى بلقائى إيّاك فى هذا المكان ، ثم مات فتولّى محمّد بنُ على تجهيزَه ودَفْنَه وبثّ الدُّعاةَ حينئذ فى طَلَب الأمر ، وهو الذى قال لرجال الدّعوة ، والقائمين بأمر الدولة ، حين اختارهم للتوجّه ، وانتخبهم للدّعاء ، وحين قال بعضهم : نَدْعو بالكوفة ، وقال بعضهم : بالبَصْرة . وقال بعضهم : بالجزيرة . وقال بعضهم بالشام . وقال بعضهم : بمكّة وقال بعضهم : بالمدينة. واحتجّ كلٌّ إنسان لرأيه ، واعتلّ لقوله — فقال محمّد: أمّا الكوفة وسوادُها فشيعةُ علىٍّ ووَلده ، وأمّا البَصْرة فعُثْمانيّة تَدِين بالكَفّ ، وقَبيلُ عبدِ الله المَقْتول يَدِينون بجميع الفِرَق ، ولا يُعينون أحد ، وأمّا الجزيرة فحَروريّة مارقة ، والخارجيّة فيهم فاشية ، وأعراب كأعلاج [3] ، ومسلمون فى أخلاق النصارى ، وأمّا الشام فلا يَعرِفون إلا آل أبى سُفْيان ، وطاعة بنى مَرْوان ، عداوةً راسخةً ، وجهلًا متراكمًا ؛ وأمّا مَكّة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعُمَر ، وليس يتحرّك معنا فى أمرنا هذا منهم أحد ، ولا يقوم بنَصْرنا إلّا شيعتنا أهل البيت ، ولكن عليكم بخُراسان ، فإنّ هناك العَدَدَ الكثير ، والجلد الظاهر ، وصُدوراً سليمة ، وقلوبا مجتمعة ، لم تتقسّمها الأهواء ، ولم تتوزّعها النِّحَل ، ولم تَشْغَلها ديانة ، ولا هدم فيها فساد ، وليس لهم اليوم هِمَم [4] العَرَب ، ولا فيهم تجارب كتجارب الأتْباع مع السادات ، ولا تحالُفٌ كتحالف القبائل ، ولا عَصَبيّة كعصبيّة العشائر ، ومازالوا يُنالُون ويُمتَهون ، ويُظلَمون فيَكْظِمون ، ويَنْتَظِرون الفرج ، ويؤمِّلون

---

(١) الوقيذ : المريض المشرف على الهلاك .

(٢) الحميمة ، كجهينة بلده بالبلقاء . (٣) الأعلج : جمع علج ؛ الرجل من كفار العجم :

(٤) ا : « هم » .

دَوْلة ، وهم جندٌ لهم أبدان وأجسام ، ومَناكبُ وكواهل ، وهامات ولُحَى ، وشواربُ وأصوات هائلة ، ولُغات فخمة ، تَخْرج من أجواف مُنكَرة .

وبعد ، فكأنى أتفاءلُ جانبَ المَشرق فإنّ مطلَع الشمس سراجُ الدّنيا ، ومصباح هذا الخَلْق . فجاء الأمرُ كما دبّر ، وكما قدّر ، فإن كان الرأى الّذى رأى صَواباً فقد وافق الرشاد ، وطَبّق المِفْصَل ، وإن كان ذلك عن رواية متقدّمة ، فلم يتلقّ تلك الرواية إلا عن نبوة .

قالوا : وأمّا قولكم : إنّ منا رجلا مكَثَ وأربعين سنة أميراً وخليفة ، فإنّ الإمارة لا تعدّ فخرا مع الخلافة ، ولا تُضَمّ إليها ، ونحن نقول : إن مِنّا رجلا مكث سبعاً وأربعين سنة خليفة ، وهو أحمد الناصرُ بن الحسن المستضىء ؛ ومِنّا رجلٌ مكث خمسا وأربعين سنةً خليفةً ، وهو عبد الله القائم ومكث أبوه أحمد القادر ثلاثا وأربعين سنة خليفة ، فملكهما أكثر من مُلك بنى أمية كلِّهم ، وهم أربع عشرةَ خليفة . ويقول الطالبيون : منّا رجلٌ مكَث ستين سنة خليفة ، وهو معَدّ بن الطاهر صاحبُ مصر ، وهذه مُدّة لم يبلُغها خليفة ولا مَلِك من مُلوك العرَب فى قديم الدّهْر ولا فى حَديثه .

وقلتم لنا : عاتكة بنت يزيد يكتَنِفُها خمسةٌ من الُخلفاء ، ونحن نقول : لنا زُبَيْدة بنتُ جَعْفر يكتَنِفُها ثمانية من الخلفاء ، جدّها المنصورُ خليفة ، وعمُّ أبيها السفّاح خليفة وعمُّها المهدىّ خليفة ، وابنُ عمّها الهادى خليفة ، وبعلها الرشيد خليفة ، وابنها الأمين خليفة ، وابنا بعْلَها المأمونُ والمعتصمُ خليفتان .

قالوا : وأما ماذكرتموه من الأعياص والعَنابس فلَسْنا نُصدّقكم فيما زَعَمْتُموه أصْلا بهذه التّسْمية ، وإنما سُمّوا الأعياص لمَكانِ العِيص وأبى العِيص والعاص وأبى العاص ، وهذه أسماؤهم ، الأعلام ليست مشتَقّةً من أفعالٍ لهم كريمة ولا خسيسة . وأما العنابس ،

فإنّما سُمّوا بذلك لأنّ حَرْب بنَ أميّة كان اسمُه عَنْبَسة ؛ وأما حَرْبٌ فلَقَبه ، ذكَر ذلك النّسّابون ، ولمّا كان حَرْب أمثَلَهم سَمَّوْا جماعتَهم باسمه ، فقيل : العَنَابس ، كما يقال : المَهالبة والمَناذِرة ، ولهذا المعنى سُمّىَ أبوسفيان بن حَرْب بن عَنْبَسة ، وسُمّى سَعِيدُ بنُ العاص ابن عَنْبَسة .

تم الجزء الخامس عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ويليه الجزء السادس عشر

فهرس الخطب*

(*) وهى الخطب الواردة فى نهج البلاغة .

فهرس الموضوعات*

* وهى الموضوعات الواردة فى شرح نهج البلاغة .

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل ابراهيم

الجزء السادس عشر

دار الجيل

بيروت

طبعة ثانية
١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

(٢٩)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل البصرة :

وَقَدْ كَانَ مِنَ انْتِشَارِ حَبْلِكُمْ وَشِقَاقِكُمْ مَا لَمْ تَغْبَوْا عَنْهُ ، فَعَفَوْتُ عَنْ مُجْرِمِكُمْ ، وَرَفَعْتُ السَّيْفَ عَنْ مُدْبِرِكُمْ ، وَقَبِلْتُ مِنْ مُقْبِلِكُمْ ، فَإِنْ خَطَتْ بِكُمُ الْأُمُورُ الْمُرْدِيَةُ ، وَسَفَهُ الآرَاءِ الْجَائِرَةِ ، إِلَى مُنَابَذَتِي وَخِلَافِي ، فَهَأَنَذَا قَدْ قَرَّبْتُ جِيَادِي ، وَرَحَلْتُ رِكَابِي .

وَلَئِنْ أَلْجَأْتُمُونِي إِلَى الْمَسِيرِ إِلَيْكُمْ لَأُوقِعَنَّ بِكُمْ وَقْعَةً لَا يَكُونُ يَوْمُ الْجَمَلِ إِلَيْهَا إِلَّا كَلَعْقَةِ لَاعِقٍ ؛ مَعَ أَنِّي عَارِفٌ لِذِي الطَّاعَةِ مِنْكُمْ فَضْلَهُ ، وَلِذِي النَّصِيحَةِ حَقَّهُ ، غَيْرَ مُتَجَاوِزٍ مُتَّهَماً إِلَى بَرِيٍّ ، وَلَا نَاكِثاً إِلَى وَفِيٍّ .

* * *

الشرح :

ما لم تغبَوا عنه ، أى لم تسهوا عنه ولم تغفلوا ، يقال: غبيتُ عن الشىء أغبى غباوة ؛ إذا لم يفطَن ، وغَبِى الشىءُ علىّ كذلك إذا لم تعرفه ، وفلان غبىّ على « فعيل » ، أى قليل الفِطْنة ، وقد تَغَابى ؛ أى تغافل ؛ يقول لهم : قد كان من خروجكم يومَ الجمل عن الطاعة ،

ونشرِكم حبلَ الجماعة ، وشقاقِكم لِي ما لستم أغبياء عنه ، فغفرت ورفعت السيف ، وقبلت التوبة والإنابة .

والمدبر ها هنا : الهارب ، والمقبل : الّذى لم يفرّ؛ لكن جاءنا فاعتذر وتنصّل .

ثم قال : فإن خطت بكم الأمور ، خطا فلان خُطْوة يخطُو ، وهو مقدار ما بين القَدمين ، فهذا لازم ، فإن عدّيتَه ، قلت : أخطيت بفلان ، وخطوت به ، وها هنا قد عدّاه بالباء .

والمردية : المهلكة ، والجائرة : العادلة عن الصواب . والمنابذة ، مفاعلة ، من نبذتُ إليه عهدَه أى ألقيتَه وعدلت عن السِّلم إلى الحرب ، أو من نبذت زيداً ، أى اطّرحته ولم أحفل به .

قوله : « قرّبت جيادى » ، أى أمرت بتقريب خيلى إلىّ لأركب وأسير إليكم .

ورحلت ركابى ، الرّكاب الإبل ، ورحلتها : شددت على ظهورها الرَّحل ، قال :

رَحَلَتْ سُمَيّة غُدوَةً أَجْمَالَهَا غَضْبَى عَلَيْكَ فما تَقُولُ بَدَالها[1]

كلَمَقة لاعق ، مثل يضرب للشيء الحقير التافه ، ويروى بضم اللام ، وهى ما تأخذه الملْعقة .

ثم عاد فقال مازجا الخشونةَ باللِّين : مع أنى عارف فضلَ ذى الطاعة منكم ، وحقّ ذى النصيحة ، ولو عاقبت لما عاقبت البرىء بالسقيم ، ولا أخذت الوفىّ بالناكث .

خطب زياد بالبصرة الخطبة الغرّاء المشهورة ، وقال فيها : والله لآخذنّ البرئ بالسقيم ، والبَرّ باللّئيم ، والوالد بالولد ، والجار بالجار ، أو تستقيم إلى قَناتُكم . فقام أبو بلال مِرداس

---

(١) للأعشى ، ديوانه ٢٢ .

ابن أُدَيّة يهمس ، وهو حينئذ شيخ كبير ، فقال : أيّها الأمير ، أبأنا الله بخلاف ما قلت ، وحكم بغير ما حكمت ، قال سبحانه: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[1] ، فقال زياد : يا أبا بلال ، إنى لم أجهل ما علمت ؛ ولكنّا لا نخلُص إلى الحقّ منكم حتى نخوض إليه الباطل خوضاً .

وفى رواية الرياشىّ: «لآخذن الولىّ بالولىّ» ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر، والصحيح بالسقيم ، حتى يلقَى الرّجل منكم أخاه فيقول : انجُ سعد فقد هلك سعيد ، أو تستقيم لى قَنَاتُكم .

---

(١) سورة الأنعام ١٦٤ .

(٣٠)

الأصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية :

فَاتَّقِ ٱللّٰهَ فِيمَا لَدَيْكَ ، وَٱنْظُرْ فِي حَقِّهِ عَلَيْكَ ، وَٱرْجِعْ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا لَا تُعْذَرُ بِجَهَالَتِهِ ، فَإِنَّ لِلطَّاعَةِ أَعْلَاماً وَاضِحَةً ، وَسُبُلًا نَيِّرَةً ، وَمَحَجَّةً نَهْجَةً ، وَغَايَةً مُطَّلَبَةً ، يَرِدُهَا ٱلْأَكْيَاسُ ، وَيُخَالِفُهَا ٱلْأَنْكَاسُ ؛ مَنْ نَكَبَ عَنْهَا جَارَ عَنِ ٱلْحَقِّ ، وَخَبَطَ فِي التِّيهِ ، وَغَيَّرَ ٱللّٰهُ نِعْمَتَهُ ، وَأَحَلَّ بِهِ نِقْمَتَهُ .

فَنَفْسَكَ نَفْسَكَ ! فَقَدْ بَيَّنَ ٱللّٰهُ لَكَ سَبِيلَكَ ، وَحَيْثُ تَنَاهَتْ بِكَ أُمُورُكَ ، فَقَدْ أَجْرَيْتَ إِلَى غَايَةِ خُسْرٍ ، وَمَحَلَّةِ كُفْرٍ ، فَإِنَّ نَفْسَكَ قَدْ أَوْلَجَتْكَ شَرًّا ، وَأَقْحَمَتْكَ غَيًّا ، وَأَوْرَدَتْكَ ٱلْمَهَالِكَ ، وَأَوْعَرَتْ عَلَيْكَ ٱلْمَسَالِكَ .

* * *

الشَّرْحُ :

قوله : « وغاية مُطَّلبة » ؛ أى مساعفة لطالبها بما يطلبه ، تقول: طلب فلان مِنّى كذا فأطّلبتُه : أى أسعفت به . قال الراوندىّ : مطّلبة بمعنى متطلّبة ، يقال: طلبت كذا وتطلّبته ؛ وهذا ليس بشىء ، ويخرج الكلام عن أن يكون له معنى .

والأكياس : العقلاء ، والأنكاس : جمع نِكْس ؛ وهو الدنئ من الرجال ، ونكب عنها : عدل .

قوله : « وحيث تناهت بك أمورك » ، الأوْلى ألّا يكون هذا معطوفا ولا متّصلا

بقوله ، فقــد بين الله لك سبيلك ، بل يكون كقولهم لمن يأمرونه بالوقوف : حيث أنت ، أى قِفْ حيث أنت ؛ فلا يذكرون الفعل ؛ ومثله قولهم : مكانَك ، أى قف مكانك .

قوله : « فقد أجريت » ، يقــال : فلان قد أجرى بكلامه إلى كذا ، أى الغــاية التى يقصدها هى كذا ، مأخوذ من إجراء الخيل للمسابقة ، وكذلك قد أجرى بفعله إلى كذا ، أى انتهى به إلى كذا . ويروى : « قد أوْحلتك شرًّا » أو أورطتك فى الوحل ، والغَىّ ضدُّ الرشاد .

وأقحمتك غيًّا : جعلتك مقتحما له .

وأوعرت عليك المسالك : جعلتها وعْرة .

* * *

وأوّل هذا الـكتاب :

أمّا بعد ، فقد بلغَــنى كتابُك تذكر مشاغبتى ، وتستقبح موازرتى ، وتزعمنى متحيِّرا وعن الحق مقصّرا ، فسبحــان الله ، كيف تستجيز الغيبة ، وتستحسن العضيهة ! إنِّى لم أشاغب إلّا فى أمر بمعروف، أو نهى عن منـكر ، ولم أتجبّر[1] إلّا على باغٍ مارق، أوملحد منافق ، ولم آخذ فى ذلك إلّا بقول الله سبحانه : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ ﴾[2] ، وأما التقصير فى حق الله تعالى فمعاذ الله ! وإنّما المقصّر فى حقِّ الله جلّ ثناؤه مَنْ عطّل الحقوق المؤكّدة ، وركن إلى الأهواء المبتدعة ، وأخلد إلى الضّلالة المحيّرة ؛ ومن العجب أن تصِفَ يا معــاوية الإحسان ، وتخــالف البرهان ، وتنـكث الوثائق التى هى لله عزّ وجــلّ طَلِبة ، وعلى عباده حجّة ، مع نبذ الإسلام ، وتضييــع الأحـكام ، وطمْس الأعلام ،

---

(١) ا ، ب « ولم أضجر » وما أثبته عن « د » .

(٢) سورة المجادلة ٢٢

والجرى فى الهوى ، والتهوّس[١] فى الرّدى ، فاتق الله فيما لديك، وانظر فى حقّه عليك ... الفصل المذكور فى الكتاب .

وفى الخطبة زيادات يسيرة لم يذكرها الرضىّ رحمه الله ، منها :

وإنّ للناس جماعة يد الله عليها ، وغضب الله على مَنْ خالفها ، فنفسَك نفسَك قبل حلول رمسِك ، فإنّك إلى الله راجع ، وإلى حشره مُهْطِع[٢] وسيبهُظك كربه ، ويحلّ بك غمُّه ، فى يوم لا يغنى النادمَ ندمُه ، ولا يُقبَل من المعتذِر عُذرُهُ ، ﴿ يوم لا يُغنى مَوْلًى عن مولًى شيئاً ولا هم يُنْصَرون ﴾[٣] .

(١) التهوس فى الردى : الوقوع فيه

(٢) المهطع : الذى ينظر فى ذل وخشوع .

(٣) سورة الدخان ٤١ .

(٣١)

الأَصْلُ:

ومن وصيته عليه السلام للحسن عليه السلام كتبها إليه بحاضرين عند انصرافه من صفين :

مِنَ ٱلْوَالِدِ ٱلْفَانِ ، ٱلْمُقِرِّ لِلزَّمَانِ ، ٱلْمُدْبِرِ ٱلْعُمُرِ ، ٱلْمُسْتَسْلِمِ لِلدَّهْرِ ، الذَّامِّ لِلدُّنْيَا ، السَّاكِنِ مَسَاكِنَ ٱلْمَوْتَى ، الظَّاعِنِ عَنْهَا غَدًا .

إِلَى ٱلْمَوْلُودِ ٱلْمُؤَمِّلِ مَا لَا يُدْرِكُ ، السَّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ ؛ غَرَضِ ٱلْأَسْقَامِ ، وَرَهِينَةِ ٱلْأَيَّامِ ، وَرَمِيَّةِ ٱلْمَصَائِبِ ، وَعَبْدِ الدُّنْيَا ، وَتَاجِرِ ٱلْغُرُورِ ، وَغَرِيمِ ٱلْمَنَايَا ، وَأَسِيرِ ٱلْمَوْتِ ، وَحَلِيفِ ٱلْهُمُومِ ، وَقَرِينِ ٱلْأَحْزَانِ ، وَنُصُبِ ٱلْآفَاتِ ، وَصَرِيعِ الشَّهَوَاتِ ، وَخَلِيفَةِ ٱلْأَمْوَاتِ .

***

الشَّرْحُ :

[ترجمة الحسن بن عليّ وذكر بعض أخباره]

قال الزّبير بن بكار فى كتاب " أنساب قريش " : ولد الحسن بن عليّ عليه السلام للنصف من شهر رمضان سنة ثلاث من الهجرة ، وسمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله حسَنًا ، وتوفِّىَ لليالٍ خلوْنَ من شهر ربيع الأول سنة خمسين .

قال : والمرويّ أن رسول الله صلى الله عليه وآله سمّى حسناً وحسيناً رضى الله عنهما يوم سابعهما ، واشتقّ اسم حسين من اسم حسن .

قال : وروى جعفر بن محمد عليه السلام أنّ فاطمة عليها السلام حلَقت حسنا وحُسينا يوم سابعهما ووزنت شعرهما فتصدّقت بوزنه فضة .

قال الزُّبير : وروت زينب بنت أبى رافع ، قالت : أتتْ فاطمة عليها السلام بابنيها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فى شَكْوِه(١) الذى توفِّىَ فيه ، فقالت : يا رسولَ الله ، هذان ابناك ، فورِّثْهما شيئاً ؛ فقال : أمّا حسن فإن له هيبتِى وسُودَدِى ، وأما حسين فإن له جراءتى وجُودى .

***

وروَى محمّد بن حبيب فى أماليه أنّ الحسن عليه السلام حجّ خمس عشرة حجّة ماشيا تُقَاد الجنائب معه ، وخرج من ماله مرّتين ، وقاسم الله عزّ وجلّ ثلاث مرات مالَه ؛ حتى أنه كان يعطى نعلًا ويُمسك نعلا ، ويعطِى خُفًّا ، ويمسك خُفًّا .

وروى أبو جعفر محمد بن حبيب أيضا أنّ الحسن عليه السلام أعطى شاعرا ، فقال له رجل من جلسائه : سبحانَ الله ! أتعطى شاعراً يعصى الرحمن ، ويقول البهتان ! فقال : يا عبدَ الله ، إنّ خير ما بذلت من مالك ما وَقيْت به عِرْضَك ؛ وإنّ من ابتغاء الخير اتّقاء الشرّ .

وروى أبو جعفر ، قال : قال ابنُ عباس رحمه الله : أوّل ذُلٍّ دخل عَلَى العرب موتُ الحسن عليه السلام .

وروى أبو الحسن المدائنىّ ، قال : سُقِىَ الحسن عليه السلام السمّ أربعَ مرات ، فقال: لقد سقيتُه مرارا فما شقّ علىّ مثل مشقته هذه المرّة . فقال له الحسين عليه السلام : أخبِرْنى مَنْ سقاك ؟ قال : لتقتلَه ؟ قال : نعم ؛ قال : ما أنا بمخبرك ؛ إن يكن صاحبى الذى أظنّ فالله أشدّ نِقمة ، وإلا فما أحبُّ أن يُقتل بى برىء .

---

(١) الشكو : المرض .

وروى أبو الحسن ، قال : قال معاوية لابن عبّاس ، ولقيه بمكّة : يا عجبا من وفاة الحسن ! شرب علّة بماء رومة[١] ، فقضى نَحْبَه ، فوَجَم ابنُ عبّاس ، فقال معاوية : لا يحزنك الله ولا يسوءك ، فقال : لا يسوءنى ما أبقاك الله ! فأمر له بمائة ألف درهم .

وروى أبوالحسن قال : أوّلُ من نَعَى الحسنَ عليه السلام بالبصرة عبد الله بن سلَمة ، نعاه لزياد ، فخرج الحكم بن أبى العاص الثقفىّ ، فنعاه ، فبكى الناس ـ وأبو بكرة يومئذ مريض ، فسمع الضّجّة ، فقال : ما هذا ؟ فقالت امرأته ميسة بنت سخام الثقفيّة : مات الحسن بن علىّ ، فالحمد لله الذى أراح الناس منه ! فقال : اسكتى ويحك ! فقد أراحه الله من شرّ كثير ، وفقد الناسُ بموته خيرا كثيرا ، يرحم الله حسنا !

قال أبو الحسن المدائنىّ : وكانت وفاته فى سنة تسع وأربعين ، وكان مرضه أربعين يوما ، وكانت سنّه سبعاً وأربعين سنة ، دسّ إليه معاوية سمّا على يد جَعْدة بنت الأشعث ابن قيْس زوجة الحسن ، وقال لها : إن قتلتيه[٢] بالسّمّ فلك مائة ألف ، وأزوّجك يزيد ابنى . فلما ماتَ وَفَى لها بالمال ، ولم يزوّجْها من يزيد . قال : أخشى أن تصنع بابنى كما صنعت بابن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى أبو جعفر محمد بن حبيب عن المسيّب بن نَجَبَة ، قال : سمعتُ أميرَ المؤمنين عليه السلام ، يقول : أنا أحدّثكم عنّى وعن أهل بيتى ؛ أمّا عبد الله ابن أخى فصاحب لهو وسَماح ، وأمّا الحسنُ فصاحب جَفْنة وخِوان ، فتًى من فتيان قريش ؛ ولو قد التقتْ حَلْقتا البِطان[٣] لم يُغن عنكم شيئا فى الحرب ، وأمّا أنا وحسين فنحن منكم وأنتم منّا .

---

(١) د : « بماء برومة » . (٢) د : « قتلته » .

(٣) مثل يضرب للأمر إذا اشتد وجاوز الحد .

قال أبو جعفر : وروى ابن عباس ، قال : دخل الحسن بن علىّ عليه السلام على معاوية بعد عام الجماعة وهو جالس فى مجلس ضيّق ، فجلس عند رجليه ، فتحدّث معاوية بما شاء أن يتحدّث ، ثم قال : عجبا لعائشة ! تزعم أنّى فى غير ما أنا أهله . وأنّ الذى أصبحت فيه ليس لى بحقّ ، مالها ولهذا ! يغفر الله لها ، إنما كان ينازعنى فى هذا الأمر أبو هذا الجالس ، وقد استأثر الله به ؛ فقال الحسن : أو عجب ذلك يا معاوية ! قال : إى والله ، قال : أفلا أخبرك بما هو أعجب من هذا ؟ قال : ما هو ؟ قال : جلوسك فى صدْر المجلس وأنا عند رجليك ؛ فضحك معاوية ، وقال : يابن أخى ، بلغنى أنّ عليكَ دَيْناً ، قال : إن لعلىّ دينا ، قال : كم هو ؟ قال : مائة ألف ، فقال : قد أمرنا لك بثلثمائة ألف ؛ مائة منها لدينك ، ومائة تقسمها فى أهل بيتك ، ومائة لخاصة نفسك ؛ فقم مكرّما ، واقبض صِلَتك . فلما خرج الحسن عليه السلام ، قال يزيد بن معاوية لأبيه : تالله ما رأيتُ رجلا استقبلك بما استقبلك به ؛ ثم أمرت له بثلثمائة ألف ! قال : يا بنىّ ، إن الحقّ حقهم ، فمن أتاك منهم فاحْثُ له .

وروَى أبو جعفر محمد بن حبيب ،قال : قال علىّ عليه السلام : لقد تزوّج الحسن وطلّق حتى خفتُ أن يثير عداوة ، قال أبو جعفر : وكان الحسنُ إذا أراد أن يطلق امرأةً جلس إليها ، فقال : أيسرّك أن أهبَ لك كذا وكذا ؟ فتقول له ماشئت ، أو نعم ؛ فيقول : هو لك ؛ فإذا قام أرسل إليها بالطلاق ؛ وبما سَمّى لها .

وروى أبو الحسن المدائنىّ ، قال : تزوّج الحسن بن علىّ عليه السلام هندا بنت سهيل ابن عمرو — وكانت عند عبد الله بن عامر بن كُرَيز ، فطلّقها — فكتب معاوية إلى أبى هريرة أن يخطبها على يزيد بن معاوية ، فلقيَه الحسن عليه السلام ، فقال : أين تريد ؟ قال : أخطب هندا بنت سهيل بن عمرو على يزيد بن معاوية ، قال الحسن عليه السلام :

فاذكرنى لها ، فأتاها أبو هريرة ، فأخبرها الخبر ، فقالت : اخترْ لى ، فقال : أختار لك الحسن . فتزوّجته ، فقدم عبد الله بن عامر المدينة فقال للحسن : إن لى عند هند وديعةً ، فدخل إليها والحسن معه ، فخرجت حتى جلست بين يدى عبد الله بن عامر ، فرقّ لها رِقّة عظيمة[١] ، فقال الحسن : ألا أنزل لك عنها ؟ فلا أراك تجد محلّلا خيرا لكما منى ! قال: لا، ثم قال لها : وديعتى ، فأخرجت سَفَطين فيهما جوهر ؛ ففتحهما وأخذ من أحدهما قبضة وترك الآخر[٢] عليها ؛ وكانت قبل ابن عامر عند عبد الرحمن بن عتّاب بن أسيد ؛ فكانت تقول : سيّدهم جميعا الحسن ، وأسخاهم ابن عامر ، وأحبّهم إلىّ عبدُ الرحمن بن عتاب .

وروى أبو الحسن المدائنىّ ، قال : تزوّج الحسن حفصة بنت عبد الرحمن بن أبى بكر ، وكان المنذر بن الزبير يهواها ، فأبلغ الحسن عنها شيئا فطلّقها ، فخطبها المنذر ، فأبت أن تتزوجه ، وقالت : شهّر بى ! فخطبها عاصم بن عمر بن الخطاب ، فتزوّجها ، فأبلغه المنذر عنها شيئا فطلقها ؛ فخطبها المنذر ، فقيل لها : تزوجيه ، فقالت : لا والله ماأفعل ؛ وقد فعل بى ما قد فعل مرتين ؛ لا والله لا يرانى فى منزله أبدا .

وروى المدائنىّ ، عن جويرية بن أسماء ، قال : لما مات الحسن عليه السلام ، أخرجوا جنازته ، فحمل مروان بن الحكم سريرَه ، فقال له الحسين عليه السلام : تحمل اليوم جنازته وكنت بالأمس تجرّعه الغيظ ؟ قال مروان : نعم ؛ كنت أفعل ذلك بمن يوازن حلمه الجبال .

وروى المدائنىّ عن يحيى بن زكريا، عن هشام بن عروة ، قال : قال الحسن عند وفاته : ادفنونى عند قبر رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ إلا أن تخافوا أن يكون فى ذلك شرّ ، فلمّا أرادوا دفنه ، قال مروان بن الحكم : لا يدفن عثمان فى حَشّ كوكب[٣] ، ويدفن الحسن هاهنا ،

---

(١) د : « شديدة » . (٢) د : « الباقى » .

(٣) حش كوكب ، بفتح أوله وتشديد ثانيه : موضع عند بقيع الغرقد ، اشتراه عثمان رضى الله عنه ، وزاده فى البقيع ، ولما قتل ألقى معه .

فاجتمع بنو هاشم وبنو أمية ، وأعان هؤلاء قوم وهؤلاء قوم ، وجاءوا بالسّلاح ، فقال أبو هريرة لمرْوان : أتمنع الحسن أن يدفن فى هذا الموضع ، وقد سمعت رسول الله صلى عليه وآله يقول : « الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة » ! قال مروان : دعنا منك ، لقد ضاع حديث رسول الله صلى الله عليه وآله إذ كان لا يحفظه غيرك وغير أبى سعيد الخدرىّ ! وإنما أسلمتَ أيام خيبر ، قال أبو هريرة : صدقت ، أسلمت أيام خيبر ، ولكنّنى لزمت رسولَ الله صلى الله عليه وآله ولم أكن أفارقه ؛ وكنت أسأله ، وعُنيت بذلك حتى علمت مَنْ أحبّ ومَنْ أبغض ، ومَن قرّب ومَن أبعد ، ومن أقرّ ومَن نفى ، ومَنْ لعن ومَنْ دعا له ؛ فلما رأت عائشة السّلاح والرجال ، وخافت أن يعظم الشرّ بينهم ، وتسفك الدماء ، قالت : البيت بيتى ، ولا آذن لأحد أن يُدفن فيه ، وأبى الحسين عليه السلام أن يدفنه إلّا مع جدّه ؛ فقال له محمد بن الحنفيّة : ياأخى ، إنه لو أوصى أن ندفنه لدفنّاه أو نموت قبل ذلك ، ولكنه قد استثنى ، وقال : « إلا أن تخافوا الشرّ » ، فأى شرّ يرى أشدّ مما نحن فيه ! فدفنوه(١) فى البقيع .

قال أبو الحسن المدائنىّ : وصل نعىُ الحسن عليه السلام إلى البَصْرة فى يومين وليلتين ، فقال الجارود : بن أبى سَبْرة(٢) :

إذا كان شرٌّ سارَ يوماً وليلةً ... وإن كان خيرٌ أخّر السَّيْر أَرْبعَا

إذا ما بَرِيد الشرِّ أقبل نحوَنَا ... بإحدى الدّواهى الرُّبْد سارَ وأسْرَعا

وروى أبو الحسن المدائنىّ ، قال : خرج على معاوية قومٌ من الخوارج بعد دخوله الكوفة وصلْح الحسن عليه السلام له فأرسل معاوية إلى الحسن عليه السلام يسأله أن يخرج فيقاتل الخوارج ، فقال الحسن : سبحان الله ! تركتُ قتالك وهو لى حلال لصلاح الأمة وألفتهم ، أفترانى أقاتل معك ! فخطب معاوية أهلَ الكُوفة ، فقال : يا أهل الكوفة ،

---

(١) د : « فدفن » . (٢) د : « هبيرة » .

أترونى قاتلتكم على الصّلاة والزّكاة والحجّ ، وقد علمتُ أنّكم تصلُّون وتزكّون وتحجّون ؛ ولكنّنى قاتلتكم لأتأمّر عليكم وعلى رقابكم ، وقد آتانى الله ذلك وأنتم كارهون ؛ ألَا إنّ كلّ مالٍ أو دمٍ أصيب فى هذه الفتنة فمطلولٌ ، وكلّ شرط شرطته فتحت قدمىّ هاتين ؛ ولا يُصلح النّاسَ إلاثلاث : إخراج العطاء عند محلّه ، وإقفال الجنود لوقتها ، وغَزْو العدوّ فى داره ، فإنّهم إن لم تغزوهم غَزَوْكم . ثم نزل .

قال المدائنىّ : فقال المسيّب بن نَجَبَة للحَسن عليه السلام : ما ينقضى عجبى منك ! بايعتَ معاوية ومعك أربعون ألفا ، ولم تأخذ لنفسك وثيقةً وعقدا ظاهرا ، أعطاك أمرا فيما بينك وبينه ، ثم قال ما قد سمعت ، والله ماأراد بها[1] غيرك ، قال . فما ترى؟ قال: أرى أن ترجعَ إلى ما كنت عليه ، فقد نقض ما كان بينه وبينك . فقال : يامسيّب ، إنى لو أردت بما فعلت الدّنيا لم يكن معاوية بأصبرَ عند اللّقاء، ولاأثبتَ عند الحرب منّى ، ولكنى أردت صلاحكم ، وكفّ بعضكم عن بعض ؛ فارضوا بقدَر الله وقضائه ، حتى يستريح بَرّ ، أو يُستراح من فاجر .

***

قال المدائنىّ ودخل عُبيدة بن عمرو الكِندىّ على الحسن عليه السلام ـ وكان ضُرِب على وجهه ضربة وهو مع قيس بن سعد بن عبادة ـ فقال : ما الذى أرى بوجهك ؟ قال : أصابنى مع قيس . فالتفت حُجْر بن عدىّ إلى الحسن ، فقال : لوددت أنك كنتَ مِتّ قبل هذا اليوم ، ولم يكن ما كان ، إنّا رجعنا راغمين بما كرهنا ، ورجعوا مسرورين بما أحبّوا . فتغيّر وجهُ الحسن ، وغمز الحسين عليه السلام حُجْرا ، فسكت ، فقال الحسن عليه السلام : يا حجْرُ ، ليس كلّ الناس يحبّ ما تحبّ ولا رأيه كرأيك ، وما فعلت إلا إبقاء عليكَ ، واللهُ كلّ يوم فى شأن .

(١) عبارة د : « ما أراد بما قال غيرك » .

قال المدائنىّ : ودخل عليه سفيان بن أبى ليلى النّهدىّ ، فقال له : السّلام عليك يامذِلّ المؤمنين ! فقال الحسن : اجلس يرحمك الله ، إنّ رسـول الله صلى الله عليه وآله رُفِع له مُلْك بنى أميّة ، فنظر إليهم يَعلُون منـبره واحدا فواحدا ، فشقّ ذلك عليه ، فأنزل الله تعالى فى ذلك قرآنا قال له : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِى أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ المَلْعُونَةَ فِى الْقُرْآنِ ﴾(١). وسمعت عليًّا أبى رحمه الله يقول: سيَلِى أمْر هذه الأمّة رجل واسع البُلْعوم ، كبير البطن ، فسألته : من هو ؟ فقال : معاوية . وقال لى : إنّ القرآن قد نطق بملك بنى أميّة ومدّتهم ، قال تعالى : ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾(٢)، قال أبى : هذه ملك بنى أمية .

قال المدائنى : فلمّا كان عام الصلح ، أقام الحسن عليـه السلام بالـكوفة أيّاماً ، ثم تجهّز للشخوص إلى المدينة ، فدخل عليـــه المسيّب بن نَجَبَةَ الفَزارِىّ وظبيان بن عُمارة التيمىّ ليودّعاه ، فقال الحسن : الحمد لله الغالب على أمْرِه ؛ لو أجمع الْخَلق جميعـا على ألّا يكون ماهو كائن ما استطاعوا . فقال أخوه الحسين عليه السلام : لقد كنت كارها لمّا كان طيّب النفس على سبيل أبى حتى عزم علىّ أخى ، فأطعته ، وكأنمـا يجذّ أنفى بالمواسى ، فقال المسيّب : إنه والله ما يكبر علينا هذا الأمر إلا أن تُضاموا وتنتقصوا ، فأمّا نحن، فإنهم سيطلبون مودّتنا بكل ما قدروا عليه ، فقال الحسين : يامسيّب ، نحن نعلم أنك تحبّنا ، فقال الحسن عليه السلام : سمعت أبى يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « من أحبّ قوما كان معهم » ، فعرض له المسيّب وظبيان بالرجوع ، فقال : ليس [لى](٣) إلى ذلك سبيل ، فلمّا كان من غدٍ خرج ، فلمّا صار بديرِ هندٍ نظر إلى الـكوفة ، وقال :

وَلَا عَنْ قِلًى فارقتُ دارَ مَعاشرى ... هم المـانعون حَـوْزتى وذِمارِى

(١) سورة الإسراء : ٦٠ . (٢) سورة القدر ٣ .
(٣) من « د » .

ثم سار إلى المدينة .

قال المدائنىّ : فقال معاوية يومئذ للوليد بن عُقْبة بن أبى مُعيط بعد شخوص الحسن عليه السلام : يا أبا وهب ، هل رمت ؟ قال : نعم ، وسموت .

قال المدائنىّ : أراد معاوية قولَ الوليد بن عقبة يحرّضه على الطلب بدم عثمان :

ألَا أَبْلِغْ مُعاوية بن حربٍ ... فإنّك من أخى ثقة مُليمُ(١)

قطعت الدّهر كالسّدِم المعنّى ... تهدّرُ فى دمشق ولا تَرِيمُ(٢)

فلو كنت القتيل وكان حيًّا ... لشمّر لا ألفٌ ولا سئوم

وإنّك والكتاب إلى علىٍّ ... كدابغةٍ وقد حَلِم الأديمُ(٣)

وروى المدائنىّ ، عن إبراهيم بن محمد ، عن زيد بن أسلم ، قال : دخل رجل على الحسن عليه السلام بالمدينة ، وفى يده صحيفة ، فقال له الرجل : ما هذه ؟ قال : هذا كتاب معاوية ، يتوعّد فيه على أمر كذا ، فقال الرجل : لقد كنت على النّصَف ، فما فعلت ؟ فقال له الحسن عليه السلام : أجلْ ، ولكنّى خشيت أن يأتىَ يوم القيامة سبعون ألفا أو ثمانون ألفا ، تشخب أوداجُهم دما ، كلّهم يستعدِى الله فيم هُريق دمه !

قال أبو الحسن : وكان الحصين(٤) بن المنذر الرقاشىّ يقول : والله ما وفى معاوية للحسن بشىء ممّا أعطاه ؛ قتل حُجْرًا وأصحابَ حُجْر(٥) ، وبايع لابنه يزيد ، وسمّ الحسن .

---

(١) المليم : من أتى من الأمر ما يلام عليه .

(٢) فى اللسان : « السدم: الذى يرغب عن فحلته فيحال بينه وبين ألافه ويقيد إذا هاج فيرعى حوالى الدار ، وإن صال جعل له حجام يمنعه عن فتح فه ، ومنه قول الوليد بن عقبة . . . واستشهد بالبيت .

(٣) الحلم ، بالتحريك : فساد الجلد ؛ قال صاحب اللسان فى شرح البيت : « يقول أنت تسعى فى إصلاح أمر قد تم فساده ؛ كهذه المرأة التى تدبغ الأديم الحلم الذى وقعت فيه الحلمة فنقبته وأفسدته فلا ينتفع به » .

(٤) د : « الحضين » ، (٥) حجر بن عدى .

قال المدائنىّ : وروى أبو الطفيل ، قال : قال الحسن عليه السلام لمولًى له : أتعرف معاوية بن خديج ؟ قال : نعم ، قال : إذا رأيتَه فأعلمنى ؛ فرآه خارجاً من دار عمرو ابن حريث ، فقال : هو هذا ! فدعاه ، فقال له : أنت الشّاتم عليًّا عند ابن آكلة الأكباد ! أما والله لئن وردت الحوض ولم ترده لترينّه مشمرا عن ساقيه ، حاسرا عن ذراعيه ، يذود عنه المنافقين .

قال أبو الحسن : وروى هذا الخبر أيضا قيس بن الربيع ، عن بدر[1] بن الخليل ، عن مولى الحسن عليه السلام .

قال أبو الحسن : وحدّثنا سليمان بن أيّوب ، عن الأسود[2] بن قيس العبدىّ ، أنّ الحسن عليه السلام لقى يوماً حبيب بن مسلمة فقال له : يا حبيب ، ربّ مسيرٍ لك فى غير طاعة الله ! فقال : أمّا مسيرى إلى أبيك فليس من ذلك ، قال : بلى والله ؛ ولكنك أطعت معاوية على دنيا قليلة زائلة ، فلئن قام بك فى دنياك ، لقد قعد بك فى آخرتك ، ولو كنت إذْ فعلت شرًّا قلت خيرا ، كان ذلك ، كما قال عز وجل : ﴿ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾[3] ، ولكنك كما قال سبحانه : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[4] .

***

قال أبو الحسن : طلب زياد رجلا من أصحاب الحسن ، ممن كان فى كتاب الأمان ، فكتب إليه الحسن :

من الحسن بن علىٍّ إلى زياد ؛ أمّا بعد ؛ فقد علمت ما كنّا أخذنا من الأمان لأصحابنا ، وقد ذكر لى فلانٌ أنك تعرّضت له ، فأحبّ ألّا تعرض له إلّا بخير . والسلام .

---

(١) فى د : « زيد » .　　(٢) د : « أبى الأسود » .

(٣) سورةالتوبة ١٠٢ .　　(٤) سورة المطففين ١٤ .

فلما أتاه الكتاب ، وذلك بعد ادّعاء معاوية إياه غضِب حيث لم ينسبه إلى أبى سفيان ، فكتب إليه :

من زياد بن أبى سفيان إلى الحسن ؛ أما بعد ، فإنه أتانى كتابك فى فاسق تؤويه الفسّاق من شيعتك وشيعة أبيك ، وايمُ الله لأطلبنّه بين جلدك ولحمك ، وإن أحبّ الناس إلىّ لحما أن آكلَه لَلحمٌ أنت منه [والسلام][(١)] .

فلما قرأ الحسن عليه السلام الكتاب ، بعث به إلى معاوية ، فلما قرأه غضب وكتب :

من معاوية بن أبى سفيان إلى زياد . أمّا بعد ، فإن لك رأيين : رأيا من أبى سفيان ورأياً من سُمَيّة ، فأمّا رأيك من أبى سفيان فحلمٌ وحزم ، وأمّا رأيك من سُمَيّة فما يكون من مثلها . إنّ الحسن بن علىّ عليه السلام كتب إلىّ بأنّك عرضت لصاحبه ، فلا تعرض له ، فإنى لم أجعل [لك][(١)] عليه سبيلا ؛ وإنّ الحسنَ ليس ممّن يرمَى به الرَّجَوَان[(٢)] ، والعجب من كتابك إليه لا تنسبه إلى أبيه أو إلى أمّه ، فالآن حين اخترتَ له ، والسلام .

* * *

قلت : جرى فى مجلس بعض الأكابر وأنا حاضر القول فى أنّ عليا عليه السلام شَرُف بفاطمة عليها السلام فقال إنسان كان حاضر المجلس : بل فاطمة عليها السلام شرُفت به وخاض الحاضرون فى ذلك بعد إنكارهم تلك اللفظة ، وسألنى صاحب المجلس أن أذكر ما عندى فى المعنى وأن أوضّح : أيّما أفضلُ : علىٌّ أم فاطمة ؟ فقلت : أمّا أيّهما أفضل ؛ فإن أريد بالأفضل الأجمع للمناقب التى تتفاضل بها الناس ، نحو العلم والشجاعة ونحو ذلك ، فعلىٌّ أفضل ، وإن أريد بالأفضل الأرفع منزلةً عند الله ، فالذى

---

(١) عن « د » .

(٢) الرجوان: تثنية رجا ، والرجا مقصور: ناحية كل شىء. ويقال : رمى به الرجوان: إذا استهان به ، فكأنه رمى به هنالك ، أراد أنه طرح فى المهالك .

استقرّ عليه رأى المتأخرين من أصحابنا، أن عليًّا أرفع المسلمين كافة عندالله تعالى بعد رسول الله صلى الله عليه وآله من الذكور والإناث ؛ وفاطمة امرأة من المسلمين ، وإن كانت سيِّدة نساء العالمين ؛ ويدلّ على ذلك أنّه قد ثبت أنه أحبّ الخلق إلى الله تعالى بحديث الطائر ، وفاطمة من الخلق ، وأحبّ الخلق إليه سبحانه أعظمهم ثوابا يومَ القيامة ، على ما فسره المحققون من أهل الكلام ، وإن أريد بالأفضل الأشرف نسبا ، ففاطمة أفضلُ لأنّ أباها سيِّد ولد آدم من الأولين والآخرين ، فليس فى آباء علىٍّ عليه السلام مثله ولا مقارنه ، وإن أريد بالأفضل مَنْ كان رسول الله صلى الله عليه وآله أشدّ عليه حُنُوًّا وأمسّ به رحما ، ففاطمة أفضل ، لأنها ابنته ؛ وكان شديد الحبّ لها والحنوّ عليها جدًّا ، وهى أقرب إليه نسبا من ابن العمّ ، لا شبهة فى ذلك .

فأمّا القول فى أنّ عليا شَرُف بها أو شَرُفت به ، فإنّ عليا عليه السلام كانت أسباب شرفه وتميّزه على الناس متنوعة ، فمنها ما هو متعلقٌ بفاطمة عليها السلام ، ومنها ما هو متعلّقٌ بأبيها صلوات الله عليه ، ومنها ما هو مستقلٌّ بنفسه .

فأمّا الذى هو مستقلٌّ بنفسه ، فنحو شجاعته وعفّته وحلمه وقناعته وسَجاحة أخلاقه وسماحة نفسه . وأمّا الذى هو متعلِّقٌ برسول الله صلى الله عليه وآله فنحو علمه ودينه وزهده وعبادته ، وسبقه إلى الإسلام وإخباره بالغيوب .

وأما الذى يتعلق بفاطمة عليها السلام فنكاحه لها ؛ حتى صار بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وآله الصّهر المضاف إلى النسب والسبب ؛ وحتى إنّ ذرّيته منها صارت ذرِّية لرسول الله صلى الله عليه وآله ، وأجزاء من ذاته عليه السلام ؛ وذلك لأنّ الولد إنما يكون من مَنِىّ الرجل ودم المرأة ، وهما جزآن من ذاتى الأب والأم ، ثم هكذا أبدا فى ولد الولد ومَنْ بعده من البطون دائما . فهذا هو القول فى شرف علىّ عليه السلام بفاطمة .

فأمّا شرفها به فإنها وإن كانت ابنة سيد العـــالمين ، إلّا أن كونها زوجة علىّ أفادها نوعاً من شرف آخر زائدا على ذلك الشرف الأوّل ؛ ألا ترى أن أباهـــا لو زوّجها أبا هريرة أو أنس بن مالك لم يكن حالهـــا فى العظمة والجلالة كحالهـــا الآن ، وكذلك لو كان بنوهـــا وذرّيتهـــا من أبى هريرة وأنس بن مالك لم يـــكن حالهم فى أنفسهم كحالهم الآن .

***

قال أبو الحسن المدائنىّ : وكان الحسن كثير التزوّج ، تزوج خَوْلة بنت منظور بن زبان الفزارية ، وأمّها مليــكة بنت خارجة بن سنـــان ، فولدت له الحسن بن الحسن . وتزوّج أم إسحاق بنت طلحة بن عبيد الله ، فولدت له ابنـــا سمّاه طلحة ، وتزوج أم بشر بنت أبى مسعود الأنصارىّ ــ واسم أبى مسعود عقبـــة بن عمر ــ فولدت له زيد بن الحسن ، وتزوّج جعدة بنت الأشعث بن قيس ، وهى التى سقته السم ، وتزوّج هند ابنة [سهيل بن عمرو ، وحفصة ابنة](1) عبد الرحمن بن أبى بكر ، وتزوّج امرأة من كلْب ، وتزوّج امرأة من بنات عمرو بن أهتم المِنقرىّ ، وامرأة من ثقيف ، فولدت له عمرًا ، وتزوّج امرأة من بنات علقمة ابن زرارة ، وامرأة من بنى شيبان من آل هام بن مرّة ، فقيل له: إنها ترى رأىَ الخوارج، فطلقها ، وقال ؛ إنّى أكره أن أضمّ إلى نحرى جَمْرة من جَمْر جهنم .

وقال المدائنىّ : وخطب إلى رجل فزوّجه ، وقال له : إنى مزوّجك ، وأعلم أنك مِلِق طلِق غلِق (2) ؛ ولـكنك خير الناس نسباً ، وأرفعهم جداً وأبا .

قلت : أما قوله ملق طلق ؛ فقد صدق؛ وأما قوله غَلِقٌ فلا ؛ فإن الغَلِق الـكثير الضجر، وكان الحسن عليه السلام أوسع الناس صدرا وأسجحهم خلقاً .

---

(١) من « د » .

(٢) الملق : الفقير .

قال المدائنى : أحصيت زوجات الحسن بن على فكنّ سبعين امرأة .

* * *

قال المدائنىّ : ولما توفِّىَ علىٌّ عليه السلام خرج عبد الله بن العباس بن عبد المطلب إلى الناس ، فقال : إن أمير المؤمنين عليه السلام تُوفِّىَ ، وقد ترك خلفا ، فإن أحببتم خرج إليكم ، وإن كرهتم فلا أحد على أحد ؛ فبكى النّاس ، وقالوا : بل يخرج إلينا ، فخرج الحسن عليه السلام ، فخطبهم فقال : أيها الناس ؛ اتقوا الله ، فإنا أمراؤكم وأولياؤكم ، وإنّا أهل البيت الذين قال الله تعالى فينا : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ (١) ، فبايعه الناس .

وكان خرج إليهم وعليه ثياب سود ، ثم وجّه عبد الله بن عباس ومعه قَيْس بن سعد ابن عبادة مقدّمة له فى اثنى عشر ألفا إلى الشام ، وخرج وهو يريد المدائن ، فطعن بساباط وانتهب متاعه ؛ ودخل المدائن ؛ وبلغ ذلك معاوية ، فأشاعه ؛ وجعل أصحاب الحسن الذين وجّههم مع عبد الله يتسلّلون إلى معاوية ، الوجوه وأهل البيوتات . فكتب عبد الله بن العباس بذلك إلى الحسن عليه السلام فخطب الناس ووبّخهم ، وقال : خالفتم أبى حتى حُكّم وهو كاره ، ثم دعاكم إلى قتال أهل الشام بعد التحكيم ، فأبيتم حتى صار إلى كرامة الله ، ثم بايعتمونى على أن تسالموا مَنْ سالمنى ، وتحاربوا مَنْ حاربنى ؛ وقد أتانى أنّ أهل الشرف منكم قد أتوا معاوية ، وبايعوه ؛ فحسبى منكم ، لا تغرّونى من دينى ونفسى .

وأرسل عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ـ وأمه هند بنت أبى سفيان بن حرب ـ إلى معاوية يسأله المسالمة ، واشترط عليه العمل بكتاب الله وسنة نبيّه ، وألّا يبايع لأحد من بعده ، وأن يكون الأمر شورى ، وأن يكون الناس أجمعون آمنين .

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣ .

وكتب بذلك كتابا ، فأبى الحسين عليه السلام ، وامتنع ؛ فكلّمه الحسن حتى رضىَ ، وقدم معاوية إلى الكوفة .

* * *

قال أبو الحسن : وحدّثنا أبو بكر بن الأسود ، قال : كتب ابن العباس إلى الحسن :

أمّا بعد فإن المسلمين ولّوْك أمرهم[1] بعد علىّ عليه السلام ، فشمّرْ للحرب ، وجاهد عدوّك ، وقاربْ أصحابك ، واشتر[2] من الظّنين[3] دينَه بما لا يثلِم[4] لك دِيناً[5] ، ووالِ أهل[6] البيوتات والشَّرَف ، تستصلح به عشائرهم ، حتى يكون الناس جماعة ؛ فإن بعض ما يكره الناس ــ ما لم يتعد الحقّ ؛ وكانت عواقبه تؤدى إلى ظهور العدل ، وعزّ الدين ــ خير من كثير مما يُحبّه الناس إذا كانت عواقبه تدعو إلى ظهور الجوْر وذلّ المؤمنين ، وعزّ الفاجرين . واقْتَدِ بما جاء عن أئمّة العدل ، فقد جاء عنهم أنه لا يصلح الكذب إلّا فى حرْب أو إصلاح بين الناس ؛ فإنّ الحرب خدعة ؛ ولك فى ذلك سعة إذا كنت محاربا ، ما لم تبطلْ حقًّا .

واعلم أنّ عليًّا أباك إنّما رغِبَ الناس عنه إلى معاوية ، أنّه أسَاءَ بينهم فى الفىء ، وسوّى بينهم فى العطاء ، فثقُل عليهم ؛ واعلم أنّك تحاربُ مَنْ حارب الله ورسوله فى ابتداء الإسلام ؛ حتى ظهر أمرُ الله ، فلمّا وحّد الرب ، ومحق الشرك ، وعزّ الدين ، أظهروا الإيمان وقرءوا القرآن ؛ مستهزئين بآياته ، وقاموا إلى الصلاة وهم كسالى ، وأدوا الفرائض

---

(١) فى د : « أمورهم » . (٢) د : « واستر » .

(٣) الظنين : « المتهم » . (٤) يثلم : يعيب .

(٥) العقد ١ : ٣٠ ، وعيون الأخبار ١ : ١٤ « يفك » . (٦) العقدوعيون الأخبار : «وول»

وهم لها كارهون ؛ فلما رأوْا أنه لايعز فى الدين إلّا الأتقياء الأبرار ، توسّموا بسيما الصالحين، ليظنّ المسلمون بهم خيرا ، فما زالوا بذلك حتى شركوهم فى أماناتهم ، وقالوا : حسابهم على الله ؛ فإن كانوا صادقين فإخواننا فى الدين ، وإن كانوا كاذبين كانوا بما اقترفوا هم الأخسرين ؛ وقد منيت بأولئك وبأبنائهم وأشباههم ؛ والله ما زادهم طول العمر إلا غيًّا ، ولا زادهم ذلك لأهل الدين إلّا مقتا ؛ فجاهِدْهم ولا ترض دنيّـة ، ولا تقبل خسفاً[1] ؛ فإنّ عليا لم يُجب إلى الحـكومة حتى غُلب على أمره فأجاب ؛ وإنّهم يعلمون أنّه أوْلَى بالأمر إن حكموا بالعدل ، فلمّا حكموا بالهوى ، رجع إلى ما كان عليه حتى أتى عليـه أجلُه ، ولا تخرجنّ من حقّ أنت أولى به ، حتى يحول الموت دون ذلك . والسلام .

***

قال المدائنىّ : وكتب الحسن عليه السلام إلى معاوية :

من عبد الله الحسن أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبى سفيان . أما بعد فإنّ الله بعث محمدا صلى الله عليه وآله رحمةً للعالمين ، فأظهر به الحقّ ، وقمع به الشِّرْك ، وأعزّ به العرب عامّة ، وشرّف به قريشا خاصّة ، فقال : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾[2] ؛ فلمّا توفاه الله تنازعت العرب فى الأمر بعده ، فقالت قريش : نحن عشيرته وأولياؤه ، فلا تنازعونا سلطانه ، فعرفت العرب لقريش ذلك ؛ وجاحدتْنا قريش ما عرفت لها العرب ، فهيهات ! ما أنصفتنا قريش وقد كانوا ذوى فضيلة فى الدّين ، وسابقة فى الإسـلام ؛ ولا غَرو[3] إلّا منازعته إيّانا الأمر بغير حق فى الدنيا معروف ، ولا أثر فى الإسـلام محمود ، فالله الموعد ، نسأل الله ألّا يؤتينا فى هذه الدنيا شيئاً ينقصنا عنـده فى الآخرة . إنّ عليا لمّا توفّاه الله ولّانى المسلمون الأمرَ بعده ، فاتق الله يا معاوية ؛ وانظر لأمة محمد

---

(١) خسفا ، أى ذلا . (٢) سورة الزخرف ٤٤ .

(٢) لا غرو ؛ أى لا عجب .

صلى الله عليه وآله ، ما تحقِنُ به دماءها ، وتصلح به أمرها . والسلام .

وبعث بالكتاب مع الحارث بن سويد التيميّ ، تيْم الرِّباب ، وجندب الأزديّ ، فقدما على معاوية فدعواه إلى بيعة الحسن عليه السلام فلم يجبهما ، وكتب جوابه :

أمّا بعد ، فقد فهمتُ ما ذكرت به رسول الله ، وهو أحقّ الأوّلين والآخرين بالفَضْل كلّه ، وذكرت تنازع المسلمين الأمر بعده ، فصرَّحْتَ بتهمة أبي بكر الصديق وعمر وأبي عبيدة الأمين ، وصُلَحاء المهاجرين ، فكرهتُ لك ذلك ؛ إنّ الأمّة لما تنازعت الأمر بينها رأت قريشا أخلقها به[1] ؛ فرأت قريش والأنصار وذوو الفضل والدين من المسلمين أنّ يولُّوا من قريش أعلمها بالله ، وأخشاها له ؛ وأقواها على الأمر ، فاختاروا أبا بكر ولم يألوا ، ولو علموا مكان رجل غير أبي بكر يقوم مقامَه ويذبّ عن حرم الإسلام ذبَّه ما عدلوا بالأمر إلى أبي بكر ، والحال اليوم بيني وبينك على ما كانوا عليه ، فلو علمتُ أنّك أضبط لأمر الرعيّة ، وأحوطُ على هذه الأمة ، وأحسن سياسة ، وأكيَد للعدوّ ، وأقوى على جمع الفيء ، لسلّمتُ لك الأمر بعد أبيك ؛ فإنّ أباك سعى على عثمان حتى قُتِل مظلوما ، فطالب الله بدمه ؛ ومن يطلبه الله فلن يفوته . ثم ابتزّ الأمّة أمرها ، وفرّق جماعتها ، فخالفه نظراؤه من أهل السابقة والجهاد والقدَم في الإسلام ، وادّعى أنّهم نكثوا بيعته ، فقاتلهم فسُفكت الدماء ؛ واستُحلّت الحرَم ، ثم أقبل إلينا لا يدّعي علينا بيعة ؛ ولكنه يريد أن يملكنا اغترارا ، فحاربناه وحاربَنا ، ثم صارت الحرب إلى أن اختار رجلا واخترنا رجلا ، ليحكما بما تصلح عليه الأمّة ، وتعود به الجماعة والألفة ، وأخذنا بذلك عليهما ميثاقا وعليه مثله وعلينا مثله ، على الرضا بما حكما ، فأمضى الحكمان عليه الحكْم بما علمت ، وخلعاه ، فوالله مارضي بالحكم ، ولاصبر لأمر الله ؛ فكيف تدعوني إلى أمر إنّما تطلبه بحق أبيك ، وقد خرج منه ! فانظر لنفسك ولدينك . والسلام .

---

(١) في د « أحقها » .

قال : ثم قال للحارث وجندب : ارجعا فليس بيني وبينكم إلّا السيف ؛ فرجعا وأقبل إلى العراق فى ستين ألفا ؛ واستخلف على الشام الضحّاك بن قيس الفهرىّ والحسن مقيم بالكوفة ، لم يشخص حتى بلغه أنّ معاوية قد عبر جسر مَنْبِج ، فوجّه حجْر بن عدىّ يأمر العمال بالاحتراس ، ويذبّ الناس ، فسارعوا . فعقد لقيس بن سعد بن عبادة على اثنى عشر آلفا ، فنزل دير عبد الرحمن ، واستخلف على الكوفة المغيرة بن نوفل بن الحارث ابن عبد المطلب ، وأمر قيس بن سعد بالمسير ، وودّعه وأوصاه ، فأخذ على الفرات وقرى الفلُّوجة ، ثم إلى مَسْكِن . وارتحل الحسن عليه السلام متوجّها نحو المدائن ، فأتى ساباط فأقام بها أيّاما ، فلما أراد أن يرحل إلى المدائن قام فخطب الناس ، فقال : أيّها الناس ؛ إنكم بايعتمونى على أن تسالموا مَنْ سالمت وتحاربوا مَنْ حاربت ، وإنى والله ما أصبحت محتملا على أحد من هذه الأمة ضغينة فى شرق ولا غرب ، ولَمَا تكرهون فى الجماعة والألفة والأمن ، وصلاح ذات البين خير مما تحبون فى الفرقة ، والخوف والتباغض والعداوة ، وإنّ عليا أبى كان يقول : لا تكرهوا إمارة معاوية ؛ فإنكم لو فارقتموه لرأيتم الرءوس تُنْدَر(١) عن كواهلها كالحنظل . ثم نزل .

فقال الناس : ما قال هذا القول إلّا وهو خالع نفسه ومسلم الأمرَ لمعاوية ، فثاروا به فقطعوا كلامَه ، وانتهبوا متاعه ، وانتزعوا مُطْرَفاً كان عليه ، وأخذوا جارية كانت معه ، واختلف الناس فصارت طائفة معه ؛ وأكثرهم عليه ، فقال : اللهمّ أنت المستعان ، وأمر بالرّحيل ، فارتحل الناس ، وأتاه رجل بفرس ، فركبه وأطاف به بعض أصحابه ، فمنعوا الناس عنه وساروا ، فقدمه سنان بن الجرّاح الأسدىّ إلى مظلِم ساباط ، فأقام به ؛ فلما دنا منه تقدّم إليه يكلّمه ، وطعنه فى فخذه بالمِعْوَل(٢) طعنة كادت تصل إلى العظم ، فغُشِى عليه وابتدره أصحابه ، فسبق إليه عُبيد الله الطائىّ ، فصرع سنانا وأخذ ظبيان بن عُمارة المعول

(١) تندر : تقطع . (٢) المعول : حديدة ينقر بها الصخر .

من يده ، فضربه به فقطع أنفه ، ثم ضربه بصخرة على رأسه فقتله ؛ وأفاق الحسن عليه السلام من غَشْيته ، فعصبوا جُرحه وقد نزف وضعف ، فقدموا به المدائن وعليها سعد بن مسعود ، عمّ المختار بن أبى عُبيد ، وأقام بالمدائن حتى برئ من جرحه .

* * *

قال المدائنىّ : وكان الحسن عليه السلام أكبرَ ولد علىّ ، وكان سيّداً سخيا حليما خطيبا ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يحبّه ؛ سابق يوما بين الحسين وبينه فسبق الحسن ، فأجلسه على فخذه اليمنى ، ثم أجلس الحسين على الفخذِ اليسرى ، فقيل له : يارسول الله أيّهما أحبُّ إليك ؟ فقال : أقول كما قال إبراهيم أبونا ، وقيل له : أىّ ابنيك أحبّ إليك ؟ قال : أكبرهما وهو الذى يلد ابنى محمدا صلّى الله عليه وسلّم .

وروى المدائنى عن زيد بن أرقم ، قال : خرج الحسن عليه السلام وهو صغير ، وعليه بُرْده ورسول الله صلى الله عليه وآله يخطب ، فعثر فسقط ، فقطع رسول الله صلى الله عليه وآله الخطبة ، ونزل مسرعا إليه ، وقد حمله الناس ، فتسلّمه وأخذه على كتفه ، وقال : إنّ الولد لفتنة ، لقد نزلت إليه وما أدرى ! ثم صعد فأتمّ الخطبة .

وروى المدائنىّ ، قال : لقى عمرو بن العاص الحسن عليه السلام فى الطواف ، فقال له : يا حسن ، زعمت أنّ الدين لا يقوم إلّا بك وبأبيك ، فقد رأيت الله أقامه بمعاوية ، فجعله راسيا بعد مَيْله ، وبيّنا بعد خفائه ، أفرضى الله بقتل عثمان ؛ أو من الحق أن نطوف بالبيت كما يدور الجمل بالطَّحين ، عليك ثياب كغرقئ[1] البيض ، وأنت قاتل عثمان ، والله إنه لألمّ للشَّعث ، وأسهل للوَعث ، أن يوردك معاوية حياضَ أبيك ؛ فقال الحسن عليه السلام : إنّ لأهل النار علامات يُعرفون بها ، إلحاداً لأولياء الله ؛ وموالاة لأعداء الله ، والله إنّك

---

(١) الغرقئ : القشرة الملترقة ببياض البيض .

لتعلم أنّ عليا لم يرتَبْ فى الدين ، ولا يشكّ فى الله ساعة ولا طرفة عين قطّ ، وايم الله لتنتهِيَنّ يابن أم عمرو أو لأنفذنّ حِضْنَيْك بنوافذ أشدّ من القَعْضَبِيّة[1] : فإيّاكَ والتهجّم علىّ ، فإنى مَنْ قد عرفت ؛ لست بضعيف الغَمْزة ، ولا هشّ المُشاشة[2] ؛ ولامرِئ المأكلة ، وإنّى من قريش كواسطة القلادة ، يُعْرَفُ حسبى ، ولا أُدْعَى لغير أبى ، وأنت مَنْ تعلم ويعلم الناس ، تحاكمت فيك رجال قريش ، فغلب عليــك جَزّارُوها ، ألأمهم حسبا ، وأعظمهم لؤما ، فإياكَ عنّى ، فإنّك رجس ، ونحن أهل بيت الطهارة ، أذهب الله عنا الرّجس وطهرنا تطهيرا . فأُفحِم عمرو وانصرف كئيبا .

* * *

وروى أبو الحسن المدائنىّ قال : سأل معاوية الحسن بن علىّ بعــد الصلح أن يخطب الناس ، فامتنع ، فناشدَه أن يفعل ، فوضع له كرسىّ ، فجلس عليه ، ثم قال : الحمد لله الذى توحّد فى مُلْــكه ، وتفرّد فى ربوبيته ، يؤتى الملك مَنْ يشاء ، وينزعه عمّن يشاء . والحمد لله الذى أكرم بنا مؤمنــكم ، وأخرج من الشرك أوّلــكم ، وحقن دماء آخركم ، فبلاؤنا عندكم قديما وحديثا أحسن البلاء ، إن شــكرتم أو كفرتم . أيّها الناس ، إنّ ربّ علىّ كان أعلم بعلىٍّ حين قبضه إليه ، ولقد اختصّه بفضل لم نعتادوا مثله ، ولم تجدوا مثل سابقته ، فهيهات هيهات ! طالما قلبتم له الأمور حتى أعلاه الله عليــكم وهو صاحبكم ، وعدوكم فى بدر وأخواتها ، جرّعكم رَنقا ، وسقاكم عَلقاً ، وأذلّ رقابكم ، وأشرقــكم بريقــكم ، فلستم بلومين على بغضه . وايم الله لا ترى أمة محمد خفضا ماكانت سادتهم وقادتهم فى بنى أمية ، ولقــد وجّه الله إليــكم فتنة لن تصدروا عنها حتى تهلــكوا ؛ لطاعتــكم طواغيتــكم ، وانضوائــكم إلى شياطينــكم ، فعنـــد الله أحتسب ما مضى وما ينتظر من سوء دَعَتــكم ، وحيف حكمــكم . ثم قال : يا أهلَ الــكوفة لقد فارقــكم بالأمس سهمٌ من مرامى الله ، صائب

(١) القعضبية : الأسنة ، منسوبة إلى قعضب اسم رجل كان يعمل الأسنة فى الجاهلية .
(٢) المشاش فى الأصل : رءوس العظام .

على أعداء الله ، نــكَال على فجّار قريس ، لم يزل آخذا بخناجرها ، جاثما على أنفاسِها ؛ ليس بالملومة فى أمر الله ، ولا بالسَّرُوقة لمال الله ، ولا بالفَرُوقة فى حرب أعداء الله ، أعطى الـكتاب خواتمه وعزائمه، دعاه فأجابه ، وقاده فاتّبعه ، لا تأخذه فى الله لومة لائم ، فصلوات الله عليه ورحمته . ثم نزل .

فقال معاوية : أخطــأ عَجِلٌ أو كاد ؛ وأصــاب مثبت أو كاد ، ماذا أردت من خطبة الحسن !

* * *

فأمّا أبو الفرج علىّ بن الحسين الأصفهانىّ ، فإنّه قال : كان فى لسان أبى محمّد الحسن عليه السلام ثقل كالفأفأة ؛ حدّثنى بذلك محمد بن الحسين الأشنانىّ ، قال : حدثنى محمد بن إسماعيل الأحمسىّ ، عن مفضّل بن صالح ، عن جابر . قال : كان فى لسان الحسَن عليــه السلام رَتّة [١] ، فكان سلمان الفارسى رحمــه الله يقول : أتته من قِبَل عمّه موسى بن عمران عليه السلام [٢] .

قال أبو الفرج : ومات شهيدا مسموماً ، دسّ معــاوية إليه وإلى سعد بن أبى وقّاص حين أراد أن يعهد إلى يزيد ابنه بالأمر بعده سمًّا ، فماتا منه فى أيّامٍ متقاربة ؛ وكان الذى تولّى ذلك من الحسن عليه السلام زوجته جَعْدة بنت الأشعث بن قيس بمالٍ بذله لها معاوية . ويقال : إنّ اسمها سُكينة ، ويقال عائشة ويقال : شعثاء [٣] ، والصحيح أنّ اسمها جَعْدة .

قال أبو الفرج : فروى عمرو بن ثابت ؛ قال : كنتُ أختلف إلى أبى إسحــاق

---

(١) ا ، ب : « رثة » ، تصحيف ، والصــواب ما أثبته من د ومقاتل الطالبين ، والرتة : عجلة الـكلام مع قلة المبالاة .

(٢) مقاتل الطالبين ٥٠ . (٣) ب : « شيثا » .

السَّبِيعىّ [سنة] (١) ، أسأله عن الخطبة التى خطب بها الحسن بن علىٍّ عليه السلام عقيب وفاة أبيه ؛ ولا (٢) يحدّثنى بها ؛ فدخلت إليه فى يوم شاتٍ وهو فى الشمس ، وعليه برنسه ، فكأنه غُول ، فقال لى : مَنْ أنت ؟ فأخبرته ، فبكى ، وقال : كيف أبوك، وكيف أهلك ؟قلت : صالحون ، قال : فى أىّ شىء تتردد منذ سنة ؟ قلت : فى خطبة الحسن بن على بعد وفاة أبيه (٣) .

حدّثنى هُبيرة بن مريم (٤) ، قال : خطب الحسن عليه السلام بعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام ، فقال : قد قبض فى هذه الليلة رجل لم يسبِقْه الأوّلون ، ولا يدركه الآخرون [بعمل](٥) . لقد كان يجاهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله فيسبقه بنفسه ؛ ولقد كان يوجّهه برايته ، فيكنفه جبرائيل عن يمينه ، وميكائيل عن يساره ، فلا يرجع حتى يفتح الله عليه ؛ ولقد توفِّىَ فى اللّيلة التى عرج فيها بعيسى بن مريم ؛ والتى توفِّى فيها يوشع بن نوح ، وما خلّف صفْراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم من عطائه ، أراد أن يبتاع بها خادما لأهله .

ثم خنقته العبرة فبكى وبكى الناس معه ثم قال : أيّها الناس ، مَنْ عرفنى فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى فأنا الحسن بن محمدٍ رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، أنا ابن البشير ، أنا ابن النذير ، أنا ابن الدّاعى إلى الله بإذنه والسراج المنير ، أنا من أهل البيت الّذين أذهب الله عنهم الرّجس وطهّرهم تطهيرا ، والذين افترض الله مودّتهم فى كتابه ، إذ يقول : ﴿ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ﴾ (٦) ، فاقتراف الحسنة مودّتنا أهل البيت .

قال أبو الفرج : فلما انتهى إلى هذا الموضع من الخطبة ، قام عبد الله بن العباس بين

---

(١) من د ومقاتل الطالبيين . (٢) د : «فلا» .
(٣) مقاتل الطالبيين ٥١ . (٤) كذا فى مقاتل الطالبيين .
(٥) من مقاتل الطالبيين . (٦) سورة الشورى ٢٣ .

يديه ؛ فدعا الناس إلى بيعته ، فاستجابوا وقالوا : ما أحبّه إلينا وأحقّه بالخلافة ! فبايعوه ، ثم نزل من المنبر[١] .

قال أبو الفرج : ودس معاوية رجلًا من حِمْير إلى الكوفة ، ورجلا من بنى القَيْن إلى البصرة يكتبان إليه بالأخبار ، فدُلَّ على الحميرىّ[٢] وعلى القَيْنىّ ، فأخِذا وقتلا[٣] .

وكتب الحسن عليه السلام إلى معاوية :

أمّا بعد ؛ فإنّك دسست إلىّ الرجال ، كأنك تحبّ اللقاء ؛ لا أشك فى ذلك فتوقّعْه إن شاء الله . وبلغنى أنك شمتّ بما لم يشمت به ذو الحجى ؛ وإنّما مثلك فى ذلك كما قال الأوّل :

فإنّا ومَنْ قد مات منّا لكالّذِى ... يروح فيُمسى فى المبيت ليغتدِى[٤]
فقُلْ للّذِى يبغى خلاف الّذِى مضى ... تجهّزْ لأخرى مثلها فكأَنْ قدِ

فأجابه معاوية :

أما بعدُ ، فقد وصل كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ؛ ولقد علمت بما حدث فلم أفرح ولم أحزن ، ولم أشمت ولم آسَ ، وإن عليًّا أباك لكما قال أعشى بنى قيس ابن ثعلبة :

فأَنتَ الجوادُ وأنتَ الّذِى ... إذا ما القلوب مَلَأْنَ الصُّدُورَا[٥]
جديرٌ بطعنةِ يوم اللِّقَا ... ءِ يضربُ منها النِّساءُ النُّحُورَا
وما مِزْيَدٌ من خليج البحا ... رِ يعلُو الإكام ويعلُو الُجسورا
بأجودَ منه بما عنده ... فيعطى الألوف ويعطى البُدُورا[٦]

---

(١) مقاتل الطالبين ٥٢ .
(٢) مقاتل الطالبين : « فدل على الحميرى عند لحام » .
(٣) مقاتل الطالبين ٥٢ .
(٤) فى مقاتل الطالبين ، البيت الثانى قبل الأول .
(٥) ديوانه ٧٢ .
(٦) مقاتل الطالبين ٥٣ .

قال أبو الفرج : وكتب عبد الله بن العباس من البَصرة إلى معاوية :

أما بعد ، فإنَّك ودسّك أخا بنى القيْن إلى البصرة ، تلتمس من غفلاتِ قريش بمثل ما ظفِرْت به من يمانيّتك ، لكما قال أميّة بن أبى الأسكر(١) :

لعمرُك إنّى والُخزَاعىّ طارقاً   كنَعْجةِ عادٍ حتفَها تتحفَّرُ

أثارتْ عليها شفرةً بكُراعِها   فظلّتْ بها من آخر الليل تنحَرُ

شمتّ بقومٍ من صديقك أهلكوا   أصابهُم يومٌ من الدَّهْر أصْفَرُ(٢)

فأَجابه معاوية :

أمّا بعد ، فإن الحسن بن علىّ ، قد كتب إلىّ بنحو ممّا كتبت به ، وأنبأنى بما لم يحقّق سوء ظنٍّ(٣) ورأى فىّ ، وإنك لم تصب مثلى ومثلكم ، وإنما مثلنا كما قال طارق الُخزاعىّ يجيب أميّة عن هذا الشعر :

فواللهِ ما أدرِى وإنّى لصادِقٌ   إلى أىّ مَنْ يظَّنُّنِى أتعــذَّرُ

أعنّف إن كانت زبينة أهلِكتْ   ونال بنى لحيان شَرٌّ فأُنْفِرُوا(٤)

---

(١) كذا فى الأغانى ومقاتل الطالبيين وهو الصواب ، وفى ب : « أمية بن أبى الصلت » .

(٢) فى الأغانى : « أعسر » .

(٣) مقاتل الطالبيين : « بما لم يحقق سوء ظن ورأى فىّ » .

(٤) أنفروا : شردوا ، وفى الأغانى : « ونفروا » ، والخبر فى الأغانى ١٨ : ١٦١ ، ١٦٢ ؛ ومقاتل الطالبيين ٥٣ ، ٥٤ ، وفى الأغانى عن أبى عمرو الشيبانى : « أصيب قوم من بنى جندع بن ليث بن بكر بن هوازن رهط أمية بن الأسكر ، يقال لهم : بنو زبينة ، أصابهم أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يوم المريسيع فى غزوة بنى المصطلق ، وكانوا جيرانه يومئذ ، ومعهم ناس من بنى لحيان بن هذيل ، ومع بنى جندع رجل من خزاعة يقال له طارق ، فاتهمه بنو ليث بهم ، وأنه دل عليهم ، وكانت خزاعة مسلمها ومشركها يميلون إلى النبى صلى الله عليه وسلم على قريش ؛ فقال أمية بن الأسكر لطارق الخزاعى :

* لَعَمْرُكَ إنّى والْخُزَاعِىُّ طَارِقاً *

وأورد أبيات أمية ورد طارق ؛ ثم قال : « وهذه الأبيات الابتداء والانتهاء تمثل بابتدائها ابن عباس فى رسالة له إلى معاوية ، وتمثل بجوابها معاوية فى رسالة أجابه بها » .

قال أبو الفرج : وكان أوّل شىء أحدثه الحسن عليه السلام أنّه زاد المقاتلة مائة مائة ، قد كان علىّ عليه السلام فعل ذلك يوم الجمل ، وفعله الحسن حال الاستخلاف ، فتبعه الخلفاء ن بعده فى ذلك[١] .

* * *

قال : وكتب الحسن عليه السلام إلى معاوية مع حرب بن عبد الله الأزدىّ[٢] .

من الحسن[٣] بن علىٍّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبى سفيان ، سلام عليك ، فإنى أحمدُ ليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد فإن الله جل جلاله بعث محمداً رحمة للعالمين ، ومنّة لمؤمنين ، وكافّة للناس أجمعين ، ﴿ لينذرَ مَنْ كانَ حَيًّا ويحقّ القول على الكافرين ﴾[٤] ، بلّغ رسالاتِ الله ، وقام بأمر الله حتى توفّاه الله غير مقصّرٍ ولا وانٍ ، وبعد أن أظهر لله به الحقّ ، ومحقَ به الشِّرك ، وخص به قريشاً خاصّة فقال له : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾[٥] . فلما توفِّىَ تنازعت سلطانَه العرب ، فقالت قريش : نحن قبيلتُه وأسرته وأولياؤه ، ولا يحلّ لكم أن تنازعونا سلطانَ محمد وحقّه ، فرأت العرب أن القول ما قالت قريش ، وأنّ الحجة فى ذلك لهم على مَنْ نازعهم أمر محمد ، فأنعمت[٦] لهم ، وسلّمت إليهم. ثم حاججنا نحن قريشا بمثل ما حاجَجَت به العرب ، فلم تنصفْنا قريش إنصافَ العرب لها ، إنهم أخذوا هذا الأمر دون العرب بالانتصاف والاحتجاج ، فلمّا صرنا أهل بيت محمد وأولياءه إلى محاجّتهم ، وطلب النَّصَف[٧] منهم باعدونا واستولوْا بالإجماع على ظلمِنا ومَراغمتنا[٨] والعَنَت[٩] منهم لنا ، فالموعد الله ، وهو الولىّ النَّصير ؟

---

(١) مقاتل الطالبين ٥٥ .

(٢) مقاتل الطالبين : « مع جندب بن عبد الله الأزدى » .

(٣) مقاتل الطالبين : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من الحسن . . . » .

(٤) سورة يس ٧ . (٥) سورة الزخرف ٤٤ .

(٦) أنعمت لهم ؛ أى قالت لهم : « نعم » . (٧) النصف : الإنصاف .

(٨) راغمهم : نابذهم وعاداهم . (٩) العنت : المشقة وفى د « والعبث » .

ولقد كنّا تعجّبنا لتوثّب المتوثبين علينا فى حقنا وسلطان نبيّنا ، وإن كانوا ذوى فضيلة وسابقة فى الإسلام ، وأمسكنا عن منازعتهم مخافة على الدين أن يجد المنافقون والأحزاب[1] فى ذلك مغمزاً يثلمونه به ، أو يكون لهم بذلك سبب إلى ما أرادوا من إفساده ، فاليوم فليتعجّب المتعجّب من توثُّبك يا معاوية على أمرٍ لستَ من أهله ، لا بفضل فى الدين معروف ، ولا أثر فى الإسلام محمود ، وأنت ابن حزب من الأحزاب ، وابن أعدى قريش لرسول الله صلى الله عليه وآله ولكتابه ، والله حسيبك ، فستردُّ فتعلم لمن عقبى الدار ، وبالله لَتَلْقينّ عن قليلٍ ربّك ، ثم ليجزينّك بما قدّمت يداك ، وما الله بظلام للعبيد .

إنّ عليا لما مضى لسبيله — رحمة الله عليه يوم قُبِض ويوم منّ الله عليه بالإسلام ، ويوم يُبعث حيًّا — ولّانى المسلمون الأمر بعده ، فأسأل الله ألّا يؤتينا فى الدنيا الزائلة شَيْئا ينقصنا به فى الآخرة مما عنده من كرامة ، وإنّما حملنى على الكتاب إليك الإعذار فيما بينى وبين الله عزّ وجلّ فى أمرك ، ولك فى ذلك إن فعلته الحظُّ الجسيم ، والصلاح للمسلمين ، فدع التمادىَ فى الباطل ، وادخل فيما دخل فيه النّاس مِنْ بيعتى ، فإنك تعلم أنّى أحقّ بهذا الأمر منك عند الله وعند كلّ أوّاب حفيظ ، ومن له قلب منيب . واتقِ الله ودَعِ البغى ، واحقن دماء المسلمين ، فوالله مالك خير فى أن تلقى الله من دمائهم بأكثر مما أنت لاقيه به ، وادخل فى السّلم والطاعة ، ولا تنازع الأمر أهلَه ومَنْ هو أحقّ به منك ، ليطفىء الله النائرة[2] بذلك ، ويجمع الكلمة ، ويصلِح ذاتَ البَيْن ، وإن أنت أبيتَ إلّا التمادِىَ فى غيّك سرت[3] إليك بالمسلمين فحاكمتُك ، حتّى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين .

فكتب معاوية إليه[4] :

---

(١) الأحزاب : هم الذين تحزبوا وتظاهروا على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش وغطفان وبنى مرة وبنى أشجع وبنى سليم وبنى أسد فى غزوة الخندق .

(٢) النائرة : العداوة والشحناء . (٣) مقاتل الطالبيين : « نهدت » .

(٤) فى مقاتل الطالبيين « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله . . . » .

من عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى الحسن بن علىّ ، سلام الله عليك ، فإنى أحمد إليك لله الذى لا إله إلا هو ، أمّا بعد ، فقد بلَغنى كتابُك ، وفهمت ما ذكرت به محمدا رسول الله من الفضْل ، وهو أحق الأوّلين والآخرين بالفضْل كلّه قديمه وحديثه ، وصغيره وكبيره ، قد والله بلّغ وأدّى ، ونصح وهَدى ؛ حتى أنقذ الله به من الهَلَكة ، وأنار به من العَمى ، وهَدَى به من الجَهالة والضلالة ، فجزاه الله أفضلَ ما جزى نبيًّا عن أمته ؛ وصلوات الله عليه يوم وَلِد ، ويوم بُعث ، ويوم قُبِض ، ويوم يُبعث حيًّا !

وذكرت وفاة النبىّ صلى الله عليه وآله وتنازع المسلمين الأمر بعده ، وتغلّبهم على أبيك ، فصرّحت بتهمة أبى بكر الصديق وعمر الفاروق وأبى عبيدة الأمين وحوارىّ (١) رسول الله صلى الله عليه وآله ، وصُلَحاء المهاجرين والأنصار ، فكرهت ذلك لك ؛ إنك امرُؤ عندنا وعند الناس غيرَ الظَّنِين (٢) ولا المسىء ، ولا اللئيم ، وأنا أحبّ لك القول السديد ، والذكر الجميل .

إنّ هذه الأمة لمّا اختلفت بعد نبيّها لم تجهل فضلكم ولا سابقتكم ، ولا قرابتكم من نبيّكم ، ولا مكانكم فى الإسلام وأهله ، فرأت الأمّة أن تخرج من هذا الأمر لقريش لمكانها من نبيّها ، ورأى صُلَحاء النّاس من قريش والأنصار وغيرهم من سائر الناس وعوامّهم أن يولُّوا هذا الأمر من قريش أقدمَها إسلاما ، وأعلمها بالله ، وأحبّها له ، وأقواها على أمر الله ، فاختاروا أبا بكر ، وكان ذلك رأىَ ذوى الدين والفضل ، والناظرين للأمة ، فأوقع ذلك فى صدوركم لهم التّهمة ، ولم يكونوا متّهمين ، ولا فيما أتوا بالمخطئين ، ولو رأى المسلمون أنّ فيكم مَنْ يغنى غناءه ، ويقوم مقامه ، ويذبّ عن حريم الإسلام ذَبّه ،

---

(١) هو الزبير بن العوام .

(٢) ب : « ظنين » .

ما عدلوا بالأمر إلى غيره رغبة عنه ، ولكنهم علموا فى ذلك بما رأوه صلاحا للإسلام وأهله ، والله يجزيهم عن الإسلام وأهله خيرا .

وقد فهمت الّذى دعوتَنِى إليه من الصلح ، والحال فيما بينى وبينك اليوم مثلُ الحال الّتى كنتم عليها أنتم وأبو بكر بعد وفاة النبى صلى الله عليه وآله ، فلو علمت أنّك أضبطُ منّى للرعيّة ، وأحوَطُ على هذه الأمّة ، وأحسن سياسة ، وأقوى على جمع الأموال ، وأكيَد للعدوّ ، لأجبتك إلى ما دعوتَنى إليه ، ورأيتك لذلك أهلا ، ولكن قد علمت أنّى أطولُ منك ولاية ، وأقدم منك بهذه الأمّة تجربة ، وأكبر منك سنًّا ، فأنت أحق أن تجيبنَى إلى هذه المنزلة التى سألتَنى ، فادخل فى طاعتى ، ولك الأمر من بعدى ، ولك ما فى بيت مال العراق من مالٍ بالغا ما يبلغ ، تحمله إلى حيث أحببت ، ولك خراج أىِّ كُوَر العراق شئتَ ؛ معونةً لك على نفقتك يجبيها أمينك ويحملها إليك فى كل سنة ؛ ولك ألّا نَستولىَ عليك بالإساءة ، ولا نَقضِىَ دونك الأمور ، ولا نَعصىَ فى أمر أردت به طاعة الله . أعاننا الله وإيّاك على طاعته إنه سميع مجيب الدعاء . والسلام.

قال جندب : فلما أتيت الحسنَ بكتاب معاوية ، قلت له : إنّ الرجل سائر إليك ، فابدأه بالمسير حتى تقاتله فى أرضِه وبلاده وعمله ، فإمّا أن تُقدِّر أنه ينقاد (١) لك ؛ فلا والله حتى يرى منّا أعظم من يوم صِفّين . فقال : أفعل ، ثم قعد عن مشورتى وتناسى قولى (٢) .

* * *

قالوا : وكتب معاوية إلى الحسن :

---

(١) د ومقاتل الطالبيين : « تيمناً لك » .

(٢) مقاتل الطالبيين ٥٥ ـ ٥٩ .

أما بعد(١) ، فإنّ الله يفعل فى عباده ما يشاء ، لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب ، فاحذر أن تكون منيّتك على أيدى رعاع من الناس ، وايئس(٢) من أن تجدَ فينا(٣) غميزة(٤) ، وإن أنت أعرضت عمّا أنت فيه وبايعتنى وفيت لك بما وعدت ، وأجريت لك ما شرطت ، وأكون فى ذلك كما قال أعشى بنى قيس بن ثعلبة :

وإنْ أحدٌ أسدَى إليك أمانةً ... فأوفِ بهَا تُدْعَى إذا مِتَّ وافِيا

ولا تحسُدِ المولَى إذا كان ذا غنًى ... ولا تجْفُه إن كان فى المال فانيا

ثم الخلافة لك من بعدى ، فأنت أولى الناس بها . والسلام .

فأجابه الحسن :

أما بعد(٥) فقد وصل إلىَّ كتابك ، تذكر فيه ما ذكرت ، فتركت جوابك خشية البغى [منّى](٦) عليك ، وبالله أعوذ من ذلك ، فاتبع الحقّ تعلم أنّى من أهله ، وعلىَّ إثمٌ أنْ أقول فأَكذِب . والسلام .

فلما وصل كتاب الحسن إلى معاوية قرأه ، ثمّ كتب إلى عمّاله على النواحى بنسخة واحدة :

من (٧عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى فلان بن فلان٧) ومن قِبَله من المسلمين . سلام عليكم ، فإنّى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو . أمّا بعد ، فالحمد لله الذى كفاكم مؤنة عدوّكم وقتل خليفتكم ، إن الله بلُطْفه ، وحسن صنعه ، أتاح لعلىّ بن أبى طالب رجلا من عباده ،

---

(١) مقاتل الطالبيين : « بسم الله الرحمن الرحيم . . . أما بعد » .

(٢) ب ، أيس ، وأثبت ما فى ا ، د ومقاتل الطالبيين .

(٣) ا ، د ومقاتل الطالبيين . (٤) الغميزة : المطعن .

(٥) فى مقاتل الطالبيين : بسم الله الرحمن الرحيم . . . أما بعد . . . » .

(٦) من د .

(٧–٧) مقاتل الطالبيين : « بسم الله الرحمن الرحيم من معاوية أمير المؤمنين إلى فلان بن فلان » .

فاغتاله فقتله ، فترك أصحابه متفرّقين مختلفين ؛ وقد جاءتنا كتب أشرافهم وقادتهم يلتمسون الأمان لأنفسهم وعشائرهم ؛ فأقبلوا إلىّ حين يأتيكم كتابى هذا بجهدكم وجُندكم وحسن عدّتكم ، فقد أصبتم بحمد الله الثأر ، وبلغتم الأمل ، وأهلك الله أهل البغى والعدوان . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته(١) .

قال : فاجتمعت العساكر إلى معاوية ، فسار بها قاصداً إلى العراق . وبلغ الحسنَ خبرُه ومسيرُه نحوَه ؛ وأنّه قد بلغ جسر منبج ، فتحرّك عند ذلك ، وبعث حُجْر بن عدىّ فأمر العمال والنّاس بالتهيُّؤ للمسير ، ونادى المنادى : الصلاة جامعة ! فأقبل الناس يثوبون ويجتمعون . وقال الحسن : إذا رضيتْ جماعة النّاس فأعلِمنى ؛ وجاءه سعيد بن قيس الهمْدانىّ ، فقال له : اخرج ، فخرج الحسن عليه السلام ، وصعِد المنبر ، فحمِد الله وأثنى عليه ثم قال : أمّا بعد ؛ فإنّ الله كتب الجهاد عَلَى خَلْقِه ، وسمّاه كُرها(٢) ، ثم قال لأهل الجهاد من المؤمنين : اصْبِروا إنّ الله مع الصابرين ، فلستم أيّها الناس نائلين ما تحبّون إلا بالصبر على ما تكرهون .

بلغنى أنّ معاوية بلغه أنّا كنا أزمعْنا على المسير إليه ؛ فتحرّك لذلك ، اخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم بالنُّخَيلة حتى ننظر وتنظروا ، ونرى وتروا .

قال : وإنّه فى كلامه ليتخوّف خذلان الناس له ، قال : فسكتوا فما تكلّم منهم أحد ، ولا أجابه بحرف .

فلمّا رأى ذلك عدىّ بن حاتم قام فقال : أنا ابنُ حاتم ! سبحان الله ! ما أقبح هذا المقام ! ألا تجيبون إمامكم وابن بنت نبيّكم ! أين خطباء مُضَر [أيْنَ المسلمون ؟ أين

---

(١) مقاتل الطالبيين ٥٩ ، ٦٠ .

(٢) هو من قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ﴾ .

الخواضون من أهــل المصر][1] الذين ألسنتهم كالمخاريق[2] فى الدّعة ، فإذا جَدّ الجِدّ فروّاغون كالثعالب ، أما تخافون مقت الله ولا عيبها وعارها .

ثم استقبل الحسن بوجهه ، فقال : أصاب الله بك المراشد ، وجنّبك المكاره ، ووفّقك لما يُحمَد ورده وصــدره[3] . قد سمعنا مقالتَك ، وانتهينا إلى أمرك ، وسمعنا لك وأطعناك فيما قلت وما رأيت، وهذا وجهى إلى معسكرى ،فمن أحبّ أن يوافيَنى فليوافِ .

ثم مضى لوجهه ، فخرج من المسجد ودابته بالباب ، فركبها ومضى إلى النّخَيلة ، وأمر غلامه أن يلحقه بما يصلحه . وكان عدىّ بن حاتم أوّل الناس عسكَر[4] .

وقام قيس بن سعد بن عبادة الأنصارىّ ومعقل بن قيس الرياحىّ وزياد بن صَعْصعة[5] التّيْمِى ، فأنّبوا النّاس ولاموهم وحرّضوهم ، وكلّموا الحسنَ عليه السلام بمثل كلام عدىّ ابن حاتم فى الإجابة والقبول ، فقال لهم الحسن عليه السلام : صدقتم رحمكم الله ! ما زلتُ أعرفكم بصدق النيّة والوفاء والقبول والمودّة الصحيحة ، فجزاكم الله خيرا ثم نزل .

وخرج النّاس فعسكروا ، ونشطوا للخروج ، وخرج الحسن إلى العسكر ، واستخلف على الكوفة المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطّلب ، وأمره باستحثاث النّاس وإشخاصهم إليه ، فجعل يستحثّهم ويستخرجهم حتى يلتئم العسكر .

وسار[6] الحسن عليه السلام فى عسكر عظيم وعدّة حسنة ، حتى نزل دير عبد الرحمن ،

---

(١) من مقاتل الطالبيين .
(٢) المخاريق : جمع مخراق ؛ وهو المنديل أو نحوه يلوى فيضرب به .
(٣) كذا فى مقاتل الطالبيين ، د .
(٤) ا : « عسكرا » .
(٥) فى ا ، د « حفصة » .
(٦) مقاتل الطالبيين : « ثم إن الحسن . . . » .

فأقام به ثلاثا حتى اجتمع الناس ، ثم دعا عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ، فقال له : يابنَ عمّ ، إنى باعث إليك اثنى عشر ألفا من فرسان العرب وقرّاء المصر ، الرجل منهم يزيد[١] الكتيبة ، فسرْ بهم ، وألِنْ لهم جانبك ، وابسُط لهم وجهك ، وافرش لهم جناحك ، وأدنهم من مجلسك ، فإنّهم بقية ثقاتِ أمير المؤمنين ، وسرْ بهم على شطّ الفرات حتى تقطع بهم الفرات ، ثم تصير إلى مَسْكِن ، ثم امض حتى تستقبل بهم معاوية ، فإن أنت لقيته فاحبِسْه حتى آتيك ، فإنّى على أثرك وشيكاً ، وليكن خبرك عندى كلّ يوم ، وشاور هذين — يعنى قيس ابن سعد وسعيد بن قيس — وإذا لقيتَ معاوية فلا تقاتِلْه حتى يقاتلَك ، فإن فعل فقاتله ، وإن أُصبت فقيس بن سعد على الناس ، وإن أُصيب قيس بن سعد فسعيد بن قيس على النّاس[٢] .

فسار عبيد الله حتى انتهى إلى شينور[٣] ، حتى خرج إلى شاهى[٤] ، ثم لزم الفرات والفلّوجة[٥] ؛ حتى أتى مسكِن[٦] ، وأخذ الحسن على حمّام عمر حتى أتى دير كعب ، ثم بكّر فنزل ساباط دون القنطرة ، فلمّا أصبح نادى فى الناس : الصّلاة جامعة ! فاجتمعوا ، فصعد المنبر فخطبهم فقال : الحمد لله كلّما حمِده حامد ، وأشهد أن لا إله إلا الله كلّما شهِد له شاهِد ، وأشهد أن محمدا رسول الله ، أرسله بالحق ، وائتمنه على الوحى ، صلى الله عليه وآله . أما بعد ، فوالله إنّى لأرجو أن أكونَ قد أصبحت بحمد الله ومنّه وأنا أنصح خلقِه لخلقه ، وما أصبحت محتملا على مسلم ضغينة ، ولا مريد له بسوء ولا غائلة . ألَا وإنّ ما تكرهون فى الجماعة خير لكم مما تحبّون فى الفرقة ؛ ألَا وإنّى ناظر لكم خيرا

---

(١) ا : « يزن » . (٢) بعدها فى مقاتل الطالبيين : « ثم أمره بما أراد » .

(٣) شينور : صقع بالعراق ، وفى ب « سينور » تحريف .

(٤) شاهى : موضع قرب القادسية .

(٥) ياقوت : « فلاليج السواد : قراها ، واحدها الفلوجة ، والفلوجة الكبرى ، والفلوجة الصغرى : قريتان كبيرتان من سواد بغداد والكوفة قرب عين التمر » .

(٦) مسكن : موضع على نهر دجيل .

من نظركم لأنفسكم ، فلا تخالفوا أمرى ، ولا تردّوا علَيَّ رأيى . غفر الله لى ولكم، وأرشدنى. وإيّاكم لما فيه محبّته[١] ورضاه ، إن شاء الله ! ثم نزل .

قال : فنظر الناس بعضُهم إلى بعض ، وقالوا : ما ترونه يريد بما قال ؟ قالوا : نظنّه يريد أن يصالح معاوية ، ويكل الأمر إليه ، كَفَرَ والله الرجل ! ثم شدُّوا على فسطاطه . فانتهبوه حتى أخذوا مصلّاه من تحته ؛ ثم شدّ عليه عبد الرحمن بن عبد الله بن جعال الأزدىّ ، فنزع مطرفه عن عاتِقه ، فبقى جالسا متقلدا سيفا بغير رداء ، فدعا بفرسه فركبه ، وأحدق به طوائف من خاصّته وشيعته ، ومنعوا منه مَنْ أراده ، ولاموه وضعّفوه لما تكلّم به؛ فقال : ادعُوا إلىّ ربيعةَ وهَمْدان ، فدعوا له ، فأطافوا به ، ودفعوا الناس عنه ، ومعهم شَوْب[٢] من غيرهم ، فلمّا مرّ فى مظلم ساباط[٣] ، قام إليه رجل من بنى أسد ، ثم من بنى نَصْر بن قُعَين يقال له جراح بن سنان ، وبيده مِعْوَل ، فأخذ بلجام فرسه[٤] ، وقال : الله أكبر ! ياحسن [٥]أشرك أبوك ، ثم أشركت أنت[٥] . وطعنه بالمِعْوَل ، فوقعت فى فخذه، فشقّته حتى بلغت أربيّته[٦] ، وسقط الحسن عليه السلام إلى الأرض بعد أن ضرب الذى طعنه بسيف كان بيده ، واعتنقه ، فخرّا جميعا إلى الأرض ؛ فوثب عبد الله بن الأخطل[٧] الطائىّ ، ونزع المِعْوَل من يد جراح بن سنان ، فخضخضه[٨] به ، وأكبّ ظَبيان بن عُمارة عليه ، فقطع أنفه ، ثم أخذا له الآجرّ فشدّخا رأسه ، ووجهه حتى قتلوه .

---

(١) مقاتل الطالبيين : « لما فيه المحبة والرضا » .

(٢) الشوب : الأخلاط من الناس .

(٣) مظلم ساباط : مضاف إلى ساباط التى قرب المدائن : موضع هناك ، قال ياقوت : « ولا أدرى لم سمى بذلك » .

(٤) مقاتل الطالبيين : « فرسه » .

(٥ـ٥) مقاتل الطالبيين : « يا حسن ، أشركت كما أشرك أبوك من قبل » .

(٦) الأربية : أصل الفخذ .

(٧) مقاتل الطالبين : « الخطل » .

(٨) ا : « فخصخصه » .

وحُمِل الحسن عليه السلام على سرير إلى المدائن ، وبها سعيد[1] بن مسعود الثقفيّ والياً عليها من قبله ، وقد كان عليّ عليه السلام ولّاه المدائن فأقرّه الحسن عليه السلام عليها ، فأقام عنده يعالج نفسه . فأما معاوية فإنه وافَى حتى نزل قرية يقال لها الحلوبية[2] بمَسكِن ، وأقبل عبيد الله بن عباس حتى نزل بإزائه ؛ فلما كان من غدٍ وجّه معاوية بخيله إليه فخرج إليهم عبيد الله فيمن معه فضربهم حتى ردّهم إلى معسكرهم ؛ فلما كان الليل أرسل معاوية إلى عُبيد الله بن عباس أنّ الحسن قد راسلني فى الصّلح ؛ وهو مسلم الأمرَ إليّ ، فإن دخلت فى طاعتى الآن كنتَ متبوعاً ، وإلا دخلت وأنت تابع ، ولك إن أجبتَنى الآن أن أعطيَك ألف ألف درهم ، أعجّل لك فى هذا الوقت نصفها ؛ وإذا دخلت الكوفة النّصف الآخر ؛ فانسلّ عبيد الله إليه ليلاً ، فدخل عسكر معاويه ، فوفّى له بما وعده ، وأصبح الناس ينتظرون عبيد الله أن يخرج فيصلِّىَ بهم ؛ فلم يخرج حتى أصبحوا ، فطلبوه فلم يجدُوه ، فصلى بهم قيس بن سعد بن عبادة ، ثم خطبهم فثبّتهم[3] ، وذكر عبيد الله فنال منه ، ثم أمرهم بالصبر والنّهوض إلى العدوّ ، فأجابوه بالطاعة وقالوا له : انهض بنا إلى عدوّنا على اسم الله ، فنزل فنهض بهم .

وخرج إليه بُسْر بن أرطاة فصاح إلى أهل العراق : ويحكم ! هذا أميركم عندنا قد بايع وإمامكم الحسن قد صالح ، فعلامَ تقتلون أنفسكم !

---

(١) مقاتل الطالبيين : « سعد » .

(٢) ب : « الحيوضة » .

(٣) فى مقاتل الطالبيين : « أيها الناس ، لا يهولنكم ولا يعظمن عليكم ما صنع هذا الرجل الوله الورع « أى الجبان » . إن هذا وأباه وأخاه لم يأتوا بيوم خير قط ؛ إن أباه عم رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يقاتل ببدر ، فأسره أبو اليسر كعب بن عمرو الأنصارى ، فأتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ فداءه فقسمه بين المسلمين ، وإن أخاه ولاه على أمير المؤمنين على البصرة ، فسرق مال الله ومال المسلمين ، فاشترى به الجوارى ؛ وزعم أن ذلك له حلال ؛ وأن هذا ولاه على اليمن. فهرب من بسر ابن أرطاة ، وترك ولده حتى قتلوا ، وصنع الآن هذا الذى صنع . قال : فتنادى الناس : الحمد لله الذى أخرجه من بيننا ، فانهض بنا إلى عدونا ، فنهض بهم » .

فقال لهم قيس بن سعد : اختاروا إحدى اثنتين ؛ إمّا القتال مع غير إمام ، وإما أن تبايعوا بيعة ضلال ، فقالوا : بل نقاتل بلا إمام ، فخرجوا فضربوا أهل الشام حتى ردّوهم إلى مصافّهم .

فكتب معاوية إلى قيس بن سعد يدعوه ويمنّيه ، فكتب إليه قيس : لا والله لا تلقاني أبداً إلا بيني وبينك الرّمح . فكتب إليه معاوية حينئذ لما يئس منه :

أما بعد ؛ فإنّك يهوديّ ابن يهوديّ ، تُشْقِي نفسك وتقتلها فيما ليس لك ؛ فإن ظهر أحبّ الفريقين إليك نبذك وغدرك ، وإن ظهر أبغضهم إليك نكّل بك وقتلك ؛ وقد كان أبوك أوتر غير قوسه ، ورمى غير غرضه ؛ فأكثر الحزّ وأخطأ المفصل ، فخذله قومه ، وأدركه يومه ، فمات بحُوران طريدا غريبا . والسلام .

فكتب إليه قيس بن سعد :

أما بعد ؛ فإنما أنت وثن ابن وثن ، دخلت في الإسلام كرْها ، وأقمت فيه فَرَقا ، وخرجت منه طوعا ؛ ولم يجعل الله لك فيه نصيبا ، لم يقدم إسلامك ، ولم يحدث نفاقك ؛ ولم تزل حرباً لله ولرسوله ، وحزباً من أحزاب المشركين ، وعدوًّا لله ولنبيه وللمؤمنين من عباده — وذكرتَ أبي ، فلعمري ما أوتر إلا قوسَه ، ولا رمى إلّا غرضه ، فشغب عليه من لا يُشقّ غباره ، ولا يُبلغ كعبه ؛ وزعمت أني يهوديّ ابن يهودي ، وقد علمت وعلم الناس أني وأبي أعداء الدّين الذي خرجت منه ، وأنصار الدين الذي دخلت فيه ، وصرت إليه . والسلام .

فلما قرأ معاوية كتابه غاظَه ، وأراد إجابته ، فقال له عمرو : مهلا ، فإنك إن كاتبته أجابك بأشدّ من هذا ؛ وإن تركته دخل فيما دخل فيه الناس . فأمسك عنه .

قال : وبعث معاوية عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سَمُرة إلى الحسن للصلح ، فدعواه

إليه ، فزهّداه فى الأمر ، وأعطياه ما شرط له معاوية ، وألا يتبع أحد بما مضى ، ولا ينال أحد من شيعة علىّ بمكروه ، ولا يذكر علىٌّ إلا بخير ، وأشياء شَرَطها الحسن . فأجاب إلى ذلك ، وانصرف قيس بن سعد فيمن معه إلى الكوفة ، وانصرف الحسن أيضا إليها ، وأقبل معاوية قاصدا نحو الكوفة ، واجتمع إلى الحسن عليه السلام وجوهُ الشيعة وأكابر أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام يلومونه ، ويبكون إليه جزعا مما فعله[1] .

قال أبو الفرج : فحدّثنى محمد بن أحمد بن عبيد ، قال : حدثنا الفضل بن الحسن البصرىّ قال : حدّثنا ابن عمرو ، قال : حدثنا مكّى بن إبراهيم ، قال : حدثنا السرىّ ابن إسماعيل ، عن الشعبىّ ، عن سفيان بن أبى ليلى . قال أبو الفرج : وحدثنى به أيضا محمد بن الحسين الأشناندانىّ ، وعلىّ بن العباس المقانعى[2] ، عن عباد بن يعقوب ، عن عمرو بن ثابت ، عن الحسن بن الحكم ، عن عدىّ بن ثابت ، عن سفيان بن أبى ليلى ، قال : أتيتُ الحسن بن علىّ حين بايع معاوية ، فوجدته بفناء داره ، وعنده رهط ، فقلت : السلام عليك يا مذلّ المؤمنين ؟ قال : وعليك السلام يا سفيان ، ونزلت فعقلت راحلتى ، ثم أتيته فجلست إليه ، فقال : كيف قلت يا سفيان ؟ قلت : السلام عليك يا مذلّ المؤمنين ! فقال : لِمَ جرى هذا منك إلينا ؟ قلت : أنت والله بأبى وأمى أذللتَ رقابنا حيث أعطيت هذا الطاغية البيْعة ، وسلّمت الأمر إلى اللعين ابن آكلة الأكباد ، ومعك مائة ألف كلّهم يموت دونك ، فقد جمع الله عليك أمر الناس . فقال : يا سفيان ، إنّا أهل بيت إذا علمنا الحقّ تمسكنا به ، وإنى سمعتُ عليا يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « لا تذهب الليالى والأيام حتى يجتمع أمرُ هذه الأمّة على رجل واسع السّرْم[3] ،

---

(١) مقاتل الطالبيين ٦٤ـ ٦٧ .

(٢) ب : « المفاقمى » تحريف .

(٣) فى ب « السر » .

نخم البلعوم ، يأكل ولا يشبع ، لا ينظر الله إليه ، ولا يموت حتى لا يكون له فى السماء عاذر ، ولا فى الأرض ناصر » ، وإنه لمعاوية ، وإنى عرفت أن الله بالغ أمره .

ثم أذّن المؤذّن ، فقمنا على حالب يحلب ناقته ، فتناول الإناء ، فشرب قائماً ، ثم سقانى ، وخرجنا نمشى إلى المسجد ، فقال لى : ما جاء بك يا سفيان ؟ قلت : حبُّكم والذى بعث محمداً بالهدى ودين الحق ! قال : فأبشر يا سفيان ، فإنى سمعتُ عليا يقول ؟ سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : يرد علىّ الحوضَ أهلُ بيتى ومَنْ أحبّهم من أمتى كهاتين — يعنى السبّابتين ، أو كهاتين يعنى السبّابة والوسطى — إحداهما تفضل على الأخرى ، أبشر يا سفيان ؛ فإنّ الدنيا تسع البرّ والفاجر ؛ حتى يبعث الله إمام الحقّ من آل محمد صلى الله عليه وآله(١) .

* * *

قلت : قوله : « ولا فى الأرض ناصر » ، أى ناصر دينى ؛ أى لا يمكن أحدا أن ينتصر له بتأويل دينى يتكلف به عذراً لأفعاله القبيحة .

فإن قلت : قوله: « وإنه لمعاوية » من الحديث المرفوع ، أو من كلام علىٍّ عليه السلام ، أو من كلام الحسن عليه السلام ؟ قلت : الظاهر أنه من كلام الحسن عليه السلام ، فإنه قد غلب على ظنّه أنّ معاوية صاحب هذه الصفات ، وإن كان القسمان الأولان غير ممتنعين .

فإن قلت : فمن هو إمام الحقّ من آل محمد ؟ قلت : أمّا الإمامية فتزعم أنه صاحبهم الذى يعتقدون أنه الآن حىّ فى الأرض ؛ وأمّا أصحابنا فيزعمون أنه فاطمىّ يخلقه الله فى آخر الزمان .

* * *

(١) مقاتل الطالبيين ٦٧ — ٦٨ .

قال أبو الفرج : وسار معاوية حتى نزل النُّخَيلة ، وجمع الناس بها فخطبهم قبل أن يدخل الكوفة خطبة طويلة لم ينقلها أحد من الرواة تامة ، وجاءت منقطعة فى الحديث ، وسنذكر ما انتهى إلينا منها[١] .

فأما الشعبيّ فإنه روى أنه قال فى الخطبة : ما اختلف[٢] أمر أمة بعد نبيها إلا وظهر أهل باطلها على أهل حقها ، ثم انتبه فندم فقال : إلا هذه الأمة فإنها وإنها . . .

وأما أبو إسحاق السَّبيعىّ فقال : إنّ معاوية قال فى خطبته بالنُّخَيْلَةِ : ألا إنّ كلّ شىء أعطيته الحسن بن علىّ تحت قدمىّ هاتين لا أفى به .

قال أبو إسحاق ؛ وكان والله غدّارا .

وروى الأعمش عن عمرو بن مرّة ؛ عن سعيد بن سويد ، قال : صلّى بنا معاوية بالنُّخيلة الجمعة ، ثم خطبنا ، فقال : والله إنى ما قاتلتكم لتصلّوا ، ولا لتصوموا، ولا لتحجّوا ولا لتزكّوا ، إنكم لتفعلون ذلك ، وإنما قاتلتكم لأتأمّر عليكم ، وقد أعطانى الله ذلك وأنتم كارهون .

قال : وكان عبد الرحمن بن شريك إذا حدّث بذلك ، يقول : هذا والله هو التهتّك .

***

قال أبو الفرج : وحدّثنى أبو عبيد محمّد بن أحمد ، قال : حدثنى الفضل بن الحسن البصرى ، قال : حدثنى يحيى بن معين قال : حدّثنى أبو حفص اللّبان[٣] ، عن عبد الرحمن ابن شريك ، عن إسماعيل بن أبى خالد ، عن حبيب بن أبى ثابت ، قال : خطب معاوية بالكوفة حين دخلها ، والحسن والحسين عليهما السلام جالسان تحت المنبر ، فذكر عليا عليه

---

(١) مقاتل الطالبيين : « من ذلك » . (٢) مقاتل الطالبيين : « مااختلفت أمه » .
(٣) فى د « الأبار » .

السلام فنال منه ، ثم نال من الحسن ، فقام الحسين عليه السلام ليردّ عليه ، فأخذه الحسن بيده فأجلسه ، ثم قام فقال : أيّها الذاكر عليًّا ؛ أنا الحسن ، وأبى علىّ ، وأنت معاوية وأبوك صَخْر ، وأمى فاطمة وأمّك هند ، وجدّى رسول الله وجدّك عُتْبة بن ربيعة ، وجدّتى خديجة وجدّتك قتيلة ، فلعن الله أخملنا ذكرا ، وألأمنا حسبا ، وشرّنا قديمًا وحديثا ، وأقدمنا كفرا ونفاقا ! فقال طوائف من أهل المسجد : آمين .

قال الفضل : قال يحيى بن معين : وأنا أقول : آمين .

قال أبو الفرج : قال أبو عبيد : قال الفضل : وأنا أقول : « آمين » ، ويقول علىّ بن الحسين الأصفهانى (١) : آمين .

قلت : ويقول عبد الحميد بن أبى الحديد مصنف هذا الكتاب : آمين .

* * *

قال أبو الفرج : ودخل معاوية الكوفة بعد فراغه من خطبته بالنُّخيلة بين يديه خالد ابن عُرفطة ، ومعه حبيب بن حمّاد يحمل رايته . فلمّا صار بالكوفة دخل المسجد من باب الفيل ، واجتمع الناس إليه .

قال أبو الفرج : فحدثنى أبو عبيد الصيرفىّ وأحمد بن عبيد الله بن عمّار ، عن محمد بن علىّ بن خلَف ، عن محمد بن عمرو الرازىّ ، عن مالك بن سعيد ، عن محمد بن عبد الله اللّيثى ، عن عطاء بن السائب ، عن أبيه ، قال : بينا علىّ بن أبى طالب عليه السلام على منْبر الكوفة ، إذ دخل رجل ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، مات خالد بن عرفطة ، فقال : لا والله [ما](٢) مَات ولا يموت حتى يدخل من باب المسجد ، وأشار إلى باب الفيل ، ومعه راية ضلالة يحملها حبيب بن حماد .

قال : فوثب رجل فقال : يا أميرَ المؤمنين ، أنا حبيب بن حمّاد ، وأنا لك شيعة ، فقال :

---

(١) مقاتل الطالبيين ٧٠ .　　(٢) تكملة من « د » .

فإنه كما أقول : فو الله لقد قدم خالد بن عرفطة على مقدّمة معاوية يحمل رايته حبيب ابن حماد [(١)] .

قال أبو الفرج : وقال مالك بن سعيد ، وحدّثنى الأعمش بهـذا الحديث ، قال : حدّثنى صاحب هـذه الدار ـ وأشار إلى دار السّائب أبى عطاء ـ أنّه سمع عليا عليه السلام يقول هذا [(٢)] .

* * *

قال أبو الفرج : فلما تمّ الصّلح بين الحسن ومعاوية أرسل إلى قيس بن سعد يدعوه إلى البيعة ، فجاءه ـ وكان رجلا طُوالًا يركب الفرس المشرِف ورجلاه تخطّان فى الأرض ، وما فى وجهه طاقة شعر ، وكان يسمّى خصىّ الأنصار . فلمّا أرادوا إدخاله إليه قال : إنّى حلفت ألّا ألقاه إلّا وبينى وبينه الرّمح أو السيف ، فأمر معاوية برمح وسيف فوضعا بينه وبينه ليبرّ يمينه [(٣)] .

قال أبو الفرج : وقد روِىَ أنّ الحسنَ لمّا صالح معاوية اعتزل قيس بن سعد فى أربعة آلاف فارس فأبى [(٤)] أن يبايع ، فلما بايع الحسن أدخِل قيسٌ ليبايع ؛ فأقبل على الحسن ، فقال : أفى حلٍّ أنا من بيعتك ؟ فقال : نعم ، فألقى له كرسىّ ، وجلس معاوية عَلَى سرير والحسن معه ، فقال له معاوية : أتبايع ياقيس ؟ قال : نعم ، ووضع يده عَلَى فخذِه ، ولم يمدّها إلى معاوية ، فجاء معاوية من سريره [(٥)] ، وأكبّ عَلَى قيس حتى مسح يده ، على يده وما رفع إليه قيس يده [(٦)] .

---

(١) مقاتل الطالبيين : « حبيب بن عمار » .
(٢) مقاتل الطالبيين ٧٠ ، ٧١ ، وهناك : « يقول هذه المقالة » .
(٣) ابن أبى الحديد ٧١ ، ٧٢ .   (٤) د : « وأبى » .
(٤) فى « د » : « فجثا معاوية على سريره » ، وكذا فى مقاتل الطالبيين .
(٦) مقاتل الطالبيين ٧٢ .

قال أبو الفرج : ثم إنّ معاوية أمر الحسن أن يخطب ، فظنّ أنه سيَحصر ، فقام فخطب ، فقال فى خطبته(١) : إنّما الخليفةُ من سار بكتاب الله وسنّة نبيه ؛ وليس الخليفةُ من سار بالجوْر ؛ ذاك رجل ملَّك مُلْكاً تمتّع به قليلا ؛ ثم تنخّمه ، تنقطع لذّته ، وتبقى تَبِعتُه ﴿ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾(٢) . قال : وانصرف الحسن إلى المدينة ، فأقام بها ، وأراد معاوية البَيْعة لابنه يزيد ؛ فلم يكن عليه شىء أثقل من أمْرِ الحسن بن علىّ وسعد بن أبى وقاص ، فدسّ إليهما سمًّا فماتا منه .

قال أبو الفرج : فحدّثنى أحمد بن عبيد الله بن عمّار ، عن عيسى بن مِهْرانّ ، عن عبيد بن الصبّاح الخرّاز ، عن جرير ، عن مغيرة ، قال : أرسل معاوية إلى بنت الأشعث ابن قيس ــ وهى تحت الحسن ــ فقال لها : إنّى مزوِّجك يزيد ابنى عَلَى أن تَسُمِّى الحسن(٣) ، وبعث إليها بمائة ألف درهم . ففعلت ، وسمّتِ الحسن ، فسوّغها المال ولم يزوّجها منه ، فخلف عليها رجل من آل طلحة ، فأولدها ؛ فكان إذا وقع بينهم وبين بطون قريش كلام عيّروهم ، وقالوا : يابنى مُسِمّة الأزواج(٤) .

قال : حدّثنى أحمد ، قال : حدّثنى يحيى بن بُكير ، عن شعبة ، عن أبى بكر بن حَفْص ، قال : تُوُفِّىَ الحسن بن علىّ وسعد بن أبى وقاص فى أيّام متقارِبة ؛ وذلك بعد ما مضى من ولاية إمارة معاوية عشر سنين ؛ وكانوا يروون أنه سقاهما السمّ(٥) .

قال أبو الفرج : وحدّثنى أحمد بن عَوْن ، عن عمران بن إسحاق ، قال : كنت مع الحسن والحسين عليهما السلام فى الدّار ، فدخل الحسن المخرج ، ثمّ خرج ، فقال : لقد سُقيت السمّ مرارا ، ما سقيت مثل هذه المرّة ؛ لقد لفظت قطعة من كبدى فجعلت

(١) ب: « الخطبة » ، وأثبت ما فى ا ، د . (٢) سورة الأنبياء ١١١ .
(٣) مقاتل الطالبيين « ابن على » . (٤) مقاتل الطالبيين ٧٣ .
(٥) مقاتل الطالبيين ٧٣ : « سقاهما سما » .

أقلّبها بعــودٍ معى . فقال الحسين : ومَن سقاك ؟ قال : وما تريد منه ؟ أتريد أن تقتله ! إن يــكن هو هو ، فالله أشدّ نِقمة منك ، وإن لم يكن هو فمــا أحبّ أن يؤخذ بى برىء[1] .

قال أبو الفرج : دفن الحسن عليه السلام فى قبرِ فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليــه وآله فى البقيــع ، وقد كان أوصى أن يدفَن مع النبى صــلى الله عليه وآله ، فمنع مروان بن الحــكم من ذلك ، وركبت بنو أميّة فى السلاح ، وجعل مرْوان يقول :

* يارب هَيْجا هى خير من دَعَهْ[2] *

يدفن عثمان فى البقيــع ، ويدفن الحسن فى بيت النبى صـــلى الله عليه وسلم ! والله لا يــكون ذلك أبدا وأنا أحمِل السيف ، وكادت الفتنة تقع ، وأبَى الحسين عليه السلام أن يدفنه إلّا مع النبى صلى الله عليه وسلم وآله ، فقال له عبد الله بن جعفر : عزمت عليك يا أبا عبد الله بحق ألّا تــكلّم بــكلمة ا فمضوْا به إلى البقيــع ، وانصرف مروان[3] .

قال أبو الفرج : وقد روى الزُّبير بن بَــكّار أنَّ الحسن عليه السلام أرسل إلى عائشة أَنْ تأذن له أَن يُدفَن مع النبى صلى الله عليـــه وآله ، فقالت : نعم ، فلما سمعت بنو أميّة بذلك استلأموا فى السلاح ، وتنادوْا هم وبنو هاشم فى القتال ؛ فبلغ ذلك الحسن ، فأرسل إلى بنى هاشم : أما إذا كان هذا فلا حاجة لى فيه ؛ ادفنونى إلى جَنْب أمّى ، فدفن إلى جنب فاطمة عليها السلام[4] .

* * *

قال أبوالفرج : فأمّا يحيى بن الحسن صاحب كتاب "النسب" ، فإنهروى أن عائشة

---

(١) مقاتل الطالبيين ٧٤

(٢) مطلع أرجوزة لبيد ، الأغانى ١٦ : ٢٢ ــ ساسى .

(٣) مقاتل الطالبيين ٧٤ .

(٤) مقاتل الطالبيين ٧٥ .

ركبت ذلك اليوم بغلًا واستنفرت بنو أميّة مروان بن الحكم ومن كان هناك منهم ومن حشمهم وهو قول القائل :

* فيوماً على بغلٍ ويوماً على جَمَل[1] *

* * *

قلت : وليس فى رواية يحيى بن الحسن ما يؤخذ على عائشة ، لأنه لم يرو أنها استنفرت الناس لما ركبت البغل ، وإنما المستنفرون هم بنو أميّة ؛ ويجوز أن تكون عائشة ركبت لتسكين الفتنة ، لا سيما وقد روى عنها أنه لما طلب منها الدفن قالت : نعم ، فهذه الحال والقصّة منقبة من مناقب عائشة .

* * *

قال أبو الفرج : وقال جُويرية بن أسماء : لما مات الحسن وأخرجوا جنازته جاء مروان حتى دخل تحته فحَمَل سريره ، فقال له الحسين عليه السلام : أتحمِل اليومَ سريره وبالأمس كنت تجرّعه الغيظ ! قال مروان : كنت أفعل ذلك بمنْ يوازِن[2] حلمُه الجبال[3] .

قال : وقدّم الحسين عليه السلام للصلاة عليه سعيدَ بن العاص ، وهو يومئذ أمير المدينة ، وقال : تقدّم فلولا أنها سنّة لما قدمتك[3] .

قال : قيل لأبى إسحاق السَّبيعىّ : متى ذلّ الناس ؟ فقال : حين مات الحسن ؛ وادّعى زياد ، وقُتِل حُجْر بن عدىّ[3] .

قال : اختلف الناس فى سنّ الحسن عليه السلام وقت وفاته ، فقيل : ابن ثمان وأربعين — وهو المروىّ عن جعفر بن محمد عليه السلام فى رواية هشام بن سالم — وقيل : ابن ستّ وأربعين ، وهو المروىّ أيضا عن جعفر بن محمد عليه السلام فى رواية أبى بصير .

---

(١) مقاتل الطالبين ٧٤ . (٢) د : « يوازى » ؛ وهو وجه أيضا .

(٣) مقاتل الطالبين ٧٦ .

قال : وفى الحسن عليه السلام يقول سليمان بن قتة يرثيه ، وكان محبًّا له :

يا كذّب الله مَنْ نَعَى حَسَنًا ليس لتكذيبِ نَعْيِه ثَمَنُ[1]
كنتَ خليلى وكنتَ خالصتِى لكلّ حىّ من أهله سَكَنُ
أجول فى الدّار لا أراك وفى الـدّار أناسٌ جوارُهمْ غَبَنُ
بُدِّلْتهم منك ليت أنّهُمُ أضْحَوْا وبينى وبينهمْ عَدَنُ

* * *

ثم نرجع إلى تفسير ألفاظ الفصل .

أما قوله: « كتبها إليه بحاضرين» ؛ فالذى كُنّا نقرؤه قديماً ؛ « كتبها إليه بالحاضرَيْن» على صيغة التثنية ؛ يعنى حاضر حلب وحاضر قِنّسرِين ، وهى الأرباض والضواحى المحيطة بهذه البلاد ؛ ثم قرأناه بعد ذلك على جماعة من الشيوخ بغير لامٍ ؛ ولم يفسّروه ؛ ومنهم من يذكره بصيغة الجمع لا بصيغة التثنية ، ومنهم من يقول بخناصرين ، يظنونه تثنية خناصرة أو جمعها ، وقد طلبتُ هذه الكلمة فى الكتب المصنفة ، سيّما فى البلاد [والأرضين[2]] فلم أجدها ، ولعلّى أظفر بها فيما بعد فألحقها فى هذا الموضع .

قوله : « من الوالد الفان » ، حذف الياء هاهنا للازدواج بين « الفان » و « الزمان » ، ولأنه وقف ، وفى الوقف على المنقوص يجوز مع اللام حذف الياء وإثباتها ، والإثبات هو الوجه ، ومع عدم اللام يجوز الأمران وإسقاط الياء هو الوجه .

قوله : « المقرّ للزمان » أى المقرّ له بالغلبة ، كأنه جعل نفسه فيما مضى خصماً للزمان بالقهر .

قوله : « المدبِر العمر » ، لأنه كان قد جاوز الستين ، ولم يبق بعد مجاوزة الستين إلا إدبار العمر ، لأنها نصف العمر الطبيعى الذى قلّ أن يبلغه أحدٌ ، فعلى تقدير أنه

(١) مقاتل الطالبيين ٧٧ ، الإمامة والسياسة ١ : ١٤٤ . (٢) من ا .

يبلغه ، فكلّ ما بعد الستين أقلّ مما مضى ، فلا جرم يكون العمر قد أدبر .

قوله : « المستسلم للدّهر » ؛ هذا آكد من قوله : «المقرّ للزّمان» لأنه قد يقرّ الإنسان لخصمه ولا يستسلم .

قوله : « الذام للدّنيا » هذا وصف لم يستحدثه عند الكبر ، بل لم يزل عليه ، ولكن يجوز أن يزيد ذمّه لها ، لأنّ الشيخ تنقص قواه التى يستعين بها على الدنيا والدين جميعا ، ولا يزال يتأفّف من الدنيا .

قوله: «الساكن مساكن الموتى»،إشعار بأنه سيموت، وهذا من قوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ (١) .

قوله : « الظاعن عنها غداً » ، لا يريد الغدَ بعينه ، بل يريد قُرْب الرّحيل والظَّعْن .

وهذا الكلام من أمير المؤمنين عليه السلام كلام مَنْ قد أيقن بالفراق ، ولا ريب فى ظهور الاستكانة والخضوع عليه ، ويدلّ أيضا على كرب وضيق عَطَنٍ ، لكونه لم يبلغ أربه من حرْب أهل الشام ، وانعكس ما قدّره بتخاذل أصحابه عنه ، ونفوذ حكم عمرو بن العاص فيه لحمق أبى موسى وغباوته وانحرافه أيضا .

قوله : « إلى المولود » هذه اللفظة بإزاء « الوالد » .

قوله : « المؤمّل ما لا يدرك » ، لو قال قائل : إنه كنى بذلك عن أنه لا ينال الخلافة بعد موتى وإن كان مؤمِّلا لها لم يُبعد ، ويكون ذلك إخبارا عن عيب ، ولكن الأظهر أنّه لم يرد ذلك ، وإنما أراد جنس البشر لا خصوص الحسن ، وكذلك سائر الأوصاف التى تلى هذه اللفظة لا تخصّ الحسن عليه السلام بعينه ، بل هى وإن كانت له فى الظاهر بل هى للناس كلّهم فى الحقيقة ، ألا ترى إلى قوله بعدها : « السالك سبيل من قد هلك » ، فإن كل واحد من الناس يؤمّل أمورًا لا يدركها ، وكلّ واحد من الناس سالك سبيل من هلك قبله

(١) سورة ابراهيم : ٤٥ .

قوله عليه السلام : « عرض الأسقام » لأنّ الإنسان كالهدف لآفات الدنيا وأعراضها .

قوله عليه السلام : « ورهينة الأيام » الرهينة هاهنا : المهزول يقال : إنه لرهن وإنه لرهينة ؛ إذا كان مهزولا بالياء قال الراجز :

إمّا تَرَىْ جِسمى خلاءً قد رَهَنْ هزلاً وما مجدُ الرّجال فى السِّمَنْ(١)

ويجوز أن يريد بالرهينة واحدة الرهائن ؛ يقال للأسير أو للزمِن أو للعاجز عند الرحيل: إنّه لرهينة ؛ وذلك لأنّ الرهائن محتبسة عند مرتهنها .

قوله : « ورميّة المصائب » ، الرميّة ما يرمَى .

قوله: « وعبْد الدنيا، وتاجر الغرور، وغريم المنايا » ؛ لأنّ الإنسان طوع شهواته ، فهو عبْد الدنيا ، وحركاته فيها مبنيّة على غرور لا أصل له، فهو تاجر الغرور لا محالة؛ ولمّا كانت المنايا تطالبه بالرحيل عن هذه الدار كانت غريما له يقتضيه ما لا بدّ له من أدائه .

قوله : « وأسير الموت ، وحليف الهموم ، وقرين الأحزان ، ونصب الآفات ، وسريع الشهوات » ، لما كان الإنسان مع الموت ، كما قال طرفة :

لَعَمْرُكَ إنّ المَوْتَ ما أخطأ الفَتَى لَكالطِّوَلِ المُرْخَى وثِنْيَاهُ بالْيَدِ(٢)

كان أسيرا له لا محالة ؛ ولمّا كان لا بدّ لكلّ إنسان من الهمّ كان حليف الهموم ؛ وكذلك لا يخلو ولا ينفكّ من الحزن ، فكان قريناً له ، ولما كان معرّضاً للآفات كان نصبا لها ، ولما كان إنما يهلك بشهواته كان صريعاً لها .

قوله : « وخليفة الأموات » قد أخذه مَنْ قال : إنّ امرأ ليس بينه وبين آدم إلا أب ميّت ، لَمُعرقٌ فى الموت .

واعلم أنه عدّ من صفات نفسه سبعاً ، وعدّ من صفات ولده أربع عشرة صفة ، فجعل

---

(١) الصحاح ٢١٢٨ من غير نسبة .

(٢) من المعلقة بشرح التبريزى ٨٦ . الطول : الحبل ، وثنياه : ماثنى منه .

(٣) ا : « صريعها » .

بإزاء كلّ واحدة مما له اثنتين ، فليلمح ذلك.

* * *

[بعض ما قيل من الشعر فى الدهر وفعله بالإنسان]

ومن جيد ما نعى به شاعر نفسه ، ووصف ما نقص الدهر من قُواه ، قول عوف بن محلّم الشيبانىّ فى عبد الله بن طاهر أمير خراسان :

يَابْنَ الَّذِى دَانَ له المشرقَانْ ... وأُلبس الأمنَ به المغربانْ(١)

إنّ الثمانينَ وبُلِّغْتها ... قد أحوجتْ سمعِى إلى تَرْجُمَانْ

وبدّلَتْنِى بالشّطاط انْحِنَا ... وكنتُ كالصّعْدة تحتَ السّنانْ(٢)

وقاربتْ مِنِّى خُطًا لم تكنْ ... مقارَبَاتٍ وثَنَتْ مِنْ عَنَانْ

وعوّضتنى من زماع الفتى ... وهمّه همّ الجبان الهِدَانْ(٣)

وأنشأت بينى وبَيْنَ الورَى ... عنانةً من غير نَسْج العَنان(٤)

ولم تدعْ فىّ لمستمتِــعٍ ... إلا لسانى وكفانى لسانْ(٥)

أدعو به الله وأثنى به ... على الأمير المصعبىّ الهِجان(٦)

---

(١) أمالى القالى ١ : ٥٠ ، وروايته :

* طرًّا وقد دان له المغربانْ *

(٢) الشطاط: حسن القوام والاعتدال . والصعدة : القناة المستوية تنبت كذلك لا تحتاج إلى تثقيف.

(٣) الزماع : المضاء فى الأمر والعزم عليه . والهدان : الأحمق الجافى .

(٤) العنان هنا : السحاب: يشير بهذا إلى ضعف بصره . وأنه لا يرى الورى إلا من وراء سحابة .

(٥) الأمالى : « وبحسبى لسان » .

(٦) الهجان . الكريم ؛ وبعده فى الأمالى :

فقرّبانى بأبى أنتُمَا ... من وطنى قَبْلَ اصفرار البنانْ

وقبْل منعاى إلى نسوةٍ ... أوطانها حَرّانُ والرّقتان

ومن الشعر القديم الجيّد فى هذا المعنى قول سالم بن عونة الضبىّ :

لا يبعَدَنّ عَصْرُ الشبــاب ولا ... لذّاته ونبـــاتِه النّضْرِ
والمشرِفاتُ من الُخـــدور كإيْـ ... ـماض الغمام يَجُودُ بالقطرِ
وطراد خيل مثلها التقتاَ ... لحفيظةٍ ومقاعد الخمرِ
لَوْلَا أولئك ما حلفت مَتَى ... عوليتُ فى حَرْج إلى قبرِى
هربت زبيبة أنْ رأت ثَرَمِى(١) ... وأن انحـــنى لتقادمٍ ظهرِى
من بعد ما عهدت فأدلفنِى ... يومٌ يمرّ وليلة تسرى
حتّى كأنِّىَ خاتلٌ قَنَصًا(٢) ... والمرء بعد تمامه يحرِى
لا تهزئِى منّى زبيب فما ... فى ذاك من عَجَبٍ ولا سخرِ
أَوَ لم تَرَىْ لقمان أهلَكَهُ ... ما اقتات من سنَة ومن شَهْرِ
وبقاء نَسْر كلّما انقرضتْ ... أيامُه عادتْ إلى نَسْرِ
ما طال من أمدٍ على لُبَدٍ ... رجعت محارته إلى قَصْرِ
ولقد حَلَبْتُ الدّهْرَ أَشْطُرَهُ ... وعلمت ما آتِى مِن الأمْرِ

أنا أستفصح قوله : « ما اقتات من سنة ومن شهر » جعل الزمان كالقوت له ، ومن اقتات الشىء فقد أكله ، والأكل سبب المرض ، والمرض سبب الهلاك .

* * *

---

(١) الثرم : انكسار السن .

(٢) المخاتلة : مشى الصياد قليلا قليلا فى خفية لئلا يسمع الصيد حسه .

(٣) فى اللسان : « تزعم العرب أن لقمان هو الذى بعثته عاد فى وفدها إلى الحرم يستسق لها ؛ فلما أهلكوا خير لقمان بين بقاء سبع بقرات سمر ، من أطب عفر ، فى جبل وعر ، لا يمسها القطر أو بقاء سبعة أنسر كلما هلك نسر خلف بعده نسر ، فاختار النسور ، فكان آخر نسوره يسمى لبدا ؛ وقد ذكرته الشعراء ؛ قال النابغة :

أضحتْ خلاء وأضحى أهلُها احتملوا ... أخنى عَلَيْها الذى أخنى على لُبَدِ

الأصْـلُ :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ فِيمَا تَبَيَّنْتُ مِنْ إِدْبَارِ الدُّنْيَا عَنِّى ، وَجُمُوحِ الدَّهْرِ عَلَىَّ ، وَإِقْبَالِ الْآخِرَةِ إِلَىَّ ، مَا يَزَعُنِى عَنْ ذِكْرِ مَنْ سِوَاىَ ، وَالِاهْتِمَامِ بِمَا وَرَائِى ، غَيْرَ أَنِّى حَيْثُ تَفَرَّدَ بِى دُونَ هُمُومِ النَّاسِ هَمُّ نَفْسِى ـ فَصَدَّقَنِى رَأْيِى ، وَصَرَفَنِى عَنْ هَوَاىَ ، وَصَرَّحَ لِى مَحْضُ أَمْرِى ، فَأَفْضَى بِى إِلَى جِدٍّ لَا يَكُونُ فِيهِ لَعِبٌ ، وَصِدْقٍ لَا يَشُوبُهُ كَذِبٌ ـ وَجَدْتُكَ بَعْضِى ، بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّى ، حَتَّى كَأَنَّ شَيْئًا لَوْ أَصَابَكَ أَصَابَنِى ، وَكَأَنَّ الْمَوْتَ لَوْ أَتَاكَ أَتَانِى ، فَعَنَانِى مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِينِى مِنْ أَمْرِ نَفْسِى ، فَكَتَبْتُ إِلَيْكَ كِتَابِى هَذَا مُسْتَظْهِرًا بِهِ إِنْ أَنَا بَقِيتُ لَكَ أَوْ فَنِيتُ .

* * *

الشَّـرْحُ :

يزعنى : يكفّنى ويصدّنى ، وزعتُ فلاناً ، ولا بدّ للناس من وَزَعة .

وسِوى ، لفظة تُقصَر إذا كسرت سينها ، وتمدّ إذا فتحتها ؛ وهى هاهنا بمعنى غير ، ومَنْ قبلها بمعنى شىء منكّر ، كقوله :

* ربَّ مَنْ أَنْضَجْتُ غَيْظاً قلبه[1] *

والتقدير : غير ذكر إنسان سواى ، ويجوز أن تكون « مَنْ » موصولة ، وقد حذف أحد جزأي الصلة ، والتقدير عن ذكر الذى هو غيرى ، كما قالوا فى : ﴿ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ ﴾ ، أى هو أشدّ . يقول عليه السلام : إن فيما قد بان لى من تنكّر الوقت وإدبار الدنيا وإقبال الآخرة شاغلًا لى عن الاهتمام بأحد غيرى ، والاهتمام والفكر فى أمر الولد وغيره ممن أخلفه ورائى .

---

(١) بقيته : * تَمَنَّى لِىَ مَوْتاً لم يُطَعْ *
والبيت لسويد بن أبى كاهل اليشكرى . المفضليات ١٩٨ .

ثم عاد فقال : إلّا أنّ همّى بنفسى يقتضى اهتمامى بك ، لأنّك بمضى بل كلّى ، فإن كان اهتمامى بنفسى يصرفنى عن غيرى لم تكن أنت داخلا فى جملة مَنْ يصرفنى همّى بنفسى عنهم ؛ لأنّك لست غيرى .

فإن قلت : أفهذا الهمّ حدث لأمير المؤمنين عليه السلام الآن ، أو من قبل لم يكن عالما بأن الدنيا مدبرة ، والآخرة مقبلة ؟

قلت : كلّا بل لم يزل عالما عارفا بذلك ، ولكنه الآن تأكد وقوى ، بطريق علوّ السنّ وضعف القُوَى ، وهذا أمر يحصل للإنسان على سبيل الإيجاب ، لابدّ من حصوله لكلّ أحد ، وإن كان عالما بالحال من قبل ؛ ولكن ليس العيان كالخبر .

ومن مستحسَن ما قيل فى هذا المعنى قول أبى إسحاق الصابئ :

أقيكَ الرَّدَى إنى تنبهتُ من كَرَى ... وسهوٍ عَلَى طول المدَى اعترياني

فأثبتُّ شخصا دانياً كان خافياً ... على البعد حتى صار نُصْب عياني

هو الأجلُ المحتوم لى جَدّ جِدّهُ ... وكان يرينى غفلة التواني

له نُذُرٌ قد آذنتني بهجمَةٍ ... له لست منها آخذاً بأمانِ

ولا بدّ منه ممهلًا أو معاجِلًا ... سيأتى فلا يَثْنيه عنّىَ ثانِ

وأوّل هذه القصيدة وهو داخل له فى هذا المعنى أيضا :

إذا ما تعدّت بى وسارت محفّةٌ ... لها أرجلٌ يسعى بها رجلَانِ

وما كنت من فرسانِها غير أنّها ... وفت لىَ لمّا خانت القدمَانِ

نزلتُ إليها عن سراة حصانى ... بحكم مشيبٍ أو فراش حَصانِ (١)

فقد حملت منّى ابنَ سبعين سالكاً ... سبيلا عليها يسلك الثقلانِ

---

(١) د : « بحلم » .

كما حمل المهدَ الصبيُّ وقبلَها ... ذعرت أسودُ الغيلِ بالنَّزَوانِ (١)
ولى بعدها أخرى تسمّى جِنازة(٢) ... جنيبــة يوم للمنيّــة دانِ
تسير على أقــدامٍ أربعةٍ إلى ... ديار البلى معدودهنّ ثمــانِ
وإنّى على عَيْثِ الرَّدى فى جوارحى ... وما كفَّ من خَطْوى وبطش بنانى
وإن لم يَدَعْ إلّا فؤادا مُرَوَّعاً ... به غِيَرٌ باقٍ من الحـدثان (٣)
تلوّم تحت الحجْب ينفث حُكْمَه ... إلى أذنٍ تُصغى لنطقِ لسانِ (٤)
لأعلمُ أنّى ميت عاقَ دفنــه ... ذَماءٌ قليــل فى غدٍ هو فانِ
وإنّ فَماً للأرض غرثان حائماً ... يراصِد من أكلى حضور أوانِ
به شرَهٌ عمّ الورى بفجائعٍ ... تركن فلاناً ثاكلا لفــلانِ
غدا فاغراً يشكو الطَّوى وهو راتع ... فمــا تلتقى يوماً له الشَّفَتَانِ
إذا عاضنا بالنّسل ممّن نعــولُه ... تلا أوّلا منــه بمهلك ثانِ
إلى ذات يومٍ لا ترى الأرض وارثاً ... سوى اللهِ من إنس تراه وجانِ

قوله : « تفرّد بى دون هموم الناس همّ نفسى » أى دون الهموم التى قد كانت تعترينى لأجل أحوال الناس .

فصدّقنى رأيى ؛ يقال : صدقته كذا أى عن كذا ، وفى المثل : « صدقنى سنّ بكره » لأنه لما نفر قال له : هِدَعْ (٥) ، وهى كلمة تسكّن بها صغار الإبل إذا نفرت ؛ والمعنى أنّ هذا الهمّ صدقنى عن الصفـة التى يجب أن يكون رأيى عليها وتلك الصفة هى ألّا يفكر فى

(١) الغيل : الشجر الكثير الملتف . (٢) الجنازة بالكسر : ما يحمل عليه الميت .
(٣) الحدثان : غير الدهر ونوائبه . (٤) تلوّم : أى انتظر .
(٥) فى اللسان : « هدع هدع ، بكسر الفاء وفتح الدال وتسكين العين : كلمة يسكن بها صغار الإبل عند النفار ؛ ولا يقال ذلك لجلّتها ولا مسانها ؛ وزعموا أن رجلا أتى السوق ببكر له يبيعه ، فساومه رجل . فقال : بكم البكر ؟ فقال : إنه جمل ؛ فقال : هو بكر ؛ فبينما هو يماريه إذ نفر البكر ، فقال صاحبه : هِدَعْ هدع ، ليسكن نفاره ، فقال المشترى : صدقنى سنّ بكره ؛ وإنما يقال : هدع للبكر ليسكن » .

أمر شيء من الموجودات أصلا إلا الله تعالى ونفسه ؛ وفوق هـذه الطبقة طبقة أخرى جدا وهى ألاّ تفكر فى شيء قطّ إلا فى الله وحده ، وفوق هـذه الطبقة طبقة أخرى تجلّ عن الذكر والتفسير ، ولا تصلح لأحد من المخلوقين إلا النادر الشاذ ، وقد ذكرها هو فيما سبق ، وهو ألاّ يفكر فى شيء أصلا ، لا فى المخلوق ولا فى الخالق ؛ لأنه قد قارب أن يتّحد بالخالق ، ويستغنى عن الفكر فيه .

قوله : « وصرفنى عن هواى » أى عن هواى وفكرى فى تدبير الخلافة وسياسة الرعيّة والقيام بما يقوم به الأئمة .

قوله عليه السلام : « وصرّح لى محض أمرى » يروى بنصب محض « ورفعه » ؛ فمن نصب فتقديره : عن محض أمرى ؛ فلمّا حذف الجار نصب ، ومن رفع جعله فاعلا . وصرّح : كشف أو انكشف .

قوله : « فأفضى بى إلى كذا » ، ليس بمعنى أنه قد كان من قبل يمازح جدّه باللعب ؛ بل المعنى أنّ همومه الأولى قد كانت بحيث يمكن أن يتخلّلها وقت راحة أو دُعابة لا يخرج بها عن الحق ، كما كان رسول الله صلى الله عليه وآله يمزح ولا يقول إلا حقا ، فالآن قد حدث عنده همّ لا يمكن أن يتخلّله من ذلك شيء أصلا ، ومدار الفرق بين الحالتين ـ أعنى الأولى والثانية على إمكان اللعب لا نفس اللعب وما يلزم من قوله : « أفضى لك بى هذا الهم » إلى انتفاء إمكان اللعب أن تكون همومه الأولى قد كان يمازجها اللعب ؛ ولكن يلزم من ذلك أنها قد كانت يمكن ذلك فيها إمكانا محضا على أنّ اللعب غير منكر إذا لم يكن باطلا ، ألا ترى إلى قول النبي صلى الله عليه وآله : « المؤمن دَعِب لعِب » ، وكذلك القول فى قوله : « وصدق لا يشوبه كذب » أى لا يمكن أن يشوبه كذب ؛ وليس المراد بالصدق والكذب هاهنا مفهومهما المشهورين ؛ بل هو من قولهم : صدَقونا اللقاء ، ومن قولهم : حمل عليهم فما كذب ! قال زهير :

ليثٌ بعثّرَ يصطاد اللّيـوثَ إذا ما كذّب الليث عن أقرانه صَدَقا[1]؛

أى أفضى بى هذا الهمّ إلى أن صدقتنى الدنيا حربها ، كأنه جعل نفسه محارباً للدنيا ، أى صدقتنى الدنيا حربها ولم تكذب ، أى لم تجبن ولم تَخُنْ .

أخبر عن شدّة اتّحاد ولده به ، فقال وجدتك بعضى ، قال الشاعر :

وإنّمـا أولادُنا بيننا أكبادُنا تمشى على الأرض

لو هبّت الرّيح على بعضهم لامتنعتْ عينى من الغَمْض

وغضب معاوية على ابنه يزيد، فهجره ، فاستعطفه له الأحنف ، قال له : ياأمير المؤمنين ، أولادنا ثمار قلوبنا ، وعماد ظهورنا ، ونحن لهم سماء ظليلة ، وأرض ذليلة ، فإن غضبوا فأرضهم ، وإن سألوا فأعطِهم ، فلا تكن عليهم قفلا فيملّوا حياتك ، ويتمنّوا موتك .

وقيل لابنة الُخسّ[2] : أىّ ولديك أحبّ إليك ؟ قالت : الصغير حتى يكبر ، والمريض حتى يبرأ ، والغائب حتى يقدم .

غضب الطرمّاح على امرأته فشفع فيها ولده منها صمصام ، وهو غلام لم يبلغ عشرا ، فقال الطرّمّاح :

أصَمْصامُ إن تشفع لأمّك تَلْقِهَا لها شافعٌ فى الصَّدْر لم يتزحزحِ[3]

هَـلِ الحبّ إلّا أنّها لو تعرّضتْ لذبحك ياصمصامُ قُلتَ لها : اذبحِى

أحاذر يا صَمْصَامُ إن متّ أنْ يَلِى تُراثى وإيّاك امرؤٌ غير مصلحِ

إذا صكّ وسط القوم رأسك صكّةً يقول له النّاهى:ملكت فأسْجِحِ

وفى الحديث المرفوع : « إنّ ريح الولد من ريح الجنّة » .

---

(١) ديوانه ٥٤ : وكذب ، أى لم يصدق الحملة . وعثر : قبل تبالة .

(٢) ب : « الحسن » تحريف ، صوابه من ا ، د .

(٣) ديوانه ١٣٦ ، وفيه : « لم يتحرج » .

وفى الحديث الصحيح أنه قال لحسن وحسين عليهما السلام : « إنّكم لتجبّنون ، وإنّكم لتبخّلون ، وإنكم لمن ريحان الله » .

ومن ترقيص الأعراب قول أعرابية لولدها :

يا حبّذا ريحُ الوَلدْ   ريحُ الُخزامى فى البلدْ
أهكذا كلّ ولَدْ   أم لم يلدْ قَبلى أحَدْ !

وفى الحديث المرفوع : « من كان له صبىّ فليستصبِ له » .

وأنشد الرياشىّ :

مَنْ سرّه الدّهرُ أن يرى الكبدا   يمشى على الأرض فليَرَ الولدا

* * *

الأصْلُ :

فَإنِّى أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ ـ أىْ بُنَىَّ ـ وَلُزُومِ أَمْرِهِ ؛ وَعِمَارَةِ قَلْبِكَ بِذِكْرِهِ ، وَالاعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ ، وَأىُّ سَبَبٍ أَوْثَقُ مِنْ سَبَبٍ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ ؛ إنْ أَنْتَ أَخَذْتَ بِهِ !

أَحْىِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ ، وَأَمِتْهُ بِالزَّهَادَةِ ، وَقَوِّهِ بِالْيَقِينِ ، وَنَوِّرْهُ بِالْحِكْمَةِ ، وَذَلِّلْهُ بِذِكْرِ الْمَوْتِ ؛ وَقَرِّرْهُ بِالْفَنَاءِ ، وَبَصِّرْهُ فَجَائِعَ الدُّنْيَا ؛ وَحَذِّرْهُ صَوْلَةَ الدَّهْرِ وَفُحْشَ تَقَلُّبِ اللَّيَالِى وَالْأَيَّامِ ؛ وَأَعْرِضْ عَلَيْهِ أَخْبَارَ الْمَاضِينَ ، وَذَكِّرْهُ بِمَا أَصَابَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الْأَوَّلِينَ .

وَسِرْ فِى دِيَارِهِمْ وَآثَارِهِمْ ، فَانْظُرْ فِيمَا فَعَلُوا ، وَعَمَّا انْتَقَلُوا ، وَأَيْنَ حَلُّوا وَنَزَلُوا ! فإنَّكَ تَجِدُهُمْ انْتَقَلُوا عَنِ الْأَحِبَّةِ ، وَحَلُّوا دَارَ الْغُرْبَةِ ؛ وَكَأَنَّكَ عَنْ قَلِيل قَدْ صِرْتَ كَأَحَدِهِمْ .

فَأَصْلِحْ مَثْوَاكَ ، وَلَا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ ؛ وَدَعِ الْقَوْلَ فِيمَا لَا تَعْرِفُ وَالْخِطَابَ فِيمَا لَمْ تُكَلَّفْ ؛ وَأَمْسِكْ عَنْ طَرِيقٍ إِذَا خِفْتَ ضَلَالَتَهُ ، فَإِنَّ الْكَفَّ عِنْدَ حَيْرَةِ الضَّلَالِ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الْأَهْوَالِ

* * *

الشَّرْحُ :

قوله عليه السلام : « وأىّ سبب أوثق » ؛ إشارة إلى القرآن لأنه هو المعبّر عنه بقوله تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾[1] .

ثم أتى بلفظتين متقابلتين ، وذلك من لطيف الصنعة ؛ فقال : « أحي قلبك بالموعظة ، وأمته بالزّهادة » ؛ والمراد إحياء دواعيه إلى الطاعة وإماتة الشهوات عنه .

قوله عليه السلام : « واعرض عليه أخبار الماضين » معنى قد تداوله الناس ، قال الشاعر :

سل عن الماضين إن نطقت   عنهم الأجداث والتُّرَكُ
أىّ دار للبلى نزلوا   وسبيل للردى سَلَكُوا

قوله عليه السلام : « ودع القول فيما لا تعرف » من قول رسول الله صلى الله عليه وآله لعبد الله بن عمرو بن العاص : « يا عبد الله ، كيف بك إذا بقيت فى حُثالة من الناس ، مرجت عهودهم وأماناتهم وصار الناس هكذا ! » ـ وشبّك بين أصابعه ـ ؛ قال عبد الله : فقلت : مُرْنى يا رسولَ الله ، فقال : « خذ ما تعرف ، ودع ما لا تعرف ، وعليك بخُوَيْصّة نفسك » .

---

(١) سورة آل عمران ١٠٣ .

قوله : « والخطاب فيما لم تـكلّف » من قول رسول الله صلى الله عليـــه وآله : « منْ حُسْن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » ، وقال معاوية فى عبـد الملك بن مروان وهو حينئذ غلام : إنّ لهذا الغلام الهمّة ، وإنّه مع ذلك تارك لثلاث آخذ بثلاث : تارك مساءة الصّديق جدًّا وهَزْلًا ، تارك ما لا يعنيه ، تارك ما لا يعتذر منه ، آخذ بأحسن الحديث إذا حدّث ، وبأحسن الاستماع إذا حُدِّث ، وبأهون الأمرين إذا خُولف .

قوله عليه السلام : « وأمسك عن طريق إذا خفت ضلالته » ، مأخوذ من قول النبى صلى الله عليه وآله : « دع ما يَريبك إلى ما لا يريبك » ، وفى خبر آخر : « إذا رابك أمْرٌ فدعْه » .

***

الأصْـلُ :

وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ تَـكُنْ مِنْ أَهْلِهِ ، وَأَنْـكِرِ الْمُنْـكَرَ بِيَدِكَ وَلِسَانِكَ ، وَبَايِنْ مَنْ فَعَلَهُ بِجُهْدِكَ ، وَجَاهِدْ فِى ٱللهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، وَلَا تَأْخُذْكَ فِى ٱللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ .

وَخُضِ ٱلْغَمَرَاتِ إِلَى الحقِّ حَيْثُ كَانَ ، وَتَفَقَّهْ فِى ٱلدِّينِ ، وَعَوِّدْ نَفْسَكَ ٱلصَّبْرَ عَلَى المَـكْرُوهِ ؛ وَنِعْمَ ٱلْخُلُقُ التَّصَبُّرُ فِى ٱلْحَقِّ !

وَأَلْجِئْ نَفْسَكَ فِى أُمُورِكَ كُلِّهَا إِلَى إِلٰهِكَ ، فَإِنَّكَ تُلْجِئُهَا إِلَى كَهْفٍ حَرِيزٍ ، وَمَانِعٍ عَزِيزٍ .

وَأَخْلِصْ فِى الْمَسْأَلَةِ لِرَبِّكَ ؛ فَإِنَّ بِيَدِهِ ٱلْعَطَاءَ وَٱلْحِرْمَانَ ، وَأَكْثِرِ الاسْتِخَارَةَ ، وَتَفَهَّمْ وَصِيَّتِى ، وَلَا تَذْهَبَنَّ عَنْكَ صَفْحًا ، فَإِنَّ خَيْرَ ٱلْقَوْلِ مَا نَفَعَ ، وَٱعْلَمْ أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِى عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ ، وَلَا يُنْتَفَعُ بِعِلْمٍ لَا يَحِقُّ تَعَلُّمُهُ .

***

الشَّرْحُ :

أمره أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وهما واجبان عندنا ، وأحد الأصول الخمسة التى هى أصول الدين .

ومعنى قوله : « تكن من أهله » ؛ لأن أهل المعروف هم الأبرار الصالحون ، ويجب إنكار المنكر باللسان ، فإن لم ينجع فباليد ، وتفصيل ذلك وترتيبه مذكور فى كتبى الكلامية .

قوله : « وخُضِ الغمرات إلى الحق » ، لا شبهة أنّ الحسن عليه السلام لو تمكّنَ لخاضها إلّا أنّ مَنْ فقد الأنصار لا حِيلَة له .

* وهلْ ينهض البازِى بغير جَنَاحِ *

والّذى خاضها مع عدم الأنصار هو الحسين عليه السلام ، ولهذا عظُم عند الناس قدرُه ، فقدّمه قوم كثير على الحسن عليه السلام .

فإن قلتَ : فما قول أصحابكم فى ذلك ؟

قلت : هما عندنا فى الفضيلة سيّان ، أما الحسن فلوقوفه مع قوله تعالى : ﴿ إلا أَنْ تَتَّقُوا ﴾ ، وأما الحسين فلإعزاز الدين .

قوله : « فنعم التصبّر » قد تقدّم منّا كلام شافٍ فى الصبر .

وقوله : « وأكثر الاستخارة » : ليس يعنى بها ما يفعله اليوم قوم من الناس من سَطْر رقاع وجعلها فى بنادق ، وإنما المراد أمره إياه بأن يطلب الخيَرة من الله فيما يأتى ويذر .

قوله : « لا خير فى علم لا ينفع » قول حقّ ، لأنه إذا لم ينفع كان عبثاً .

قوله : « ولا ينتفع بعلم لا يحقّ تعلمه »، أى لا يجب ولا يندب إليه ؛ وذلك لأن النفع إنما هو نفع الآخرة ، فما لم يكن من العلوم مرغبا فيه إما بإيجاب أو ندب فلا انتفاع به فى الآخرة، وذلك كعلم الهندسة والأرثماطيقىّ ونحوها.

* * *

الأصْـلُ :

أَىْ بُنَىَّ ، إِنِّى لَمَّا رَأَيْـتُنِى قَدْ بَلَغْتُ سِنًّا ، وَرَأَيْـتُنِى أَزْدَادُ وَهْنًا ، بَادَرْتُ بِوَصِيَّتِى إِلَيْـكَ ، وَأَوْرَدْتُ خِصَالًا مِنْهَا قَبْـلَ أَنْ يَعْجَلَ بِى أَجَلِى دُون أَنْ أُفْـضِىَ إِلَيْـكَ بِمَا فِى نَفْسِى ، أَوْ أَنْ أُنْقَصَ فِى رَأْيِى كَمَا نُقِصْتُ فِى جِسْمِى ، أَوْ يَسْبِقَنِى إِلَيْـكَ بَعْضُ غَلَبَاتِ الْهَوَى وَفِتَنِ الدُّنْيَا ، فَتَـكُونَ كَالصَّعْبِ النَّفُورِ .

وَإِنَّمَا قَلْبُ الْحَدَثِ كَالْأَرْضِ الْخَالِيَةِ مَا أُلْقِىَ فِيهَا مِنْ شَىْءٍ قَبِلَتْهُ ؛ فَبَادَرْتُكَ بِالْأَدَبِ قَبْـلَ أَنْ يَقْسُوَ قَلْبُـكَ ، وَيَشْتَغِلَ لُبُّـكَ ، لِتَسْتَقْبِلَ بِجِدِّ رَأْيِكَ مِنَ الْأَمْرِ مَا قَدْ كَفَاكَ أَهْلُ التَّجَارِبِ بُغْيَتَهُ وَتَجْرِبَتَهُ ، فَتَـكُونَ قَدْ كُفِيتَ مَئُونَةَ الطَّلَبِ ، وَعُوفِيتَ مِنْ عِلَاجِ التَّجْرِبَةِ ، فَأَتَاكَ مِنْ ذَلِكَ مَا قَدْ كُنَّا نَأْتِيهِ ، وَاسْتَبَانَ لَكَ مَا رُبَّمَا أَظْلَمَ عَلَيْنَا مِنْهُ .

* * *

الشّـرْحُ :

هذه الوصيّة كتبها عليه السلام للحسن بعد أن تجاوز الستين ، وروى أنه ذُكر عند رسول الله صلى الله عليه وآله ما بين الستّين والسبعين ، فقال : « معترك المنايا » .

قوله عليه السلام : « أو أن أُنقص فى رأيى » هذا يدلّ على بطلان قول من قال : إنّه لا يجوز أن ينقص فى رأيه ، وأن الإمام معصوم عن أمثـال ذلك ، وكذلك قوله

للحسن : « أو يسبقنى إليك بعض غلبات الهوى وفتن الدنيا » يدلّ على أنّ الإمام لا يجب أن يعصم عن غلبات الهوى ؛ ولا عن فتن الدنيا .

قوله : « فتكون كالصّعب النَّفور » ؛ أى كالبعير الصعب الذى لا يُمكِن راكبا ، وهو مع ذلك نفور عن الأنس .

ثم ذكر أنّ التعلم إنما هو فى الصِّبَا ، وفى المثل : « الغلام كالطّين يقبل الختم ما دام رطبا ».

وقال الشاعر :

اختمْ وطينُكَ رَطْبٌ إنْ قدرتَ فَكَمْ ... قد أَمكَنَ الختمُ أقواماً فما خَتَمُوا

ومثّل هو عليه السلام قَلْب الحدَث بالأرض الخالية ، ما ألقى فيها من شىء قبلته ، وكان يقال : التعلّم[1] فى الصغر كالنقش فى الحجر ، والتعلم[1] فى الكبر كالخطّ على الماء .

قوله : « فأتاك من ذلك ما كنّا نأتيه » أى الّذى كنّا نحن نتجشم المشقّة فى اكتسابه ، ونتكلّف طلبه ؛ يأتيك أنت الآن صَفواً عَفواً .

* * *

الأصْلُ :

أَىْ بُنَىَّ ، إِنِّى وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِى ، فَقَدْ نَظَرْتُ فِى أَعْمَالِهِمْ ، وَفَكَّرْتُ فِى أَخْبَارِهِمْ ، وَسِرْتُ فِى آثَارِهِمْ ؛ حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ ؛ بَلْ كَأَنِّى بِمَا انْتَهَى إِلَىَّ مِنْ أُمُورِهِمْ؛ قَدْ عُمِرْتُ مَعَ[2] أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ ؛ فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ كَدَرِهِ ، وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ ؛ فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ جَلِيلَهُ ، وَتَوَخَّيْتُ لَكَ

(١) د : « العلم » . (٢) د « من » .

جَمِيلَهُ ، وَصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَهُ ، وَرَأَيْتُ حَيْثُ عَنَانِى مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِى الْوَالِدَ الشَّفِيقَ ، وَأَجْمَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ أَدَبِكَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ وَأَنْتَ مُقْبِلُ الْعُمْرِ وَمُقْتَبِلُ الدَّهْرِ ، ذُو نِيَّةٍ سَلِيمَةٍ ، وَنَفْسٍ صَافِيَةٍ ، وَأَنْ أَبْتَدِئَكَ بِتَعْلِيمِ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَأْوِيلِهِ وَشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ ، وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ ، لَا أُجَاوِزُ ذَلِكَ بِكَ إِلَى غَيْرِهِ . ثُمَّ أَشْفَقْتُ أَنْ يَلْتَبِسَ عَلَيْكَ مَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أَهْوَائِهِمْ وَآرَائِهِمْ ، مِثْلَ الَّذِى الْتَبَسَ عَلَيْهِمْ ، فَكَانَ إِحْكَامُ ذَلِكَ عَلَى مَا كَرِهْتُ مِنْ تَنْبِيهِكَ لَهُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِن إِسْلَامِكَ إِلَى أَمْرٍ لَا آمَنُ عَلَيْكَ فِيهِ(١) الْهَلَكَةَ ، وَرَجَوْتُ أَنْ يُوَفِّقَكَ اللهُ فِيهِ لِرُشْدِكَ ، وَأَنْ يَهْدِيَكَ لِقَصْدِكَ ، فَعَهِدْتُ إِلَيْكَ وَصِيَّتِى هَذِهِ .

* * *

الشرح :

هـــذا الفصل وما بعده يشعر بالنّهى عن علم الـكلام حسب ما يقتضيه ظاهر لفظه ، ألا تراه قال له : كنت عازما على أن أعلّمك القرآن وتفسـيره والفقه وهو المعرفة بأحـكام الشريعة ، ولا أجاوز ذلك بك إلى غيره ، ثم خفت أنْ تدخل عليك شبهة فى أصول الدين فيلتبس عليك فى عقيدتك الأصلية ماالتبس على غيرك من الناس ، فعدلتُ عن العزم الأوّل إلى أن أوصيَك بوصايا تتعلّق بأصول الدين .

ومعنى قوله عليه السلام : « وكان(٢) إحكام ذلك » إلى قوله : « لا آمن عليك به الهلـكة »، أى فـكان إحكامى الأمورَ الأصليّة عندك وتقرير الوصية التى أوصيك بها فى ذهنك فيما رجع إلى النظر فى العلوم(٣) الإلهية ؛ وإن كنت كارها للخوض [معك](٤)

(١) د « فيه من »	(٢) ا : « فـكان » .
(٣) د « الأمور » .	(٤) من ا .

فيه وتنبيهك عليه أحبّ إلىّ من أن أتركك سدًى مهملا ، تتلاعب بك الشّبَه ، وتعتورك الشكوك فى أصول دينك ، فربّما أفضى ذلك بك إلى الهلَكة .

فإن قلتَ : فلماذا كان كارها تنبيه ولده على ذلك ، وأنتم تقولون إنّ معرفة الله واجبة على المكلّفين ؛ وليس يليق بأمير المؤمنين أن يكره ما أوجبه الله تعالى !

قلت : لعلّه علم إمّا من طريق وصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله ، أو من طريق معرفته بما يصلح أن يكون لطفا لولده ومعرفته ، بما يكون مفسدة له ، لكثرة التجربة له ، وطول الممارسة لأخلاقه وطباعه أنّ الأصلح له ألّا يخوض فى علم الكلام الخوض الكلّىّ وأن يقتنع بالمبادئ والجمل ، فمصالح البشر تختلف ؛ فربّ إنسان مصلحته فى أمرٍ ذلك الأمر بعينه مفسدة لغيره ، ونحن وإن أوجبنا المعرفة فلم نوجب منها إلّا الأمور المجمَلة ، وأما التفصيلات الدقيقة الغامضة ، فلا تجب إلّا عند ورود الشبهة ، فإذا لم تقع الشبهة فى نفس المكلّف لم يجب عليه الخوض فى التفصيلات .

قوله عليه السلام : « قد عَمِرتُ مع أولهم إلى آخرهم » العين مفتوحة والميم مكسورة مخففة ، تقول : عمر الرجل يعمر عَمراً وعُمرا على غير قياس ؛ لأن قياس مصدره التحريك أى عاش زمانا طويلا ، واستعمل فى القسم أحدها فقط ، وهو المفتوح .

قوله عليه السلام : « حيث عنانى من أمرك » أى أهمنى ، قال :

﴿ عَنَانِى مِنْ صُدُودِكَ مَا عَنَا ﴾

قوله : « وأجمعت عليه » أى عَزَمت .

ومقتبل الدهر ، يقال : اقتبل الغلام فهو مقتبَل بالفتح وهو من الشواذّ ، ومثله أحصن الرجل إذا تزوج فهو مُحصَن ، وإذا عفّ فحصَن أيضا ، وأسهب إذا أطال الحديث فهو مسهَب ، وألفج إذا افتقر فهو ملفَج ؛ وينبغى أن يكون له من قوله : « تنبيهك له » بمعنى

« عليه » ، أو تكون على أصلها ، أى ما كرهت تنبيهك لأجله .

فإن قلت : إلى الآن ما فسّرتَ ، لما ذا كره تنبيهه على هذا الفنّ ؟

قلت : بلى قد أشرت إليه ؛ وهو أنه كره أن يعدل به عن تفسير القرآن وعلم الفقه إلى الخوض فى الأمور الأصوليّة فنبّهه على أمور يجرّه النظر وتأمّل الأدلّة والشُّبُهات إليها دقيقة يُخاف على الإنسان من الخوض فيها أن تضطرب عقيدته ، إلا أنّه لم يجد به بدًّا من تنبيهه على أصول الديانة ، وإن كان كارها لتعريضه لخطر الشبهة ، فنبّهه على أمور جلية غير مفصلة ، وأمره أن يلزم ذلك ولا يتجاوزه إلى غيره وأن يُمسك عما يشتبه عليه ، وسيأتى ذكر ذلك .

***

الأصْلُ :

وَاعْلَمْ يا بُنَىَّ أَنَّ أَحَبَّ ما أنْتَ آخِذٌ بِهِ إِلَىَّ مِنْ وَصِيَّتِى تَقْوَى اللهِ وَالاقْتِصَارُ على ما فَرَضَهُ اللهُ عَلَيْكَ ، وَالأَخْذُ بِما مَضَى عَلَيْهِ الأَوَّلُونَ مِنْ آبائِكَ ، والصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ ، فإِنَّهُمْ لَمْ يَدَعُوا أَنْ نَظَرُوا لِأَنْفُسِهِمْ كَما أَنْتَ ناظِرٌ ، وفَكَّرُوا كَما أَنْتَ مُفَكِّرٌ ، ثُمَّ رَدَّهُمْ آخِرُ ذَلِكَ إِلَى الأَخْذِ بِما عَرَفُوا ، والإِمْساكِ عَمَّا لَمْ يُكَلَّفُوا ، فإِنْ أَبَتْ نَفْسُكَ أَنْ تَقْبَلَ ذَلِكَ دُونَ أَنْ تَعْلَمَ كَما عَلِمُوا ؛ فَلْيَكُنْ طَلَبُكَ ذَلِكَ بِتَفَهُّمٍ وَتَعَلُّمٍ ، لَا بِتَوَرّطِ الشُّبُهاتِ ، وعُلَقِ الخُصُوماتِ .

وَابْدَأْ قَبْلَ نَظَرِكَ فِى ذَلِكَ بِالاسْتِعانَةِ بِإِلٰهِكَ ، والرَّغْبَةِ إِلَيْهِ فى تَوْفِيقِكَ ، وَتَرْكِ كُلِّ شائِبَةٍ أَوْلَجَتْكَ فِى شُبْهةٍ ، أَوْ أَسْلَمَتْكَ إِلَى ضَلالَةٍ ، فَإِنْ أَيْقَنْتَ أَنْ قَدْ صَفا قَلْبُكَ فَخَشَعَ ، وَتَمَّ رَأْيُكَ فاجْتَمَعَ ، وكانَ هَمُّكَ فى ذَلِكَ هَمًّا وَاحِداً ، فانْظُرْ فِيما فَسَّرْتُ لَكَ ؛ وَإِنْ أَنْتَ لَمْ يَجْتَمِعْ لَكَ ما تُحِبُّ مِنْ نَفْسِكَ ؛ وفَرَاغِ نَظَرِكَ وفِكْرِكَ ،

فَاعْلَمْ أَنكَ إِنَّما تَخْبِطُ الْعَشْوَاءَ ، وَتَتَوَرَّطُ الظَّلْماءَ ، وَلَيْسَ طالِبُ الدِّينِ مَنْ خَبَطَ أَوْ خَلَطَ ، وَالإِمْسَاكُ عَنْ ذَلِكَ أَمْثَلُ .

* * *

الشَّرْحُ

أمره أن يقتصر على القيام بالفرائض ، وأن يأخذ بسنّة السّلف الصّالح من آبائه وأهل بيته ؛ فإنّهم لم يقتصروا على التقليد ؛ بل نظروا لأنفسهم ، وتأمّلوا الأدلة ، ثمّ رجعوا آخر الأمر إلى الأخذ بما عرفوا ، والإمسالا عمّا لم يكلّفوا .

فإن قلتَ : مَنْ سَلَفه هؤلاء الذين أشار إليهم ؟

قلت : المهاجرون الأوّلون من بنى هاشم وبنى المطّلب كحمزة وجعفر والعباس وعبيدة ابن الحارث ، وكأبى طالب فى قول الشّيعة وكثير من أصحابنا ، وكعبد المّطلب فى قول الشيعة خاصّة .

فإن قلت : فهل يكون أمير المؤمنين عليه السلام نفسه معدودا من جملة هؤلاء !

قلت : لا ، فإنه لم يكن من أهل المبادئ والجلل المقتصر بهم فى تكليفهم العقليّات على أوائل الأدلّة ، بل كان سيّد أهل النظر كافّة وإمامهم .

فإن قلت : ما معنى قولِه : لم يدعوا أن نظروا لأنفسهم ؟

قلت : لأنّهم إذا تأمّلوا الأدلّة وفكّروا فيهـا فقـد نظروا لأنفسهم كما ينظر الإنسان لنفسه ليخلّصها من مضرّة عظيمة سبيلها أن تقع به إن لم ينظر فى الخلاص منها ؛ وهذا هو الوجه فى وجوب النظر فى طريق معرفة الله ، والخوف من إهمال النظر .

فإن قلت : ما معنى قوله : « إلى الأخذ بما عرفوا ، والإمساك عمّا لم يكلّفوا » ؟

قلت: الأخذ بما عرفوا، مثل أدلّة(١) حدوث الأجسام وتوحيد البارئ وعدله، والإمساك عمّا لم يكلّفوا ، مثل النّظر فى إثبات الجزء الّذى لا يتجزأ ونفيه ، ومثل الكلام فى الخلا والملا ؛ والكلام فى أنّ هل بين كلّ حركتين مستقيمتين سكون أم لا ؟ وأمثال ذلك مما لا يتوقّف أصول التوحيد والعدل عليه ، فإنه لايلزم أصحاب الجمل والمبادئ أن يخوضوا فى ذلك؛ لأنهم لم يكلّفوا الخوض فيه ؛ وهو من وظيفة قوم آخرين .

قوله عليه السلام : « فإن أبتْ نفسُك أن تقبلَ ذلك دون أن تعلم كما علموا » ، هذا الموضع فيه نظر؛ لأنا قد قلنا : إنهم لم يعلموا التفاصيل الدقيقة ، فكيف يجعلهم عالمين بها ؟ ويقول : « أن تعلم كما علموا » وينبغى أن يقال إنّ الكاف وما عملت فيه فى موضع نصب ؛ لأنه صفة مصدر محذوف ؛ وتقديره فإن أبت نفسك أن تقبل ذلك علما كما علموا دون أن تعلم التفاصيل الدقيقة ؛ وجاز انتصاب «علما » والعامل فيه « تقبل» لأنّ القبول من جنس العلم ، لأن القبول اعتقاد والعلم اعتقاد ؛ وليس لقائل أن يقول : فإذن يكون قد فصل بين الصفة والموصوف بأجنبىّ ، لأن الفصل بينهما قد جاء كثيرا ، قال الشاعر :

جَزَى اللهُ كَفًّا مِلْئُها من سعادةٍ سَرَتْ فى هلاكِ المالِ والمالُ نائمُ

ويجوز أن يقال : كما علموا الآن بعد موتهم ؛ فإنّهم بعد الموت يكونون عالمين بجميع ما يشتبه علمه على النّاس فى الحياة الدنيا ، لأن المعارف ضرورية بعد الموت ، والنفوس باقية على قول كثير من المسلمين وغيرهم .

واعلم أنّ الّذى يدعو إلى تكلّف هذه التأويلات أنّ ظاهر الكلام كونه يأمر بتقليد النبى صلى الله عليه وآله والأخذ بما فى القرآن وترك النظر العقلىّ ؛ هذا هو ظاهر الكلام ؛ ألا تراه كيف يقول له : الاقتصار على ما فرضه الله عليك ، والأخذ بما مضى عليه أهل

---

(١) ا : « الأدلة » تحريف .

بيتك وسلفك ؛ فإنّهم لما حاولوا النظر رجعوا بآخره إلى السمعيات ، وتركوا العقليات ؛ لأنّها أفضتْ بهم إلى ما لا يعرفونه ؛ ولا هو من تكليفهم .

ثم قال له : فإن كرهت التقليد المحض ، وأحببت أن تسلك مسلكهم فى النّظر ، وإن أفضى بك الأمر بأخرة إلى تركه والعود إلى المعروف من الشرعيّات وما ورد به الكتاب والسنّة ، فينبغى أن تنظر وأنت مجتمع الهمّ خالٍ من الشبهة ، وتكون طالبا للحقّ ، غير قاصد إلى الجدل والمراء ؛ فلمّا وجدنا ظاهر اللفظ يقتضى هذه المعانى ، ولم يجز عندنا أنْ يأمر أمير المؤمنين عليه السلام ولده[1] مع حكمته وأهلية ولده بالتّقليد وترك النظر ، رجعنا إلى تأويل كلامه على وجه يخرج به عليه السلام من أن يأمر بما لا يجوز لمثله أن يأْمر به .

* * *

واعلم أنّه قد أوصاه إذا همّ بالشروع فى النظر بمحض ما ذكره المتكلمون ، وذلك أمور :

منها أن يرغب إلى الله فى توفيقه وتسديده .

ومنها أنْ يطلب المطلوب النظرى بتفهّم وتعلم ؛ لا بجدال ومغالبة ومراء ومخاصمة .

ومنها اطّراح العصبية لمذهب بعينه ، والتورّط فى الشبهات التى يحاول بها نصرة ذلك المذهب .

ومنها ترك الإلْف والعادة ، ونصرة أمر يطلب به الرياسة ؛ وهو المعنىّ بالشوائب التى تولج فى الضلال .

ومنها أنْ يكون صافى القلب ، مجتمعَ الفكر ، غيرَ مشغول السرّ بأمرٍ من جوع

---

(١) ساقطة من ا

[أو شِبع][1] أو شبَق أو غضب ؛ ولا يكون ذا هموم كثيرة ، وأفكار موزّعة مقسّمة ؛ بل يكون فكره وهمّه همّا واحداً .

قال : فإذا اجتمع لك كلّ ذلك فانظر ، وإن لم يجتمع لك ذلك ونظرت كنت كالنّاقة العشواء الخابطة لا تهتدى ، وكمن يتورّط فى الظلماء لا يعلم أين يضع قدمه ! وليس طالب الدين مَنْ كان خابطا أو خالطا ، والإمساك عن ذلك أمثل وأفضل .

***

الأصْلُ :

فَتَفَهَّمْ يَا بُنَىَّ وَصِيَّتِى ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَالِكَ الْمَوْتِ هُوَ مَالِكُ الْحَيَاةِ ، وَأَنَّ الْخَالِقَ هُوَ الْمُمِيتُ ، وَأَنَّ الْمُفْنِىَ هُوَ الْمُعِيدُ ، وَأَنَّ الْمُبْتَلِىَ هُوَ الْمُعَافِى ، وَأَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ لِتَسْتَقِرَّ إِلَّا عَلَى مَا جَعَلَهَا اللهُ عَلَيْهِ مِنَ النَّعْمَاءِ وَالِابْتِلَاءِ وَالْجَزَاءِ فِى الْمَعَادِ ، أَوْ مَا شَاءَ مِمَّا لَا تَعْلَمُ ، فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَىْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَاحْمِلْهُ عَلَى جَهَالَتِكَ ، فَإِنَّكَ أَوَّلُ مَا خُلِقْتَ بِهِ جَاهِلًا ثُمَّ عُلِّمْتَ ، وَمَا أَكْثَرَ مَا تَجْهَلُ مِنَ الْأَمْرِ ، وَيَتَحَيَّرُ فِيهِ رَأْيُكَ ، وَيَضِلُّ فِيهِ بَصَرُكَ ، ثُمَّ تُبْصِرُهُ بَعْدَ ذَلِكَ !

***

الشَّرْحُ :

قد تعلّق بهذه اللفظة وهو قوله : « أو ماشاء ممّا لا تعلم » ، قوم من التناسخيّة ؛ وقالوا: المعنىّ بها الجزاء فى الهياكل التى تنتقل النفوس إليها . وليس ماقالوه بظاهر ، ويجوز أن يريد عليه السلام أن الله تعالى قد يجازى المذنب فى الدّنيا بنوع من العقوبة ، كالأسقام والفقر وغيرهما، والعقاب وإن كان [مفعولا][2] على وجه الاستحقاق والإهانة فيجوز لمستحقه وهو البارى

(١) من « د » . (٢) من د .

أن يقتصر منه على الإيلام فقط ، لأنّ الجميع حقّه ، فله أن يستوفى البعض ويسقط البعض ، وقد روى « أو بما شاء » بالباء الزائدة ، « وروى بما لا يعلم » . وأما[1] الثواب فلا يجوز أن يجازى به المحسن فى الدّنيا ، لأنه على صفة لا يمكن أن تجامع[2] التكليف ، فيحمل لفظ الجزاء على جزاء العقاب خاصة .

ثم أعاد عليه السلام وصيته الأولى ، فقال : وإن أشكل عليك شىء من أمر القضاء والقدر ، وهو كون الكافر مخصوصا بالنعماء والمؤمن مخصوصا بضرب من الابتلاء ، وكون الجزاء قد يكون فى المعاد ، وقد يكون فى غير المعاد ، فلا تقدحنّ جهالتك به فى سكون قلبك إلى ما عرفتك جملته ، وهو أنّ الله تعالى هو المحيي المميت ، المفنى المعيد ، المبتلى المعافى ، وأنّ الدنيا بنيت على الابتلاء والإنعام ، وأنهما لمصالح وأمور يستأثر الله تعالى بعلمها ، وأنه يجازى عباده إما فى الآخرة أو غير الآخرة ، على حسب ما يريده ويختاره .

ثم قال له : إنّما خلقت فى مبدأ خلقتك جاهلا ، فلا تطلبن نفسك غاية من العلم لا وصول لها إليها ، أو لها إليها وصول بعد أمور صعبة ، ومتاعب شديد ، فَمَنْ خلق جاهلا حقيق أن يكون جهله مدّة عمره أكثر من علمه استصحابا للأصل .

ثم أراد أن يؤنسه بكلمة استدرك بها إيحاشه ، فقال له : وعساك إذا جهلت شيئا من ذلك أن تعلمه فيما بعد ، فما أكثر ما تجهل من الأمور وتتحيّر فيه ، ثم تبصره وتعرفه ! وهذا من الطّبّ[3] اللطيف ، والرُّقَى الناجعة ، والسِّحْرَ الحلال .

* * *

---

(١) ا : « فأما » . (٢) ب : « يجتمع » ، وما أثبته من ا .

(٣) الطب : المعالجة .

الأصل :

فَاعْتَصِمْ بِالَّذِي خَلَقَكَ وَرَزَقَكَ وَسَوَّاكَ، فَلْيَكُنْ لَهُ تَعَبُّدُكَ ، وَإِلَيْهِ رَغْبَتُكَ، وَمِنْهُ شَفَقَتُكَ .

واعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَدًا لَمْ يُنْبِئْ عَنِ اللهِ سُبْحَانَهُ كَمَا أَنْبَأَ عَلَيْهِ نَبِيُّنَا صلى اللهُ عليه وسلّم؛ فَارْضَ بِهِ رَائِدًا ، وَإِلَى النَّجَاةِ قَائِدًا ، فَإِنِّي لَمْ آلُكَ نَصِيحَةً ، وَإِنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ فِي النَّظَرِ لِنَفْسِكَ ، وَإِنِ اجْتَهَدْتَ مَبْلَغَ نَظَرِي لَكَ .

* * *

الشرح :

عاد إلى أمره باتّباع الرسول صلى الله عايه وآله ، وأن يعتمد على السمع وما وردت به الشريعة ونطق به الكتاب ، وقال له : إنّ أحداً لم يخبر عن الله تعالى كما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وآله ؛ وصدق عليه السلام ! فإنّ التوراة والإنجيل وغيرهما من كتب أنبياء بنى إسرائيل لم تتضمّن من الأمور الإلٰهية ماتضمنه القرآن ، وخصوصا فى أمر المعاد؛ فإنه فى أحد الكتابين مسكوت عنه ، وفى الآخر مذكور ذكرا مضطربا ، والذى كشف هذا القناع فى هذا المعنى ، وصرّح بالأمر هو القرآن . ثم ذكر له أنه أنصحُ له من كلّ أحد ؛ وأنه ليس يبلغ وإن اجتهد فى النظر لنفسه ما يبلغه هو عليه السلام له ، لشدة حبّه لهوإيثاره مصلحته . وقوله : «لم آلك نصحا» لم أقصّر فى نصحك، ألى الرجل فى كذايألو، أى قصّر فهو آلٍ والفعل لازم ، ولكنه حذف اللام فوصل الفعل إلى الضمير فنسبه ، وكان أصله : لا آلو لك نصحا ونصحا ، منصوب على التمييز ، وليس كما قاله الراوندى إنّ انتصابه على أنه مفعول ثان ، فإنه إلى مفعول واحد لا يتعدّى ، فكيف إلى اثنين !

ويقول هذه امرأة آلية أى مقصّرة وجمعها أوالٍ ، وفى المثل : « إلّا حظيّة فلا أليّة » ، أصله فى المرأة تصلَف عنـد بعلها ، فتوصى حيث فاتها الحظوة ألّا تألوه فى التودّد إليه والتحبّب إلى قلبه .

قوله : « ومنه شفقتك » ، أى خوفك .

ورائد : أصله الرجل يتقدّم القوم فيرتاد بهم المرعى .

***

الأصْـلُ :

واعْلَمْ يا بُنَىَّ أنَّهُ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ لَأَتَتْكَ رُسُلُهُ ، وَلَرَأَيْتَ آثارَ مُلْـكِهِ وَسُلْطانِهِ ، ولعَرَفْتَ أفْعالَهُ وصِفاتِهِ ، وَلَـكِنَّهُ إلـهٌ وَاحِدٌ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ ، لَا يُضَادُّهُ فِي مُلْـكِهِ أحَدٌ ، ولَا يَزُولُ أبَدًا ولَمْ يَزَلْ ، أَوَّلٌ قَبْـلَ الْأَشْياءِ بَلَا أَوَّلِيَّةٍ ، وَآخِرٌ بَعْدَ الْأشْياءِ بِلَا نِهايَةٍ ، عَظُمَ أَنْ تُثْبَتَ رُبُوبِيَّتُهُ بِإحَاطَةِ قَلْبٍ أَوْ بَصَرٍ .

فَإذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ فَافْعَـلْ كَمَا يَنْبَغِى لِمِثْلِكَ أَنْ يَفْعَلَهُ فِي صِغَرِ خَطَرِهِ ، وَقِلَّةِ مَقْدِرَتِهِ ، وكَثْرَةِ عَجْزِهِ ، وَعَظِيمِ حَاجَتِهِ إِلَى رَبِّـهِ ، فِي طَلَبِ طَاعَتِهِ ، وَالرَّهْبَةِ مِنْ عُقُوبَتِهِ ، وَالْخَشْيَةِ مِنْ عُقُوبَتِهِ ، وَالشَّفَقَةِ مِنْ سُخْطِهِ ، فَإنَّهُ لَمْ يَأْمُرْكَ إلَّا بِحَسَنٍ ، وَلَمْ يَنْهَكَ إلَّا عَنْ قَبِيحٍ .

***

الشّـرْحُ :

يمـكن أن يستدلّ بهذا الـكلام على نفى الثانى من وجهين :

أحدها أنّه لو كان فى الوجود ثانٍ للبارئ تعالى لمـا كان القول بالوحدانيّة حقّا ، بل كان الحقّ هو القول بالتثنية ، ومحال ألا يكون ذلك الثانى حكيما ، ولو كان الحقّ هو

إثبات ثانٍ حَكِيم لوجب أن يبعث رسولا يدعُو المكلّفين إلى التثنية ، لأنّ الأنبياء كلّهم دعوا إلى التّوحيد، لكن التوحيد على هذا الفرض ضلالٌ ، فيجب على الثانى الحكيم أن يبعث من ينبّه المكلّفين على ذلك الضلال ويرشدهم إلى الحق وهو إثبات الثانى ، وإلا كان منسوبا فى إهمال ذلك إلى السّفه واستفساد المكلّفين ، وذلك لا يجوز ؛ ولكنا ما أتانا رسول يدعو إلى إثبات ثانٍ فى الإلهيّة فبطل كون القول بالتوحيد ضلالاً ، وإذا لم يكن ضلالا كان حقا ؛ فنقيضه وهو القول بإثبات الثانى باطل .

الوجه الثانى : أنه لو كان فى الوجود ثانٍ للقديم تعالى لوجب أن يكون لنا طريقٌ إلى إثباته ، إمّا من مجرد أفعاله ، أو من صفات أفعاله ، أو من صفات نفسه ، أولا من هذا ولا من هذا ، فمن التوقيف .

وهذه هى الأقسام التى ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام؛ لأنّ قوله : «أتتك رسله» هو التوقيف، وقوله : « ولرأيت آثار ملكه وسلطانه » ، هى صفات أفعاله ، وقوله : « ولعرفت أفعاله وصفاته » هما القسمان الآخران .

أما إثبات الثانى من مجرّد الفعل فباطل ؛ لأن الفعل إنما يدلّ على فاعل ولا يدلّ على التعدّد ، وأما صفات أفعاله وهى كون أفعاله محكمة متقنة ، فإن الإحكام الذى نشاهده إنّما يدل على عالم ولا يدلّ على التعدّد ، وأما صفات ذات البارئ فالعلم بها فرع على العلم بذاته ، فلو أثبتنا ذاته بها لزم الدور .

وأما التوقيف فلم يأتنا رسول ذو معجزة صحيحة يدعونا إلى الثانى ؛ وإذا بطلت الأقسام كلّها ، وقد ثبت أن مالا طريق إلى إثباته لا يجوز إثباته بطل القول بإثبات الثانى .

ثم قال : « لا يضادّه فى مُلْكه أحد » ليس يريد بالضدّ ما يريده المتكلّمون من نفى ذات هى معاكسة لذات البارئ تعالى فى صفاتها ، كمضادّة السواد للبياض ، بل مراده نفى الثانى لا غير ، فإنّ نفى الضدّ بحث آخر لا دخول له بين هذا الكلام .

ثم ذكر له أنّ البارئ تعالى قديم سابق للأشياء ، لا سبْقاً له حدّ محدود ، وأول معيّن ، بل لا أوّل له مطلقا .

ثم قال : وهو مع هذا آخر الأشياء ، آخرية مطلقة ليس تنتهى إلى غاية معينة .

ثم ذكر أنّ له ربوبيّة جلّت عن أن تحيط بها الأبصار والعقول .

وقد سبق منّا خوض فى هذا المعنى ، وذكرنا من نظمنا فى هذا النّمط أشياء لطيفة ، ونحن نذكر ها هنا من نظمنا أيضا فى هذا المعنى ، وفى فنّنا الّذى اشتهرنا به ، وهو المناجاة والمخاطبة على طريقة أرباب الطريقة ما لم نذكره هناك ، فمن ذاك قولى :

فَلَا واللهِ ما وَصَلَ ابنُ سبنا ولا أَغْنَى ذكاء أبى الحُسَيْنِ
ولا رَجَما بشىء بعد بحثٍ وتدقيقٍ سوَى خُفَّىْ حُنَيْنِ
لقدْ طوّفتُ أطلبكمْ ولكنْ يحولُ الوقت بينكمُ وبينِى
فهل بعد انقضاء الوقت أحظَى بوصلكمُ غداً وتقرّ عينِى !
مُنَى عِشنا بها زمناً وكانتْ نُسَوّفُنَا بصدْقٍ أو بمَيْنِ
فإنْ أَكْدَتْ فذاك ضياعُ دِينِى وإن أجْدَتْ فذاك حلول دَيْنِى(١)

ومنها :

أمولاىَ قد أحرقتَ قلبى فلا تكنْ غداً محرقا بالنّار مَنْ كان يهواكا
أتجمع لى نارَيْن : نارَ محبّةٍ ونارَ عذابٍ أنت أرحم من ذاكا !

ومنها :

قوم موسى تاهوا سنينَ كمَا قدْ جاء فى النصّ قدرها أربعونا(٢)
ولِىَ اليومَ تائهاً فى جَوَى من لا أسمّى وحُبّه خمسونا
قل لأحبابنا إلَامَ نَرُومُ الْ وَصْلَ منكمْ وأنتمُ تمنعونَا

---

(١) ا : « أجدب » .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : « وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر » (الأعراف : ١٤٢)

كم نناجيكمُ فلا ترشــدونا ونناديكمُ فلا تسمعونا !
حسبنا علمكم بأنّا مواليــكمْ وإن كنتم لنا كارهينا
فعسى تدرك السعادة أرباب الـ معاصى فيصبحوا فائزينا !

ومنها :

والله ما آسَى من الدُّنيا عَلَى مالٍ ولا ولدٍ ولا سلطانِ
بل فى صَميم القلب منّى حسرة تبقَى معى وتُلَفّ فى أكفانى
إنّى أراكَ بباطِنِى لا ظاهرِى فالحسنُ مَشغَلَةٌ عَنِ العرفانِ
يا مَنْ سهرتَ مفكّرا فى أمره خمسينَ حولًا دائمَ الجَوَلانِ
فرجعت أحمقَ من نعامة بَيْهسٍ وأضلَّ سعيا من أبى غُبْشان

ومنها :

وحقّك إن أدخلتنى النّار قلتُ لِلّـــذين بها قد كنت ممن أحبّهُ
وأفنيت عمرى فى علومٍ دقيقة وما بغيتى إلا رضاه وقربُـه
هبونى مسيئا أوْتَغ الحلم جهله وأوبقه بين البريّة ذنبُـه[1]
أما يقتضى شرع التكرّم عتقَــه أيحسن أن يُنسى هواه وحبّـهُ !
أما كان ينوى الحقّ فيما يقوله ألم تنصر التوحيد والعدل كتبُهُ !
أما ردّ زيغ ابن الخطيب وشكّه وإلحاده إذ جَلّ فى الدين خطبُهُ !
أما قلتمُ مَنْ كان فينا مجاهدا سيُكرم مثواهُ ويُعذب شربُـهُ !
ونهديه سُبْلا من هدانا جهاده ويدخلُه خيرَ المداخل كسبُهُ
فأىّ اجتهاد فوقَ ما كان صانعاً وقدأحرقت زرقَ الشياطين شهبُهُ !
وما نال قلبُ الجيش جيش محمد كما نال من أهل الضلالة قلبُـهُ

---

(١) كذا فى ا ، ب ، وفى د : « أرتع » .

فإن تصفحوا يغنم وإن تتجرّموا فتعذيبكم حُلْوُ المذاقةِ عَذْبُهُ
وآية صدق الصّبِّ أن يعذُبَ الأذى إذ كان مَنْ يهوَى عليه يَصُبُّهُ

ومنها :

إذا فكرت فيك يَحارُ عقلِى وألحق بالمجانين الكبارِ
وأصحو تارةً فيشوب ذِهْنِى ويقدح خاطرى كَشُواظِ نارِ
فيا مَنْ تاهت العقلاء فيهِ فأمسوْا كلّهم صَرْعَى عُقَارِ
ويامَنْ كاعت الأفكار عنهُ فآبت بالمتاعب والخسارِ
ويا مَنْ ليس يعلمُه نبيٌّ ولا مَلَكٌ ولا يدريه دَارِ
ويا مَنْ ليس قُدَّاماً وخَلْفاً ولا جهةَ اليمينِ ولا اليسَارِ
ولا فوقَ السماء ولا تدلَّى من الأرضينَ فى لُجَجِ البحارِ
ويامَنْ أمره من ذاك أجْلَى من ابنِ ذُكاء أو صبح النّهارِ
سألتُك باسمك المكتوم إلّا فككْتَ النفْسَ من رقِّ الإسارِ
وجُدْتَ لها بما تهوى فأنت الـعليمُ بباطنِ اللُّغزِ الضّمارِ

ومنها :

ياربّ إنّك عالمٌ بمحبّتى لك واجتهادِى
وتجرُّدى للذبّ عنْك على مُراغمة الأعادى
بالعدل والتوحيد أصدع معلناً فى كلّ نادِى
وكشفتُ زيغَ ابن الخطيب ولبْسه بين العِبادِ
ونقضت سائرَ مابنَا هُ من الضّلالة والفسادِ

وأبنت عن إغوائِهِ   فى دين أحمدَ ذِى الرَّشَادِ
وجعلتُ أوجُـه ناصريـــهِ   محمّات بالسّوَاد
وكففت مِن غُلَوائهمْ   بَعْدَ التمرّدِ والعِنَادِ
فكأنّما نُخِلَ الرما   دُ عليهمُ بَعْدَ الرَّمَادِ
وقصدت وجْهَك أبتغى   حسنَ الثوبَة فى المعـادِ
فأفِضْ على العبد الفقـ   ـير إليكمُ نـورَ السَّدَادِ
وارزقه قبـل المـوت مَعْـــرفة   المصائر والمَبَادِى
وافكك أسيرَ الحرصِ بالْـــ   لأصْفاد من أسر الصِّفاد
واغسل بصفو القرب من   أبوابكم كَدَر البعـاد
وأعضـه من حَـرّ الغليـــل   بوصلكم بَرْدَ الفـؤادِ
وارحم عيـونا فيك هـا   ميـةَ وقلْباً فيـك صادِ
يا ساطحَ الأرض المهـا   د وممسكَ السّبْع الشّدادِ

* * *

الأمثَـلُ :

يَاُبـنىّ، إنّى قَدْ أنبـأْتُـكَ عَن الدُّنْيَا وَحَـالِهَا ، وَزَوَالِهَا وَانْتِقَالِهَا ، وَأنبـأْتُـكَ عَنِ الآخِرَةِ وَمَا أُعِدَّ لِأَهْلِهَا ، وَضَرَبْتُ لَكَ فِيهِمَا الْأَمْثَالَ ، لِتَعْتَبِرَ بِهَا ، وَتَحْذُوَ عَلَيْها .

إنّمَا مَثَلُ مَنْ خَبَرَ الدُّنْيَا كَمَثَلِ قَوْمٍ سَفْرٍ ، نَبَا بِهِمْ مَنْزِلٌ جَدِيبٌ ، فَأَمُّوا مَنْزِلًا خَصِيباً ، وَجَنَاباً مَرِيعاً ، فَاحْتَمَلُوا وَعْثَاءَ الطَّرِيقِ ، وَفِرَاقَ الصَّدِيقِ ، وَخُشُونَةَ السَّفَرِ ، وَجُشُوبَةَ المَطْعَمِ ؛ لِيَأْتُوا سَعَةَ دَارِهِمْ ، وَمَنْزِلَ قَرَارِهِمْ ، فَلَيْسَ يَجِدُونَ لِشَىْءٍ مِنْ ذَلِكَ أَلَماً ، وَلَا يَرَوْنَ نَفَقَةً فِيهِ مَغْرَماً. وَلَا شَىْءَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِمَّا قَرَّبَهُمْ مِنْ مَنْزِلِهِمْ

وأَدْنَاهُمْ إِلَى مَحَلَّتِهِمْ .

وَمَثَلُ مَنِ اُغْتَرَّ بِهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ كَانُوا بِمَنْزِلٍ خَصِيبٍ، فَنَبَا بِهِمْ إِلَى مَنْزِلٍ جَدِيبٍ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهُ إِلَيْهِمْ ، وَلَا أَفْظَعُ عِنْدَهُمْ ، مِنْ مُفَارَقَةِ مَا كَانُوا فِيهِ ؛ إِلَى مَا يَهْجُمُونَ عَلَيْهِ ، وَيَصِيرُونَ إِلَيْهِ .

* * *

الشَّرْحُ :

حذا عليه يحذو ، واحتذى مثاله ، يحتذى ، أى اقتدى به . وقوم سَفْر ، بالتسكين ، أى مسافرون .

وأمُّوا : قصدوا . والمنزل الجديب : ضدّ المنزل الخصيب .

والجناب المَرِيع بفتح الميم : ذو الكلأ والعشب ، وقد مَرُع الوادى ، بالضمّ .

والجناب : الفناء . ووعْثاء الطريق : مشقّتها .

وجُشوبة المطعَم : غِلَظه ، طعام جَشِيب ومَجْشوب ، ويقال إنّه الذى لا أُدْمَ (١) معه .

يقول : مثل من عرف الدنيا وعمل فيها للآخرة، كمن سافر من منزل جدب إلى منزل خصيب ، فلقى فى طريقه مشقّة ؛ فإنه لا يكترث بذلك فى جنب ما يطلب ؛ وبالعكس مَن عمل للدنيا وأهمل أمر الآخرة ، فإنه كمن يسافر إلى منزل ضَنْك ويهجر منزلا رحيبا طيبا ، وهذا من قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « الدّنيا سِجْن المؤمن وجنة الكافر » .

* * *

(١) الأدم : ما يؤتدم به .

الأصل :

يا بُنَيّ، اجْعَلْ نَفسَكَ ميزانًا فيما بَيْنَكَ وبَيْنَ غَيْرِكَ، فأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ ما تُحِبُّ لنَفْسِكَ، واكْرَهْ لَهُ ما تَكْرَهُ لَهَا ، ولا تَظْلِمْ كَما لا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ ، وأَحْسِنْ كَما تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ ، واسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ ما تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ ، وارْضَ مِنَ النَّاسِ بِما تَرْضاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ ، ولا تَقُلْ ما لا تَعْلَمُ وإنْ قَلَّ ما تَعْلَمُ ، ولا تَقُلْ ما لا تُحِبُّ أَنْ يُقالَ لَكَ .

واعْلَمْ أَنَّ الإعْجابَ ضِدُّ الصَّوابِ ، وآفَةُ الأَلْبابِ ؛ فاسْعَ فى كَدْحِكَ ، ولا تَكُنْ خازِنًا لغَيْرِكَ ، وإذَا أنْتَ هُدِيتَ لِقَصْدِكَ ، فَكُنْ أَخْشَعَ ما تَكُونُ لِرَبِّكَ .

* * *

الشرح :

جاء فى الحديث المرفوع : « لا يكمل إيمان عبدٍ حتى يحبّ لأخيه ما يحب لنفسه ، ويكره لأخيه ما يكره لنفسه » . وقال بعض الأسارى لبعض الملوك : افعل معى ما تحبّ أن يفعل الله معك ؛ فأطلقَه ؛ وهــذا هو معنى قوله عليه السلام : « ولا تظلم كما لا تحب أن تُظلم » .

وقوله : « وأحسن » من قول الله تعالى : ﴿ وَأَحْسِنْ كما أَحْسَنَ اللهُ إليك ﴾ (١) .

وقوله : « واستقبح من نفسك » ، سئل الأحنف عن المروءة ، فقــال : أن تستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك . وروى : « وارض من الناس لك » وهى أحسن .

وأما العُجْب وما ورد فى ذمه فقد قدمنا فيه قولا مقنعا .

---

(١) سورة القصص ٧٧ .

قوله عليه السلام : « واسْعَ فى كدحك » أى أذهب ما اكتسبت بالإنفاق ؛ والكدح هاهنا : هو المال الّذى كدح فى حصوله ، والسعى فيه إنفاقه ؛ ، وهذه كلمة فصيحة، وقد تقدّم نظائر قوله : « ولا تكن خازنا لغيرك » .

ثم أمره أن يكون أخشع ما يكون لله إذ هَدَاه لرشده ، وذلك لأنّ هدايته إياه إلى رشده نعمة عظيمة منه ، فوجب أن يقابل بالخشوع لأنه ضرب من الشكر .

***

الأصْلُ :

وَاعْلَمْ أنَّ أمامَكَ طَرِيقاً ذا مَسافَةٍ بَعِيدَةٍ ، وَمَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ ، وَأَنَّهُ لَا غِنًى بكَ فِيه عَنْ حُسْنِ الارْتِيادِ ، وقَدْرِ بلاغكَ مِنَ الزَّادِ ، مَعَ خِفَّةِ الظَّهْرِ ، فَلَا تَحْمِلَنَّ عَلَى ظَهْرِكَ فَوْقَ طَاقَتِكَ ، فيَكُونَ ثِقْلُ ذَلِكَ وَبالًا عَلَيْكَ ، وإذا وجَدْتَ مِنْ أَهْلِ الْفاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فيُوَافِيكَ بِهِ غَدًا حَيْثُ تَحْتاجُ إِلَيْهِ فَاغْتَنِمْهُ وحَمِّلْهُ إِيَّاهُ ، وأَكْثِرْ مِنْ تَزْوِيدِهِ وَأَنْتَ قادِرٌ عَلَيْهِ ، فَلَعَلَّكَ تَطْلُبُهُ فلا تَجِدُهُ .

واغْتَنِمْ مَنِ اسْتَقْرَضَكَ فى حالِ غِناكَ ، لِيَجْعَلَ قَضاءَهُ لَكَ فى يَوْمِ عُسْرَتِكَ .

واعْلَمْ أنَّ أمامكَ عَقَبَةً كَئُودًا ، الْمُخِفُّ فيها أحْسَنُ حالًا مِنَ الْمُثْقِلِ ، والْمُبطِئُ عَلَيْهَا أَقْبَحُ أمْرًا مِنَ الْمُسْرِعِ ، وأنَّ مَهْبِطَهَا بِكَ لَا مَحالَةَ ؛ إمَّا عَلَى جَنَّةٍ أَوْ عَلَى نارٍ ، فارْتَدْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ نُزُولِكَ ، وَوَطِّئِ الْمَنْزِلَ قَبْلَ حُلُولِكَ ، فَلَيْسَ بَعْدَ الْمَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ ، ولَا إِلَى الدُّنْيا مُنْصَرَفٌ .

***

الشرح :

أمره فى هذا الفصل بإنفاق المال والصَّدَقة والمعروف . فقال : إنّ بين يديك طريقا بعيد المسافة ، شديد المشقّة ، ومَنْ سلك طريقا فلا غنى له عن أن يرتاد لنفسه ، ويتزوّد من الزاد قدر ما يبلّغه الغاية ، وأن يكون خفيف الظهر فى سفره ذلك ؛ فإياك أن تحمل من المال ما يثقلك ؛ ويكون وبالًا عليك ؛ وإذا وجدت من الفقراء والمساكين مَنْ يحمل ذلك الثّقل عنك فيوافيك به غدًا وقت الحاجة فحمّله إياه ، فلعلك تطلب مالك فلا تجده . جاء فى الحديث المرفوع : « خمس مَن أتى اللهَ بهنّ أو بواحدة منهنّ أوجب له الجنّة : مَنْ سقى هامةً صادية ، أو أطعم كبداً هافية ، أو كسا جلدة عارية ، أو حمل قدما حافية ، أو أعتق رقبة عانية » .

قيل لحاتم الأصمّ : لو قرأتَ لنا شيئا من القرآن ! قال : نعم ؛ فاندفع فقرأ : ﴿الٓمٓ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ يكنزون[1] ، فقالوا أيها الشيخ ما هكذا أُنْزِلَ ! قال : صدقتم ؛ ولكن هكذا أنتم !

* * *

الأصل :

وَاعْلَمْ أَنَّ الَّذِى بِيَدِهِ خَزَائِنُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ أَذِنَ لَكَ فِى الدُّعَاءِ ، وَتَكَفَّلَ لَكَ بِالْإِجَابَةِ ، وَأَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْطِيَكَ ، وَتَسْتَرْحِمَهُ لِيَرْحَمَكَ ، وَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَهُ وَبَيْنَكَ مَنْ يَحْجُبُكَ عَنْهُ ، وَلَمْ يُلْجِئْكَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْهِ ،

(١) سورة البقرة ١ — ٣ ، والقراءة : « ومما رزقناهم ينفقون » .

وَلَمْ يَمْنَعْكَ إِنْ أَسَأْتَ مِنَ التَّوْبَةِ ، وَلَمْ يُعَاجِلْكَ بِالنِّقْمَةِ ، وَلَمْ يَفْضَحْكَ حَيْثُ تَعَرَّضْتَ لِلْفَضِيحَةِ ، وَلَمْ يُشَدِّدْ عَلَيْكَ فِي قَبُولِ الْإِنَابَةِ ، وَلَمْ يُنَاقِشْكَ بِالْجَرِيمَةِ ، وَلَمْ يُؤْيِسْكَ مِنَ الرَّحْمَةِ ، بَلْ جَعَلَ نُزُوعَكَ عَنِ الذَّنْبِ حَسَنَةً ، وَحَسَبَ سَيِّئَتَكَ وَاحِدَةً ، وَحَسَبَ حَسَنَتَكَ عَشْرًا . وَفَتَحَ لَكَ بَابَ الْمَتَابِ ، وَبَابَ الِاسْتِعْتَابِ ؛ فَإِذَا نَادَيْتَهُ سَمِعَ نِدَاكَ ، وَإِذَا نَاجَيْتَهُ عَلِمَ نَجْوَاكَ ، فَأَفْضَيْتَ إِلَيْهِ بِحَاجَتِكَ ، وَأَبْثَثْتَهُ ذَاتَ نَفْسِكَ ، وَشَكَوْتَ إِلَيْهِ هُمُومَكَ ، وَاسْتَكْشَفْتَهُ كُرُوبَكَ ، وَاسْتَعَنْتَهُ عَلَى أُمُورِكَ ، وَسَأَلْتَهُ مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِهِ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَى إِعْطَائِهِ غَيْرُهُ ، مِنْ زِيَادَةِ الْأَعْمَارِ ، وَصِحَّةِ الْأَبْدَانِ ، وَسَعَةِ الْأَرْزَاقِ .

* * *

ثُمَّ جَعَلَ فِي يَدَيْكَ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِهِ ، بِمَا أَذِنَ لَكَ فِيهِ مِنْ مَسْأَلَتِهِ ؛ فَمَتَى شِئْتَ اسْتَفْتَحْتَ بِالدُّعَاءِ أَبْوَابَ نِعْمَتِهِ ، وَاسْتَمْطَرْتَ شَآبِيبَ رَحْمَتِهِ ، فَلَا يُقْنِطَنَّكَ إِبْطَاءُ إِجَابَتِهِ ، فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَى قَدْرِ النِّيَّةِ ، وَرُبَّمَا أُخِّرَتْ عَنْكَ الْإِجَابَةُ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَعْظَمَ لِأَجْرِ السَّائِلِ ، وَأَجْزَلَ لِعَطَاءِ الْآمِلِ . وَرُبَّمَا سَأَلْتَ الشَّيْءَ فَلَا تُعْطَاهُ ، وَأُوتِيتَ خَيْرًا مِنْهُ عَاجِلًا أَوْ آجِلًا ، أَوْ صُرِفَ عَنْكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ ، فَلَرُبَّ أَمْرٍ قَدْ طَلَبْتَهُ فِيهِ هَلَاكُ دِينِكَ لَوْ أُوتِيتَهُ ، فَلْتَكُنْ مَسْأَلَتُكَ فِيمَا يَبْقَى لَكَ جَمَالُهُ ، وَيُنْفَى عَنْكَ وَبَالُهُ ؛ فَالْمَالُ لَا يَبْقَى لَكَ ، وَلَا تَبْقَى لَهُ .

* * *

الشَّرْحُ :

قد تقدم القولُ فى الدُّعاء .

قوله : « بل جعل نزوعك عن الذنب حسنة » ، هـذا متَّفق عليه بين أصحابنا ، وهو أنّ تارك القبيح لأنّه قبيح يستحقّ الثواب .

قوله : « حسب سيئتك واحدة وحسب حسنتك عشرا » ؛ هـــذا إشارة إلى قوله تعـالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ﴾[١] .

قوله : « وأبثثته ذات نفسك »، أى حاجتك .

ثم ذكر له وجوها فى سبب إبطاء الإجابة :

منها أنّ ذلك أمر عائد إلى النيّة ، فلعلّها لم تكن خالصة .

ومنها أنه ربما أخرت ليكون أعظم لأجر السائل ؛ لأنّ الثواب على قدر المشقة .

ومنها أنّه ربما أخّرت ليعطى السائل خيراً مما سأل ، إمّا عاجلا أو آجلا ؛ أو فى الحالين .

ومنها أنه ربّما صرف ذلك عن السائل ، لأنّ فى إعطائه إيّاه مفسدة فى الدين .

قوله : « فالمال لا يبقى لك ولا تبقى له » ، لفظ شريف فصيح ، ومعنى صادق محقّق فيه عظة بالغة ؛ وقال أبو الطيب :

أَيْنَ الجبـابرةُ الأكاسِرَة الأُلَى ... كنزُوا الكُنوز فما بَقِينَ وَلَا بَقُوا[٢]

ويروى : « من يحجبه عنك » .

وروى : « حيث الفضيحة » أى حيث الفضيحة موجودة منك .

* * *

واعلم أنّ فى قوله : « قد أذن لك فى الدعاء ، وتكفّل لك بالإجابة » إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[٣] .

وفى قوله : « وأمر أن تسأله ليعطيك » إشارة إلى قوله : ﴿ واسْأَلوا اللهَ مِنْ فضله ﴾[٤]

---

(١) سورة الأنعام ١٦٠ .   (٢) ديوانه ٢ : ٣٣٤ .
(٣) سورة غافر ٦٠ .   (٤) سورة النساء ٣٢ .

وفى قوله : « وتسترحمه ليرحمك » إشارة إلى قوله : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾(١) .

وفى قوله : « ولم يمنعك إن أسأت من التوبة » إشارة إلى قوله : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَـٰئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾(٢) .

* * *

الأصل :

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّكَ إِنَّمَا خُلِقْتَ لِلآخِرَةِ لَا لِلدُّنْيَا ، وَلِلْفَنَاءِ لَا لِلْبَقَاءِ ، وَلِلْمَوْتِ لَا لِلْحَيَاةِ ؛ وَأَنَّكَ فِي مَنْزِلِ قُلْعَةٍ ، وَدَارِ بُلْغَةٍ ، وَطَرِيقٍ إِلَى الْآخِرَةِ ؛ وَأَنَّكَ طَرِيدُ الْمَوْتِ الَّذِي لَا يَنْجُو هَارِبُهُ ، وَلَا يَفُوتُهُ طَالِبُهُ ، وَلَا بُدَّ أَنَّهُ مُدْرِكُهُ ، فَكُنْ مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ أَنْ يُدْرِكَكَ وَأَنْتَ عَلَى حَالٍ سَيِّئَةٍ ؛ قَدْ كُنْتَ تُحَدِّثُ نَفْسَكَ مِنْهَا بِالتَّوْبَةِ ، فَيَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ذَلِكَ ، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ أَهْلَكْتَ نَفْسَكَ .

يَا بُنَيَّ ، أَكْثِرْ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ وَذِكْرِ مَا تَهْجُمُ عَلَيْهِ ، وَتُفْضِي بَعْدَ الْمَوْتِ إِلَيْهِ ، حَتَّى يَأْتِيَكَ وَقَدْ أَخَذْتَ مِنْهُ حِذْرَكَ ، وَشَدَدْتَ لَهُ أَزْرَكَ ، وَلَا يَأْتِيَكَ بَغْتَةً فَيَبْهَرَكَ .

* * *

وَإِيَّاكَ أَنْ تَغْتَرَّ بِمَا تَرَى مِنْ إِخْلَادِ أَهْلِ الدُّنْيَا إِلَيْهَا ، وَتَكَالُبِهِمْ عَلَيْهَا ، فَقَدْ نَبَّأَكَ اللهُ عَنْهَا ، وَنَعَتَتْ لَكَ نَفْسَهَا ، وَتَكَشَّفَتْ لَكَ عَنْ مَسَاوِيهَا ، فَإِنَّمَا أَهْلُهَا كِلَابٌ عَاوِيَةٌ ، وَسِبَاعٌ ضَارِيَةٌ ، يَهِرُّ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ ، وَيَأْكُلُ عَزِيزُهَا ذَلِيلَهَا ، وَيَقْهَرُ كَبِيرُهَا صَغِيرَهَا .

---

(١) سورة الأنفال ٣٣ .   (٢) سورة الفرقان ٧٠ .

نَعَمٌ مُعَقَّلَةٌ ، وَأُخْرَى مُهْمَلَةٌ ، قَدْ أَضَلَّتْ عُقُولَهَا ، وَرَكِبَتْ مَجْهُولَهَا .

سُرُوحٌ عَاهَةٍ بِوَادٍ وَعْثٍ ، لَيْسَ لَهَا رَاعٍ يُقِيمُهَا ، وَلَا مُسِيمٌ يُسِيمُهَا . سَلَكَتْ بِهِمُ الدُّنْيَا طَرِيقَ الْعَمَى ، وَأَخَذَتْ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْ مَنَارِ الْهُدَى ، فَتَاهُوا فِي حَيْرَتِهَا ، وَغَرِقُوا فِي نِعْمَتِهَا ، وَاتَّخَذُوهَا رَبًّا فَلَعِبَتْ بِهِمْ وَلَعِبُوا بِهَا ، وَنَسُوا مَا وَرَاءَهَا .

رُوَيْدًا يُسْفِرُ الظَّلَامُ ، كَأَنْ قَدْ وَرَدَتِ الْأَظْعَانُ ! يُوشِكُ مَنْ أَسْرَعَ أَنْ يَلْحَقَ !

* * *

الشَّرْحُ :

يقول : هذا منزل قُلْعة ؛ بضم القاف وسكون اللام ؛ أى ليس بمستوطَن ؛ ويقال : هذا مجلس قُلْعة ، إذا كان صاحبه يحتاج إلى أن يقوم مرّة بعد مرّة . ويقال أيضا : هم على قُلْعة ، أى على رِحْلة ، والقُلْعة أيضا : هو المال العارية ، وفى الحديث : « بئس المال القُلْعة » ؛ وكلّه يرجع إلى معنًى واحد .

قوله : « ودار بلْغة » ، والبلغة : ما يتبلّغ به من العيش .

قوله : « سروح عاهة » ، والسُّروح : جمع سَرْح ؛ وهو المال السارح . والعاهة : الآفة ؛ أعاه القومُ أصابت ماشيتَهم العاهة .

وواد وَعْث : لا يثبت الحافرُ والُخفّ فيه ؛ بل يغيب فيه ، ويشقّ على مَنْ يمشى فيه .

وأوعث القوم : وقعوا فى الوعْث .

ومسِيم يُسيمها : راعٍ يرعاها .

قوله : « رويدا يسفر الظلام . . . » إلى آخر الفصل ، ثلاثة أمثال محرّكة لمن عنده

استمداد . واستقرأني أبو الفرج محمد بن عباد رحمه الله وأنا يومئذ حَدَث هذه الوصيّة فقرأتها عليه من حِفْظي ، فلمّا وصلتُ إلى هـذا الموضع صاح صيحة شديدة ، وسقط ـ وكان جبّاراً قاسيَ القلب .

* * *

[أقوال حكيمة في وصف الدنيا وفناء الخلق]

واعلم أنّا قدّمنا في وصف الدنيا والفناء والموت من محاسن كلام الصالحين والحكماء ما فيه الشفاء ، ونذكر الآن أشياء أُخر .

فمن كلام الحسن البصريّ : يابنَ آدم ، إنّما أنت أيام مجموعة ، فإذا مضى يوم مضى بعضك .

عن بعض الحكماء : رحم الله أمراً لا يغرّه ما يرَى من كثرة الناس، فإنه يموت وحده، ويقبَر وحده ، ويحاسَب وحده .

وقال بعضهم : لا وجهَ لمقاساة الهموم لأجل الدنيا ولا الاعتداد بشيء من متاعها ، ولا التخلّي منها ، أمّا ترك الاهتمام لها، فمن جهة أنّه لاسبيل إلى دفع الكائن من مقدورها ؛ وأمّا ترك الاعتداد بها ؛ فإنّ مرجع كلّ أحد إلى تركها ، وأمّا ترك التخلّي عنها فإنّ الآخرة لا تدرَك إلّا بها .

ومن كلام بعض الحكماء : أفضل اختيار الإنسان ما توجّه به إلى الآخرة، وأعرض به عن الدنيا ؛ وقد تقدّمت الحجّة وأذِنّا بالرحيل ، ولنا من الدنيا على الدّنيا دليل ؛ وإنّما أحدنا في مدّة بقائه صريع لمرض ، أو مكتئب بهمّ ، أو مطروق بمصيبة ، أو مترقّب لخوف ، لا يأمن المرء أصناف لذّته من المطعوم والمشروب أن يكون موته فيه ، ولا يأمن مملوكه

وجاريته أن يقتلاه بحديد أو سمّ ؛ وهو مع ذلك عاجز عن استدامة سلامة عقله من زوال ، وسمعه من صَمَم ، وبصره من عمًى ، ولسانه من خَرَس ، وسائر جوارحه من زَمانة ، ونفسه من تَلَف ، وماله من بوارٍ ، وحبيبه من فراق ؛ وكلّ ذلك يشهد شهادة قطعيّة أنه فقير إلى ربّه ، ذليل فى قبضته ، محتاج إليه . لا يزال المرء بخير ما حاسب نفسه ، وعمر آخرته بتخريب دنياه ؛ وإذا اعترضته بحار المكاره ، جعل معابرها الصبر والتأسّى ، ولم يغترّ بتتابع النّعم ، وإبطاء حلول النقم ، وأدام صحبة التقى ؛ وفَطَم النفس عن الهوى ؛ فإنما حياته كبضاعة ينفق من رأس المال منها ؛ ولا يمكنه أن يزيد فيها ؛ ومِثْل ذلك يوشِك فناؤه وسرعة زواله .

وقال أبو العتاهية فى ذِكْرِ الموت :

ستُباشر التَّرباء خدّك ... وسيضحك الباكون بعدك[1]
ولينزلنّ بك البِلى ... وليخلفنّ الموتُ عهدَكْ
وليفنينّك مثل ما[2] ... أفنى أباكَ بِلًى وجدَّكْ[3]
لو قد رحلتَ عن القُصو ... روطيبها وسكَنْتَ لَحدَكْ[4]
لم تنتفع إلّا بفعـ ... ـل صالحٍ قد كان عندَكْ

---

(١) ديوانه ٨٦ ، ٨٧ ، والترباء : التراب ، ورواية الديوان :

* لَتباشِرُ الأجداث وَحْدَكَ *

(٢) الديوان : « بالدى » .

(٣) الديوان : « به وجدّك » .

(٤) الديوان :

لوْ قدْ ظَعَنْتَ عن البيو ... تِ ودَوْحِها وسكَنْتَ لَحْدَكْ

وترى الّذين قسمت ما لك بينهم حصصا وكدّكْ[1]
يتلذّذون بما جمعْـ ـتَ لهمْ ولا يجدون فقْدكْ

* * *

الأصلُ :

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ مَنْ كَانَتْ مَطِيَّتُهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ وَإِنْ كَانَ وَاقِفاً ، وَيَقْطَعُ الْمَسَافَةَ وَإِنْ كَانَ مُقِيماً وَادِعاً .

وَاعْلَمْ يَقِيناً أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ أَمَلَكَ ، وَلَنْ تَعْدُوَ أَجَلَكَ ، وَأَنَّكَ فِي سَبِيلِ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ .

فَخَفِّضْ فِي الطَّلَبِ ، وَأَجْمِلْ فِي الْمُكْتَسَبِ ، فَإِنَّهُ رُبَّ طَلَبٍ قَدْ جَرَّ إِلَى حَرَبٍ ؛ وَلَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ بِمَرْزُوقٍ ، وَلَا كُلُّ مُجْمِلٍ بِمَحْرُومٍ .

وَأَكْرِمْ نَفْسَكَ عَنْ كُلِّ دَنِيَّةٍ وَإِنْ سَاقَتْكَ إِلَى الرَّغَائِبِ ، فَإِنَّكَ لَنْ تَعْتَاضَ بِمَا تَبْذُلُ مِنْ نَفْسِكَ عِوَضاً . وَلَا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللهُ حُرًّا . وَمَا خَيْرُ خَيْرٍ لَا يُنَالُ[2] إِلَّا بِشَرٍّ ، وَيُسْرٍ لَا يُنَالُ إِلَّا بِعُسْرٍ .

وَإِيَّاكَ أَنْ تُوجِفَ بِكَ مَطَايَا الطَّمَعِ ، فَتُورِدَكَ مَنَاهِلَ الْهَلَكَةِ . وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَلَّا يَكُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ ذُو نِعْمَةٍ فَافْعَلْ ، فَإِنَّكَ مُدْرِكٌ قَسْمَكَ ، وَآخِذٌ سَهْمَكَ ، وَإِنَّ الْيَسِيرَ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ أَكْرَمُ وَأَعْظَمُ مِنَ الْكَثِيرِ مِنْ خَلْقِهِ وَإِنْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُ .

---

(١) الديوان :

وكأنّ جمعكَ قد غدا ما بينهم حصصاً وكدّكْ

(٢) د : « لا يوجد » .

الشَّرْحُ :

مثل الـكلمة الأولى قول بعض الحـكماء ـ وقد نسب أيضا إلى أمير المؤمنين عليه السلام: أهل الدنيا كركْبٍ يُسار بهم وهم نيام .

قوله : « نخفضنّ فى الطلب » من قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنّ روح القدس نفث فى رُوعى أنّه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فأجْمِلوا فى الطلب » .

وقال الشاعر :

ما اعتاضَ باذلُ وجههِ بسؤاله　　عِوَضاً ولو نال الغِنَى بسؤالِ
وإذا النّوال إلى السؤال قَرَنْتَه[(١)]　　رجحَ السؤالُ وخَفَّ كلُّ نوالِ

وقال آخر :

رددتُ رونق وجهِى عن صحيفتِهِ　　ردّ الصّقال بهاء الصّارِم الخذِم[(٢)]
وما أبالى وخيرُ القول أصدقه　　حقنت لى ماء وجهى أم حَقَنْتَ دمى

وقال آخر :

وإنى لأختار الزهيد على الغِنَى　　وأجزأ بالمال القَراح عن المحضِ
وأدّرِع الإملاق صبرا وقد أرى　　مكان الغِنَى كى لا أهينَ له عِرْضى

وقال أبو محمد اليزيدى فى المأمون :

أبْقَى لنا الله الإمامَ وزادَهُ　　شَرَفاً إلى الشَّرَفِ الذى أعطاهُ
والله أكرَمنا بأنّا معشر　　عُتقاء من نِعَم العباد سِوَاهُ

وقال آخر .

كيفَ النهوضُ بما أوْلَيْتَ من حَسَنٍ　　أم كيف أشكر ما طوقّت من نِعَمٍ !

---

(١) د : « وزنته » .　(٢) الخذم : القاطع .

مَلَّكتَنِى ماء وجهٍ كاد يسكُبُه   ذلّ السؤال ولم تفجع به هِممى

وقال آخر :

لا تحرِصنّ على الحطام فإنّما   يأتيك رزقُك حين يؤْذَنُ فيه
سَبَقَ القضاء بقدره وزمانه   وبأنّه يأتيك أو يأتيه

وكان يقال : ما استغنى أحدٌ بالله إلا افتقر الناس إليه .

وقال رجل فى مجلس فيه قوم من أهل العلم : لا أدرِى ما يحمل من يوقن بالقدر على الحرص على طلب الرزق ! فقال له أحد الحاضرين : يحمله القَدَر ، فسكت .

أقول : لو كنت حاضرا لقلت : لو حمله القدر لما نهاه العقلاء عن الحرص ، ولما مدحوه على العفّة والقناعة فإن عاد وقال : وأولئك ألجأهم القدر إلى المدح والذّم والأمر والنهى ؛ فقد جعل نفسه وغيره من الناس ؛ بل من جميع الحيوانات بمنزلة الجمادات التى يحرّكها غيرها ومن بلغ إلى هذا الحد لا يكلم

وقال الشاعر :

أراكَ تزيدُكَ الأيام حِرْصاً   على الدّنيا كأنّكَ لا تموتُ
فهل لك غاية إن صرت يوماً   إليها قلتَ حسبى قد رضيتُ !

أبو العتاهية :

أىّ عيش يكون أطيبَ من عَيْـ   ـشِ كفافٍ قوت بقدر البلاغ(١)
قمّرتنىَ الأيام عقلى ومالى   وشبابى وصحّتِى وفراغى(٢)

وأوصى بعض الأدباء ابنه فكتب إليه :

---

(١) ديوانة ١٦٤ ، والأغانى ٤ : ٤٠ والبلاغ : الكفاية .
(٢) الديوان والأغانى : « غبنتنى الأيام » .

كُنْ حَسَنَ الظنّ بِرَبٍّ خَلَقَكْ ... بىّ واحمــــدْهُ على ما رَزَقــكْ
واعلم بأنّ الحرص يطفى رونقَكْ ... فجانب الحرْص وحَسِّن خلقكْ
واصدق وصادق أبدا مَنْ صدقَكْ ... دارِ مُعاديك ومُقْ من وَمَقَكْ
واجعــل لأعدائك حزماً مَلقَكْ ... وجنّبَنْ حَشْوَ الـكلام منطقَكْ
هذى وَصاة والد قد عَشقَكَ ... وصاة مَنْ يقلقه ما أقلَقَكْ

* أرشدك الله لها ووفّقك *

أبو العتاهية :

أجَـلُ الغنى مِمّا يؤمِّل أسرعُ ... وأراكَ تجمعُ دائمـا لا تشبعُ[1]
قل لى لمن أصبحتَ تجمع دائباً[2] ... أَلِبَعْل عِرْسِك لا أبا لكَ تجمعُ !

وأوصى زياد ابنه عبيد الله عند موته ، فقال : لا تدنّسنّ عرضك ، ولا تبذلنّ وجهك ، ولا تخلقن جدّتك بالطلب إلى مَنْ إن ردك كان ردّه عليك عيبا ، وإن قضى حاجتك جعلها عليك مَنًّا ، واحتمِل الفقر بالتنزّه عمّا فى أيدى الناس[3] ، والزم القناعة بما قُسِم لك ، فإن سوء عمل الفقير يضع الشريف ، ويخمل الذِّكْر ، ويوجب الحرمان .

***

الأصْـلُ :

وَتَلَافِيكَ مَا فَرَطَ مِنْ صَمْتِكَ أَيْسَرُ مِنْ إِدْرَاكِكَ مَا فَاتَ مِنْ مَنْطِقِكَ ، وَحِفْظُ مَا فِى الْوِعَاءِ بِشَدِّ الْوِكَاءِ ، وَحِفْظُ مَا فِى يَدَيْكَ أَحَبُّ إِلَىَّ مِنْ طَلَبِ مَا فِى يَدَىْ غَيْرِكَ ، وَمَرَارَةُ الْيَأْسِ ، خَيْرٌ مِنَ الطَّلَبِ إِلَى النَّاسِ ، وَالْحِرْفَةُ مَعَ الْعِفَّةِ خَيْرٌ مِنَ الْغِنَى مَعَ الْفُجُورِ ، وَالْمَرْءُ أَحْفَظُ لِسِرِّهِ ، وَرُبَّ سَاعٍ فِيمَا يَضُرُّهُ !

---

(١) ديوانه ١٤٤ . (٢) الديوان : « تجمع ما » .
(٣) د « عما فى يدى غيرك » .

مَنْ أَكْثَرَ أهْجَرَ ، وَمَنْ تفَكَّرَ أَبْصَرَ .

قارِنْ أهْلَ الخَيْرِ تَكُنْ مِنْهُمْ ، وبايِنْ أَهْلَ الشَّرِّ تَبِنْ عَنْهُمْ .

بِئْسَ الطَّعامُ الحَرامُ ! وظُلْمُ الضَّعِيفِ أفْحَشُ الظُّلْمِ !

إذَا كَانَ الرِّفْقُ خُرْقاً ، كانَ الخُرْقُ رِفْقاً .

رُبَّما كانَ الدَّوَاءُ دَاءً ، والدَّاءُ دَوَاءً . ورُبَّما نَصَحَ غَيْرُ النَّاصِحِ ، وَغَشَّ المُسْتَنْصَحُ .

وَإِيَّاكَ وَالاتِّكالَ على المُنَى فإنَّها بَضائِعُ النَّوْكَى . والْعقلُ حِفْظُ التَّجارِبِ ، وَخَيْرُ ماجرَّبْتَ ما وعَظَكَ . بادِرِ الْفُرْصَةَ ، قَبْلَ أنْ تَكُونَ غُصَّةً . لَيْسَ كُلُّ طالِبٍ يُصِيبُ ، ولا كُلُّ غائِبٍ يئوب ، وَمِنَ الْفَسادِ إضاعَةُ الزَّادِ ، وَمَفْسَدَةُ المَعادِ . ولِكُلِّ أمْرٍ عاقِبَةٌ ، سَوْفَ يَأْتِيكَ ما قُدِّرَ لَكَ .

التَّاجِرُ مُخاطِرٌ ، ورُبَّ يَسِيرٍ أنْمَى مِنْ كَثِيرٍ !

***

الشَّرحُ :

هذا الكلام قد اشتمل على أمثال كثيرة حكميّة .

أوّلها قوله : « تَلافيك ما فرّط من صمتك أيسرُ من إدراكك ما فات من منطقك »، وهذا مثل قولهم : أنت قادر على أن تجعل صمتك كلاماً ، ولستَ بقادر على أن تجعل كلامك صمتا ؛ وهذا حقّ ؛ لأن الكلام يُسْمع وينقل ؛ فلا يستطاع إعادته صمتا ، والصمت عدم الكلام ، فالقادر على الكلام قادر على أن يبدّله بالكلام ، وليس الصمت بمنقول ولا مسموع فيُتعذّر استدراكه .

وثانيها قوله : « حفظ مافى يَدَيْك أحبّ إلىّ من طلب مافى أيدى غيرك » ، هـذا مثل قولهم فى المثل : البخل خير من سؤال البخيل ، وليس مراد أمير المؤمنين عليه السلام وصايته بالإمساك والبخل ، بل نهيه عن التفريط والتبذير ، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً ﴾[1]؛ وأحمق النـاس مَنْ أضاع ماله اتـكالا على مال الناس ، وظانًّا أنه يقدر على الاستخلاف ، قال الشاعر :

إذا حَدّثتك النفسُ أنّك قادرٌ ... على ما حوتْ أيدى الرجال فـكذّبِ

وثالثها قوله : « مرارة اليأس خير من الطلب إلى النـاس » ، من هذا أخذ الشاعر قولـه :

وإن كان طعم اليـأس مُرًّا فإنّهُ ... ألذّ وأحْـلَى من سؤال الأراذِلِ

وقال البُحترى :

واليأس إحدى الراحتين ولنْ ترَى ... تَعَبًا كظنّ الخائب المغرور[2]

ورابعها قوله : « الحِرفة مع العفة خير من الغنى مع الفجور»، والحِرْفة بالـكسر مثل الحُرف بالضم ، وهو نقصان الحظ وعدم المال . ومنه قوله « رجل محارَف » ، بفتح الراء ، يقول : لأن يكون المرء هكذا وهو عفيف الفرْج واليد ، خـير من الغنى مع الفجور ؛ وذلك لأن ألم الحِرفة مع العفة ومشقّتها إنمـا هى فى أيام قليلة وهى أيام العمر ، ولذّة الغنى إذا كان مع الفجور ، فنى مثل تلك الأيام يكون ؛ ولـكن يستعقب عذابا طويلا ، فالحال الأولى خيرٌ لا محالة . وأيضا فنى الدنيا خـير أيضا للذكر الجميل فيها ، والذكر القبيح فى الثانية ، وللمحافظة على المروءة فى الأولى وسقوط المروءة فى الثانية .

---

(١) سورة الإسراء ٢٩ . (٢) ديوانه .

وخامسها قوله : « المرء أحفظ لسرّه » أى الأوْلى ألّا تبوح بسرّك إلى أحـد ، فأنت أحفظ له من غيرك ؛ فإن أذعتـه فانتشر فلا تَلُمْ إلّا نفسك ، لأنك كنت عاجزا عن حفظ سرّ نفسك ، فغيرك عن حفظ سرّك وهو أجنبيٌّ أعجز ، قال الشاعر :

إذا ضاقَ صَـدْرُ المرء عن حفظِ سِرِّهِ فصَدْرُ الذى يُستودعُ السِّرَّ أضيَـقُ

وسادسها قوله : « رُبَّ ساعٍ فيما يضرّه » ، قال عبد الحميـد الـكاتب فى كتابه إلى أبى مسلم : لو أراد الله بالنملة صلاحًا ، لما أنبت لها جَناحا .

وسابعهـا قوله : « من أكثر أهجر » يقال : أهجر الرجـل ؛ إذا أفحش فى المنطق السوء والخنا ، قال الشمّاخ :

كماجـدةِ الأعراق قال ابنُ ضرَّةٍ عليها كلاما جار فيـه وأهْجَرَا (١)

وهذا مثل قولهم : مَنْ كثر كلامه كثر سَقَطـه . وقالوا أيضا : قلّما سَلِم مكثار ، أو أمن من عِثار .

وثامنها قوله : « مَنْ تفـكّر أبصرَ » ؛ قالت الحـكماء : الفـكر تحـديق العقل نحو المعقول ، كما أنّ النظر البصرىّ تحديق البصر نحو المحسوس ، وكما أنّ من حدّق نحو المبصر وحدقته صحيحة والموانـع مرتفعة لابدّ أن يبصره ؛ كذلك من نظر بعين عقله ، وأفـكر فـكرا صحيحا ، لابدّ أن يدرك الأمر الذى فـكّر فيه وبناله .

وتاسعها قوله : « قارن أهلَ الخير تـكن معهم ، وباين أهـل الشرّ تبن عنهم » ، كان يقال : حاجبك وجهك ، وكاتبك لسانك ، وجليسك كلّك . وقال الشاعر :

عن المرء لا تسألْ وسلْ عن قرينهِ فـكلّ قَرِينٍ بالمُقـارِنِ مُقْتَدِ

---

(١) ديوانه ٢٨ ، وروايته : « مجدة الأعراق . وابن ضرتها : ابن زوجها .

وعاشرها قوله : « بئس الطعام الحرام » ، هذا من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾[١] .

وحادى عشرها قوله : « ظلم الضعيف أفحش الظلم » . رأى معاوية ابنه يزيد يضرب غلاماً ، فقال : يا بنىّ ، كيف لا يسع حلمك من تضربه فلا يمتنع منك ! وأمر المأمون بإشخاص الخطّابىّ القاصّ[٢] من البصرة ، فلمّا مثل بين يديه ، قال له : يا سليمان ، أنت القائل : العراق عين الدنيا ، والبصرة عين العراق ، والمِربْد عين البصرة ، ومسجدى عين المربْد ، وأنا عين مسجدى ، وأنت أعور ، فإنّ عين الدنيا عوراء ! قال : يا أمير المؤمنين ، لم أقل ذاك ، ولا أظنّ أمير المؤمنين أحضرنى لذلك ، قال : بلغنى أنك أصبحت فوجدت على سارية من سوارى مسجدك :

رحم الله عليّا * إنه كان تقيّا

فأمرت بمحوه ؛ قال : يا أمير المؤمنين ، كان « ولقد كان نبيا » فأمرت بإزالته ، فقال : كذبت كانت القاف أصحّ من عينك الصحيحة ، ثم قال : والله لولا أن أقيم لك عند العامة سوقاً لأحسنت تأديبك ؛ قال : يا أمير المؤمنين ، قد ترى ما أنا عليه من الضعف والزّمانة والهرَم وقلة البصر ؛ فإن عاقبتنى مظلوما فاذكر قولَ ابن عمّك علىّ عليه السلام : « ظلم الضعيف أفحش الظلم » ، وإن عاقبتنى بحقّ ، فاذكر أيضا قوله : « لكل شىء رأس، والحلم رأس السؤدد » . فنهض المأمون من مجلسه وأمر بردّه إلى البصرة ، ولم يصله بشىء ، ولم يحضر أحد قط مجلس المأمون إلّا وصله عدا الخطّابى ؛ وليس هذا هو المحدّث الحافظ المشهور ؛ ذاك أبو سليمان أحمد بن محمد بن أحمد البستىّ ، كان فى أيام المطيع والطائع ، وهذا قاصّ بالبصرة كان يقال له أبو زكريا سليمان بن محمد البصرىّ .

وثانى عاشرها قوله: «إذا كان الرفق خرقا ، كان الخرق رفقا»، يقول: إذا كان استعمال

---

(١) سورة النساء ١٠ . (٢) كذا فى ا ، وفى ب : « القاضى » .

الرفق مفسدة وزيادةٌ فى الشرّ فلا تستعمله ؛ فإنه حينئذ ليس برِفْق بل هو حرق ، ولكن استعمل الخرق؛ فإنه يكون رفقاً والحالة هذه ؛ لأنّ الشرّ لا يلتى إلّا بشر مثله ، قال عمرو ابن كلثوم :

أَلا لا يَجْهَلَنْ أحدٌ علينا فنجهلَ فَوْقَ جهل الجاهلينا[1]

وفى المثل : إن الحديد بالحديد يُفْلَح .

وقال زهير :

وَمَنْ لا يذُدْ عن حوضِهِ بسلاحه يُهَدَّمْ وَمَنْ لا يَظْلِمِ النَّاس يُظْلَمِ[2]

وقال أبو الطيّب :

ووضعُ النّدى فى موضع السيف بالْعلَا مُضِرٌّ كوضعِ السيفِ فى موضعِ النّدى[3]

وثالث عشرها قوله : « وربما كان الدواء داء ، والداء دواء » ؛ هذا مثل قول أبى الطيّب :

* ربّما صَحّتِ الأجسامُ بالعِلل[4] *

ومثله قول أبى نواس :

* ودَاوِنى بالّتى كانتْ هى الداء[5] *

ومثل قول الشاعر :

تَداويتُ من ليلَى بليلَى فلم يكن دواءٌ ولكن كان سُقْماً مخالفا

ورابع عشرها قوله : « ربما نصح غير الناصح ، وغشّ المستنصَح » . كان المغيرة بن شعبة يبغض عليّا عليه السلام منذ أيام رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، وتأكّدت

(١) من المعلقة — بشرح التبريزى ٢٣٨ . (٢) ديوانه ٣٠ .
(٣) ديوانه ١ : ٢٨٨ . (٤) ديوانه ٣ : ٨٦ ، وصدره :

* لَعَلَّ عَتْبَكَ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ *

(٥) ديوانه ٢٣٤ ، وصدره :

* دَعْ عَنْكَ لَوْمى فإنَّ اللَّوْمَ إغْرَاءُ *

بِغْضته إلى أيام أبي بكر وعثمان وعمر ، وأشـار عليه يوم بُويع بالخلافة أن يقرّ معـاوية على الشام مدة يسيرة ، فإذا خُطِب له بالشام وتوطّأت دعوته دعاه إليه كما كان عمر وعثمان يدعوانه إليهما ، وصرفه فلم يقبل ؛ وكان ذلك نصيحة من عدوّ كاشح .

واستشار الحسين عليه السلام عبدَ الله بن الزبير وهما بمـكة فى الخروج عنها ، وقصـد العراق ظانّا أنه ينصحه فغشّه ، وقال له : لا تقم بمـكة ، فليس بها مَنْ يبايعك ؛ ولـكن دونك العراق ، فإنهم متى رأوك لم يعدلُوا بك أحداً ، فخرج إلى العراق ؛ حتى كان من أمره ما كان .

وخامس عشرها قوله: « إياك والاتـكال على المُنى ، فإنـها بضائع النوْكَى » ، جمع أنْوَك وهو الأحمق ، من هذا أخذ أبو تمام قوله :

مَنْ كانَ مَرْعى عَزْمِهِ وَهُمُومِهِ   رَوْضُ الأمانى لم يزلْ مهزولا[1]

ومن كلامهم : ثلاثة تُخلِق العقل ، وهو أوضح دليل على الضعف : طول التمنِّى ، وسرعة الجواب ، والاستغراب[2] فى الضحك. وكان يقال : التمنّى والحلم سيّان. وقال آخر: شرف الفتى ترك المنى .

وسادس عشرها قوله : « العقل حفظ التجارِب » من هذا أخذ المتـكلّمون قولهم : العقل نوعان : غريزىّ ، ومكتسب ، فالغريزىّ العلوم البديهية ، والمـكتسب ما أفادته التجربة وحفظته النفس .

وسابع عشرها قوله : « خير ما جرّبت ما وعظك »، مثل هذا قول أفلاطون : إذا لم تعظك التجربة فلم تجرّب ، بل أنت ساذج كما كنت .

وثامن عشرها قوله : : بادر الفرصة ، قبل أن تـكون غُصّة » ، حضر عُبيد الله بن زياد عنـد هانئ بن عروة عائدا ، وقد كمن له مسلم بن عَقِيل ، وأمره أن يقتـله إذا جلس

---

(١) ديوانه .   (٢) الاستغراب فى الضحك : المبالغة فيه .

واستقرّ ، فلما جلس جعل مسلم يؤامر نفسه ويريدها على الوثوب به فلم يطعْه ، وجعل هانئ ينشد كأنه يترنّم بالشعر :

* ما الانتظار بسلمى لا تحيّيها *

ويكرر ذلك ، فأوجس عبيد الله خيفة ونهض ، فعاد إلى قصر الإمارة ، وفات مسلما منه ما كان يؤمّله بإضاعة الفرصة ، حتى صار أمره إلى ما صار .

وتاسع عشرها قوله : « ليس كل طالب يصيب ، ولا كل غائب يثوب » ، الأولى كقول القائل :

ما كلّ وقتٍ ينالُ المرء ما طلبا ولا يسوّغه المقدار ما وَهَبَا

والثانية كقول عَبيد :

وكلّ ذي غيبةٍ يئوبُ وغائب الموت لا يئوبُ (١)

العشرون قوله : « من الفساد ، إضاعة الزاد ، ومفسدة المعاد » ، ولا ريب أنّ من كان في سفر وأضاع زاده ، وأفسد الحال التي يعود إليها فإنه أحمق ، وهذا مثلٌ ضربه للإنسان في حالتي دنياه وآخرته .

الحادي والعشرون قوله : ولكل أمر عاقبة » هذا مثل المثل المشهور « لكل سائله قرار » .

الثاني والعشرون قوله : « سوف يأتيك ما قدّر لك » ، هذا من قول رسول الله صلّى الله عليه وآله : « وإنْ يقدّر لأحدكم رزق في قبّة جبل أو حضيض بِقاعٍ (٢) يأتِهِ » .

الثالث والعشرون قوله : « التاجر مخاطر » هذا حقّ ، لأنه يتعجّل بإخراج الثمن ولا يعلم : هل يعود أم لا ! وهذا الكلام ليس على ظاهره ، بل له باطن ، وهو أنّ مَن مزج الأعمال الصالحة بالأعمال السيئة ، مثل قوله : ﴿ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً ﴾ (٣)

---

(١) ديوانه ١٣ .
(٢) ب : « بقاء » تصحف ، صوابه من ا .
(٣) سورة التوبة ١٠٢ .

فإنه مخاطر لأنّه لا يأمن أن يكون بعض تلك السّيئات تحبط أعماله الصالحة ، كما لا يأمن أن يكون بعض أعمـاله الصالحة يكفّر تلك السيئات ، والمراد أنه لا يجوز للمكلّف أن يفعل إلّا الطاعة أو المباح .

الرابع والعشرون قوله : « ربّ يسير ، أنمى من كثير »، قد جاء فى الأثر: قد يجعل الله من القليل الكثير ، ويجعل من الكثير البركة . وقال الفرزدق :

فإنّ تميماً قبـلَ أن يَلِدَ الحصاَ أقامَ زمانا وهو فى النّاسِ واحـدُ

وقال أبو عثمان الجاحظ : رأينا بالبصرة أخوين ، كان أبوهما يحبّ أحدهما ويُبغض الآخر، فأعطى محبوبه يوم موته كلّ ماله ــ وكان أكثر من مائتى ألف درهم ــ ولم يعطِ الآخر شيئا ، وكان يتّجر فى الزيت ، ويكتسب منه ما يصرفه فى نفقة عيـاله ، ثم رأينا أولاد الأخ الموسر بعـد موتِ الأخوينْ من عائلة ولد الأخ المعسر يتصدّقون عليهم من فواضل أرزاقهم .

***

الأصـلُ :

لَا خَيْرَ فِي مُعِينٍ مُهِينٍ ، وَلَا فِي صَدِيقٍ ظَنِينٍ .

سَاهِلِ الدَّهْرَ مَا ذَلَّ لَكَ قَعُودُهُ ، وَلَا تُخَاطِرْ بِشَيْءٍ رَجَاءَ أَكْثَرَ مِنْهُ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَجْمَحَ بِكَ مَطِيَّةُ اللَّجَاجِ .

احْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخِيكَ عِنْدَ صَرْمِهِ عَلَى الصِّلَةِ ، وَعِنْدَ صُدُودِهِ عَلَى اللَّطَفِ وَالْمُقَارَبَةِ ؛ وَعِنْدَ جُمُودِهِ عَلَى الْبَذْلِ ، وَعِنْدَ تَبَاعُدِهِ عَلَى الدُّنُوِّ ، وَعِنْدَ شِدَّتِهِ عَلَى اللِّينِ ، وَعِنْدَ جُرْمِهِ عَلَى الْعُذْرِ ، حَتَّى كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ ، وَكَأَنَّهُ ذُو نِعْمَةٍ عَلَيْكَ .

وَإِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ ، أَوْ أَنْ تَفْعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْلِهِ .

***

لَا تَتَّخِذَنَّ عَدُوَّ صَدِيقِكَ صَدِيقاً فَتُعَادِيَ صَدِيقَكَ ، وَامْحَضْ أَخَاكَ النَّصِيحَةَ ؛ حَسَنَةً كَانَتْ أَوْ قَبِيحَةً ، وَتَجَرَّعِ الْغَيْظَ فَإِنِّي لَمْ أَرَ جُرْعَةً أَحْلَى مِنْهَا عَاقِبَةً ؛ وَلَا أَلَذَّ مَغَبَّةً . وَلِنْ لِمَنْ غَالَظَكَ فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَلِينَ لَكَ ، وَخُذْ عَلَى عَدُوِّكَ بِالْفَضْلِ فَإِنَّهُ أَحَدُ الظَّفَرَيْنِ ، وَإِنْ أَرَدْتَ قَطِيعَةَ أَخِيكَ فَاسْتَبْقِ لَهُ مِنْ نَفْسِكَ بَقِيَّةً يَرْجِعُ إِلَيْهَا إِنْ بَدَا لَهُ ذَلِكَ يَوْماً مَا . وَمَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْرًا فَصَدِّقْ ظَنَّهُ ، وَلَا تُضِيعَنَّ حَقَّ أَخِيكَ اتِّكَالًا عَلَى مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ بِأَخٍ مَنْ أَضَعْتَ حَقَّهُ . وَلَا يَكُنْ أَهْلُكَ أَشْقَى الْخَلْقِ بِكَ . وَلَا تَرْغَبَنَّ فِيمَنْ زَهِدَ عَنْكَ ، وَلَا يَكُونَنَّ أَخُوكَ أَقْوَى عَلَى قَطِيعَتِكَ مِنْكَ عَلَى صِلَتِهِ ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَى الْإِسَاءَةِ أَقْوَى مِنْكَ عَلَى الْإِحْسَانِ . وَلَا يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ ظُلْمُ مَنْ ظَلَمَكَ ، فَإِنَّهُ يَسْعَى فِي مَضَرَّتِهِ وَنَفْعِكَ ، وَلَيْسَ جَزَاءُ مَنْ سَرَّكَ أَنْ تَسُوءَهُ .

***

الشرح :

هذا الفصل قد اشتمل على كثير من الأمثال الحكمية .

فأوّلها قوله : « لا خير فى معين مهين ، ولا فى صديق ظنين » ، مثل الكلمة الأولى قولهم :

إذا تكفيّتَ بغير كافِ وجدتَه للهمّ غيرَ شافِ

ومن الكلمة الثانية أخذ الشاعر قوله :

فإنّ من الإخوان مَنْ شَحَطَ النّوى به وهو راعٍ للوصال أمينُ
ومنهم صديق العين أمّا لقاؤه فحُلْوٌ وأمّا غيبُه فظنينُ

وثانيها قوله : « ساهل الدهر ما ذلّ لك قَعُوده » ؛ هــذا استعارة ، والقَعُود البَــكْر حين يمكن ظهره من الركوب إلى أن يثنى ، ومثل هذا المعنى قولهم فى المثل : مَنْ ناطح الدّهر أصبح أجمّ .

ومثله :

* ودُرْ مع الدّهر كيفما دارا *

ومثله :

ومَنْ قَامر الأيّام عن ثمراتِها فأحْرِ بها أنْ تنجلى ولها القَمْر(١)

ومثله :

إذا الدهر أعطاك العِنان فسِرْ بِهِ رُويداً ولا تعنُفْ فيصبح شامِسا

وثالثها قوله : « لا تخاطر بشىء رجاء أكثر منه » ، هــذا مثل قولهم : مَن طلب الفضل ، حُرِم الأصل .

ورابعها قولُه : « إياك وأن تجمحَ بك مطيّة اللجاج » ، هذا استعارة ، وفى المثــل : ألجّ من خنفساء ، وألجّ من زُنبور . وكان يقال : اللّجاج من القِحة ، والقِحة من قلّة الحياء ، وقلّة الحياء من قلّة المروءة ، وفى المثل : لجّ صاحبك فحُجّ .

وخامسها قوله : « احمل نفسك من أخيك » ، إلى قوله : « أو تفعله بغــير أهله » اللّطَف ، بفتح اللام والطاء ، الاسم من ألطفه بكذا أى برّه به ، وجاءتنا لُطفة من فلان أى هديّة ، والملاطفة المبارّة . وروى « عن اللّطْف » وهو الرفق للأمر ؛ والمعنى أنّه أوصاه إذا قطعه أخوه أن يصله ، وإذا جفاه أن يبرّه ، وإذا بخل عليه أن يجود عليه ، إلى آخر الوصاة .

ثم قال له : «لاتفعل ذلك مع غير أهله » ، قال الشاعر :

---

(١) القمر : الغلبة فى القمار .

وإنّ الّذِي بيني وَبْيْنَ بنى أبى ... وَبْيْنَ بنِى أمّى لمختلفٌ جـدّا[١]
فإن أكلوا لحمى وفَرْتُ لحومَهُمْ ... وإن هَدَموا مَجْدِى بنيتُ لهم مَجْدَا
وإن زجروا طيرا بنحسٍ تمرّ بى ... زجرتُ لهم طـيراً تمرُّ بهم سَعْدَا
ولا أحمِـل الِحقْدَ القديم عليهمُ ... وليسَ رئيسُ القوم مَنْ يحمِلُ الِحقْدَا

وقال الشاعر :

إنّى وإن كان ابن عمّىَ كاشحاً ... لمقاذفٌ من خَلْفِهِ وورائِهِ[٢]
ومفيدُه نصرى وإن كان امرأ ... متزحزحاً فى أرضِـه وسمائِهِ
وأكونُ والِىَ سرّه وأصونُـه ... حتّى يحِـقّ علىّ وقتَ أدائِهِ
وإذا الحوادث أجْحَفتْ بسَوَامه ... قرنت صحيحتَنا إلى جَرْبائِـهِ
وإذا دعا باسمى ليركب مركباً ... صَعْبا قعدت له على سِيسَائِـهِ[٣]
وإذا أجنّ فَلِيقَةً فى خِـدْرِه ... لم أطّلع ممّا وراء خِبَائِـهِ[٤]
وإذا ارتدى ثوباً جميـلا لم أقلْ ... يالت أنّ عـلىّ فضلَ ردائه !

وسادسها قوله : « لا تتخذنّ عدوّ صديقك صديقا فتعادى صديقك » ، قد قال الناس فى هذا المعنى فأكثروا ، قال بعضهم :

إذا صافى صديقُك مَنْ تعـادِى ... فقد عاداك وانقطَعَ الـكلامُ

وقال آخر :

صديقُ صديقِى داخلٌ فى صداقـتى ... وخصمُ صديقى ليس لى بصديقِ

وقال آخر :

تودّ عـدوّى ثم تزْعم أنّـنِى ... صديقك إنّ الرأى عنك لَعازِبُ

---

(١) للمقنع الكندى ، ديوان الحماسة ــ بشرح المرزوقى ٣ : ١١٧٩ .
(٢) لعروبة المدنى ، الأغانى ٢٠ ــ ١٦٨ ، وطبقات الزبيدى ٥٧ .
(٣) السيساء فى الأصل : منتظم فقار الظهر .
(٤) الفليقة : القليل : من الشعر . والخدر : الستر .

وسابعها قوله : « وامحض أخاك النصيحة ، حسنة كانت أو قبيحة » ؛ ليس يعنى عليه السلام بقبيحة هاهنا القبيح الذى يستحق به الذم والعقاب ؛ وإنّما يريد نافعة له فى العاجل كانت أو ضارة له فى الآجل ، فعبّر عن النفع والضرر بالحسن والقبيح ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾(١) .

وقد فسّره قوم فقالوا : أراد : كانت نافعة لك أو ضارة لك . ويحتمل تفسير آخر وهو وصيّته إيّاه أن يمحض أخاه النصيحة سواء كانت ممّا لا يستحيا من ذكرها وشياعها ، أو كانت مما يستحيا من ذكرها واستفاضتها بين الناس ، كمن ينصح صديقه فى أهله ويشير عليه بفراقهم لفجور اطّلع عليه منهم ؛ فإنّ النّاس يسمون مثل هذا إذا شاع قبيحا .

وثامنها قوله : « تجرّع الغيظ فإنى لم أر جرعة أحلى منها عاقبة ولا ألذ مغبّة » هذا مثْل قولهم : الحلم مرارة ساعة ، وحلاوة الدهر كلّه . وكان يقال : التذلّل للناس مصايد الشرف .

قال المبرّد فى "الكامل" : أوصى علىّ بن الحسين ابنه محمد بن علىّ عليهم السلام ، فقال : يا بنىّ ، عليك بتجرّع الغيظ من الرّجال ؛ فإنّ أباك لا يسرّه بنصيبه من تجرّع الغيظ من الرّجال حُمرُ النّعم ؛ والحلم أعزّ ناصراً ، وأكثر عدداً(٢).

وتاسعها قوله : « لِنْ لمن غالظك ، فإنّه يوشك أن يلين لك » ، هذا مثل المثل المشهور : « إذا عزّ أخوك فهُنْ »، والأصل فى هذا قوله تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾(٣).

وعاشرها قوله : « خذ على عدوّك بالفضل فإنّه أحد الظفَرين » هذا معنى مليح ، ومنه قول ابن هانئ فى المعزّ(٤):

(١) سورة الروم ٣٦ .
(٢) الكامل .
(٣) سورة فصلت ٣٤ .
(٤) ب : « المعتز » ، تصحف ، صوابه فى ا .

ضَرّابُ هامِ الرّومِ منتقماً وفى أعناقهم من جُودِه أعباءُ
لولا انبعاث السّيف وهو مسلّطٌ فى قتلهم قتَلَتْهُمُ النَّعماءُ

وكنت كاتبا بديوان الخلافة ، والوزير حينئذ نصير الدين أبو الأزهر أحمد بن الناقد رحمه الله ، فوصل إلى حضرة الديوان فى سنة اثنتين وثلاثين وستمائة محمد بن محمد أمير البحرين على البرّ ، ثم وصل بعده الهرمزىّ صاحب هرمز فى دجْله بالمراكب البحرية — وهرمز هذه فُرْضة فى البحر نحو عُمان — وامتلأت بغداد من عرب محمد بن محمد وأصحاب الهرمزىّ — وكانت تلك الأيام أياما غرّاء زاهرة لما أفاض المستنصر على الناس من عطاياه ، والوفود تزدحم من أقطار الأرض على أبواب ديوانه — فكتبت يوم دخول الهرمزىّ إلى الوزير أبياتا سنحتْ على البديهة ، وأنا متشاغل بما كنت فيه من مهامّ الخدمة ، وكان رحمه الله لا يزال يذكرها وينشدها ويستحسنها :

يا أحْمَد بنَ محمّدٍ أنتَ الّذِى عَلِقتْ يداه بأنفَسِ الأعلاقِ
ما أمّلَتْ بغدادُ قبلك أنْ ترى أبداً ملوكَ البحر فى الأسواق
وَلهوا عليها غَيْرَةً وتنافسوا شَغَفاً بها كتنافُس العُشّاقِ
وغدتْ صِلاتك فى رِقاب سَراتِهِمْ ونداكَ كالأطواق فى الأعناقِ
بسديد رأيك أصْلحَتْ جمحاتُهمْ وتألّفوا من بعد طول شِقَاقِ
لله همّة ماجــدٍ لم تعتلِقْ بسَحِيل آراءٍ ولا أحذاقِ(٢)
جلب السّلاهِب من أراكَ وبعدها جَلبَ المراكبَ من جزيرة واقِ
هذا العَداء هو العداء فعدّ عَنْ قول ابن حُجْر فى لأى وعناقِ
وأظنّه والظنُّ عــلمٌ أنّه سيجيئنا بممــالكِ الآفاقِ
إما أســيرُ صَنيعةٍ فى جِيدِه بالجود غُلٌّ أو أســيرُ وَثاقِ

(١) ديوانه ٥ (المطبعة الأميرية) ١٢٧٤) .
(٢) السحيل والأحذاق : الحبال الضعيفة .

لا زال فى ظلّ الخليفة مآله فانٍ وسوددُه المعظّم باقِ

وحادى عشرها قوله : « إنْ أردت قطيعــة أخيك فاستبق له من نفسك بقيّة يرجــع إليها إن بدَا ذلك له يوما » ، هذا مثْل قولهم: « أحبب حبيبك هوناً ما ، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما ، وأبغِض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما » ، وما كانَ يقال : إذا هويت فلا تــكن غاليا ، وإذا تركت فلا تــكن قاليا .

وثانى عشرها قوله : « مَنْ ظنّ خيرا فصدّق ظنّه » كثير من أرباب الهمم يفعلون هذا ، يقال لمن قد شدَا طرفاً من العلم : هذا عالم ، هذا فاضل ، فيدعوه ما ظنّ فيه من ذلك إلى تحقيقه ، فيواظب على الاشتغال بالعلم حتى يصير عالما فاضلا حقيقة ، وكذلك يقول الناس : هذا كثير العبادة ، هذا كثير الزهد ؛ لمن قد شرع فى شىء من ذلك، فتحمله أقوال النّاس على الالتزام بالزهد والعبادة .

وثالث عشرها قوله : « ولا تضيعنّ حقّ أخيك اتّــكالا على ما بينك وبينه ، فإنه ليس لك بأخ من أضعت حقّه » ، من هذا النحو قول الشاعر :

إذا خنتمُ بالغيْب عهدِى فما لـكم تُدِلّون إدلالَ المقيم على العهدِ
صِلُوا وافعلوا فعلَ المدِلّ بوصِلهِ وإلاّ فصُدّوا وافعلوا فعلَ ذى الصّدِ

وكان يقال : إضاعة الحقوق ، داعية العقوق .

ورابع عشرها قوله : « لا ترغبنّ فيمن زهد فيك » الرغبة فى الزاهد هى الداء العياء؛ قال العباس بن الأحنف :

ما زِلْتُ أزْهَدُ فى مودّةِ راغبٍ حتى اُبتليت برغبةٍ فى زاهــدِ
هذا هو الدّاء الّذِى ضاقت به حِيَلُ الطبيب وطال يأس العائدِ

وقد قال الشعراء المتقدّمون والمتأخرون فأكثروا ، نحو قولهم :

وَفِى النَّـــاسِ إِنْ رثّتْ حبَالُكَ واصلٌ وفى الأرْض عَنْ دارِ القِلَى مُتَحَوَّلُ(١)

وقول تأبّط شرا (٢) :

إِنّى إذا خُلّة ضَنّتْ بنائِلِهـا وأمسكتْ بضعيف الحبل أحْذاقِ(٣)

نجوتُ منها نجـائى من بَجيلَة إذْ ألقيتُ ليله خَبْتِ الرّهْطِ أرواقى(٤)

وخامس عشرها قوله : لا يـكونَنّ أحوكَ أقوى على قطيعتك منك على صلته ، ولا تـكونَنّ على الإساءة أقوى منك على الإحسان » . هـذا أمر له بأن يصل مَنْ قطعه ، وأن يحسن إلى من أساء إليه .

ظفر المأمون عبد الله بن هارون الرشيد بكتب قد كتبها محمد بن إسمـاعيل بن جعفر الصادق عليه السلام إلى أهل الـكَرْخ وغيرهم من أعمال أصْفِهان يدعوهم فيها إلى نفسه ، فأحضرها بين يديه ، ودفعها إليه ، وقال له : أتعرف هـذه ؟ فأطرق خجلا ، فقال له : أنت آمن ، وقد وهبت هذا الذنب لعلىّ وفاطمة عليهما السلام ، فقمْ إلى منزلك ، وتخيّر ما شئت من الذنوب ، فإنّا نتخيّر لك مثل ذلك من العفو .

وسادس عشرها قوله: « لا يكبرنّ عليك ظُلْم مَنْ ظلمك ، فإنّه يسعى فى مضرّته ونفعك وليس جزاء من سرّك أن تسوءه » ، جاء فى الخبر المرفوع أنّه صلّى الله عليه وآله سمع عائشة تدعُو على مَنْ سرق عقدا لها ، فقال لها: « لا تسحى عنه بدعائك ، أى لا تخفّفى عذابه » . وقوله عليه السلام : « وليس جزاء من سرّك أن تسوءه » ، يقول : لا تنتقم ممن ظلمك فإنه قد نفعك فى الآخرة بظلمه لك ، وليس جزاء مَنْ ينفع إنسانا أن يسىء إليه . وهذا مقام جليل

(١) لمعن بن أوس ، ديوانه ٥٩ . (٢) المفضليات ٨ .

(٣) الخلة : الصداقة ، وتقال للصديق ، وتطلق على المذكر والمؤنث والمثنى والجمع ؛ وأنث الضمائر من أجل اللفظ .. والأحذاق : القطع من الحبال .

(٤) الخبت: اللين من الأرض . الرهط : موضع . ألقيت أرواقى : استفرغت جهدى وعدوت عدواً شديداً

لا يقدر عليه إلا الأفراد من الأولياء الأبرار . وقبض بعض الجبابرة على قوم صالحين ، فحبسهم وقيّدهم ، فلمّا طال عليهم الأمر زفر بعضهم زفرةً شديدة ، ودعا على ذلك الجبّار ، فقال له بعض أولاده ـ وكان أفضل أهل زمانه فى العبادة . وكان مستجاب الدعوة : لا تدْعُ عليه فتخفّف من عذابه ، قالوا : يا فلان ، ألا ترى ما بنا وبك ! لا يأنف ربك لنا ! قال : إن لفلان مهبطاً فى النار لم يكن ليبلغه إلا بما ترون ، وإن لكم لمصعدا فى الجنّة لم تكونوا لتبلغوه إلّا بما ترون . قالوا : فقد نال منا العذاب والحديد ، فادع الله لنا أن يخلّصنا وينقذنا مما نحن فيه ، قال : إنّى لأظنّ أنى لو فعلت لفعل ، ولكن والله لا أفعل حتى أموت هكذا ، فألقى الله فأقول له : أى ربّ سلْ فلانا لِمَ فَعل بى هذا ؟ ومن الناس من يجعل قوله عليه السلام : « وليس جزاء من سرّك أن تسوءه » ، كلمة مفردة مستقلّة بنفسها ، ليست من تمام الكلام الأول ، والصحيح ما ذكرناه .

وسابع عشرها ـ ومن حقه أن يقدم ذكره قوله : « ولا يكن أهلك أشقى الخلق بك »، هذا كما يقال فى المثل : من شؤم الساحرة أنّها أول ما تبدأ بأهلها ، والمراد من هذه الكلمة النّهى عن قطيعة الرّحِم وإقصاء الأهل وحرمانهم ، وفى الخبر المرفوع : « صلوا أرحامكم ولَوْ بالسلام » .

***

الأصْلُ :

وَاعْلَمْ يَا بُنَىَّ أَنَّ الرِّزْقَ رِزْقَانِ : رِزْقٌ تَطْلُبُهُ ، وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ ، فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ .

مَا أَقْبَحَ الْخُضُوعَ عِنْدَ الْحَاجَةِ ، وَالْجَفَاءَ عِنْدَ الْغِنَى !

إِنَّمَا لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ ، مَا أَصْلَحْتَ بِهِ مَثْوَاكَ ، وَإِنْ كُنْتَ جَازِعاً عَلَى مَا تَفَلَّتَ مِنْ يَدَيْكَ ، فَاجْزَعْ عَلَى كُلِّ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ .

اسْتَدِلَّ عَلَى مَا لَمْ يَكُنْ بِمَا قَدْ كَانَ ، فإِنَّ الْأُمُورَ أَشْبَاهٌ ؛ وَلَا تَكُونَنَّ مِمَّنْ لَا تَنْفَعُهُ الْعِظَةُ إِذَا بَالَغْتَ فِي إِيلَامِهِ ، فإِنَّ الْعَاقِلَ يَتَّعِظُ بِالْآدَابِ ، وَالْبَهَائِمَ لَا تَتَّعِظُ إِلَّا بِالضَّرْبِ .

اطَّرِحْ عَنْكَ وَارِدَاتِ الْهُمُومِ بِعَزَائِمِ الصَّبْرِ وَحُسْنِ الْيَقِينِ .

مَنْ تَرَكَ الْقَصْدَ جَارَ . وَالصَّاحِبُ مُنَاسِبٌ ، وَالصَّدِيقُ مَنْ صَدَقَ غَيْبُهُ ، وَالْهَوَى شَرِيكُ الْعَمَى ، وَرُبَّ بَعِيدٍ أَقْرَبُ مِنْ قَرِيبٍ ، وَقَرِيبٍ أَبْعَدُ مِنْ بَعِيدٍ ، وَالْغَرِيبُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَبِيبٌ .

***

مَنْ تَعَدَّى الْحَقَّ ضَاقَ مَذْهَبُهُ ، وَمَنِ اقْتَصَرَ عَلَى قَدْرِهِ كَانَ أَبْقَى لَهُ ، وَأَوْثَقُ سَبَبٍ أَخَذْتَ بِهِ سَبَبٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ سُبْحَانَهُ . وَمَنْ لَمْ يُبَالِكَ فَهُوَ عَدُوُّكَ .

قَدْ يَكُونُ الْيَأْسُ إِدْرَاكاً ، إِذَا كَانَ الطَّمَعُ هَلَاكاً .

لَيْسَ كُلُّ عَوْرَةٍ تَظْهَرُ ، وَلَا كُلُّ فُرْصَةٍ تُصَابُ ، وَرُبَّمَا أَخْطَأَ الْبَصِيرُ قَصْدَهُ ، وَأَصَابَ الْأَعْمَى رُشْدَهُ .

أَخِّرِ الشَّرَّ فَإِنَّكَ إِذَا شِئْتَ تَعَجَّلْتَهُ ، وَقَطِيعَةُ الْجَاهِلِ تَعْدِلُ صِلَةَ الْعَاقِلِ .

مَنْ أَمِنَ الزَّمَانَ خَانَهُ ، وَمَنْ أَعْظَمَهُ أَهَانَهُ .

لَيْسَ كُلُّ مَنْ رَمَى أَصَابَ .

إِذَا تَغَيَّرَ السُّلْطَانُ ، تَغَيَّرَ الزَّمَانُ .

سَلْ عَنِ الرَّفِيقِ قَبْلَ الطَّرِيقِ ، وَعَنِ الْجَارِ قَبْلَ الدَّارِ .

***

الشَّرْحُ :

في بعض الروايات: « اطّرِح عنك واردات الهموم بحسن الصبر وكرم العزاء » ، قد مضى لنا كلام شافٍ في الرزق .

وروى أبو حيّان ، قال : رفع الواقديّ إلى المأمون رقعة يذكر فيها غلَبة الدّيْن عليه ، وكثرة العيال ، وقلّة الصبر، فوقّع المأمون عليها : أنت رجل فيك خلّتان ؛ السخاء والحياء فأمّا السخاء فهو الذي أطلق ما في يديك ، وأمّا الحياء فهو الذي بلغ بك إلى ما ذكرت ، وقد أمرنا لك بمائة ألف درهم ؛ فإن كنا أصبنا إرادتك فازدد في بسط يدك ، وإن كنّا لم نصب إرادتك فبجنايتك على نفسك ؛ وأنت كنت حدثتني وأنت على قضاء الرشيد عن محمد ابن إسحاق ، عن الزهريّ ، عن أنس بن مالك ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال للزبير : « يا زبير ، إنّ مفاتيح الرزق بإزاء العرش ، ينزل الله تعالى للعباد أرزاقهم على قدر نفقاتهم ؛ فمن كثّر كُثّر له ، ومن قلّل قُلّل له » .

قال الواقديّ : وكنت أنسيتُ هذا الحديث ، وكانت مذاكرته إيّاي به أحبّ من صلته .

* * *

واعلم أنّ هذا الفصل يشتمل على نكت كثيرة حكمية :

منها قوله « الرزق رزقان : رزق تطلبه ، ورزق يطلبك » ، وهذا حقّ ؛ لأنّ ذلك إنّما يكون على حسب ما يعلمه الله تعالى من مصلحة المكلّف ، فتارةً يأتيه الرزق بغير اكتساب ولا تكلّف حركة ، ولا تجشّم سَعْي ، وتارة يكون الأمر بالعكس .

دخل عماد الدّولة أبو الحسن بن بويه شيراز بعد أن هزم ابن ياقوت عنها ، وهو فقير

لا مال له ، فساخت إحدى قوائم فرسه فى الصَّحْراء فى الأرض ، فنزل عنها وابتدرها غلمانه فخلّصوها ، فظهر لهم فى ذلك الموضع نَقْب وسيع ، فأمرهم بحفره ، فوجدوا[١] فيه أموالا عظيمة ، وذخائر لابن ياقوت ، ثم استلقى يوما آخر على ظهره فى داره بشيراز التى كان ابن ياقوت يسكنها ، فرأى حيّة فى السقف ، فأمر غلمانه بالصعود إليها وقتلها ، فهربت منهم ، ودخلت فى خشب الكنيسة فأمر أن يقلع الخشب وتستخرج وتقتل ؛ فلمّا قلعوا الخشب وجدوا فيه أكثر من خمسين ألف دينار ذخيرة لابن ياقوت .

واحتاج أن يفصل ويخيط ثيابا له ولأهله فقيل : هاهنا خيّاط حاذق كان يخيط لابن ياقوت ، وهو رجل منسوب إلى الدّين والخير ، إلا أنه أصمّ لا يسمع شيئاً أصلا ، فأمر بإحضاره ، فأحضر وعنده رعْب وهلَع ، فلما أدخله إليه كلّمه ؛ وقال: أريد أن تخيط لنا كذا وكذا قطعة من الثياب ، فارتعد الخياط واضطرب كلامه ، وقال : والله يا مولانا ماله عندى إلّا أربعة صناديق ليس غيرها، فلاتسمع قول الأعداء فىّ . فتعجّب عماد الدولة وأمر بإحضار الصناديق ، فوجدها كلّها ذهبا وحَلْياً وجواهر مملوءة وديعة لابن ياقوت .

وأمّا الرّزق الذى يطلبه الإنسان ويسعى إليه فهو كثير جدا لا يحصى .

ومنها قوله : « ما أقبح الخضوع عند الحاجة ، والجفاء عند الغنى » ! هذا من قول الله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾[٢] .

ومن الشعر الحكمىّ فى هذا الباب قول الشاعر :

خُلُقانِ لَاأَرْضَاهُما لِفَتًى : تيهُ الغِنى ومَذلَّةُ الفقرِ

(١) ا : « فوجد » .
(٢) سورة يونس ٢٢ ، ٢٣ .

فإذا غَنيت فلا تـكن بطِراً   وإذا افتقرت فتِهْ على الدَّهرِ

ومنها قوله : « إنّما لك من دنياك ، ما أصلحت به مثواك » ، هذا من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله : « يا بن آدم ، ليس لك من مالك إلّا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدّقت فأبقيت » .

وقال أبو العتاهية :

ليس للمتعب المُكادح من دنـ   ـياهُ إلّا الرّغيف والطِّمْرانِ(١)

ومنها قوله : « وإن كنت جازعا على ما تفلّت من يديك ، فاجْزَع على كلّ ما لم يصل إليك » ، يقول : لا ينبغى أنْ تجزَعَ على ما ذهب من مالك ، كما لا ينبغى أن تجزع على ما فاتك من المنافع والمكاسب ؛ فإنّه لا فرق بينهما ، إلّا أنّ هذا حصل ، وذاك لم يحصل بعد ؛ وهذا فرق غير مؤثّر ، لأنّ الذى تظنّ أنه حاصل لك غير حاصل فى الحقيقة ، وإنما الحاصل على الحقيقة ما أكلته ولبسته ، وأما القنيات والمدخرات فلعلّها ليست لك ، كما قال الشاعر :

وذِى إبلٍ يَسقى ويحسِبها له   أخى تعبٍ فى رَعيِها ودُءوبِ
غدتْ وغدا ربٌّ سواه يسوقُها   وَبُدِّلَ أحجارا وجالَ قَليبِ

ومنها قوله : « استدلّ على ما لم يكن بما كان ، فإن للأمور أشباها » يقال : إذا شئت أن تنظر للدنيا بعدك فانظرها بعد غيرك .

وقال أبو الطيّب فى سيف الدولة :

ذكىٌّ تَظنّيه ، طليعةُ عَيْنِهِ   يرى قَلْبُه فى يومه ما يَرَى غدَا(٢)

ومنها قوله : « ولا تـكونَنّ ممّن لا تنفعه العظة . . . » إلى قوله : « إلا بالضرب » ، هو قول الشاعر :

---

(١) الطمران : تثنية طمر ، وهو الثوب الخلق البالى .
(٢) ديوانه ١ : ٢٨٢ ، والتظنى : التظنن ، والطليعة : الذى يطلع القوم على العدو .

العبـــد يُقرَع بالعصا والحرّ تكفيه الملامه[1]

وكان يقال : اللئيم كالعبد ، والعبد كالبهيمة عَتْبها ضربُها .

ومنها قوله : « اطّرح عنك واردات الهموم بحسن الصبر وكرم العزاء »[2]. هذا كلام شريف فصيح عظيم النفع والفائدة ، وقد أخذ عبد الله بن الزبير بعض هذه الألفاظ فقال فى خطبته لمّا ورد عليه الخبر بقتل مُصْعب أخيه : « لقد جاءنا من العراق خبرٌ أحزننا وسرّنا ، جاءنا خبرُ قتل مُصْعب ؛ فأما سرورنا فلأنّ ذلك كان له شهادة ، وكان لنا إن شاء الله خيرة ؛ وأما الحزن فلوعةٌ يجدها الحميم عند فراق حميمه ، ثم يرعوى بعدهـا ذو الرأى إلى حسن الصبر وكرم العزاء » .

ومنها قوله : « مَنْ ترك القصد جار » القصد الطريق المعتـدل ، يعنى أنّ خير الأمور أوسطها ، فإن الفضائل تحيط بها الرذائل فمن تعدّى هذه يسيرا وقع فى هذه .

ومنها قوله : « الصاحب مناسب » ، كان يقال : الصديق نسيب الروح ، والأخ نسيب البدن ، قال أبو الطيّب :

ما الخلّ إلّا مَنْ أودّ بقلبــهِ وأرَى بطَرفٍ لا يَرَى بسوائِهِ[3]

ومنها قوله : « الصديق مَنْ صدق غيبه » ، من هاهنا أخـذ أبو نواس قوله فى المنهوكة[4] :

هـل لك والْهَلّ خَبَرْ فيمن إذا غبتَ حضرْ
أو مالكَ اليـــوم أثَرْ فإن رأى خيرا شكَرْ
* أو كان تقصير عَذَرْ *

ومنها قوله : «الهوى شريك العمى» ، هذا مثلُ قولهم : «حبُّك الشيء يُعمِى ويُصِمّ»

قال الشاعر :

---

(١) لابن مفرغ ، الشعر و الشعراء ٣١٥ . (٢) بلفظ الرواية الثانية . (٣) ديوانه ١ : ٤ .

(٤) المنهوك من الرجز والمنسرح : ماذهب ثلثاه وبقى ثلثه ، كقوله فى الرجز :

* ياليتنى فيها جذع * وقوله فى المنسرح : * ويل أم سعد سعدا * .

وَعَيْنُ الرّضا عن كلِّ عيب كايلةٌ كما أنّ عينَ السُّخط تُبْدِى المَسَاوِيَا (١)

ومنها قوله: «ربّ بعيد أقرب من قريب ، وقريب أبعد من بعيد »، هذا معنى مطروق، قال الشاعر :

لعمركَ ما يضرّ البُعدُ يوماً إذَا دَنَت القلوبُ من القلوبِ

وقال الأحوص :

إنّى لأَمنحكِ الصُّدودَ وإنّنى قسماً إليكِ مع الصُّدود لأمْيَلُ (٢)

وقال البحترىّ :

ونازحةٍ والدّار منها قريبةٌ وما قرب ثاوٍ فى التّراب مغيّبُ !

ومنها قوله « والغريب من لم يكن له حبيب » يريد بالحبيب ها هنا المحبّ لا المحبوب ، قال الشاعر :

أُسْرَةَ المرءِ والداه وفيما بين جَنْبيْهما الحياةُ تطيبُ

وإذا ولّيا عن المرءِ يوماً فهو فى النّاس أجنبىٌّ غريبُ

ومنها قوله : « مَنْ تعدّى الحقّ ضاق بمذهبه » ، يريد بمذهبه ها هنا طريقته ، وهذه استعارة، ومعناه أنّ طريق الحق لامشقّة فيها لسالكها، وطرق الباطل فيها المشاقّ والمضارّ، وكأن سالكها سالك طريقة ضيّقة يتعثّر فيها ، ويتخبّط فى سلوكها .

ومنها قوله : « مَنْ اقتصر على قدره كانَ أبقى له » ، هذا مثل قوله : « رحم الله امرأً عرف قدره ، ولم يتعدّ طوره » وقال : مَن جهل قدره قتل نفسه . وقال أبو الطيّب :

وَمَنْ جهلت نفسهُ قدرَهُ رأى غيرُه منه ما لا يَرَى

(١) لعبد الله بن معاوية ، الأغانى ١٢ : ٢١٤ . (٢) الأغانى .

ومنها قوله : « أوثق سبب أخذتَ به، سببٌ بينــك وبين الله سبحــانه ، هذا من قول الله تعــالى : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا ﴾[1] .

ومنها قوله : « فمن لم يبالِكَ فهو عدوّك » ، أى لم يكترث بك ، وهذه الوصاة خاصّة بالحسن عليه السلام وأمثاله من الولاة وأرباب الرعايا ، وليست عامّة للسُّوقة من أفنــاء الناس ، وذلك لأنّ الوالىَ إذا أنس من بعض رعيّته أنه لا يبــاليه ولا يكترث به ، فقــد أبدى صفحته ، ومن أبدى لك صَفحته فهو عدوّك ، وأما غــير الوالى من أفناء النــاس ، فليس أحدهم إذا لم يبال الآخر بعدوٍّ له .

ومنهــا قوله : « قد يكونُ اليأس إدراكا إذا كان الطمع هلاكا » ؛ هذا مثــل قول القائل :

مَنْ عاشَ لاقَى ما يسو ء من الأمور وما يسُرّ
وَلَرُبَّ حتفٍ فَوْقَهُ ذهبٌ وياقوتٌ ودرّ

والمعنى : ربّما كان بلوغ الأمل فى الدنيا والفوز بالمطلوب منها سبباً للهلاك فيها ؛ وإذا كان كذلك ، كان الحرمان خيرا من الظفر .

ومنها قوله : « ليس كلّ عورة تظهر ، ولا كلّ فرصة تصاب » يقول : قد تكون عورة العدوّ مستترةً عنك فلا تظهر ، وقد تظهر لك ولا يمكنك إصابتها .

وقال بعض الحكماء : الفرصة نوعان : فرصة من عدوّك ، وفرصة فى غير عدوّك ، فالفرصة من عدوّك ما إذا بلغتها نفعتك ، وإن فاتتك ضرّتك ، وفى غير عدوّك ما إذا أخطأك نفعه لم يصلْ إليك ضرّه .

---

(١) سورة البقرة ٢٥٦

ومنها قوله : « فربما أخطأ البصير قصدَه ، وأصاب الأعمى رشده » من هـــذا النحو قولهم فى المثل : « مع الخواطئ سهم صائب »، وقولهم : « رميةمن غير رام». وقالوا فىمثل اللفظةالأولى: « الجواد يكبُو ، والحسام قد ينبو ». وقالوا: «قديهفو الحليم، ويجهلالعليم».

ومنها قوله : « أخّر الشرّ فإنك إذا شئت تعجّلْتَه » مثل هذا : قولهم فى الأمثال الطفيليّة : « كلْ إذا وجدت ، فإنك على الجوع قادر » . ومن الأمثال الحـكْمية : « ابدأ بالحسنة قبل السيئة ، فلست بمستطيع للحسنة فى كلّ وقت وأنت على الإساءة متى شئت قادر » .

ومنها قوله : « قطيعة الجاهل تعدل صِلة العاقل »؛ هذا حق ، لأنّ الجاهل إذا قطعك انتفعت ببعده عنك ، كما تنتفع بمواصلة الصديق العاقل لك ؛ وهذا كما يقول المتـكلّمون : عدم المضرّة كوجود المنفعة ، ويـكاد أن يبتنىَ على هذا قولهم : كما أن فعل المفسدة قبيح من البارئ ، فالإخلال باللطف منه أيضا يجب أن يكون قبيحا .

ومنها قوله : « منْ أمن الزمان خانه ، ومن أعظمه أهانه » ، مثل الـكلمة الأولى قول الشاعر :

ومَنْ يأمن الدّنيا يكن مثل قابِضٍ على الماء خَانَتْهُ فروج الأنامِـــلِ

وقالوا : احذر الدنيا ما استقامتْ لك . ومن الأمثال الحـكمية : « من أمن الزمان ضيّع ثغرا مَخُوفا » . ومثل الـكلمة الثانية قولهم : « الدنيا كالأمة اللئيمة المعشوقة ، كلما ازددت لها عشقا وعليها تهالـكا ازدادت لك إذلالا ، وعليك شطاطا » .

وقال أبو الطيب :

وهى معشوقة على الغَدْرِ لا تَحـ ـفَظُ عهـداً ولا تتّمم وَصْـــلَا

شِيَمُ الغانيات فيها فلَا أدْ ... رِى لذا أَنّث اسمَها الناسُ أم لا[1] !

ومنها قوله : « ليس كلّ مَنْ رَمى أصاب » هذا معنى مشهور ، قال أبو الطيّب :

ما كلّ مَنْ طلب المعالى نافذاً ... فيها ، ولا كلّ الرجال فُحُولا

ومنها قوله : « إذا تغيّر السلطان ، تغيّر الزمان » . فى كتب الفرس أنّ أنو شروان جمع عمّال السّواد وبيده دُرّة يقلّبها ، فقال : أىّ شىء أضرّ بارتفاع السواد وأدْعى إلى محقه ؟ أيّكم قال ما فى نفسى جعلت هذه الدرّة فى فيه ؟ فقال بعضهم : انقطاع الشرب ، وقال بعضهم : احتباس المطر ، وقال بعضهم : استيلاء الجنوب وعدم الشمالّ ، فقال لوزيره : قل أنت فإنّى أظنّ عقلك يعادل عقول الرعيّة كلها أو يزيد عليها ، قال : تغيّرُ رأى السلطان فى رعيّته ، وإضمار الحَيْف لهم ، والجوْر عليهم ، فقال : لله أبوك ! بهذا العقل أهّلَكَ آبائى وأجدادى لما أهّلوك له . ودفع إليه الدُّرّة فجعلها فى فيه .

ومنها قوله : « سل عن الرفيق ، قبل الطريق ؛ وعن الجار ، قبل الدار » وقدْ روى هذا الكلام مرفوعا ، وفى المثل : « جار السوء كلب هارش ، وأفعى ناهش » .

وفى المثل : الرفيق إمّا رحيق أو حريق .

***

الأصْلُ :

إيَّاكَ أَنْ تَذْكُرَ مِنَ الْكَلَامِ مَا يَكُونُ مُضْحِكاً ، وَإِنْ حَكَيْتَ ذَلِكَ عَنْ غَيْرِكَ .

---

(١) ديوانه ٣ : ١٣٠ .

وَإِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ النِّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى أَفْنٍ ، وَعَزْمَهُنَّ إِلَى وَهْنٍ ، وَاكْفُفْ عَلَيْهِنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ بِحِجَابِكَ إِيَّاهُنَّ ، فَإِنَّ شِدَّةَ الْحِجَابِ أَبْقَى عَلَيْهِنَّ ، وَلَيْسَ خُرُوجُهُنَّ بِأَشَدَّ مِنْ إِدْخَالِكَ مَنْ لَا يُوثَقُ بِهِ عَلَيْهِنَّ ، وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَلَّا يَعْرِفْنَ غَيْرَكَ فَافْعَلْ .

وَلَا تُمَلِّكِ الْمَرْأَةَ مِنْ أَمْرِهَا مَا جَاوَزَ نَفْسَهَا ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ رَيْحَانَةٌ ، وَلَيْسَتْ بِقَهْرَمَانَةٍ . وَلَا تَعْدُ بِكَرَامَتِهَا نَفْسَهَا ، وَلَا تُطْمِعْهَا فِي أَنْ تَشْفَعَ لِغَيْرِهَا .

وَإِيَّاكَ وَالتَّغَايُرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِ غَيْرَةٍ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَدْعُو الصَّحِيحَةَ إِلَى السَّقَمِ ، وَالْبَرِيئَةَ إِلَى الرِّيَبِ .

وَاجْعَلْ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ خَدَمِكَ عَمَلًا تَأْخُذُهُ بِهِ ، فَإِنَّهُ أَحْرَى أَلَّا يَتَوَاكَلُوا فِي خِدْمَتِكَ .

وَأَكْرِمْ عَشِيرَتَكَ ، فَإِنَّهُمْ جَنَاحُكَ الَّذِي بِهِ تَطِيرُ ، وَأَصْلُكَ الَّذِي إِلَيْهِ تَصِيرُ ، وَيَدُكَ الَّتِي بِهَا تَصُولُ .

اسْتَوْدِعِ اللهَ دِينَكَ وَدُنْيَاكَ ، وَاسْأَلْهُ خَيْرَ الْقَضَاءِ لَكَ فِي الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ ، وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . والسلام .

* * *

الشَّرْحُ :

نهاه أن يذكر من الكلام ما كان مضحكا ، لأن ذلك مِنْ شغل أرباب الهزل والبَطالة ، وقلّ أنْ يخلوَ ذلك من غيبة أو سخرية . ثم قال : وإن حكيت ذلك عن غيرك ، فإنه كما يستهجن الابتداء بذلك يستهجن حكايته عن الغير ؛ وذلك كلام فصيح ، ألا ترى أنّه لا يجوز الابتداء بكلمة الكفر ، ويكره أيضاً حكايتها . وقال عمر لمّا نهاه

رسول الله صلى الله عليه وآله أن يحلِف بالله : فما حلفت به ذاكرا ، ولا آثرا ، ولاحاكيا .

"وكان يقال : مَنْ مازح استخُفّ به ، ومن كثر ضحكه قلّت هيبته .

فأما مشاورة النساء فإنّه من فعل عَجَزَة الرجال ، قال الفضل بن الربيع أيام الحرب بين الأمين والمأمون فى كلام يذكر فيه الأمين ويصفه بالعجز : ينام نوم الظَّرِبان ، وينتبه انتباهةَ الذئب ، همّه بطنه ، ولذّته فَرْجه ، لا يفكّر فى زوال نعمة ، ولا يروّى فى إمضاء رأيٍ ولا مكيدة ، قد شمّر له عبد الله عن ساقه ، وفَوّق له أشدَّ سهامه ، يرميه على بعد الدار بالحتف النافذ ، والموت القاصد ؛ قد عبّى له المنايا على مُتُون الخيل ، وناط له البلايا بأسنّة الرماح ، وشِفار السيوف ، فكأنه هو قال هذا الشعر ووصف به نفسه وأخاه :

يُقارِع أتراكَ ابن خاقَان ليلَه ... إلى أنْ يرى الإصباح لا يتلعثمُ

فيصبح من طول الطّراد وجسمُه ... نحيلٌ ، وأضحِى فى النّعيم أصمّم

وهمِّىَ كأس من عُقار وقَيْنَةٍ ... وهمّته درع ورُمح ومخذمُ

فشتّان مابينى وبين ابن خالدٍ ... أميّة فى الرزق الذى اللهُ يَقْسِم

ونحن معه نجرى إلى غاية إن قصّرنا عنها ذُممنا ، وإن اجتهدنا فى بلوغِها انقطعنا ، وإنما نحن شعب من أصل ، إن قوى قوينا ، وإن ضعف ضعفنا ؛ إنّ هذا الرجل قد ألقى بيده إلقاء الأمة الوكعاء ، يشاور النساء ، ويعتزم على الرؤيا ، قد أمكن أهل الخسارة واللّهو من سمعه ، فهم يمنّونه الظّفر ، ويعِدُونه عُقَب الأيام ، والهلاكُ أسرع إليه من السّيْل إلى قِيعان الرمل .

* * *

قوله عليه السلام : « فإنّ رأيَهنّ إلى أفْن » الأفْن بالسكون : النقص ، والمتأفّن :

التنقّص ، يقال : فلان يتأفّن فلانا ،أى يتنقّصه ويعيبه . ومن رواه « إلى أفَنٍ » بالتحريك فهو ضعف الرأى ، أفِن الرجــل يَأْفِن أفَناً أى ضعف رأيه ؛ وفى المثل : « إنّ الرّقين تُغَطّى أفَن الأفين »(١) والوهن : الضعف .

قوله : « واكفُفْ عليهنّ من أبصارهنّ » من هاهنا زائدة ؛ وهو مذهب أبى الحسن الأخفش فى زيادة من فى الموجب ، ويجوز أن يحمل على مذهب سيبويه ، فيعنىَ به : فاكفف عليهنّ بعض أبصارهنّ .

ثم ذكر فائدة الحجاب ، ونهـاه أن يُدخِلَ عليهنّ من لا يُوثق به ؛ وقال : إنّ خروجهنّ أهونُ من ذلك ، وذلك لأنّ مَنْ تلك صفتُه يتمكن من الخلوة مالا يتمكن منه مَنْ يراهنّ فى الطرقات .

ثم قال : « إن استطعت ألّا يعرفنَ غيركَ فافعل » . كان لبعضهم بنت حسناء ، فحجّ بها ، وكان يعصبُ عينيها ، ويكشف للناس وجهها ، فقيل له فى ذلك ، فقال : إنمــا الحذر مِن رؤيتها الناس ، لا من رؤية الناس لها .

قال : « ولا تملّك المرأة من أمرها ما جاوز نفسها » ؛ أى لا تدخلهــا معك فى تدبير ولا مشورة ، ولا تتعدّينّ حال نفسها وما يصلح شأنها .

فإن المرأة ريحانةٌ ، وليست بقهرمانة ؛ أى إنما تصلح للمتعة واللذّة ، وليست وكيلا فى مال ، ولا وزيرا فى رأى .

ثم أكّد الوصيّة الأولى ، فقال : لاتَعْدُ بكرامتها نفسها ، هذا هو قوله : « ولاتملّكها من أمرها ما جاوز نفسها » .

ثم نهاه أن يطمِعَها فى الشفاعات .

---

(١) اللسان (أفن ، رقن) والرقين : الدرهم ؛ سمى بذلك للترقين الذى فيه ؛ يعنون الخط .

وروى الزُّبير بن بكّار ، قال : كانت الخيزُران كثيراً ما تكلّم موسى ٱبنها — لمّا استخلف — فى الحوائج ؛ وكان يجيبها إلى كلّ ما تسأل، حتى مضت أربعة أشهر من خلافته وتتالى الناس عليها ، وطمعوا فيها ، فكانت المواكب تغدو إلى بابها ، وكلّمته يوما فى أمر فلم يجد إلى إجابتها سبيلا ، واحتجّ عليها بحجّة فقالت : لا بدّ من إجابتى ، فقال : لا أفعل ، قالت : إنّى قد ضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك ، فغضب موسى وقال : ويلى على ابن الفاعلة ! قد علمت أنه صاحبها ، والله لاقضيتُها لك ولا له ! قالت : والله لا أسألك حاجة أبدا ، قال : إذَنْ والله لا أبالى ؛ فقامت مغضَبة ، فقال : مكانك تستوعى كلامى ؛ وأنا والله برىء من قرابتى من رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ لئن بلغنى أنه وقف أحد من قوّادى وخاصّتى وخدمى وكتّابى على بابك لأضربنّ عنقه ، ولأقبضنّ ماله ، فمن شاء فليلزم ذلك ؛ ما هذه المواكب التى تغدو إلى بابك كلّ يوم ! أما لك مِغْزَل يشغلك ، أو مصحف يذكرك ، أو بيت يصونك ! إيّاك ثم إياك أن تفتحى فاك فى حاجة لملىّ أو ذمىّ . فانصرفت وماتعقل ما تطأ عليه، ولم تنطق عنده بحُلوة ولا مرّة بعدها حتّى هلك .

***

وأخذ هذه اللفظة منه وهى قوله : «إن المرأة ريحانة ، وليست بقهرمانة » الحجّاج فقالها للوليدبن عبد الملك؛ روى ابن قتيبةفى كتاب « عيون الأخبار» قال : دخل الحجّاج على الوليد ابن عبد الملك وعليه درع وعمامة سوداء وفرس عربيّة وكنانة ؛ وذلك فى أوّل قَدْمة قدمها عليه من العراق ؛ فبعثت أمّ البنين بنت عبد العزيز بن مروان وهى تحت الوليد إليه: مَنْ هذا الأعرابى المستلئم فى السلاح عندك وأنت فى غِلالة ! فأرسل إليها : هذا الحجّاج ؛ فأعادت إليه الرسول : [فقال : تقول لك :] والله لأن يخلو بك ملك الموت فى اليوم أحيانًا أحبُّ

إلىّ من أن يخلو بك الحجّاج : فأخبره الوليد بذلك وهو يمازحه ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول ، فإنما المرأة ريحانة ، وليست بقهرمانة ، فلا نطلعها على سرّك ومكايدة عدوّك . فلما دخل الوليد عليها أخبرها وهو يمازحها بمقالة الحجّاج، فقالت : يا أمير المؤمنين ، حاجتى أن تأمره غداً أن يأتينى مسلّما ؛ ففعل ذلك، فأتاها الحجاج فحجبته، فلم يزل قائما ، ثم أذنت له ، فقالت : يا حجّاج ، أنت الممتنّ على أمير المؤمنين بقتلك ابن الزبير وابن الأشعث ! أما والله لولا أنّ الله علم أنك شرُّ خلقه ما ابتلاك برمى الكعبة الحرام ولا بقتل ابن ذات النّطاقين ، أول مولود فى دار هجرة الإسلام ! وأما نهيك أمير المؤمنين عن مفاكهة النساء وبلوغ لذاته وأوطاره ، فإن كنّ ينفرجْنَ عن مثلك فما أحقّه بالأخذ منك! وإن كنّ ينفرجْنَ عن مثله فهو غير قابل لقولك ؛ أما والله لقد نقص نساء أمير المؤمنين الطيّب من غدائرهنّ فبعنه فى أعطية أهل الشام حين كنتَ فى أضيق من قرن ، قد أظلتك رماحهم ، وأثخنك كفاحهم ؛ وحين كان أمير المؤمنين أحبّ إليهم من أبنائهم وآبائهم ؛ فأنجاك الله من عدوّ أمير المؤمنين بحبّهم إياه ، قاتل الله القائل حين ينظر إليك ؛ وسنان غزالة بين كتفيك :

أسدٌ علىّ وفى الحروب نعامة ... رَبْدَاء تنفرُ من صفير الصافر (١)

هلاّ برزتَ إلى غزالة فى الوغى ... بل كان قلبك فى جناحَىْ طائر

قم فاخرج ، فقام فخرج (٢) .

* * *

---

(١) ذكر صاحب الأغانى أن غزالة الحرورية لما دخلت على الحجاج هى وشبيب بالكوفة تحصن منها ، وأغلق عليه قصره ؛ فكتب إليه عمران بن حطان — وقد كان الحجاج لج فى طلبه :

أَسَدٌ عَلَىَّ وفى الْحروبِ نَعَامَةٌ ... رَبْدَاءُ تَجْفُلُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافرِ

هَلاّ برزتَ إلى غَزالةَ فى الوَغَى ... بلْ كانَ قلبُكَ فى جَنَاحَىْ طائرِ

صَدَعَتْ غَزَالةُ قلبه بِفَوَارِسٍ ... تَرَكتْ مدابرهُ كأمس الدَّابِرِ

(٢) عيون الأخبار ١ : ١٧٠ ، ١٧١ .

[بعض ما قيل فى الغَيْرة من الشعر]

فأما قوله عليه السلام : « إياكَ والتغاير فى غير موضع غَيْرة » فقد قيل هـذا المعنى ، قال بعض المحدثين :

يأيّها الغـائر مَهْ لا تغَرْ　　إلّا لِماَ تُدْركه بالبَصَرْ
ما أنت فى ذلك إلّا كمَنْ　　بيّته الدبّ لرمْىِ الحجرْ

وكان مسكين الدارمىّ أحد مَنْ يستهجن الغـيرة ، ويستقبح وقوعَها فى غير محلّها ، فمن شعره فى هذا المعنى :

ما أحسنَ الغـيرةَ فى حِينها　　وأقبحَ الغَيْرة فى غير حينْ ![1]
مَنْ لم يزل متّهمـا عِرسَـه　　مناصباً فيهـا لرجْم الظّنونْ[2]
يوشك أن يغرِيَها بالذى　　يخاف ، أو ينصبها للعيـونْ
حسبُك من تحصينها ضَمُّها　　منك إلى خِيم كَريم ودِينْ
لا تَظْهرَنْ يوما على عورة　　فيتبع المقرون حَبـلَ القرينْ[3]

وقال أيضاً :

ألا أيّهـا الغائر المستشيطُ　　عـلام تَغـارُ إذ لم تُغَرْ ![4]
فما خيرُ عِرْس إذا خِفتَهـا　　وما خيرُ بيتٍ إذا لم يُزَرْ !
تغـارُ من النـاس أن ينظروا　　وهل يفتنُ الصالحات النظَرْ !
فإنّى سأخلِى لهـا بيتَهـا　　فتحفظَ لى نفسَهـا أو تَذَرْ

---

(١) أمالى المرتضى ١ : ٤٧٦ .　　(٢) الأمالى : « لرجم الظنون » .
(٣) أى إياك أن تطلع المرأة منك على زنا وريبة ، فإنها أيضاً تزنى ، أوتفعل كما فعلت .
(٤) أمالى المارضى ١ : ٤٧٥ ، ٤٧٦ .

إذا الله لم يعطـــه وُدَّها فلن يعطىَ الوُدّ سوطٌ مُمَرّ
وَمن ذا يُراعِى له عِرْسَهُ إذا ضمّه والرِّكاب السّفَرْ !(١)

وقال أيضا :

ولستُ امرأً لاأبرحُ الدّهرقاعداً إلى جنب عِرْسى لا أفارقها شِبْرا(٢)
ولا مقسماً لا أبرحُ الدّهر بيتهـا لأجعله قبل المات لهـا قـبْرا
ولا حاملًا ظـنّى ولا قولَ قائلٍ على غَـيرةٍ حتى أحيط به خُبْرَا
وهبنى امرأً راعيتُ مادمت شاهداً فـكيف إذاماسرتُ من بيتها شهرا!
إذا هى لم تُحصِنْ لمـا فى فنائها فليس بمنجيهاَ بنائى لها قصرا

فأما قوله : « واجعل لكلّ إنسان من خَدَمك عملا تأخذه به » ، فقد قالت الحكماء هذا المعنى ، قال أبرويز فى وصيّته لولده شيرويه : وانظر إلى كتّابك ، فمَن كان منهم ذا ضياع قدأحسن عمارتها فولّه الخراج ، ومَنْ كان منهم ذا عَبيد قد أحسن سياستهم وتثقيفهم فولّه الجند ، ومن كان منهم ذا سرارىّ وضرائر قد أحسن القيام عليهنّ فولّه النفقات والقهرمة ، وهكذا فاصنع فى خَدَم دارك ، ولا تجعل أمرك فوضَى بين خدمك فيفسد عليك ملكك .

وأمّا قوله : « فأكرِم عشيرتك فإنّهم جناحك » فقد تقدّم منّا كلام فى وجوب الاعتضاد بالعشائر .

***

[اعتزاز الفرزدق بقومه]

روى أبو عبيدة قال : كان الفرزدق لا ينشد بين يدى الخلفاء والأمراء إلّا قاعداً ،

(١) الأمالى : « المطى » .
(٢) أمالى المرتضى ١ : ٤٧٦ ، وروايته : « وإنى امرؤ » .

فدخل على سليمان بن عبد الملك يوما ، فأنشده شعرا فخَر فيه بآبائه ، وقال من جملته :

تالله ما حملتْ من ناقة رجُلا   مثلى إذا الريح لفّتنِى على الكُورِ(١)

فقال سليمان : هذا المدح لى أم لك ! قال : لى ولك يأميرَ المؤمنين ، فغضب سليمان وقال : قم فأتم ، ولا تنشد بعده إلا قائما ، فقال الفرزدق : لا والله أو يسقط إلى الأرض أكثرى شعرا . فقال سليمان : ويلى على الأحمق ابن الفاعلة ! لا يكنى ، وارتفع صوتُه ، فسمع الضوضاء بالباب ، فقال سليمان : ما هذا ؟ قيل : بنو تميم على الباب ، قالوا : لا ينشد الفرزدق قائما وأيدينا فى مقابض سيوفنا ، قال : فلينشد قاعدا .

***

[وفود الوليد بن جابر على معاوية]

وروى أبو عبيد الله محمد بن موسى بن عمران المرزبانىّ ، قال : كان الوليد بن جابر بن ظالم الطائىّ ممّن وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلّم فأسلم ، ثمّ صحب عليا عليه السلام ، وشهد معه صِفين ، وكان من رجاله المشهورين ، ثمّ وفد على معاوية فى الاستقامة(٢) ، وكان معاوية لا يثبتُه(٣) ؛ معرفةً بعينه ؛ فدخل عليه فى جملة الناس ، فلما انتهى إليه استنسبه ، فانتسب له ، فقال : أنت صاحب ليلة الهرير ؟ قال : نعم ، قال : والله ما تخلو مسامعى من رجَزِك تلك الليلة ، وقد علا صوتك أصوات الناس ، وأنت تقول :

شُدّوا فداءٌ لكم أمّى وأبْ   فإنّما الأمرُ غداً لمن غلبْ

هذا ابنُ عم المصطفى والمنتجَبْ   تَنْمِه للعَلْياء سادات العَرَبْ

ليس بموصومٍ إذا نصّ النّسَبْ   أوّل مَنْ صلّى وصام واقتربْ

قال : نعم ، أنا قائلها . قال : فلماذا قلتَها ؟ قال : لأنا كنا مع رجل لا نعلم خصلة

---

(١) من قصيدة فى ديوانه ١ : ٢٦٢ — ٢٦٧ ؛ وذكر فيه أنه مدح بها يزيد بن عبد الملك .

(٢) كذا فى الأصول .

(٣) كذا فى ا وهو الصواب ، وفى ب : « لا ينسبه » .

توجب الخلافة ، ولا فضيلة تصير إلى التقدمة ، إلّا وهى مجموعة له ؛ كان أوّلَ الناس سِلْما ، وأكثرَهم علماً ، وأرجحَهم حلما ، فات الجياد فلا يشق غباره ، يستولى على الأمدفلا يخاف عثاره ، وأوضح منهج الهدى فلا يبيد مناره ، وسلك القصد فلا تدرُس آثاره ، فلمّا ابتلانا الله تعالى بافتقاده ، وحوّل الأمر إلى من يشاء من عباده ، دخلنا فى جملة المسلمين فلم ننزع يدا عن طاعة ، ولم نصدع صفاة جماعة ؛ على أن لك منّا ماظهر ، وقلوبنا بيدالله ، وهو أملَك بها منك ، فاقبل صفوَنا ، وأعرِض عن كدرنا ، ولا تُثِرْ كوامنَ الأحقاد ، فإنّ النار تقدَح بالزناد . قال معاوية : وإنّك لتهددنى يا أخا طيّئ بأوباش العراق أهل النفاق ، ومَعدن الشقاق ! فقال : يا معاوية هم الذين أشرقوك بالريق ، وحبسوكَ فى المضيق ، وذادوك عن سَنَن الطريق ؛ حتى لذت منهم بالمصاحف ؛ ودعوت إليها من صدّق بها وكذبت ، وآمن بمنزلها وكفرت ، وعرف من تأويلها ما أنكرت . فغضب معاوية وأدار طرْفه فيمَنْ حوله فإذا جلُّهم من مُضَر ونفر قليل من اليمن ، فقال : أيّها الشقىّ الخائن ؛ إنّى لإخال أنّ هذا آخر كلام تفوّهُ به — وكان عُفَيْر[١] بن سيف بن ذى يزن بباب معاوية حينئذ — فعرف موقف الطائىّ ومراد معاوية ، فخافه عليه ، فهجم عليهم الدار ، وأقبل على اليمانيّة ، فقال : شاهت الوجوه ذلاًّ وقلاًّ ، وجَدْعا وفَلاًّ ، كَشَم الله هذه الأنف كَشْما[٢] مرعبا . ثم التفت إلى معاوية ، فقال : إنّى والله يا معاوية ما أقول قولى هذا حبًّا لأهل العراق ، ولا جنوحا إليهم ؛ ولكن الحفيظة تذهب الغضب ، لقد رأيتك بالأمس خاطبت أخا ربيعة — يعنى صعصعة بن صُوحان . وهو أعظم جُرماً عندك من هذا ، وأنكأ[٣] لقلبك ، وأقدح فى صَفاتك ، وأجدّ فى عداوتك ، وأشد انتصارا فى حربك ، ثم أثبتَه وسرّحته ؛ وأنت الآن مجمع على قتل هذا — زعمت — استصغارا لجماعتنا ! فإنّا لا نمرّ ولا نُحلى ؛ ولعمرى لو وكلتْك أبناء قحطان إلى قومك لكان جَدّك العاثر ، وذكرك الداثر ،

(١) ا : « عفيرة » . (٢) ب : « كثم » تحريف صوابه من ا ، وكشم الأنف : استأصله قطعاً .
(٣) كذا فى ا . وفى ب : « وإذكاء » .

وحدّك المفلول ، وعرشك المثلول ، فاربع على ظلْعِك[١] ، واطونا على بُلالتنا[٢] ، ليسهل لك حَزْننا ، ويتطامن لك شاردنا ، فإنا لا نرأمُ بوَقع الضيم ، ولا نتلمّظ جُرع الخسف ، ولا نغمز بغماز الفتن ، ولا نذر على الغضب . فقال معاوية : الغضب شيطان ، فاربَعْ نفسك أيّها الإنسان ، فإنا لم نأت إلى صاحبك مكروها ، ولم نرتكب منه مغضبا ، ولم ننتهك منه محرّما ، فدونكه فإنّه لم يضقْ عنه حلْمنا ويسع غيره . فأخذ عُفَير بيد الوليد ، وخرج به إلى منزله ، وقال له : والله لتؤوبنّ بأكثر ممّا آب به معدىّ من معاوية . وجمع مَنْ بدمشق من اليمانية ، وفرض على كلّ رجل دينارين فى عطائه ، فبلغت أربعين ألفا ، فتعجّلها من بيت المال ، ودفعها إلى الوليد ، وردّه إلى العراق .

---

(١) اربع على ظلعك ، أى توقف .
(٢) اطونا على بلالتنا .

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية :

وَأَرْدَيْتَ جِيلًا مِنَ النَّاسِ كَثِيرًا ؛ خَدَعْتَهُمْ بِغَيِّكَ ، وَأَلْقَيْتَهُمْ فِي مَوْجِ بَحْرِكَ ، تَغْشَاهُمُ الظُّلُمَاتُ ، وَتَتَلَاطَمُ بِهِمُ الشُّبُهَاتُ ، فَجَارُوا عَنْ وِجْهَتِهِمْ ، وَنَكَصُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ ، وَتَوَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ ، وَعَوَّلُوا عَلَى أَحْسَابِهِمْ ، إِلَّا مَنْ فَاءَ مِنْ أَهْلِ الْبَصَائِرِ ، فَإِنَّهُمْ فَارَقُوكَ بَعْدَ مَعْرِفَتِكَ ، وَهَرَبُوا إِلَى اللهِ مِنْ مُوَازَرَتِكَ ، إِذْ حَمَلْتَهُمْ عَلَى الصَّعْبِ ، وَعَدَلْتَ بِهِمْ عَنِ الْقَصْدِ .

فَاتَّقِ اللهَ يَا مُعَاوِيَةُ فِي نَفْسِكَ ، وَجَاذِبِ الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ . فَإِنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ عَنْكَ ، وَالْآخِرَةُ قَرِيبَةٌ مِنْكَ ، والسلام .

* * *

الشرح :

أرديتَهم : أهلكتهم . وجيلا من الناس ، أى صِنْفاً من الناس . والغىّ : الضلال . وجاروا : عدلوا عن القصد . ووِجهتهم ؛ بكسر الواو ، يقال : هذا وجه الرأى ، أى هو الرأى بنفسه ، والاسم الوِجه بالكسر ويجوز بالضم .

قوله : « وعوّلوا عَلَى أحسابهم » ؛ أى لم يعتمدوا على الدّين ؛ وإنما أردتهم الحميّة ونخوة الجاهلية، فأخلدوا إليها وتركوا الدين، والإشارة إلى بنى أميّة وخلفائهم الّذين اتّهموه عليه السلام بدم عثمان ، فحاموا عن الحسب ، ولم يأخذوا بموجب الشرع فى تلك الواقعة

ثم استثنى قوما فاءوا ، أى رجعوا عن نُصرة معاوية ؛ وقد ذكرنا فى أخبار صِفِّين مَنْ فارق معاوية ورجع إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، أو فارقه واعتزل الطائفتين.

قوله : « حملتهم على الصعب » أى على الأمر الشاقّ ؛ والأصل فى ذلك البعير المستصعَب يركبه الإنسان فيغرّر بنفسه .

* * *

[ذكر بعض ما دار بين علىّ ومعاوية من الكتب]

وأول هذا الكتاب :

من عبد الله علىّ أمير المؤمنين عليه السلام إلى معاوية بن أبى سفيان ، أمّا بعد ، فإنّ الدنيا دار تجارة ، وربحها أو خُسرها الآخرة ؛ فالسعيد مَنْ كانت بضاعته فيها الأعمال الصالحة ، ومَنْ رأى الدنيا بعينها ، وقدّرها بقدرها ! وإنى لأعظك مع علمى بسابق العلم فيك ممّا لا مردّ له دون نَفاذه ؛ ولكن الله تعالى أخذ على العلماء أن يؤدّوا الأمانة ، وأن ينصحوا الغوىّ والرشيد ، فاتّق الله؛ ولاتكن ممن لا يرجو لله وقارا ، ومَنْ حقّت عليه كلمة العذاب ؛ فإنّ الله بالمرصاد . وإنّ دنياك ستدبر عنك ، وستعود حسرةً عليك ؛ فأقلع عمّا أنت عليه من الغىّ والضلال ، على كبر سنّك ، وفناء عمرك ؛ فإن حالك اليوم كحال الثوب المَهيل الذى لا يصلح من جانب إلّا فسد من آخر ، وقد أرديتَ جيلا من الناس كثيرا ، خدعتهم بغيّك . . . إلى آخر الكتاب .

قال أبو الحسن على بن محمد المدائنىّ : فكتب إليه معاوية :

من معاوية بن أبى سفيان إلى علىّ بن أبى طالب ، أمّا بعد ؛ فقد وقفتُ على كتابك ، وقد أبيتَ على الفتن إلّا تماديا ، وإنّى لعالم أنّ الذى يدعوك إلى ذلك مصرعُك الّذى

لا بدّ لك منه ؛ وإنْ كنت موائلا ، فازدد غيًّا إلى غيّـك ، فطالما خفّ عقلُك ، ومنّيت نفسك ماليس لك ، والتويت على مَنْ هو خير منك ؛ ثم كانت العاقبة لغيرك ، واحتملت الوزْر بما أحاط بك من خطيئتك . والسلام .

فكتب علىّ عليه السلام إليه :

أما بعـد ، فإنّ ما أتيت به من ضلالك ليس ببعيد الشّبَه مما أتى به أهلُك وقومك الذين حملهم الكفرُ وتمنّى الأباطيل على حسد محمد صلى الله عليه وسلم حتى صُرعوا مصارعَهم حيث علمت ؛ لم يمنعوا حريماً ، ولم يدفعوا عظيما ، وأنا صاحبهم فى تلك المواطن ، الصالى بحرْبهم ، والفالّ لحدِّهم ، والقاتل لرءوسهم ورءوس الضلالة ، والمتْبِع إن شاء الله خلفَهم بسلَفهم ؛ فبئس الخَلَف خلَفٌ أتبع سلفاً محله ومحطّه النار . والسلام .

قال : فكتب إليه معاوية :

أما بعد ؛ فقد طال فى الغىّ ما استمررت أدراجك ، كما طالما تمادى عن الحرب نكوصُك وإبطاؤك ، فتُوعد وعيد الأسد ، وترُوغ رَوَغان الثعلب ، فحتامَ تحيد عن لقاء مباشرة الليوث الضارية ، والأفاعى القاتلة ، ولا تستبعدنّها ، فكلّ ما هو آت قريب إن شاء الله . والسلام .

قال : فكتب إليه علىٌّ عليه السلام :

أمّا بعد ، فما أعجب ما يأتينى منك ، وما أعلمنى بما أنت إليه صائر ! وليس إبطائى عنك إلّا ترقّبا لما أنت له مكذّب ؛ وأنا به مصدّق ! وكأنى بك غداً وأنت تضجّ من الحرب ضجيجَ الجمال من الأثقال ، وستدعونى أنت وأصحابك إلى كتاب تعظّمونه بألسنتكم ، وتجحدونه بقلوبكم . والسلام .

قال : فكتب إليه معاوية :

أمّا بعد ، فدعنى من أساطيرك ، واكففُ عنّى من أحاديثك ، واقصر عن تقوّلك على رسول الله صلى الله عليه وسلّم وافترائك من الكذب ما لم يقل ، وغرور مَنْ معك والخداع لهم ؛ فقد استغويتَهم ، ويوشك أمرك أن ينكشف لهم فيعتزلوك ، ويعلموا أنّ ما جئت به باطل مضمحلّ. والسلام .

قال : فكتب إليه علىّ عليه السلام :

أمابعد ؛ فطالما دعوت أنت وأولياؤك أولياء الشيطان الرّجيم الحقّ(١) أساطير الأولين، ونبذتموه وراء ظهوركم ، وجهدتم بإطفاء نور الله بأيديكم وأفواهكم ، والله متمّ نوره ولو كره الكافرون . ولعمرى ليتمنّ النّور على كرهك ، ولينفذنّ العلم بصَغارك ، ولتجازينّ بعملك ، فعثْ فى دنياك المنقطعة عنك ما طاب لك ؛ فكأنك بباطلك وقد انقضى ، وبعملك وقد هوى ؛ ثم تصير إلى لظًى ؛ لم يظلمك الله شيئاً ، وما ربك بظلام للعبيد !

قال : فكتب إليه معاوية :

أمّابعد ؛ فما أعظم الرَّيْن على قلبك، والغطاء على بصرك! الشَّرَهُ من شيمتك، والحسدُ من خليقتك ، فشمر للحرب ، واصبر للضّرْب، فوالله ليرجعنّ الأمر إلى ماعلمت، والعاقبة للمتقين. هيهات هيهات! أخطأك ماتمنّى ، وهوى قلبك مع من هوى ؛ فاربَعْ على ظَلْعك ، وقِسْ شبرَك بفتْرِك ؛ لتعلم أين حالك من حال من يزن الجبال حلمه، ويفصل بين أهل الشك علمه. والسلام.

قال : فكتب إليه علىّ عليه السلام :

أمّا بعد ، فإنّ مَساوئك مع علم الله تعالى فيك حالت بينك وبين أن يصلح لك أمرك، وأن يرعوىَ قلبك ، يابن الصَّخْر اللّعين ! زعمت أن يزن الجبالَ حلمُك ، ويفصل بين أهل الشك علمك ، وأنت الجِلْف المنافق، الأغلف القلب، القايل العقل، الجبان الرّذْل ، فإن كنت صادقاً فيما تسطّر، ويعينك عليه أخو بنى سَهْم، فدع الناس جانبا، وتيسر لما دعوتَنى إليه من الحرْب، والصبر على

(١) كذا فى ا ، وفى ب : « للحق » .

الضرب ، واعفُ الفريقين من القتال ، ليعلم أيّنا المرين على قلبه ، المغطَّى على بصره ، فأنا أبو الحسن ، قاتل جدّك وأخيك وخالك ، وما أنت منهم ببعيد ؛ والسلام !

* * *

قات : وأعجب وأطرب ما جاء به الدهر ــ وإن كانت عجائبه وبدائعه جمّة ــ أن يُفضيَ أمر علىّ عليه السلام إلى أن يصير معاوية نِدًّا له ونظيرا مماثلا، يتعارضان الكتاب والجواب، ويتساويان فيما يواجه به أحدهما صاحبه ، ولا يقول له علىّ عليه السلام كلمة إلا قال مثلها ، وأخشن مَسًّا منها ، فليت محمدا صلى الله عليه وآله كان شاهدَ ذلك ؛ ليرى عِيانا لا خبَراً أنّ الدعوة التى قام بها، وقاسى أعظم المشاقّ فى تحمّلها ، وكابد الأهوال فى الذبّ عنها، وضرب بالسيوف عليها لتأييد دولتِها ؛ وشيّد أركانها ، وملأ الآفاق بها ، خلَصت صفوا عفوا لأعدائه الّذين كذبوه ؛ لما دعا إليها ، وأخرجوه عن أوطانه لما حضّ عليها ، وأدموْا وجهه ، وقتلوا عمّه وأهله ، فكأنه كان يسعى لهم ، ويدأب لراحتهم ؛ كما قال أبو سفيان فى أيام عثمان ، وقد مرّ بقبر حمزة ، وضربه برجله ، وقال ؛ يا أبا عُمارة ! إنّ الأمر الذى اجتلدنا عليه بالسيف أمسى فى يد غِلمانِنا اليوم يتلعّبون به ! ثم آل الأمر إلى أن يفاخر معاويةُ عليًّا، كما يتفاخر الأكفاء والنظراء ...

إذا عَيّر الطائىَّ بالبخلِ مادِرٌ	وقرّعَ قُسًّا بالفَهاهـة باقـلُ
وقال السُّها للشّمسِ : أنت خَفيّةٌ	وقال الدُّجَى : يا صبح لونُك حائلُ
وفاخَرتِ الأرضُ السماءَ سفاهةً	وكاثرتِ الشهبَ الحصا والجنادلُ
فياموت زُرْ إنّ الحياة ذميمةٌ	ويانفس جِدّى إنّ دهرَكِ هازل!

ثم أقول ثانيا لأمير المؤمنين عليه السلام : ليت شعرى ؛ لماذا فتح باب الكتاب

---

(١) لأبى العلاء ، سقط الزند ٥٣٣ .

والجواب بينه وبين معاوية! وإذا كانت الضرورة قد قادت إلى ذلك، فهلا اقتصر فى الكتاب إليه على الموعظة من غير تعرّض للمفاخرة والمنافرة! وإذا كان لا بدّ منهما فهلّا اكتفى بهما من غير تعرّض لأمر آخر يوجب المقابلة والمعارضة بمثله، وبأشدّ منه: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[1] وهلّا دفع هذا الرجل العظيم الجليل نفسه عن سِباب هذا السفيه الأحمق، هذا مع أنه القائل: مَنْ واجَهَ الناس بما يكرهون قالوا فيه ما لا يعلمون! أى افتروا عليه وقالوا فيه الباطل.

أيّها الشاتمى لِتحسَبَ مثلِى إنّما أنت فى الضلال تَهيمُ[2]
لا تَسُبَّنَّنى فلستَ بسِبّى إن سِبّى من الرجال الكريم[3]

وهكذا جرى فى القنوت واللعن، قَنت بالكوفة على معاوية، ولعنه فى الصلاة وخطبة الجمعة، وأضاف إليه عمرو بن العاص وأبا موسى وأبا الأعور السلمىّ وحبيب بن مسلمة، فبلغ ذلك معاوية بالشام، فقنت عليه، ولعنه بالصلاة، وخطبة الجمعة، وأضاف إليه الحسن والحسين وابن عباس والأشتر النخعى؛ ولعلّه عليه السلام قد كان يظهر له من المصلحة حينئذ ما يغيب عنّا الآن، ولله أمر هو بالغه!

---

(١) سورة الأنعام ١٠٨. (٢) لعبد الرحمن بن حسان بن ثابت يهجو مسكيناً الدارمى.
(٣) السب: بالكسر: الذى يسابك.

(٣٣)

الأصلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى قُثم بن العباس وهو عامله على مكة :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ عَيْنِي بِالْمَغْرِبِ كَتَبَ إِلَيَّ يُعْلِمُنِي أَنَّهُ وُجِّهَ إِلَى الْمَوْسِمِ أُنَاسٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ ، الْعُمْيِ الْقُلُوبِ ، الصُّمِّ الْأَسْمَاعِ ، الْكُمْهِ الْأَبْصَارِ ، الَّذِينَ يَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ، وَيُطِيعُونَ الْمَخْلُوقَ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ ، وَيَحْتَلِبُونَ الدُّنْيَا دَرَّهَا بِالدِّينِ ، وَيَشْتَرُونَ عَاجِلَهَا بِآجِلِ الْأَبْرَارِ الْمُتَّقِينَ ؛ وَلَنْ يَفُوزَ بِالْخَيْرِ إِلَّا عَامِلُهُ ، وَلَا يُجْزَى جَزَاءَ الشَّرِّ إِلَّا فَاعِلُهُ .

فَأَقِمْ عَلَى مَا فِي يَدَيْكَ قِيَامَ الْحَازِمِ الطَّبِيبِ ، وَالنَّاصِحِ اللَّبِيبِ ، التَّابِعِ لِسُلْطَانِهِ ، الْمُطِيعِ لِإِمَامِهِ .

وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ ، وَلَا تَكُنْ عِنْدَ النَّعْمَاءِ بَطِرًا ، وَلَا عِنْدَ الْبَأْسَاءِ فَشِلًا . والسلامُ .

***

الشَّرحُ :

كان معاوية قد بعث إلى مكة دعاة فى السرّ يدعون إلى طاعته ، ويثبّطون العرب عن نصرة أميرِ المؤمنين ، ويوقعون فى أنفسهم أنه إمّا قاتلٌ لعثمان أو خاذل ، وإنّ الخلافة

لا تصلح فيمن قتل أو خذل ، وينشرون عنـدهم محاسن معاوية بزعمهم وأخلاقه وسيرته ، فـكتب أميرُ المؤمنين عليه السلام هـذا الـكتاب إلى عامله بمـكّة ، ينبّهه على ذلك ليعتمد فيه بمـا تقتضيه السياسة ، ولم يصرح فى هـذا الـكتاب بمـاذا يأمره أن يفعـل إذا ظفر بهم .

قوله : « عينى بالمغرب » ، أى أصحاب أخباره عند معاوية ، وسمّى الشام مغربا لأنه من الأقاليم المغربية .

والموسم : الأيام التى يقام فيها الحج .

وقوله : « ويحتلبون الدنيا دَرّها بالدّين » دلالة على ما قلنا : إنّهم كانوا دُعاة يظهرون سَمْت الدين ، وناموس العبادة ؛ وفيـه إبطال قول مَنْ ظنّ أنّ المراد بذلك السّرايا التى كان معاوية يبعثها ، فتُغيرُ على أعمال علىّ عليه السلام . ودرَّها منصوب بالبـدل « من الدنيا » وروى : « الذين يلتمسون الحق بالباطل » أى يطلبونه ؛ أى يتبعون معاوية وهو على الباطل التماسا وطلبا للحقّ ، ولا يعلمون أنهم قد ضلوا .

قوله : « وإيّاك وما يعتذَر منه » من الـكلمات الشريفة الجليلة الموقـع ، وقد رويت مرفوعة ، وكان يقـال : ما شىء أشدّ على الإنسان من حمْـل المروءة ، والمروءة ألا يعمل الإنسان فى غيبة صاحبه ما يعتذَر منه عند حضوره .

قوله : « ولا تـكن عند النعماء بطرا ، ولا عنـد البأساء فشلا » معنًى مستعمل ، قال الشاعر :

فلستُ بمفراحٍ إذا الدّهر سرّنِى ... ولا جازعٌ من صَرْفه المتقلّبِ
ولا أتمنّى الشرّ والشرّ تاركى ... ولـكنْ مَتَى أُحمل على الشرّ أركب

* * *

[قُثَم بن عباس وبعض أخباره]

فأما قُثَم بن العباس ، فأمّه أم إخوته ، وروى ابن عبد البرّ فى كتاب " الاستيعاب " ، عن عبد الله بن جعفر ، قال : كنت أنا وعبيد الله وقُثم ابنا العباس نلعب ، فمر بنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم راكبا ، فقال : « ارفعوا إلىّ هذا الفتى » يعنى قُثم ــ فرفع إليه ! فأردفه خلفه ، ثم جعلنى بين يديه ، ودعا لنا ، فاستشهد قُثَم بسَمَرْقند .

قال ابن عبْــد البرّ : وروى عبد الله بن عباس ، قال : كان قُثَم آخرَ الناس عهدًا برسول الله صلى لله عليه وسلم أى آخر من خرج من قبره ممن نزل فيه . قال : وكان المغيرة ابن شعبة يدّعى ذلك لنفسه ، فأنــكر علىّ بن أبى طالب عليــه السلام ذلك ، وقال : بل آخر مَنْ خرج من القبر قُثَم بن العباس .

قال ابن عبد البرّ : وكان قُثم واليا لعلىٍّ عليــه السلام على مكة ، عزل علىٌّ عليه السلام خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومىّ ــ وكان واليها لعثمان ــ وولّاهــا أبا قتادة الأنصارىّ ، ثم عزله عنها وولى مكانه قُثَم بن العباس ، فلم يزل واليه عليها حتى قتــل علىٌّ عليه السلام . قال : هذا قول خليفة (٢) ، وقال الزّبير بن بكار : استعمل علىّ عليه السلام قُثم ابن العباس على المدينة .

قال ابن عبد البرّ : واستشهد قُثم بسَمَرْقَنْد ، كان خرج إليها مع سعيد بن عثمان بن عفان زمن معاوية فقتل هناك (١)

قال : وكان قُثَم يشبه رسول الله صلى الله عليه وآله ، وفيه يقول داود بن مسلم (٣) :

---

(١) الاستيعاب ٥٥١ ــ ٥٥٢ .

(٢) هو خليفة بن خياط الشيبانى المعروف بشباب ، محدث نسابة . وانظر طبقات الحفاظ ٢ : ٢١ .

(٣) فى الاستيعاب : « سليم » .

عُتِقْتِ من حِلٍّ ومن رحلةٍ　　يا ناقُ إن أدنيتِنِى من قُثَمْ
إنّكِ إن أدنَيْتِ منه غداً　　حالفنى اليُسر ومات العدَمْ
فى كفّهِ بحرٌ وفى وجهه　　بَدْرٌ وفى العِرْنينِ منه شَمَمْ
أصمّ عن قيل الخنا سمعه　　وما على الخير به من صَمَمْ
لم يدرِ ما «لا» و بـ«لا» قد درَى　　فعافَها واعتاض منها نَعَمْ

(٣٤)

الأصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام :

إلى محمد بن أبي بكر لما بلغه توجّده من عزله بالأشتر عن مصر ، ثم توفِّيَ الأشتر في توجّهه إلى هناك قبل وصوله إليها :

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ بَلَغَنِي مَوْجِدَتُكَ مِنْ تَسْرِيحِ الْأَشْتَرِ إِلَى عَمَلِكَ . وَإِنِّي لَمْ أَفْعَلْ ذَلِكَ اسْتِبْطَاءً لَكَ فِي الْجَهْدِ ، وَلَا ازْدِيَادًا لَكَ فِي الْجِدِّ ، وَلَوْ نَزَعْتُ مَا تَحْتَ يَدِكَ مِنْ سُلْطَانِكَ ، لَوَلَّيْتُكَ مَا هُوَ أَيْسَرُ عَلَيْكَ مَؤُونَةً ، وَأَعْجَبُ إِلَيْكَ وِلَايَةً .

إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي كُنْتُ وَلَّيْتُهُ أَمْرَ مِصْرَ كَانَ رَجُلًا لَنَا نَاصِحًا ، وَعَلَى عَدُوِّنَا شَدِيدًا نَاقِماً ، فَرَحِمَهُ اللهُ! فَلَقَدِ اسْتَكْمَلَ أَيَّامَهُ ، وَلَاقَى حِمَامَهُ، وَنَحْنُ عَنْهُ رَاضُونَ ؛ أَوْلَاهُ اللهُ رِضْوَانَهُ ، وَضَاعَفَ الثَّوَابَ لَهُ !

فَأَصْحِرْ لِعَدُوِّكَ ، وَامْضِ عَلَى بَصِيرَتِكَ ، وَشَمِّرْ لِحَرْبِ مَنْ حَارَبَكَ ، وَادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ ، وَأَكْثِرِ الِاسْتِعَانَةَ بِاللهِ يَكْفِكَ مَا أَهَمَّكَ ، وَيُعِنْكَ عَلَى مَا يُنْزِلُ بِكَ ، إِنْ شَاءَ اللهُ .

***

الشَّرْحُ :

[محمد بن أبي بكر وبعض أخباره]

أم محمد رحمه الله أسماء بنت عُميس الخثعميّة : وهي أخت ميمونة زوج النبي صلى الله

عليه وآله ، وأخت لبـابة أم الفضل وعبد الله زوج العباس بن عبد المطلب ؛ وكانت من المهاجرات إلى أرض الحبشة ؛ وهى إذ ذاك تحت جعفر بن أبى‌طالب عليه السلام ، فولدت له هناك محمد بن جعفر وعبد الله وعونا ، ثم هاجرت معه إلى المدينة ، فلمّا قتل جعفر يوم مؤتة تزوّجها أبو بكر ، فولدت له محمد بن أبى بكر هذا ، ثم مات عنها فتزوّجها علىّ عليه السلام ، وولدت له يحيى بن علىّ ، لا خلاف فى ذلك .

وقال ابن عبد البر فى ،، الاستيعاب ،، : ذكر ابن الـكلبى أنّ عون بن علىّ اسم أمّه أسماء بنت عميس ، ولم يقل ذلك أحدٌ غيره .

وقد روى أنّ أسماء كانت تحت حمزة بن عبد المطلب ، فولدت له بنتا تسمى أمـة الله ــ وقيل أمامة ــ ومحمد بن أبى بكر ممن ولد فى عصر رسول الله صلى الله عليه وآله .

قال ابن عبدالبرّ فى كتاب ،، الاستيعاب ،، : ولد عام حجة الوداع فى عقب ذى‌القعدة بذى الحليفة ، حين توجه رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الحجّ ، فسمّته عائشة محمدا ، وكنّته أبا القاسم بعد ذلك لما ولد له ولد سماه القاسم ؛ ولم تـكن الصحابة ترى بذلك بأسا ؛ ثم كان فى حجْر علىّ عليه السلام ، وقتل بمصر ، وكان علىّ عليه السلام يُثنى عليه ويقرّظه ويفضّله ؛ وكان لمحمد رحمه الله عبادة واجتهاد ؛ وكان ممّن حضر عثمان ودخل عليه ، فقال له : لو رآك أبوك لم يسرّه هذا المقام منك ! فخرج وتركه ، ودخل عليه بعده مَنْ قتله . ويقال: إنه أشار إلى مَنْ كان معه فقتلوه[١] .

***

قوله : « وبلغنى موجدتك »، أى غضبك ، وجدت على فلان مَوْجِدة ، ووِجدانا لغة قليلة ؛ وأنشدوا :

كِلانَا ردّ صاحبَـــهُ بغيظٍ   على حَنَقٍ ووِجْدانٍ شديدِ[٢]

(١) الاستيعاب ٢٤٢ .

(٢) لصخر الغى ؛ اللسان ، الصحاح (وجد) .

فأما فى الحزن فلا يقال إلا وَجَدت أنا بالفتح لا غير .

والجهد : الطاقة ، أى لم استبطئك فى بذل طاقتك ووسعك ، ومن رواها الجَهْد بالفتح فهو من قولهم : اجهد جَهدك فى كذا ، أى ابلغ الغاية ، ولا يقال هذا الحرف هاهنا إلّا مفتوحا .

ثمّ طيّب عليه السلام نفسه بأن قال له : لو تمّ الأمر الذى شرعت فيه من ولاية الأشتر مصر لعوّضتك بما هو أخفّ عليك مئونة وثقلا ، وأقلّ نصبا من ولاية مصر ، لأنه كان فى مصر بإزاء معاوية من الشام وهو مدفوع إلى حربه .

ثم أكّد عليه السلام ترغيبه بقوله : « وأعجب إليك ولاية » .

فإن قلت : ما الذى بيده ممّا هو أخفّ على محمد مئونة وأعجب إليه من ولاية مصر ؟

قلت : ملْك الإسلام كلُّه كان بيد علىّ عليه السلام إلّا الشام ، فيجوز أن يكون قد كان فى عزمه أن يولّيَه اليمن أو خراسان أو أرمينيَة أو فارس .

ثم أخذ فى الثناء على الأشتر وكان علىّ عليه السلام شديد الاعتضاد به ، كما كان هو شديد التحقّق بولايته وطاعته .

وناقما ، من نقمت على فلان كذا ، إذا أنكرته عليه وكرهته منه .

ثم دعا له بالرضوان ؛ ولست أشك بأنّ الأشتر بهذه الدعوة يغفر الله له ويكفّر ذنوبه ، ويدخله الجنّة ، ولا فرق عندى بينها وبين دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وياطُوبَى لمن حصل له من على عليه السلام بعض هذا !

قوله : « وأَصْحِر لعدوّك » أى ابرز له ولا تستتر عنه بالمدينة التى أنت فيها ، أصحر الأسدُ من خِيسه ، إذا خرج إلى الصحراء .

وشمر فلان للحرب ، إذا أخذ لها أهبتَها .

(٣٥)

الأَصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى عبدالله بن العباس بعد مقتل محمد بن أبي بكر :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ مِصْرَ قَدِ افْتُتِحَتْ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ رَحِمَهُ اللهُ قَدِ اسْتُشْهِدَ ، فَعِنْدَ اللهِ نَحْتَسِبُهُ وَلَدًا نَاصِحًا ، وَعَامِلًا كَادِحاً ، وَسَيْفاً قَاطِعاً ، وَرُكْناً دَافِعاً .

وَقَدْ كُنْتُ حَثَثْتُ النَّاسَ عَلَى لَحَاقِهِ ، وَأَمَرْتُهُمْ بِغِيَاثِهِ قَبْلَ الْوَقْعَةِ ، وَدَعَوْتُهُمْ سِرًّا وَجَهْرًا ، وَعَوْدًا وَبَدْءًا ، فَمِنْهُمُ الآتِي كَارِهاً ، وَمِنْهُمُ الْمُعْتَلُّ كَاذِباً ؛ وَمِنْهُمُ الْقَاعِدُ خَاذِلًا .

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ فَرَجاً عَاجِلًا ؛ فَوَاللهِ لَوْلَا طَمَعِي عِنْدَ لِقَائِي عَدُوِّي فِي الشَّهَادَةِ ، وَتَوْطِينِي نَفْسِي عَلَى الْمَنِيَّةِ ، لَأَحْبَبْتُ أَلَّا أَبْقَى مَعَ هَؤُلَاءِ يَوْماً وَاحِدًا ، وَلَا أَلْتَقِيَ بِهِمْ أَبَدًا .

***

الشَّرْحُ :

انظر إلى الفصاحة كيف تعطى هذا الرّجل قيادها ، وتملّكه زمامها ؛ واعجب لهذه الألفاظ المنصوبة، يتلو بعضها بعضاً كيف تواتيه وتطاوعه؛ سلسة سهلة، تتدفّق من غير تعسّف ولا تكلّف ؛ حتى انتهى إلى آخر الفصل فقال : « يوما واحدا ، ولا ألتقى بهم أبدا » ، وأنت وغيرك من الفصحاء إذا شرعوا فى كتاب أو خطبة ، جاءت القرائن والفواصل

تارة مرفوعة ، وتارة مجرورة ، وتارة منصوبة ، فإن أرادوا قَسْرَها بإعراب واحد ظهر منها في التكلّف أثرٌ بيّن ، وعلامة واضحة ، وهذا الصِّنْف من البيان أحد أنواع الإعجاز في القرآن ، ذكره عبد القاهر ، قال : انظرْ إلى سورة النّساء وبعدها سورة المائدة ، الأولى منصوبة الفواصل ، والثانية ليس فيها منصوب أصلا ؛ ولو مزجت إحدى السورتين بالأخرى لم تمتزجا ، وظهر أثر التركيب والتأليف بينهما .

ثم إن فواصل كلّ واحد منهما تنساق سياقة بمقتضى البيان الطبيعيّ لا الصناعة التكلّفية . ثم انظر إلى الصفات والموصوفات في هذا الفصل ؛ كيف قال : « ولدا ناصحا » ، « وعاملا كادحا » ، و « سيفا قاطعا » ، و « ركنا دافعا ، لو قال : « ولدا كادحا » و« عاملا ناصحا »، وكذلك ما بعده لما كان صوابا ، ولا في الموقع واقعا ، فسبحان من منح هذا الرجل هذه المزايا النفيسة والخصائص الشريفة ! أن يكون غلامٌ من أبناء عرب مكّة ، ينشأ بين أهله ، لم يخالط الحكماء ، وخرج أعرفَ بالحكمة ودقائق العلوم الإلهية من إفلاطون وأرسطو ! ولم يعاشر أرباب الحكم الخلقية والآداب النفسانية ؛ لأنّ قريشا لم يكن أحد منهم مشهورا بمثل ذلك ، وخرج أعرف بهذا الباب من سقراط ! ولم يربّ بين الشجعان ، لأن أهل مكة كانوا ذوِي تجارة ، ولم يكونوا ذوى حرب ؛ وخرج أشجعَ من كلّ بشرٍ مشى على الأرض ؛ قيل لخلَف الأحمر : أيّما أشجع عنْبسة وبِسطام أم عليّ بن أبى طالب ؟ فقال : إنما يذكر عَنْبسة وبسطام مع البَشر والناس ، لا مع من يرتفع عن هذه الطبقة ، فقيل له : فعلى كلّ حال . قال : والله لو صاح في وجوههما لماتا قبلَ أن يحمل عليهما . وخرج أفصحَ من سَحْبان وقُسّ ، ولم تكن قريش بأفصح العرب ، كان غيرها أفصح منها ؛ قالوا : أفصح العرب جُرْهم وإن لم تكن لهم نَباهة . وخرج أزهدَ الناس في الدنيا ، وأعفَّهم ؛ مع أنّ قريشا ذوو حرص ومحبة للدنيا ، ولا غروَ فيمن كان

محمد صلى الله عليه وآله مربّيه ومخرجه ، والعناية الإلهية تمدّه وترفُدُه أن يكون منه ما كان !

***

يقال : احتسب ولده ، إذا مات كبيرا ، وافترط ولدَه ، إذا مات صغيرا .

قوله : « فمنهم الآتى ... » ، قسّم جنده أقساما ، فمنهم من أجابه وخرج كارها للخروج، كما قال تعالى : ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾(١) ، ومنهم من قعد واعتلّ بعلّة كاذبة ، كما قال تعالى : ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾(٢) ، ومنهم مَنْ تأخّر وصرّح بالقعود والخذلان ، كما قال تعالى : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ ﴾(٣) . والمعنى أنّ حاله كانت مناسبة لحال النبى صلى الله عليه وآله ، ومَنْ تذكر أحوالهما وسيرتهما ، وما جرى لهما إلى أن قبضا ، علم تحقيق ذلك .

ثمّ أقسم أنه لولا طمَعُه فى الشهادة لَمَا أقام مع أهل العراق ولا صحبهم .

فإن قلتَ : فهلّا خرج إلى معاوية وحده من غير جيش إن كان يريد الشهادة ؟

قلت : ذلك لا يجوز ، لأنه إلقاء النفس إلى التهلكة ، وللشهادة شروط متى فقدت؛ فلا يجوز أن تحمل إحدى الحالتين على الأخرى .

---

(١) سورة الأنفال ٦ . (٢) سورة الأحزاب ١٣ .

(٣) سورة التوبة ٨١ .

(٣٦)

الأصـلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى أخيه عَقِيل بن أبى طالب فى ذكر جيش أنفذه إلى بعض الأعداء، وهو جواب كتاب كتبه إليه عقيل :

فَسَرَّحْتُ إِلَيْهِ جَيْشًا كَثِيفاً مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَلَمَّا بَلَغَهُ ذَلِكَ شَمَّرَ هَارِباً ، وَنَكَصَ نَادِماً ، فَلَحِقُوهُ بِبَعْضِ الطَّرِيقِ وَقَدْ طَفَّلَتِ الشَّمْسُ لِلْإِيَابِ ، فَاقْتَتَلُوا شَيْئاً كَلاولا ، فَمَا كَانَ إِلَّا كَمَوْقِفِ سَاعَةٍ حَتَّى نَجَا جَرِيضًا ، بَعْدَ مَا أُخِذَ مِنْهُ بِالْمُخَنَّقِ ، وَلَمْ يَبْقَ مَعَهُ غَيْرُ الرَّمَقِ ؛ فَلَأْياً بِلَأْيٍ مَا نَجَا .

فَدَعْ عَنْكَ قُرَيْشًا وَتَرْكَاضَهُمْ فِي الضَّلَالِ ، وَتَجْوَالَهُمْ فِي الشِّقَاقِ ، وَجِمَاحَهُمْ فِي التِّيهِ ، فَإِنَّهُمْ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى حَرْبِي كَإِجْمَاعِهِمْ عَلَى حَرْبِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَبْلِي ، فَجَزَتْ قُرَيْشًا عَنِّي الْجَوَازِي ؛ فَقَدْ قَطَعُوا رَحِمِي ؛ وَسَلَبُونِي سُلْطَانَ ابْنِ أُمِّي .

وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ عَنْهُ مِنْ رَأْيِي فِي الْقِتَالِ ، فَإِنَّ رَأْيِي قِتَالُ الْمُحِلِّينَ حَتَّى أَلْقَى اللهَ ؛ لَا يَزِيدُنِي كَثْرَةُ النَّاسِ حَوْلِي عِزَّةً ، وَلَا تَفَرُّقُهُمْ عَنِّي وَحْشَةً . وَلَا تَحْسَبَنَّ ابْنَ أَبِيكَ - وَلَوْ أَسْلَمَهُ النَّاسُ - مُتَضَرِّعاً مُتَخَشِّعاً ، وَلَا مُقِرًّا لِلضَّيْمِ وَاهِناً ، وَلَا سَلِسَ الزِّمَامِ لِلْقَائِدِ ، وَلَا وَطِيءَ الظَّهْرِ لِلرَّاكِبِ الْمُقْتَعِدِ ، وَلَكِنَّهُ كَمَا قَالَ أَخُو بَنِي سَلِيمٍ :

فَإِنْ تَسْأَلِينِي كَيْفَ أَنْتَ فَإِنَّنِي ... صَبُورٌ عَلَى رَيْبِ الزَّمَانِ صَلِيبُ
يَعِزُّ عَلَيَّ أَنْ تُرَى بِي كَآبَةٌ ... فَيَشْمَتَ عَادٍ أَوْ يُسَاءَ حَبِيبُ

* * *

الشّــرْحُ :

قد تقدم ذكر هذا الكتاب فى اقتصاصنا ذكر حال بُسْر بن أرطاة وغارته على اليمن فى أول الكتاب .

ويقال: طفّلت الشمس ـ بالتشديد ـ إذا مالت للغروب ، وطفّل الليل ، مشدّدا أيضاً ، إذا أقبل ظلامه ، والطَّفَل ، بالتحريك : بعد العصر حين تطفُل الشمس للغروب ؛ ويقال : أتيته طَفَلى ؛ أى فى ذلك الوقت .

وقوله عليه السلام : « للإياب » أى للرجوع ، أى ما كانت عليه فى الليلة التى قبلها ، يعنى غيبوبتها تحت الأرض . وهذا الخطاب إنّما هو على قَدْر أفهام العرب ؛ كانوا يعتقدون أنّ الشمس منزلها ومقرّها تحت الأرض ، وأنها تخرج كلّ يوم فتسير على العالم ، ثم تعود إلى منزلها ، فتأوى إليه كما يأوى الناس ليلا إلى منازلهم .

وقال الراوندىّ : « عند الإياب » عند الزوال : وهذا غير صحيح ، لأن ذلك الوقت لا يسمّى طَفَلا ، ليقال : إنّ الشمس قد طفّلت فيه .

قوله عليه السلام : « فاقتتلوا شيئاً كلا ولا » ، أى شيئاً قليلا ، وموضع « كلا ولا » نصب ، لأنه صفة « شيئاً » وهى كلمة تقال لما يستقصر وقته جدا ؛ والمعروف عند أهل اللغة: « كلاوذا » ، قال ابن هانئ المغربىّ :

وأسرعُ فى العين من لحظةٍ وأقصرُ فى السمع من لا، وذا

وفى شعر الكميت « كلا وكذا تغميضة »(١) .

وقد رويت فى ''نهج البلاغة'' كذلك ، إلّا أن فى أكثر النسخ : « كلا ولا » ، ومن الناس من يرويها : « كلا ولات » ، وهى حرف أُجْرِىَ مجرى « ليس » ؛ ولا تجىء

---

(١) البيت بتمامة :

كَلَا وكذا تغميضةُ ثمّ هِجْتُمْ لدى حين أن كانوا إلى النوم أفقرا

« حين » إلا أن تحذف فى شعر ، ومن الرواة من يرويها : « كلا ولأى » ، ولأى فِعْل ، معناه أبطأ .

قوله عليه السلام : « نجا جريضا » ، أى قد غصّ بالريق من شدة الجهد والكرب ، يقال : جَرَض بريقه يجرِض بالكسر ، مثال كسر يكسِر ، ورجل جريض مثل قَدَر يقدر فهو قدير ، ويجوز أن يريد بقوله : « فنجا جريضا » ، أى ذا جريض ، والجريض : الغصّة نفسها ، وفى المثل : « حال الجريض دون القريض » قال الشاعر :

كأنّ الفتى لم يغنَ فى النّاس ليلةً   إذا اختلف اللّحيان عند الجريضِ (١)

قال الأصمعىّ : ويقال : هو يجرَض بنفسه ، أى يكاد يموت ؛ ومنه قول امرئ القيس :

وأفلتهنّ علباءٌ جَرِيضاً   ولو أدركنه صَفِرَ الوِطابُ (٢)

وأجرضه الله بريقه : أغصه .

قوله عليه السلام : « بعد ما أخذ منه بالمخنّق » ، هو موضع الخنق من الحيوان ، وكذلك الخُناق ، بالضمّ ؛ يقال أخذ بخُناقه ، فأما الخِناق بالكسر ؛ فالحبل تخنَق به الشاة . والرمَق : بقية الروح .

قوله عليه السلام : « فلأيا بلأى ما نجا » ، أى بعد بطء وشدة ، وما زائدة أو مصدرية ، وانتصب « لأيا » على المصدر القائم مقام الحال ، أى نجا مبطئا ، والعامل فى المصدر محذوف أى أبطأ بطئاً ؛ والفائدة فى تكرير اللفظة المبالغة فى وصف البطء الذى نجا موصوفه به ، أى لأياً مقروناً بلأى .

---

(١) لامرئ القيس ، ديوانه ٧٧ .   (٢) ديوانه ١٣٨ .

وقال الراوندىّ : هذه القصة وهذا الهارب جريضا وبعد لأى ما نجا ، هو معاوية، قال: وقد قيل : إن معاوية بعث أمويًّا فهرب على هذه الحال ؛ والأوّل أصحّ ، وهذا عجيب مضحك وددت له ألّا يكون شرح هذا الكتاب !

قوله : « فدع عنك قريشاً » إلى قوله : « على حرب رسول الله صلى الله عليه وآله » ، هذا الكلام حقّ ، فإنّ قريشا اجتمعت على حربه منذ يوم بويع بغضاً له وحسداً وحقداً عليه ، فأصفقوا كلّهم يداً واحدة على شقاقه وحَرْبه ، كما كانت حالهم فى ابتداء الإسلام مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، لم تخرم حاله من حاله أبداً إلّا أن ذاك عصمه الله من القتل ، فمات موتا طبيعيا ، وهذا اغتاله إنسان فقتله .

قوله : «فجزت قريشا عنّى الجوازى ، فقد قطعوا رحمى ، وسلبونى سلطانَ ابن أمّى» ، هذه كلمة تجرى مجرى المثل ، تقول لمن يسىء إليك وتدعو عليه : جزتك عنى الجوازى ! يقال جزاه الله بما صنع ، وجازاه الله بما صنع ! ومصدر الأول جزاء ، والثانى مجازاة ، وأصل الكلمة أن الجوازى جمع جازية كالجوارى جمع جارية ، فكأنه يقول : جَزَتْ قريشا عنّى بما صنعت لى كلّ خصلة من نكبة أو شدة أو مصيبة أو جائحة ، أى جعل الله هذه الدواهى كلّها جزاء قريش بما صنعت بى. وسلطان ابن أمّى ، يعنى به الخلافة، وابن أمّه هو رسول الله صلى الله عليه وآله ، لأنهما ابنا فاطمة بنت عمرو بن عمران بن عائذ بن مخزوم ، أمّ عبد الله وأبى طالب ، ولم يقل سلطان ابن أبى ؛ لأنّ غير أبى طالب من الأعمام يشركه فى النسب إلى عبد المطلب .

قال الراوندىّ : الجوازى : جمعُ جازية ، وهى النفس التى تجزى ، أى جزاهم وفعل بهم ما يستحقون عساكر لأجلى وفى نيابتى ، وكافأهم سرّية تنهض إليهم ؛ وهذا إشارة إلى بنى أميّة يهلكون من بعده . وهذا تفسير غريب طريف .

وقال أيضا : قوله : « سلطان ابن أمىّ » يعنى نفســـه ، أى سلطانه ، لأنه ابنُ أمّ نفسه ، قال : وهذا من أحسن الـكلام . ولا شبهة أنه على تفسير الراوندىّ لو قال: وسلبونى سلطان ابن أخت خالتى ، أو ابن أخت عمتى ، لـكان أحسن وأحسن ، وهـذا الرجـل قد كان يجب أنْ يُحْجر عليه ، ولا يمـكّن من تفسير هذا الـكتاب ، ويؤخذ عليه أيمان البيعة ألّا يتعرّض له

قوله : « فإن رأبى قتال المحِلِّين » ، أى الخارجين من الميثاق والبيعة ، يعنى البُغاة ومخالفى الإمام ، ويقال : لـكلّ من خرج من إســـلام أو حارب فى الحرم أو فى الأشهر الحُرُمِ : مُحلّ ، وعلى هذا فسر قول زُهَير :

* وكم بالقَنانِ من مُحِلٍّ ومُحرِمِ (١) *

أى من لا ذمة له ومن له ذمة ، وكذلك قولُ خالد بن يزيد بن معاوية فى زوجته رَملة بنت الزبير بن العوّام :

ألا مَن لقلب معنًّى غَزِلْ يحبّ المحِلّة أختِ المحِـــلّ

أى ناقضة العهد أخت المحارِب فى الحَرَم ، أو أخت ناقض بيعة بنى أمية .

وروى « متخضّعاً متضرّعا » بالضاد .

ومقرّا للضيم وبالضيم ، أى هو راض به ، صابرٌ عليه . وواهناً ، أى ضعيفا .

السلس : السهل : ومقتعِد البعير : راكبه .

والشعرُ ينسب إلى العباس بن مِرْداس السُّلَمىّ ، ولم أجده فى ديوانه ، ومعناه ظاهر ، وفى الأمثال الحـكمية : لا تشكونّ حالك إلى مخلوق مثلك ، فإنه إن كان صديقا أحزنْته ، وإن كان عدوّا أشمتّه ، ولا خير فى واحد من الأمرين .

---

(١) ديوانه ١١ وصدره :

* جَعَلْنَا الْقَنَانَ عَنْ يَمِينٍ وَحَزْنَهُ *

(٣٧)

الأصْـلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية :

فَسُبْحَانَ اللهِ ! مَا أَشَدَّ لُزُومَكَ لِلْأَهْوَاءِ الْمُبْتَدَعَةِ ، وَالْحَيْرَةِ الْمُتَّبَعَةِ ، مَعَ تَضْيِيعِ الْحَقَائِقِ ، وَاطِّرَاحِ الْوَثَائِقِ ، الَّتِى هِىَ لِلهِ تَعَالَى طِلْبَةٌ ، وَعَلَى عِبَادِهِ حُجَّةٌ .

فَأَمَّا إِكْثَارُكَ الْحِجَاجَ عَلَى عُثْمَانَ وَقَتَلَتِهِ ؛ فَإِنَّكَ إِنَّمَا نَصَرْتَ عُثْمَانَ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَكَ ، وَخَذَلْتَهُ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَهُ . والسلام .

* * *

الشَّـرْحُ :

أوّل هذا الكتاب قوله :

أمّا بعد ، فإنّ الدنيا حُلْوة خَضِرة ذات زينة وبَهْجَة ، لم يَصْبُ إليها أحدٌ إلّا وشغلته بزينتها عمّا هو أنفع له منها ، وبالآخرة أُمِرنا ، وعليها حُثِثنا ، فدعْ يا معاوية ما يَفنَى ، واعمل لما يَبقى ، واحذر الموتَ الّذى إليه مصيرُك ، والحسابَ الّذى إليه عاقبتك .

واعلم أنّ الله تعالى إذا أراد بعبد خيرا حالَ بينه وبين ما يَكرَه ، ووفّقه لطاعته ، وإذا أراد الله بعبد سوءا أغراه بالدنيا ، وأنساه الآخرة ، وبسَطَ له أَمَلَه ، وعاقَه عمّا فيه صلاحُه ، وقد وصلنى كتابُك فوجدتُك ترمى غيرَ غَرضِك ، وتَنشُد غيرَ ضالّتك ، وتخبط فى عَمايَة .

وتتيه فى ضلالة ، وتعتصم بغير حجّة ، وتلوذ بأضعف شُبهة .

فأمّا سؤالك المتاركة والإقرار لك على الشام ، فلو كنتُ فاعلا ذلك اليوم لفعلته أمس .

وأما قولك : إن عُمَر ولّاكه فقد عزل مَنْ كان ولّاه صاحبه ، وعزل عثمانُ من كان عمرُ ولّاه ولم ينصّب للناس إمام إلا ليرى من صلاح الأمّة إماما قد كان ظهر لمن قبله ، أو أخفى عنهم عيبَه ، والأمر يَحدُث بعدَه الأمرُ ، ولكلّ والٍ رأى واجتهاد . فسبحان الله ! ما أشدّ لزومَك للأهواء المتبدعة ، والحيرة المتّبَعة . . . إلى آخر الفصل .

وأما قوله عليه السلام : « إنما نصرتَ عثمانَ حيث كان النصرُ لك . . . » إلى آخره ، فقد رَوَى البلاذرىّ قال : لما أرسل عثمان إلى معاوية يستمدّه ، بعث يزيد بن أسد القَسْرىّ ، جدّ خالد بن عبد الله بن يزيد أمير العراق وقال له : إذا أتيتَ ذا خُشُب فأقِم بها ، ولا تتجاوَزْها ، ولا تقل : الشاهدُ يَرَى ما لا يَرَى الغائب ؛ فإنّنى أنا الشاهد ، وأنت الغائب .

قال : فأقام بذى خُشُب حتى قتل عثمان ، فاستقدمه حينئذ معاوية ، فعاد إلى الشام بالجيش الذى كان أرسل معه ، وإنّما صنع ذلك معاوية ليقتل عثمانَ فيدعوَ إلى نفسه .

* * *

وكتب معاوية إلى ابن عبّاس عند صلح الحسن عليه السلام له كتابا يدعوه فيه إلى بَيعته ، ويقول له فيه :

ولَعَمْرى لو قتلتُك بعثمانَ رجوتُ أن يكون ذلك لِله رضاً ، وأن يكون رأيا صوابا ، فإنّك من الساعين عليه ، والخاذِلين له ، والسافِكين دمَه ، وما جرى بينى وبينك صلح فيمنعك منّى ، ولا بيَدِك أمان.

فكتب إليه ابنُ عبّاس جوابا طويلا يقول فيه : وأمّا قولك إنّى من الساعين على عثمان ، والخاذِلين له ، والسافكين دمَه ؛ وما جرى بينى وبينك صلح فيمنعُك منّى.

فأقسم بالله لأنتَ المتربّص بقتله ، والمحبّ لهلاكه ، والحابس الناسَ قِبَلك عنه على بصيرة من أمره ؛ ولقد أتاك كتابُه وصَريخُه يستغيث بك ويستصرخ ، فما حَفَلْتَ به ، حتّى بعثتَ إليه معذرا بأجرة ، أنت تعلم أنّهم لن يتركوه حتى يُقتَل ، فقُتِل كما كنتَ أردت ، ثم علمتَ عند ذلك أن الناس لن يَعدِلوا بيننا وبينك ، فطفقتَ تَنْعَى عثمان وتُلزِمنا دمَه ، وتقول : قُتل مظلوما ، فإن يك قُتل مظلوما فأنت أظلم الظالمين ، ثم لم تزل مصوِّبا ومصعِّدا ، وجاثما ورابضا ، تَستغوى الجهّال ، وتنازعنا حقّنا بالسفهاء ، حتّى أدركتَ ما طلبت ، ﴿ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾[1] .

---

(١) سورة الأنبياء ١١١ .

(٣٨)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل مصر لما ولّى عليهم الأشتر :

مِنْ عَبْدِ اللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ غَضِبُوا لِلهِ حِينَ عُصِيَ فِي أَرْضِهِ ، وَذُهِبَ بِحَقِّهِ ، فَضَرَبَ الْجَوْرُ سُرَادِقَهُ عَلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ ، وَالْمُقِيمِ وَالظَّاعِنِ ، فَلَا مَعْرُوفٌ يُسْتَرَاحُ إِلَيْهِ ، وَلَا مُنْكَرٌ يُتَنَاهَى عَنْهُ .

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللهِ ، لَا يَنَامُ أَيَّامَ الْخَوْفِ ، وَلَا يَنْكُلُ عَنِ الْأَعْدَاءِ سَاعَاتِ الرَّوْعِ ؛ أَشَدَّ عَلَى الْفُجَّارِ مِنْ حَرِيقِ النَّارِ ، وَهُوَ مَالِكُ بْنُ الْحَارِثِ أَخُو مَذْحِجٍ ، فَاسْمَعُوا لَهُ ، وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ فِيمَا طَابَقَ الْحَقَّ ، فَإِنَّهُ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ ، لَا كَلِيلُ الظُّبَةِ ، وَلَا نَابِي الضَّرِيبَةِ ، فَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تَنْفِرُوا فَانْفِرُوا ، وَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تُقِيمُوا فَأَقِيمُوا ، فَإِنَّهُ لَا يُقْدِمُ وَلَا يُحْجِمُ ، وَلَا يُؤَخِّرُ وَلَا يُقَدِّمُ إِلَّا عَنْ أَمْرِي ؛ وَقَدْ آثَرْتُكُمْ بِهِ عَلَى نَفْسِي لِنَصِيحَتِهِ لَكُمْ ، وَشِدَّةِ شَكِيمَتِهِ عَلَى عَدُوِّكُمْ .

* * *

الشرح :

هذا الفصل يُشكل عليّ تأويله ، لأنّ أهل مصرَ هم الّذين قتلوا عثمانَ ، وإذا شهد أميرُ المؤمنين عليه السلام أنهم غضبوا لله حين عُصِيَ فى الأرض ، فهذه شهادة قاطعةٌ على عثمانَ بالعصيان ، وإتيان المنكَر ، ويمكن أن يقال وإن كان متعسَّفاً : إنّ الله تعالى

عُصِيَ في الأرض لا مِن عثمانَ ؛ بل من وُلاته وأمرائه وأهله ، وذهب بينهم بحقّ الله ، وضرب الجوْر سُرادِقه بولايتهم، وأمرهم على البرّ والفاجر ، والمقيم والظّاعن ، فشاع المنكَر ، وفُقِد المعروف . يبقى[1] أن يقال : هب أن الأمر كما تأوّلت ، فهؤلاء الّذِين غَضِبوا لله إلى ماذا آل أمرُهم ؟ أليس الأمرُ آل[2] إلى أنهم قطعوا المسافةَ من مصر إلى المدينة فقتلوا عثمانَ! فلا تعدُو حالهم أمرَين ، إلّا أن يكونوا أطاعوا الله بقتله فيكون عثمان عاصيا مستحقّا للقتل ، أو يكونوا أسخَطوا اللّهَ تعالى بقتله فعثمانُ إذاً على حقّ ، وهم الفسّاق العصاة ، فكيف يجوز أن يبجّلهم أو يخاطبَهم خطابَ الصالحين ! ويمكن أن يجاب عن ذلك بأنّهم غضبوا لله ، وجاءوا من مصرَ ، وأنكروا على عثمانَ تأميرَه الأمراء الفسّاق ، وحصروه في داره طلبا أن يدفع إليهم مرْوان ليحبسوه ، أو يؤدّبوه على ما كتبه في أمرهم ، فلمّا حُصِر طمع فيه مُبغضوه وأعداؤه من أهل المدينة وغيرها ، وصار معظمُ الناس إلْباً عليه ، وقلّ عدد المصريّين بالنسبة إلى ما اجتمع من الناس على حصرِه ومطالبتِه بخلع نفسه ، وتسليم مروانَ وغيره من بنى أميّة إليهم ، وعزل عمّاله ، والاستبدال بهم ، ولم يكونوا حينئذ يطلبون نفسه ، ولكنّ قوما منهم ومن غيرهم تسوّروا دارَه ، فرماهم بعضُ عبيده بالسهام فجُرح بعضهم ، فقادت الضرورة إلى النزول والإحاطة به ، وتسرّع إليه واحد منهم فقتَله . ثم إنّ ذلك القاتل قُتِل في الوقت ؛ وقد ذكرنا ذلك فيما تقدّم ، وشرحناه ، فلا يلزم من فِسقِ ذلك القاتِل وعصيانِه أن يفسق الباقون ، لأنّهم ما أنكروا إلّا المنكَر ؛ وأمّا القتل فلم يقع منهم ، ولا راموه ولا أرادوه ، فجاز أن يقال : إنّهم غَضِبوا لله ، وأن يُثنى عليهم ويمدحهم .

ثم وصف الأشتر بما وصفَه به ، ومِثلُ قولِه : « لا ينام أيّام الخوف » قولُهم : « لا ينام ليلة يخاف ، ولا يَشبَع ليلة يُضاف » ، وقال :

---

(١) كذا في ا ، وفي ب : « ينبغي » . (٢) ساقطة من ب .

فأتت به حُوشَ الفؤاد مبطَّنا ... سُهُداً إذا ما نام ليلُ الهَوْجَلِ (١)

ثم أمرهم أن يطيعوه فيما يأمرهم به ممّا يطابق الحقّ ، وهذا من شدّة دينه وصلابته عليه السلام ، لم يسامح نفسَه فى حقّ أحبِّ الخلق إليه أن يهمل هذا القيْد ، قال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم : « لا طاعةَ لمخلوقٍ فى معصية الخالق » :

وقال أبو حنيفة : قال لى الربيع فى دِهليز المنصور : إنّ أمير المؤمنين يأمُرنى بالشىء بعد الشىء من أمورِ مُلكه ، فأنفّده وأنا خائف على دِينى ، فما تقول فى ذلك ؟ قال — ولم يقل لى ذلك إلّا فى ملأ الناس : فقلت له : أفيأمر أمير المؤمنين بغير الحق ؟ قال : لا ، قلت : فلا بأس عليك أن تفعل بالحقّ ؛ قال أبو حنيفة : فأراد أن يصطادنى فاصطدتُه .

والذى صدع بالحق فى هذا المقام الحسن البصرىّ ، قال له عُمر بن هُبيرة أمير العراق فى خلافة يزيدَ بن عبد الملك فى ملأٍ من الناس ، منهم الشعبىّ وابنُ سيرين : يا أبا سعيد ، إنّ أمير المؤمنين يأمرنى بالشىء أعلم أنّ فى تنفيذه الهَلَكة فى الدّين ، فما تقول فى ذلك ؟ قال الحسن : ماذا أقول ! إن الله مانعك من يزيدَ ، ولن يمنعك يزيدُ من الله ، يا عمر خَفِ الله ، واذكر يوما يأتيك تتمخّض ليلتُه عن القيامة ، إنه سينزل عليك مَلَك من السماء فيحطّك عن سَريرك إلى قصرِك ، ويضطرّك من قصرك إلى لزوم فراشِك ، ثم يَنقُلك عن فراشك إلى قبرِك ، ثم لا يُغنِى عنك إلّا عملُك ؛ فقام عمر بن هُبيرة باكيا يصطكّ لسانُه .

قوله : « فإنه سيفٌ من سيوف الله » ، هذا لقبُ خالدِ بن الوليد ، واخْتُلف فيمن

---

(١) لأبى كبير الهذلى ، ديوان الحماسة — ، بشرح التبريزى — ٨٦ . الهوجل : الثقيل الكسلان .

لقّبه به ، فقيل: لقّبه به رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ، والصحيح أنّه لقّبه به أبو بكر ، لقتاله أهلَ الرّدة ، وقتلِه مُسيلِمة .

والظُّبَة ، بالتخفيف : حدُّ السيف . والنابى من السيوف : الّذى لا يَقطع ؛ وأصلُه نبا ، أى ارتفع ؛ فلمّا لم يَقطَع كان مرتفعا ، فسمّىَ نابيا ؛ وفى الكلام حذفٌ تقديرُه : ولا نابٍ ضارب الضريبة ، وضارب الضريبة هو حدّ السيف ، فأما الضريبة نفسها فهو الشىء المضروبُ بالسيف ، وإنما دخلته الهاء وإن كان بمعنى « مَفْعول » لأنّه صار فى عداد الأسماء ، كالنّطيحة والأكيلة .

ثم أمرهم بأن يطيعوه فى جميع ما يأمرهم به من الإقدام والإحجام ، وقال : إنه لا يقدّم ولا يؤخّر إلّا عن أمرى ، وهذا إن كان قاله مع أنه قد سَمَّحله أن يعمل برأيه فى أمور الحرب من غير مراجعته فهو عظيم جدّا ؛ لأنه يكون قد أقامه مقامَ نفسه . وجاز أن يقول : إنه لا يفعل شيئاً إلاّ عن أمرى ، وإن كان لا يُراجعه فى الجزئيّات على عادة العرب فى مثل ذلك ؛ لأنّهم يقولون فيمن يثقون به نحوَ ذلك ، وقد ذهب كثيرٌ من الأصوليّين إلى أن الله تعالى قال لمحمّد صلّى الله عليه وآله : احكمْ بما شئتَ فى الشريعة ، فإنّك لا تحكُم إلاّ بالحق ، وإنه كان يحكم من غير مراجعته لجبرائيل ، وإنّ الله تعالى قد قال فى حقّه : ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَى﴾(١) ، وإن كان عليه السلام قال هذا القول عن الأشتر ، لأنّه قد قرّر معه بينه وبينه ألاّ يعمل شيئاً قليلا ولا كثيرا إلاّ بعد مراجعته ، فيجوز ، ولكنّ هذا بعيد ، لأنّ المسافة طويلة بين العراق ومصر ، وكانت الأمور هناك تقف وتفسد .

ثم ذكر أنّه آثرهم به على نفسه ، وهكذا قال عمر لمّا أنفذ عبدَ الله بن مسعود إلى الكوفة فى كتابه إليهم : قد آثرتُكم به على نفسى ؛ وذلك أنّ عمر كان يستفتيه فى الأحكام ، وعلىّ عليه السلام كان يصول على الأعداء بالأشتر ، ويقوى أنفسَ جيوشه بمقامه بينهم ، فلمّا بعثه إلى مصرَ كان مؤثراً لأهل مصرَ به على نفسه .

(١) سورة النجم ٣ ، ٤

(٣٩)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى عمرو بن العاص :

فَإِنَّكَ قَدْ جَعَلْتَ دِينَكَ تَبَعاً لِدُنْيَا امْرِئٍ ظَاهِرٍ غَيُّهُ ، مَهْتُوكٍ سِتْرُهُ ، يَشِينُ الْكَرِيمَ بِمَجْلِسِهِ ، وَيُسَفِّهُ الْحَلِيمَ بِخِلْطَتِهِ ، فَاتَّبَعْتَ أَثَرَهُ ، وَطَلَبْتَ فَضْلَهُ ؛ اتِّبَاعَ الْكَلْبِ لِلضِّرْغَامِ يَلُوذُ بِمَخَالِبِهِ ، وَيَنْتَظِرُ مَا يُلْقَى إِلَيْهِ مِنْ فَضْلِ فَرِيسَتِهِ . فَأَذْهَبْتَ دُنْيَاكَ وَآخِرَتَكَ ، وَلَوْ بِالْحَقِّ أَخَذْتَ أَدْرَكْتَ مَا طَلَبْتَ .

فَإِنْ يُمَكِّنِ اللهُ مِنْكَ وَمِنَ ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَجْزِكُمَا بِمَا قَدَّمْتُمَا ، وَإِنْ تُعْجِزَا وَتَبْقَيَا ، فَمَا أَمَامَكُمَا شَرٌّ لَكُمَا . وَالسَّلَامُ .

* * *

الشرح :

كلّ ما قاله فيهما هو الحقّ الصريح بعينه ، لم يحمله بغضُه لهما ، وغيظُه منهما ، إلى أن بالغ فى ذمّهما به ، كما يبالغ الفُصحاء عند سَوْرة الغضب ، وتدفّق الألفاظ على الألسنة ، ولا ريبَ عند أحدٍ من العقلاء ذوِى الإنصاف أنّ عمْرا جعل دينَه تبعاً لدنيا معاوية ، وأنّه ما بايعه وتابعه إلّا على جَعالة جعلها له ، وضمانٍ تكفّل له بإيصاله ، وهىَ ولاية مصر مؤجّلة ، وقطعة وافرة من المال معجّلة ، ولولديه وغلمانه ما ملأ أعينهم .

فأما قوله عليه السلام فى معاوية : « ظاهرٌ غيُّه » ، فلا ريب فى ظهور ضلاله وبغيه ؛ وكلّ باغٍ غاوٍ .

أمّا مهتوك سِتْره ، فإنه كان كثير الهزل والخلاعة ، صاحب جُلَساء وسمّار ، ومعاوية لم يتوقّر ، ولم يلزم قانون الرياسة إلّا منذ خرج على أمير المؤمنين ، واحتاج إلى الناموس والسكينة ، وإلّا فقد كان فى أيام عثمانَ شديد التّهتّك ، موسوما بكلّ قبيح ، وكان فى أيام عمَر يستر نفسَه قليلا خوفا منه ، إلّا أنه كان يلبس الحرير والدّيباج ، ويَشرَب فى آنية الذهب والفضّة ، ويركب البَغلات ذواتِ السّروج المحلّاة بها ، وعليها جِلال الدّيباج والوَشْى ؛ وكان حينئذ شابًّا ، وعنده نزَق الصِّبا ، وأَثَر الشبيبة ، وسكْر السلطان والإمْرة ؛ ونقل الناسُ عنه فى كتب السيرة أنّه كان يشرب الخمر فى أيّام عثمان فى الشام ، وأمّا بعد وفاة أمير المؤمنين واستقرار الأمر له فقد اختلف فيه ، فقيل : أنه شرب الخمر فى ستر ، وقيل : إنه لم يَشربه . ولا خلاف فى أنه سمعَ الغناء وطرب عليه ، وأَعطى ووصل عليه أيضاً.

وروى أبو الفرج الأصفهانىّ قال : قال عَمرو بن العاص لمعاوية فى قَدْمةٍ قَدِمها إلى المدينة أيّام خلافته : قم بنا إلى هذا الّذى قد هَدَم شرفَه ؛ وهتَك سِتْره ، عبد الله ابن جعفر ، نقف على بابه ، فنَسمَع غناء جواريه ، فقاما ليلا ومعهما وَرْدانُ غلامُ عَمرو ، ووقفَا بباب عبد الله بن جعفر ، فاستَمعَا الغناء وأحسّ عبدُ الله بوقوفهما ، ففتحَ الباب ، وعَزَم على معاوية أن يدخل ، فدخل ، فجلس على سرير عبد الله ، فدعا عبد الله له وقدّم إليه يسيرا من طعام ، فأكل ، فلمّا أنِس قال : يا أمير المؤمنين ، ألا تأذن لجواريك أن يتمّمن أصواتَهنّ ، فإنّك قطعتَها عليهنّ ؟ قال : فليقلن ، فرفعن أصواتهنّ ، وجعل معاوية يتحرّك قليلا قليلا حتّى ضرب برجلِه السرير ضربا شديدا ، فقال عمرو : قم أيّها الرجل ، فإنّ الرجل الذى جئت لتَلحاه أو لتَعجب من أمرءٍ أحسنُ حالًا منك . فقال : مَهْلا ، فإن الكريم طروب !

* * *

أما قوله: « يشين الـكريمَ بمجلسه ، ويسفّه الحليمَ بخُلْطته » : فالأمر كـذلك ، فإنه لم يكن في مجلسه إلّا شتْم بني هاشم وقَذْفُهم ، والتعرّضُ بذكر الإسلام ؛ والطعن عليه ، وإن أظهر الانتماء إليه . وأما طلب عمرو فَضْله واتباعه أثره اتباعَ الـكلاب للأســـد فظاهر ، ولم يقـــل : الثعلب ، غضًّا من قدر عَمرو ، وتشبيهـــا له بما هو أبلغُ في الإهانة والاستخفاف .

ثم قال : « ولو بالحقّ أخذتَ أدركتِ ما طلبت » ، أي لو قعدتَ عن نصرِه ولم تَشخص إليه ممالئا به على الحقّ لوَصَل إليك من بيت المال قدر كفايتك .

ولقائل أن يقول : إن عمْرا ما كان يطلب قدرَ الـكفاية وعليّ عليه السلام ما كان يعطيه إلّا حقّه فقط ، ولا يعطيه بلدا ولا طرَفا من الأطراف ، والّذى كان يطلبُ ملكَ مصرَ ، لأنه فتحها أيام عمرَ ووليهاَ بُرهة ، وكانت حسرةً في قلبه ، وحزازة في صدره ، فبـاع آخرته بها ، فالأولى أن يقال : معناه لو أخذتَ بالحقّ أدركت ما طلبت من الآخرة.

فإن قلت : إن عَمْرا لم يكن عليّ عليه السلام يَعتقِد أنه من أهل الآخرة ، فـكيف يقول له هذا الـكلام ؟

قلت : لا خَلَل ولا زَلَل في كلامه عليه السلام ، لأنه لو أخذ بالحقّ لـكان معتقدا كوْن عليّ عليه السلام على الحقّ باعتقاده صحّة نبوّة رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، وصحّة التوحيد ، فيصير تقديرُ الـكلام : لو بايعتَني معتقداً للزوم بَيْعتى لك لـكنت في ضِمن ذلك طالبا الثواب ، فـكنت تدرِكه في الآخرة .

ثم قال مهدّدا لهما ، ومتوعّدا إياهما : « فإن يُمـكِنِ اللهُ منك ومن ابن أبي سفيان » ، وأقول : لو ظفر بهما لما كان في غالب ظنّي يقتلهما ، فإنّه كان حليما كريما ، ولـكن كان يَحبسهما ليَحسِم بحبسهما مادّة فسادِهما .

ثم قال : « وإن تُعجزا وتبقيا »، أى وإن لم أستطع أخذكما أو أمُتْ قبلَ ذلك وبقيتُما بعدى، فما أمامَكما شرٌّ لكما من عقوبة الدنيا ؛ لأن عذاب الدنيا منقطِع ، وعذاب الآخرة غيرُ منقطع .

* * *

وذكر نصرُ بن مزاحم فى كتاب „ صِفّين " هذا الكتاب بزيادةٍ لم يذكرْها الرّضىّ . قال نصرُ : وكتب علىّ عليه السلام إلى عمرو بن العاص :

من عبدِ الله علىٍّ أمير المؤمنين إلى الأبتر ابن الأبتر عمرو بن العاص بن وائل ، شانئ محمّد وآلِ محمّد فى الجاهليّة والإسلام ، سلامٌ على من اتّبع الهدى ، أما بعد ، فإنّك تركتَ مروءتك لامرئ فاسق مهتوك ستره ، يشين الكريمَ بمجلسه ، ويسفّه الحليمَ بخلطته ، فصار قلبُك لقَلبه تبَعًا ، كما قيل : « وافقَ شنٌّ طَبَقة » فسلَبك دينَك وأمانتكَ ودنياك وآخرتَك ، وكان علمُ الله بالغا فيك ، فصرت كالذئب يتبع الضّرغام إذا ما الليل دَجَى، أو أتَى الصبح يلتمس فاضل سؤره ، وحَوايا فريسته ، ولكن لا نجاةَ من القدَر ، ولو بالحقّ أخذتَ لأدركت ما رجوتَ ، وقد رَشد من كان الحقّ قائدَه ، فإن يُمكِنِ الله منك ومِن ابن آكلة الأكباد ، ألحقتكما بمن قتله الله من ظلَمة قريش على عهدِ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم ، وإن تُعجِزا وتَبقيا بعدُ ؛ فالله حَسْبكما ، وكفى بانتقامه انتقاما ، وبعقابه عقابا ! والسلام .

(٤٠)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله :

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ أَمْرٌ إنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسْخطتَ رَبَّكَ ، وَعَصَيْتَ إمَامَكَ ، وَأَخْزَيْتَ أَمَانَتَكَ . بَلَغَنِي أَنَّكَ جَرَّدْتَ الْأَرْضَ فَأَخَذْتَ مَا تَحْتَ قَدَمَيْكَ ، وَأَكَلْتَ مَا تَحْتَ يَدَيْكَ ، فَارْفَعْ إِلَيَّ حِسَابَكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ حِسَابَ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ حِسَابِ النَّاسِ ؛ والسلام .

***

الشرح :

أخزيتَ أمانتك : أذلَلْتَها وأهنْتَها ، وجرّدت الأرض : قشرتَها ؛ والمعنى أنّه نسبه إلى الخيانة فى المال ، وإلى إخراب الضِّياع ، وفى حكمة أبرويزَ أنّه قال لخازن بيتِ المالِ : إنّى لا أحتملك على خيانة دِرهم ، ولا أحمَدكَ على حفظِ عشرة آلاف ألف درهم ، لأنّك إنّما تحقِن بذلك دمَك ، وتعمُر به أمانتَك ، وإنك إن خنتَ قليلا خنتَ كثيرا ، فاُحترس من خَصلتين : من النقصان فيما تأخذ ، ومن الزيادة فيما تُعطِى ؛ واُعلم أنّى لم أجعلك على ذخائر الملك ، وعمارة المملكة ، والعدّة على العدوّ ، إلّا وأنت أمينٌ عندى من الموضع الّذى هى فيه ، ومن خواتمها الّتى هى عليها ، فحقّق ظنى فى اُختيارى إيّاك أحقّق ظنّك فى رجائك لى ، ولا تتعوّض بخير شرّا ، ولا برفعةٍ ضعة ، ولا بسلامةٍ ندامة ، ولا بأمانةٍ خيانة .

وفى الحديث المرفوع : « من وَلِيَ لنا عَمَلا فليتزوّج، وليتّخذ مَسكَنا و مَركباً وخادما ، فمن اُتّخذ سوى ذلك جاء يوم القيامة عادِلا غالّا سارقا » .

وقال عمر فى وصيّته لابن مسعود : إيّاك والهديّة ، وليست بحرام ، ولكنى أخافُ عليك الدّالّة .

وأهدى رجلٌ لعمرَ فخذَ جَزور فقبِله ، ثم ارتفع إليه بعد أيّام مع خصم له ، فجعل فى أثناء الكلام يقول : يا أميرَ المؤمنين ، افصِل القضاء بينى وبينه كما يُفصَل فخِذُ الجزور . فقَضى عمرُ عليه ، ثم قام فخطب الناسَ ، وحرّم الهدايا على الوُلاة والقُضاة .

وأهدى إنسانٌ إلى المغيرة سِراجاً من شَبَهٍ ، وأهدَى آخر إليه بَغْلا ، ثم اتّفقت لهما خصومة فى أمر فترافَعا إليه ، فجعل صاحبُ السراج يقول : إنّ أمرى أضوأ من السرّاج ؛ فلمّا أكثر قال المغيرة : وَيْحَك ، إنّ البغل يرْمح السراجَ فيَكسره .

ومرّ عمرُ ببناء يُبنَى بآجُرّ وجِصٍّ لبعض عمّاله فقال : أبت الدراهمُ إلّا أن تُخرج أعناقَها . ورُوِى هذا الكلامُ عن علىّ عليه السلام ؛ وكان عمرُ يقول : على كلّ عاملٍ أمينان : الماء والطِّين .

ولمّا قدم أبو هريرة من البحرين قال له عمر : ياعدوّ الله وعدوّ كتابه ، أسَرقتَ مالَ الله تعالى ؟ قال أبو هريرة : لستُ بعدوّ الله ولا عدوّ كتابه ، ولكنّى عدوّ مَنْ عاداها ، ولم أسرق مالَ الله . فضربَه بجريدة على رأسه ، ثم ثناه بالدِّرّة ، وأغرمَه عشرة آلاف درهم ، ثم أحضره ، فقال : يا أبا هريرة ، من أين لك عشرة آلاف درهم ؟ قال : خيلى تناسَلَتْ ، وعطائى تلاحَقَ ، وسهامى تتابعتْ ، قال عمر : كلّا والله . ثم تركه أيّاما ، ثم قال له : ألا تعمل ؟ قال : لا ، قال : قد عمل من هو خير منك يا أبا هريرة ، قال : مَن هو ؟ قال : يوسفُ الصدّيق ، فقال أبو هريرة : إنّ يوسفَ عَمِل لمن لم يضرب رأسَه

وظهرَه ، ولا شتمَ عِرضَه ، ولا نزع ماله ، لا والله لا أعمل لك أبدا .

وكان زياد إذا ولّى رجلا قال له : خذ عهدَكَ ، وسرْ إلى عَملِك ، واُعلم أنّك محاسب رأسَ سنتك ، وأنّك ستصير إلى أربع خصال ، فاختر لنفسك : إنّا إنْ وجدناك أمينا ضعيفا استبدلْنا بك لضَعْفك ، وسلّمْتك من معرّتنا أمانتُك ، وإن وجدناك خائنا قويّا استعنّا بقوّتك ، وأحسنّا أدبَك على خيانتك ، وأوجَعْنا ظهرَكَ ، وأثقلْنا غُرْمَك : وإن جمعت علينا الجُرْمَين ، جمَعْنا عليك المضرّتين ، وإن وجدناك أمينا قويّا زدْنا رزقك ، ورفعْنا ذِكرَكَ ، وكثّرنا مالك ، وأوطأْنا الرجال عَقِبك .

ووصف أعرابيّ عاملا خائنا فقال : الناس يأكلون أماناتهم لُقَما ، وهو يَحْسوها حَسْوا .

قال أَنَس بن أبي إياس الدّؤليّ[1] لحارثة بن بَدْر الغُدَانيّ ـ وقد ولىَ سُرَّقَ ـ ويقال إنّها لأبي الأسود[2] :

أحارِ بنَ بدرٍ قد وَلِيتَ ولايةً فكنْ جُرَذاً فيها تَخُون وتسرقُ
ولا تَحقِرنْ يا حار شيئا أصبتَه فحظّك من ملك العراقين سُرَّقُ[3]
وباهِ تميماً بالغِنى إنّ للغنى لسانا به المرءُ الهيوبةُ يَنطق[4]
فإنّ جميعَ الناس إمّا مكذّب يقول بما تَهوَى وإمّا مصدّق
يقولون أقوالا ولا يَتْبعونَها وإن قيل : هاتوا حقّقوا لم يحقّقوا

فيقال : إنّها بلغتْ حارثةَ بن بدر فقال : أصاب الله به الرشاد ، فلم يَعدُ بإشارته ما في نفسي !

---

(١) في الكامل : « أنس بن أبي أنيس » .
(٢) ممن نسبها إلى أبي الأسود ياقوت في معجم البلدان ٥ : ٧٣ .
(٣) سرق : إحدى كور الأهواز. (٤) الهيوبة : الجبان.

(٤١)

الأصْـلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّي كُنْتُ أَشْرَكْتُكَ فِي أَمَانَتِي ، وَجَعَلْتُكَ شِعَارِي وَبِطَانَتِي ، وَلَمْ يَكُنْ فِي أَهْلِي رَجُلٌ أَوْثَقَ مِنْكَ فِي نَفْسِي، لِمُوَاسَاتِي وَمُوَازَرَتِي ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ إِلَيَّ ؛ فَلَمَّا رَأَيْتَ الزَّمَانَ عَلَى ابْنِ عَمِّكَ قَدْ كَلِبَ ، وَالْعَدُوَّ قَدْ حَرِبَ ، وَأَمَانَةَ النَّاسِ قَدْ خَزِيَتْ ، وَهَذِهِ الْأُمَّةَ قَدْ فُتِكَتْ وَشَغَرَتْ ، قَلَبْتَ لِابْنِ عَمِّكَ ظَهْرَ الْمِجَنِّ ، فَفَارَقْتَهُ مَعَ الْمُفَارِقِينَ ، وَخَذَلْتَهُ مَعَ الْخَاذِلِينَ ، وَخُنْتَهُ مَعَ الْخَائِنِينَ ، فَلَا ابْنَ عَمِّكَ آسَيْتَ ، وَلَا الْأَمَانَةَ أَدَّيْتَ .

وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنِ اللهَ تُرِيدُ بِجِهَادِكَ ، وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكَ ، وَكَأَنَّكَ إِنَّمَا كُنْتَ تَكِيدُ هَذِهِ الْأُمَّةَ عَنْ دُنْيَاهُمْ ، وَتَنْوِي غِرَّتَهُمْ عَنْ فَيْئِهِمْ ، فَلَمَّا أَمْكَنَتْكَ الشِّدَّةُ فِي خِيَانَةِ الْأُمَّةِ أَسْرَعْتَ الْكَرَّةَ ، وَعَاجَلْتَ الْوَثْبَةَ وَاخْتَطَفْتَ مَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ الْمَصُونَةِ لِأَرَامِلِهِمْ وَأَيْتَامِهِمْ ، اخْتِطَافَ الذِّئْبِ الْأَزَلِّ دَامِيَةَ الْمِعْزَى الْكَسِيرَةَ ، فَحَمَلْتَهُ إِلَى الْحِجَازِ رَحِيبَ الصَّدْرِ بِحَمْلِهِ ، غَيْرَ مُتَأَثِّمٍ مِنْ أَخْذِهِ ، كَأَنَّكَ ـ لَا أَبَا لِغَيْرِكَ ـ حَدَرْتَ إِلَى أَهْلِكَ تُرَاثَكَ مِنْ أَبِيكَ وَأُمِّكَ .

فَسُبْحَانَ اللهِ ! أَمَا تُؤْمِنُ بِالْمَعَادِ ! أَوَ مَا تَخَافُ نِقَاشَ الْحِسَابِ ! أَيُّهَا الْمَعْدُودُ كَانَ عِنْدَنَا مِنْ أُولِي الْأَلْبَابِ ، كَيْفَ تُسِيغُ شَرَاباً وَطَعَاماً ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ تَأْكُلُ حَرَاماً ، وَتَشْرَبُ حَرَاماً ، وَتَبْتَاعُ الْإِمَاءَ ، وَتَنْكِحُ النِّسَاءَ مِنْ أَمْوَالِ الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ

وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدِينَ ، الَّذِينَ أَفَاءَ اللهُ عَلَيْهِمْ هَـذِهِ الْأَمْوَالَ ، وَأَحْرَزَ بِهِمْ هَذِهِ الْبِلَادَ !

فَاتَّقِ اللهَ وَارْدُدْ إِلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ أَمْوَالَهُمْ ؛ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ ثُمَّ أَمْكَنَنِي اللهُ مِنْكَ ، لَأُعْذِرَنَّ إِلَى اللهِ فِيكَ ، وَلَأَضْرِبَنَّكَ بِسَيْفِي الَّذِي مَا ضَرَبْتُ بِهِ أَحَداً إِلَّا دَخَلَ النَّارَ .

وَوَاللهِ لَوْ أَنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ فَعَلَا مِثْلَ الَّذِي فَعَلْتَ ، مَا كَانَتْ لَهُمَا عِنْدِي هَوَادَةٌ ، وَلَا ظَفِرَا مِنِّي بِإِرَادَةٍ ، حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُمَا ، وَأُزِيحَ الْبَاطِلَ عَنْ مَظْلَمَتِهِمَا .

وَأُقْسِمُ بِاللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ؛ مَا يَسُرُّنِي أَنَّ مَا أَخَذْتَهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَلَالٌ لِي ، أَتْرُكُهُ مِيرَاثاً لِمَنْ بَعْدِي ، فَضَحِّ رُوَيْداً ، فَكَأَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ الْمَدَى ، وَدُفِنْتَ تَحْتَ الثَّرَى ، وَعُرِضَتْ عَلَيْكَ أَعْمَالُكَ بِالْمَحَلِّ الَّذِي يُنَادِي الظَّالِمُ فِيهِ بِالْحَسْرَةِ ، وَيَتَمَنَّى الْمُضَيِّعُ فِيهِ الرَّجْعَةَ ، وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ !

* * *

الشَّرْحُ :

أشركتك فى أمانتى : جعلتك شريكا فيما قمتُ فيه من الأمر ، وائتمننى الله عليه من سياسة الأمّة ، وسمّى الخلافة أمانةً كما سمّى الله تعالى التكاليف أمانةً فى قوله : ﴿ إنّا عرضْنا الأمانة ﴾(١). فأمّا قوله : وأداء الأمانة إلىّ فأمرٌ آخر ، ومراده بالأمانة الثانية ما يتعارفه الناس من قولهم : فلان ذو أمانة ، أى لا يخون فيما أسند إليه .

وكلِب الزمان : اشتدّ ؛ وكذلك : كلِب البردُ .

(١) سورة الأحزاب ٧٢ .

وحرب العدوّ : استأسد . وخزيتْ أمانة الناس : ذلّت وهانت .

وشَغَرت الأمّة : خلت من الخير ، وشَغَر البلد : خلا من الناس .

وقلبتُ له ظهر المجنّ : إذا كنت معه فصرت عليه ؛ وأصل ذلك أن الجيش إذا لقوا العدوّ وكانت ظهور مجانّهم إلى وجه العدوّ ، وبطون مجانّهم إلى وجه عسكرهم ، فإذا فارقوا رئيسهم وصاروا مع العدوّ كان وضع مجانّهم بدلا من الوضع الذى كان من قبل ، وذلك أنّ ظهور التّرسة لا يمكن أن تكون إلا فى وجوه الأعداء ، لأنها مَرمى سهامهم .

وأمكنتك الشدة ، أى الحملة .

قوله : « أسرعت الكرّة » ، لا يجوز أن يقال : الكرّة إلا بعد فرّة ، فكأنه لما كان مقلما فى ابتداء الحال عن التعرّض لأموالهم ، كان كالفارّ عنها ، فلذلك قال : أسرعت الكرّة .

والذئب الأزلّ : الخفيف الوَرِكين ، وذلك أشدّ لعدْوه ، وأسرع لوثبته ، وإن اتفق أن تكون شاةٌ من المِعزَى كثيرة ودامية أيضا ، كان الذئب على اختطافها أقدر .

ونقاش الحساب : مناقشته .

قوله : « فضحّ رُويدا » ، كلة تقال لمن يؤمر بالتّؤدة والأناة والسكون ، وأصلها الرّجل يطعم إبله ضحًى ، ويسيّرها مسرعا ليسير ، فلا يشبعها ، فيقال له : ضَحِّ رويدا .

***

[اختلاف الرأى فيمن كتب له هذا الكتاب]

وقد اختلف الناس فى المكتوب إليه هذا الكتاب ، فقال الأكثرون : إنه عبد الله ابنُ العباس رحمه الله ، ورَوَوْا فى ذلك روايات ، واستدلّوا عليه بألفاظ من ألفاظ الكتاب

كقوله : « أشركتك فى أمانتى ، وجعلتك بطانتى وشعارى ، وأنه لم يكن فى أهلى رجل أوثق منك »، وقوله : « على ابن عمّك قد كاب » ، ثم قال ثانيا : « قلبتَ لابن عمّك ظهر المِجنّ » ثم قال ثالثا : « ولابن عمك آسيت » ؛ وقوله : « لا أبا لغيرك » ، وهــذه كلة لا تقال إلا لمثله ، فأما غيره من أفناء الناس ، فإن عليًّا عليه السلام كان يقول : لا أبا لك .

وقوله : « أيها المعدود كان عندنا من أولى الألباب» . وقوله: « لو أنّ الحسن والحسين عليهما السلام » ، وهذا يدل على أن المكتوب إليه هذا الكتاب قريب من أن يجرى مجراها عنده .

وقد رَوَى أرباب هذا القول أن عبد الله بن عباس كَتب إلى علىّ عليه السلام جوابا من هذا الكتاب ، قالوا : وكان جوابه :

أما بعد ، فقد أتانى كتابك تعظم علىّ ما أصبت من بيت مال البصرة ، ولعمرى إنّ حقى فى بيت المال أكثر مما أخذتُ ، والسلام .

قالوا : فكتب إليه علىّ عليه السلام :

أمّا بعد ، فإنّ من العجب أن تزيّن لك نفسك أنّ لك فى بيت مال المسلمين من الحقّ أكثر مما لرجل واحد من المسلمين ، فقد أفلحت إن كان تمنّيك الباطل ، وادعاؤك ما لا يكون ينجيك من المأثم ، ويُحلّ لك المحرم ، إنك لأنت المهتدى السعيد إذاً ! وقد بلغنى أنك اتّخذت مكة وطنا ، وضربت بها عَطنا ، تشترى بها مولّدات مكة والمدينة والطائف ، تختارهنّ على عينك ، وتعطى فيهنّ مال غيرك ، فارجع هَدَاكَ الله إلى رُشدك ، وتبْ إلى الله ربك ، واخرج إلى المسلمين من أموالهم ، فعمّا قليل تفارق من ألفت ، وتترك ما جمعت ، وتغيب فى صَدَع من الأرض غير موسَّد ولا ممهّد ، قد فارقت الأحباب ، وسكنتِ التراب ، وواجهت الحساب ، غنيا عمّا خلفت ، فقيرا إلى ما قدَّمت ، والسلام .

قالوا : فكتب إليه ابن عباس :

أمّا بعد ، فإنك قد أكثرت علىّ ، ووالله لأن ألقى الله قد احتويت على كنوز الأرض كلّها ، وذهبها وعقيانها وَلُجَيْنها ، أحبّ إلىّ من أن ألقاه بدم امرئ مسلم . والسلام .

* * *

وقال آخرونَ وهم الأقلون : هذا لم يكن ، ولا فارق عبدُ الله بن عباس عليّا عليه السلام ، ولا باينه ولا خالفه ، ولم يزل أميرا على البصرة إلى أن قتل علىّ عليه السلام .

قالوا : ويدلّ على ذلك ما رواه أبو الفرج علىّ بن الحسين الأصفهانىّ من كتابه الذى كتبه إلى معاوية من البصرة لما قتل علىّ عليه السلام ، وقد ذكرناه من قبل ، قالوا : وكيف يكون ذلك ولم يخدعه معاوية ، ويجرّه إلى جهته ، فقد علمتم كيف اختدع كثيرا من عمال أمير المؤمنين عليه السلام واستمالهم إليه بالأموال ، فمالوا وتركوا أمير المؤمنين عليه السلام ، فما بالُه وقد علم النّبوة التى حدثَتْ بينهما ، لم يستمِل ابنَ عباس ، ولا اجتذبه إلى نفسه ؛ وكلّ من قرأ السّير وعرف التواريخ يعرف مشاقّة ابن عباس لمعاوية بعد وفاة علىّ عليه السلام ، وما كان يلقاه به من قوارعِ الكلام ، وشديد الخصام ، وما كان يثنى به على أمير المؤمنين عليه السلام ويذكر خصائصه وفضائله ، ويصدع به من مناقبه ومآثره ، فلو كان بينهما غبار أو كَدر لما كان الأمر كذلك ، بل كانت الحال تكون بالضدّ لما اشتهر من أمرهما .

وهذا عندى هو الأمثل والأصوب .

وقد قال الراوندىّ : المكتوب إليه هذا الكتاب هو عبيد الله بن العباس ، لا عبد الله ؛

وليس ذلك بصحيح ، فإنّ عبيد الله كان عامل علىّ عليه السلام على اليمن ، وقد ذكرت قصته مع بُسر بن أرطاة فيما تقدّم ، ولم ينقل عنه أنه أخذ مالا ، ولا فارق طاعة .

وقد أشكل علىّ أمرُ هذا الكتاب ، فإن أنا كذّبت النقل وقلتُ : هذا كلام موضوع على أمير المؤمنين عليه السلام ، خالفتُ الرواة ، فإنّهم قد أطبقوا على رواية هذا الكلام عنه ، وقد ذكر فى أكثر كتب السيَر . وإن صرفته إلى عبد الله بن عباس صدّنى عنه ما أعلمه من ملازمته لطاعة أمير المؤمنين عليه السلام فى حياته وبعد وفاته . وإن صرفته إلى غيره لم أعلم إلى مَنْ أصرفه من أهل أمير المؤمنين عليه السلام ؛ والكلامُ يشعر بأنّ الرجل المخاطَب من أهله وبنى عمه ، فأنا فى هذا الموضع من المتوقّفين !

(٤٢)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى عمر بن أبى سلمة المخزومى ، وكان عامله على البحرين ، فعزله واستعمل النعمان بن عجلان الزُّرَقىّ مكانه :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّى قَدْ وَلَّيْتُ النُّعْمَانَ بْنَ عَجْلَانَ الزُّرَقِىَّ عَلَى الْبَحْرَيْنِ ، وَنَزَعْتُ يَدَكَ بِلَا ذَمٍّ لَكَ ، وَلَا تَثْرِيبٍ عَلَيْكَ ؛ فَلَقَدْ أَحْسَنْتَ الْوِلَايَةَ ، وَأَدَّيْتَ الْأَمَانَةَ ، فَأَقْبِلْ غَيْرَ ظَنِينٍ وَلَا مَلُومٍ ، وَلَا مُتَّهَمٍ وَلَا مَأْثُومٍ ، فَقَدْ أَرَدْتُ الْمَسِيرَ إِلَى ظَلَمَةِ أَهْلِ الشَّامِ ، وَأَحْبَبْتُ أَنْ تَشْهَدَ مَعِى ؛ فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ بِهِ عَلَى جِهَادِ الْعَدُوِّ ، وَإِقَامَةِ عَمُودِ الدِّينِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

* * *

الشرح :

[عمر بن أبى سلمة ونسبه وبعض أخباره]

أمّا عمر بن أبى سَلَمة فهو رَبيبُ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، وأبوه أبو سَلَمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة ، يكنّى أبا حفص ، وُلد فى السنة الثانية من الهجرة بأرض الحبشة ، وقيل : إنه كان يومَ قُبِض رسولُ الله صلى الله عليه وآله ابن تسع سنين ، وتوفِّىَ فى المدينة فى خلافة عبد الملك سنة ثلاثٍ وثمانين ، وقد حَفظ عن رسول الله صلّى الله عليه وآله الحديث ، ورَوَى عنه سعيد بن المسيِّب وغيره ، ذكر

ذلك كلّه ابن عبد البرّ فى كتاب " الاستيعاب " .

***

[النعمان بن عجلان ونسبه وبعض أخباره]

وأما النّعمان بن عجلان الزُّرَقىّ فمن الأنصار ، ثم من بنى زُرَيق ، وهو الّذى خَلَف على خولة زوجة حمزةَ بن عبد المطلب رحمه الله بعد قتله ، قال [ابن] عبد البرّ فى كتاب " الاستيعاب " : كان النّعمان هـذا لسان الأنصار وشاعرهم ؛ ويقال : إنه كان رجلا أحمر قصيرا تزدريه العين ، إلّا أنه كان سيّدا ، وهو القائل يومَ السَّقيفة :

وقلتم حرامٌ نصب سعدٍ ونصبكمْ   عتيق بن عثمان حـلالٌ أبا بكرِ
وأهلُ أبو بكر لهـا خيرُ قائمٍ   وإنّ عليـــا كان أخلَقَ بالأمرِ
وإنّ هَوانـــا فى علىّ وإنه   لأهلٌ لها من حيث يدرى ولا يدرِى

قوله : « ولا تثريب عليك » ، فالتثريب الاستقصاء فى اللّوم ؛ ويقـال : ثرّبت عليه ، وعرّبت عليه ، إذا قبّحتَ عليه فعله .

والظَّنين : المتّهم ؛ والظِّنّة التّهمة ، والجمع الظِّنَن ؛ يقول : قد اظّنّ زيد عمرا ، والألف ألف وصل ، والظاء مشدّدة ، والنون مشدّدة أيضا ، وجاء بالطاء المهملة أيضاً ، أى اتّهمه . وفى حديث اُبن سيرين: لم يكن علىّ عليه السلام يظّنّ فى قتل عثمان ، الحرْفان مشدّدان وهو يَفْتَعِل من « يَظّنُ » وأُدغم ، قال الشاعر :

وما كلُّ مَنْ يَظّنُّـنِى أنـا مُعْتِبٌ   وما كلّ ما يُرْوَى علىَّ أقولُ (١)

---

(١) الصحاح ٢١٦١ من غير نسبة .

(٤٣)

الأصلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى مصقلة بن هبيرة الشيبانىّ وكان عامله على أردشير خرّة :

بَلَغَنِى عَنْكَ أَمْرٌ إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسْخَطْتَ إِلٰهَكَ ، وَعَصَيْتَ إِمَامَكَ ؛ إِنَّكَ تَقْسِمُ فَىْءَ الْمُسْلِمِينَ ـ الَّذِى حَازَتْهُ رِمَاحُهُمْ وَخُيُولُهُمْ ، وَأُرِيقَتْ عَلَيْهِ دِمَاؤُهُمْ ـ فِيمَنْ اعْتَامَكَ مِنْ أَعْرَابِ قَوْمِكَ . فَوَالَّذِى فَلَقَ الْحَبَّةَ ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ ؛ لَئِنْ كَانَ ذَلِكَ حَقًّا . لَتَجِدَنَّ لَكَ عَلَىَّ هَوَانًا ، وَلَتَخِفَّنَّ عِنْدِى مِيزَانًا ، فَلَا تَسْتَهِنْ بِحَقِّ رَبِّكَ ، وَلَا تُصْلِحْ دُنْيَاكَ بِمَحْقِ دِينِكَ ، فَتَكُونَ مِنَ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا .

أَلَا وَإِنَّ حَقَّ مَنْ قِبَلَكَ وَقِبَلَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِى قِسْمَةِ هَذَا الْفَىْءِ سَوَاءٌ ؛ يَرِدُونَ عِنْدِى عَلَيْهِ ، وَيَصْدُرُونَ عَنْهُ .

***

الشَّرحُ :

قد تقدّم ذكر نسب مَصقَلة بن هُبيرة . وأردشير خرّة : كُورةٌ من كُوَر فارس .

واعتامَك : اختارَك من بين الناس ، أصلُه من العِيمة بالكسر ، وهى خيارُ المال ، اعتام المصَّدِّق إذا أخذ العِيمة ، وقد رُوِى : « فيمن اعتماك »[1] بالقلب ، والصحيح

(١) ب : « اعتامك » ؛ والصواب ما أثبته من ا .

المشهور الأوّل ، وروى : « ولتجدنّ بك عندى هوانا » بالباء ، ومعناها اللام ؛ ولتجدنّ بسبب فعلك هوانك عندى ، والباء ترد للسببيّة ، كقوله تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾(١) .

والمَحْق الإهلاك .

والمعنى أنّه نهى مصقلة عن أن يقسم الفىء على أعراب قومه الّذين اتّخذوه سيّدا ورئيسا ، ويَحْرِم المسلمين الذين حازُوه بأنفسهم وسلاحهم ؛ وهذا هو الأمر الّذى كان يُنكِره على عثمان ، وهو إيثارُ أهله وأقاربه بمالِ الفَىْء ؛ وقد سبق شرحُ مثل ذلك مستوفًى .

(١) سورة النساء ١٦٠ .

(٤٤)

الأصلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى زياد بن أبيه ، وقد بلغه أن معاوية كتب إليه يريد خديعته باستلحاقه :

وَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ كَتَبَ إِلَيْكَ يَسْتَزِلُّ لُبَّكَ ، وَيَسْتَفِلُّ غَرْبَكَ ، فَاحْذَرْهُ فَإِنَّمَا هُوَ الشَّيْطَانُ يَأْتِي الْمَرْءَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ ، لِيَقْتَحِمَ غَفْلَتَهُ ، وَيَسْتَلِبَ غِرَّتَهُ .

وَقَدْ كَانَ مِنْ أَبِي سُفْيَانَ فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَلْتَةٌ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ ، وَنَزْغَةٌ مِنْ نَزَغَاتِ الشَّيْطَانِ ، لَا يَثْبُتُ بِهَا نَسَبٌ ، وَلَا يُسْتَحَقُّ بِهَا إِرْثٌ ، وَالْمُتَعَلِّقُ بِهَا كَالْوَاغِلِ الْمُدَفَّعِ ، وَالنَّوْطِ الْمُذَبْذَبِ .

فَلَمَّا قَرَأَ زِيَادٌ الْكِتَابَ قَالَ : شَهِدَ بِهَا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ ، وَلَمْ تَزَلْ فِي نَفْسِهِ حَتَّى ادَّعَاهُ مُعَاوِيَةُ .

* * *

قالَ الرَّضِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تعالى :

قَوْله عليه السلام : « الوَاغِلُ » ، هو الذى يَهجُمُ على الشَّرْبِ ليشربَ معهمْ وليس منهمْ ، فَلا يَزَالُ مُدفَّعاً مُحاجَزاً . والنَّوْطُ المُذَبذَبُ : هو ما يُنَاطُ بِرَحْلِ الرَّاكِبِ من قَعْبٍ أوْ قدَحٍ ، أوْ ما أشبهَ ذلكَ ، فهوَ أبداً يتقلقلُ إذا حثَّ ظهرَهُ ، واستعجلَ سيرَهُ .

* * *

الشَّـرْحُ :

يستزلّ لبّك ، يطلب زلله وخطأه ، أى يحاول أن تزلّ . واللبّ : العقل . ويستفلّ غَرْبك : يحاول أن يفلّ حدّك ، أى عزمك ، وهذا من باب المجاز . ثم أمَرَه أن يحذره ، وقال : إنه ــ يعنى معاوية ــ كالشّيطان يأتى المرء من كذا ومن كذا ، وهو مأخوذ من قول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾(١) ؛ قالوا فى تفسيره : من بين أيديهم : يُطمعهم فى العفو ويغريهم بالعصيان(٢) ، ومِن خلفهم : يذكرهم مخلّفيهم ، ويُحسِّن لهم جمع المال وتركه لهم ، وعن أيمانهم : يحبّب إليهم الرياسة والثّناء ، وعن شمائلهم : يحبّب إليهم اللّهوَ واللذّات .

وقال شقيق البلخىّ : ما من صباح إلا قعد لى الشيطان على أربعة مراصد : من بين يدىّ ، ومن خلفى ، وعن يمينى ، وعن شمالى ، أمّا من بين يدىّ فيقول : لا تخفْ فإنّ الله غفور رحيم ، فأقرأ : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾(٣) ، وأما من خلفى فيخوّفنى الضيعة على مخلّفى ، فأقرأ : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ﴾(٤) ؛ وأما من قِبَل يمينى فيأتينى من جهة الثناء ، فأقرأ : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾(٥) ، وأما من قِبَل شمالى فيأتينى من قِبَل الشهوات ، فأقرأ : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾(٦) .

فإن قلت : لِمَ لَمْ يقل : « ومن فوقهم ومن تحتهم » ؟

---

(١) سورة الأعراف ١٧ .
(٢) كذا فى ا ، وفى ب « فى العصيان » .
(٣) سورة طه ٨٢ .
(٤) سورة هود ٦ .
(٥) سورة القصص ٨٣ .
(٦) سورة سبأ ٥٤ .

قلت : لأن جهة « فوق » جهةُ نزول الرحمة ، ومستقرّ الملائكة ، ومكان العرش ، والأنوار الشريفة ، ولا سبيل له إليها ؛ وأما من جهة « تحت » فلأن الإتيانَ منها يُوحِش ، وينفِّر عنه ، لأنها الجهة المعروفة بالشياطين ، فعدل عنها إلى ما هو أدْعَى إلى قبول وَساوِسه وأضالِيله .

وقد فسّر قوم المعنى الأوّل فقالوا : « من بين أيديهم » ، من جهة الدنيا ، و « من خلفهم » . من جهة الآخرة ؛ و« عن أيمانهم» ، الحسنات ؛ و « عن شمائلهم » ، أى يحثّهم على طلب الدنيا ، ويؤيسهم من الآخرة ، ويثبّطهم عن الحسنات ، ويغريهم بالسيئات .

قوله : « ليقتحم غفلته » أى ليلجَ ويهجم عليه وهو غافل ؛ جعل اقتحامه إياه اقتحاما للغِرّة نفسها لما كانت غالبةً عليه .

ويستلب غرّته ، ليس المعنى باستلابه الغِرّة أن يرفعها ويأخذها ، لأنه لو كان كذلك لصار ذلك الغافل المغترّ فاقدا للغفلة والغِرّة ، وكان لبيبا فطنا ، فلا يبقى له سبيل عليه ، وإنما المعنى بقوله : « ويستلب غِرّته » ما يعنيه الناس بقولهم : أخذ فلانٌ غفلتى وفعل كذا .

ومعنى أخذها هنا أخذ ما يستدلّ به على غفلتى .

وفلتة: أمرٌ وقع من غير تثبت ولا روّية .

ونَزْغَة : كلمة فاسدة ، من نزغات الشيطان ، أى من حركاته القبيحة التى يستفسد بها مكلفين ، ولا يثبتُ بها نسب ، ولا يستحقّ بها إرث ، لأنّ المقرّ بالزنا لا يلحقه النسب ، ولا يرثه المولود ، لقوله صلى الله عليه وآله : « الولد للفراش ، وللعاهر الحجر » .

***

[نسب زياد بن أبيه وذكر بعض أخباره وكُتُبه وخطبه]

فأما زياد ، فهو زياد بن عبيد ، ومن الناس من يقول : عبيد بن فلان ، وينسبه إلى

ثقيف ، والأكثرون يقولون : إن عبيدا كان عبدا ، وإنه بــقى إلى أيام زياد ، فابتاعه وأعتقه ؛ وسنذكر ما ورد فى ذلك ونسبة زياد لغير أبيه لخمول أبيه ، والدّعوة التى استلحق بها ؛ فقيل تارةً : زياد بن سميّة ، وهى أمه ، وكانت أمَةً للحارث بن كلَدَة بن عمرو بن علاج الثقفىّ ، طبيب العرب ، وكانت تحت عبيد .

وقيل تارة زياد بن أبيه ، وقيل تارة : زياد بن أمه ، ولما استلحق قال له أكثر الناس : زياد بن أبى سُفْيان ، لأن الناس مع الملوك الذين هم مظنة الرّهبة والرّغبة ، وليس اتباع الدين بالنسبة إلى اتبــاع الملوك إلا كالقَطْرة فى البحر المحيط ، فأما ما كان يدعى به قبــل الاستلحاق فزياد بن عبيد ، ولا يشك فى ذلك أحد .

وروى أبو عمرَ بن عبدالبرّ فى كتاب ''الاستيعــاب'' عن هشام بن محمد بن السائب الكلبىّ عن أبيه ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس ، أنّ عمر بعث زيادا فى إصــلاح فساد واقع باليمن ، فلمّا رجع من وجهه خطب عند عمر خطبة لم يُسمع مِثْلها ــ وأبوسفيان حاضر وعلىٌّ عليه السلام وعمرُو بن العاص ــ فقال عمرو بن العاص: للهِ أبو هذا الغلام! لو كان قرشيّا لساق العربَ بعصــاه ؛ فقال أبو سفيان : إنه لقُرشىّ ، وإنى لأعرِف الّذى وضعه فى رحِم أمّه ؛ فقال علىّ عليه السلام : ومن هو ؟ قال : أنا ؛ فقال : مهلا يا أبا سفيان، فقال أبو سُفْيان :

أما واللهِ لولا خوفُ شخْصٍ يرانى يا عــلىُّ من الأعادِى
لأظهر أمرَه صخْر بن حرْبٍ ولم يخفِ المقالة فى زيادِ
وقد طالت مُجامَلتى ثقيفاً وتركى فيهمُ ثمرَ الفؤادِ

عنى بقوله : « لولا خوف شخص » : عمر بن الخطاب[1] .

---

(١) الاستيعاب ٢٠١ وما بعدها .

ورَوَى أحمد بن يحيى البَلاذُرىّ قال : تـكلّم زياد ــ وهو غلام حَدَث ــ بحضرة عمر كلاما أعجَبَ الحاضرين ، فقـال عمرو بن العاص : لله أبوه ! لو كان قرشيّا لساق العرب بعصاه ؛ فقال أبو سُفْيان : أما والله إنّـه لقُرشىّ ، ولو عرفتَه لعرفتَ أنّـه خير من أهلك ؛ فقال : ومَن أبوه ؟ قال : أنا والله وضعتُه فى رَحِم أمّـه ، فقال : فهلّا تستلحقه ؟ قال : أخاف هذا العيْرَ الجالسَ أن يَخرِق علىّ إهابى .

ورَوَى محمد بن عمرَ الواقدىّ، قال قال: أبو سُفْيان وهو جالس عند عُمر وعلىٌّ هناك ، وقد تـكلّم زياد فأحسن : أبَتِ المناقبُ إلّا أن تَظهرَ فى شمائل زِياد ؛ فقال علىّ عليـه السلام : من أىّ بنى عبد مناف هو ؟ قال : ابـنى ؛ قال : كيف ؟ قال : أتيت أمّـه فى الجاهلية سِفاحا ! فقال علىّ عليه السلام : مه يا أبا سُفْيان ! فإنّ عمرَ إلى المساءة سريـع ؛ قال : فعرف زياد مادار بينهما ، فـكانت فى نفسه .

ورَوَى علىّ بن محمد المدَائنىّ قال : لمّا كان زمن علىّ عليه السلام ولّى زيادا فارسَ أو بعضَ أعمال فارسَ ، فضبطها ضَبطاً صالحـا ، وجَبَى خَراجَها وحَماها ، وعرف ذلك معاوية ، فـكتب إليه : أمّا بعد ، فإنّه غرّتْك قِلاعٌ تأوى إليها ليلا ، كما تأوى الطيرُ إلى وكرها ، وأيم الله لولا انتظارى بك ما الله أعـلم به لـكان لك منّى ما قاله العبد الصالح : ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾[(١)] . وكتب فى أسفل الـكتاب شِعرا مِن جملته :

تَنسَى أباكَ وقــد شالَتْ نَعامتُه ... إذ يَخطب الناس والوالى لهمْ عمرُ

فلمّا ورد الـكتاب على زيادٍ قام فخطب النـاس ، وقال : العَجَب من ابن آكلة الأكباد ، ورأسِ النفاق ! يهدّدنى وبينى وبينه ابن عمّ رسول الله صلّى الله عليـه وآله وزوج سيّدة نساء العالمين، وأبو السِّبْطين ، وصاحب الولاية والمَنزِلة والإخاء فى مائة ألفٍ

---

(١) سورة النمل ٣٧ .

من المهاجرين والأنصار والتّابعين لهم بإحسان ! أما والله لو تخطّى هـؤلاء أجمعين إلىّ لوَجَدَنى أحمرَ مِخَشًّا[1] ضَرّابا بالسيف ، ثم كتب إلى علىّ عليـه السلام ، وبعث بكتابِ معاويةَ فى كتابه .

فـكَتب إليه علىٌّ عليه السلام ، وبعث بكتابه :

أمّا بعد ، فإنى قد ولّيتك ماولّيتك وأنا أراك لذلك أهـلا ، وإنّـه قد كانت من أبى سُفْيان فَلْتة فى أيّام عمر من أمانىّ التّيه وكَذِب النفس ، لم تَستوجِب بهـا ميراثا ، ولم تستحقَّ بها نَسَبا ، وإنّ معاوية كالشيطان الرجيم يأتى المرءَ من بين يديه ومِن خلفه وعَن يمينِه وعن شِماله ، فاحذره ، ثم احذره ، ثم احذره ؛ والسلام .

وروى أبو جعفر محمد بن حبيب قال : كان علىٌّ عليـه السلام قد ولّى زياداً قِطْعةً من أعمال فارس ، واصطنعه لنفسه ، فلمّا قُتِل علىّ عليـه السلام بَقِىَ زياد فى عَمَله ، وخاف معاويةُ جانبه ، وعلم صعوبة ناحيته ، وأشفق من مُمالأته الحسنَ بنَ علىّ عليـه السلام . فـكتب إليه :

من أمير المؤمنين معاويةَ بن أبى سُفْيان إلى زياد بن عبيد ، أمـّا بعد ، فإنّـك عبد قد كفرتَ النّعمة ، واستدعيتَ النّقمة ، ولقد كان الشـكرُ أوْلى بك من الـكفر ، وإنّ الشجرة لَتضرِب بعِرْقها،وتتفرّع من أصلها ، إنّك ـ لاأمَّ لك بل لا أب لك ـ قد هلـكتَ وأهلَـكْت ، وظننتَ أنـّك تَخرج من قبضتى ، ولا ينالك سلطانى ، هيهات ! ما كلُّ ذى لُبٍّ يصيب رأيَـه ، ولا كلُّ ذى رأيٍ يَنصَح فى مَشورته . أمسِ عبدٌ واليومَ أمير ! خطّة ما ارتقاها مِثلُك يابن سمّية ، وإذا أتاك كتابى هذا فخـذ الناسَ بالطاعة والبَيْعة ، وأسرِع الإجابة ، فإنّـك إن تَفعَل فدَمَـك حقَنْت ، ونفسَك تدارَكْت ، وإلّا اختطفتُك

---

(١) المخش : الماضى الجرىء ، وفى ب : « مخبا » ، والصواب ما أثبته من ا .

بأضعف ريش[١] ، ونلتك بأهوَن سَعْى. وأقسِم قسما مَبرورا ألاّ أُوتَى بك إلاّ فى زمّارة[٢] ، تمشى حافيا من أرض فارسَ إلى الشام حتى أقيمَكَ فى السوق ، وأبيعَك عبداً ، وأردّكَ إلى حيث كنت فيه وخرجتَ منه . والسلام .

فلمّا ورد الكتاب على زياد غضب غضبا شديدا ؛ وجمعَ الناسَ وصعِد المنبرَ . فحمِد الله ثم قال : ابن آكلة الأكباد وقاتلة أسد الله ، ومظهر الخلاف ، ومُسِرّ النفاق ، ورئيس الأحزاب ، ومن أنفق مالَه فى إطفاء نور الله ، كتب إلىّ يُرعِد ويبرُق عن سحابةٍ جَفْل لا ماءَ فيها ، وعمّا قليل تصيّرها الرياح قَزَعا ، والّذى يدلّنى على ضعفه تهدّده قبل القدرة ؛ أفمن إشفاق علىّ تُنذِر وتُعذِر ! كلاّ ، ولكن ذَهَب إلى غير مَذهَب ، وقَعقَع لِمَن رُبِّىَ[٣] بين صَواعِق تِهامة ، كيف أَرهبُه وبينى وبينه ابن بنتِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وابن عمّه فى مائة ألف من المهاجرين والأنصار ، والله لو أذن لى فيه ، أو ندَبنى إليه ، لأُرِيتُه الكواكبَ نهارا ؛ ولأسعطتُه ماءَ الخردل . دونه الكلام اليوم ، والجمع غدا ، والمشورة بعد ذلك إن شاء الله . ثم نزل .

وكتب إلى معاوية :

أمّا بعد ، فقد وصل إلىّ كتابك يا معاوية ، وفهمتُ ما فيه ، فوجدتُك كالغريق يغطّيه الموج فيتشبّث بالطُّحْلُب ، ويتعلّق بأرجُل الضّفادع ، طمعا فى الحياة . إنّما يكفر النعم ، ويستدعى النقم من حادّ الله ورسولَه ، وسَعَى فى الأرض فسادا . فأمّا سبُّك لى فلولا حلمٌ ينهانى عنك ، وخوفى أنْ أُدْعَى سفيها ، لأثَرْتُ لك مَخازىَ لا يغسلها الماء . وأمّا تعييرك لى بسُمَيّة ، فإن كنتُ ابنَ سُميّة فأنت ابن جماعة ، وأمّا زعمك أنّك تختطفنى بأضعف ريش ، وتتناولنى بأهوَن سَعْى ، فهل رأيت بازياً يُفزعه صغيرُ

---

(١) بأضعف ريش ؛ يريد بأضعف قوة ؛ وكانوا يلزقون الريش على السهم ليقووه ويسددوه .
(٢) أى فى جماعة زمارة تزمر حولك بالمزامير لتشهيرك والتشنيع عليك .
(٣) كذا فى ا ، وفى ب : « ربّى » .

القَنابر ، أم هـل سمعت بذئبٍ أكَلَه خروف ! فامض الآن لطيَّتِك ، واجتهد جَهدَك ، فلستُ أنزِل إلّا بحيث تَكره ، ولا أجتهدُ إلّا فيما يسوءك ، وستعلمُ أيّنا الخاضع لصاحبه ، الطالع إليه . والسلام .

فلمّا ورد كتابُ زِياد على معاوية غَمّه وأحزنه ، وبعث إلى المغيرة بن شعبة ، فخلا به وقال : يا مغيرة ، إنّي أريد مشاورتَك في أمرٍ أهمّني ، فانصحْني فيه ، وأشِرْ عليَّ برأي المجتهد ، وكن لي أكن لك ، فقد خصصتُك بِسِرّي ، وآثرتك على وَلَدي . قال المغيرة : فما ذاك ؟ واللهِ لتجدنّي في طاعتك أمضَى من الماءإلى الحدور ، ومن ذي الرّونق في كفّ البطل الشجاع . قال : يا مغيرة ، إنّ زيادا قد أقام بفارسَ يَكُشّ لنا كَشِيشَ الأفاعي ، وهو رجلٌ ثاقبُ الرأي ، ماضي العزيمة ، جوّال الفكر ، مصيبٌ إذا رمى ؛ وقد خفت منه الآن ما كنتُ آمَنه إذ كان صاحبه حيّا ، وأخشى ممالأته حَسناً ، فكيف السبيلُ إليه ، وما الحيلة في إصلاح رأيه ؟ قال المغيرة : أنا له إن لم أَمُت ؛ إن زيادا رجل يحبّ الشرف والذِّكْر وصعود المنابر ، فلو لاطفته المسألة ، وألنتَ له الكتابَ ، لكان لك أميَل ، وبك أوثَق ، فاكتب إليه وأنا الرسول .

فكتب معاوية إليه :

من أمير المؤمنين معاويةَ بن أبي سُفيان إلى زياد بن أبي سُفيان ، أمّا بعد ، فإن المرء ربّما طَرَحه الهوى في مَطارح العَطَب ، وإنك لَلمرء المضرُوب به المثل ، قاطع الرحم ، وواصِلُ العدوّ . وحَمَلك سوء ظنّك بي ، وبغضُك لي ، على أن عققتَ قرابتي ، وقطعتَ رَحِمي ، وبتتّ (١) نسبي وحُرْمتي ؛ حتّى كأنّك لست أخي ، وليس صخر بن حرب أباك وأبي ، وشتّان ما بيني وبينك ، أطالب بدم ابن أبي العاص (٢) وأنت تقاتِلني ! ولكنْ أدرَكَك عِرْقُ الرّخاوة من قِبَل النساء ، فكنتَ :

---

(١) بتت : قطعت .

(٢) أي عثمان ؛ وهو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية .

كتاركةٍ بيْضَها بالعَراء ومُلحفةٍ بيْضَ أخرى جناحا

وقد رأيتُ أن أَعطفَ عليك ، ولا أؤاخذُك بسوء سعيك ، وأن أصِلَ رحمك ، وأبتغى الثوابَ فى أمرك ، فاعلمْ أبا المغيرة ، أنّك لو خضتَ البحرَ فى طاعة القوم فتضربَ بالسيف حتّى انقطع متنه لما ازددت منهمْ إلا بعدا ؛ فإن بنى عبد شمس أبغضُ إلى بنى هاشم من الشّفرة إلى الثور الصّريع وقد أُوثِق للذبح ؛ فارجع ـ رَحمك الله ـ إلى أصلك ، واتّصل بقومك ، ولا تكن كالموصولِ بريش[1] غيرِه ، فقد أصبحتَ ضالَّ النسب . ولعَمرِى ما فَعَل بك ذلك إلّا اللّجاج ، فدعه عنك ؛ فقد أصبحتَ على بيّنة من أمرِك ، ووضوحٍ من حجّتك ، فإن أحببت جانبى ، ووثقتَ بى ، فإمْرَة بإمْرة ، وإن كرهتَ جانبى ، ولم تثق بقولى ، ففعل جميلٌ لا علىَّ ولا لى . والسلام .

فرحل المغيرةُ بالكتاب حتّى قدم فارسَ ، فلمّا رآه زياد قرّبه وأدناه ولطف به فدفع إليه الكتاب ، فجعل يتأمّله ويضحك ، فلمّا فرغ من قراءته وضعه تحتَ قدمِه ثم قال : حَسْبك يا مغيرة ! فإنّى أطّلع على ما فى ضميرك ، وقد قدمت من سفرة بعيدة ، فقم وأرِحْ رِكابك . قال : أجل ، فدع عنك اللّجاج يرحمك الله ، وارجع إلى قومك ، وصل أخاك ، وانظر لنفسك ، ولا تقطع رحَمك ! قال زياد : إنّى رجلٌ صاحب أناة ، ولى فى أمرى رَوِيّة ، فلا تَعجل علىّ ، ولا تبدأنى بشيء حتى أبدأك . ثمّ جمع الناسَ بعد يومين أو ثلاثة ، فصعِد المنبر فحمِد الله وأثنى عليه ثم قال : أيّها النّاس : ادفعوا البلاء ما اندفع عنكم ، وارغبوا إلى الله فى دوام العافية لكم ، فقد نظرتُ فى أمور الناس منذ قتل عثمانُ ، وفكّرت فيهم فوجدتهم كالأضاحى ، فى كلّ عيدٍ يُذبَحون ، ولقد أفنى هذان اليومان ـ يوم الجمل وصِفّين ـ ما يُنِيف على مائةِ ألفٍ ؛ كلّهم يزعم أنّه طالبُ حقّ ، وتابعُ إمام ، وعلى بصيرة من أمرِه ، فإن كان الأمر هكذا فالقاتل والمقتول فى الجنّة ، كلّا

(١) ب : « كالموصول يطير بريش غيره » .

ليس كذلك ، ولكنْ أشكل الأمر ، والتبس على القوم ، وإنى لخائفٌ أن يرجع الأمر كما بدا ، فكيف لامرئٍ بسلامةِ دينه ! وقد نظرتُ فى أمر الناس فوجدتُ أحدَ العاقبتين العافية ، وسأعمل فى أموركم ما تحمدون عاقبته ومَغَبّته ، فقد حمدتُ طاعتكم إن شاء الله ثم نزل .

وكتب جوابَ الكتاب :

أمّا بعد ، فقد وصل كتابُك يا معاوية مع المغيرة بن شُعْبة وفهمتُ ما فيه ، فالحمد لله الّذى عرّفك الحقّ ، وردّك إلى الصّلة ، ولست ممّن يجهل معروفا ، ولا يغفل حَسَبا ، ولو أردتُ أن أجيبك بما أوجبته الحجّة ، واحتمله الجواب ، لطال الكتاب ، وكثُر الخطاب ، ولكنّك إن كنتَ كتبتَ كتابك هذا عن عَقْد صحيح ، ونيّة حسنة ، وأردتَ بذلك برّا ، فستزرع فى قلبى مودّة وقبولا ، وإن كنتَ إنّما أردتَ مكيدةً ومكرا وفساد نيّة ، فإنّ النفس تأبى ما فيه العَطب ، ولقد قمتُ يومَ قرأتُ كتابك مقاما يعبأ به الخطيب المِدْرَه ، فتركت من حضر ، لا أهل ورْد ولا صدر ، كالمتحيّرين بمهمَهٍ ضَلّ بهم الدليل ، وأنا على أمثال ذلك قدير ، وكتب فى أسفل الكتاب :

إذا مَعشرى لم يُنصفونى وجدتَنى — أدافع عنّى الضّيمَ ما دمتُ باقيا
وكم معشرٍ أعيتْ قَناتى عليهمُ — فلامُوا وألفوْنى لَدَى العزم ماضيا
وهمٍّ به ضاقتْ صدورٌ فرجْتُه — وكنتُ بِطَبّى للرجال مُداويا
أدافع بالحِلم الجهولَ مكيدةً — وأخفى له تحت العِضاه الدّواهيا
فإن تدنُ منى أدنُ منك وإن تَبِنْ — تجدْنى إذا لم تَدْنُ منّىَ نائيا

فأعطاه معاويةُ جميعَ ما سأله ، وكتب إليه بخط يده ما وثق به ، فدخل إليه الشام ، فقرّبه وأدناه ، وأقرّه على ولايته ، ثم استعمله على العراق .

* * *

وَرَوى علىّ بن محمد المدائنىّ ، قال : لمّا أراد معاوية استلحاق زيادٍ وقد قدم عليه الشام جمعَ الناس وصَعِد المنبر ، وأصعد زيادا معه فأجلسه بين يديه على المِرْقَاة الّتى تحت مِرْقاته ، وحَمِد الله وأثنى عليه ثم قال : أيّها الناس ، إنّى قد عرفتُ نَسبنا أهل البيت فى زيادٍ ؛ فمن كان عنده شهادة فليقُم بها . فقام ناس فشهدوا أنّه ابنُ أبى سُفْيان ؛ وأنّهم سمعوا ما أقرّ به قبل موته ، فقام أبومريمَ السَّلُولىّ — وكان خمّارا فى الجاهلية — فقال : أشهدُ يا أميرَ المؤمنين أنّ أبا سفْيان قَدِم علينا بالطائف ، فأتانى فاشتريتِ له لحما وخَمرا وطعاما ، فلما أكل قال : يا أبا مريم ، أَصِب لى بغيًّا ، فخرجتُ فأتيتُ بسُمَيّة ، فقلت لها : إنّ أبا سُفْيان ممّن قد عرفت شرفَه وجُودَه ، وقد أمرنى أن أصيبَ له بغيًّا ، فهل لك ؟ فقالت : نعم ، يجىء الآن عبيد بغنمه — وكان راعيا — فإذا تعشّى ، ووَضع رأسه أتيتُه . فرجعتُ إلى أبى سفيان فأعلمتُه ، فلم نلبثْ أن جاءت تجرّ ذيلَها ، فدخلتْ معه ، فلم تزل عندَه حتّى أصبحتْ ؛ فقلت له لما انصرفتْ : كيف رأيتَ صاحبتَك ؟ قال : خيرَ صاحبة ، لولا ذَفَرٌ فى إبطيها .

فقال زياد من فوق المنبر : يا أبا مريم ، لا تَشتم أمهات الرجال ، فتشتَم أمّك .

فلما انقضى كلامُ معاوية ومناشدَته قام زياد ، وأَنصت الناس ؛ فحمد اللهَ وأثنى عليه ثم قال : أيّها الناس ، إنّ معاوية والشهود قد قالوا ما سمعتم ، ولستُ أدرى حقّ هذا من باطِله ! وهو والشهودُ أعلم بما قالوا ، وإنما عبيد أبٌ مبرور ، ووالٍ مشكور . ثم نزل .

* * *

وروى شيخُنا أبو عثمان أنّ زيادا مرّ وهو والى البصرة بأبى العُرْيان العَدَوِىّ — وكان شيخا مكفوفا ، ذا لَسَنٍ وعارضة شديدة — فقال أبو العُرْيان : ما هذه الجَلَبة ؟ قالوا : زياد بن أبى سُفْيان ، قال : والله ما ترك أبو سُفْيان إلّا يزيد ومعاوية وعُتبة وعَنْبسة وحنظلة ومحمّدا ، فمن أين جاء زياد ؟ فبلغ الكلامُ زيادا ، وقال له قائل : لو سددتَ

عنك فَمَ هذا الكلب ! فأرسل إليه بمائتى دينار ، فقال له رسول زياد : إنّ ابنَ عمّك زيادا الأمير قد أرسَل إليك مائتى دينار لتنفقها ، فقال : وصلَتْه رَحِم ! إى والله ابن عمّى حقّا . ثم مرّ به زياد من الغد فى موكبه ، فوقف عليه فسلّم ، وبكى أبو العُرْيان ، فقيل له : ما يبكيك؟ قال: عرفتُ صوتَ أبى سُفْيان فى صوت زِياد . فبلغ ذلك معاوية ، فكتب إلى أبى العُرْيان :

ما ألبثَتْك الدنانيرُ التى بُعِثَتْ ... أنْ لوّنتْكَ أبا العُرْيانِ ألوَانَا
أمسَى إليك زياد فى أرومتِه ... نُكْرا فأصبح ما أنكرت عِرْفانا
لِلّهِ درُّ زيادٍ لو تعجّلها ... كانت له دون مايخشاه قُرْبانا !

فلمّا قرئ كتابُ معاوية على أبى العُرْيان قال : اكتب جوابه يا غلام :

أحدِثْ لنا صِلَةً تحيا النفوسُ بها ... قد كدتَ يابن أبى سُفْيان تَنْسانا
أمّا زِيادٌ فقد صحّت مَناسِبُه ... عندى فلا أبتغى فى الحقّ بُهتانا
مَن يُسْدِ خيراً يُصْبه حين يَفعلهُ ... أو يُسْدِ شرّا يُصِبْه حيثما كانا

وروى أبو عثمان أيضا ، قال : كتب زيادٌ إلى معاوية ليستأذنه فى الحجّ ، فكتب إليه ؛ إنّى قد أذنتُ لك واستعملتُك على الموسم ، وأجزتُك بألفِ ألفِ درهم . فبينا هو بتجهّز إذ بلغ ذلك أبا بَكْرة أخاه — وكان مُصارِماً له منذ لَجْلَج فى الشهادة على المغيرة بن شعبة أيّام عمر لا يكلّمه قد لزمتْه أيمانٌ عظيمة ألّا يكلّمه أبدا — فأقبلَ أبو بكْرة يدخُل القصر يريد زيادا ، فبصُر به الحاجب ، فأسرع إلى زياد قائلا : أيّها الأمير ، هذا أخوك أبو بَكْرة قد دخل القصر ؛ قال : ويْحك ، أنت رأيته ! قال هاهو ذا قد طلع ، وفى حجْر زيادٍ بُنىّ يلاعبه ، وجاء أبو بَكْرة حتّى وقف عليه ، فقال للغلام : كيف أنت يا غلام ؟ إنّ أباك ركب فى الإسلام عظيما ! زنى أمّه ، وانتفى من أبيه ، ولا والله ماعلمت سميّة رأتْ

أبا سُفْيان قطّ ، ثم أبوك يريد أن يركب ما هو أعظم من ذلك ، يوافى الموسم غداً ، ويوافى أمّ حبيبةَ بنت أبى سُفْيان ، وهى من أمّهات المؤمنين ، فإن جاء يستأذن(١) عليها فأذنتْ له ؛ فأعظمْ بها فِرْيةً على رسول الله صلّى الله عليه وآله ومصيبة ! وإن هى منعته فأعظِمْ بها على أبيك فضيحة ! ثمّ انصرف ، فقال : جزاك الله يا أخى عن النصيحة خيراً ؛ ساخطاً كنتَ أو راضيا . ثم كتب إلى معاوية : إنّى قد اُعتللت عن الموسم فليوجّه إليه أمير المؤمنين من أحَبّ ، فوجّه عتبة بن أبى سُفْيان .

* * *

فأمّا أبو عمرَ بنُ عبدالبرّ فى كتاب " الاستيعاب " فإنّه قال : لمّا ادّعى معاوية زيادا فى سنة أربع وأربعين وألحقه به أخاً زوج اُبنته من اُبنه محمّد بن زياد ليؤكّد بذلك صحّة الاستلحاق ، وكان أبو بَكْرة أخا زيادٍ لأمه ، أمّهما جميعا سُمَيّة ، فحلف ألاّ يكلّم زيادا أبدا وقال : هذا زَنّى أمّه ، واُنتفَى من أبيه ، ولا والله ما علمت سُميّة رأت أبا سُفْيان قبل(٢) ، وَيْله ما يصنع بأمّ حبيبة ! أيريد أن يراها ؟ فإنْ حجبتْه فضحته ؛ وإن رآها فيالها مصيبة ! يهتك من رسولِ الله صلّى الله عليه وآله حرمةً عظيمة !

وحجّ زياد مع معاوية ، ودخل المدينة فأراد الدخول على أمّ حبيبة ثم ذكر قولَ أبى بَكْرة ، فانصرف عن ذلك . وقيل : إنّ أمّ حبيبة حجبتْه ولم تأذَن له فى الدّخول عليها ، وقيل : إنّه حجّ ولم يَرِد(٣) المدينة من أجل قول أبى بَكْرة ، وإنّه قال : جزى الله أبا بكرة خَيْرا فما يَدَع النصيحة فى حال .

ورَوَى أبو عمرَ بن عبد البرّ فى هذا الكتاب قال : دخل بنو أميّة وفيهم عبدُ الرحمن ابنُ الحكم على معاوية أيّام ما استلحق زيادا ، فقال له عبد الرحمن : يا معاوية ، لو لم تجد إلّا الزّنج لاستكثرتَ بهم علينا قلّة وذلّة — يعنى على بنى أبى العاص . فأقبل معاويةُ

---

(١) ب : « أن يستأذن » . (٢) ا والاستيعاب : « قط » . (٣) ا : « يزر » .

على مَرْوانَ وقال : أخرج عنّا هذا الخليع ، فقال مرْوان : إى واللهِ أنّه لخليع ما يطاق ، فقال معاوية : والله لولا حلمى وتجاوُزى لعلمتَ أنّه يطاق ، ألم يبلغنى شعرُه فىّ وفى زياد ! ثم قال مروان : أسمِعْنيه ، فأنشد :

ألا أبلغْ معاوية بن حَرْبٍ ... لقد ضاقتْ بمـا يأتى اليَدانِ
أتغضَب أن يقال أبوك عَفٌّ ... وتَرضَى أن يقال أبوكَ زانِ !
فأشهد أنّ رَحْمَـك من زيادٍ ... كرَحْمِ الفِيلِ مِنْ وَلَدِ الأتانِ
وأشهد أنّهـا حملتْ زِيادا ... وصخرٌ من سُميّةَ غيرُ دانِ [١]

ثم قال [٢] : واللهِ لا أرضى عنه حتّى يأتى زيادا فيترضّاه ويعتذر إليه ، فجاء عبد الرحمن إلى زياد معتذرا يستأذِن عليه ، فلم يأذن له ، فأقبلتْ قريش إلى زياد تـكلّمه فى أمر عبد الرحمن ، فلمّا دخل سلّم ، فتشاوس له زياد بعينه — وكان يَكسِر عينَه — فقـال له زياد : أنت القائـل ما قلت ؟ قال عبد الرحمن : ما الّذى قلت ؟ قال : قلت ما لا يقال ؛ قال : أصلح الله الأمير ! إنّه لا ذنب لمن أعتَب ، وإنمـا الصَّفْح عمّن أذنب ، فاْسمع منى مـا أقول ، قال : هاتِ ، فأَنشده :

إليك أبا المغـيرة تبتُ ممّـا ... جَرَى بالشام مِنْ خَطَلِ اللّسانِ [٣]
وأغضبتُ الخليفة فيـك حتّى ... دعاه فَرْطُ غيظٍ أن هجـانى
وقلتُ لمن لحانى فى اُعتذارى [٤] ... إليـك اُذهبْ فشأنك غيرُ شانى

---

(١) بعدها فى الاستيعاب : « وهذه الأبيات تروى ليزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميرى الشاعر ؛ ومن رواها له جعل أولها :

ألَا أبلغ معاوية بن حربٍ ... مغلغلةً من الرّجُلِ اليمـانى

وذكر الأبيات كما ذكرناها سواء » .

(٢) فى الاستيعاب : « وروينا أن معاوية قال حين أنشده مروان شعر أخيه عبـد الرحمن : والله لا أرضى . . .

(٣) الاستيعاب : « من جور اللسان » . (٤) الاستيعاب : « لمن يلمنى » .

عرفت الحقّ بعد ضلالِ رأيي ... وبعد الغيِّ من زيغ الجَنان
زيادٌ من أبي سُفْيان غُصْنٌ ... تهادى ناضرا بين الجِنان
أراكَ أخاً وعمّا وابن عمٍّ ... فما أدرِي بِعَيْبٍ ما تراني
وإنّ زيادةً في آلِ حرْبٍ ... أحبُّ إليّ من وُسْطى بناني
ألا أبلغ معاوية بنَ حربٍ ... فقد ظفرتْ بما تأتى اليدانِ

فقال زياد: أراكَ أحمق صِرْفا شاعرا ضيع اللّسان، يسوغ لك ريقك ساخطا ومسخوطا، ولكنا قد سمعنا شعرَكَ، وقبلْنا عذرَكَ؛ فهات حاجتك؟ (١قال: تكتب إلى أمير المؤمنين بالرّضا عنّي، قال: نعم، ثمّ دعا كاتبه فكتب له بالرضا عنه١)، فأخذ كتابه ومضى حتى دخل على معاوية، فلمّا قرأه قال: لحا الله زيادا، لم يتنبّه لقوله:

* وإنّ زيادةً في آلِ حرب *

ثم رضي عن عبد الرحمن وردّه إلى حالته.

وأما أشعار يزيد بن مفرِّغ الحميريّ وهجاؤه عبيدَ الله وعبّادا؛ ابني زياد بالدعوة فكثيرة مشهورة، نحو قوله:

أعبّادُ ما للُّؤْم عنك تحوُّلٌ(٢) ... ولا لك أمٌّ من قريش ولا أبُ
وقل لعبيد الله مالك والدٌ ... بحقّ ولا يدرى امرؤ كيف تنسبُ

ونحو قوله:

شهدت بأنّ أمك لم تُباشِرْ ... أبا سُفْيان واضعة القناعِ

(١ – ١) الاستيعاب: «قال: كتاب إلى أمير المؤمنين بالرضا عني، قال: نعم، ثم دعا كاتبه فقال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم. لعبد الله معاوية أمير المؤمنين من زياد بن أبي سفيان؛ فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو؛ أما بعد فإنه . . . وذكر الخبر».

(٢) ا: «محول».

ولكنْ كان أمرٌ فيه لبْسٌ　　على حَذَرٍ شديد وارتياعِ
إذا أودَى معاوية بنُ حرب　　فبشِّرْ شعبَ قعبك بانْصِداعِ

ونحو قوله :

إنَّ زياداً ونافعاً وأبا بَكْـرةَ عندى من أعجب العَجَبِ
هم رجالٌ ثلاثةٌ خُلِقوا　　فى رَحْمِ أنثى وكلُّهمْ لأبِ
ذا قرشىٌّ كما تقول وذا　　مولًى وهذا بزعمه عَرَبى(١)

كان عبيد الله بن زياد يقول : ما شجيتُ بشىء أشدّ علىّ من قول ابن مفرِّغ :

فكِّرْ ففى ذاكَ إنْ فكرتَ معتبَرٌ　　هل نلتَ مكرُمةً إلّا بتأمير !
عاشت سميّةُ ما عاشت وما علمتْ　　أنَّ ابنها من قريش فى الجماهير

ويقال : إنَّ الأبيات النونية المنسوبة إلى عبد الرحمن بن أمِّ الحكم ليزيد بن مفرِّغ وأن أوّلها :

ألا أبلغْ معاوية بن حربٍ　　مغلغلةً من الرَّجُلِ اليمانى

ونحو قوله ، وقد باعَ برد غلامه لما حبسه عبّاد بن زياد بسجستان :

يا بُرْدُ ما مسّنا دهرٌ أضرّ بنا　　من قبل هذا ولا بِعنا له وَلَدَا
لامتنىَ النفسُ فى بُرْدٍ فقلتُ لها　　لا تَهلكى إثر بُرْد هكذا كمدا
لولا الدعىّ ولولا ما تعرّض بى　　من الحوادث ما فارقته أبدا

ونحو قوله :

أبلغ لديك بنى قحطانَ مألُكةً　　عضَّت بأيْر أبيها سادةُ اليمن
أضحَى دعىّ زياد فقْعَ قرقرَةٍ　　يا للعجائب يلهو بابن ذى يزَن !

---

(١) كذا فى ا والاستيعاب ، وفى ب : « وهذا ابن عمه » .

وَروَى ابنُ الكلبيّ أنّ عبّاد استاحقه زياد كما استلحق معاوية زيادا ؛ كلاهما لدعوة . قال : لمّا أذِن لزياد فى الحجّ تجهّز ، فبينا هو يتجهّز وأصحاب القِرَب يعرضون عليه قِرَبهم ، إذ تقدّم عبّاد — وكان خرّازاً — فصار يَعرِض عليه ويحاوره ويجيبه ، فقال زياد : ويْحَك ، مَن أنت ؟ قال : أنا ابنك ؛ قال : وَيْحك ، وأىّ بَنىّ ؟ قال : قد وقعتَ على أمّى فلانة ، وكانت من بنى كذا ، فولدتنى ، وكنت فى بنى قيس بن ثعلبة وأنا مملوك لهم ، فقال : صدقت والله ؛ إنى لأعرف ما تقول . فبعث فاشتراه ، وادّعاه وألحقه ؛ وكان يتعهّد بنى قيس ابن ثعلبة بسببه ويصلهم . وعظم أمرُ عبّاد حتّى ولّاه معاوية سِجِسْتان بعد موتِ زياد ، وولّى أخاه عبيد الله البصرة ، فتزوّج عبّاد الستيرة[1] ابنة أُنيف بن زياد الكَلْبىّ ، فقال الشاعر يخاطب أُنيفا — وكان سيّد كلب فى زمانه :

أبلغ لديك أبا تُرْكانَ مألُكةً[2] ... أنائما كنتَ أم بالسّمع مِن صَمَمِ !
أنكحتَ عَبد بنى قيس مهذّبةً ... آباؤها من عُلَيْمٍ مَعدِن الكَرَم
أكنت تجهل عبّادا ومحتِدَه ... لا درَّ درُّك أم أنكحتَ من عَدَمِ
أبعد آل أبى سُفْيان تجعلُه ... صِهْرا وبعد بنى مروانَ والحَكَمِ !
أعظِمْ عليكَ بذا عاراً ومَنقصَةً ... ما دمتَ حيّا وبعد الموت فى الرّحَمِ

***

وقال الحسن البصرىّ : ثلاث كنّ فى معاوية لو لم تكن فيه إلّا واحدة منهنّ لكانت موبقةً : انتزاؤه على هذه الأمة بالسّفهاء حتى ابتزّها أمرها ، واستلحاقه زيادا مُراغَمةً لقول رسول الله : « الوَلَد للفراش، وللعاهر الحجَر »، وقتلُه حُجْر بن عَدىّ؛ فياويلَه من حُجْر وأصحاب حُجْر !

(١) كذا فى ب : « الشترة » . (٢) ب : « بركان » .

وروى الشَّرْقى بن القطامىّ ، قال : كان سعيد بن سَرْح مولى حبيب بن عبد شمس شيعة لعلىّ بن أبى طالب عليه السلام : فلمّا قدم زياد الكوفة طلبه وأخافه ، فأتى الحسن بن علىّ عليه السلام مستجيرا به ، فوثب زياد على أخيه وولده وامرأته فحبسهم ، وأخذ مالَه ، ونقض دارَه . فكتب الحسن بنُ علىّ عليه السلاء إلى زياد :

أمّا بعد ، فإنك عَمَدت إلى رجل من المسلمين له ما لَهم وعليه ما عليهم ، فهدمت دارَه ، وأخذتَ ما له ، وحبستَ أهلَه وعيالَه ؛ فإن أتاك كتابى هذا فابْنِ له دارَه ، وارْدُد عليه عيالَه وماله ، وشفّعنى فيه ، فقد أجرتُه . والسلام .

فكتب إليه زِياد :

من زِياد بن أبى سُفْيان إلى الحسَن بن فاطمة ، أمّا بعد ، فقد أتانى كتابُك تبدأ فيه بنفسك قبلى ، وأنت طالب حاجة ، وأنا سلطان وأنت سُوقة ، وتأمرنى فيه بأمر المطاع المسلّط على رعيّته . كتبت إلىّ فى فاسق آويته، إقامةً منك على سوء الرأى ، ورضاً منك بذلك ، وايمُ الله لا تسبقنى به ولو كان بين جلدك ولحمك ، وإن نلت بعضك غير رفيق بك ولا مرعٍ عليك ، فإنّ أحبّ لحم علىّ أن آكله لَلَّحم الّذى أنت منه ، فسلّمه بجريرته إلى من هو أولَى به منك ، فإن عفوتُ عنه لم أكن شفّعتك فيه ، وإن قتلتُه لم أقتلْه إلّا لحبّه أباك الفاسق ؛ والسلام .

فلمّا ورد الكتاب على الحسَن عليه السلام قرأه وتبسّم ، وكتب بذلك إلى معاوية ، وجعل كتاب زياد عِطفه ، وبعثَ به إلى الشام ، وكتب جواب كتابه كلمتين لا ثالثة لهما :

من الحسن بن فاطمة إلى زياد بن سميّة ، أمّا بعد ، فإن رسول الله صلّى الله عليه وآله قال : . « الولد للفراش ، وللعاهر الحجَر » ؛ والسلام .

فلمّا قرأ معاويةُ كتابَ زياد إلى الحسن ضاقت به الشام ، وكتب إلى زياد :

أمّا بعد ، فإنّ الحسن بن علىّ بعث إلىّ بكتابك إليه جوابا عن كتاب كتبه

إليك فى ابن سَرْح ؛ فأكثرت العجبَ منك، وعلمتُ أنّ لك رأيْين : أحدُهما من أبى سُفْيان ، والآخر من سُمَيّة ، فأما الّذى من أبى سفيانَ فحِلْمٌ وحزم ، وأمّا الذى من سُميّة، فما يكون من رأى مِثلها ! من ذلك كتابك إلى الحسن تَشْتُم أباه ، وتعرِّض له بالفسق ، ولعَمرِى إنّك الأَوْلى بالفِسق من أبيه . فأمّا أنّ الحسنَ بدأ بنفسه ارتفاعا عليك، فإن ذلك لا يضعك لو عقلت ، وأمّا تسلّطه عليك بالأمر فحقّ لِمثل الحسن أن يتسلّط ، وأمّا تركك تشفيعه فيما شفع فيه إليك، فحظٌّ دفعتَه عن نفسك إلى من هو أولى به منك. فإذا ورد عليك كتابى فخلّ ما فى يديك لسعيد بن أبى سَرْح ، وابن له دارَه ، واردد عليه مَاله ، ولا تعرّض له ، فقد كتبتُ إلى الحسن أن يخيّره ، إن شاء أقام عنده ، وإن يشاء رجع إلى بلده ، ولا سلطان لك عليه لا بيدٍ ولا لسان . وأمّا كتابُك إلى الحسن باسمه واسم أمّه ، ولا تَنسُبه إلى أبيه ، فإن الحسن وَيحك ! من لا يُرمَى به الرَّجَوان (١) ، وإلى أىّ أمّ وكَلْته لا أمَّ لك ! أما علمتَ أنّها فاطمةُ بنتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فذاك أفخر له لو كنتَ تَعلَمه (٢) وتعقلُه ! وكَتَب فى أسفل الكتاب شعرا ، من جملته :

أمَا حَسَنٌ فابنُ الّذى كان قبلَهُ ... إذا سار سارَ الموتُ حيث يسيرُ
وهل يلد الرِّئبال إلاّ نظيرَه ... وذا حَسَنٌ شِبْهٌ له ونظيرُ
ولكنّه لو يوزَن الحلم والحجا ... بأمرٍ لقالوا يذبلٌ وثبيرُ

***

(١) الرجا : ناحية كل شىء ، وخص بعضهم به ناحية البئر من أعلاها إلى أسفلها وحافتيها ؛ ويقال : رمى به الرجوان : استهين به ، فكأنه رمى به هنالك ؛ أرادوا أنه طرح فى المهالك ؛ قال :

لقدْ هزئتْ مِنّى بنجرانَ أنْ رأتْ ... مقامِىَ فى الكبلَيْن أمّ أبانِ
كأن لم ترى قبلِى أميراً مكبّلاً ... ولا رجلا يُرْمَى به الرّجَوان

أى لا يستطيع أن يستمسك . (٢) ساقطة من ب .

ورَوَى الزُّبير بن بكّار فى " الموفَّقيّات " أنّ عبد الملك أجرى خَيْلا، فسبقه عبّاد بن زياد ، فأنشد عبد الملك :

سبّق عبّاد وصلّت لحيته ْ وكان خَرّازاً تجود قربتُه ْ

فشكى عبّاد قولَ عبد الملك إلى خالد بن يزيدَ بن معاوية ، فقال له : أما والله لأنصفنّك منه بحيث يكره . فزوّجه أختَه ، فكتب الحجّاج إلى عبد الملك : يا أميرَ المؤمنين ، إنّ مناكِحَ آل أبى سفيان قد ضاعت . فأخبرَ عبدُ الملك خالدا بما كتب به الحجّاج ، فقال خالد: يا أمير المؤمنين ، ما أعلم امرأةً منّا ضاعت ونزلت إلّا عاتكة بنت يزيدَ بن معاوية ، فإنّها عندك ، ولم يَمنِ الحجّاج غيرَك . قال عبد الملك : بل عنى الدّعى ابن الدّعىّ عبّادا ، قال خالد : يا أمير المؤمنين ، ما أنصفتَنى ، أدّعى رجلا ثم لا أزوّجه ! إنما كنت ملوما لو زوّجت دعيّك ، فأمّا دَعيّي فلِمَ لا أزوّجه !

***

فأما أوّل ما ارتفع به زياد فهو استخلاف ابن عبّاس له على البصَرة فى خلافة علىٍّ عليه السلام ، وبلغت عليّا عنه هَنات ، فكتب إليه يلومه ويؤنّبه ، فمنها الكتاب الّذى ذكر الرضىّ رحمه الله بعضَه ، وقد شرحْنا فيما تقدّم ما ذكر الرضىّ منه ، وكان علىّ عليه السلام أَخرج إليه سعْداً مولاه يحثّه على حَمْل مال البَصرة إلى الكُوفة ، وكان بين سعد وزياد مُلاحاة ومنازعة ، وعاد سعد وشكاه إلى علىٍّ عليه السلام وعابه ، فكتب علىٌّ عليه السلام إليه :

أمّا بعد ، فإن سعداً ذكر أنك شتمتَه ظُلما ، وهدّدته وجَبَهتَه تجبّرا وتكبُّرا ، فما دعاك إلى التكبُّر وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : « الكبرُ رداء الله ، فمن نَازعَ الله رداءَه قصَمَه » ، وقد أخبرَنى أنك تُكثِّر من الألوان المختلفة فى الطعام فى اليوم الواحد ،

وتَدَّهِن كلَّ يوم ، فما عليك لو صُمْتَ لله أيّاما ، ونصدّقتَ ببعض ماعندك محتسبا ، وأكلت طعامَك مرارا قَفَارا ، فإنّ ذلك شعارُ الصالحين ! أفتطمع وأنت متمرّغ فى النعيم ، تستأثر به على الجار والمسكين والضعيف والفقير والأرملة واليتيم ، أن يُحسَب لك أجرُ المتصدّقين ! وأخبَرنى أنّك تتكلم بكلام الأبرار ، وتعمل عمل الخاطئين ، فإن كنتَ تفعل ذلك فنفسَك ظلَمْتَ ، وعملَك أحبطْت ، فتبْ إلى ربّك يُصلحْ لك عملَك ، واقتصد فى أمرك ، وقدّمْ إلى ربك الفضل ليوم حاجتك ، وادّهن غبّا ؛ فإنّى سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول : « ادّهنوا غبّا ولا تدّهنوا رِفهاً(١) » .

فكتب إليه زياد : أمّا بعد يا أمير المؤمنين ، فإن سعدا قَدِم علىّ فأساء القول والعمل ، فانتهرْتهُ وزجرته ، وكان أهلاً لأكثر من ذلك . وأمّا ما ذكرتَ من الإسراف واتّخاذ الألوان من الطعام والنّعم ، فإنْ كان صادقا فأثابه الله ثوابَ الصالحين ، وإن كان كاذبا فوقاه الله أشدَّ عقوبة الكاذبين . وأمّا قوله : « إنى أصف العدل وأخالفه إلى غيره » ، فإنّى إذَنْ من الأخسرين . فخذ يا أمير المؤمنين بمقالٍ قلته فى مقامٍ قمته ؛ الدعوى بلا بيّنة ؛ كالسهم بلا نَصْل ؛ فإن أتاك بشاهدَىْ عدلٍ ؛ وإلّا تبيّن لك كذبه وظلمُه .

* * *

ومن كلام زياد : تأخيرُ جزاء المحسن لؤم ، وتعجيل عقوبة المُسىء طيش .

وكتب إليه معاوية : أمّا بعد ، فاعزل حريثَ بن جابر عن العمل ، فإنّى لا أذكُر مقاماته بصفّين إلّا كانت حَزازة فى صدرى ، فكتب إليه زياد :

أمّا بعد ، فخفّض عليك يا أمير المؤمنين ، فإنّ حُريثا قد سبق شرفا لا يرفعه معه عمل ، ولا يَضَعه معه عَزْل .

(١) الرفه والإرفاه : كثره التدهن والتنعم .

وقال لابنه عبيد الله : عليك بالحجاب ، وإنّما اجترأتِ الرُّعاة على السِّباع بكثرة نظرِها إليها .

ومن كلامه : أحسنوا إلى أهل الخراج ، فإنّكم لا تزالون سِماناً ما سمنوا .

قدّم رجلٌ خصما له إلى زياد فى حقٍّ له عليه وقال : أيها الأمير ، إنّ هذا يُدِلُّ بخاصة ذكر أنّها له منك . قال زياد : صَدَق ، وسأخبرك بما ينفعه عندى من خاصّته ومودّته ، إن يكن له الحقّ عليك آخذْك به أخذاً عنيفا ، وإن يكن الحقّ لك قضيتُ عليه ، ثم قضيت عنه .

وقال : ليس العاقل من يحتال للأمر إذا وقع فيه ، لكنّ العاقل مَنْ يحتال للأمر ألّا يقع فيه .

وقال فى خطبة له : ألا رُبَّ مسرورٍ بقدُومنا لا نسرّه ، وخائف ضرّنا لا نضرُّه !

كان مكتوبا فى الحيطان الأربعة فى قصر زياد كتابة بالجص ، أربعة أسطر ؛ أوّلها : الشدّة فى غير عُنْف ، واللِّينُ فى غير ضَعْف . والثانى : المحسن مجازًى بإحسانه ، والمسىء يكافأ بإساءته . والثالث : العطيّات والأرزاق فى إبّانها وأوقاتها . والرابع : لا احتجاب عن صاحب ثغرٍ ، ولا عن طارق ليل .

وقال يوما على المنبر : إنّ الرجل ليتكلّم بالكلمة يَشفِى بها غيظه لا يقطع بها ذنب عنزٍ فتَضرّه ، لو بلغتنا عنه لسفكْنا دَمه .

وقال : ما قرأتُ كتابَ رجل قطّ إلّا عرفتُ عَقلَه منه .

وقال فى خطبة : استوصُوا بثلاثة منكم خيراً : الشريف ، والعالم ، والشيخ ؛ فوالله لا يأتينى وضيعٌ بشريف يستخفّ به إلّا انتقمتُ منه ، أو شابٌّ بشيخ يستخفّ به إلا أوجعتُه ضربا ، ولا جاهلٌ بعالم يستخفُّ به إلّا نكّلت به .

وقيل لزياد : ما الحظّ ؟ قال : أن يطولَ عمرُكَ ، وتَرَى فى عدوّكَ ما يسرّكَ .

قيل : كان زياد يقول : هما طريقان للعامة : الطاعة والسيف .

وكان المغيرة يقول : لا والله حتى يحمَلوا على سبعين طريقا غير السيف .

وقال الحسن البصرىّ لرجل : ألا تحدّثنى بخطبتىْ زياد والحجّاج حين دَخَلَا العراق ! قال : بلى ، أمّا زياد فلمّا قدم البصرة حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أمّا بعد ، فإنّ معاوية غيرُ مخوف على قومه ، ولم يكن لِيُلحِق بنسبه من ليس منه ، وقد شهدَتِ الشهودُ بما قد بلغكم ، والحقّ أحقّ أن يُتَّبَع ، والله حيث وضع البيّنات كان أعلم ، وقد رحلتُ عنكم وأنا أعرف صَدِيقى من عدوّى ، ثمّ قدمتُ عليكم وقد صار العدوّ صديقا مناصحا ، والصديق عدوّا مكاشحا ، فلْيشتَمِل كلّ امرئٍ على ما فى صدره ، ولا يكوننّ لسانه شَفرةً تجرى على أوداجه ، وليعلم أحدُكم إذا خلا بنفسه أنّى قد حملتُ سيفى بيدى ، فإن أشهره لم أغمدْه ، وإن أغمدْه لم أشهرِه . ثم نزل . وأمّا الحجّاج فإنه قال : من أَعْيَاهُ داؤه ، فعلَىّ دواؤه ؛ ومن استبطأ أجلَه ؛ فعلىَّ أن أعجّله ؛ ألا إنّ الحزم والعَزْم استلبا منّى سوطى ، وجعلا سوطى سيفى ، فنجادُه فى عنقى ، وقائمه بيدى ، وذُبابه قلادةٌ لمن اغترَّ بى .

فقال الحسن : البؤس لهما ، ما أغرّهما بربّهما ! اللّهمّ اجعلْنا ممن يعتبر بهما .

وقال بعضهم : ما رأيت زيادا كاسراً إحدى عينيه ، واضعا إحدى رجليه على الأخرى يخاطب رجلا إلا رحمتُ المخاطَب .

ومن كلامه : نعم الشىء الإمارة ؛ لولا قعقعة لجام البريد ، وتسنّم ذِرْوة المنبر .

قال لحاجبه : يا عَجْلان ، إنّى قد ولّيتك هذا الباب وعزلتك عن أربعة : المنادى إذا جاء يؤذّن بالصلاة ، فإنّها كانت كتابا موقوتا ، ورسولِ صاحب الثّغر ، فإنه إنْ أبطأ

ساعةً فسد تدبيرُ سنة ، وطارق اللّيل فشرٌّ ما جاء به ، والطبّاخ إذا فرغ من الطعام ، فإنّه متى أعيد عليه التّسْخين فَسَد .

وكان حارثة بن بدر الغُدَانىّ قـد غلب على زياد ، وكان حارثة مشتّهرا بالشّراب ، فقيل لزياد فى ذلك ، فقال : كيف باطّراح رجل هو يسايرنى منذ قدِمْت العراق فلا يصلُ رِكابُه ركابى ، ولا تقدّمنى قطّ فنظرتُ إلى قفـاه ، ولا تأخّر عنّى فلوَيْت عنقى إليه ، ولا أخذ علىّ الشمس فى شتاء قطّ ، ولا الرّوْح فى صَيْف قطّ ، ولا سألته عن علم إلّا ظننته لا يحُسِن غيرَه .

ومن كلامه : كفى بالبخل عارا أنّ اسمَه لم يقع فى حمدٍ قطّ ، وكفى بالجُود فخراً أنّ اسْمه لم يقع فى ذمٍّ قط .

وقال : مِـلاكُ السّلطان الشدّةُ على المريب ، واللّين للمحسن ، وصِدْق الحديث ، والوفاء بالعهد .

وقال : ما أتيتُ مجلسا قطٌّ إلّا تركتُ منه ما لو أخذتُه لـكان لى ، وتركُ مالى أحبُّ إلىّ من أخذِ ما ليس لى .

وقال : ماقرأتمثلَ كُتب الرّبيع بن زياد الحارثىّ ، ما كتب إلىّ كتابا قطّ إلّا فى اجترار منفعة ، أو دفع مَضَرّة ، ولا شاورته يوما قطٌّ فى أمرٍ مبهم إلّا وسَبَق إلى الرأى .

وقال : يُعجبنى من الرجل إذا أتى مجلسا أنْ يعلم أين مكانه منه ، فلا يتعدّاه إلى غيره ، وإذا سيم خُطّةَ خَسْفٍ أن يقول : « لا » بملْء فيه .

* * *

فأما خطبـةُ زياد المعروفة بالبتراء ـ وإنّما سمّيت بذلك لأنّه لم يحمـد الله فيها ، ولا صلّى على رسوله ـ فقد ذكرها علىُّ بن محمّد المدائنى قال : قَدِم زياد البَصْرة أمـيراً عليها أيّام معاوية والفِسقُ فيها فاشٍ جدا ، وأموالُ النـاس منتَهبَة ، والسياسة ضعيفة ، فصَعِد المنبرَ فقال :

أمّا بعد، فإنّ الجاهليّة الجهْلاء(١)، والضّلالة العَمْياء، والغىّ المُوفِد لأهله على النار، مافيه سفهاؤكم، ويَشتَمل عليه حُلَماؤكم؛ من الأمور العظام، ينبت فيها الصغير، ولا يتحاشَى منها الكبير، كأنّكم لم تقرءوا كتابَ الله، ولم تستمعوا ما أعَدّ من الثواب الكثير لأهل طاعته، والعذابِ الأليم لأهل معصيته، فى الزّمن السّرمد الّذى لا يزول.

أتكونون كمن طرفَتْ عينه(٢) الدنيا، وسدّت مسامعه الشهوات، واختار الفانية على الباقية! لا تذكرون(٣) أنّكم أحدثْتم فى الإسلام الحدَث الّذى لم تُسبَقوا به؛ من ترككم الضعيف يُقهر ويُؤخذ ماله(٤)، والضعيفة المسلوبة فى النهار المُبصر، هذا والعددُ غير قليل!

ألم يكن منكم نُهاةٌ تمنع الغواة عن دلَج الليل(٥) وغارة النهار! قرّبتم القرابة، وباعدتم الّذين يعتذرون بغير العُذْر، ويُعطون(٦) على المختلس، كلّ امرئ منكم يذبّ عن سيفه، صنيع(٧) من لا يخاف عاقبة، ولا يرجو معادا. ما ما أنتم بالحلماء، وقد أتّبعتم السفهاء، فلم يزل بهم ما ترَوْن من قيامكم دونهم حتّى انتهكوا حُرمة(٨) الإسلام، ثم أطرقوا وراءكم كُنوسا فى مَكانس الرِّيَب. حَرُم علىّ الطعامُ والشرابُ حتّى أسوّيها بالأرض هدما وإحراقا! إنّى رأيتُ آخر هذا الأمر لا يَصلُح إلّا بما صَلَح به أوّله! لينٌ فى غير ضعفٍ، وشِدّة فى غير عُنْف. وأنا أقسم بالله لآخُذَنّ الولىّ بالولىّ، والظاعن بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والصحيحَ منكم فى نفسه بالسّقيم، حتّى يَلقى الرجلُ أخاه

---

(١) الجاهلية الجهلاء؛ وصف على المبالغة، كما يقال: ليلة ليلاء، ويوم أيوم، وهمج هامج.

(٢) طرفت عينه الدنيا؛ أى صرفته عن الحق. (٣) ا: «أتذكرون».

(٤) بعدها فى البيان: «وهذه المواخير المنصوبة».

(٥) الدلج: السير من أول الليل؛ وقد أدلجوا، فإن ساروا من آخره فادّلجوا، بالتشديد.

(٦) ا والبيان: «ويغضون على المختلس».

(٧) ا والطبرى: «صنع».

(٨) البيان: «حرم الإسلام».

فيقول : انجُ سَعْد فقد هَلَك سُعَيْد[1] ، أو تستقيم لى قناتُكم .

إنّ كِذْبة المنبر تُلفى[2] مشهورة ، فإذا تعلقتم علىّ بكذبة فقد حلّت لكم معصيتى ! من نُقِب عليه منكم فأنا ضامن لما ذهب منه . فإيّاكم ودَلَج الليل ، فإنّى لا أُوتَى بمُدلِج إلّا سفكتُ دمه . وقد أجّلتكم بقدر ما يأتى الخبر الكوفة ، ويرجع إليكم .

إيّاكم ودعوى الجاهلية ، فإنّى لا أجد أحدا دعا بها إلّا قطعت لسانه ، وقد أحدثْتم أحداثا ، وقد أحدثنا لكلّ ذنب عقوبة ، فمن غرّق بيوتَ قوم غرّقناه ، ومن حرّق على قوم حرّقناه ، ومن نَقَب على أحدٍ بيتاً نَقَبْنا على قلبه ، ومن نَبشَ قبراً دفنّاه فيه حيّا .

كفّوا عنّى أيديَكم وألسنَتكم ، أكفّ عنكم يَدِى ولسانى . ولا يظهرنّ من أحدِكم خلافُ ما عليه عامّتكم فأضرب عنقه . وقد كانت بينى وبين أقوام إحَنٌ فقد جعلت ذلك وراء أذُنى ، وتحتَ قدَمى ، فمن كان منكم محسنا فليزدد إحسانا ، ومَن كان مسيئا فلينزع عن إساءته ؛ إنى لو علمت أنّ أحدكم قد قتله السُّلال[3] من بُغضى لم أكشفْ عنه قناعا ، ولم أهتك له سِترا حتّى يُبدىَ لى صَفحتَه ، فإذا فعل لم أناظره . فاستأنفوا أمورَكم ، وأعينوا على أنفسكم ، فربَّ مبتئس بقدومنا سيسرّ ، ومسرورٍ بقدومنا سيبأس .

أيّها الناس ، إنا أصبحنا لكم ساسةً ، وعنكم ذادة ، نسوسُكم بسلطان الله الّذى أعطاناه ، ونذودُ عنكم بفىء الله الّذى خوّلَناه ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل والإنصاف فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا ، واعلموا أنى مهما قصّرت عنه فلن أقصّر عن ثلاث : لست محتجبا عن طالبِ حاجةٍ منكم ،

---

(١) سعد وسعيد ، هما ابنا ضبة بن أد ، خرجا فى طلب إبل لأبيهما ، فوجدها سعد فردّها ، وقتل سعيد ، فكان ضبة إذا رأى سواداً تحت الليل قال : سعد أم سعيد !

(٢) ا : « تبقى » ، وفى البيان : « بلقاء مشهورة » .

(٣) البيان : « السل » .

ولا حابسا عطاء ، ولا مجمِّرا(١) بَعْثا، فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فإنّهم ساستُكم المؤدِّبون ، وكهفُكم الذي إليه تأوُون ؛ ومتى يصلحوا تَصلُحوا ، فلا تُشرِبوا قلوبَكم بغضهم، فيشتدّ لذلك غيظُكم ، ويطول لذلك حُزنكم ، ولا تدركوا حاجتكم ، مع أنّه لو استجيب لأحدٍ منكم لكان شرًّا لكم . أسأل الله أن يعين كُلّا على كُلٍّ . وإذا رأيتمونى أنفِذُ فيكم الأمر ، فأنفِذُوه على أذلاله(٢) . وايم الله إنَّ لى فيكم لصرعَى كثيرة، فليحذر كلّ امرئ منكم أن يكون من صرعاى .

فقام عبدُ الله بن الأهتم فقال: أشهد أيها الأمير ؛ لقد أوتيتَ الحكمة وفصل الخطاب. فقال : كذبت ، ذاك نبيّ الله داود .

فقام الأحنف فقال : إنما الثّناء بعد البلاء ، والحمدُ بعد العطاء ، وإنَّا لا نثنى حتى نُبتلَى ، ولا نَحمَد حتى نعطى .

فقال زياد : صدقت . فقام أبو بلال مرداس بن أديّة يهمس ويقول : أنبأنا اللهُ بغير ما قلت ، [فقال]: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (٤) ، فسمعها زياد فقال : يا أبا بلال ، إنَّا لا نبلغُ ما نريد بأصحابك حتّى نخوضَ إليهم الباطل خوضا (٥) .

* * *

وروى الشعبيّ ، قال : قدم زيادٌ الكوفة لمّا جمعتْ له مع البصرة ، فدنوتُ من المنبر لأسمع كلامَه ، فلم أرَ أحدا يتكلم فيُحسِن إلّا تمنّيت أن يَسكُت مخافة أن يسيء ، إلّا زيادا فإنه كان لا يزداد إكثارا إلا ازداد إحسانا ، فكنت أتمنّى إلّا يسكت .

---

(١) تجمير الجند : أن يحبسهم فى أرض العدو ويحبسهم عن العود إلى أهلهم .
(٢) على أذلاله ؛ على طرقه ووجوهه ؛ واحده ذلّ ؛ وهو ما ذلل ومهد من الطريق .
(٣) من البيان .
(٤) بعدها فى البيان : « وأنت تزعم أنك تأخذ البرىء بالسقيم، والمطيع بالعاصى والمقبل بالمدبر » .
(٥) الخطبة رواها الجاحظ فى البيان والتبيين ٢ : ٦١ ؛ وهى أيضاً فى عيون الأخبار ٢ : ٢٤١ ، ونوادر القالى ١ : ١٨٥ ، والطبرى (حوادث ٤٥)

وَرَوَى الشعبيّ أيضا ، قال : لمّا خطب زياد خطبته البتراء بالبصرة ونزل سمعَ تلك الليلة أصواتَ الناس يتحارَسون ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : إنّ البلد مفتونة ، وإن المرأة من أهل المصر لتأخذها الفِتْيان الفُسّاق فيقال لها : نادِي ثلاث أصوات ، فإنّ أجابكِ أحد وإلاّ فلا لومَ علينا فيما نصنع. فغضب فقال : ففيمَ أنا، وفيمَ قدمت ! فلمّا أصبح أمر فنودي في الناس، فاجتمعوا فقال : أيّها الناس، إني قد نبِّئت بما أنتم فيه وسمعتُ ذَرْوًا[1] منه ، وقد أنذرتكم وأجّلتكم شهراً مسير الرّجل إلى الشام ، ومسيره إلى خراسان ، ومسيره إلى الحجاز ، فمن وجدْناه بعد شهر خارجا من منزله بعد العشاء الآخرة فدمه هَدَر . فانصرف الناس يقولون : هذا القولُ كقول من تقدّمه من الأمراء ، فلما كمل الشهر دعا صاحبَ شرطته عبد الله ابن حُصَين اليربوعيّ — وكان رجال الشُّرطة معه أربعة آلاف — فقال له: هيّئ خيلك ورَجلك، فإذا صلّيت العشاء الآخرة ، وقرأ القارئ مقدار سُبْعٍ من القرآن ، ورفع الطُّنُّ القصب من القصر ، فسِرْ ولا تلقيَنّ أحدا ؛ عُبيد الله بن زياد فمن دونه، إلا جئتني برأسه ، وإن راجعتني في أحد ضربتُ عنقك .

قال : فصبّح على باب القصر تلك الليلة سبعمائة رأس ، ثمّ خرج الليلة الثانية فجاء بخمسين رأسا ، ثم خرج الليلة الثالثة فجاء برأس واحد ، ثمّ لم يجيء بعدها بشيء ، وكان الناس إذا صلّوا العشاء الآخرة أحضروا إلى منازلهم شدًّا حثيثا ، وقد يترك بعضهم نعاله .

كتبتْ عائشة إلى زياد كتابا ، فلم تدر ما تكتب عنوانه ! إن كتبتْ زياد بن عبيد أو ابن أبيه أغضبْته ، وإن كتبتْ زياد بن أبي سفيان أثمت ، فكتبتْ : من أمّ المؤمنين إلى ابنها زياد . فلما قرأه ضَحِك ، وقال : لقد لقيتْ أمُّ المؤمنين من هذا العنوانِ نصَبا !

---

(١) ذروا : أي طرفاً .

(٤٥)

الأصْـلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى عثمان بن حنيف الأنصاري — وكان عامله على البصرة ، وقد بلغه أنه دعِىَ إلى وليمة قوم من أهلها فمضى إليها — قوله :

أَمَّا بَعْدُ يَابْنَ حُنَيْفٍ ، فَقَدْ بَلَغَنِى أَنَّ رَجُلًا مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ دَعَاكَ إِلَى مَأْدُبَةٍ فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا ، تُسْتَطَابُ لَكَ الْأَلْوَانُ ، وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ الْجِفَانُ . وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلَى طَعَامِ قَوْمٍ عَائِلُهُمْ مَجْفُوٌّ ، وَغَنِيُّهُمْ مَدْعُوٌّ . فَانْظُرْ إِلَى مَا تَقْضَمُهُ مِنْ هَذَا الْمَقْضَمِ ، فَمَا اشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظْهُ ، وَمَا أَيْقَنْتَ بِطِيبِ وَجْهِهِ فَنَلْ مِنْهُ .

أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَاماً يَقْتَدِى بِهِ ، وَيَسْتَضِىءُ بِنُورِ عِلْمِهِ ؛ أَلَا وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ ، وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ . أَلَا وَإِنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ ؛ وَلَكِنْ أَعِينُونِى بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ ، وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ ، فَوَاللهِ[1] مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تِبْرًا ، وَلَا ادَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفْرًا ، وَلَا أَعْدَدْتُ لِبَالِى ثَوْبِى طِمْرًا ، وَلَا حُزْتُ مِنْ أَرْضِهَا شِبْرًا ، وَلَا أَخَذْتُ مِنْهُ إِلَّا كَقُوتِ أَتَانٍ دَبِرَةٍ ، وَلَهِىَ فِى عَيْنِى أَوْهَى مِنْ عَفْصَةٍ مَقِرَةٍ .

* * *

الشَّـرْحُ :

[عثمان بن حُنَيْف ونسبه]

هو عثمان بن حُنَيف — بضم الحاء — بن واهب بن العكم بن ثعلبة بن الحارث الأنصارىّ

---

(١) ب : « اللهم » .

ثم الأوسىّ أخو سهل بن حُنَيف ، يكنى أبا عمرو ــ وقيل : أبا عبد الله ــ عمل لعمرَ ثم لعلىّ عليه السلام ، وولّاه عمر مساحة الأرض وجبايتها بالعراق ، وضربَ الخراج والجزية على أهلها ، وولّاه علىّ عليه السلام على البصرة ، فأخرجه طلحة والزُّبير منها حين قدِماها ، وسكن عثمان الكوفة بعد وفاة علىّ عليه السلام ، ومات بها فى زمن معاوية .

***

قوله : « من فتية البَصرة » ، أى من فتيانها ، أى من شبابها أو من أسخيائها ؛ يقال للسخىّ : هذا فتى ، والجمع فِتْية وفتيان وفُتُوّ ؛ ويروَى : « أنّ رجلا من قُطَّان البصرة » ، أى سكانها .

والمأدُبة ، بضم الدال : الطعام يدعى إليه القوم ، وقد جاءت بفتح الدال أيضا ، ويقال : أَدَب فلانٌ القومَ يأدِبهم بالكسر ، أى دعاهم إلى طعامه ، والآدِب : الدّاعى إليه ، قال طَرَفة :

نحن فى المشتاة نَدْعُو الجَفَلَى لا ترى الآدِبَ فينا يَنتَقِر(١)

ويقال أيضا : آدبهم إلى طعامه يُؤْدبهم إيدابا ؛ ويروى : « وكثرت عليك الجفان فكَرَعْتَ وأكلت أكل ذئب نَهِم ، أو ضبُع قَرِم » .

وروى : « وما حَسِبتك تأكل طعامَ قوم » .

ثم ذمّ أهلَ البصرة فقال : « عائلهم مجفوّ ، وغنيّهم مدعوّ » ، والعائل : الفقير ، وهذا كقول الشاعر :

فإن تُملِقْ فأنت لنا عدوٌّ فإن تثرَ فأَنتَ لنا صديقُ

(١) ديوانه ٧٩ . المشتاة : زمن الشتاء . والجفلى : أن يعم المرء بدعوته إلى الطعام ولا يخص أحداً دون الآخر . والانتقار : أن يدعو النقرى ؛ وهى أن يخص بدعوته ولا يعمها .

ثم أمره بأن يترك ما فيه شبهة إلى ما لا شبهة فيه ، وسمّى ذلك قضما ومقصما وإن كان مما لا يقضم لاحتقاره له ، وازدرائه إياه ، وأنه عنده ليس مما يستحقّ أن يسمّى بأسماء المرغوب فيه ، المتنافس عليه ، وذلك لأن القَضْم يطلق على معنيين : أحدُهما على أكل الشيء اليابس ، والثانى على ما يؤكل ببعض الفم ؛ وكلاهما يدلّان على أن ذلك المقضم المرغوب عنه ، لا فيه .

ثم ذكر عليه السلام حالَ نفسه فقال : « إنّ إمامكم قد قنع من الدنيا بِطِمْرَيه » ، والطِّمْر : الثوب الخلَق البالى ، وإنما جعلهما اثنين لأنّهما إزارٌ ورداء لابدّ منهما ، أى للجسد والرأس .

قال : « ومن طُعْمه بقُرْصَيه » ، أى قرصان يفطر عليهما لا ثالث لهما . وروى : « قد اكتفى من الدنيا بطمرَيه ، وسدّ فورةَ جوعه بقُرْصيه ، لا يطعم الفلْذة فى حوليه إلّا فى يوم أضحية » .

ثم قال : إنكم لن تقدروا على ما أقدر عليه ، ولكنى أسألكم أن تعينونى بالوَرَع والاجتهاد .

ثم أقسم أنه ما كنز ذهبا ، ولا ادّخر مالا ، ولا أعدّ ثوبا باليا سملا لبالى ثوبيه ، فضلا عن أن يعدّ ثوبا قشيباً كما يفعله الناس فى إعداد ثوب جديد ليلبسوه عِوَض الأسمال التى ينزعونها ، ولا حاز من أرضها شبرا ، والضمير فى « أرضها » يرجع إلى « دنياكم » ، ولا أخذ منها إلا كقوت أتانٍ دبرة ، وهى التى عقر ظهرُها فقلّ أكلها .

ثم قال : « ولهى فى عينى أهوَن من عَفْصة مَقِرة » ، أى مُرّة ، مقِر الشئ بالكسر أى صار مرّا ، وأمقرَه بالهمز أيضا ، قال لبيد :

مُمقِرٌ مُرٌّ على أعدائه وعلى الأَدْنَيْنَ حُلْوٌ كالعسَل(١)

---

(١) ديوانه ١٩٧ .

الأصْـلُ :

بَلَى كَانَتْ فِي أَيْدِينَا فَدَكُ مِنْ كُلِّ مَا أَظَلَّتْهُ السَّمَاءُ ، فَشَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ ، وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ ، وَنِعْمَ الْحَكَمُ اللهُ . وَمَا أَصْنَعُ بِفَدَكَ وَغَيْرِ فَدَكَ ، وَالنَّفْسُ مَظَانُّهَا فِي غَدٍ جَدَثٌ تَنْقَطِعُ فِي ظُلْمَتِهِ آثَارُهَا وَتَغِيبُ أَخْبَارُهَا ، وَحُفْرَةٌ لَوْ زِيدَ فِي فُسْحَتِهَا ، وَأَوْسَعَتْ يَدَا حَافِرِهَا ، لَأَضْغَطَهَا الْحَجَرُ وَالْمَدَرُ ، وَسَدَّ فُرَجَهَا التُّرَابُ الْمُتَرَاكِمُ ، وَإِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرُوضُهَا بِالتَّقْوَى لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ الْخَوْفِ الْأَكْبَرِ ، وَتَثْبُتَ عَلَى جَوَانِبِ الْمَزْلَقِ .

***

الشَّـرْحُ :

الجدَث : القبر ، وأضغطها الحجر : جعلها ضاغطة ، والهمزة للتّعدية ، ويروى : « وضَغَطها » .

وقوله : « مظانّها فى غد جَدَث » ، المظانّ : جمع مَظِنّة ، وهو موضع الشيء ومَألفه الّذى يكون فيه ، قال :

فإن يَكُ عامرٌ قد قال جهلًا فإن مَظِنّة الجهلِ الشبابُ[(١)]

يقول : لا مال لى ، ولا اقتنيتُ فيما مضى مالًا ، وإنما كانت فى أيدينا فدَك فشحّت عليها نفوسُ قوم ، أى بخلتْ وسختْ عنها نفوسُ آخرين ، أى سامحت وأغْضَتْ . وليس يعنى ها هنا بالسخاء إلّا هـذا ، لا السخاء الحقيقىّ ، لأنّه عليه السلام وأهله لم يسمحوا بفدَك إلا غصبا وقَسْرا ؛ وقد قال هذه الألفاظ فى موضع آخر فيما تقدّم ، وهو يعنى الخلافة بعد وفاةِ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله .

---

(١) للنابغة الذبيانى ، ديوانه ١٤ .

ثم قال : « ونعم الحَكَم الله » ، الحَكَم : الحاكم ، وهذا الكلام كلامُ شاكٍ متظلّم ، ثم ذكر مآلَ الإنسان وأنّه لا ينبغى أن يكترث بالقَيْنات والأموال ، فإنّه يصير عن قريب إلى دار البِلَى ومنازل الموتى .

ثمّ ذكر أنّ الحفرة ضيّقة ، وأنه لو وسّعها الحافر لألجأها الحجر المتداعى والمدَر المتهافت ، إلى أن تضغط الميّت وتزحمه . وهذا كلام محمول على ظاهره ، لأنّه خطاب للعامّة ، وإلّا فأىّ فَرْق بين سعة الحُفْرة وضِيقها على الميّت ! اللهمّ إلّا أن يقول قائل : إنّ الميّت يحسّ فى قبره ، فإذا قيل ذلك فالجاعل له حِساساً بعد عدم الحسّ هو الّذى يوسّع الحفرة ، وإن كان الحافر قد جعلها ضيّقة ؛ فإذن هذا الكلام جيّد لخطاب العرَب خاصّة ، ومن يَحمل الأمورَ على ظواهرها .

ثم قال : « وإنّما هى نفسى أروضُها بالتقوى » ، يقول : تَقلُّلى واقتصارى من المطعم والمَلْبَس على الجَشِب والخَشِن رياضةٌ لنفسى ، لأنّ ذلك إنّما أعمله خوفاً من الله أن أنغمس فى الدنيا ، فالرياضة بذلك هى رياضةٌ فى الحقيقة بالتقوى ، لا بنفس التقلّل والتقشُّف ، لتأتى نفسى آمنةً يومَ الفزَع الأكبر ، وتثبت فى مداحض الزَّلَق .

* * *

[ذكر ما ورد من السِّيَر والأخبار فى أمر فَدَك]

واعلم أنّا نتكلّم فى شرح هذه الكلمات بثلاثة فصول :

الفصل الأوّل فيما ورد فى الحديث والسِّيَر من أمر فَدَك ، والفصل الثانى فى هل النبىّ صلّى الله عليه وآله يورَث أم لا ؟ ، والفصل الثالث فى أنّ فَدَك ؛ هل صحّ كونها نِحْلة من رسول الله صلّى الله عليه وآله لفاطمة أم لا ؟

الفصل الأول : فيما ورد من الأخبار والسير المنقولة من أفواه أهل الحديث وكتبهم ، لا من كُتب الشيعة ورجالهم ، لأنّا مشترطون على أنفسنا ألّا نحفل بذلك ، وجميع ما نورده فى هذا الفصل من كتاب أبى بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهرىّ فى السقيفة وفَدَك وما وقع من الاختلاف والاضطراب عَقِب وفاةِ النبىّ صلّى الله عليه وآله ؛ وأبو بكر الجوهرىّ هذا عالم مُحدِّث كثيرُ الأدب ، ثقة وَرِع ، أثنَى عليه المحدّثون وروَوْا عنه مصنّفاته .

قال أبو بكر : حدّثنى أبو زيد عمر بن شبّة قال : حدّثنا حيّان بن بشر ، قال : حدّثنا يحيى بن آدم ، قال : أخبرَنا ابن أبى زائدة ، عن محمّد بن إسحاق ، عن الزّهرىّ قال : بقيتْ بقيّةٌ من أهل خيبر تحصّنوا ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وآله أن يَحقِن دماءهم ويُسيِّرهم ، ففعل ، فسمع ذلك أهلُ فَدَك(١) فنزلوا(٢) على مثل ذلك ، وكانت للنبىّ صلّى الله عليه وآله خاصّة ، لأنّه لم يُوجِف عليها بخيلٍ ولا رِكاب .

قال أبو بكر : وَرَوَى محمّد بن إسحاق أيضا؛ أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله لمّا فرغ من خيبرَ قذف الله الرعبَ فى قلوب أهلِ فَدَك ، فبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فصالحوه على النِّصف من فَدَك ، فقَدِمَتْ عليه رسلُهم بخيبر أو بالطريق ، أو بعد ما أقام بالمدينة ، فقبل ذلك منهم ، وكانت فَدَكُ لرسول الله صلّى الله عليه وآله خالصةً له ، لأنّه لم يوجِف عليها بخيلٍ ولا رِكاب .

قال : وقد روى أنّه صالَحهم عليها كلِّها ، الله أعلم أىُّ الأمرين كان .

قال : وكان مالك بن أنَس يحدّث عن عبد الله بن أبى بكر بن عمرو بن حَزْم أنّه صالحهم على النِّصف فلم يزل الأمر كذلك حتّى أخرجهم عمرُ بنُ الخطّاب وأجلاهم بعد أن عوّضهم عن النِّصف الّذى كان لهم عوضا من إبل وغيرها .

(١) فدك : قرية بالحجاز ، بينها وبين المدينة يومان .

(٢) ا « وكانوا » .

وقال غير مالك بن أنس : لمّا أجلاهم عمرُ بعث إليهم من يقوّم الأموال ، بعث أبا الهيثم بن التّيهان ، وفَرْوة بن عمرو ، وحُباب بن صَخْر ، وزيد بن ثابت ، فقوّموا أرضَ فَدَك ونخلَها ، فأخذها عمر ، ودفع إليهم قيمةَ النصف الّذى لهم ، وكان مبلغ ذلك خمسين ألفَ درهم ، أعطاهم إيّاها من مالٍ أتاه من العراق ، وأجلاهم إلى الشام .

قال أبو بكر : فحدّثنى محمّد بن زكريا قال : حدّثنى جعفر بن محمد بن عُمارة الكندىّ قال : حدثنى أبى ، عن الحسين بن صالح بن حىّ ، قال : حدثنى رجلان من بنى هاشم ، عن زينبَ بنت علىّ بن أبى طالب عليه السلام . قال : وقال جعفر بن محمّد بن علىّ بن الحسين عن أبيه . قال أبو بكر : وحدّثنى عثمان بن عمران العجيفىّ ، عن نائل بن نَجيح بن عمير بن شَمِر ، عن جابر الُجعفىّ ، عن أبى جعفر محمّد بن علىّ عليه السلام . قال أبو بكر : وحدثنى أحمد بن محمد بن يزيد ، عن عبد الله بن محمد بن سليمان ، عن أبيه ، عن عبد الله ابن حسن بن الحسن . قالوا جميعا : لمّا بلغ فاطمةَ عليها السلام إجماعُ أبى بكر على منعها فَدَك ، لاثتْ خِمارَها ، وأقبلت فى لُمّةٍ من حَفَدَتِها ونساء قومها ، تطأ فى ذيولها ، ما تخرم مِشْيتها مِشْية رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، حتّى دخلتْ على أبى بكر وقدحشَد الناس من المهاجرين والأنصار ، فضرب بينها وبينهم رَيْطةٌ بيضاء ــ وقال بعضهم : قِبْطيّة ، وقالوا : قُبْطية بالكسر والضمّ ــ ثم أنّت أنّةً أجْهَش لها القوم بالبكاء ، ثمّ أمهلتْ طويلا حتى سكنوا من فَوْرتهم ، ثمّ قالت : أبتدئُ بحَمْد مَن هو أولى بالحمد والطَّوْل والمجد ، الحمد لله على ما أنعم وله الشكر بما ألهمَ . وذكر خطبةً طويلةً جيّدة قالت فى آخرها : « فاتّقوا الله حقّ تُقاته ، وأطيعوه فيما أمرَكم به ، فإنّما يَخشَى اللهَ من عباده العلماء ، واحمَدوا اللهَ الّذى لعظمته ونوره يَبتغِى مَن فى السموات والأرض إليه الوسيلة ، ونحن وسيلتُه فى خلقه ، ونحن خاصّته ، ومحلّ قدسه ، ونحن حجّته فى غيبه ، ونحن ورثة

أنبيائه ، ثم قالت : أنا فاطمة ابنة محمد ، أقول عَوْدا على بدء ، وما أقول ذلك سَرَفا ولا شَطَطا ، فاسمعوا بأسماع واعية ، وقلوب راعية ، ثم قالت : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾(١) فإن تعزُوه تجدوه أبى دون آبائكم ، وأخا ابن عمّى دون رجالكم ، ثم ذكرتْ كلاما طويلا سنذكره فيما بعد فى الفصل الثانى ، تقول فى آخره : ثم أنتم الآن تزعمون أن لا إرْثَ لى؛ ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾(٢) إيهاً معاشرَ المسلمين ، ابتَزُّ إرث أبى ! أبَى اللهُ أن تَرِث يابن أبى قحافة أباك ولا أرِث أبى ، لقد جئتَ شيئاً فَرِيّا ! فدونَكَها مخطومةً مَرْحولةً تلقاك يومَ حشرِك ، فنعم الحَكَم الله ، والزعيم محمّد ، والموعد القيامة ، وعند الساعة يَخسَر المُبطِلون ، ولكلّ نبإ مستقرٌّ وسوف تعلمون من يأتيه عذابٌ يخزيه ويحلّ عليه عذاب مقيم ! ثم التفتتْ إلى قبرِ أبيها فتمثّلت بقول هندٍ بنت أثاثة :

قد كان بعدَك أنباء وهَيْنمةٌ   لو كنتَ شاهدَها لم تكثُرِ الخطبُ(٣)
أبدتْ رجالٌ لنا نجوى صدورِهمُ   لمّا قضيتَ وحالت دونَكَ الكُتُبُ
تجهمّتْنا رجالٌ واُستُخِفّ بنا   إذا غبتَ عنّا فنحن اليومَ نُغتصَبُ

قال : ولم يرَ الناسُ أكثر باكٍ ولا باكيةً منهم يومئذ . ثم عدلت إلى مسجد الأنصار فقالت : يامعشر البقيّة ، وأعضاد الملّة ، وحضنة الإسلام ، ما هذه الفَتْرة عن نُصْرتى ، والوَنْيةُ عن معونتى ، والغمزة فى حقّى ، والسِّنة عن ظُلامتى ! أما كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « المرء يُحفظ فى ولده » ! سرْعانَ ما أحدثتم ، وعجلان ما أتيتم . ألآنْ مات رسولُ الله صلى الله عليه وآله أمَتُّمْ دينه ! ها إنّ موته لَعمرى خطبٌ جليل استوسعَ وَهْنُه،

(١) سورة التوبة ١٢٨ ، ١٢٩ .   (٢) سورة المائدة ٥٠ .
(٣) الهينمة : الصوت الخفى ، وانظر اللسان .

واستبهم فتقُه ، وفُقِد راتقه ، وأظلمتْ الأرض له ، وخَشَعت الجبال ، وأ كْدَت الآمال . أُضيع بعدَه الحريم ، وهُتِكت الحرمة ، وأُذيلت المصونة ، وتلك نازلة أعلن بها كتاب الله قبل موته ، وأنبأ كم بها قبل وفاته ، فقال : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾[1] إيها بنى قَيْلة ! اهتُضم تُراث أبى ، وأنتم بمرأى ومَسمَع ، تبلغكم الدعوة ، ويشملكم الصوت ، وفيكم العُدَّة والعدد ، ولكم الدار والجُنَن وأنتم نُخبة الله التى انتَخب ، وخِيرته التى اختار ! باديتم العرَب ، وبادهتم الأمور ، وكافحتم البهم حتى دارت بكم رَحَى الإسلام ، ودرّ حلبه ، وخبَتْ نيران الحرب ، وسكنتْ فَوْرة الشِّرك ، وهدأتْ دعوة الهرَج ، واستوثق نظام الدّين ، أفتأخّرتم بعد الإقدام ، ونكَصْتم بعد الشّدة ، وجَبُنتم بعد الشجاعة ، عن قوم نَكَثُوا أيمانَهم من بعدِ عهدِهم وطَعنوا فى دِينِكم ! فقاتلوا أئمّة الكُفْر إنّهم لا أيْمانَ لهم لعلّهم ينتهون . ألَا وقد أرى أن قد أخلدتم إلى الخفض ، ورَكَنتم إلى الدّعة ، فجحدتم الّذى وعيتم ، وسُغتم الذى سوّغتم ، وإن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا فإن الله لغنى حميد ، ألَا وقد قلتُ لكم ما قلت على معرفة منّى بالخذْلة التى خامرتكم ، وخَوَر القناة ، وضعف اليقين ، فدونكموها فاحتووها مدبِرة الظهر ، ناقبة الخفّ ، باقية العار ، موسومة الشعار ، موصولة بنار الله الموقدة ، الّتى تطّلع على الأفئدة ، فبعين الله ما تعمَلون ﴿ وسيعلم الّذى ظَلَموا أىَّ منقلَب ينقلبون ﴾ .

قال : وحدّثنى محمد بن زكريا قال : حدّثنا محمد بن الضحّاك قال : حدّثنا هشام بن محمد ، عن عوانة بن الحَكَم قال : لمّا كلّمت فاطمة عليها السلام أبا بكر بما كلّمته به حَمِد أبو بكرٍ اللهَ وأثنَى عليه وصلّى على رسوله ثم قال : يا خَيْرَة النساء ، وابنة خير الآباء ، والله ما عدوتُ رأىَ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، وما عملتُ إلّا بأمره ، وإنّ الرائد

(١) سورة آل عمران ١٤٤ .

لا يَكذب أهلَه ، وقد قلتِ فأبلغتِ ، وأغلظتِ فأهجرتِ ، فغفَرَ الله لنا ولك . أمّا بعد ، فقد دفعت آلةَ رسول الله ودابّته وحذاءه إلى عليّ عليه السلام ، وأمّا ما سوى ذلك فإنّى سمعتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله يقول : « إنّا معاشرَ الأنبياء لا نُورِث ذهبا ولا فضّة ولاأرضا ولا عَقارا ولا دارا ، ولكنّا نورث الإيمانَ والحكمةَ والعِلم والسّنة »، فقد عملت بما أمرنى ، ونصحت له ، وما توفيقى إلّا بالله عليه توكّلت وإليه أنيب .

قال أبو بكر : وروى هشام بن محمد ، عن أبيه قال : قالت فاطمة لأبى بكر : إنّ أمّ أيمن تشهد لى أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله أعطانى فدَك ، فقال لها : يا ابنة رسول الله ، والله ما خلق الله خلْقاً أحبّ إلىّ من رسول الله صلى الله عليه وآله أبيك ، ولودِدْتُ أنّ السماء وقعت على الأرض يومَ مات أبوك ، والله لأن تفتقر عائشة أحبّ إلىّ من أن تفتقرى ، أترانى أعطى الأحمر والأبيض حقّه وأظلمك حقّك ، وأنت بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ! إن هذا المال لم يكن للنبىّ صلى الله عليه وسلم ، وإنما كان مالاً من أموال المسلمين يحمل النبىّ به الرجال ، وينفقه فى سبيل الله ، فلما توفِّىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وليته كما كان يليه . قالت : والله لا كلّمتك أبدا ! قال : والله لا هجرتك أبدا ؛ قالت : والله لأدعونّ الله عليك ؛ قال : والله لأدعونّ الله لك ، فلما حضرتْها الوفاةُ أوصتْ ألّا يصلِّىَ عليها ، فدفنتْ ليلاً ، وصلى عليها عباس بنُ عبد المطلب ، وكان بين وفاتها ووفاة أبيها اثنتان وسبعون ليلة .

قال أبو بكر : وحدّثنى محمد بن زكريا، قال : حدثنا جعفر بن محمد بن عمارة بالإسناد الأول قال : فلما سمع أبو بكر خطبتها شقّ عليه مقالتها فصعد المنبر وقال : أيّها الناس ، ما هذه الرِّعة إلى كلّ قالة ! أين كانت هذه الأمانىّ فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم

ألا مَن سمع فليقل ، ومن شهد فليتكلّم ، إنّما هو ثعالة شهيده ذنبه ، مُرِبٌّ لكلّ فتنة، هو الذى يقول : كرّوها جذعة بعدما هرمت ، يستعينون بالضعفة ، ويستنصرون بالنساء ، كأمّ طِحال أحبّ أهلها إليها البغىّ . ألا إنى لو أشاء أن أقول لقُلتُ ولوقلتُ لبحتُ ، إنى ساكت ماتركت . ثم التفت إلى الأنصار فقال: قد بلغنى يامعشر الأنصار مقالة سفهائكم ، وأحق من لزم عهد رسول الله صلى الله عليه وسلّم أنتم . فقد جاءكم فآوَيتم ونَصرتم ، ألا إنّى لستُ باسطاً يداً ولا لساناً على مَنْ لم يستحقّ ذلك منّا .

ثم نزل ؛ فانصرفتْ فاطمة عليها السلام إلى منزلها .

* * *

قلت : قرأتُ هذا الكلام على النقيب أبى يحيى جعفر بن يحيى بن أبى زيد البصرىّ وقلت له : بمن يعرّض؟ فقال : بل يصرّح . قلتُ : لو صرّح لم أسألك . فضحك وقال : بعلىّ بن أبى طالب عليه السلام ، قلت : هذا الكلام كله لعلىّ يقوله ! قال : نعم ، إنه المُلْك يا بنىّ ، قلت : فما مقالة الأنصار ؟ قال : هتفوا بذكر علىٍّ فخاف من اضطراب الأمر عليهم ، فنهاهم. فسألته عن غريبه ، فقال : أما الرِّعة بالتخفيف ، أى الاستماع والإصغاء ؛ والقالة : القول ، وثُعالة : اسم الثعلب علم غيرُ مصروف ، ومِثل ذُؤالة للذئب ، وشهيده ذنبه ، أى لا شاهد له على ما يدّعى إلا بعضه وجزء منه، وأصله مثل، قالوا : إن الثعلب أراد أن يُغرىَ الأسد بالذئب ، فقال : إنه قد أكل الشاة التى كنت قد أعددتها لنفسك ، وكنت حاضرا، قال : فمن يشهد لك بذلك ؟ فرفع ذنبه وعليه دم، وكان الأسد قد افتقد الشاة . فقبل شهادته ، وقتل الذئب ، ومُرِبّ : ملازم ، أرِبَّ بالمكان . وكرّوها جَذَعة : أعيدوها إلى الحال الأولى ، يعنى الفتنة والهرْج . وأمّ طِحال : امرأةٌ بغىٌّ فى الجاهلية ، ويضرب بها المثل فيقال : أزنى من أمّ طِحال .

قال أبو بكر : وحدّثنى محمد بن زكريّا قال : حدّثنى ابن عائشة ، قال : حدّثنى أبى ، عن عمّه قال : لمّا كلمت فاطمة أبا بكر بكى ، ثم قال : يا بنةَ رسول الله ، والله ما ورّث أبوك ديناراً ولا درهما ، وإنّه قال : إن الأنبياء لا يورثون ، فقالت : إنّ فَدَكَ وَهَبها لى رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ، قال : فمن يشهد بذلك ؟ فجاء علىّ بن أبى طالب عليه السلام فشهد ، وجاءت أمّ أيمنَ فشهدتْ أيضا ، فجاء عمر بنُ الخطّاب وعبدُ الرحمن بن عوف فشهد أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم كان يقسمها ، قال أبو بكر : صدقت يا ابنةَ رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، وصدق علىّ ، وصدقتْ أمّ أيمنَ ، وصدق عمر ، وصَدَق عبد الرحمن بن عوف ، وذلك أنْ مالك لأبيك ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلّم يأخذ من فَدَكَ قوتكم ، ويقسم الباقى ، ويحمل منه فى سبيل الله ، فما تصنعين بها ؟ قالت : أصنع بها كما يصنع بها أبى ؛ قال : فلك علىّ الله أن أصنع فيها كما يصنع فيها أبوك ، قالت : اللهَ لتفعلنّ ! قال : الله لأفعلنّ ، قالت : اللهمّ اشهد ؛ وكان أبو بكر يأخذ غلّتها فيدفع إليهم منها ما يكفيهم ، ويقسم الباقى ، وكان عمر كذلك ، ثم كان عثمان كذلك، ثم كان علىّ كذلك ؛ فلمّا ولى الأمرَ معاوية بن أبى سُفْيان أقطع مروان بن الحكم ثلثها ، وأقطع عَمرو بنَ عثمان بن عفّان ثلثها ، وأقطع يزيد بن معاوية ثلثها ، وذلك بعد موت الحسن بن علىّ عليه السلام ؛ فلم يزالوا يتداوَلُونها حتّى خَلَصتْ كلّها لمروان بن الحكم أيّام خلافته ، فوهبها لعبد العزيز ابنِه ، فوهَبَها عبدُ العزيز لابنه عمرَ بن عبد العزيز ، فلمّا ولِىَ عمر بن العزيز الخلافة ، كانت أوّل ظُلامة ردّها، دعا حسنَ بنَ الحسن ابن علىّ بن أبى طالب عليه السلام — وقيل : بل دعا علىّ بن الحسين عليه السلام — فردّها عليه ، وكانت بيَدِ أولاد فاطمة عليها السلام مدّة ولاية عمر بن عبد العزيز، فلمّا ولى يزيد بن عاتكة قبضها منهم ، فصارت فى أيدى بنى مَرْوان كما كانت يتداولونها ، حتّى انتقلت الخلافة عنهم ، فلمّا ولى أبو العبّاس السفّاح ردّها على عبد الله

ابن الحسن بن الحسن ، ثم قبضها أبو جعفر لمّا حدث من بنى حسن ما حدث ، ثم ردّها المهدىّ ابنهُ على ولد فاطمةَ عليها السـلام ؛ ثمّ قبضها موسى بن المهدىّ وهارون أخوه ، فلم تزل فى أيديهم حتّى ولى المأمون ، فردّها على الفاطميّين .

قال أبو بكر : حدّثنى محمّد بن زكريا قال : حدثنى مهدىّ بن سابق، قال : جلس المأمون للمظالم ، فأوّل رُقْعة وقعتْ فى يده نظر فيها وبكى ، وقال للّذى على رأسه : نادِ أين وكيلُ فاطمة ؟ فقام شيخ عليه دُرّاعة وعمامة وخُفّ تَعِزّىّ ، فتقـدّم فجعل يناظره فى فَدَك والمأمون يحتجّ عليه وهو يحتجّ على المأمون ، ثم أمر أن يسجّل لهم بها ، فكتب السجلّ وقرئ عليه ، فأنفذه ، فقام دِعْبل إلى المأمون فأنشده الأبيات الّتى أوّلها :

أصبحَ وجهُ الزّمان قد ضَحِكا بردّ مأمونِ هاشمٍ فَدَكا[1]

فلم تزل فى أيديهم حتّى كان فى أيّام المتوكّل ، فأقطعها عبدَ الله بن عمر البازيار ، وكان فيها إحدى عشرة نخلةً غرَسها رسولُ الله صلى الله عليه وآله بيَده ، فكان بنو فاطمة يأخذون ثمرها ، فإذا قدم الُحجّاج أهدوْا لهم من ذلك التمر فيَصِلونهم ، فيصير إليهم من ذلك مال جزيل جليل ، فصرم[2] عبد الله بن عمر البازيار ذلك التمر ، ووجّه رجلا يقال له بشران بن أبى أميّة الثقفى إلى المدينة فصرَمه ، ثم عاد إلى البَصرة ففُلِج .

قال أبوبكر : أخبرَنا أبو زيد عمر بن شبّة، قال: حدّثنا سويد بن سعيد والحسن بن عثمان قالا : حدّثنا الوليد بن محمّد ، عن الزّهرىّ ، عن عروة ، عن عائشة أنّ فاطمة عليها السلام أرسلت إلى أبى بكر تسأله ميراثها مِنْ رسول الله صلّى الله عليـه وآله ، وهى حينئذ تطلب ما كان لرسول الله صلّى الله عليه وآله بالمدينة وفَدَك ، وما بقى من خُمُس خيبر ، فقال أبوبكر :

---

(١) ديوانه ١١٩ ، معجم البلدان (فدك) . (٢) صرم النخل : جذه وقطعه .

إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال : « لا نُورَث ، ما تركْناه صَدَقة » ، إنّما يأكل آلُ محمّد من هذا المال ، وإنّى والله لا أغيّر شيئاً من صَدَقات رسول الله صلّى الله عليه وسلم عن حالها الّتى كانت عليها فى عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، ولأعملنّ فيها بما عمل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة منْها شيئاً ، فوجدَتْ من ذلك على أبى بكر وهجرته فلم تكلّمه حتى توفّيت ، وعاشتْ بعد أبيها ستّة أشهر ، فلمّا توفّيت دفَنها علىّ عليه السلام ليلا ، ولم يُؤْذِن بها أبا بكر .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد قال : حدّثنا إسحاق بن إدريس ، قال : حدّثنا محمد ابن أحمد ، عن مَعمر ، عن الزّهرىّ ، عن عروة ، عن عائشة ، أنّ فاطمة والعبّاس أتيا أبا بكر يلتمسان ميراثهما من رسول الله صلّى الله عليه وآله وهما حينئذ يطلبان أرضَه بفَدَك وسهمه بخيبر ، فقال لهما أبو بكر : إنّى سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلم يقول : « لا نُورَث ، ما تركنا صدقة » ، إنما يأكل آل محمّد صلى الله عليه وسلم من هذا المال ، وإنى والله لا أغيّر أمرا رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يَصنعه إلّا صنعتُه . قال : فهجرتْه فاطمةُ فلم تكلّمه حتى ماتت .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد قال : حدّثنا عمر بن عاصم . وموسى بن إسماعيل قال : حدّثنا حماد بن سلمة ، عن الكلبىّ ، عن أبى صالح ، عن أمّ هانئ ، أن فاطمة قالت لأبى بكر : من يرثك إذا متّ ؟ قال : وَلدى وأهلى ؛ قالت : فما لَكَ ترث رسولَ الله صلى الله عليه وآله دوننا ؟ قال : يا ابنة رسول الله ، ما وَرّث أبوك دارا ولا مالا ولا ذهبا ولا فضّة ، قالت : بلى سهم الله الذى جعله لنا ، وصار فيئنا الذى بيدك ، فقال لها : سمعتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله يقول : « إنّما هى طُعْمة أطعَمَناها الله ، فإذا متّ كانت بين المسلمين » .

قال أبو بكر : وأخبرَنا أبو زيد قال : حدّثنا أبو بكر بن أبى شَيْبة قال : حدّثنا محمّد بن الفضل ، عن الوليد بن جميع ، عن أبى الطفيل قال : أرسلتْ فاطمة إلى أبى بكر :

أنت ورثتَ رسول الله صلى الله عليه وآله أم أهله ؟ قال : بل أهلُه ؛ قالت : فما بالُ سهم رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ قال : إنى سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلم يقول : «إنّ الله أطعم نبيّه طعمة»، ثم قبضه ، وجعله للذى يقوم بعده، فوليت أنا بعده ، على أن أرده على المسلمين، قالت: أنتَ وما سمعتَ من رسول الله صلى الله عليه وآله أعلم.

قلت: فى هذا الحديث عجب، لأنها قالت له: أنت ورثتَ رسول الله صلى الله عليه وآله أم أهله؟ قال : بل أهلُه ؛ وهذا تصريح بأنه صلّى الله عليه وآله مَورُوث يرثه أهله، وهو خلاف قوله : « لا نورَث» . وأيضا فإنّه يدلّ على أنّ أبا بكر استَنبط من قول رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّ الله أطعم نبيّا طعمة أن يُجرىَ رسول الله صلى الله عليه وآله عند وفاته مجرى ذلك النّبي صلّى الله عليه وآله ، أو يكون قد فهم أنّه عنى بذلك النّبى المنكر لفظا نفسه ، كما فهم من قوله فى خطبته ، إن عبدا خيّره الله بين الدنيا وما عند ربّه ، فاختار ما عند ربه، فقال أبو بكر: بل نفديك بأنفسنا .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد قال : أخبرنا القعنبيّ قال : حدّثنا عبد العزيز بن محمّد ، عن محمّد بن عمر ، عن أبى سلمة ، أنّ فاطمة طلبتْ فَدَكَ من أبى بكر ، فقال : إنّى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنَّ النبىّ لا يُورَث » ، من كان النبى يعولُه فأنا أعولُه، ومن كان النبىّ صلى الله عليه وسلم يُنفق عليه فأنا أنفق عليه . فقالت : يا أبا بكر ؛ أيرثك بناتُك ولا يرثُ رسول الله صلى الله عليه وآله بناته ؟ فقال: هو ذاك. قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد قال : حدّثنا محمد بن عبد الله بن الزبير قال : حدثنا فضيل بن مرزوق قال : حدثنا البحترىّ بن حسّان قال : قلت لزيد بن علىّ عليه السلام وأنا أريد أن أهجّن أمرَ أبى بكر ، إنّ أبا بكر انتزع فَدَكَ من فاطمة عليها السلام ، فقال ، إنّ أبا بكر كان رجلا

رحيا ، وكان يكره أن يغيّر شيئاً فمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأتته فاطمة فقالت : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أعطانى فَدَكَ ، فقال لها : هل لك على هذا بيّنة ؟ فجاءت بعليّ عليه السلام ، فشهد لها ، ثم جاءت أمّ أيمنَ فقالت : ألستما تشهدان أنّى من أهل الجنّة! قالا : بلى ـ قال أبو زيد يعنى أنّها قالت لأبى بكر وعمر ـ قالت : فأنا أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وآله أعطاها فَدَكَ ، فقال أبو بكر : فرجل آخر أو امرأة أخرى لتستحق بها القضيّة . ثم قال أبو زيد : وايم الله لو رجع الأمر إلىّ لقضيتُ فيها بقضاء أبى بكر .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد قال : حدّثنا محمّد بن الصبّاح قال : حدّثنا يحيى بن المتوكل أبو عقيل ، عن كثير النوال قال : قلت لأبى جعفر محمّد بن على عليه السلام : جعلنى الله فداك ! أرأيت أبا بكر وعمر ، هل ظلما كم من حقّكم شيئاً ـ أو قال : ذهبا من حقّكم بشىء ؟ فقال : لا ، والذى أنزل القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيرا ، ما ظلمنا من حقّنا مثقال حبّة من خردل ؛ قلت : جعلت فداك أفأتولاهما ؟ قال : نعم ويحك ! تولّهما فى الدنيا والآخرة ، وما أصابك ففى عنقى ، ثم قال : فعل الله بالمغيرة وبُنان ، فإنهما كذبا علينا أهل البيت .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبوزيد، قال : حدّثنا عبد الله بن نافع والقعنبىّ ، عن مالك عن الزهرىّ ، عن عروة ، عن عائشة أنّ أزواج النبى صلى الله عليه وآله أردْن لما توفّىَ أن يبعثن عثمان بن عفان إلى أبى بكر يسأله ميراثهنّ ـ أو قال ثُمُنَهنّ ـ قالت : فقلت لهنّ : أليس قد قال النبىّ صلى الله عليه وآله « لا نُورث ، ما تركنا صدقة » .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد ، قال : حدّثنا عبد الله بن نافع والقعنبىّ وبشر بن عمر ، عن مالك ، عن أبى الزّناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وآله . قال : « لا يقسم ورثتى دينارا ولا درهما ، ما تركتُ بعدَ نفقة نسائى ومئونة عيالى فهو صدقة » .

قلت : هــذا حديث غريب ، لأن المشهور أنه لم يرو حديث انتفاء الإرث إلّا أبو بكر وحده .

وقال أبو بكر : وحدّثنا أبو زيد ، عن الحزامى ، عن ابن وهب ، عن يونس عن ابن شهاب ، عن عبد الرحمن الأعرج أنه سمع أبا هريرة يقول : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « والذى نفسى بيده لا يقسم ورثتى شيئاً ، ما تركت صدقة »، قال : وكانت هذه الصّدقة بيَدِ علىٍّ عليه السلام ، غلب عليها العبّاس ، وكانت فيها خصومتهما ، فأبى عمرُ أن يقسمها بينهما حتّى أعرض عنها العبّاس وغلب عليها عليــه السلام ، ثم كانت بيدِ حسن وحسين ابنى علىٍّ عليه السلام، ثم كانت بيَدِ علىّ بن الحسين عليه السلام والحسن بن الحسن، كلاهما يتداولانها[1] ، ثم بيد زيد بن علىّ عليه السلام .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد قال : حدثنا عثمان بن عمر بن فارس ، قال : حدثنا يونس ، عن الزهرىّ ، عن مالك بن أوس بن الحدثان ، أنّ عمر بن الخطّاب دعاه يوما بعد ما ارتفع النهار ، قال : فدخلتُ عليه وهو جالس على سرير رمال ليس بينه وبين الرمال فراش ، على وسادة أَدَم ، فقال : يا مالك ، إنه قد قدم من قومك أهلُ أبيات حضروا المدينة ، وقد أمرت لهم برضْخ[2] فاقسمه بينهم ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، مُرْ بذلك غيرى ، قال : اقسم أيها المرء .

قال : فبينا نحن على ذلك إذ دخل يرفأ ، فقال : هل لك فى عثمان وسعد وعبد الرحمن والزبير يستأذنون عليك ؟ قال : نعم ، فأذن لهم ، قال : ثم لبث قليلا ، ثم جاء فقال : هل لك فى علىٍّ والعباس يستأذنان عليك ؟ قال : ائذن لهما ، فلما دخلا، قال عباس : ياأمير المؤمنين ، اقض بينى وبين هذا — يعنى عليًّا — وهما يختصمان فى الصوافى[3] التى أفاء الله على رسوله

(١) ب : « يتولانها » تصحيف ، صوابه من ا (٢) الرضخ هنا : المال .
(٣) الصوافى : الأملاك الواسعة . والخبر فى اللسان (صفا) .

من أموال بنى النضير ، قال : فاستبّ علىّ والعباس عند عمر ، فقال عبد الرحمن : يا أمير المؤمنين : اقض بينهما وأرح أحدهما من الآخر ، فقال عمر : أنشدكم الله الذى تقوم بإذنه السموات والأرض ، هل تعلمون أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « لا نُورَث ، ما تركناه صدقة » ، يعنى نفسه ؟ قالوا : قد قال ذلك ، فأقبل على العباس وعلىّ فقال : أنْشُدكما الله هل تعلمان ذلك ؟ قالا : نعم ؟ قال عمر : فإنى أحدّثكم عن هذا الأمر ، إن الله تبارك وتعالى خصّ رسوله صلى الله عليه وسلم فى هذا الفىء بشىء لم يُعطه غيره ، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ[1] ﴾ ، وكانت هذه خاصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما اختارها دونكم ، ولا استأثر بها عليكم ، لقد أعطاكموها وبثّها فيكم حتى بقى منها هذا المال ، وكان ينفق منه على أهله سنتهم ، ثمّ يأخذ ما بقى فيجعله فيما يجعل مال الله عزّ وجلّ ، فعل ذلك فى حياته ثم توفّى ، فقال أبو بكر: أنا ولىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقبضه الله ، وقد عمل فيها بما عمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنتما حينئذ ، والتفت إلى علىّ والعباس تزعمان أن أبا بكر فيها ظالم فاجر ، والله يعلم إنه فيها لصادق بارٌّ راشد ، تابع للحق ، ثم توفّى اللهُ أبا بكر ، فقلت : أنا أَوْلى الناس بأبى بكر وبرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقبضتها سنتين — أو قال سنين من إمارتى — أعمل فيها مثل ما عمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ، ثم قال : وأنتما — وأقبل على العباس وعلىّ — تزعمان أنى فيها ظالم فاجر ، والله يعلم أنى فيها بارّ راشد ، تابع للحق ثم جئتمانى وكلمتكما واحدةً ، وأمركما جميع ، فجئتنى — يعنى العباس — تسألنى نصيبك من ابن أخيك ، وجاءنى هذا — يعنى عليًّا — يسألنى نصيب امرأته من أبيها ، فقلت لكما: إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا نورث ، ما تركناه صدقة » ، فلما بدا لى أن

---

(١) سورة الحشر ٦ .

أدفعها إليكما قلت : أدفعها على أنّ عليكما عهد الله وميثاقه لتعملان فيها بما عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ، وبما عملتُ به فيها ، وإلّا فلا تكلّمانى ! فقلتُما : ادفعها إلينا بذلك ، فدفعتُها إليكما بذلك ، أفتلتمسان منّى قضاء غير ذلك ! والله الذى تقوم بإذنه السّمٰوات والأرض لا أقضى بينكما بقضاء غير ذلك حتى تقوم الساعة ، فإن عجزتما عنها فادفعاها إلىّ فأنا أكفيكماها !

قال أبو بكر : وحدّثنا أبو زيد قال : حدّثنا إسحاق بن إدريس ، قال : حدّثنا عبد الله ابن المبارك قال : حدّثنى يونس ، عن الزّهرىّ قال : حدّثنى مالك بن أوس بن الحدَثان بنحوه ؛ قال فذكرت ذلك لعروة فقال : صدق مالك بن أوس ، أنا سمعتُ عائشة تقول : أرسل أزواجُ النبىّ صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان إلى أبى بكر يسأل لهن ميراثهنّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم مما أفاء الله عليه حتى كنت أردّهنّ عن ذلك، فقلت : ألا تتّقين الله ، ألم تعلمْن أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « لا نورَث ، ما تركناه صدقة » ، يريد بذلك نفسه ؛ إنما يأكل آل محمد من هذا المال ، فانتهى أزواج النبىّ صلى الله عليه وآله إلى ما أمرتهنّ به .

* * *

قلت : هذا مشكل ، لأن الحديث الأول يتضمن أنّ عمر أقسم على جماعة فيهم عثمان، فقال : نشدتكم الله ، ألستم تعلمون أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال : « لا نورث ما تركناه صدقة » ، يعنى نفسه ! فقالوا : نعم ، ومن جملتهم عثمان ، فكيف يعلم بذلك فيكون مترسّلا لأزواج النبىّ صلى الله عليه وآله : يسأله أن يعطيهنّ الميراث ! اللهمّ إلّا أن يكون عثمان وسعد وعبد الرحمن والزبير صدّقوا عمر على سبيل التقليد لأبى بكر فيما رواه وحُسْنِ الظنّ ، وسمّوْا ذلك عِلْما ، لأنه قد يطلق على الظنّ اسم العلم .

فإن قال قائل : فهلّا حسن ظنّ عثمان برواية أبى بكر فى مبدأ الأمر فلم يكن رسولا لزوجات النبىّ صلى الله عليه وآله فى طلب الميراث ؟ .

قيل له : يجوز أن يكون فى مبدأ الأمر شاكّا ، ثمّ يغلب على ظنه صِدْقه لأمارات اقتضت تصديقه ، وكلّ الناس يقع لهم مثل ذلك .

وها هنا إشكال آخر ، وهو أنّ عمر ناشد عليّا والعبّاس : هل تعلمان ذلك ؟ فقالا : نعم ، فإذا كانا يعلمانه فكيف جاء العبّاس وفاطمة إلى أبى بكر يطلبان الميراث على ما ذكره فى خبر سابق على هذا الخبر ، وقد أوردناه نحن ! وهل يجوز أن يقال : كان العبّاس يعلم ذلك ثم يطالب الإرث الّذى لا يستحقّه ؟ وهل يجوز أن يقال : إنّ عليّا كان يعلم ذلك ويمكّن زوجته أن تطلب مالا تستحقّه ، خرجت من دارها إلى المسجد ، ونازعت أبا بكر ، وكلّمته بما كلّمته إلّا بقوله وإذنه ورأيه . وأيضا فإنه إذا كان صلّى الله عليه وآله لا يُورَث ، فقد أشكل دفع آلته ودابّته وحذائه إلى علىّ عليه السلام ، لأنّه غير وارث فى الأصل ، وإن كان أعطاه ذلك لأنّ زوجته بعُرْضة أن ترث ، لولا الخبر ، فهو أيضا غير جائز ، لأنّ الخبر قد مَنَع من أن يرث منه شيئا قليلا كان أو كثيرا .

فإن قال قائل : نحن معاشرَ الأنبياء لا نُوَرّث ذهبا ولا فضّة ولا أرضا ولا عَقارا ولا دارا .

قيل : هذا الكلام يُفهَم من مضمونه أنّهم لا يورّثون شيئاً أصلا ، لأنّ عادة العرب جاريةٌ بمثل ذلك ، وليس يقصدون نفىَ ميراث هذه الأجناس المعدودة دون غيرها ، بل يجعلون ذلك كالتّصريح بنفى أن يورّثوا شيئاً ما على الإطلاق .

وأيضاً فإنّه جاء فى خبر الدابّة والآلة والحذاء أنّه رُوِى عن النبىّ صلّى الله عليه وآله: « لا نُورَث ، ما تركناه صدقة » ، ولم يقل « لا نُورث كذا ولا كذا » وذلك يقتضى عموم انتفاء الإرث عن كلّ شىء .

وأما الخبر الثانى وهو الذى رواه هشام بن محمّد الكلبىّ ، عن أبيه ؛ ففيه إشكال أيضا ، لأنه قال : إنّها طلبت فَدَك ، وقالت : إنّ أبى أعطانيها ، وإنّ أمّ أيمن تشهد لى بذلك ، فقال لها أبو بكر فى الجواب : إنّ هذا المال لم يكن لرسول الله صلّى الله عليه وسلم ، وإنّما كان مالًا من أموال المسلمين ، يحمل [1] به الرجال ، وينفقه فى سبيل الله ؛ فلقائل أن يقول له : أيجوز للنبىّ صلّى الله عليه وآله أن يملّك ابنتَه أو غير ابنته من أفناء الناس ضيعةً مخصوصة ، أو عقارا مخصوصا من مال المسلمين ، لِوَحْى أوْحَى الله تعالى إليه ، أو لاجتهاد رأيه على قول من أجاز له أن يحكم بالاجتهاد ، أولا يجوز للنبىّ صلّى الله عليه وآله ذلك ؟ فإن قال : لا يجوز ، قال ما لا يوافقه العقل ولا المسلمون عليه ، وإن قال : يجوز ذلك ، قيل : فإنّ المرأة ما اقتصرت على الدعوى ، بل قالت : أمّ أيمن تشهد لى ، فكان ينبغى أن يقول لها فى الجواب : شهادة أمّ أيمن وحدها غيرُ مقبولة ؛ ولم يتضمّن هذا الخبرُ ذلك ، بل قال لها لمّا ادّعت وذكرت من يشهد لها : هذا مالٌ من مال الله. لم يكن لرسول الله صلّى الله عليه وسلم ؛ وهذا ليس بجواب صحيح .

وأمّا الخبر الّذى رواه محمّد بن زكريّا عن عائشة ، ففيه من الإشكال مثل ما فى هذا الخبر ، لأنّه إذا شهد لها علىّ عليه السلام وأمّ أيمن أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وهب لها فَدَك ، لم يصحّ اجتماع صِدْقها وصِدْق عبد الرحمن وعمر ، ولا ما تكلّفه أبو بكر من تأويل ذلك بمستقيم ، لأنّ كونها هِبَة من رسول الله صلّى الله عليه وآله لها يَمْنَع من قوله : « كان يأخذ منها قُوتَكم ويَقسم الباقىَ ، ويحْمِل منه فى سبيل الله » ، لأنّ هذا ينافى كونها هبة لها ؛ لأنّ معنى كونها لها انتقالها إلى مِلْكيّتها ، وأن تتصرّف فيها خاصّة دون كلّ أحد من الناس ، وما هذه صفتُه كيف يقسم ويحمل منه فى سبيل الله !

(١) ا : « ويحمل » .

فإن قال قائل : هو صلّى الله عليه وآله أبوها ، وحُكمُه فى مالها كحُكمِه فى ماله وفى بيت مال المسلمين ، فلعلّه كان بحكم الأبوّة يفعل ذلك !

قيل : فإذًا كان يتصرّف[1] فيها فيها تصرُّف الأب فى مال ولده، لا يخرجه ذلك عن كونه مال ولده ، فإذا مات الأب لم يجز لأحد أن يتصرّف فى مال ذلك الولد، لأنّه ليس بأب له فيتصرّف فى ماله تصرّف الآباء فى أموال أولادهم ؛ على أنّ الفقهاء أو مُعظَمهم لا يجيزون للأب أن يتصرّف فى مال الابن .

وها هنا إشكالٌ آخر ، وهو قول عمر لِعلِيٍّ عليه السلام والعبّاس : وأنتما حينئذ تزعمان أنّ أبا بكر فيها ظالم فاجر، ثمّ قال لمّا ذكر نفسه : وأنتما تزعمان أنّى فيها ظالم فاجر ، فإذا كانا يزعمان ذلك فكيف يزعم هذا الزّعم مع كونهما يعلمان أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال: « لا أورَث » ! إن هذا لمن أعجب العجائب ، ولولا أنّ هذا الحديث ـ أعنى حديث خصومة العبّاس وعلىّ عند عمر ـ مذكورٌ فى الصحاح المجمع عليها لما أطلت العجب من مضمونه ، إذ لو كان غير مذكور فى الصّحاح لكان بعض ما ذكرناه يطعن فى صحّته ؛ وإنما الحديث فى الصّحاح لا ريب فى ذلك .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد قال : حدّثنا ابن أبى شَيْبة ، قال : حدّثنا ابن عُلَيّة ، عن أيّوب ، عن عكرمة ، عن مالك بن أوس بن الحدَثان قال : جاء العبّاس وعلىّ إلى عمر ، فقال العباس : اقضِ بينى وبين هذا الكذا وكذا ، أى يشتمه ، فقال الناس: افصل بينهما ، فقال لا أفصل بينهما ، قد علما أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال : « لا نُورَث ، ما تركناه صدقة »

قلت : وهذا أيضا مُشكل ، لأنّهما حضرا يتنازعان لا فى الميراث ، بل فى ولاية صدقة رسول الله صلّى الله عليه وآله أيّهما يتولّاها ولايةً لا إرثًا ! وعلى هذا كانت الخصومة ،

(١) ب : « قد يتصرف » .

فهل يكون جواب ذلك قد علما أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله قال: « لا نُورَث » !

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد قال: حدّثنى يحيى بن كثير أبوغسّان قال: حدّثنا شعبة عن عمر بن مرّة، عن أبى البَختريّ قال: جاء العبّاس وعلىّ إلى عمر وهما يختصمان، فقال عمر لطلحة والزبير وعبد الرحمن وسعد: أنشُدكم الله، أسمعتم رسولَ الله صلّى الله عليه يقول: « كلّ مال نبىّ فهو صدقة، إلا ما أطعمه أهله، إنّا لا نُورَث » ! فقالوا: نعم، قال: وكان رسول الله يتصدّق به، ويَقسِم فضله، ثم توفّىَ فوليَه أبو بكر سنتين يصنع فيه ما كان يَصنعُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وأنتما تقولان: إنّه كان بذلك خاطئا، وكان بذلك ظالما، وما كان بذلك إلّا راشدا، ثم وُلّيتُه بعد أبى بكر فقلت لكما: إن شئتما قبلتُماه على عمل رسول الله صلّى الله عليه وسلم وعهده الّذى عهد فيه، فقلتما: نعم، وجئتمانى الآن تختصمان؛ يقول هذا: أريد نصيبى من ابن أخى، ويقول هذا: أريد نصيبى من امرأتى! والله لا أقضى بينكما إلّا بذلك.

***

قلتُ: وهذا أيضاً مُشكِل، لأن أكثر الروايات أنّه لم يَروِ هذا الخبر إلّا أبو بكر وحده، ذكر ذلك أعظم المحدّثين، حتّى إنّ الفقهاء فى أصول الفقه أطبقوا على ذلك فى احتجاجهم فى الخبر برواية الصحابىّ الواحد. وقال شيخنا أبو علىّ: لا تقبل فى الرواية إلّا رواية اثنين كالشهادة، فخالفه المتكلّمون والفقهاء كلّهم، واحتجّوا عليه(١) بقبول الصحابة رواية أبى بكر وحده: « نحن معاشرَ الأنبياء لا نُورَث »، حتى إنّ بعض أصحاب أبى علىّ تكلّف لذلك جواباً، فقال: قد رُوى أنّ أبا بكر يوم حاجّ فاطمة عليها السلام قال: أنشُد الله امرأً سمعَ مِن رسول الله صلى الله عليه وسلّم فى هذا شيئاً! فروَى مالك ابن أوس بن الحدثان؛ أنّه سمعه من رسول الله صلّى الله عليه وسلم، وهذا الحديث ينطق

---

(١) ساقطة من ب.

بأنه استَشهد عمرَ وطلحةَ والزبيرَ وعبدَ الرحمن وسعدا ، فقالوا : سمعناه من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فأين كانت هذه الروايات أيّام أبى بكر ! ما نقل أنّ أحداً من هؤلاء يوم خصومة فاطمةَ عليها السلام وأبى بكر رَوَى من هذا شيئاً .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد عمر بن شبّة ، قال : حدّثنا محمّد بن يحيى(١) ، عن إبراهيم بن أبى يحيى ، عن الزُّهرىّ ، عن عروة ، عن عائشة أنّ أزواج النبىّ صلّى الله عليه وآله أرسلنَ عثمان إلى أبى بكر ، فذكر الحديث ، قال عروة : وكانت فاطمة قد سألتْ ميراثَها من أبى بكر ممّا تركه النبىّ صلّى الله عليه وآله ، فقال لها : بأبى أنتِ وأمّى ، وبأبى أبوكِ وأمّى ونفسى ، إن كنتِ سمعتِ من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم شيئاً ، أو أمركِ بشىء لم أتّبــع غير ما تقولين ، وأعطيتكِ ما تبتغين ، وإلّا فإنى أتبع ما أُمِرتُ به !

قال أبو بكر : وحدّثنا أبو زيد قال : حدّثنا عمرو بن مرزوق ، عن شعبة ، عن عمرو ابن مرّة ، عن أبى البَخترىّ قال : قال لها أبو بكر لمّا طلبتْ فَدَك : بأبى أنتِ وأمّى! أنت عندى الصادقة الأمينة ، إن كان رسولُ الله صلّى الله عليــه وسلم عَهِد إليك فى ذلك عهدا ، أو وَعَدَكِ به وعدا ، صدّقْتُكِ ، وسلَّمتُ إليك ! فقالت: لم يعهد إلىّ فى ذلك بشىء ، ولـكنّ الله تعالى يقول : ﴿ يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾(٢) ، فقال : أشهد لقد سمعت(٣) رسولَ الله صلّى الله عليه وسلم يقول : « إنّا معاشر الأنبياء لا نُورَث » .

* * *

قلت : وفى هذا من الإشـكال ما هو ظاهر ، لأنّها قد ادّعت أنه عَهِد إليها رسولُ الله صلى الله عليه وآله فى ذلك أعظم العهد ، وهو النِّحْلة ، فـكيف سكتت عن ذكر هذا لمّا سألها أبو بكر ! وهذا أعجبُ من العجب .

---

(١) ب : « عيسى » . (٢) سورة النساء ١١ . (٣) كذا فى : ا ، وفى ب : « كان » .

قال أبو بكر : وحدّثنا أبو زيد ؛ قال : حدّثنا محمّد بن يحيى ، قال : حدّثنا عبد العزيز ابن عمران بن عبد العزيز بن عبد الله الأنصـاريّ عن ابن شهاب ، عن مالك بن أوس بن الحَدَثان، قال : سمعتُ عمر وهو يقول للعبّاس وعليّ وعبد الرحمن بن عوف والزبير وطلحة: أنشُدكم اللهَ هل تعلمون أنّ رسول الله صلّى الله عليـه وسلم قال : « إنّا لا نُورَث ، معاشرَ الأنبياء ، ما تركنا صدقة » ؟ قالوا : اللهمّ نعم ، قال: أنشُدكم الله هل تعلمون أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يدخل فى فيئه أهله السّنة من صدقاته(١) ، ثم يجعل ما بقىَ فى بيت المال! قالوا : اللّهمّ نعم ، فلمّا توفّى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قبضها أبو بكر ، فجئت يا عبّاسُ تطلب ميراثك من ابن أخيك ، وجئت يا علىّ تطلب ميراث زوجتك من أبيهـا ! وزعمتما أن أبا بكر كان فيها خائنا فاجرا ، والله لقد كان أمرأ مطيعا ، تابعا للحق ، ثم توفّىَ أبو بكر فقبضتها ، فجئتمانى تطلبـان ميراثـكما ، أما أنت يا عبّاس فتطلب ميراثك من ابن أخيك ، وأما علىّ فيطلب ميراث زوجته من أبيها ، وزعمتما أنّى فيها خائن وفاجر ، والله يعلم أنّى فيها مطيع تابع للحقّ ؛ فأصلحا أمرَكما ، وإلّا والله لم ترجـع إليـكما . فقاما وتركا الخصومة وأمضيت صدقة .

قال أبو زيد : قال أبو غسّان : فحدّثنا عبد الرّزاق الصنعانىّ ، عن مَعْمَر بن شهاب ، عن مـالك بنحوه ، وقال فى آخره : فغلب علىٌّ عباسا عليها ، فكانت بيَدِ علىّ ، ثمّ كانت بيد الحسن ، ثم كانت بيد الحسين ، ثم علىّ بن الحسين ، ثم الحسن بن الحسن ، ثم زيد بن الحسن .

* * *

قلت : وهذا الحديث يدلّ صريحا على أنّهما جاءا يطلبان الميراث لا الولاية ، وهذا من المُشـكِلات ، لأنّ أبا بكر حَسَم المادّة أوّلا ، وقرّر عند العبّاس وعلىّ وغيرهما أنّ النبىّ صلّى الله عليـه وآله لا يُورَث ، وكان عمر من المساعدين له على ذلك ، فـكيف يعود

(١) كذا فى الأصول ، وفى الـكلام غموض .

العبّاس وعليّ بعد وفاة أبى بكر ، يحاولان أمرا قد كان فُرِغ منه ، ويُئِس من حصوله ، اللهمّ إلا أن يكونا ظنّا أن عمر يَنقُض قضاء أبى بكر فى هذه المسألة ، وهذا بعيد ، لأنّ عليّا والعبّاس كانا (١ فى هذه المسألة ١) يتّهمان عمر بممالأة أبى بكر على ذلك ألا تراه يقول : نسبتُمانى ونسبتُما أبا بكر إلى الظلم والخيانة ، فكيف يظنّان أنّه ينقض قضاء أبى بكر ويورّثهما !

* * *

واُعلم أنّ الناس يظنّون أنّ نزاع فاطمة أبا بكر كان فى أمرين: فى الميراث والنِّحلة، وقد وجدتُ فى الحديث أنّها نازعتْ فى أمر ثالث ، ومنَعها أبو بكر إيّاه أيضا ، وهو سهم ذوِي القربى .

قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهرىّ : أخبرنى أبو زيد عمر بن شبّة ، قال : حدّثنى هارون بن عمير ، قال: حدّثنا الوليد بن مسلم ، قال: حدّثنى صدقة أبو معاوية ، عن محمّد بن عبد الله ، عن محمّد بن عبد الرّحمن بن أبى بكر ، عن يزيد الرُّقاشىّ ، عن أنس بن مالك ، أنّ فاطمة عليها السلام أتت أبا بكر فقالت : لقد علمت الّذى ظلمتنا عنه أهل البيت من الصدقات ، وما أفاء الله علينا من الغنائم فى القرآن من سهم ذَوِى القربى ! ثم قرأتْ عليه قولَه تعالى : ﴿ وَاُعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّٰهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى . . . ﴾ (٢) الآية ، فقال لها أبو بكر : بأبى أنت وأمّى ووالدٍ وَلَدَكِ ! السمع والطاعة لكتاب الله ولحقّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، وحقّ قرابته ، وأنا أقرأ من كتاب الله الّذى تقرئين منه ، ولم يبلغ علمى منه أنّ هذا السّهم من الخمس يسلَّم إليكم كاملا ؛ قالت : أفلك هو ولأقربائك ؟ قال : لا ، بل أُنفِق عليكم منه ، وأَصرِف الباقى فى مصالح المسلمين قالت : ليس هذا حكم الله تعالى ؛ قال : هذا حكم الله ، فإن كان رسولُ الله عَهِد إليك

(١ — ١) ساقط من ب . (٢) سورة الأنفال ٤١ .

فى هذا عهدا أو أَوجَبه لـكم حقا(١) صدّقتكِ وسلّمته كلّه إليك وإلى أهلك؛ قالت: إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله لم يَعهَد إلىّ فى ذلك بشىء ، إلّا أنّى سمعته يقول لمـا أنزلت هذه الآية : « أبشِروا آلَ محمّد فقد جاءكم الغِـنَى » ؛ قال أبو بكر : لم يبلغ علمى من هذه الآية أن أسلّم إليـكم هذا السّهم كلّه كاملا ، ولـكنْ لـكم الغنى الّذى يُغنيكم ، ويفضل عنـكم ، وهذا عمر بن الخطّاب ، وأبو عبيدة بن الجرّاح فاَسألِيهم عن ذلك ، وانظرى هل يوافِقُك على ما طلبتِ أحد منهم ! فانصرفتْ إلى عمر فقالت له مِثل ما قالت لأبى بكر ، فقال لهـا مثل ما قاله لها أبو بكر ، فعجبتْ فاطمة عليها السلام من ذلك ، وتظنّت أنّهما كانا قد تذاكَرا ذلك واجتمعا عليه .

قال أبو بكر : وأخبرَنا أبو زيد قال : حدثنا هارون بن عمير ، قال : حدّثنا الوليد ، عن ابن أبى لهيعة ، عن أبى الأسود ، عن عروة ، قال : أرادت فاطمةُ أبا بكر على فَدَك وسهم ذوى القربى ، فأبى عليها ، وجعلهما فى مال الله تعالى .

قال أبو بكر : وأخبرَنا أبو زيد ، قال : حدّثنا أحمد بن معاوية ، عن هيثم ، عن جويبر ، عن أبى الضحّاك عن الحسن بن محمّد بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، أنّ أبا بكر منَع فاطمة وبنى هاشم سهم ذوى القربى ، وجعله فى سبيل الله فى السلاح والكُراع .

قال أبو بكر : وأخبرَنا أبو زيد قال : حدّثنا حيّان بن هلال ، عن محمد بن يزيد بن ذريع ، عن محمّد بن إسحاق ، قال : سألتُ أبا جعفر محمّد بن علىٍّ عليهما السلام ؛ قلت : أرأيتَ عليّا حين ولىَ العراق وما ولى من أمر الناس كيف صنع فى سهم ذوى القربى ؟ قال : سَلَك بهم طريقَ أبى بكر وعمر ؛ قلت : وكيف ؟ ولم ، وأنتم تقولون ما تقولون ! قال : أما والله ما كان أهلُه يَصدُرون إلاّ عن رأيه ؛ فقلت : فما منَعه ؟ قال : كان يكره

---

(١) كذا فى ا ، وفى ب : « أوجبه لك علىّ » .

أن يُدّعى عليه مخالفة أبى بكر وعمر .

قال أبو بكر : وحدّثنى المؤمّل بن جعفر ، قال : حدّثنى محمّد بن ميمون ، عن داود بن المبارك ، قال : أتينا عبد الله بن موسى بن عبد الله بن حسن بن الحسن ونحن راجعون من الحجّ فى جماعة، فسألناه عن مسائل، وكنت أحدَ مَنْ سأله ، فسألتُه عن أبى بكر وعمرَ ، فقال: سئل جدّى عبد الله بن الحسن بن الحسن عن هذه المسألة فقال : كانت أمّى صدّيقة بنت نبيّ مرسل ، فماتت وهى غَضْبَى على إنسان ، فنحن غِضابٌ لغضبها ، وإذا رضيتْ رَضِينا .

قال أبو بكر : وحدّثنى أبو جعفر محمّد بن القاسم قال : حدّثنى علىّ بن الصبّاح قال : أنشدنا أبو الحسن رواية المفضّل للكميت :

أَهوَى عليًّا أَميرَ المؤمنين وَلَا ... أَرضَى بشتمٍ أبى بكر ولا عُمَرَا[1]

ولا أَقولُ وإن لم يُعطِيَا فَدَكاً ... بنتَ النبيّ ولا ميراثَها : كَفَرَا[2]

اللهُ يَعلم ماذا يَحضُرانِ به ... يومَ القيامة من عذرٍ إذا اعتَذَرَا[3]

قال ابن الصبّاح : فقال لى أبو الحسن : أتقول : إنّه قد أكفرهما فى هذا الشعر! قلت: نعم، قال : كذاك هو .

قال أبو بكر : حدّثنا أبو زيد ، عن هارون بن عمير ، عن الوليد بن مسلم ، عن إسماعيل بن عباس ، عن محمّد بن السائب ، عن أبى صالح ، عن مولى أمّ هانئ ، قال : دخلتْ فاطمةُ على أبى بكر بعد ما استُخلِف ، فسألته ميراثَها من أبيهـــا ، فمنعها ، فقالت له : لئن مُتَّ اليومَ مَن كان يرِثُك ؟ قال : ولدى وأهلى ، قالت : فلم وَرِثتَ أنتَ رسولَ الله صلى الله عليه وآله دون ولده وأهله ؟ قال : فما فعلتُ يا بنتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ! قالت : بلى ، إنك عمدتَ إلى فَدَك ، وكانت صافيةً لرسول الله صلى الله عليه وآله فأخذتَها ، وعمدتَ إلى ما أنزل الله من السماء فرفعتَه عنّا ، فقال : يا بنتَ رسول الله

(١) الهاشميات ٨٣ ، ٨٤ . (٢) ا ، الهاشميات : « ميراثه » .
(٣) الهاشميات : « ماذا يأتيان به » .

صلّى الله عليه وسلم ، لم أفعل ؟ حدّثنى رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم أنّ الله تعالى يُطعِم النبيَّ صلّى الله عليه وسلم الطُّعمة ما كان حيّا ، فإذا قبضه الله إليه رُفعتْ ، فقالت : أنتَ ورسولُ الله أعلم ، ما أنا بسائلتكَ بعد مجلسى . ثم انصرفَتْ .

قال أبو بكر : وحدّثنا محمد بن زكريّا ، قال : حدّثنا محمد بن عبد الرّحمن المهلّبى ، عن عبد الله بن حمّاد بن سليمان ، عن أبيه ، عن عبد الله بن حسن بن حسن ، عن أمّه فاطمَة بنتِ الحسين عليهما السلام ، قالت : لمّا اشتدّ بفاطمةَ بنتِ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله الوجع وثقُلتْ فى علّتها ، اجتمع عندها نساءٌ من نساء المهاجرين والأنصار ، فقلن لها : كيف أصبحتِ يا ابنةَ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم ؟ قالت : والله أصبحتُ عائفةً[1] لدُنياكم ، قالِيَةً لرجالكم ، لفظتُهم بعد أن عَجَمْتُهم[2] ، وشنِئتهم[3] بعد أن سَبَرْتهم[4] ، فقبحاً لفُلول الحدّ وخَوَر القناة ، وخَطَل الرأى ! وبئسما قدّمَتْ لهم أنفسُهم أنْ سَخِط اللهُ عليهم وفى العذاب هم خالدون ؛ لا جرم ! قد قلّدتهم رِبْقَتها ، وشنّت عليهم غارتها ، فجَدْعا وعَقْرا ، وسُحْقا للقوم الظالمين ! وَيْحَهم ! أين زحزحوها عن رَوَاسى الرّسالة ، وقواعدِ النبوّة ، ومَهبِط الرُّوح الأمين ، والطيّبين بأمر الدّنيا والدّين ، ألا ذلك هو الخسران المبين ! وما الّذى نقَموا من أبى حسن ! نقَموا واللهِ نكيرَ سيفه ، وشِدّة وَطْأته ، ونَكالَ وَقْعته ، وتنمّره فى ذات الله ، وتالله لو تكافّوا عن زِمامٍ نبذَه إليه رسولُ الله صلّى الله عليه وآله لاعتَلَقه ، ولسار إليهم سيرا سُجُحا ، لا تكلَم حشاشته ، ولا يتعتَع راكبه ، ولأوردهم مَنهلا نَميرا فضفاضا يطفح ضفّتاه ، ولأصدرهم بِطاناً قد تحيّر بهم الرأى ، غير متحلّ بطائل ، إلّا بغَمْر الناهل ، وردعه سورة الساغبِ ، ولفتحتْ عليهم بركات من السّماء والأرض ، وسيأخذهم الله بما كانوا يكسبون . ألا هلمّ فاستمع وما عشت

---

(١) عائفة لدنياكم ، أى قالية لها كارهة. (٢) عجمتهم : بلوتهم وخبرتهم .
(٣) شنئتهم : أبغضتهم . (٤) سبرتهم : علمت أمورهم .

أراك الدهر عجبه ، وإن تعجب فقد أعجبك الحادث ، إلى أىّ لجأ استندوا ، وبأىّ عُروة تمسّكوا ! لبئسَ المَولى ولبئس العَشير ، ولبئس للظّالمين بدلا ! استبدلوا والله الذُّنَابَى بالقَوادم، والعَجُز بالكاهل؛فرغْما لمعاطس قومٍ يَحسَبون أنّهم يُحسِنون صُنْعا،﴿ ألا إنّهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ﴾ ، وَيْحهم ! ﴿ أفمن يَهدِى إلى الحقِّ أحقُّ أن يُتَّبَع أمَّنْ لا يَهِدِّى إلّا أن يُهدَى فما لكم كيف تحكمون ﴾ ! أما لَعَمر الله لقد لقِحت ، فنظِرة رَيْثما تُنْتَج(١) ، ثمّ احتلبوها طِلاعَ العَقْب دَماً عَبيطا وذُعاقا مُمقِرا هنا لك يَخسَر المُبطِلون ، ويَعرِف التالون غِبَّ ماأسّس الأوّلون ، ثم طِيبوا عن أنفسكم نفسا ، واطمئنّوا للفتنة جأشا ، وأبشِروا بسيفٍ صارم ، وهرْجٍ شامل ، واستبدادٍ من الظالمين يَدَعُ فيئكم زهيدا ، وجمعَكم حَصِيدا ؛ فيا حسرةً عليكم ، وأنّى لكم وقد عُمِّيَتْ عليكم أنلزِمكموها وأنتم لها كارهون ! والحمد لله ربّ العالمين ، وصلاتُه على محمد خاتم النبيّين ، وسيّد المرسلين .

***

قلتُ : هذا الكلام وإن لم يكن فيه ذكرُ فَدَك والميراث ، إلّا أنّه من تتمّة ذلك ، وفيه إيضاح لما كان عندها ، وبيانٌ لشدّة غيظها وغَضَبها ، فإنّه سيأتى فيما بعدُ ذكر ماينا قض به قاضى القضاة والمرتضى فى أنّها هل كانت غَضْبى أم لا ! ونحن لا ننصر مذهباً بعينه ، وإنّما نذكر ما قيل ، وإذا جرى بحثٌ نظرىٌّ قلنا ما يقوى فى أنفسنا منه .

واعلم أنّا إنّما نذكر فى هذا الفصل ما رواه رجالُ الحديث وثِقاتُهم ، وما أَوْدعه أحمدُ ابنُ عبد العزيز الجوهرىُّ فى كتابه ، وهو من الثّقات الأمناء عند أصحاب الحديث ، وأمّا ما يرويه رجال الشّيعة والأخباريّون منهم فى كتبهم من قولهم : إنّهما أهاناها وأسمَعاها كلاماً غليظا ، وإنّ أبا بكر رقّ لها حيث لم يكن عمرُ حاضرا ، فكتب لها بفدَك كتابا ؛ فلمّا خرجتْ به وجدَها عمر ، فمدّ يده إليه ليأخذه مغالبة ، فمنعتْه ، فدفع بيدِه فى صدرها

(١) كذا فى ا ، وفى ب : « تحلب » .

وأخَذ الصحيفةَ نخرقها بعد أن تَفَل فيها فمحاها ، وإنها دعت عليه فقالت : بَقَر الله بطنَك كما بقرتَ صحيفتي ؛ فشيء لا يرويه أصحابُ الحديث ولا ينقلونه ، وقدرُ الصَّحابة يَجِلّ عنه ، وكان عمرُ أتقى لله ؛ وأعرفَ لحقوق الله من ذلك ، وقد نَظَمت الشِّيعة بعضَ هـذه الواقعة الّتي يذكرونها شِعراً أوّله أبياتٌ لمهيار بن مرزويه الشاعر من قصيدته الّتي أوّلها[1] :

يا ابنـــةَ القومِ تُراكِ بالغٌ قَتْلِي رِضاكِ[2]

وقد ذيّل عليها بعضُ الشِّيعة وأتمّها ، والأبيات :

يا ابنة الطَّاهرِ كَمْ تُقْـ ـرَعُ بالظّلم عَصـاكِ
غَضِبَ اللهُ لخَطْبٍ ليـــلةَ الطَّفّ عَراكِ
ورَعَى النــارَ غداً قطّ رعَى أمسِ حمــاكِ
مَرّ لم يعطِفه شكوَى ولا استحيا بــكاكِ
واقتـــدى الناس به بعـ ـدُ فأرْدَى وَلَدَاكِ
يا ابنةَ الرّاقي إلى السد رة في لوح السكاكِ
لهف نفسي وعلى مِثْـ ـلِك فلْتبكِ البَواكي
كيف لم تقطع يَدٌ مُدَّ إليــك ابن صحـاكِ
فَرِحوا يومَ أهــانو كِ بمــا ساءَ أباكِ
ولقــد أخبَرَهم أنّ رِضــاه في رِضــاكِ
دَفعــا النصّ على إر ثك لمّا دَفَعــاكِ
وتعــرّضْتِ لقَــدْرٍ تافـــهٍ وانتهَراكِ

(١) ديوانه ٢ : ٣٦٧ ، ٣٦٨ .

(٢) في الأصول : « براك » والصواب ماأثبته من الديوان .

وادّعيت النِّحْلةَ المشـــهود فيها بالصِّكاكِ
فاُستشاطا ثم ما إن كَذَبا إن كذباكِ
فزوَى اللهُ عن الرَّحْــمةِ زنديقاً ذَواكِ
ونَفَى عن بابه الوا سع شيطاناً نَفـاكِ

فانظر إلى هـذه البليّة التى صبّت من هؤلاء على سادات المسلمين ، وأعلام المهاجرين ! وليس ذلك بقادح فى عُلوّ شأنهم ، وجلالة مكانهم ، كما أنّ مُبغضى الأنبياء وحَسَدتهم ، ومصنّفى الكتب فى إلحاق العَيْبِ والتهجين لشرائعهم لم تَزِدْ لأنبيائهم إلّا رفعة ، ولا زادت شرائعَهم إلّا انتشارا فى الأرض ، وقبولا فى النفس ، وبهجةً ونورا عند ذوى الألباب والعقول .

وقال لى عَلَوِىّ فى الحِلّة[١] يُعرَف بعلى بن مهنأ ، ذكىّ ذو فضائل : ما تظنّ قصدَ أبى بكر وعمرَ بمنع فاطمة فَدَكَ ؟ قلت : ما قصدا ؟ قال : أرادا ألّا يُظهرا لعلىّ — وقد اغتصباه الخلافة — رقّة ولينا وخذلانا ، ولا يرى عندهما خوَرا ، فأتْبعا القرْح بالقرْح .

وقلت لمتكلّم من متكلّمى الإمامية يُعرَف بعلىّ بن تقىّ من بلدة النيل[٢] : وهل كانت فَدَكُ إلا نخلا يسيرا وعقارا ليس بذلك الخطير ! فقال لى : ليس الأمرُ كذلك ، بل كانت جليلة جدًّا ، وكان فيها من النخل نحو ما بالكوفة الآن من النخل ، وما قصد أبو بكر وعمر بمنع فاطمة عنها إلا ألّا يتقوّى علىٌّ بحاصِلها وغَلّتها على المنازعة فى الخلافة ، ولهذا أتبعا ذلك بمنع فاطمة وعلىّ وسائر بنى هاشم وبنى المطلب حقَّهم فى الخمس ، فإنّ

---

(١) الحلة : تطلق على عدة مواضع ؛ منها موضع بين الكوفة والبصرة ؛ وهى حلة بنى مزيد .
(٢) النيل هنا : بليدة فى سواد الكوفة ؛ قرب حلة بنى مزيد .

الفقير الذى لا مال له تضعف همّته ويتصاغر عند نفسه ، ويكون مشغولا بالاحتراف والاكتساب عن طلب المُلك والرياسة ، فانظر إلى ما قد وَقَر فى صدور هؤلاء ، وهو داء لا دواء له ، وما أكثر ما تزول الأخلاق والشِّيم ، فأما العقائد الراسخة فلا سبيل إلى زوالها !

***

الفصل الثانى

فى النظر فى أنّ النبىّ صلى الله عليه وآله هل يُورَث أم لا

نذكر فى هذا الموضع ما حكاه المرتضى رحمه الله فى « الشّافى »[١] عن قاضى القضاة فى هذا المعنى ، وما اعترضه به ، وإن استضعفْنا شيئاً من ذلك قلنا ما عندنا ، وإلّا تركناه على حاله .

قال المرتضى : أوّل ما ابتدأ به قاضى القضاة حكايته عنّا استدلالنا على أنه صلّى الله عليه وآله مورِّث[٢] بقوله تعالى: ﴿يوصِيكم اللهُ فىأَوْلادِكم للذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾[٣] وهذا الخطاب عامّ يدخل فيه النبىّ وغيرُه .

ثمّ أجاب — يعنى قاضى القضاة — عن ذلك ، فقال : إنّ الخبر الذى احتجّ به أبو بكر — يعنى قوله : « نحن معاشرَ الأنبياء لا نُورَث » — لم يقتصر على روايته هو وحده حتى استشهد عليه عمرَ وعثمانَ وطلحةَ والزبيرَ وسعدا وعبدالرحمن ، فشهدوا به ، فكان لا يحلّ لأبى بكر وقد صار الأمر إليه أن يقسم التركة ميراثا ، وقد خبر رسول الله صلى الله عليه وآله بأنها صدقة وليست بميراث ، وأقلّ ما فى هذا الباب أن يكون الخبر من أخبار الآحاد ،

---

(١) الشافى ص ٢٢٨ وما بعدها . (٢) ا : « موروث » . (٣) سورة النساء ١١ .

فلو أنّ شاهدين شهدا فى التركة أنّ فيها حقّا ، أليس كان يجب أن يصرف ذلك عن الإرث! فعلمُه بما قال رسول الله صلى الله عليه وآله مع شهادة غيره أقوى . ولسنا نجعله مدّعيا لأنه لم يدّع ذلك لنفسه ، وإنما بيّن أنه ليس بميراث ، وأنه صدقة . ولا يمتنع تخصيص القرآن بذلك ، كما يخصّ فى العبد والقاتل وغيرهما ، وليس ذلك بنقْص فى الأنبياء ، بل هو إجلالٌ لهم ، يرفع اللهُ به قدرهم عن أن يورّثوا المال ، وصار ذلك من أوكد الدواعى ألّا يتشاغلوا بجمعه ، لأنّ أحد الدواعى القوية إلى ذلك تركه على الأولاد والأهلين . ولما سمعتْ فاطمة عليها السلام ذلك من أبى بكر كفّت عن الطلب فيما ثبت من الأخبار الصحيحة ، فلا يمتنع أن تكون غيرَ عارفة بذلك ، فطلبت الإرث ، فلما رَوَى لها ما رَوَى كفّت ، فأصابت أولا وأصابت ثانيا .

وليس لأحد أن يقول : كيف يجوز أن يبين النبيّ صلى الله عليه وآله ذلك للقوم ولا حقّ لهم فى الإرث ، ويدَع أن يبين ذلك لمن له حقّ فى الإرث ، مع أنّ التكليف يتصل به ؟ وذلك لأنّ التكليف فى ذلك يتعلّق بالإمام ، فإذا بيّن له جاز ألّا يبيّن لغيره ويصير البيان له بيانًا لغيره ، وإن لم يسمعه من الرّسول ، لأنّ هذا الجنس من البيان يجب أن يكون بحسب المصلحة !

قال : ثمّ حكى عن أبى علىّ أنه قال : أتعلمون كذِبَ أبى بكر فى هذه الرواية ، أم تجوّزون أن يكون صادقا[1] ؟ قال : وقد علم أنه لا شىء يقطع به على كذبه ، فلا بدّ من تجويز كونه صادقا . وإذا صحّ ذلك قيل لهم : فهل كان يحلّ له مخالفة الرسول ؟ فإن قالوا : لو كان صِدْقا لظهر واشتهر ، قيل لهم : إنّ ذلك من باب العمل ، ولا يمتنع أن ينفرد بروايته جماعة يسيرة ، بل الواحد والاثنان ، مثل سائر الأحكام ومثل الشهادات ، فإن قالوا نعلم أنه لا يصحّ لقوله تعالى فى كتابه : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾[2] . قيل لهم :

(١) الشافى : « أم تجوزون كذبه وصدقه » .   (٢) سورة النمل ١٦ .

ومن أين أنه ورّثه الأموال؛ مع تجويز أن يكون ورّثه العلم والحكمة ؟ فإن قالوا : إطلاق الميراث لا يكون إلاّ فى الأموال ؛ قيل لهم : إن كتاب الله يُبطل قولكم ، لأنه قال : ﴿ثمّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الّذينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبادِنا﴾(١) ، والكتاب ليس بمال ، ويقال فى اللغة: ما وَرثت الأبناء عن الآباء شيئاً أفضلَ من أدب حَسَن ؛ وقالوا : العلماء وَرَثة الأنبياء ، وإنما ورثوا منهم العلم دون المال ، على أنّ فى آخر الآية ما يدلّ على ما قلناه ، وهو قوله تعالى حاكيا عنه : ﴿ وقال يَـٰأَيُّها النّاسُ عُلِّمنا منطقَ الطّيْرِ وأُوتينا من كلّ شىء إنّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ المبين ﴾(٢) ، فنبّه على أنّ الذى ورث هو هذا العلم وهذا الفضل، وإلالم يكن لهذا القول تعلق بالأوّل . فإن قالوا : فقد قال تعالى:﴿ فهبْ لى مِنْ لَدُنْكَ وليًّا يَرِثُنى ويَرِثُ من آل يعقوب ﴾(٣) ، وذلك يُبطل الخبر ! قيل لهم : ليس فى ذلك بيانُ المال أيضا ، وفى الآية ما يدلُّ على أنّ المراد النبوّة والعلم ، لأن زكريا خاف على العلم أن يندرس ، وقوله : ﴿ وإنّى خِفْتُ الْمَوَالِىَ مِنْ وَرَائى ﴾ يدلّ على ذلك ، لأنّ الأنبياء لا تحرِص على الأموال حرصاً يتعلق خوفها بها ، وإنما أراد خوفه على العلم أن يضيع ، فسأل الله تعالى وليّا يقوم بالدّين مقامه . وقوله : ﴿ ويَرِثُ من آل يعقوب ﴾ يدلّ على أنّ المراد العلمُ والحكمة ، لأنه لا يرث أموال يعقوبَ فى الحقيقة (٤) ، وإنما يرث ذلك غيره .

قال : فأمّا مَنْ يقول : إنّ المراد : أنّا معاشرَ الأنبياء لا نُورَث ، ما تركناه صدقة ، أى ما جعلناه صدقةً فى حال حياتنا لا نوَرِّثُهُ ، فركيك من القول ، لأنّ إجماع الصحابة يخالفه ، لأنّ أحداً لم يتأوّله على هذا الوجه ، لأنه لا يكون فى ذلك تخصيص الأنبياء ، ولا مزية لهم ، ولأن قوله : « ما تركناه صَدَقة » ، جملة من الكلام مستقلّة بنفسها ، كأنه

---

(١) سورة فاطر ٣٢ .

(٢) سورة النمل ١٦ . (٣) سورة مريم ٥ ، ٦ .

(٤) ب : « الحقيقة » تحريف صوابه من ا والشافى .

عليه السلام مع بيانه أنهم لا يورثون المال ، يبيّن أنه صدقة ، لأنه كان يجوز ألاّ يكون ميراثا ، ويصرف إلى وجه آخر غير الصدقة .

قال : فأمّا خبر السّيف والبغلة والعمامة وغير ذلك ؛ فقد قال أبو علىّ : إنّه لم يثبت أنّ أبا بكر دفع ذلك إلى أمير المؤمنين عليه السلام على جهة الإرْث ، كيف يجوز ذلك مع الخبر الّذى رواه ، وكيف يجوز لو كان وارثا أن يخصّه بذلك ولا إرث له مع العمّ لأنّه عصبة ! فإن كان وصل إلى فاطمة عليها السلام فقد كان ينبغى أن يكون العبّاس شريكا فى ذلك وأزواج الرّسول الله صلّى الله عليه وآله، ولوَجب أن يكون ذلك ظاهرا مشهورا ليُعرف أنّهم أخذوا نصيبَهم من ذلك أو بَدَله، ولا يجب إذا لم يدفع أبو بكر ذلك إليه على جهة الإرْث ألّا يحصل ذلك فى يده ، لأنّه قد يجوز أن يكون النبىّ صلّى الله عليه وآله نَحَلَه ذلك، ويجوز أيضا أن يكون أبو بكر رَأَى الصَّلاحَ فى ذلك أن يكون بيَدِه لما فيه من تقوِيَة الدّين ، وتصدّق ببدله بعد التقويم ، لأنّ الإمام له أن يفعل ذلك .

قال : وحكى عن أبى علىّ فى البُرْد والقضيب أنه لم يمتنع أن يكون جعَلَه عُدّة فى سبيل الله وتقوِيَة على المشركين ، فتداولته الأئمّة لما فيه من التقوية ، ورأى أنّ ذلك أَولَى من أن يتصدّق به إن ثبت [1] أنه عليه السلام لم يكن قد نحله غَيْره فى حياته ، ثم عارض نفسَه بطلب أزواج النبىّ صلّى الله عليه وآله الميراث ، وتنازع أمير المؤمنين عليه السلام والعبّاس بعد موت فاطمةَ عليها السلام . وأجاب عن ذلك بأن قال : يجوز أن يكونوا لم يعرفوا رواية أبى بكر وغيره للخبر .

وقد رُوِى أنّ عائشة لمّا عرّفتهنّ الخبرَ أمسكن ، وقد بيّنا أنّه لا يمتنع فى مثل ذلك أن يخفى على من يستحقّ الإرْث ، ويعرفه من يتقلّد الأمر ، كما يعرِف العلماء والحكّام من أحكام المواريث ما لا يعلَمه أرباب الإرْث ، وقد بيّنا أنّ رواية أبى بكر مع الجماعة

---

(١) ا الشافى : « أن يثبت » .

أقوى من شاهدين لو شهد أنّ بعضَ تركته عليه السلام دَيْن ، وهو أقوى من رواية سلمان وابن مسعود لو رَوَيا ذلك .

قال : ومتى تعلّقوا بعموم القرآن أرَيْناهم جوازَ التّخصيص بهذا الخبر ، كما أنّ عموم القرآن يقتضى كون الصّدقات للفقراء ، وقد ثبت أنّ آل محمد لا تَحلّ لهم الصدقة .

هذا آخر ما حكاه المرتضى من كلام قاضِي القُضاة[1] .

* * *

ثم قال : نحن نبيّن أوّلا ما يدلّ على أنّه صلّى الله عليه وآله يورّث المال ، ونرتّب الكلام فى ذلك الترتيب الصحيح ، ثم نَعطف على ما أورده ، ونتكلّم عليه .

قال رضى الله عنه : والّذى يدلّ على ما ذكرنا قوله تعالى مخبرا عن زكريّا عليه السلام : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾[2]؛ فخبّر أنه خاف من بنى عمّه ، لأن الموالى هاهنا هم بنو العمّ بلا شبهة،وإنّما خافهم أنْ يَرِثوا ماله فينفقوه فى الفساد ، لأنّه كان يعرف ذلك من خلائقهم وطرائقهم ، فسأل ربّه ولدا يكون أحقّ بميراثه منهم . والذى يدلّ على أنّ المراد بالميراث المذكور ميراثُ المال دون العلم والنبوّة على ما يقولون أنّ لفظة الميراث فى اللّغة والشريعة لا يفيد[3] إطلاقُها إلّا على ما يجوز أن ينتقل على الحقيقة من الموروث إلى الوارث ، كالأموال وما فى معناها، ولا يُستعمل فى غير المال إلا تجوّزا واتّساعا، ولهذا لا يُفهَم من قول القائل : لا وارث لفلان إلّا فلان ، وفلانٌ يرث مع فلان بالظاهر والإطلاق إلّا ميراث الأموال والأعراض دون العلوم وغيرها . وليس لنا أن نعدل عن ظاهر الكلام وحقيقته إلى مجازه بغير دلالة . وأيضا فإنّه تعالى خبّر عن نبيّه أنّه اشترط فى وارثه أن يكون رضيّا ، ومتى لم يُحمل الميراث فى الآية على المال دون العلم

(١) الشافى ٢٢٨ ، ٢٢٩ . (٢) سورة مريم ٥ ، ٦ . (٣) ا والشافى : « لا يعهد » .

والنبوّة لم يكن للاشتراط معنًى ، وكان لغواً وعبثا ؛ لأنه إذا كان إنما سأل مَنْ يقوم مقامه ، ويرث مكانه فقد دخل الرّضا وما هـو أعظم من الرّضا فى جملة كلامه وسؤاله ؛ فلا مقتضى لاشتراطه؛ألا ترى أنّه لايحسن أن يقول: اللهم ابعث إلينا نبيّا واجعله عاقلا،[ومكلّفا](١)؟ فإذا ثبتتْ هذه الجملة صح أنّ زكريّا موروثٌ مالُه . وصحّ أيضا لصحّتها أن نبيّنا صلّى الله عليه وآله ممّن يورَّث المال ، لأن الإجماع واقع على أنّ حال نبيّنا عليه السلام لا يخالف حالَ الأنبياء المتقدّمين فى ميراث المال ، فمن مثبت للأمْرين وناف للأمْرين(٢) .

قلت : إنّ شيخنا أبا الحسين قال فى كتاب « الغُرَر » : صورة الخبر الوارد فى هذا الباب ، وهو الّذى رواه أبو بكر: «لانُورَث»، ولم يقل : «نحن معاشرَ الأنبياءلانورث»، فلا يلزم من كون زكريّا يورَث الطعنُ فى الخبر . وتصفّحت أنا كُتبَ الصّحاح فى الحديث فوجدتُ صيغة الخبر كما قاله أبو الحسين ، وإن كان رسولُ صلّى الله عليه وآله عَنَى نفسَه خاصّة بذلك ؛ فقد سقط احتجاج الشّيعة بقصّة زكريا وغيره من الأنبياء ، إلّا أنّه يَبعدُ عندى أن يكون أراد نفسه خاصّة ؛ لأنّه لم تَجْرِ عادته أن يخبر عن نفسه فى شيء بالنون .

فإن قلتَ : أيصحّ من المرتضى أن يوافق على أنّ صورة الخبر هكذا ، ثم يحتجّ بقصّة زكريّا بأنْ يقول : إذا ثبت أنّ زكريا موروث ، ثبت أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله يجوز أن يكون موروثا ، لإجماع الأمّة على أن لا فرق بين الأنبياء كلّهم فى هذا الحكم !

قلت : وإن ثبت له هذا الإجماع صحّ احتجاجه ، ولكنّ ثبوته يبعد ، لأنّ من نفى كون زكريّا عليه السلام موروثا من الأمّة إنّما نفاه لاعتقاده أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال : « نحن معاشرَ الأنبياء » ، فإذا كان لم يقل هكذا ، لم يقل : إنّ زكريّا عليه السلام غير موروث .

---

(١) من الشافى .　　(٢) الشافى ٢٢٩ .

قال المرتضى : ومما يقوّى ما قدّمناه أنّ زكريّا عليه السلام خاف بنى عمّه ، فطلب وارثا لأجل خوفه ، ولا يليق خوفه منهم إلّا بالمال دون العلم والنبوّة ، لأنّه عليه السلام كان أعلم بالله تعالى من أن يخاف أن يبعث نبيّا ليس بأهل للنبوّة ، وأن يُورِّث علمَه وحكمَه من ليس أهلا لهما ، ولأنّه إنما بُعث لإذاعة العلم ونشره فى الناس ، فلا يجوز أن يخاف من الأمر الّذى هو الغرض فى البعثة[1] . فإن[2] قيل : هذا يرجع عليكم فى الخوف عن إرث المال لأنّ ذلك غاية الضنّ والبخل . قلنا : معاذَ الله أن يستوىَ الحال ، لأنّ المال قد يصحّ أن يَرزُقَه الله تعالى المؤمن والكافرَ والعدوّ والولىّ ، ولا يصحّ ذلك فى النبوّة وعلومها . وليس من الضنّ أن يأسى على بنى عمّه ـ وهم من أهل الفساد ـ أن يظفَروا بماله فينفقوه على المعاصى ، ويصرفوه فى غير وجوهه المحبوبة ، بل ذلك غاية الحكمة وحسن التدبير فى الدّين ، لأنّ الدّين يحظر تقوية الفسّاق وإمدادَهم بما يُعينُهم على طرائقهم المذمومة ، وما يَعُدّ ذلك شحّا ولا بخلا إلّا من لا تأمّل له .

فإن قيل : أفلا[3] جاز أن يكون خاف من بنى عمّه أن يَرِثوا علمه ، وهم من أهل الفساد على ما ادّعيتم فيستفسدوا به الناس ، ويموّهوا به عليهم ؟ قلنا : لا يخلو هذا العلم الّذى أشرتم إليه من أن يكون هو كتب علمه وصحف حكمته لأنّ ذلك قد يسمّى علما على طريق المجاز ، أو يكون هو العلم الّذى يحلّ القلب . فإن كان الأوّل فهو يرجع إلى معنى المال ، ويصحّح أن الأنبياء يُوَرِّثون أموالهم وما فى معناها ، وإن كان الثانى لم يخلُ هذا من أن يكون هو العلم الّذى بُعِث النبىّ لنشره وأدائه ، أو أن يكون علما مخصوصا لا يتعلّق بالشريعة ، ولا يجب إطْلاع جميع الأمّة عليه ، كعلم العواقب وما يَجرِى فى مستقبل الأوقات ، وما جرى مَجرَى ذلك . والقسم الأوّل لا يجوز على النبىّ أن يخاف من وصوله إلى بنى عمّه وهم من جملة أمّته الّذين بعث لإطلاعهم على ذلك ، وتأديته إليهم ، وكأنّه على هذا الوجه يخاف ممّا هو الغرض من بعثته . والقسم الثانى فاسدٌ أيضا ، لأنّ

(١) ا والشافى : « بعثته » . (٢) د : « قال فإن قيل » . (٣) ا ، د : « فألا » .

هذا العلم المخصوصَ إنّما يستفاد من جهته ، ويُوقف عليه بإطلاعه وإعلامه ؛ وليس هو ممّا يجب نشرُه فى جميع الناس ، فقد كان يجب إذا خاف من إلقائه إلى بعض الناس فسادا ألّا يلقيه إليه ، فإنّ ذلك فى يده ، ولا يحتاج إلى أكثرَ من ذلك(١) .

قلت : لعاكس أن يعكِس هذا على المرتضى رحمه الله حينئذ ، ويقول له : وقد كان يجب إذا خاف من أن يرث بنو عمّه أمواله فينفقوها فى الفساد أن يتصدّق بها على الفقراء والمساكين ، فإنّ ذلك فى يده ، فيحصل له ثواب الصدقة ، ويَحْصُل له غرضه من حرمان أولئك المفسدين ميراثه .

قال المرتضى رضى الله عنه : وممّا يدلّ على أنّ الأنبياء يورّثون قولُه تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُليمانُ داودَ ﴾(٢) ، والظاهر من إطلاق لفظة « الميراث » يقتضى الأموال وما فى معناها على ما دللنا به من قبل .

قال : ويدلّ على ذلك أيضا قولُه تعالى : ﴿ يُوصِيكُم اللهُ فى أولادِكم للذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأنثيين . . . ﴾(٣) الآية ، وقد أجمعت الأمّة على عموم هذه اللفظة إلّا من أخرجه الدليل ، فيجب أن يتمسّك بعمومها ، لمكان هذه الدّلالة ، ولا يخرج عن حكمها إلّا من أخرجه دليل قاطع(١) .

قلت: أمّا قولُه تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سليمانُ داود ﴾، فظاهرها يقتضى وراثة النبوّة أو الملك أو العِلم الّذى قال فى أوّل الآية : ﴿ وَلَقَدْ آتينا داوُدَ وَسُليمانَ عِلْماً ... ﴾ لأنّه لا معنى لذكر ميراث سليمانَ المالَ ، فإنّ غيره من أولاد داود قد وَرِث أيضا أباه داودَ ؛ وفى كتب اليهود والنصارى أنّ بنى داود كانوا تسعة عشر ، وقد قال بعض المسلمين أيضا ذلك : فأىّ معنًى فى تخصيص سليمانَ بالذكر إذا كان إرثَ المال ! وأمّا: ﴿ يُوصِيكُمُ اللهُ فى أَوْلَادِكُمْ ﴾ ، فالبحث فى تخصيص ذلك بالخبر فرع من فروع مسألة خبر الواحد ؛ هل هو حجّة فى

---

(١) الشافى ٢٢٩ ، ٢٣٠ . (٢) سورة النمل ١٦ .

(٣) سورة النساء ١١ .

الشرعيّات أم لا ! فإن ثبت مذهب المرتضى فى كونه ليس بحجّة فكلامه هنا جيّد ، وإن لم يثبت فلا مانعَ من تخصيص العموم بالخبر ، فإنّ الصحابة قد خصّصتْ عمومات (١) الكتاب بالأخبار فى مواضع كثيرة .

***

قال المرتضى: وأمّا تعلّق صاحب الكتاب بالخبر الّذى رواه أبو بكر وادّعاؤه أنّه أُستشهد عمر وعثمان وفلانا وفلانا ، فأوّل ما فيه أن الّذى ادّعاه من الأُستشهاد غير معروف ، والّذى رُوِى أنّ عمر أُستشهد هؤلاء النفر لمّا تنازع (٢) أمير المؤمنين عليه السلام والعبّاس رضى الله عنه فى الميراث ، فشَهِدوا بالخبر المتضمّن لنفى الميراث ، وإنّما مقول مخالفينا فى صحّة الخبر الّذى رواه أبو بكر عند مطالبة فاطمة عليها السلام بالإرث على إمساك الأمّة عن النكير عليه ، والرّد لقضيّته (٣) .

قلت: صدق المرتضى رحمه الله فيما قال ، أمّا عَقِيب وفاة النبيّ صلّى الله عليه وآله ، ومطالبة فاطمة عليها السلام بالإرث ، فلم يروِ الخبر إلّا أبو بكر وحدَه . وقيل : إنه رواه معه مالكُ بن أوْس بن الحدَثَان ؛ وأمّا المهاجرون الّذين ذكرهم قاضى القضاة فإنّما شهدوا بالخبر فى خلافة عمر ؛ وقد تقدّم ذكْر ذلك . .

***

قال المرتضى: ثمّ لو سلّمنا استشهاد مَنْ ذَكر على الخبر لم يكن فيه حجّة ، لأنّ الخبر على كلّ حال لا يخرج من أن يكون غيرَ موجب للعلم ، وهو فى حكم أخبار الآحاد ، وليس يجوز أن يرجع عن ظاهر القرآن بما يجرى هذا المجرَى ، لأنّ المعلوم لا يُخَصّ إلّا بمعلوم ، وإذا كانت دلالة الظاهر معلومة ، لم يجز أنْ يخرَج عنها بأمرٍ مظنون .

قال : وهذا الكلام مبنىّ على أنّ التخصيص للكتاب والسنّة المقطوع بهما لا يقع

---

(١) ا ، د : « عموم » . (٢) ا والشافى : « نازع » . (٣) الشافى ٢٣٠ .

بأخبار الآحاد ، وهو المذهب الصحيح . وقد أشرنا إلى ما يمكن أن يُعتمَد فى الدلالة عليه من من أن الظنّ لا يقابل العلم ، ولا يرجَع عن المعلوم بالمظنون . قال : وليس لهم أن يقولوا : إنّ التخصيص بأخبار الآحاد يستند أيضا إلى عِلم ، وإن كان الطريق مظنونا ، ويشيروا إلى ما يدّعونه من الدّلالة على وجوب العمل بخبر الواحد فى الشريعة ، وأنّه حجّة ، لأنّ ذلك مبنىّ من قولهم على ما لانسلّمه، وقد دلّ الدليلُ على فساده ـ أعنى قولهم : خبر الواحد حجّة فى الشرع ـ على أنّهم لو سلِّم لهم ذلك لاحتاجوا إلى دليل مستأنَف على أنّه يقبل فى تخصيص القرآن ؛ لأنّ ما دلّ على العمل به فى الجملة لا يتناول هـذا الموضع ، كما لا يتناول جواز النّسخ به (١) .

قلت : أمّا قولُ المرتضى : لو سلّمنا أنّ هؤلاء المهاجرين الستّة رووْه لما خرج عن كونه خبرا واحدا ، ولما جاز أن يرجع عن عموم الكتاب به ، لأنّه معلوم ، والخبر مظنون.

ولقائل أن يقول : ليته حصل فى كلّ واحد من آيات القرآن رواية مثل هذه الستّة ، حيث جمع القرآن على عهد عثمان ومن قبله من الخلفاء ، فإنهم بدون هذا العدد كانوا يعملون فى إثبات الآية فى المصحف ، بل كانوا يحلّفون من أتاهم بالآية . ومَنْ نظر فى كتب التواريخ عرَف ذلك ، فإن كان هذا العدد إنّما يفيد الظنّ فالقولُ فى آيات الكتاب كذلك ، وإن كانت آيات الكتاب أثبِتتْ عن علم مستفاد من رواية هذا العدد ونحوه ، فالخبر مثل ذلك .

فأمّامذهب المرتضى فىخبر الواحدفإنّه قولٌ انفَرد (٢) به عن سائر الشِّيعة، لأنّ من قبله من فقهائهم ما عوّلوا فى الفقه إلّا على أخبار الآحاد كزُرارة ، ويونس ، وأبى بصير ، وابنى بابويه ، والحلبى ، وأبى جعفر القُمّى وغيرهم ، ثم مَنْ كان فى عصر المرتضى منهم

---

(١) الشافى ٢٣٠ . (٢) د : « تفرد » .

كأبى جعفر الطُّوسى وغيره ، وقد تكلّمت فى " اعتبار الذريعة " على ما اعتمد عليه فى هذه المسألة ، وأمّا تخصيص الكتاب بخبر الواحد فالظاهر أنّه إذا صحّ كون خبر الواحد حجّة فى الشرع ، جاز تخصيصُ الكتاب به ، وهذا من فنّ أصول الفقه ، فلا معنى لذكره هنا .

* * *

قال المرتضى رضى الله عنه : وهذا يُسقِط قولَ صاحب الكتاب : إنّ شاهدَيْن لو شهدا أنّ فى التّركة حقًّا لكان يجب أن ينصرف(١) عن الإرْث ، وذلك لأنّ الشهادة وإن كانت مظنونةً فالعمل بها يستند(٢) إلى عِلم ، لأنَّ الشريعة قد قرّرت العمَل بالشهادة ولم تقرّر العمَل بخبر الواحد ، وليس له أن يقيس خبر الواحد على الشهادة من حيث اجتمعا فى غَلَبة الظّن ، لأنّا لا نعمل على الشهادة من حيث غلَبة الظنّ دون ما ذكرناه من تقرير الشريعة العمل بها ؛ ألا ترَى أنّا قد نظنّ بصدق الفاسق والمرأة والصبىّ وكثير ممّن لا يجوز العمل بقوله ! فبان أنّ المعوّل فى هذا على المصلحة الّتى نستفيدها على طريق الجملة من دليل الشرع .

قال : وأبو بكر فى حُكم المدّعى لنفسه والجارّ إليها بخلاف ما ظنّه صاحب الكتاب ، وكذلك مَنْ شهد له إن كانت هناك شهادة(٣) ، وذلك أنَّ أبا بكر وسائر المسلمين سوى أهل بيت الرسول صلّى الله عليه وآله يحلّ لهم الصدقة ، ويجوز أن يصيبوا فيها ، وهذه تهمة فى الحكم والشهادة .

قال : وليس له أن يقول : فهذا يقتضى ألّا يقبل شهادة شاهدَين فى تركةٍ فيها صَدقة لمثل ما ذكرتم .

---

(١) ا ، د : « يصرف » . (٢) الشافى : « استند » .

(٣) بعدها فى الشافى : « قد وجدت » .

قال : وذلك لأنّ الشاهدين إذا شهدا فى الصّدقة(١) فحظّهما منها كحظّ صاحب الميراث بل سائر المسلمين ، وليس كذلك حال تركة الرّسول ؛ لأنّ كونها صدقة يحرّمها على ورثته ، ويبيحُها لسائر المسلمين(٢) .

قلت : هـذا فرق غير مؤثر ، اللّهمّ إلّا أن يعنى به تهمةَ أبى بكر والشهود السّتة فى جرّ النفع إلى أنفسهم يكون أكثر من تهمتهم لو شَهِدوا على أبى هُرَيرة مَثَلا أنّ ما تركه صدقة ؛ لأنّ أهلَ أبى هريرة يشاركون فى القسمة ، وأهلَ النبىّ صلّى الله عليه وآله لا يشاركون الشهود فيما يصيبهم ، إذ هم لا تحلّ لهم الصدقة ، فتكون حصّة أبى بكر والشهود ممَّا تركه رسول الله أكثرَ من حصّتهم ممّا يتركه أبو هريرة ، فيكون تطرّق التهمة إلى أبى بكر والشهود أكثر حسبَ زيادة حصّتهم ؛ وما وقفت للمرتضى على شىء أطرَفَ من هذا ، لأنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله مات والمسلمون أكثر من خمسين ألف إنسان ، لأنّه قادَ فى غَزاةِ تَبوكَ عشرين ألفا ، ثم وفدتْ إليه الوفود كلّها بعد ذلك ، فليت شِعرى كم مقدار ما يتوفّر على أبى بكر وستّة نفر معه ، وهم من جملة خمسين ألفا ، بين ما إذا كان بنو هاشم وبنو المطّلب — وهم حينئذ عشرة نفر — لا يأخذون حصّة ، وبيْن ما إذا كانوا يأخذون ! أترى أيكون التوفّر على أبى بكر وشهوده من التركة عشر عشر درهم ! ما أظنّ أنّه يبلغ ذلك . وكم مقدار ما يقلل حصص الشهود على أبى هريرة إذا شركهم أهله فى التركة ، لتكونَ هذه القِلّة موجِبةً رفع التّهمة ، وتلك الزيادة والكثرة موجِبة حصولَ التّهمة ! وهذا الكلام لا أرتضيه للمرتضى .

***

قال المرتضى رضى الله عنه : وأمّا قوله : يخصّ القران بالخبر(٣) كما خصصناه فى العبد والقاتل ، فليس بشىء ، لأنّا إنّما خصصنا مَنْ ذكر بدليل مقطوع عليه معلوم ، وليس هذا موجودا فى الخبر الّذى ادّعاه . فأمّا قوله : وليس ذلك ينقص الأنبياء ، بل هو إجلال لهم ،

(١) كذا فى ا ، د والشافى ، وفى ب : « بالصدقة » .   (٢) الشافى ٢٣٠ .
(٣) الشافى : « بذلك » .

فمن الّذى قال له : إنّ فيه[1] نقصا ! وكما أنّه لا نقص فيه ، فلا إجلالَ فيه ولافضيلةَ ؛ لأنّ الداعى وإن كان قد يقوّى على جمع المال ليخلف على الورثة ، فقد يقوّيه أيضا إرادة صرفه فى وجوه الخير والبرّ ، وكلا الأمرين يكون داعيا إلى تحصيل المـال ، بل الداعى الّذى ذكرناه أقوى فيما يتعلّق بالدِّين .

قال : وأمّا قوله : إنّ فاطمة لمّا سمعتْ ذلك كفّت عن الطلب، فأصابت أوّلا وأصابت ثانيا ؛ فلعَمرى إنها كفّت عن المنازعة والمشاحّة ، لـكنها انصرفت مغضَبة متظلّمة متألّمة؛ والأمر فى غضبها وسخطها أظهرُ من أن يخفى على مُنصِف ، فقـد روَى أكثرُ الرواة الّذين لا يُتّهمون بتشيّع ولا عصبيّة فيه من كلامها فى تلك الحال ، وبعد انصرافها عن مقام المنازَعة والمطالبة ، ما يدلّ على ما ذكرناه من سخطها وغضبِها .

أخبرَنا أبو عُبيد الله محمّد بن عمران المَرْزُبانىّ قال : حدّثنى محمّد بن أحمدَ الـكاتب ، قال : حدّثنا أحمد بن عبيد بن ناصِح النحوىّ ، قال: حدّثنى الزّيادىّ ، قال : حدّثنا الشّرْقىّ ابن القُطامىّ ، عن محمد بن إسحاق ، قال : حدّثنا صالح بن كيسان ، عن عروة ، عن عائشة، قالت : لما بلغ فاطمةَ إجماعُ أبى بكر على منعِها فدَكَ لاثتْ خِمارَها على رأسها ، واشتملت بجلبابها ، وأقبلتْ فى لُمّـة[2] من حَفَدتِها . . .

قال المرتضى : وأخبرنا المرزبانىّ قال : حدّثنا أبو بكر أحمد بن محمّد المـكّى قال : حدّثنا أبو العيناء بن القاسم اليمانىّ قال : حدّثنا ابن عائشة ، قال : لمّا قُبض رسول الله صلّى الله عليه وسلم أقبلتْ فاطمة إلى أبى بكر فى لُمّـة من حَفَدتها . ثم اجتمعت الروايتان من ها هنا[3] . . . ونساء قومها تطأ ذُيولها ما تخرم مِشيتُها مِشية رسول الله صلى الله عليه وآله

(١) د والشافى : « إنه نقص » .   (٢) اللمة ، بالضم والتشديد : الرفقة والجماعة .

(٣) الشافى : « اتفقا من ها هنا » .

حتى دخلت على أبى بكر وهو فى حشدٍ من المهاجرين والأنصار وغيرهم ، فنِيطت[1] دونها مُلاءة ، ثم أنّت أنّةً أجْهش لها القومُ بالبكاء ، وارتجّ المجلس ، ثم أمهلت هنيهة حتى إذا سكن نَشيجُ القوم وهدأت فَوْرَتهم ، افتتحت كلامها بالحمد لله عزّ وجلّ والثناء عليه ، والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله ، ثم قالت : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ[2] ﴾ ، فإن تَعزُوه تجدوه أبى دون آبائكم ، وأخا ابن عمّى دون رجالكم ، فبلّغ الرسالة صادعا بالنذارة[3] ، مائلا عن سَنَن المشركين ، ضاربا ثَبَجهم ، يدعو إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة ، آخذاً بأكظام[4] المشركين ؛ يهشم الأصنام ، ويفلّق الهام ، حتى انهزم الجمع وولّوا الدُّبُر ، وحتّى تفرّى[5] الليلُ عن صُبْحِه ، وأسفر الحقّ عن محضه ، ونطق زعيم الدّين ، وخرست شقائق الشياطين ، وتمّت كلمةُ الإخلاص ، وكنتم على شَفَا حفرةٍ من النار ، نُهزة الطامع ، ومذْقَة الشارب ، وقبْسة العجلان ، وموطأ الأقدام ، تشربون الطَّرْق[6] ، وتقتاتون القِدّ ؛ أذلّة خاسئين ، يختطفكم الناس من حولكم ، حتّى أنقذكم الله برسوله صلى الله عليه وآله بعد اللّتيّا والّتى ، وبعد أن مُنِى بهم الرجال وذؤبان العرب ومَرَدة أهل الكتاب ، و ﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ[7] ﴾ ، أو نجم قرن الشيطان، أو فغرت فاغرة[8] قذف أخاه فى لهواتها . ولا ينكفى[9] حتى يطأ صِماخها بإخمصه ويطفىء عادية لهبها بسيفه ــ أو قالت : يخمد لهبها بحدّه ــ مكدودا فى ذات الله ، وأنتم فى رفاهية فَكِهُون آمنون وادِعون .

---

(١) نيطت : أى وصلت وعلقت . (٢) سورة التوبة ١٢٨ .
(٣) د : « صادرا بالتذكرة » .
(٤) الأكطام : جمع كظم ، بالتحريك ؛ وهو مخرج النفس من الحلق .
(٥) تفرى : انشق . (٦) الطرق : الماء الذى بالت الإبل فيه .
(٧) سورة المائدة ٦٤ . (٨) فغرت فاغرة : أى فتحت فاها .
(٩) د : « فلاتكنى » .

إلى هنا انتهى خبرُ أبى العيناء عن ابن عائشة. وأما عروة عن عائشة، فزاد بعد هذا: حتّى إذا اختار الله لنبيه دار أنبيائه، ظهرتْ حسيكةُ النفاق، وشمل جلباب الدّين، ونطق كاظم الغاوين، ونبغَ خامل الآفكين، وهدَر فنيق المُبطلين، يخطر فى عَرَصاتِكم، وأطلع الشيطان رأسه صارخاً بكم، فدعاكم فألفاكم لدعوته مستجيبين؛ ولقربه متلاحظين. ثم استنهضَكم فوجدكم خِفافا، وأحمَشكم فألفاكم غِضابا، فوَسَمتم غيرَ إبلكم، ووَرَدْتم غيرَ شِرْبكم، هذا والعهد قريب، والكَلْمُ رحيب[1] والجرح لمّا يندمل، إنما زعمتم ذلك خوف الفتنة، ﴿ ألا فى الفتنةِ سقطوا وإنّ جهنّم لمحيطةٌ بالكافرين ﴾[2]، فهيهات! وأنّى بكم وأنى تؤفكون، وكتاب الله بين أظهركم، زواجره بيّنة، وشواهده لائحة، وأوامره واضحة. أرغبةً عنه تريدن، أم لغيره تحكمون؛ بئس للظالمين بدلا! ومن يتبعْ غيرَ الإسلام دِيناً فلنْ يُقْبَل مِنْهُ وهو فى الآخرةِ منَ الخاسرين. ثم لم تلبثوا إلّا ريث أن تسكن نَفْرتها، تُسِرّون حِسْوًا فى ارتغاء، ونحن نصبر منكم على مثل حزّ المُدَى، وأنتم الآن تزعمون أن لا إرث لنا، ﴿ أفحُكْمَ الجاهِلِيّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكمًا لِقَوْمٍ يُوقِنونَ[3] ﴾. يابن أبى قحافة، أترث أباك ولا أرثَ أبى؟ لقد جئت شيئاً فَرِيّا! فدونكها مخطومة مرحولة، تلقاك يوم حشْرِك، فنعم الحكم الله، والزعيمُ، محمد، والموعد القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون! ثم انكفأتْ إلى قبر أبيها عليها السلام، فقالت:

قد كان بعدَكَ أنباءٌ وهنبثةٌ ... لو كنتَ شاهدَها لم تكثر الخُطَبُ
إذا فقدناك فقد الأَرض وابِلَها ... واختل قومُك فاشهدهم ولا تَغِبِ

وَرَوَى حرمىّ بن أبى العلاء مع هذين البيتين بيتاً ثالثاً:

فليتَ بعدَكَ كان الموت صادَفنا ... لما قضيت وحالت دونَكَ الكُتُبُ

---

(١) رحيب، أى واسع. (٢) سورة التوبة ٤٩.
(٣) سورة المائدة ٥٠

قال : فحمد أبو بكر الله وأثنى عليه وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم وقال: ياخَيْرَ[١] النساء ، وابنة خيرَ الآباء[٢] ، والله ما عدوتُ رأى رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، ولا عملتُ إلّا بإذنه ، وإن الرائدَ لا يكذِب أهله ، وإنى أشهد الله وكفى بالله شهيدا ؛ أنى سمعتُ رسول الله يقول ، « إنّا معاشر الأنبياء لا نورِث ذهبا ، ولا فضة ولا دارا ولا عقارا ، وإنما نورِث الكتاب والحكمة والعلم والنبوّة » .

قال : فلما وصل الأمر إلى علىّ بن أبى طالب عليه السلام كُلم فى ردّ فَدَكَ ، فقال : إنى لأستحيي من الله أن أردّ شيئاً منع منه أبو بكر وأمضاه عمر[٣] .

***

قال المرتضى : وأخبرنا أبو عبد الله المَرْزُبَانىّ : قال : حدثنى علىّ بن هارون ، قال : أخبرنى عبيد الله بن أحمد بن أبى طاهر ، عن أبيه قال : ذكرتُ لأبى الحسين زيد بن علىّ ابن الحسين بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام كلام فاطمة عليها السلام عند منع أبى بكر إيّاها فدَكَ ، وقلت له : إنَّ هؤلاء يزعمون أنه مصنوع وأنه من كلام أبى العيناء ، لأنَّ الكلام منسوق البلاغة ، فقال لى : رأيت مشايخ آل أبى طالب يروونه عن آبائهم ويعلّمونه أولادهم ، وقد حدّثنى به أبى عن [٤]جدّى يَبْلغ به فاطمة عليها السلام[٤] على هذه الحكاية ، وقد رواه مشايخ الشِّيعة وتدارسوه قبل أن يوجد جدّ أبى العيناء ، وقد حدّث الحسين بن علوان ، عن عطية العوْفىّ ، أنه سمع عبد الله بن الحسن بن الحسن يذكر[٥] عن أبيه هذا الكلام .

ثم قال أبو الحسن زيد : وكيف[٦] تنكرون هذا من كلام فاطمة عليها السلام ، وهم

---

(١) ا ، د : « ياخيرة » . (٢) الشافى : « الأنبياء » .
(٣) الشافى ٢٣٠ . (٤ ــ ٤) ساقط من د .
(٥) الشافى ، د : « ذكر » . (٦) د : « كيف » .

يروون من كلام عائشة عند موت أبيها ما هو أعجب من كلام فاطمة عليها السلام ويحققونه لولا عداوتهم لنا أهلَ البيت . ثم ذكر الحديث بطوله على نسقه ، وزاد فى الأبيات بعد البيتين الأولين :

ضاقتْ علىّ بلادى بعد ما رحُبتْ ... وسِيمَ سِبْطاكَ خسفا فيه لى نَصَبُ

فليت قبلَك كان المـوتُ صادَفنـا ... قومٌ تمنّوا فأُعطُوا كلّ ما طلبوا

تجهّمَتْنا رجالٌ واستُخفّ بنـا ... مذغبتَ عنّا وكلّ الإرث قد غصبوا

قال : فما رأينا يوماً أكثرَ باكيا أو باكية من ذلك اليوم .

قال المرتضى : وقد روى هذا الكلام على هذا الوجه من طُرُقٍ مختلفة ، ووجوه كثيرة، فمن أرادها أخَذَها من مواضعها ، فكيف يدّعى أنّها عليها السلام كفّت راضية ، وأمسكت قانعة ، لولا البُهْت وقلّة الحياء[(١)]!

* * *

قلت : ليس فى هذا الخبر ما يدلّ على فساد ما ادّعاه قاضى القضاة ، لأنه ادّعى أنّها نازعت وخاصمت ثم كفّت لما سمعت الرواية وانصرفتْ ، تاركة للنزاع ، راضية بموجب الخبر المروىّ . وما ذكره المرتضى من هذا الكلام لا يدلّ إلّا على سخطها حالَ حضورها ، ولا يدلُّ على أنها بعد رواية الخبر وبعد أن أقسم لها أبو بكر بالله تعالى أنه ما روَى عن رسول الله صلى الله عليه وآله إلا ماسمعه منه ، انصرفت ساخطة ؛ ولا فى الحديث المذكور والكلام المروىّ ما يدلّ على ذلك ، ولست أعتقد أنها انصرفت راضية كما قال قاضى القضاة ، بل أعلم أنّها انصرفتْ ساخطة ، وماتت وهى على أبى بكر واجدة ، ولكن لا من هذا الخبر ، بل من أخبار أُخَر ، كان الأَوْلى بالمرتضى أن يحتجّ بها على

---

(١) الشافى ٢٣١ .

ما يرويه فى انصرافها ساخطةً ، وموتها على ذلك السخط ، وأمّا هذا الخبر وهذا الكلام فلا يدلّ على هذا المطلوب .

* * *

قال المرتضى رحمه الله : فأمّا قوله : إنه يجوز أن يبيّن عليه السلام أنّه لا حقّ لميراثه فى ورثته لغير الورثة ، ولا يمتنع أن يرد من جهة الآحاد ، لأنّه من باب العمل ، وكلّ[1] هذا بناء منه على أصوله الفاسدة فى أنّ خبر الواحد حجّة فى الشرع ، وأنّ العمل به واجب ؛ ودون صحّة ذلك خَرْط القتاد ؛ وإنما يجوز أن يبيّن من جهة أخرى[2] إذا تساويا فى الحجّة ووقوع العمل ، فأمّا مع تباينهما فلا يجوز التخيير فيهما ، وإذا كان ورثةُ النبىّ صلّى الله عليه وسلم متعبّدين بألّا يرثوه ، فلابدّ من إزاحة عِلّتهم فى هذه العبادة بأن يوقفهم على الحكم ، ويشافِهَهم به ، ويلقيه إلى مَنْ يقيم الحجّة عليهم بنقله ، وكلّ ذلك لم يكن .

فأمّا قوله : أتجوّزون صِدقَه فى الرواية أم لا تجوزون ذلك ؟ فالجواب إنا لا نجوّزه ، لأنّ كتاب الله أصدَقُ منه ، وهو يدفع روايته ويُبطلها ؛ فأمّا اعتراضه على قولنا : إنّ إطلاق الميراث لا يكون إلّا فى الأموال بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾[3] . وقولهم : ماورِثت الأبناء من الآباء شيئا أفضلَ من أدب حسن ، وقولهم: العلماء ورثةالأنبياء ، فعجيب ، لأنّ كل ماذكر مقيّد غير مطلق ، وإنّما قلنا إنّ مطلق لفظ الميراثمنغير قرينة ولاتقييد يفيد بظاهره ميراثَ الأموال ، فبعد ماذكره وعارض به لايخفى على متأمّل .

فأما استدلاله على أنّ سليمان وَرِّث داودَ علمه دون ماله بقوله : ﴿ يأيّها النَّاسُ عُلِّمنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾[4] وأن المراد أنّه

(١) الشافى : « فكل » . (٢) الشافى : « من جهة دون جهة » .

(٣) سورة فاطر ٣٢ .

(٤) سورة النمل ١٦ .

وَرِث العلمَ والفضلَ ، وإلّا لم يكن لهذا القول تعلّق بالأوّل ، فليس بشىء يعوّل عليه ، لأنّه لا يمتنع أن يريدَ به انه ورِث المالَ بالظاهر والعلم بهذا المعنى من الاُستدلال ، فليس يجب إذا دلّت الدّلالة فى بعض الألفاظ على معنى المجاز أن يَقتصِر[1] بها عليه ، بل يجب أن يَحمِلها على الحقيقة الّتى هى الأصل إذا لم يَمنعْ من ذلك مانع ؛ على أنّه لا يمتنع أن يريد ميراث المال خاصّة، ثمّ يقول مع ذلك : ﴿ إِنَّا عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ﴾ ، ويشير بـ « الفضل المبين » إلى العِلم والمال جميعا ، فله بالأمرين جميعا فضلٌ على من لم يكن عليهما ؛ وقوله : ﴿ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ يَحتمل المالَ كما يحتمل العلم ، فليس بخالص ما ظنّه .

فأمّا قوله فى قصّة زكريّا : إنّه خاف على العلم أن يندرس ، لأنّ الأنبياء وإن كانوا لا يَحرِصون على الأموال ، وإنّما خاف أن يضيع العلم ، فسأل اللهَ تعالى وليّا يقوم بالدّين مقامَه ؛ فقد بيّنا أنّ الأنبياء وإن كانوا لا يَحرِصون على الأموال ولا يَبخَلون بها ، فإنّهم يجتهدون فى منع المفسدين من الاُنتفاع بها على الفساد ، ولا يعدّ ذلك بخلاً ولا حِرْصا[2]، بل فضلا ودِينا ؛ وليس يجوز من زكريّا أن يخاف على العِلْم الاُندراسَ والضياعَ ، لأنّه يعلم أنّ حكمة الله تعالى تقتضى حِفظَ العلم الّذى هو الحجّة على العباد ، وبه تنزاح عِللهم فى مصالحهم ، فكيف يخاف ما لا يخاف من مثله !

فإن قيل : فهبوا أنّ الأمر كما ذكرتم من أنّ زكريّا كان يأمن على العلم أن يندرِس ؛ أليس لابدّ أن يكون مجوّزا أن[3] يحفظه الله تعالى بمَنْ هو من أهله وأقاربه ، كما يجوز حفظُه بغريب أجنبيّ ! فما أنكرتم أن يكون خوفُه إنّما كان من بنى عمّه ألّا يتعلّموا العلم ولا يقوموا فيه مقامه ، فسأل الله ولدا يَجمع فيه هذه العلومَ حتّى لا يخرج العلمُ عن بيته ، ويتعدّى إلى غير قومه ، فيَلحقَه بذلك وَصْمة !

---

(١) ا ، الشافى : « يقتصرها » . (٢) ب : « بخلا وحرصا » .
(٣) الشافى « لأن » .

قلنا : أمّا إذا رتّب السؤال هذا الترتيب ، فالجواب عنه ما أجبنا به صاحبَ الكتاب ، وهو أنّ الخوف الّذى أشاروا إليه ليس من ضررٍ دينىّ ، وإنّما هو من ضررٍ دُنْياوىّ ، والأنبياء إنّما بُعِثوا لتحمُّل المضارّ الدنياوية ، ومنازلهم فى الثواب إنّما زادت على كلّ المنازل لهذا الوجه ، ومَنْ كانت حاله هذه الحال ، فالظاهر من خوفه إذا لم يعلم وجهه بعينه أن يكون محمولا على مضارّ الدّين ، لأنّها هى جهة خوفهم ، والغرض فى بعثهم تحمّل ما سواها من المضارّ ، فإذا قال النبىّ صلّى الله عليه : « أنا خائف » ، فلم يُعلم جهةُ خوفه على التفصيل ، يجب أن يصرف خوفه بالظاهر إلى مضارّ الدّين دون الدنيا ، لأنّ أحوالهم وبعثهم (١) يقتضى ذلك ، فإذا كنّا لو اُعتدْنا من بعضنا الزّهد فى الدنيا وأسبابها ، والتعفّف عن منافعها ، والرغبة فى الآخرة ، والتفرّد (٢) بالعمل لها ، لكنّا نحمل على ما يظهر لنا من خوفه الّذى لا يعلم وجهه بعينه على ما هو أشبه وأليَقُ بحاله ، ونضيفه إلى الآخرة دون الدّنيا ، وإذا كان هذا واجباً فيمن ذكرناه فهو فى الأنبياء عليهم السلام أوْجَب (٣) .

***

قلت: ينبغى ألّا يقول المعترض: فيلحقه بذلك وصْمَة ، فيجعل الخوف من هذه الوصمة ، بل يقول : إنّه خاف ألّا يُفْلح بنو عمّه ولا يتعلّموا العلم ، لما رأى من الأمارات الدالّة على ذلك ، فالخوف على هذا الترتيب يتعلّق بأمر دينىّ لا دنيوىّ ، فسأل الله تعالى أن يرزقه ولدا يَرِث عنه علمَه ، أى يكون عالما بالدّينيات كما أنا عالم بها.. وهذا السؤال متعلّق بأمر دينىّ لا دنيوىّ . وعلى هذا يندفع ما ذكره المرتضى ؛ على أنّه لا يجوز إطلاقُ القول بأنّ الأنبياء بُعِثوا لتحمّل المضارّ الدنياويّة ، ولا القول : الغرض فى بعثهم تحمّل ما سوى المضارّ الدينية من المضارّ ؛ فإنّهم ما بعثوا لذلك ، ولا الغرض فى بعثهم ذلك ، وإنّما بعثوا لأمرٍ آخر . وقد تحصل المضارّ فى أداء الشرع ضِمْناً وتبعا، لا على أنّها الغرض، ولا داخلة

(١) الشافى : « بعثهم » . (٢) د : « والتعود » . (٣) الشافى ٢٣٢ .

فى الغرض ، وعلى أنّ قول المرتضى : لا يجوز أن يخاف زكريّا من تبديل الدّين وتغييره ، لأنّه محفوظ من الله ، فكيف يخاف ما لا يُخاف من مثله ؛ غير مستمرّ على أصوله ! لأنّ المكلّفين الآن قد حُرِموا بغيبة الإمام عنده ألطافا كثيرة الوصلة بالشرعيّات كالحدود وصلاة الجمعة والأعياد ، وهو وأصحابُه يقولون فى ذلك إنّ اللّوم على المكلّفين ؛ لأنّهم قد حرَموا أنفسهم اللّطف ، فهلّا جاز أنْ يخاف زكريّا من تبديل الدّين وتغييره ، وإفساد الأحكام الشرعيّة ! لأنّه إنّما يجب على الله تعالى التبليغ بالرسول إلى المكلّفين فإذا أفسدوا هم الأديان وبدّلوها لم يجب عليه أن يحفظها عليهم ، لأنّهم هم الّذين حرَموا أنفسَهم اللّطف .

واعلم أنّه قد قرئ : ﴿ وَإِنِّى خَفَّتِ الْمَوَالِىَ مِنْ وَرَائِى ﴾(١) ؛ وقيل : إنّها قراءة زين العابدين وابنِه محمّد بن علىّ الباقر عليهما السلام وعثمان بن عفّان . وفسّروه على وجهين :

أحدها أن يكون « ورائى » بمعنى خَلْفِى وبعدى ، أى قلّت الموالى وعَجَزوا عن إقامة الدين ، تقول : قد خفّ بنو فلان ، أىْ قلّ عددُهم ، فسأل زكريّا ربّه تقويتَهم ومظاهرتَهم بولىٍّ يرزقه .

وثانيهما أن يكون « ورائى » بمعنى قدّامى ، أى خَفّ الموالى وأنا حىّ ودَرَجوا وانقرضوا ، ولم يَبْقَ منهم من به اعتضاد ؛ وعلى هذه القراءة لا يبقى متعلّق بلفظة الخوف .

وقد فسّر قوم قوله : ﴿ وَإِنِّى خِفْتُ الْمَوَالِىَ ﴾ ، أى خفتُ الّذين يلُون الأمر من بعدى ، لأنّ المولَىٰ يستعمل فى الوالى ، وجمعه موالٍ ، أى خفت أن يلِىَ بعد موتى أمراء ورؤساء يُفسِدون شيئاً من الدّين ، فارزقنى ولداً تُنعِم عليه بالنبوّة والعلم ، كما أنعمت

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن ١١ : ٧٧ .

علىّ ، واجعل الدّين محفوظا [به][1] ؛ وهذا التأويل غير منكر ، وفيه أيضاً دفعٌ لكلام المرتضى .

* * *

قال المرتضى : وأمّا تعلّق صاحب الكتاب فى أنّ الميراث محمول على العلم بقوله : ﴿ وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ ؛ لأنّه لا يرث أموالَ آل يعقوب فى الحقيقة وإنّما يرث ذلك غيرُه ، فبعيد من الصواب ؛ لأنّ ولد زكريّا يرث بالقرابة من آل يعقوب أموالهم ، على أنّه لم يقل : « يرث آل يعقوب » ، بل قال : ﴿ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ ، تنبيهاً[2] بذلك على أنّه يرث[3] من كان أحقّ بميراثه فى القرابة[4] .

فأمّا طعنُه على مَنْ تأوّل الخبر بأنه عليه السلام لا يُورَث ، ما تركه للصدقة بقوله : إنّ أحداً من الصّحابة لم يتأوّله على هذا الوجه ، فهذا التأويل الّذى ذكرناه أحدُ ما قاله أصحابُنا فى هذا الخبر ، فمِن أين له إجماعُ الصحابة على خلافه ! وإنّ أحداً لم يتأوّله على هذا الوجه .

فإن قال : لو كان ذلك لظهر واشتهر ، ولوَقف أبو بكر عليه ، فقد مضى من الكلام فيما يمنع من الموافقة على هذا المعنى ما فيه كفاية .

* * *

قلت : لم يكن ذلك اليوم ـ أعنى يومَ حضور فاطمةَ عليها السلام ، وقولها لأبى بكر ما قالت ـ يوم تقيّة وخوف ، وكيف يكون يومَ تقيّه وهى تقول له ـ وهو الخليفة : يابن أبى قُحافة ، أترثُ أباكَ ولا أرِث أبى ! وتقول له أيضاً : لقد جئتَ شيئاً فَرِيّا ! فكان ينبغى إذا لم يُؤثر أمير المؤمنين عليه السلام أن يفسّر لأبى بكر معنى الخبر أن يُعلِم فاطمة عليها

(١) تكملة من د . (٢) د : « منبها » .
(٣) ا ، د : « يورث » . (٤) الشافى ٢٣٢ .

السلام تفسيره ، فتقول لأبي بكر : أنت غالط فيما ظننت ، إنما قال أبي : ما تركناه صدقة ، فإنّه لا يُورَث .

واعلم أنّ هذا التأويل كاد يكون مدفوعا بالضرورة ، لأنّ مَنْ نظر فى الأحاديث الّتى ذكرناها وما جرت عليه الحال يعلم بطلانه علما قطعيّا .

***

قال المرتضى : وقوله إنّه لا يكون إذ ذلك تخصيصٌ للأنبياء ولا مزيّة : ليس بصحيح ، وقد قيل فى الجواب عن هذا : إنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله يجوز أن يريد أنّ ما ننوى فيه الصدقة ، ونفرده لها من غير أن نخرجه عن أيدينا لا تناله ورثتُنا . وهذا تخصيص للأنبياء ومزيّة ظاهرة[1] .

قلت : هذه مخالفة لظاهر الكلام ، وإحالة اللّفظ[2] عن وضعه ، وبين قوله : ما ننوى فيه الصدقة ، وهو بعدُ فى ملكنا ليس بموروث ؛ وقوله : ما نخلّفه صدقة ليس بموروث فَرْق عظيم ، فلا يجوز أن يُراد أحد المعنيين باللّفظ المفيد للمعنى الآخر ، لأنّه إلباسٌ وتَعْمِية .

وأيضا ، فإنّ العلماء ذكروا خصائصَ الرّسول فى الشرعيّات عن أمّته وعدّدوها ، نحو حِلّ الزيادة فى النكاح على أربع ، ونحو النّكاح بلفظ الهبة على قولِ فِرْقةٍ من المسلمين ، ونحو تحريم أكل البَصل والثّوم عليه ، وإباحة شرب دمه ، وغير ذلك ، ولم يذكروا فى خصائصه أنّه إذا كان قد نوى أن يتصدّق بشىء فإنّه لا يناله ورثتُه ، لو قدّرنا أنّه يورث الأموال ، ولا الشيعة قبل المرتضى ذكرتْ ذلك ، ولا رأينا فى كتاب من كتبهم ، وهو مسبوق بإجماع طائفته عليه ، وإجماعهم عندهم حجّة .

***

قال المرتضى : فأمّا قوله : إن قوله عليه السلام : ما تركناه صدقة ، جملةٌ من الكلام

---

(١) الشافى ٢٣٢ .　　(٢) ا ، د : « اللفظ » .

مستقلّة بنفسها ، فصحيح إذا كانت لفظة «ما » مرفوعةً على الابتداء ، ولم تكن منصوبةً بوقوع الفعل عليها ، وكانت لفظة « صدقة » أيضا مرفوعة غير منصوبة ، وفى هذا وقع النّزاع ، فكيف يدّعى أنها جملة مستقلّة بنفسها ! وأقوى ما يمكن أن نذكره أن نقول : الرواية جاءت بلفظ « صدقةٌ » بالرفع ، وعلى ما تأوّلتموه لا تكون إلّا منصوبةً ، والجواب عن ذلك أنّا لا نسلّم الرواية بالرفع ، ولم تجر عادة الرّواة بضبط ما جرى هذا المجرَى من الإعراب ، والاشتباه يقع فى مثله ، فمن حقّق منهم وصرّح بالرواية بالرفع يجوز أن يكون اشتبه عليه فظنّها مرفوعةً ، وهى منصوبة[١] .

قلت : وهذا أيضا خلاف الظاهر ، وفتح الباب فيه يؤدّى إلى إفساد الاحتجاج بكثير من الأخبار .

* * *

قال : وأما حكايته عن أبى علىّ أنّ أبا بكر لم يدفع إلى أمير المؤمنين عليه السلام السّيف والبغلة والعمامة على جهة الإرث ؛ وقوله : كيف يجوز ذلك مع الخبر الّذى رواه ! وكيف خصّصه بذلك دون العمّ الّذى هو العصبَة ! فما نراه زاد على التعجّب ، ومما عجب منه عجبْنا ، ولم يثبت عصمة أبى بكر فينتفى عن أفعاله التناقض[٢] .

قلت : لا يشكّ أحد فى أن أبا بكر كان عاقلا ، وإن شكّ قوم فى ذلك فالعاقل فى يومٍ واحد لا يدفع فاطمةَ عليها السلام عن الإرْث ويقول : إنّ أباكِ قال لى : إننى لا أورّث ثم يورّث فى ذلك اليوم شخصا آخر من مال ذلك المتوفَّى الّذى حكى عنه أنه لا يورث وليس انتفاء هذا التناقض عن أفعاله موقوفا على العِصمة ، بل على العقل .

* * *

---

(١) الشافى ٢٣٢ . (٢) الشافى ٢٣٢ .

قال المرتضى : وقوله يجوز أن يكون النبيّ صلّى الله عليه وآله نَحَله إيّاه وتركه أبو بكر فى يده ـ لِماَ فى ذلك من تقوية الدّين ـ ونصدّق بدله ؛ وكلّ ما ذكره جائز ، إلّا أنه قد كان يجب أن يظهر أسباب النّحلة والشهادة بها ، والحجّة عليها ، ولم يظهر من ذلك شيء فنعرفه ، ومن العجائب أن تدّعى فاطمة فَدَكَ نِحلةً ، وتستشهد على قولها أميرَ المؤمنين عليه السلام وغيرَه ، فلا يُصغَى إلى قولها ، ويترك السيف والبغلة والعمامة فى يد أمير المؤمنين على سبيل النِّحْلة بغير بيّنة ظهرتْ ، ولا شهادةٍ قامت[1] !

قلت : لعلّ أبا بكر سمع الرّسول صلّى الله عليه وآله وهو ينحَلُ ذلك عليّا عليه السلام ، فلذلك لم يحتجْ إلى البيّنة والشّهادة ، فقد روى أنّه أعطاه خاتَمه وسيفَه فى مرضه وأبو بكر حاضر ، وأمّا البغلة فقد كان نَحَلَه إيّاها فى حجّة الوداع على ما وردتْ به الرواية ؛ وأما العمامة فسلَب الميّت ، وكذلك القميص والحُجْزة[2] والحذاء ، فالعادة أن يأخذ ذلك ولد الميّت ؛ ولا ينازَع فيه لأنّه خارج ، أو كالخارج عن التركة ، فلمّا غُسِلَ عليه السلام أَخذت ابنتُه ثيابَه الّتى مات فيها ، وهذه عادةُ الناس ، على أنّا قد ذكرنا فى الفصل الأوّل كيف دفع إليه آلةَ النبيّ صلّى الله عليه وآله وحذاءه ودابّته ، والظّاهر أنّه فعل ذلك اجتهادا لمصلحةٍ رآها ؛ وللإمام أن يفعل ذلك .

* * *

قال المرتضى : على أنه كان يجب على أبى بكر أن يبيّن ذلك ، ويذكر وجهه بعينه ، لمّا نازع العبّاس فيه ، فلا وقت لذكر الوجه فى ذلك أولى من هذا الوقت[3] .

قلت : لم ينازع العبّاس فى أيّام أبى بكر ، لا فى البغلة والعمامة ونحوها ، ولا فى غير

---

(١) الشافى ٢٣٢ ، ٢٣٣ .   (٢) حجزة الإزار : معقده .

(٣) الشافى ص ٢٣٣ .

ذلك ، وإنّما نازع عليّا فى أيّام عمر ، وقد ذكرنا كيفيّة المنازعة ، وفيماذا كانت .

***

قال المرتضى رضى الله عنه فى البُردة والقضيب : إن كان نِحلةً ، أو على الوجه الآخر ، يَجرِى مَجرَى ما ذكرناه فى وجوبِ الظهور والاستشهاد ، ولسنا نرى أصحابنا ـ يعنى المعتزلة ـ يطالبون أنفسَهم فى هذه المواضع بما يطالبوننا بمِثله إذا ادّعينا وجوهاً وأسبابا وعِللا مجوّزة ، لأنّهم لا يقنعون منّا بما يجوز ويمكن ؛ بل يوجبون فيما ندّعيه الظهورَ والاستشهاد ، وإذا كان هذا عليهم نسُوه أو تناسوه(١) .

قلت : أمّا القضيب فهو السيف الّذى نَحَله رسولُ الله صلى الله عليه وآله عليّا عليه السلام فى مرضه ، وليس بذى الفقَار ، بل هو سيفٌ آخر ؛ وأمّا البُردة فإنّه وهبها كعبَ ابن زهير ، ثم صار هذا السيف وهذه البُرْدة إلى الخلفاء ، بعد تنقّلات كثيرة مذكورة فى كتب التواريخ .

***

قال المرتضى : فأمّا قوله : فإنّ أزواج النبىّ صلّى الله عليه وآله إنّما طلبنَ الميراث لأنّهنّ لم يعرفنَ روايةَ أبى بكر للخبر ، وكذلك إنّما نازع علىّ عليه السلام بعدَ موت فاطمة عليها السلام فى الميراث لهذا الوجه ، فمن أقبح ما يقال فى هذا الباب وأبعدِه عن(٣) الصواب ! وكيف لا يعرف أمير المؤمنين عليه السلام روايةَ أبى بكر ، وبها دُفعتْ زوجتُه عن الميراث ! وهل مِثلُ ذلك المقام الّذى قامته ، وماروواه أبو بكر فى دفعها يخفى على من هو فى أقاصى البلاد ، فضلا عمّن هو فى المدينة حاضر شاهد يُراعِى(٢) الأخبار ، ويعنى بها ! إنّ هذا لخروج فى المكابرَة عن الحدّ ! وكيف يَخفَى على الأزواج ذلك حتّى يطلبنه مرّة بعد أخرى ، ويكون عثمان الرسول لهنّ ، والمطالب عنهنّ ، وعثمان على زعمهم أحدُ من شهد

---

(١) الشافى ص ٢٣٣ . (٢) ا والشافى : « يعنى بالأخبار ويراعيها » . (٣) د : « من » .

أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله لا يُورَث ؛ وقد سمعنَ على كلّ حال أنّ بنت النبيّ صلّى الله عليه وآله لم تورّث ماله ولابدّ أنْ يكنّ قد سألنَ عن السبب فى دفعها ، فذكر لهنّ الخبر، فكيف يقال : إنّهن لم يعرفنه (١) !

قلت : الصحيح أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم ينازع بعد موت فاطمةَ فى الميراث ، وإنما نازع فى الولاية لِفَدَك وغيرِها من صدقات رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، وجرى بينه وبين العبّاس فى ذلك ما هو مشهور ، وأمّا أزواجُ النبيّ صلى الله عليه وآله فما ثبت أنّهنّ نازعن فى ميراثه ، ولا أنّ عثمانَ كان المرسَل لهنّ ، والمطالب عنهنّ ، إلّا فى رواية شاذّة ، والأزواج لمّا عرفن أنّ فاطمة عليها السلام قد دُفِعتْ عن الميراث أمسكْن ، ولم يكنّ قد نازعن ، وإنّما اكتفَيْن بغيرهنّ ، وحديث فَدَك وحضور فاطمةَ عند أبى بكر كان بعد عشرةِ أيّام من وفاة رسول الله صلّى الله عليه وآله ، والصحيح أنّه لم ينطق أحدٌ بعد ذلك من النّاس من ذَكَر أو أُنثى بعد عودِ فاطمةَ عليها السلام من ذلك المجلس بكلمة واحدة فى الميراث .

* * *

قال المرتضى : فإن قيل : فإذا كان أبو بكر قد حكم بالخطأ فى دفع فاطمةَ عليها السلام عن الميراث ، واُحتجّ بخبرٍ لا حجّة فيه ، فما بال الأمّة أقرّته على هذا الحكم ، ولم تُنكِر عليه ، وفى رضاها وإمساكها دليلٌ على صوابه (٢) !

قلتُ : قد مضى أنّ تركَ النّكير لا يكون دليل الرضا إلّا فى هذا الموضع الّذى لا يكون له وجهٌ سوى الرّضا ، وذكرْنا فى ذلك قولاً شافيا ، وقد أجاب أبو عثمان الجاحظُ فى كتاب « العباسيّة » عن هذا السؤال جوابا حسنَ المعنى واللّفظ ، نحن

(١) الشافى ص ٢٣٣ .
(٢) الشافى ص ٢٣٣ .

نذكره على وجهه ، ليقابَلَ بينَه وبين كلامه فى العثمانيّة وغيرها [١] .

قلت : ما كناه المرتضى رحمه الله فى غير هـذا الموضع أصلا ، بل كان ساخطا عليه ، وكناه فى هذا الموضع ، واستجاد قوله ؛ لأنّه موافقٌ غرضَه ، فسبحان الله ، ما أشدّ حبّ الناس لعقائدهم !

قال : قال أبو عثمان : وقد زعم أناس أنّ الدليل على صدق خبرهما ـ يعنى أبا بكر وعمر ـ فى منع الميراث وبراءة ساحتِهما ، تركُ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم النكيرَ عليهما.

ثم قال : قد يقال لهم : لئن كان تركُ النكير دليلا على صدقهما، ليكونن تركُ النكير على المتظلمين والمحتجّين عليهما ، والمطالبين لها ، دليلًا على صدق دعواهم ، أو استحسان مقالتهم، ولا سيّما وقد طالت المناجاة ، وكثرت المراجعة والملاحاة ، وظهرت الشكيّة ، واشتدّت المَوْجدة . وقد بلغ ذلك من فاطمة عليها السّلام، حتّى إنّها أوصت ألّا يصلّىَ عليها أبو بكر، ولقد كانت قالت له حين أتته طالبةً بحقّها ، ومحتجّة لرَهْطها : مَنْ يرثك ياأبا بكر إذا متّ ؟ قال : أهلى ووَلَدى ؛ قالت : فما بالُنا لا نَرِث النبيّ صلّى الله عليه وآله ! فلمّا منعها ميراثَها وبخسها حقّها واعتلّ عليها وجلح [٢] فى أمرها ، وعاينت التهضّم [٣] ، وأيست من التورّع ، ووجدت نشوة الضّعف وقلّة الناصر ، قالت : والله لأدعونّ الله عليك ، قال : والله لأدعونّ الله لكِ ؛ قالت : والله لا أكلّمك أبدا ، قال : والله لا أهجُرُكِ أبدا . فإن يكن تركُ النّكير على أبى بكر دليلا على صواب منعها ؛ إنّ فى ترك النكير على فاطمة عليها السلام دليلًا على صواب طلبها ! وأدنى ما كان يجب عليهم فى ذلك تعريفها ما جهلتْ ، وتذكيرُها ما نسيَت ، وصرفُها عن الخطأ ورفع قدرها عن البذاء [٤] ، وأن تقول هُجْرا [٥] ، أو تجوّر عادلا ، أو تقطع واصلا ؛ فإذا لم تجدهم أنكروا على الخصمين جميعا فقد تكافأت

(١) الشافى ٢٣٣ . (٢) جلح فى أمرها : جاهر به وكاشفها .
(٣) التهضم : الظلم ، وفى ا : « المهضم » . (٤) البذاء : الفحش .
(٥) الهجر : القبيح من الكلام .

الأمور ، واستوت الأسباب ، والرجوع إلى أصل حكم الله من المواريث أولَى بنا وبكم ، وأوجبُ علينا وعليكم .

قال : فإن قالوا : كيف تظنّ به ظلمَها والتعدِّيَ عليها ! وكلَّما ازدادت عليه غلظةً ازداد لها ليناً ورقَّةً ، حيث تقول له : والله لا أكلِّمك أبداً ، فيقول : والله لا أهجركِ أبدا ، ثم تقول : والله لأدعوَنّ الله عليك ، فيقول : والله لأدعونّ الله لكِ ، ثم يحتمل منها هذا الكلام الغليظ ، والقول الشديد فى دار الخلافة ، وبحضرة قريش والصحابة ، مع حاجة الخلافة إلى البهاء والتَّنزيه ، وما يجب لها من الرفعة والهيبة ! ثمّ لم يمنعه ذلك أن قال معتذرا متقرّبا ، كلام المعظِّم لحقّها ، المُكبِر لمقامها ، والصائن لوجهها ، المتحنّن عليها : ما أحدٌ أعزّ علىّ منك فقرا ، ولا أحبّ إلىّ منك غنًى ، ولكنّى سمعتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : « إنَّا معاشرَ الأنبياء لا نُورَث ، ما تركناه فهو صدقة » !

قيل لهم : ليس ذلك بدليل على البراءة من الظّلم ، والسلامة من الجوْر ، وقد يبلغ من مكر الظالم ودهاء الماكر إذا كان أريبا ، وللخصومة معتادا ، أن يُظهر كلامَ المظلوم ، وذلّة المنتصف[1] وحَدَب[2] الوامق ، ومِقَة[3] المحقّ . وكيف جعلتم تركَ النكير حجّة قاطعة ، ودلالة واضحة ، وقد زعمتم أنّ عمر قال على منبره : مُتْعتان كانتا على عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : متعة النساء ، ومتعة الحجّ ، أنا أنهَى عنهما ، وأعاقبُ عليهما ؛ فما وجدتم أحدا أنكر قوله ، ولا استشنَع مخرج نهْيِه ، ولا خطّأه فى معناه ، ولا تعجّب منه ، ولا استفهمه ! وكيف تقضون بترك النكير وقد شهد عمرُ يومَ السَّقيفة وبعد ذلك أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلم قال : « الأئمّة من قريش » ؛ ثم قال فى شكاته : لو كان سالمٌ حيّا ما تخالجنى فيه شكّ ، حين[4] أظهر الشكّ فى استحقاق كلّ واحد من الستّة الّذين

---

(١) المنتصف : المستوفى حقه . (٢) وحدب الوامق ؛ أى وانثناء الناظر .
(٣) المقة : التودد والحب . (٤) الشافى : « حتى » .

جعلهم شُورَى ، وسالمٌ عبدٌ لامرأة من الأنصار ، وهى أعتقتْه ، وحازتْ ميراثَه ، ثمّ لم ينكر ذلك من قوله منكِر ، ولا قابل إنسان بين قوله ، ولا تعجّب منه ، وإنّما يكون تركُ النّكير على مَنْ لا رغبة ولا رهبة عنده دليلا على صدق قوله ، وصوابِ عمله ، فأمّا ترك النّكير على من يملك الضّعة والرِّفعة ، والأمر والنهى ، والقتل والاستحياء ، والحبس والإطلاق ، فليس بحجّة تَشفِى ، ولا دلالة تضىء .

قال : وقال آخرون : بل الدليل على صدق قولها ، وصواب عملهما ، إمساكُ الصحابة عن خَلْعهما ، والخروج عليهما ، وهم الّذين وَثَبوا على عثمان فى أيسر من جَحْد التنزيل ، وردّ النصوص[1] ؛ ولو كان كما تقولون وما تصفون ، ما كان سبيل الأمّة فيهما إلا كسبيلهم فيه ، وعثمان كان أعزّ نفرا ، وأشرف رهطا ، وأكثر عددا وثروة ، وأقوى عُدّة .

قلنا : إنّهما لم يجحدا التنزيل ، ولم ينكرا النصوص ، ولكنّهما بعد إقرارها بحكم الميراث وما عليه الظاهر من الشريعة ادّعيا روايةً ، وتحدّثا بحديث لم يكن مُحالا كونه ، ولا ممتنِعا فى حجج العقول مجيئُه ، وشهد لهما عليه من علّته مثل علّتهما فيه . ولعلّ بعضَهم كان يرى تصديق الرجل إذا كان عَدْلا فى رَهْطه ، مأمونا فى ظاهره ، ولم يكن قبلَ ذلك عرفه بفَجْرة[2] ، ولا جرتْ عليه غَدْرة ، فيكون تصديقه له على جهة حُسن الظنّ ، وتعديل الشاهد ؛ ولأنّه لم يكن كثيرٌ منهم يعرف حقائقَ الحجج ، والّذى يقطع بشهادته على الغيب ، وكان ذلك شبهة على أكثرهم ، فلذلك قلّ النّكير وتواكل الناس ، فاشتبه الأمر ، فصار لا يُتخلّص إلى معرفة حقّ ذلك من باطله إلّا العالمُ المتقدّم ، أو المؤيّد المرشد ، ولأنّه لم يكن لعثمانَ فى صدور العوامّ وقلوب السَّفِلة والطَّغام ما كان لهما من المحبّة والهيبة ، ولأنّهما كانا أقلّ استئثارا بالفىء ، وتفضّلا بمالِ الله منه ، ومِن شأن الناس إهمال السلطان ما وفّر عليهم أموالَهم ، ولم يستأثر بخراجهم ، ولم يعطّل ثغورَهم . ولأن الّذى صنع أبو بكر

(١) د : « المنصوص » . (٢) الفجرة : الانبعاث فى المعاصى والفجور .

من منع العِتْرة حقَّها ، والعمومة ميراثَها ، قد كان موافقا لجِلّة قريش وكبراء العرب ، ولأن عثمانَ أيضا كان مضعوفاً فى نفسه ، مستخفًّا بقدره ، لا يمنع ضَيْما ، ولا يَقمَع عدوًّا ؛ ولقد وثب ناس على عثمانَ بالشتم والقذف والتشنيع والنكير ، لأمور لو أتى أضعافَها وبلغ أقصاها لما اجترءوا على اغتيابه ، فضلا على مبادأته والإغراء به ومواجهته ، كما أغلظ عُيينةُ بن حِصْن له فقال له : أما إنّه لو كان عمر لقمَعَك ومَنَعك ؛ فقال عُيينة : إنّ عمر كان خيراً لى منك ، أرهبنى فاتّقانى .

ثم قال : والعجب أنّا وجدنا جميع من خالَفنَا فى الميراث على اختلافهم فى التشبيه والقدَر والوعيد يردّ كلّ صنف منهم من أحاديث مخالفيه وخصومه ما هو أقرب إسنادا ، وأصحّ رجالا ، وأحسن اتّصالا ؛ حتّى إذا صاروا إلى القول فى ميراث النبيّ صلى الله عليه وسلّم نسخوا الكتاب ، وخصّوا الخبر العامّ بما لا يدانى بعضَ ما ردّوه ، وأكذبوا قائليه، وذلك أنّ كلّ إنسان منهم إنما يجرى إلى هواه ، ويصدق ما وافق رضاه .

هذا آخر كلام الجاحظ(١) .

* * *

ثم قال المرتضى رضى الله عنه : فإن قيل : ليس ما عارض به الجاحظ منَ الاستدلال بترك النكير ، وقوله : كما لم ينكروا على أبى بكر ، فلم ينكروا أيضا على فاطمة عليها السلام ولا على غيرها من الطالبين بالإرث ، كالأزواج وغيرهنّ معارَضة صحيحة ، وذلك أن نكيرَ أبى بكر لذلك ، ودفعها والاحتجاج عليها ، ويكفيهم ويغنيهم عن تكلّف نكير آخر ، ولم ينكر على أبى بكر ما رواه منكر فيستغنوا بإنكاره(٢) .

قلنا : أوّل ما يُبطل هذا السؤال أنّ أبا بكر لم ينكر عليها ما أقامت عليه بعد

---

(١) نقله فى الشافى ٢٣٣ ، ٢٣٤ .

أُحتجاجها من التظلّم والتألّم، والتعنيف والتبكيت ، وقولها على ما رُوِى : والله لأدعونّ الله عليك ، ولا أكلمك أبدا ، وما جرى هذا المجرى ؛ فقد كان يجب أن ينكِرَه غيره ، ومن المنكر الغضب على المنصف . وبعد ، فإن كان إنكار أبى بكر مقنعا ومغنيا عن إنكار غيره من المسلمين فإنكار فاطمة حكمه ، ومقامها على التظلّم منه . مغنٍ عن نكير غيرها ؛ وهذا واضح[١] .

* * *

الفصل الثالث

فى أنّ فَدَكَ هل صحّ كونها نِحْلَةَ رسول الله صلى الله عليه وآله لفاطمة عليها السلام أم لا ؟

نذكر فى هذا الفصل ما حكاه المرتضى عن قاضى القضاة فى " المغنى " ، وما اُعترض به عليه ، ثم نذكر ما عندنا فى ذلك .

قال المرتضى حاكياً عن قاضى القضاة : وممّا عظمت الشيعة القول فى أمر فَدَكَ ، قالوا: وقد رَوَى أبو سعيد الُخدْرىّ أنه لما أنزلتْ : ﴿ وآتِ ذا القرْبى حقه ﴾[٢] ، أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمة عليها السلام فَدَكَ ، ثم فعل عمر بن عبد العزيز مثل ذلك ، فردّها على ولدها . قالوا : ولا شكّ أن أبا بكر أغضبها ؛ إن لم يصحّ كلّ الذى رُوِىَ فى هذا الباب، وقد كان الأجمل أن يمنعهم التكرّم ممّا ارتكبوا منها فضلا عن الدّين ، ثم ذكروا أنها استشهدتْ أميرَ المؤمنين عليه السلام وأمّ أيمنَ ، فلم يقبل شهادتهما ، هذا مع تركه أزواج النبىّ صلى الله عليه وآله فى حجرهنّ ، ولم يجعلها صدقةً ، وصدقهنّ فى ذلك أنّ ذلك لهنّ ولم يصدّقها .

---

(١) الشافى ٢٣٤ .

(٢) سورة الإسراء ٢٦ .

قال : والجواب عن ذلك أنّ أكثر ما يروُون فى هذا الباب غيرُ صحيح ؛ ولسنا ننكر صحّة ما روى من ادّعائها فَدَكَ ، فأمّا أنّها كانت فى يدها فغير مسلّم ، بل إن كانت فى يدها لكان الظاهر أنها لها ، فإذا كانت فى جملة التركة فالظاهر أنها ميراث ، وإذا كان كذلك فخبر جائز لأبى بكر قبولُ دَعْواها ، لأنه لاخلافَ فى أنّ العمل على الدَّعْوى لا يجوز ، وإنما يعمل على مثل ذلك إذا علمت صحّته بمشاهدة ، أو ماجرى مجراها ، أو حصلت بيّنة أو إقرار ، ثمّ إنّ البيّنة لابدّ منها ، وإنّ أمير المؤمنين عليه السلام لما خاصمه اليهودىّ حاكمه ، وأنّ أمّ سلمة التى يطبق على فضلها لو ادّعت نَحْلًا ما قُبِلَتْ دعواها .

ثم قال : ولو كان أمير المؤمنين عليه السلام هو الوالى ، ولم يعلم صحّة هذه الدعوى ، ما الذى كان يجب أن يعمل ؟ فإن قلتم : يقبل الدعوى ، فالشرع بخلاف ذلك ، وإن قلتم : يلتمس البيّنة ، فهو الذى فعله أبو بكر .

ثم قال : وأما قول أبى بكر : رجل مع الرجل ، وامرأة مع المرأة ، فهو الذى يوجبه الدّين ، ولم يثبت أنّ الشاهد فى ذلك كان أمير المؤمنين عليه السلام ، بل الرواية المنقولة أنه شهد لها مولى لرسول الله صلى الله عليه وآله مع أمّ أيمن .

قال : وليس لأحد أن يقول : فلماذا ادّعت ولا بيّنةَ معها ؟ لأنه لا يمتنع أن تجوّز أن يحكم أبو بكر بالشاهد واليمين ، أو تجوّز عند شهادة من شهد لها أن تذكر غيره فيشهد ، وهذا هو الموجب على ملتمس الحقّ ، ولا عيب عليها فى ذلك ، ولا على أبى بكر فى التماس البيّنة ، وإن لم يحكم لها لما لم يتمّ ولم يكن لها خصم ، لأنّ التركة صدقة على ما ذكرنا ، وكان لا يمكن أن يعوّل فى ذلك على يمين أو نُكول ، ولم يكن فى الأمر إلا مافعله . قال : وقد أنكر أبو علىّ ما قاله السائل من أنّها لما رُدّت فى دعوى النِّحلة ادّعته إرْثا ، وقال : بل كان طلبت الإرث قبل ذلك ، فلما سمعت منه الخبر كفّت وادّعت النِّحلة (١) .

---

(١) الشافى ٢٣٥ .

قال : فأما فِعْل عمر بن عبد العزيز فلم يثبت أنه ردّه على سبيل النِّحلة ، بل عمل فى ذلك ماعمله عمرُ بن الخطاب بأنْ أقرّه فى يد أمير المؤمنين عليه السلام ليصرف غلّاتها فى المواضع التى كان يجعلها رسول الله صلى الله عليه وآله فيه ، فقام بذلك مدّة ، ثم ردّها إلى عمر فى آخر سنته ، وكذلك فعل عمر بن عبد العزيز ؛ ولو ثبت أنه فعل بخلاف مافعل السَّلف لكان هو المحجوجَ بفعلهم وقولهم . وأحدُ ما يقوّى ماذكرناه أنّ الأمرَ لما انتهى إلى أمير المؤمنين عليه السلام ترك فَدَكَ على ما كان ، ولم يجعله ميراثا لولد فاطمة ، وهذا يبيّن أنّ الشاهد كان غيره ، لأنه لو كان هو الشاهد لكان الأقربَ أن يحكم بعلمه ؛ على أنّ الناس اختلفوا فى الهِبَة إذا لم تقبض ، فعند بعضهم تستَحقّ بالعقد ؛ وعند بعضهم أنها إذا لم تقبَض يصير وجودها كعدمها ، فلا يمتنع من هذا الوجه أن يمتنع أميرُ المؤمنين عليه السلام من ردّها ، وإن صحّ عنده عقد الهبة ، وهذا هو الظاهر ، لأنّ التسليم لو كان وقع لظهر أنه كان فى يدها ، ولكان ذلك كافيا فى الاستحقاق ، فأمّا حُجَر أزواج النبىّ صلى الله عليه وآله فإنما تركتْ فى أيديهنّ لأنها كانت لهنّ ، ونصّ الكتاب يشهد بذلك ، وقوله : ﴿ وقَرْن فى بيوتكن ﴾(١) . ورُوى فى الأخبار أنّ النبىّ صلى الله عليه وآله قسم ما كان له من الحُجَر على نسائه وبناته . ويبيّن صحة ذلك أنه لو كان ميراثا أو صدقة لكان أميرُ المؤمنين عليه السلام لمّا أفضى الأمرُ إليه يغيّره.

قال : وليس لأحد أن يقول : إنما لم يغيّر ذلك لأنّ المُلْك قد صار له ، فتبرّع به ، وذلك أنّ الذى يحصل له ليس إلا ربع ميراث فاطمة عليها السلام ، وهو الثُمنُ من ميراث رسول صلّى الله عليه وآله ، فقد كان يجب أن ينتصف لأولاد العباس وأولاد فاطمة منهن فى باب الحجَر ، ويأخذ هذا الحقّ منهنّ ، فتركه ذلك يدلّ على صحّة ما قلناه ، وليس يمكنهم بعد ذلك إلا التعلق بالتقيّة(٢) ، وقد سبق الكلام فيها .

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣ . (٢) التقية : الحيطة .

قال : ومما يَذْكرونه أن فاطمة عليهـا السلام لغضبها على أبى بكر وعمرَ أوصت ألّا يصلّيا عليها ، وأن تُدْفن سرّا منهما ، فدفنت ليلا ، وهـذا كما ادّعوا رواية رَوَوْها عن جعفر بن محمد عليهما السلام وغيره ، أنّ عمر ضرَب فاطمة عليها السلام بالسوط ، وضرب الزبير بالسيف ، وأن عمر قصد منزلها وفيه علىّ عليه السلام والزبير والمقداد وجماعة ممّن تخلّف عن أبى بكر وهم مجتمعون هناك ، فقال لها: ما أحدٌ بعدَ أبيك أحبّ إلينا منك ، وايمُ الله لئن اجتمع هؤلاء النفر عندك لنحرقن عليهم ! فمنعت القومَ من الاجتماع .

قال : ونحن لا نصدّق هذه الروايات ولا نجوّزها . وأمّا أمر الصلاة فقد رُوى أنّ أبا بكر هو الذى صلّى على فاطمة عليها السلام ، وكبّر عليها أربعاً ، وهذا أحد ما استدلّ به كثير من الفقهاء فى التـكبير على الميت ، ولا يصحّ أيضا أنها دُفنت ليلا ، وإن صَحّ ذلك فقد دُفن رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ليلا ، ودَفَن عمرُ ابنه ليلا ، وقد كان أصحابُ رسول الله صلّى الله عليه وآله يدفنون بالنهار ويدفنون بالليل ، فما فى هــذا مما يطعن به ، بل الأقرب فى النّساء أنّ دفنهنّ ليلا أستَر وأولَى بالسنة .

ثم حكَى عن أبى علىّ تـكذيبَ ما رُوِى من الضرب بالسوط ؛ قال : والمروىّ عن جعفر بن محمد عليــه السلام أنه كان يتولّاهما ، ويأتى القبر فيسلم عليهما مع تسليمه على رسول الله صلّى الله عليه وآله ، رَوَى ذلك عباد بن صُهيب ، وشعبة بن الحجاج ، ومهدىّ ابن هلال ، والدَّراوَرْدىّ ، وغيرهم ، وقد روى عن أبيه محمد بن علىّ عليــه السلام وعن علىّ بن الحسين مثل ذلك ، فـكيف يصحّ ما ادّعَوْه ! وهل هذه الرواية إلا كروايتهم على أن علىّ بن أبى طالب عليــه السلام هو إسرافيل والحسن ميكائيل والحسين جبرائيل وفاطمة ملك الموت ، وآمنة أمّ النبىّ صلى الله عليه وآله ليلة القدر ! فإن صدّقوا ذلك أيضاً قيل لهم : فعمر بنُ الخطاب كيف يقدر على ضرب ملك الموت ! وإن قالوا : لا نصدّق ذلك ، فقد جوّزوا ردّ هذه الروايات ، وصحّ أنه لا يجوز التعويل على هــذا الخبر

وإنما يتعلق بذلك مَنْ غرَضه الإلحاد كالورّاق ، وابن الراوندىّ ، لأنّ غرضهم القدْح فى الإسلام .

ويُحكى عن أبى علىّ أنه قال : ولم صار غضبُها إن ثبت ، كأنه غضب رسول الله صلى الله عليه وآله من حيث قال : « فمن أغضبها فقد أغضبنى » ، أولى من أن يقال : فمن أغضب أبا بكر وعمر فقد نافق وفارق الدين ؛ لأنه رُوِى عنه عليه السلام قال : « حبّ أبى بكر وعمر إيمان ، وبغضُهما نفاق »! ومن يورد مثل هذا فقصده الطعن فى الإسلام ، وأن يتوهّم الناس أنّ أصحاب النبىّ صلى الله عليه وآله نافقوا مع مشاهدة الأعلام ليُضعفوا دلالة العلم فى النفوس .

قال : وأما حديث الإحراق فلو صحّ لم يكن طعناً على عمر ، لأن له أن يهدّد من امتنع من المبايعة إرادة للخلاف على المسلمين لكنه غير ثابت . انتهى كلام قاضى القضاة [١] .

قال المرتضى : نحن نبتدئ فندلّ على أنّ فاطمة عليها السلام ما ادّعت من نحل فدَك إلا ما كانت مصيبة فيه ، وأن مانعها ومطالبها بالبيّنة متعنّت ، عادلٌ عن الصواب ، لأنها لا تحتاج إلى شهادة وبيّنة ، ثم نعطف على ما ذكره على التفصيل ، فنتكلم عليه .

أما الذى يدلّ على ما ذكرناه فهو أنها كانت معصومة من الغلط ، مأمونا منها فعلُ القبيح ، ومَن هذه صفته لا يحتاج فيما يدعيه إلى شهادة وبيّنة .

فإن قيل : دلّوا على الأمرين ، قلنا : بيان الأوّل قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [٢] والآية تتناول جماعةً منهم فاطمة

---

(١) نقله المرتضى فى الشافى ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ . (٢) سورة الأحزاب ٣٣ .

عليها السلام بما تواترتْ الأخبار فى ذلك ، والإرادة هاهنا دلالة على وقوع الفعل للمراد .
وأيضاً فيدلّ على ذلك قولُه عليه السلام : « فاطمة بَضْعةٌ منّى ، مَنْ آذاها فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله عزّ وجلّ » ، وهذا يدلّ على عصمتها ؛ لأنّها لو كانت ممّن تقارف الذنوب لم يكن مَنْ يؤذيها مؤذيا له على كلّ حال ، بل كان متى فعل المستحقّ من ذمّها أو إقامة الحدّ عليها ، إن كان الفعل يقتضيه سارًّا له ومطيعا ، على أنّا لا نحتاج أن ننبّه هذا الموضع على الدّلالة على عصمتها ، بل يكفى فى هذا الموضع العلم بصدقها فيما ادّعته ، وهذا لا خلاف فيه بين المسلمين ، لأنّ أحداً لا يشكّ أنّها لم تدّعِ ما ادّعته كاذبة ، وليس بعد ألّا تكون كاذبة إلّا أنْ تكون صادقة ؛ وإنّما اختلفوا فى هل يجب مع العلم بصدقها تسليم ما ادّعته بغير بيّنة أم لا يجب ذلك، قال : الّذى يدلّ على الفصل الثانى أنّ البيّنة إنّما تراد ليغلب فى الظنّ صدقُ المدّعى ، ألا ترى أنّ العدالة معتبرةٌ فى الشهادات لما كانت مؤثّرة فى غَلَبة الظنّ لما ذكرناه ، ولهذا جاز أن يَحكم الحاكم بعلمه من غير شهادة لأنّ علمه أقوى من الشهادة ، ولهذا كان الإقرار أقوى من البيّنة ، من حيث كان أغلبَ فى تأثير غلبة الظنّ ، وإذا قدّم الإقرار على الشهادة لقوّة الظنّ عنده ، فأَوْلى أن يُقدّم العلم على الجميع ، وإذا لم يحتجْ مع الإقرار إلى شهادة لسقوط حكم الضعيف مع القوىّ لا يحتاج أيضا مع العلم إلى ما يؤثّر الظنّ من البيّنات والشّهادات .

والّذى يدلّ على صحّة ما ذكرناه أيضا أنّه لا خلاف بين أهل النقل فى أنّ أعرابيّا نازع النبيّ صلى الله عليه وآله فى ناقة ، فقال عليه السلام : « هذه لى ؛ وقد خرجتُ إليك من ثمنها »، فقال الأعرابىّ : من يَشهدلكبذلك ؟ فقال خزيمة بن ثابت : أنا أشهدبذلك ؛ فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله : « من أين علمتَ وما حضرتَ ذلك ؟ » قال : لا ، ولكن علمتُ ذلك من حيث علمت أنّك رسولُ الله ، فقال : «قد أجزتُ شهادَتك ، وجعلتُها شهادتين» ؛ فسُمّىَ ذا الشهادتين .

وهذه القصّة شبيهة لِقصّة فاطمةَ عليها السلام ، لأنّ خزَيمة اكتفى فى العلم بأن النّاقة له صلّى الله عليه وآله ، وشهد بذلك من حيث علم أنّه رسول الله صلّى الله عليه وآله، ولا يقول إلّا حقّا ، وأمضى النبيّ صلّى الله عليه وآله ذلك له من حيث لم يحضر الابتياع وتسليم الثمن ، فقد كان يجب على مَنْ علم أنّ فاطمة عليها السلام لا تقول إلّا حقا ألّا يستظهر عليها بطلب شهادة أو بيّنة ؛ هذا وقد رُوِى أنّ أبا بكر لمّا شهد أمير المؤمنين عليه السلام كتب بتسليم[1] فَدَك إليها ، فاعترض عمر قضيّته ، وخرّق ما كتبه .

روى إبراهيم بن السعيد الثقفيّ ، عن إبراهيم بن ميمون، قال : حدّثنا عيسى بن عبد الله ابن محمّد بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، عن أبيه ، عن جدّه عن علىّ عليه السلام، قال : جاءت فاطمة عليها السلام إلى أبى بكر وقالت : إنّ أبى أعطانى فَدَك ، وعلىٌّ وأمّ أيمَنَ يشهدان ، فقال : ما كنتِ لتقولى على أبيك إلّا الحقّ قد أعطيتُكِها ، ودعا بصحيفة من أَدَم فكتب لها فيها ؛ فخرجتْ فلقيتْ عمرَ ، فقال : من أينْ جئت يا فاطمة ؟ قالت : جئتُ من عند أبى بكر ، أخبرتُه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم أعطانى فَدَك ، وأنّ عليّا وأمّ أيمن يشهدان لى بذلك ، فأعطانيها ، وكتب لى[2] بها ؛ فأخذ عمر منها الكتاب، ثم رجع إلى أبى بكر، فقال : أعطيتَ فاطمةَ فَدَك ، وكتبتَ بها لها ؟ قال : نعم، فقال : إنّ عليّا يجرّ إلى نفسه ، وأمّ أيمَن امرأة ؛ وبَصَق فى الكتاب فمحاه وخَرّقه .

وقد رُوِى هذا المعنى من طرق مختلفة ، على وجوه مختلفة، فمن أراد الوقوفَ عليها، واستقصاءها أخذها منْ مواضعها .

وليس لهم أن يقولوا : إنّها أخبار آحاد ، لأنّها وإن كانت كذلك ، فأقلّ أحوالها أنْ توجب الظنّ ، وتَمنَع من القطع على خلاف معناها . وليس لهم أن يقولوا : كيف يسلّم إليها

---

(١) ب : « يسلم » ؛ والصواب ماأثبته من ا ، د والشافى . (٢) الشافى : « وكتبها لى » .

فَدَكَ وهو يَرْوِى عن الرّسول أن ما خلّفه صدَقة ، وذلك لأنّه لا تنافى بين الأمرين ، لأنّه إنما سلّمها على ما وردتْ به الرواية على سبيل النّحْل (١) ، فلمّا وقعتْ المطالبةُ بالميراث روى الخبر فى معنى الميراث ، فلا اُختلاف بين الأمرين .

فأمّا إنكار صاحب الكتاب لكون فَدَكَ فى يدها ، فما رأيناه اُعتَمَد فى إنكار ذلك على حجّة ، بل قال : لو كان ذلك فى يدها لكان الظّاهر أنّها لها (٢) . والأمر على ما قال ، فمن أين أنّه لم يخرج عن يدها على وجه يقتضى الظاهرُ خلافَه ! وقد رُوِى من طرقٍ مختلفة غير طريق أبى سعيد الّذى ذكره صاحبُ الكتاب أنّه لمّا نزل قولُه تعالى : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّه ﴾ (٣) دعا النبيّ صلى الله عليه وآله فاطمةَ عليها السلام فأعطاها فَدَكَ ! وإذا كان ذلك مرويّا فلا معنى لدفعه بغير حجّة .

وقوله : لا خلاف أنّ العمل على الدّعوى لا يجوز ، صحيح ، وقد بيّنّا أنّ قولها كان معلوما صحّته ، وإنّما قوله : إنما يعمل على ذلك متى علم صحّته بشهادة أو ما يجرى مجراها ، أو حصلت بيّنة أو إقرار ، فيقال له : إمّا علمتَ بمشاهدة فلم يكن هناك ، وإمّا بيّنة فقد كانت على الحقيقة ، لأنّ شهادة أمير المؤمنين عليه السلام من أكبر البيّنات وأعدلِها ، ولكن على مذهبك أنه لم تكن هناك بيّنة ، فمن أين زعمتَ أنّه لم يكن هناك عِلْم ! وإن لم يكن عن مشاهدة فقد أدخلتَ ذلك فى جملة الأقسام .

فإن قال : لأنّ قولها بمجرّده لا يكون جهةً للعلم ؛ قيل له : لم قلت ذلك ؟ أو ليس قد دلّلنا على أنّها معصومة ، وأن الخطأ مأمونٌ عليها ! ثمّ لو لم يكن كذلك لكان قولُها فى تلك القضيّة معلوما صحّته على كلّ حال ، لأنّها لو لم تكن مصيبة لكانت مبطلة عاصية فيما ادّعته ، إذ الشّبهة لا تدخل فى مثله ؛ وقد أجمعت الأمّة على أنّها لم يظهر منها بعد

---

(١) ا ، د : « النحلة » . (٢) ا والشافى : « أنه » . (٣) سورة الإسراء ٢٦ .

رسول الله صلى الله عليـــه وآله معصية بلا شكّ وارتياب ؛ بل أجمعوا على أنّها لم تدّع إلّا الصّحيح ، وإن اختلفوا ؛ فمن قائل يقول : مانِعُها مخطئ ، وآخر يقول : هو أيضا مصيب، لفقد البيّنة وإن علم صدقها .

وأمّا قوله : إنّه لو حاكم غيرَه لطولب بالبيّنة ، فقد تقدّم فى هذا المعنى ما يكفى ، وقصّة خزيمة بن ثابت وقبول شهادته تُبطل هذا الـكلام .

وأمّا قوله: إنّ أميرالمؤمنين عليه السلام حاكَمَ يهوديّا على الوجه الواجب فىسائر الناس، فقد رُوِى ذلك ، إلّا أنّ أمير المؤمنين (١ لم يفعـل من ذلك ما كان يجب عليه أن يفعله ١) ، وإنّمـا تبرّع به ، واستظهر بإقامة الحجّة فيه ؛ وقد أخطأ من طالبه ببيّنة كائنا منْ كان . فأمّا اعتراضه بأمّ سَلَمة فلم يَثبُت من عصمتها ما ثَبَت من عصمة فاطمةَ عليها السلام ، فلذلك احتاجتْ فى دعواها إلى بيّنة . فأمّا إنـكاره وادّعاؤه أنّـه لم يثبت أنّ الشاهد فى ذلك كان أمير المؤمنين ، فلم يزد فى ذلك إلّا مجرد [الدعوى و] (٢) الإنـكار ، والأخبـار مستفيضة بأنـه عليه السلام شهد لهـا ، فدفْع ذلك بالزّيغ (٣) لا يُغنى شيئاً ! وقوله : إنّ الشاهد لها مولًى لرسول الله صلّى الله عليه وآله هو المنـكَر الّذى ليس بمعروف .

وأما قوله : إنّها جوّزت أن يحكم أبو بكر بالشاهد واليمين فَطريف ؛ مع قوله: فيما بعد: « إن التّركة صدقة ، ولا خصم فيها » ، فتدخل اليمين فى مثلها ؛ أفترى أنّ فاطمة لم تـكن تعلم من الشريعةهذا المقدار الذى نبّهصاحب الـكتاب عليه ! ولولم تعلمه ما كان أمير المؤمنين عليه السلام وهو أعلم الناس بالشّريعة يوافقُها عليه .

وقوله : إنّها جوّزت عند شهادة مَنْ شهدلها أن يتذكّر غيرهم فيشهد باطل ، لأنّ مِثلَها لا يتعرّض للظِّنّة والتهمة ، ويعرّض قوله للردّ ، وقد كان يجب أن تعلم مَنْ يشهد لهـا

(١ ــ ١) الشافى : « لم يفعل ذلك وهو واجب عليه » .

(٢) من الشافى .   (٣) الشافى : « باقتراح » .

ممّن لا يشهد حتّى تكون دعواها على الوجه الّذى يجب معه القبول والإمضاء ، ومَنْ هو دونها فى الرتبة والجلالة والصّيانة من أفناء الناس لا يتعرّض لمِثل هذه الخطّة ويتورّطها ، للتجويز الّذى لا أصلَ له ولا أمارة عليه .

فأمّا إنكار أبى علىّ لأن يكون النَّحْل قبل ادّعاء الميراث وعكسه الأمر فيه ، فأوّل مافيه أنّا لا نعرف له غرَضا صحيحا فى إنكار ذلك ، لأنّ كون أحد الأمرين قبل الآخر لا يصحّح له مذهبا؛ فلا يُفسِد على مخالِفه مذهبا .

ثم إنّ الأمر فى أنّ الكلام فى النَّحْل كان المتقدّم ظاهرا ، والروايات كلّها به واردة ؛ وكيف يجوز أن تبتدئ بطلب الميراث فيما تدّعيه بعينه نَحْلا ! أوَ ليس هذا يوجب أن تكون قد طالبتْ بحقّها من وجه لاتستحقّه منه مع الاختيار ! وكيف يجوز ذلك والميراثُ يَشرَكها فيه غيرها ، والنَّحْل تنفرد به ! ولا ينقلب مِثلُ ذلك علينا من حيث طالبتْ بالميراث بعدالنَّحْل ؛ لأنها فى الابتداء طالبتْ بالنَّحْل ، وهو الوجه الّذى تستحقّ فَدَكَ منه، فلمّا دُفعتْ عنه طالبت ضرورةً بالميراث ؛ لأن للمدفوع عن حقّه أن يتوصّل إلى تناوله بكلّ وجه وسبب ، وهذا بخلاف قول أبى علىّ ، لأنه أضاف إليها ادّعاء الحقّ من وجه لا تستحقّه منه ، وهى مختارة .

وأما إنكاره أن يكون عمرُ بنُ عبد العزيز ردَّ فَدَكَ على وجه النَّحْل ، وادّعاؤه أنه فعل فى ذلك ما فعله عمر بن الخطاب من إقرارها فى يد أمير المؤمنين عليه السلام ، ليصرف غلاتها فى وجوهها ، فأوّل مافيه أنّا لا نحتجّ عليه بفعل عمر بن عبد العزيز على أىّ وجه وقع ، لأنّ فعله ليس بحجّة ، ولو أردنا الاحتجاج بهذا الجنس من الحجج لذكرنا فعل المأمون ، فإنه ردّ فَدَكَ بعد أن جلس مجلسا مشهورا حكم فيه بين خَصْمين نصّبهما ، أحدهما لفاطمة ، والآخر لأبى بكر ، وردّها بعد قيام الحجّة ووضوح الأمر .

ومع ذلك فإنه قد أنكر من فعل عمر بن عبد العزيز ما هو معروف مشهور بلا خلاف بين أهل النقل فيه ، وقد رَوَى محمد بن زكريا الغَلابيّ عن شيوخه ، عن أبي المقدام هشام ابن زياد مولى آل عثمان ، قال : لما ولِّي عمرُ بن عبد العزيز ردَّ فَدَكَ على ولد فاطمة ، وكتب إلى واليه على المدينة أبي بكر بن عمرو بن حَزْم يأمره بذلك ، فكتب إليه : إنّ فاطمة قد ولدتْ في آل عثمان ، وآل فلان وفلان ، فعلى من أردّ منهم ؟ فكتب إليه : أما بعد ، فإني لو كتبت إليك آمرُك أن تذبح شاةً لكتبتَ إليّ : أجمّاء أم قَرْناء[1] ؟ أو كتبت إليك أن تذبح بقرة لسألتني: ما لونُها ؟ فإذا ورد عليك كتابي هذا فاقسمها في ولد فاطمة عليها السلام من عليّ عليه السلام ؛ والسلام .

قال أبو المقدام : فنقمت بنو أميّة ذلك على عمر بن عبد العزيز وعاتبوه فيه ، وقالوا له : هجّنتَ فعل الشيخين ، وخرج إليه عمر بن قيس في جماعة من أهل الكوفة ، فلما عاتبوه على فعله قال : إنكم جهلتم وعلمتُ ، ونسيتم وذكرتُ ، إن أبا بكر محمد بن عمرو ابن حزم حدّثني عن أبيه عن جده أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال : « فاطمة بَضعةٌ منّي يسخطها ما يسخطني ، ويُرضيني ما أرضاها » ، وإن فَدَكَ كان صافية على عهد أبي بكر وعمر ، ثمّ صار أمرها إلى مروان ، فوهبها لعبد العزيز أبي ، فورثتها أنا وإخوتي عنه ، فسألتهم أن يبيعوني حصّتهم منها ، فمن بائع وواهب ، حتى استجمعتْ لي ، فرأيتُ أن أردّها على ولد فاطمة . قالوا : فإن أبيتَ إلّا هذا فأمسك الأصل ، واقسم الغلّة ، ففعل .

وأمّا ما ذكره من ترك أمير المؤمنين عليه السلام فدك لما أفضى الأمرُ إليه ؛ واستدلاله بذلك على أنه لم يكن الشاهد فيها ، فالوجه في تركه عليه السلام ردّ فَدَكَ هو الوجه في إقراره

---

(١) الجماء : الملساء . والقرناء : ذات القرن .

أحكامَ القوم وكفَّه عن نقضها وتغييرها، وقد بيّنا ذلك فيما سبق ، وذكرنا أنه كان فى انتهاء الأمر إليه فى بقيّة من التقيّة قويّة .

فأما استدلاله على أنَّ حُجَر أزواج النبيّ صلى الله عليه كانت لهنّ بقوله تعالى : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾(١)، فمن عجيب الاستدلال ، لأنَّ هذه الإضافة لا تقتضى المِلك ، بل العادة جاريةٌ فيها أن تستعمل من جهة السكنى ، ولهذا يقال : هذا بيتُ فلان ومسكنُه ، ولا يراد بذلك المِلك ، وقد قال تعالى : ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنّ من بُيوتهن ولا يخرجْنَ إلاَّ أن يأتينَ بفَاحِشَةٍ مبيّنة ﴾(٢) ، ولا شبهة فى أنه تعالى أراد منازل الرجال التى يُسكِنون فيها زوجاتِهم ، ولم يُرِد بهذه الإضافة الملك .

فأما ما رواه من أن رسول الله صلى الله عليه وآله قسم حُجَره على نسائه وبناته ، فمن أين له إذا كان الخبر صحيحا أنَّ هذه القسمة على وجه التمليك دون الإسكان والإنزال ! ولو كان قد ملَّكهنّ ذلك لوجب أن يكون ظاهرا مشهورا .

فأما الوجه فى ترك أمير المؤمنين لما صار الأمر إليه فى يده منازعة الأزواج فى هذه الُحجر فهو ما تقدّم وتكرّر .

وأما قوله : إنَّ أبا بكر هو الذى صلى على فاطمة وكبّر أربعا ، وإنَّ كثيرا من الفقهاء يستدلُّون به فى التكبير على الميت ـ وهو شىء ما سُمِع إلاَّ منه، وإن كان تلقّاه عن غيره ـ فممّن يجرى مجراه فى العصبيّة ، وإلاَّ فالروايات المشهورة وكتب الآثار والسِّير خالية من ذلك ، ولم يختلفُ أهل النقل فى أن عليّا عليه السلام هو الذى صلى على فاطمة ، إلاَّ رواية نادرة شاذّة وردتْ بأن العباس رحمه الله صلَّى عليها .

وروى الواقدىّ بإسناده فى تاريخه ، عن الزهرىّ ؛ قال : سألت ابن عباس :

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣ . (٢) سورة الطلاق ١ .

متى دفنتم فاطمة عليها السلام ؟ قال : دفنّاها بليل بعد هَدْأة ؛ قال : قلتُ : فمن صلى عليها ؟ قال : علىّ .

ورَوَى الطبرىّ عن الحارث بن أبى أسامة ، عن المدائنىّ ، عن أبى زكريا العجلانىّ أنّ فاطمة عليها السلام عُمِل لها نعش قبل وفاتها ، فنظرتْ إليه ، فقالت : سترتُمونى ستَرَكما الله !

قال أبو جعفر محمد بن جرير : والثبت فى ذلك أنّها زينب ، لأنّ فاطمة دُفنتْ ليلا ، ولم يحضرها إلّا علىّ والعبّاس والمقداد والزبير .

ورَوَى القاضى أبو بكر أحمد بن كامل بإسناده فى تاريخه ، عن الزّهرىّ ؛ قال حدثنى عروة بن الزبير أنّ عائشة أخبرته أنّ فاطمة[1] عاشت بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلم ستة أشهر ، فلما توفيت دفنها علىّ ليلا ، وصلّى عليها ، وذكر فى كتابه هذا أنّ عليّا والحسن والحسين عليهما السلام دفنوها ليلا ، وغيّبوا قبرها .

وروى سُفيان بن عيينة ، عن عمرو بن عبيد ، عن الحسن بن محمد بن الحنفيّة أنّ فاطمة دُفنت ليلا .

وروى عبدُ الله بن أبى شيبة ، عن يحيى بن سعيد القطّان ، عن معمر ، عن الزّهرى مثل ذلك .

وقال البلاذُرِىّ فى تاريخه : إنّ فاطمة عليها السلام لم تُرَ متبسّمة بعد وفاة النبىّ صلّى عليه وآله ، ولم يعلم أبو بكر وعمر بموتها .

والأمر فى هذا أوضح وأشهر من أن نُطنب فى الاستشهاد عليه ، ونذكر الروايات فيه .

---

(١) الشافى : « فاطمة بنت رسول الله » .

فأما قوله : ولا يصحّ أنها دفنتْ ليلا وإن صحّ فقــد دُفن فلان وفلان ليلا ؛ فقد بيّنا أنّ دفنها ليلا فى الصحّة أظهر من الشمس ، وأنّ مُنكر ذلك كالدافــع للمشاهدات ، ولم يجعل دفنها ليلا بمجرده هو الحجّة ليقال : لقد دُفن فلان وفلان ليلا، بل يقع الاحتجاج بذلك على ما وردتْ به الروايات المستفيضة الظاهرة التى هى كالتواتر ؛ أنها أوصت بأن تدفن ليــلا حتى لا يصلى الرجلان عليهــا ، وصرّحت بذلك وعهدتْ فيه عهدا بعد أن كانا [١] استأذنا عليها فى مَرَضها ليعوداها ، فأبتْ أن تأذنَ لهما ، فلما طالت عليهمــا المدافعة رَغِبا إلى أمير المؤمنين عليه السلام فى أن يستأذن لهما ، وجعلاها حاجةً إليه ، وكلّمها عليه السلام فى ذلك ، وألحّ عليها ، فأذنت لهما فى الدخول ، ثم أعرضت عنهما عند دخولهما ولم تــكلّمهما ، فلما خرجا قالت لأمير المؤمنين عليه السلام : هل صنعت ما أردتُ؟ قال : نعم ، قالت : فهل أنت صانع ما آمرك به ؟ قال نعم ، قالت : فإنّى أنشدك الله ألاّ يُصلّيا على جنازتى ،ولا يقوماَ على قبرى!

وروى أنه عَفّى قبرها [٢] وعلّم عليه [٢] ، ورشّ أربعين قبرا فى البقيع ، ولم يرشّ قبرها حتى لا يُهتدى إليه ، وأنهما عاتباه على ترك إعلامهما بشأنها ، وإحضارها الصــلاة عليها ، فمن ها هنا احتججنا بالدّفن ليلا ، ولو كان ليس غير الدفن بالليل من غير ما تقدّم عليه وما تأخرّ عنه ، لم يكن فيه حُجّة .

وأما حكايته عن أبى علىّ إنكار ضرب الرجل لهــا . وقوله : إنّ جعفر بن محمّد وأباه وجدّه كانوا يتولّونهمــا ، فكيف لا ينــكر أبو علىّ ذلك ، واعتقاده فيهما اعتقاده ! وقد كنّا نظنّ أنّ مخالفينــا يقتنعون أن يَنسُبوا إلى أئمّتنا الــكفّ عن القوم ، والإمساك ، ومــا ظننّا أنّهم يَحمِلون أنفسهم على أن يُنسُبوا إليهم الثناء والوَلاء ،

---

(١) ب : « كان » .   (٢ ــ ٢) ساقط من الشافى.

وقد علم كلّ أحد أنّ أصحاب هؤلاء السادة المختصّين بهم ، قد روَوا عنهم ضدّ ما روى شعبة بن الحجّاج وفلان وفلان وقولهم : هما أوّل من ظلمَنا حقّنا ، وحمل الناسَ على رقابنا ، وقولهم : أنّهما أصفيا بإنائنا ، واُضطجعا بسبلنا ، وجلسا مجلسا نحن أحقّ به منهما ، إلى غير ذلك من فنون التظلّم والشّكاية ، وهو طويل متّسع ، ومن أراد اُستقصاء ذلك فلينظر فى كتاب „ المعرفة " لأبى إسحاق إبراهيم بن سعيد الثّقَفىّ ، فإنّه قد ذكر عن رجل من أهل البيت بالأسانيد النيّرة ما لا زيادة عليه ، ثمّ لو صحّ ما ذكره شُعْبة لجاز أن يُحمَل على التقيّة .

وأمّا ذكره إسرافيل وميكائيل ؛ فما كنّا نظنّ أنّ مثله يذكر ذلك ، وهذا من أقوال الغُلاة الذين ضلّوا فى أمير المؤمنين عليه السلام وأهل البيت ، وليسوا من الشّيعة ولا من المسلمين ، فأىّ عيب علينا فيما يقولونه ! ثمّ إن جماعةً من مخالفينا قد غَلَوا فى أبى بكر وعمر ، ورَووْا رواياتٍ مختلفة فيهما تَجرِى مجرى ما ذكره فى الشّناعة ، ولا يلزم العقلاءَ وذَوِى الألباب من المخالفين عيبٌ من ذلك .

وأمّا معارضة ما رُوِى فى فاطمة عليها السلام بما رُوِى فى : « أنّ حبّهما إيمان ، وبغضهما نفاق » ، فالخبر الّذى رويناه مُجمَع عليه ، والخبر الآخرُ مطعونٌ فيه ، فكيف يعارَض ذلك بهذا !

وأمّا قوله : إنّما قصد من يورد هذه الأخبار تضعيفَ دلالة الأعلام فى النفوس ، من حيث أضاف النفاق إلى من شاهدها ؛ فتشنيعٌ فى غير موضعه ، واُستنادٌ إلى ما لا يُجدى نفعا ، لأنّ من شاهد الأعلام لايضعفها ولا يُوهن دليلها . ولا يقدح فى كونها حجّة ، لأنّ الأعلام ليست ملجئة إلى العِلم ، ولا موجبة لحصوله على كلّ حال ، وإنّما تثمر العلم لمن أمعن النّظر فيها من الوجه الّذى تدلّ منه ، فمَنْ عَدَل عن ذلك لسوء اُختياره لا يكون

عدولُه مؤثّرا فى دلالتها ، فكم قد عَدَل من العقلاء وذوى الأحلام الراجحة والألباب الصحيحة عن تأمّل هذه الأعلام وإصابة الحقّ منها ! ولم يكن ذلك عندنا وعند صاحب الكتاب قادحا فى دلالة الأعلام . على أنَّ هذا القول يُوجِب أن ينفى الشكّ والنّفاق عن كلّ من صَحِب النبيّ صلى الله عليه وآله وعاصره وشاهد أعلامه كأبى سفيان وابنه ، وعمرو ابن العاص ، وفلان وفلان ؛ ممّن قد اشتهر نفاقهم وظهر شكّهم فى الدين وارتيابهم باتّفاق بيننا وبينه ؛ وإن كانت إضافة النّفاق إلى هؤلاء لا تقدح فى دلالة الأعلام ، فكذلك القول فى غيرهم .

فأما قوله : إن حديث الإحراق لم يصحّ ، ولو صحّ لساغ لعمر مثل ذلك ؛ فقد بينا أنّ خبر الإحراق قد رواه غير الشيعة .

وقوله : إنه يسوغ مثل ذلك ؛ فكيف يسوغ إحراق بيت علىّ وفاطمة عليهما السلام ! وهل فى ذلك عُذْر يصغَى إليه أو يسمَع ! وإنما يكون علىّ وأصحابُه خارقين للإجماع ومخالفين للمسلمين ؛ لو كان الإجماع قد تقرّر وثبت ، وليس بمتقرّر ولا ثابت مع خلاف علىّ وحده ، فضلا عن أن يوافقه على ذلك غيرُه . وبعد ، فلا فرق بين أنْ يُهدّد بالإحراق لهذه العلّة ، وبين أن يضرب فاطمة عليها السلامُ لمثلها ؛ فإن إحراق المنازل أعظمُ من ضرب سوط أو سوطين ؛ فلا وجه لامتعاض المخالف من حديث الضّرب إذا كان عنده مثل هذا الاعتذار(١) !

* * *

قلت : أمّا الكلامُ فى عِصْمة فاطمة عليها السلام فهو بفنّ الكلام أشبه ، وللقول فيه موضع غير هذا .

وأما قول المرتضى : إذا كانت صادقة لم يبق حاجةٌ إلى مَنْ يشهد لها ؛ فلقائل أن

(١) الشافى ٢٣٥ – ٢٣٦ .

يقول : لم قلت ذلك ؟ ولم زَعمت أنّ الحاجــة إلى البيّنة إنّما كانت لزيادة غَلَبة الظنّ ؟ ولم لا يجوز أنْ يكون الله تعالى يُعبّد بالبيّنة لمصلحة يعلمها ؛ وإن كان المدّعى لا يكذب ! أليس قد تعبّد الله تعالى بالعدّة فى العجوز التى قد أيِست من الحمْل ؛ وإن كان أصل وضعها لاستبراء الرحم !

وأما قصّة خُزيمة بن ثابت ؛ فيجوز أن يكون الله تعالى قد علم أنّ مصلحة المكلّفين فى تلك الصورة أن يكتفى بدعوى النبى صلى الله عليه وآله وحدها ؛ ويستغنى فيها عن الشهادة . ولا يمتنع أن يكون غير تلك الصورة مخالفا لها ، وإن كان المدّعى لا يكذّب . ويبين ذلك أن مذهب المرتضى جواز ظهور خوارق العادات على أيدى الأئمـة والصالحين ؛ ولو قدّرنا أن واحداً من أهل الصلاح والخير ادّعى دعوى ، وقال بحضرة جمـاعة من الناس من جملتهم القاضى : اللهمّ إن كنتُ صادقاً فأظهر علىّ معجزة خارقة للعادة ؛ فظهرتْ عليه ، لعلمنا أنّه صادق ؛ ومع ذلك لا تقبل دعواه إلّا ببيّنة .

وسألت على بن الفارقىّ مدرّس المدرسة الغربية ببغداد ، فقلت له : أكانت فاطمة صادقة ؟ قال : نعم ، قلت : فلم لم يدفع إليها أبو بكر فَدَكَ وهى عنده صادقة ؟ فتبسّم ، ثم قال كلاما لطيفا مستحسنا مع ناموسه وحُرمته وقلّة دعابته ، قال : لو أعطاها اليوم فَدَكَ بمجرّد دعواها لجاءت إليه غداً وادّعت لزوجها الخلافة ، وزحزحته عن مقامه ، ولم يكن يمكنه الاعتذار والموافقة بشىء ؛ لأنه يكون قد أسجل على نفسه أنّها صادقة فيما تدّعى كائنا ما كان من غير حاجة إلى بيّنة ولا شهود ؛ وهذا كلام صحيح ؛ وإن كان أخرجه مخرج الدُّعابة والهزْل .

فأما قول قاضى القضاة: لو كانت فى يدها لكان الظاهر أنها لها ، واعتراض المرتضى عليه بقوله : إنه لم يعتمدْ فى إنكار ذلك على حجّة ، بل قال : لو كانت فى يدها لكان الظاهر أنّها لها ، والأمر على ما قال ؛ فمن أين أنّها لم تخرج عن يدها على وجه ! كما أنّ الظاهر

يقتضي خلافه ؛ فإنه لم يُجِب عمّا ذكره قاضي القضاة ؛ لأنّ معنى قوله: إنها لو كانت في يدها، أي متصرّفة فيها لكانت اليدُ حجّةً في الملكيّة ؛ لأنّ اليدَ والتصرّف حجّة لا محالة ، فلو كانت في يدها تتصرّف فيها وفي ارتفاقها كما يتصرّف الناس في ضياعهم وأملاكهم لما احتاجت إلى الاحتجاج بآية الميراث ولا بِدَعْوى النَّحْل ؛ لأنّ اليد حجّة ، فهلا قالت لأبي بكر : هذه الأرض في يدي ؛ ولا يجوز انتزاعها منّي إلا بحجّة ! وحينئذ كان يسقط احتجاج أبي بكر بقوله : « نحن معاشر الأنبياء لا نورَث» ، لأنّها ما تكون قد ادّعتها ميراثاً ليحتجّ عليها بالخبر . وخبر أبي سعيد في قوله « فأعطاها فَدَكَ » ، يدلُّ على الهبة لا على القبض والتصرّف؛ ولأنه يقال: أعطاني فلان كذا فلم أقبِضْه ، ولو كان الإعطاء هو القبض والتصرّف لكان هذا الكلام متناقضاً .

فأمّا تعجّب المرتضى من قول أبي عليّ : إن دعوى الإرث كانت متقدّمة على دعوَى النَّحْل ، وقوله : إنا لا نعرف له غرضاً في ذلك ، فإنه لا يصح له بذلك مذهب ، ولا يبطل على مخالفيه مذهب ؛ فإن المرتضى لم يقف على مُراد الشيخ أبي عليّ في ذلك ؛ وهذا شيء يرجع إلى أصول الفقه ، فإنّ أصحابنا استدلُّوا على جواز تخصيص الكتاب بخبر الواحد بإجماع الصحابة ؛ لأنهم أجمعوا على تخصيص قوله تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾ [(١)] برواية أبي بكر عن النبي صلى الله عليه وآله : « لا نورث ، ما تركناه صدَقة » ؛ قالوا : والصحيح في الخبر أنّ فاطمة عليها السلام طالبت بعد ذلك بالنَّحْل لا بالميراث ، فلهذا قال الشيخ أبو عليّ : إنّ دعوى الميراث تقدّمت على دَعْوَى النَّحْل ، وذلك لأنه ثبت أنّ فاطمة انصرفت عن ذلك المجلس غير راضية ولا موافقة لأبي بكر؛ فلو كانت دعوى الإرْث متأخّرة، وانصرفت عن سخط لم يثبت الإجماع على تخصيص الكتاب بخبر الواحد ؛ أمّا إذا كانت دعوى الإرث متقدّمة فلمّا روى لها الخبر أمسكت وانتقلت إلى النزاع من جهة أخرى ، فإنه يصحّ حينئذ الاستدلال بالإجماع على تخصيص الكتاب بخبر الواحد .

(١) سورة النساء ١١ .

فأما أنا فإنّ الأخبار عندى متعارضة ، يدلّ بعضها على أنّ دعوى الإرث متأخرة ، ويدلّ بعضها على أنها متقدمة ؛ وأنا فى هذا الموضع متوقّف .

وما ذكره المرتضى من أنّ الحال تقتضى أن تكون البداية بدعوى النّحْل فصحيح ، وأما إخفاء القبر وكتمان الموت وعدم الصلاة وكلّ ما ذكره المرتضى فيه فهو الذى يظهر ويقوى عندى ، لأن الروايات به أكثر وأصحّ من غيرها ، وكذلك القول فى مَوجدتها وغضبها ، فأمّا المنقول عن رجال أهل البيت فإنّه يختلف ، فتارة وتارة ، وعلى كلّ حال فميل أهل البيت إلى ما فيه نصرة أبيهم وبيتهم .

وقد أخلّ قاضى القضاة بلفظة حكاها عن الشيعة فلم يتكلّم عليها وهى لفظة جيدة . قال : قد كان الأجمل أن يمنعهم التكرّم مما ارتكبا منها فضلا عن الدِّين . وهذا الكلام لا جواب عنه ، ولقد كان التكرّم ورعاية حقّ رسول الله صلى الله عليه وآله وحفظ عهده يقتضى أن تعوّض ابنته بشىء يرضيها إن لم يستنزل المسلمون عن فَدَك وتُسلم إليها تطييباً لقلبها . وقد يسوغ للإمام أن يفعل ذلك من غير مشاورة المسلمين إذا رأى المصلحة فيه ، وقد بعد العهد الآن بيننا وبينهم ، ولا نعلم حقيقة ما كان ، وإلى الله ترجع الأمور .

***

الأصْلُ :

وَلَوْ شِئْتُ لَاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ إِلَى مُصَفَّى هَذَا الْعَسَلِ ، وَلُبَابِ هَذَا الْقَمْحِ ، وَنَسَائِجِ هَذَا الْقَزِّ ، وَلَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ ، وَيَقُودَنِي جَشَعِي إِلَى تَخَيُّرِ الْأَطْعِمَةِ — وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أَوْ بِالْيَمَامَةِ مَنْ لَا طَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ ، وَلَا عَهْدَ لَهُ بِالشِّبَعِ — أَوْ أَبِيتَ مِبْطَانًا وَحَوْلِي بُطُونٌ غَرْثَى ، وَأَكْبَادٌ حَرَّى ، أَوْ أَكُون كَمَا قَالَ الْقَائِلُ :

وَحَسْبُكَ عَارًا أَنْ تَبِيتَ بِبِطْنَةٍ ... وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحِنُّ إِلَى الْقِدِّ

أَأَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ : هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ؛ وَلَا أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ ، أَوْ أَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ الْعَيْشِ ! فَمَا خُلِقْتُ لِيَشْغَلَنِي أَكْلُ الطَّيِّبَاتِ ، كَالْبَهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ ؛ هَمُّهَا عَلَفُهَا ، أَوِ الْمُرْسَلَةِ ؛ شُغْلُهَا تَقَمُّمُهَا ، تَكْتَرِشُ مِنْ أَعْلَافِهَا ، وَتَلْهُو عَمَّا يُرَادُ بِهَا ، أَوْ أُتْرَكَ سُدًى ، أَوْ أُهْمَلَ عَابِثاً ، أَوْ أَجُرَّ حَبْلَ الضَّلَالَةِ ، أَوْ أَعْتَسِفَ طَرِيقَ الْمَتَاهَةِ !

***

الشَّرْحُ :

قد روى : « ولو شئت لاهتديت إلى هـذا العسل المصفّى ، ولباب هذا البُرّ المنقّى ؛ فضربت هذا بذاك ؛ حتى ينضج وقودا ، ويستحكم معقودا » .

وروى : « ولعل بالمدينة يتيما تربا يتضوّر سغباً ، أأبيت مِبْطاناً ، وحولى بطونٌ غرثى ، إذن يحضرنى يوم القيامة ، وهم من ذكر وأنثى » .

وروى : « بطونُ غرثى » بإضافة « بطون » إلى « غرثى » .

والقمح : الحنطة .

والجشع : أشدّ الحرْص .

والمبطان : الذى لايزال عظيم البطن من كثرة الأكل . فأما المبطن : فلضامر البطن ؛ وأمّا البطين ، فالعظيم البَطن لا من الأكل ؛ وأما البطِن ، فهو الذى لا يهمّه إلا بطنُه ؛ وأما المبطون فالعليل البَطْن . وبطون غرثى : جائعة ، والبِطْنة : الكِظّة ؛ وذلك أن يمتلئ الإنسان من الطعام امتلاءً شديداً ، وكان يقال : ينبغى للإنسان أن يجعل وعاء بطنه أثلاثا : فثلثٌ للطعام ، وثلث للشراب ، وثلث للنَّفَس .

والتقمّم : أكل الشاة ما بين يديْها بقمّتها أى بشفتها ؛ وكلّ ذى ظِلْف كالثور وغيره فهو ذو مقمّة .

وتكترش من أعلافها : تملأ كرشها من العَلَف .

قوله : « أو أجرّ حبلَ الضلالة » منصوب بالعطف على « يشغلنى » ، وكذلك « أترك » ويقال : أجررتُه رَسَنَه ، إذا أهملته .

والاعتساف : السلوك فى غير طريق واضح .

والتاهة : الأرض يُتاه فيها أى يتحيّر .

وفى قوله : « لو شئت لاهْتَديت » شَبَهٌ من قول عمر : لو نشاء لملأنا هذه الرّحاب من صَلائق وصِناب ؛ وقد ذكرناه فيما تقدّم .

وهذا البيت من أبيات منسوبة إلى حاتم بن عبد الله الطائىّ الجواد ، وأوّلها :

أيا ابنةَ عبد الله وابنةَ مالكٍ ويا ابنةَ ذى الجدّين والفرس الوَرْدِ[(١)]

إذا ما صنعتِ الزادَ فالتمسى له أكيلًا فإنّى لستُ آكلَه وحْدِى

قصيًّا بعيدا أو قريبا فإنّنى أخاف مذمّات الأحاديثِ من بعدى[(٢)]

كفَى بك عارا أن تبيت ببطنةٍ وحولك أكبادٌ تحِنّ إلى القِدّ[(٣)]

وإنى لعبدُ الضيف ما دام نازلًا وما من خِلالِى غيرها شيمة العبد

* * *

---

(١) ديوان الحماسة بشرح المرزوقى ٤ : ١٦٦٨ .

(٢) الحماسة :

* أخاً طارقاً أو جار بيت فإننى *

(٣) لم يرد فى رواية الحماسة .

الأصل :

وَكَأَنِّى بِقَائِلِكُمْ يَقُولُ : إِذَا كَانَ هَـذَا قُوتَ ابْنِ أَبِى طَالِبٍ ، فَقَدْ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ عَنْ قِتَالِ الْأَقْرَانِ ، وَمُنَازَلَةِ الشُّجْعَانِ . أَلَا وَإِنَّ الشَّجَرَةَ(١) الْبَرِّيَّةَ أَصْلَبُ عُودًا ، وَالرَّوَائِعَ(٢) الْخَضِرَةَ أَرَقُّ جُلُودًا ، وَالنَّابِتَاتِ الْعِذْيَةَ أَقْوَى وَقُودًا ، وَأَبْطَأُ خُمُودًا .

وَأَنَا مِنْ رَسُولِ اللهِ كَالضَّوْءِ مِنَ الضَّوْءِ ، وَالذِّرَاعِ مِنَ الْعَضُدِ ؛ وَاللهِ لَوْ تَظَاهَرَتِ الْعَرَبُ عَلَى قِتَالِى لَمَا وَلَّيْتُ عَنْهَا ، وَلَوْ أَمْكَنَتِ الْفُرَصُ(٣) مِنْ رِقَابِهَا لَسَارَعْتُ إِلَيْهَا ، وَسَأَجْهَدُ فِى أَنْ أُطَهِّرَ الْأَرْضَ مِنْ هَذَا الشَّخْصِ الْمَعْكُوسِ ، وَالْجِسْمِ الْمَرْكُوسِ ، حَتَّى تَخْرُجَ الْمَدَرَةُ مِنْ بَيْنِ حَبِّ الْحَصِيدِ .

* * *

الشرح :

الشّجرة البرّيّة : التى تنبت فى البرّ الذى لا ماء فيه ، فهى أصلب عوداً من الشجرة التى تنبت فى الأرض النديّة ، وإليـه وقعت الإشارة بقوله : « والرواتع الخضرة أرقّ جلودا » .

ثم قال : « والنابتات العِذْيَة » التى تنبت عِذْيا ، والعِذْى ، بسكون الذال : الزرع لا يسقيه إلّا ماء المطر ، وهو يكون أقلّ أخذا من الماء من المنبت سقيا ، فال عليه السلام : إنها تـكون أقوى وقودا ممّا يشرب المـاء السائح أو ماء الناضح ، وأبطأ خمودا ؛ وذلك لصلابة جِرْمها .

ثم قال: «وأنا من رسول الله صلى الله عليه وآله كالضوء من الضوء، والذراع من العضد»؛

---

(١) فى د « التربة » .   (٢) فى د « والمراتع » .

(٣) فى ا ، د « الفرصة » .

وذلك لأنّ الضوء الأول يكون علّة فى الضوء الثانى، ألا ترى أنّ الهواء المقابل للشمس يصير مضيئا من الشمس ! فهذا الضَّوء هو الضوء الأول .

ثم إنه يقابل وجه الأرض فيضىء وجهُ الأرض منه ، فالضوء الذى على وجه الأرض هو الضوء الثانى ، وما دام الضوء الأول ضعيفا فالضوء الثانى ضعيف ؛ فإذا ازداد الجوّ إضاءة ازداد وجهُ الأرض إضاءة ، لأنّ المعلول يتّبع العلّة ، فشبّه عليه السلام نفسَه بالضوء الثانى، وشبّه رسولَ الله صلّى الله عليه وآله بالضّوْء الأوّل، وشبّه منبع الأضواء والأنوار سبحانه وجلّت أسماؤه بالشمس الّتى توجب الضوء الأوّل ثم الضوء الأول يوجب الضوء الثانى . وها هنا نكتة ، وهى أنّ الضوء الثانى يكون أيضا علّة لضوء ثالث ؛ وذلك أنّ الضَّوْء الحاصل على وجه الأرض ـ وهو الضوء الثانى ـ إذا أشرق على جدار مقابل ذلك الجدار قريباً منه مكان مظلم ، فإنّ ذلك المكان يصير مضيئا بعد أن كان مظلما ، وإن كان لذلك المكان المظلم باب ، وكان داخل البيت مقابل ذلك الباب جدار كان ذلك الجدار أشدّ إضاءةً من باقى البيت ، ثم ذلك الجدار إن كان فيه ثُقب إلى موضع آخر كان ما يحاذى ذلك البيت أشدّ إضاءةً مما حواليه ، وهكذا لا تزال الأضواء[1] يوجب بعضها بعضا على وجه الانعكاس بطريق العلّيّة ، وبشرط المقابلة ، ولا تزال تضعف درجة درجة إلى أن تضمحلّ ويعود الأمر إلى الظلمة ؛ وهكذا عالم العلوم ؛ والحكم المأخوذة من أمير المؤمنين عليه السلام لا تزال تضعف كما انتقلت من قوم إلى قوم إلى أن يعود الإسلام غريبا كما بدأ بموجب الخبر النبوىّ الوارد فى الصّحاح .

وأما قوله : « والذراع من العَضُد » فلأنّ الذراع فرع على العَضُد ، والعضُد أصل ، ألا ترى أنّه لا يمكن أن يكون ذراع إلا إذا كان عضد ، ويمكن أن يكون عضد لا ذراع له ، ولهذا قال الراجز لولده :

يا بِكْر بِكْرين ويا خِلْبَ الكَبِدْ　　أصبحتَ منّى كذراعٍ من عَضُدْ

(١) كذا فى « د » ؛ ا ، ب : « لا يزال الضوء » .

فشبّه عليه السلام بالنسبة إلى رسول الله صلى عليه وآله بالذّراع الذى العضد أصله وأسّه والمراد من هذا التشبيه الإبانة عن شدّة الامتزاج والاتّحاد والقرب بينهما ؛ فإنّ الضوء الثانى شبيه بالضَّوْء الأوّل، والذراع متّصل بالعَضُد اتصالا بيّنا ؛ وهذه المنزلة قد أعطاه إياها رسول الله صـــلى الله عليه وآله فى مقـامات كثيرة نحو قوله فى قصة براءة : « قد أمرت أن لا يؤدّى عنّى إلا أنا أو رجل منّى » ، وقوله : « لتنتهنّ يا بنى وَلِيعة ، أو لأبعثنّ إليـكم رجلًا منّى » ، أو قال : « عديل نفسى » ، وقد سمّاه الـكتاب العزيز « نفسه » فقال: ﴿ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ﴾[1]، وقد قال له : « لحمك مختلط بلحمى، ودمك مسُوط بدمى ، وشبرك وشبرى واحد » .

فإن قات : أمّا قوله: « لو تظاهرت العرب علىّ لما وليت عنها »، فمعلوم ، فما الفائدة فى قوله : « ولو أمكنت الفرصة من رقابها لسارعت[2] إليها » ؟ وهل هذا مما يفخر به الرؤساء ويعدونه منقبة؛ وإنما المنقبة أن لو أمكنته الفرصة تجاوز وعفا!

قات : غرضه أن يقرّر فى نفوس أصحابه وغيرهم من العرب أنه يحارب على حقّ ، وأنّ حربه لأهل الشام كالجهاد أيام رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنّ من يجاهد الـكفّار يجب عليه أن يُغْلِظ عليهم ، ويستأصل شأفتهم ، ألا ترى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لمـا جاهد بنى قُريظة وظفِر لم يبق ولم يَعْف ، وحصد فى يوم واحد رقابَ ألف إنسان صَبْراً فى مقام واحد ، لما علم فى ذلك من إعزاز الدين وإذلال المشركين ، فالعفو له مقام والانتقام له مقـــام .

قوله : « وسأجهد فى أن أطهّر الأرض » ، الإشارة فى هذا إلى معاوية ، سمّاه شخصا معكوسا ، وجسما مركوسا ، والمراد انعـكاس عقيدته ، وأنها ليست عقيدة هدًى ، بل هى معاكسة للحقّ والصواب ، وسمّاه مركوسا من قولهم : ارتـكسَ فى الضلال ، والرّكس

(١) سورة آل عمران ٦١ . (٢) د « لأسرعت » .

ردّ الشيء مقلوبا ، قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ﴾(١) أى قلبهم وردّهم إلى كفرهم ، فلما كان تاركاً للفطوة التى كلّ مولود يُولد عليها ، كان مرتكسا فى ضلاله ، وأصحاب التناسخ يفسّرون هذابتفسير آخر ،قالوا : الحيوانعلى ضربين : منتصب ومنحنٍ ، فالمنتصب الإنسان ، والمنحنى ما كان رأسه منكوسا إلى جهة الأرض كالبهائم والسباع .

قالوا : وإلى ذلك وقعت الإشارة بقوله : ﴿ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾(٢) .

قالوا : فأصحاب الشقاوة تنتقل أنفسهم عند الموت إلى الحيوان المكبوب ، وأصحاب السعادة تنتقل أنفسهم إلى الحيوان المنتصِب ، ولما كان معاوية عنده عليه السلام من أهل الشّقاوة ، سماه معكوسا ومركوسا رمزا إلى هذا المعنى .

قوله : « حتى تخرج المدرة من بين حبّ الحصيد » ، أى حتى يتطهّر الدين وأهله منه وذلك لأنّ الزُّرّاع يجتهدون فى إخراج المدَر والحجر والشوْك والعوْسج ونحو ذلك من بين الزرع كى تفسد منابته . فيفسد الحبّ الذى يخرج منه ، فشبّه معاوية بالمدَر ونحوه من مُفسِدات الحبّ ، وشبّة الدّين بالحبّ الذى هو ثمرة الزرع .

* * *

الشّرح :

ومن هذا الكتاب وهو آخره :

إِلَيْكِ عَنّى يا دُنْيا ، فَحَبْلُكِ على غارِبكِ ، قد انْسَلَلْتُ مِنْ مَخالِبك ، وأفْلَتُّ مِنْ حَبائِلِكِ ، وَاجْتَنَبْتُ الذّهابَ فى مَدَاحِضِكِ

---

(١) سورة النساء ٨٨ . (٢) سورة الملك ٢٢ .

أَيْنَ الْقُرُونُ الَّذِينَ غَرَرْتِهِمْ بِمَدَاعِبِكِ ! أَيْنَ الْأُمَمُ الَّذِينَ فَتَنْتِهِمْ بِزَخَارِفِكِ ! فَهَا هُمْ رَهَائِنُ الْقُبُورِ ، وَمَضَامِينُ اللُّحُودِ .

وَاللهِ لَوْ كُنْتِ شَخْصاً مَرْئِيّاً ، وَقَالَباً حِسِّيّاً ، لَأَقَمْتُ عَلَيْكِ حُدُودَ اللهِ فِي عِبَادٍ غَرَرْتِيهِمْ بِالْأَمَانِيِّ ، وَأُمَمٍ أَلْقَيْتِيهِمْ فِي الْمَهَاوِي ، وَمُلُوكٍ أَسْلَمْتِهِمْ إِلَى التَّلَفِ ، وَأَوْرَدْتِيهِمْ مَوَارِدَ الْبَلَاءِ ، إِذْ لَا وِرْدَ وَلَا صَدَرَ !

هَيْهَاتَ ! مَنْ وَطِئَ دَحْضَكِ زَلِقَ ، وَمَنْ رَكِبَ لُجَجَكِ غَرِقَ ، وَمَنِ ازْوَرَّ عَنْ حَبَائِلِكِ وُفِّقَ ، وَالسَّالِمُ مِنْكِ لَا يُبَالِي إِنْ ضَاقَ بِهِ مُنَاخُهُ ؛ وَالدُّنْيَا عِنْدَهُ كَيَوْمٍ حَانَ انْسِلَاخُهُ .

***

الشرح :

إليكِ عنّى ، أى ابعدى . وحبلُك على غاربك ، كناية من كنايات الطلاق ، أى اذهبي حيث شئت ، لأنّ الناقة إذا ألقى حبلها على غاربها فقد فسح لها أن ترعى حيث شاءت ، وتذهب أين شاءت ، لأنه إنما يردّها زمامها ، فإذا ألقى حبلها على غاربها فقد أهملت .

والغارب : ما بين السَّنام والعُنق . والمداحض : المزالق .

وقيل : إن فى النسخة التى بخط الرضىّ رضى الله عنه « غررتيهم » بالياء ، وكذلك « فتنتيهم » ، و « ألقيتيهم » ، و « أسلمتيهم » ، و « أوردتيهم » ، والأحسن حذف الياء ، وإذا كانت الرواية وردت بها فهى من إشباع الكسرة كقوله :

ألم يأتيك والأنباء تنمِى بما فعلت لَبُونُ بنى زيادِ

ومضامين اللحود ، أى الذين تضمنتهم ، وفى الحديث نهى عن بيع المضامين والملاقيح ، وهى ما فى أصلاب الفحول وبطون الإناث .

ثم قال : لو كنتِ أيتها الدنيا إنسانا محسوسا ، كالواحد من البَشَر ، لأقمتُ عليك الحدّ كما فعلتِ بالناس .

ثم شرح أفعالها فقال: منهم مَنْ غررتِ ، ومنهم من ألقيتِ فى مهاوى الضلال والكفر، ومنهم من أتلفتِ وأهلكتِ .

ثم قال : ومن وطئ دَحْضك زلق ، مكان دَحْض أى مزلة .

ثم قال : لا يبالى مَنْ سلم منك إن ضاق مناخه ، لا يبالى بالفقر ، ولا بالمرض ولا بالحبوس والسجون وغير ذلك من أنواع المحن ! لأن هذا كله حقير لا اعتداد به فى جَنْب السلامة من فتنة الدنيا .

قال : والدّنيا عند من قد سَلِم منها كيوم قرب انقضاؤه وفناؤه

***

الأصْلُ :

اعْزُبِى عَنِّى ! فَوَاللهِ لَا أَذِلُّ لَكِ فَتَسْتَذِلِّينِى ، وَلَا أَسْلَسُ لَكِ فَتَقُودِينِى . وَايْمُ اللهِ يَمِيناً أَسْتَثْنِى فِيهَا بِمَشِيئَةِ اللهِ ، لَأَرُوضَنَّ نَفْسِى رِيَاضَةً تَهِشُّ مَعَهَا إِلَى الْقُرْصِ إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهِ مَطْعُوماً ، وَتَقْنَعُ بِالْمِلْحِ مَأْدُوماً ؛ وَلَأَدَعَنَّ مُقْلَتِى كَعَيْنِ مَاءٍ نَضَبَ مَعِينُهَا، مُسْتَفْرِغَةً دُمُوعَهَا . أَتَمْتَلِئُ السَّائِمَةُ مِنْ رِعْيِهَا فَتَبْرُكَ ، وَتَشْبَعُ الرَّبِيضَةُ مِنْ عُشْبِهَا فَتَرْبِضَ ، وَيَأْكُلُ عَلِيٌّ مِنْ زَادِهِ فَيَهْجَعُ !

قَرَّتْ إِذًا عَيْنُهُ إِذَا اقْتَدَى بَعْدَ السِّنِينَ الْمُتَطَاوِلَةِ بِالْبَهِيمَةِ الْهَامِلَةِ ، وَالسَّائِمَةِ الْمَرْعِيَّةِ !

طُوبَى لِنَفْسٍ أَدَّتْ إِلَى رَبِّهَا فَرْضَهَا ، وَعَرَكَتْ بِجَنْبِهَا بُؤْسَهَا ، وَهَجَرَتْ فِى

اللَّيْلِ غُمْضَها ، حَتَّى إذا غَلَبَ الْكَرَى عَلَيْها افْتَرَشَتْ أَرْضَها ، وتَوَسَّدَتْ كَفَّها .

فِى مَعْشَرٍ أَسْهَرَ عُيُونَهُمْ خَوْفُ مَعَادِهِمْ ، وَتَجَافَتْ عَنْ مَضَاجِعِهِمْ جُنُوبُهُمْ ، وهَمْهَمَتْ بِذِكْرِ رَبِّهِمْ شِفاهُهُمْ ، وتَقَشَّعَتْ بِطُولِ اسْتِغْفارِهِمْ ذُنُوبُهُمْ ، ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلا إنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

فاتَّقِ اللهَ يابْنَ حُنَيْفٍ ولْتَكْفُفْ أَقْرَاصُكَ ؛ لِيَكُونَ مِنَ النَّارِ خَلَاصُكَ .

***

الشَّرْحُ :

اعزبى : ابعدى ، يقال عزَب الرجل بالفتح ، أى بَعُد . ولا أسلَس لك بفتح اللام ، أى لا أنقاد لك ، سلِس الرجل بالكسر يسلَس فهو بيّن السّلس ، أى سهل قياده .

ثم حلف ، واستثنى بالمشيئة أدبا كما أدّب الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله ليروضنّ نفسه أى يدرّبها بالجوع ، والجوع هو أصل الرياضة عند الحكماء وأرباب الطريقة .

قال : « حتى أهشّ إلى القُرْص » ، أى إلى الرغيف وأقنع من الإدام بالملح .

ونصب معينها : فنى ماؤها .

ثم أنكر على نفسه فقال : أتشبع السائمة من رِعْيها ـ بكسر الراء ، وهو الكلأ ـ والربيضة ـ جماعة من الغنم أو البقر تربض فى أماكنها . وأنا أيضا مثلها أشبع وأنام !

لقد قرت عينى إذاً حيث[1] أشابه البهائم بعد الجهاد والسبق والعبادة والعلم والجدّ فى السنين المتطاولة .

قوله :« وعركت بجنبها بؤسها »، أى صبرت على بؤسها ، والمشقة التى تنالها . يقال: قد عرك فلان بجنبه الأذى أى أغضى عنه ، وصبر عليه .

(١) ل د « إذ » .

قوله : « افترشت أرضها » أى لم يكن لها فراش إلا الأرض .

« وتوسّدت كفّها » ، لم يكن لها وسادة إلا الكفّ .

« وتجافت عن مضاجعهم جنوبهم » لفظ الكتاب العزيز ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهم عن المضاجع ﴾[1] .

وهمهمت : تكلّمت كلاما خفيا .

وتقشعت ذنوبهم : زالت وذهبت كما يتقشع السحاب .

قوله : « ولتكفف أقراصك » ، إنما هو نهىٌ لابن حُنيف أن يكفّ عن الأقراص ، وإن كان اللفظ يقتضى أن تكفّ الأقراص عن ابن حُنيف . وقد رواها قوم بالنصب ، قالوا : « فاتق الله يا ابنَ حنيف ولتكفف أقراصُك ، لترجو بها من النار خلاصك » ، والتاء هاهنا للأمر عوض الياء ، وهى لغة لا بأس بها ، وقد قيل : إن رسول الله صلّى الله عليه وآله قرأ : ﴿ فبذلك فَلْتَفْرَحوا ﴾[2] ، بالتاء .

تم الجزء السادس عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد .

ويليه الجزء السابع عشر

---

(١) سورة السجدة ١٦ . (٢) سورة يونس ٥٨ .

فهرس الخطب *

* وهى الخطب التى وردت فى نهج البلاغة .

فهرس الموضوعات

* وهى الموضوعات التى وردت فى شرح نهج البلاغة .